آداب النفس

للعالم العارف الحكيم الكامل السيد محمد العيناتي

من اعلام القرن الحادي عشر

عنيت بنشره

المكتبة المرتضوية

طهران - بين الحرمين

2267
0764
.311

2267.0764.311
al-'Aynāthī
Adāb al-nafs

DATE | ISSUED TO

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 073542910

al-'Aynāthī, Muḥammad

Ādāb al-nafs

آداب النفس

للعارف العالم الحكيم الكامل السيد محمد العيناثي

من اعلام القرن الحادي عشر

حققه وصححه

السيد كاظم الموسوي المياموي

عُنيت بنشره

المكتبة المرتضوية

طهران - بين الحرمين

رقم التليفون - ٥٧١٣٥

الجزء الأول

١٣٨٠ ه

چاپخانه حیدری

2267
.0764
.311

هذا هو الجزء الأوّل من الكتاب

حسب تجزئتنا . والله الموفّق لإتمامه

تصدير بقلم سماحة العلامة الجليل السيد
محمد على القاضى الطباطبائى التبريزى

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد والمجد

هذا الكتاب الّذي بين يدي القارىء الكريم كتاب قيّم ممتّع كان من مخطوطات مكتبتنا بتبريز ، و كان يختلج في خلدي منذ زمن بعيد أن يبرز هذا الأثر الخالد إلى عالم العلم والأدب ، حبّاً لبثّ العلم ونشر المعارف ، ولما في هذا الكتاب من متعة النفس و حياة الروح ، وباقات الفكر ، ومختلف أزهار العلوم ، وسعادة الإنسان . ولما فيه من الهداية إلى تهذيب النّفوس والإيمان بالخالق ، و الاعتقاد بالخلود في عالم آخر . وحقّاً أنّ فيه (أدب النفس) وتغذية الروح ، وتقوية القوّة العاقلة ، وتحلية الباطن بالأوصاف الحميدة ، وتصقيل الذهن بالعقل الناضج الراجح ، والنقل الثابت الصحيح ، والكلمات النيّرة ، والحِكم الصادرة عن أرباب العلم والحكمة .

ولكن عاقت العوائق بيني و بين تلك الأُمنيّة (والأُمور مرهونة بأوقاتها) منذ سنين ، وأمّا الآن فقد أرى نفسي واجدة ضالّتها المنشودة ، وبغيتها المأمولة ، لأنّ الله تعالى قيّض الشيخ المؤيّد المسدّد الصالح الحاجّ الشيخ عبد الكريم التبريزيّ صاحب مكتبة (المرتضويّ) بطهران لطبع هذا الأثر النفيس ونشره .

والتمس ـ وفّقه الله تعالى ـ من هذا العبد كتابة تصدير لهذا الكتاب يحتوي على ترجمة مؤلّفه و مرسمه ، و كنت قبل عدّة سنين كتبت مقالاً حول هذا الكتاب و مؤلّفه ، نشره العلاّمة العارف في مجلّة (العرفان) الأغرّ الّتي تصدر في صيدا (لبنان) . و وقع ذلك المقال عند الأُدباء والفضلاء موقع القبول واعتنوا به ، و كتبوا حول مقالي في صفحات (العرفان) ثمّ كتبت مقالاً آخر في هذا الموضوع نشر في (العرفان) أيضاً ، فأرى أنّ

الأولى نقل خلاصة تلك المقالات والكلمات في هذا التصدير ؛ فإنّها وافية بالغرض ، مع زيادات ومزايا نافعة كافية في المقصود . والله المستعان .

في المجلّد ٣٧ من مجلّة (العرفان) عدد ٣ ص ٣١٧ لسنة ١٣٦٩ هـ ق :

السيد محمد العيناثي العاملي وكتابه أدب النفس

ليس في وسعي أن أحوم حول ترجمة هذا السيّد الفذّ الحكيم ، فإنّ من العسير عليّ أن أتحدّث عن صفحة تاريخ مطويّة من كتاب شرف زاخر ومجد غابر و حياة ثمينة لم نطّلع منها إلّا على نزر يسير في غاية الإجمال و الاختصار ، فإنّ المترجمين له في كتبهم التاريخيّة الرجاليّة كصاحب أمل الآمل والروضات اقتصروا على ترجمة غير وافية بالغرض فلا تعرف له حياة مفصّلة ، ولذلك كلّ القلم ووقف ، وصرت متفكّراً حتّى قلت لنفسي : «دعي البحث والتنقيب و التجوال في هذا المقال ، وافسحي لغيرك المجال » ولكن الّذي بعثني على تنسيق هذه المقالة وترصيف هذه الألفاظ و نضدها هو الإشارة إلى مواضيع كتابه النفيس (أدب النفس) الموجود نسخته عندي ، و الإشادة بفهرس مطالبه الممتّعة :

فإليك أيّها القارىء الكريم أتحدّث تعريفاً إجماليّاً عن هذا السيّد الكبير و هو السيّد محمّد بن محمّد بن حسن الشهير بـ(ابن القاسم) الحسينيّ العيناثيّ العامليّ ، من أعاظم علماء الإماميّة ، وله المكانة العلميّة والأدبيّة و الثقافة العالية و العبقريّة الفذّة في العلوم الدينيّة من معقولها ومنقولها ، وهو في رهط كبير من علمائنا الّذين قاموا بالزعامة و الإرشاد للعباد ، والإلمام بالعلوم و الوعظ و التبليغ في البلاد ، ومن الجهابذة الّذين يفخر بهم (جبل عامل) منذ سنين إلى اليوم . فهل تنسى الشيعة الإماميّة أمثال الشهيدين الأوّل و الثاني ، والمحقّق الكركيّ ، والشيخ البهائيّ ، ووالده العالم الكبير ، والمحقّق صاحب المدارك . انظر إلى كتاب أمل الآمل للمحدّث الحرّ العامليّ وطالع ترجمة جمع كثير من أمثال هؤلاء الجهابذة الأعلام تجد صدق ماقلناه .

وهذا السيّد المترجم له كانت أمّ أمّه بنت الشيخ الإمام (الشهيد الثاني) و هو من رجال العلم والدين الّذين هاجروا من أرض جبل عامل إلى (إيران) محطّ رجال الشيعة ودار هجرتهم . و قطن رحمه الله في المشهد المقدّس الرضويّ ، و صنّف كتباً قيّمة و آثاراً

خالدة منها كتاب (الاثنا عشريّة في المواعظ العدديّة) المطبوع في إيران تكراراً على الحجر [1]، المشحون بالمواعظ والحكم والآثار واللآلىء الثمينة ، وهو الكتاب الّذي قال في حقّه صاحب روضات الجنّات على عادته المعروفة بالعبارات المسجّعة : « يستفاد من كتابه المذكور كونه متبحّراً جامعاً ، ومتتبّعاً بارعاً ، ومتديّناً صالحاً ، و متعبّداً سابحاً وفقيهاً عرفانيّاً ، وحكيماً إيمانيّاً ، وشاعراً عفيفاً ، وأديباً عريفاً » الخ .

وصرّح في كتابه الاثني عشريّة أنّه اشتغل بطلب العلم في مبادىء عشر الأربعين بعد الألف و فرغ من تأليف كتابه المذكور سنة ١٠٤٨ هـ في المشهد الرضويّ .

ومن مؤلّفاته كتاب (أدب النفس) وعندنا نسخة منه بخطّ كاتب مسمّى بـ(محمّد رحيم بن عبد الله) فرغ من كتابته في شهر ربيع الأوّل سنة ١٠٨٨ هـ ، وفرغ المصنّف من تأليفه في المشهد المقدّس الرضويّ في شهر ربيع الأوّل سنة ١٠٧٨ هـ ، وكانت النسخة من متملّكات السيّد المصنّف ، وفي ظهرها وهامشها خطّه ونقش خاتمه الشريف ، وفرغ رحمه الله من تصحيحها و مقابلتها في أوائل شهر رجب سنة ١٠٨٨ هـ .

و هذا الكتاب قد احتوى من علم النفس على المطالب العالية و الأفكار الدقيقة المبتكرة ، وملمّع بكلمات العلماء والحكماء و العرفاء ، وقد جمع بين دفّتيه مطالب فلسفيّة في الحياة الإنسانيّة ، و التحوّلات الروحيّة . و ذكر من حكايات السلف شيئاً كثيراً ، ومن أقاصيصهم الطريفة شطراً وافراً .

وهذا الكتاب تنبىء عن سموّ الفكرة وحرّيّة الرأي ، والتفكير المنطقيّ في مصنّفه الحبر الخبير و هو برهان سديد على نظريّاته الفلسفيّة ، و مرتبته السامية في الحكمة العمليّة ، و علمه المتدفّق بدقائق مظاهر الاجتماع ، و كونه وحيداً في فكره وعلمه وعمله . وقصارى القول أنّه كتاب دينيّ فلسفيّ اجتماعيّ عمليّ أخلاقيّ ، مصنّف على طريقة السلف ، ومشى مصنّفه فيه مشياً متوسّطاً في حسن التعبير و سلاسة التحرير خالياً عن الجمود و التعقيد وقد رتّبه على مقدّمة وفصول وخاتمة .

وابتدأ في خاتمة الكتاب خطاب الشاكّين في أمر النفس ، المتحيّرين في اختلاف

---

(١) وأخيراً طبعاً حروفياً سنة ١٣٧٦ هـ بقم المصحح .

أقاويل العلماء ، ثمّ نقل فيها رسالة معرفة النفس لرئيس حكماء الإسلام الشيخ أبي علي ابن سينا قدّس سرّه بتمامها ، و قال : « إنّ فصول هذه الرسالة الّتي صنّفها الرئيس أبو علي رحمه الله قد ذكرها مجملة صاحب إخوان الصفاء ، وذكرتها فيما سبق قبل هذه الرسالة إلّا أنّ هذه مفصّلة أحسن تفصيل وأبهى تمثيل فلهذا كرّرت في هذه الخاتمة » .

وذكر في الكتاب - وهو بين يدي القارىء العزيز - من أشعاره الرائقة ، ولم أقف[1] على نسخة من هذا الكتاب القيّم غير هذه النسخة الموجودة في مكتبتنا الشخصيّة في تبريز (آذربيجان) وطالعتها بلذّة وإعجاب ، وأظنّها من المخطوطات الباقية من زمن جدّنا العالم الربّاني آية الله الحاج ميرزا مهدي القاضي الكبير قدّس سرّه .

ويوجد في هوامشها خطّ عمّنا العلّامة المتبحّر المحيط بالمعقول و المنقول الحاج ميرزه محمود شيخ الإسلام الطباطبائي قدّس سرّه ، صاحب غاية الآملين المخطوط .

وبالرغم من فضل التتبّع لم أقف على تاريخ وفاة هذا السيّد الحبر رحمه الله فالمرجوّ من سماحة الأساتيذ أن يتفضّلوا علينا بواسطة (العرفان) الغرّاء بتأريخ وفاة هذا السيّد الكبير إذ اتّفق العثور لهم على ذلك ، و نرجو منهم التفضّل أيضاً ببيان أنّهم هل وقفوا على نسخة من هذا الكتاب النفيس أم لا ؟ و إنّا لهم من الشاكرين ، و لفضلهم و معلوماتهم القيّمة من المقدّرين .

ثمّ في أثر هذا المقال ونشره في (العرفان) جاء في عدد ٤ من المجلّد ٣٧ ص ٤٦٣ لسنة ١٣٦٩ مايلي :

السؤال و الجواب

محمد نصر الله - كلية المقاصد - صيدا

السيّد محمّد العيناثي ومؤلّفاته :

سيّدي الأستاذ العلّامة صاحب العرفان ! تحيّة طيّبة .

س : قرأت في العدد الثالث من مجلّة (العرفان) مقالاً بقلم السيّد محمّد علي القاضي

---

(١) وقد وقفنا على نسخة اخرى ، وهي النسخة (ر) . انظر كلمتنا . المصحح .

الطباطبائيّ عن السيد محمّد العينائيّ العامليّ وكتابه (أدب النفس) . وبهذا الصدد ورد لي منذ أشهر تحرير من والدي المهاجر السيّد حسين نصرالله الحسينيّ و به يسألني أن أُفتّش عن الكتب الآتية للمؤلّف المذكور وهو أحد أجدادنا : أدب النفس ، أحوال العلماء أحوال الزعماء ، أمل الآمل ، الاثنا عشريّة في المواعظ العدديّة . وقد كتبت إلى العراق لبعض المكاتب ولمّا يأت الجواب . فإنّي أرجو كم سيّدي الأستاذ إن كنتم تعلمون شيئاً عن وجود هذه الكتب المذكورة أن تتفضّلوا علينا بالجواب على صفحات العرفان ، ودمتم للعلم كنزاً لايُنضب .

ج : أدب النفس مخطوط ولم نعرف وجوده إلّا في إيران عند العلّامة الطباطبائيّ . أمّا «أحوال العلماء ، أحوال الزعماء» فالظاهر أنّ والدكم يقصد به « الوضع الحاضر في جبل عامل » تأليف الشيخ محمّد جواد مغنيّة ، و «أمل الآمل » للشيخ الحرّ العامليّ مطبوع مع رجال الميرزا محمّد طبعاً حجريّاً في إيران ، ولم نعلم أنّه طبع على حدة ، و « الاثنا عشريّة في المواعظ العدديّة » للسيّد محمّد العينائيّ وهي أيضاً مطبوعة طبعاً حجريّاً في إيران بحجم كبير ، ويوجد منها نسخة واحدة عند البعض برسم البيع .

و كتب الشيخ محمّد رضا شمس الدّين العامليّ في مجلّة (العرفان) عدد ١ من المجلّد ٣٨ ص ٩٧ حول مقالي مايلي :

سيدي العارف . . .

تحيّة الإجلال والتبجيل من معجب بعلمك وأدبك وجهادك ، الداعي إلى عرفانك الأغرّ ومدرستنا الكبرى ، و كيف ونحن منها وهي منّا .

في المجلّد ٣٧ من مجلّة العرفان الغرّاء كتب السيّد محمّد عليّ القاضي الطباطبائيّ عن السيّد محمّد العينائيّ وعن كتابه « أدب النفس » وقد أجاد في الكتابة بما اختاره ، و التوضيح والبيان لما كتبه ... تصدّى في الكتابة عن « أدب النفس » و التعريف به لا ترجمة مؤلّفه وبيان أحواله إلّا ما جاء استطراداً من النزر القليل . لذا طلب ممّن له معرفة واطّلاع على حياته الكتابة فيه والنشر عنه ...

ونزولاً على رغبة هذا السيّد القاضي وخدمة الحقيقة والتاريخ أُقدّم ـ ممّا جمعته من تراجم العلماء ـ صفحات مطويّة في أحوال السيّد محمّد العيناثيّ و بيان مؤلّفاته زيادة على ماذكره السيّد القاضي الطباطبائيّ وإليك ذلك :

الف : السيّد محمّد هو محمّدبن محمّدبن حسن الشهير بابن القاسم الحسينيّ ، هذا وجد بخطّه الشريف ، وفي بعض التراجم : محمّدبن محمّدبن قاسم ، وبعضها : محمّدبن الحسن بن القاسم الجزينيّ العيناثيّ . والأوّل أصحّ ...

ب : يدلّ من نسبته إلى «جزين» أنّه تولّد فيها أوسكنها ، أو أنّ أحد أجداده منها ، و كذا نسبته إلى « عيناثا» ولم يعلم شيء من ذلك على التحقيق ولاأحد من مترجميه تعرّض له ، و جزين و عيناثا (المذكورتان) قريتان من قرى جبل عامل و مدارسها العلميّة ....

ج : و للسيّد محمّد العيناثيّ عدّة كتب جليلة ـ غير الاثني عشريّة و أدب النفس ـ منها :

١ ـ حدائق الأبرار و حقائق الأخبار ، قال على هامش الأمل : «وهو عندنا بخطّ المؤلّف و تاريخ كتابتها يوم الاثنين ٣ صفر سنة ١٠٨١ » و قال شيخنا آغا بزرك في الجزء السادس من « الذريعة » : و ينقل عنه حسين القزوينيّ شيخ السيّد بحر العلوم في كتاب معارجه حكاية كرامة الشهيدالأوّل ، وينقل عنه أيضاً الشيخ درويش عليّ البغداديّ المتوفّى سنة ١٢٧٧ هـ في كتابه « معين الواعظين » فيدلّ على وجوده إلى حوالي التاريخ المذكور لكن أين مقرّه اليوم ؟ ...

٢ ـ مجموعة في العلم والأدب ، قال شيخنا آغا بزرك : « وجدتها بإيران في مكتبة السيّد جلال الدين المحدّث وابتدأ بجمعها من جمادى الأولى سنة ١٠٥٩ هـ » ذكر ذلك في كتابه « الروضة النضرة في علماء عشرة » الّذي لم يخرج بعد إلى عالم الطبع .

٣ ـ منتخب الاثني عشريّة ، وهو الأصل في الترتيب والتبويب ألّفه بالتماس بعض أصحابه ، قال شيخنا آغا بزرك في كتابه « الذريعة » : وجدته في مكتبة المولى محمّد عليّ الخوانساريّ في النجف الأشرف .

٤ ـ كتاب فوائد العلماء و فرائد الحكماء ، ويظهر عن روضات الجنّات أنّهما كتابان لا كتاب واحد .

٥ ـ كتاب المنظوم الفصيح و المنثور الصحيح ، أشار إليه في أمل الآمل و غيره .

د : وللسيّد محمّد العيناثيّ (المترجم) إجازة منه إلى الشيخ زين الدين عليّ بن إسماعيل العامليّ [1] يظهر من تاريخها سنة ١٠٥٢ هـ توجد بخطّه في مكتبة السيّد هبة الدين الشهرستانيّ ببغداد ، كما ذكره شيخنا في « الروضة » .

هـ : ذكر في أمل الآمل في ترجمة السيّد حسين بن السيّد محمّد « صاحب المدارك » المتوفّى سنة ١٠١٩ هـ الّذي كان شيخ الإسلام في خراسان و المدرّس الأكبر فيها أنّ مادحيه بقصيدة الشيخ إبراهيم البازوريّ العامليّ ، و منهم السيّد محمّد بن محمّد العيناثيّ العامليّ ، فيقوى من هذا ومن كون الممدوح شيخ المدرّسين في خراسان ، و وجود المادح في عصره ، والخؤولة بينهما الّتي ستسمعها أنّه قرأ عنده وتلمّذ عليه .

و : احتمل شيخنا البحّاثة آغا بزرك أن يكون السيّد محمّد صاحب المدارك خال السيّد محمّد العيناثيّ (المترجم) وولده السيّد حسين ـ الممدوح المتقدّم ـ ابن خاله لأنّ أمّ صاحب المدارك بنت الشهيد الثاني وأمّ أمّ السيد محمّد العيناثيّ بنت الشهيد الثاني كما قاله الحرّ في أمل الآمل .

ز : ومن جملة شعر السيّد محمّد العيناثيّ المذكور في أمل الآمل قوله من قصيدة :

لله أيّامي بأكناف الحمى * والدهر طلق المجتنى عذب الجنا
إذ سرني و صبوتي ما فنيت * في فتيات الحيّ ميلاً و هوى
من كلّ نجلاء اللحاظ غادة * ترمي حواليك بأحداق المها
و كلّ هيفاء تريك إذ بدت * قضيب بان فوقه شمس ضحى

ح : ذكر المترجم في كتابه « الاثنا عشريّة » في باب الانزواء أنّه ابتدأ بطلب العلم

(١) لولا هذه الاجازة لذهب الزمن باسم هذا العالم الكبير كما يظهر من الالقاب العالية التي منحها المجيز (المترجم) ماهذا لفظه : « الشيخ العالم الفاضل الفقيه الكامل المحقق المدقق الحاج للحرمين زين الملة والحق والدين » وهو من معاصري صاحب الامل ولم يذكره فيه .

أوائل سنة ١٠٤٠ هـ . وذكرت في حقيبتي في التاريخ و الأدب أنّه توفّي سنة ١٠٨٥ هـ ولا أعلم من أين نقلته على التحقيق والله أعلم بالصواب .

النجف - محمدرضا شمس الدين

و كتب الأديب الفاضل الشيخ عليّ الزين في مجلّة العرفان المجلّد ٣٨ عدد ٢ ص٢٢٠ خطاباً لهذا العبد كمايلي :

الى القاضى الطباطبائى

حضرة الأستاذ الفاضل السيّد محمّد عليّ القاضي الطباطبائيّ تحيّة واحترام . وبعد قرأنا في العام الماضي كلمتكم الممتّعة عن السيّد محمّد العيناثيّ العامليّ و عن كتابه (أدب النفس) و كنّا نتوقّع منكم أن تنشروا شيئاً من محتويات هذا الكتاب و أبحاثه اللاّئقة للنشر ، فلم تحقّقوا لنا شيئاً من هذا الحلم اللّذيذ حتّى اليوم .

لهذا أرجو - وقد ذكرتم أنّ في هذا الكتاب أشعاراً رائقة للمؤلّف - أن تنشروا ما يصحّ أويحسن نشره من هذه الأشعار على اختلاف مواضيعها وأغراضها الّتي نظمت فيها ، وأن تؤثروا في النشر ما أحكم صياغته وراع فنّه .

فإنّكم بذلك تؤدّون أكبر خدمة للعلم والأدب في جبل عامل ، وتجعلوني و كلّ من يفكّر بماضي هذا الجبل وحاضره في جملة الشاكرين لجميل صنعكم وفضلكم .

جبل عامل - على الزين

وغير خفيّ على القارىء الكريم أنّ في طبع هذا الكتاب و نشره خدمةً عظيمة للعلم والأدب في جبل عامل وغيرها فسوف تتلقّاه أندية العلم والدين بكلّ شعف وإكبار وتقدير وإعجاب . ويكون لنشره الصدى العظيم في نفوس أهل العلم ، و روّاد الفضيلة ، و طلاّب الحقيقة ، الّذين سهروا ليلهم في خدمة العلم ، و تهذيب النفوس ، و تحلية السرّ بالصفات الإنسانيّة .

ثمّ إنّي نزولاً على رغبة الفضلاء والأدباء كتبت أيضاً مقالاً نشر في (العرفان) الغرّاء في المجلّد الرابع والأربعون عدد ٤ ص ٣٩٧ لسنة ١٣٧٦ هـ كمايلي :

السيد محمد العيناثي العاملي و كتابه أدب النفس

كتبنا مقالاً عن هذا السيّد الحكيم الفذّ و أثره الخالد (أدب النفس) الموجودة نسخته المخطوطة في مكتبتنا الشخصيّة بتبريز ، ونشر ذلك المقال حضرة العلاّمة الأُستاذ العارف المجاهد الكبير في العرفان الأغرّ المجلّد ٣٧ عدد ٣ ص ٣١٧ عام ١٣٦٩ هـ ، و نقلنا فيه فهرس أبواب الكتاب وفصوله ، وما احتوى عليه من الموضوعات و العناوين و المطالب على نحو التفصيل ، ووقع ذلك المقال وإحياء اسم الكتاب و مؤلّفه و إخراجه من زوايا الخمول عند الأفاضل والأُدباء اللاّمعين موقع العناية والقبول ، و لذا كتب الشيخ محمّد رضا شمس الدين العامليّ مقالاً عن السيّد المؤلّف ونشره في العرفان المجلّد ٣٨ عدد ١ ص ٩٧ . و كتب السيّد محمّد نصر الله ـ كلّيّة المقاصد ، صيدا ـ سؤالاً عن مؤلّفات هذا السيّد كما في العرفان المجلّد ٣٧ عدد ٤ ص ٤٦٣ . و كتب الفاضل الأديب الشيخ عليّ الزين ـ من جبل عامل ـ كلمته المنتشرة في العرفان المجلّد ٣٨ عدد ٢ ص ٢١٠ خطاباً لنا وأشار فيه بعنايته إلى مقالي ، و ذكر : « إنّا نتوقّع منكم أن تنشروا شيئاً من محتويات هذا الكتاب وأبحاثه اللائقة للنشر » ووعدنا ذلك في العراق أنّه سوف أحضر النسخة إلى مدينة العلم (النجف الأشرف) وحين ذاك ننشر من محتويات الكتاب في العرفان . ولكن منذ ذلك الوقت إلى اليوم عاقت الحوادث العجيبة الّتي توجّهت عليّ طيلة عمري ، و حالت بيني وبين أُمنيّتي ، فرجعت إلى تبريز ولم أقدر على القفول إلى الأرض المقدّسة[1] وكان ذلك من أحقاد أعداء الدين وخصماء المذهب ، ولكنّ الله تعالى صار عوناً لي وأيّدني بتوفيقاته الخاصّة والحمد لله تعالى . وفي هذه الأونة الأخيرة عزمت نزولاً على رغبة الأُستاذ الزين أن أنشر ما كنت أردته منذ هذه المدّة وفاءً بالوعد .

وها أنا مشتغل به ولكن مع الغيظ والاضطراب في قلبنا بما أصاب العالم الإسلاميّ من أعدائه وخصمائه الألدّاء من داخل البلاد الإسلاميّة وخارجها ، ونكتب هذه السطور ، و أسأل الله تعالى إصلاح البشر ، و هدايتهم إلى الصواب الموفور ، و أن يرزق الأُمّة

(١) يعني القفول بعزم الاقامة فيها و اما بغير ذلك القصد فقد سافرنا الى العراق في سنة ١٣٧٦ هـ وسنة ١٣٧٧ هـ وبقينا فيها عدة شهور .

الإسلاميّة قاطبة التيقّظ والوحدة ، حتّى تكون يداً واحدة على من سواها .

الف : اعلم أيّها القارىء الكريم أنّه يظهر لمن سبر كتاب « أدب النفس » أنّ مؤلّفه أخذ كثيراً من مطالبه الفلسفيّة من رسائل إخوان الصفاء على نحو التخليص وإثبات ذلك يحتاج إلى بسط في المقال ونقل وتحقيق ولا سعة في المقام لذلك . وردّ عليها أحياناً كما نقل عنها [1] « أنّ نفوس المؤمنين إذا فارقت أجسادها صارت ملائكة بالفعل » وقال: هذا اعتقاد فاسد لا يعتقده مؤمن آمن بالله و برسوله ، و إنّما هو مذهب اخترعه مؤلّف رسائل إخوان الصفاء ولم يذكره أحد من العلماء . و كذلك قوله في الأنفس الشريرة : « إذا فارقت أجسادها صارت شياطين بالفعل » هذا غير صحيح بل هو غلط صريح .

ب : صرح المؤلّف نفسه في هذا الكتاب بأنّ المحقّق الشيخ حسن صاحب المعالم المتوفّى سنة ١٠١١ هـ خاله فإنّه قال [2] : « كان شيخنا الفاضل الألمعيّ الكامل التقيّ خالي الشيخ حسن بن الشيخ زين الدّين الشهير بالشهيد الثاني قدّس الله روحيهما في غاية الورع ، وكان له طاحونة لم يأكل من غلّتها لاحتمال أن يكون طحن فيها حنطة لم تخرج زكاتها ، و كان يقول : لفقهائنا في هذه المسألة قولان : أحدهما أنّ الزكاة تتعلّق بعين المال ، والثاني : الزكاة حقّ يلزم الذمّة ، فهذا لا إشكال فيه . و على القول الأوّل يجتنب ما أُخذ من الأُجرة ، لأنّ الزكاة باقية في تلك الحنطة الّتي لم تخرج زكاتها ، و هذا غاية الورع فاعتبروا يا أُولي الأبصار» ويظهر من قوله : «وكان يقول » أنّه أدرك صحبة خاله المحقّق رحمه الله بل لا يبعد أنّه قرأ عند خاله وتلمّذ لديه وهو أُستاذه إن حملنا قوله : « شيخنا » على حقيقته ، ولم نحمله على مجرّد الاحترام .

ج : نسب السيّد المؤلّف [3] هذه الكلمة النيّرة : « الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا » إلى النبيّ ﷺ ، وقال : « قال الله تعالى : إنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون وآيات كثيرة في ذمّ الّذين يريدون الحياة الدنيا الّتي هي حياة الجسد و يغفلون عن

(١) راجع الجزء الثانى الفصل الحادى عشر قبل ذكر القصيدة الطويلة .

(٢) فى الجزء الاول ص ١٣٠ .

(٣) انظر ص ٢٥٤ من الجزء الاول ونسبها الى النبى (ص) أيضاً ورّام فى مجموعته (١ : ١٥٠)

الحياة الآخرة الّتي هي حياة النفس ، واعلم أنّ النفس لا تحسّ بتلك الحال الّتي تنتقل إليها إلّا بعد مفارقة الجسد كما أنّ الجنين لا يحسّ بهذه الدنيا إلّا بعد الولادة ، فمن أجل هذا قال رسول الله ﷺ : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وإنّما نومهم غفلتهم عمّا بعد سكرة الموت الّتي هي مفارقة النفس الجسد ، عاينت حقيقة ماكانوا يوعدون كما قال تعالى : فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ، وقال سبحانه لنبيّه ﷺ : واعبد ربّك حتّى يأتيك اليقين ، يعني الموت بمفارقة النفس الجسد » .

ولكن سيّدنا الشريف الرضيّ الموسويّ قدّس سرّه نسب تلك الكلمة المشرقة إلى أمير المؤمنين في كتابه « خصائص أمير المؤمنين » المطبوع في النجف ص ٨٧ ، و صدور هذه الكلمة العالية عن النبيّ ﷺ والوصيّ عليه السلام معاً ليس ببعيد وهما بمنزلة نفس واحدة .

د : قال بعد نقل أبيات لأبي الأسود الدئليّ وغيره [١] : وقلت في مقصورتي أبياتاً قريبة من هذا المعنى وهو قولي منها :

لا يعرف الشيء بغير ضدّه * هل تعرف الراحة إلّا بالعنا ؟

هـ : قال رحمه الله [٢] : « واعلم أنّه ذهب على كثير من العلماء معرفة النفس ، لتركهم النظر في علم النفس والبحث عن معرفة جوهرها ، والسؤال من العلماء العارفين بها وبعلمها ولقلّة اهتمامهم بأمر النفس و طلب خلاصها من بحر الهيولى وهاوية الأجسام ، و النجاة من أسر الطبيعة ، و الخروج من ظلمة الأجساد لشدّة ميلهم إلى الخلود في الدنيا ، و استغراقهم في الشهوات الجسمانيّة ، والغرور باللّذّات الجرمانيّة و الأنس بالمحسوسات الطبيعيّة ، ولغفلتهم عمّا وصف في الكتب النبويّة من نعيم ، وما في عالم الآخرة من الروح والريحان ، وإنّما قلّة رغبتهم عنها لقلّة تصديقهم بما خبّرت به الأنبياء ، وما أشارت إليه العلماء والحكماء ممّا يقصر الوصف من لطيف المعاني ودقيق الأسرار ، فانصرفت همم نفوسهم كلّها إلى هذا الجسد المستحيل ، وجعلوا كلّ سعيهم لصلاح معيشة الدنيا من جمع الأموال والمآكل والمشارب والملابس و المراكب والمناكح ، فصيّروا نفوسهم عبيداً لأجسامهم ، و

(١) في الجزء الثاني آخر الباب السابع .

(٢) راجع الجزء الثاني الباب الثاني عشر قبل الخاتمة بوريقات .

أجسامهم مالكة لنفوسهم . وسلّطوا الناسوت على اللاهوت ، والظلمة على النور ، والشياطين على الملائكة . و صاروا من حزب إبليس و أعداء الله » . فلينظر القارىء الفطن إلى أمثال هذه الكلمات والأفكار العالية في الكتاب الّتي تنبىء عن سموّ الفكرة ، والتفكير المنطقيّ الروحيّ في هذا المصنّف الحبر الجليل .

ثمّ نقلنا في ذلك المقال الّذي أوعزنا إليه شطراً من أشعاره الرائقة و ذكرنا في ختام ذلك المقال مايلي :

وممّا هو جدير بالذكر أنّه نقل الشيخ محمّد رضا شمس الدين العامليّ فيما كتبه عن السيّد المؤلّف في العرفان المجلّد ٣٨ عدد ١ عن « حقيبته في التاريخ و الأدب » أنّه توفّي المؤلّف رحمه الله سنة ١٠٨٥ هـ ، وقال : « لاأعلم من أين نقلته على التحقيق » وهذا التاريخ غير صحيح قطعاً ؛ فإنّ هذا السيّد الجليل كان حيّاً في سنة ١٠٨٨ هـ ، كما كتب بخطّه الشريف في ذلك الوقت تاريخ فراغه من تصحيح كتابه (أدب النفس) في آخر الكتاب في الهامش وهذا نصّه [1] : « بلغ مقابلة بحسب الجهد و الطاقة إلّا مازاغ عنه البصر وحسر عنه الفكر تحريراً في أوائل شهر رجب المبارك عن شهور سنة ثمان و ثمانين و ألف . و كتبه مؤلّفه محمّد الحسينيّ العيناثيّ العامليّ عفي عنه » .

و كتب في ظهر الكتاب تملّك نفسه لهذه النسخة و نقش خاتمه الشريف هكذا : « الخادم محمّد الحسينيّ » وفيه أيضاً تملّك الشيخ الجليل الشيخ حسن بن الشيخ الأجلّ الشيخ عبّاس البلاغيّ بخطّه الشريف .

والحمد لله ولاحول ولاقوّة إلّا بالله وصلّى الله على سيّدنا محمّد و آله الطاهرين .

تبريز - محمد على القاضى الطباطبائى

(١) وتراه في الصورة الفتوغرافية الرقم ٥ .



صورة ظهر الصفحة الأولى من نسخة العلامة الطباطبائيّ، وعليه تملّك المؤلف **الرقم ١**



صورة ظهر الصفحة الأولى من النسخة (ر)

الرقم ٣

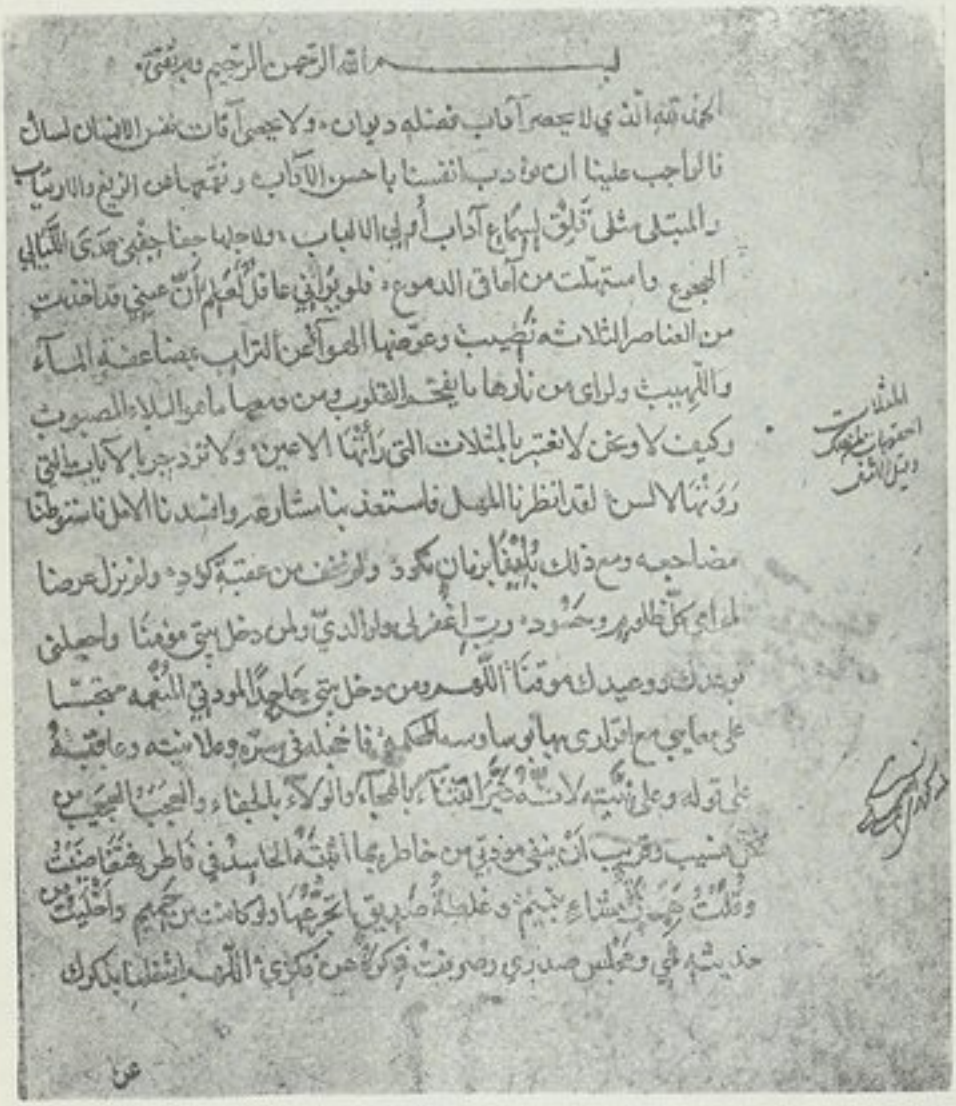

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي

الحمد لله الذي لا يحصر آداب فضله ديوان، ولا يحصي آفات نفس الانسان لسان
فالواجب علينا ان نؤدب انفسنا باحسن الآداب ونقمعها عن الزيغ والارتياب
والمبتلى مثلي قلق لسماع آداب أولي الالباب، ولاجلها جفا جفني هدى الليالي
الهجوع واستهلت من آماق الدموع، فلو يراني عاقل لعلم ان عيني قد اخذت
من العناصر الثلاثة نصيب وعوضها الهواء عن التراب بمضاعفة الماء
واللهيب ولرأى من نارها ما يفحم القلوب ومن دمعها ما هو البلاء المصبوب
وكيف لا ونحن لا نعتبر بالمثلات التي رأتها الاعين، ولا نزدجر بالآيات التي
روتها الالسن لقد انظرنا المهل فاستعذبنا مشارعه وافسدنا الامل فاستوطنا
مضاجعه ومع ذلك بلينا بزمان نكود ولم نخف من عقبة كؤود، ولم نزل عرضا
لمرامي كل ظلوم وحسود، رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا واجعلني
بوعدك ووعيدك موقنا اللهم ومن دخل بيتي جاحدا لمودتي المنعمة متجسسا
على معايبي مع اقراري بها بوساوسه المحكمة فاخجله في سره وعلانيته وعاقبه
على قوله وعلى نيته لانه خير الثناء بالهجاء والولاء بالجفاء والعجب العجيب من
كل نسيب وقريب ان ينفي مودتي من خاطره بما اثبته الحاسد في فاطره فتغاضيت
وقلت همزة مشاء بنميم وغلطة صديق اتجرعها ولو كانت من حميم واخليت من
حديثه لمي ومجلس صدري وصرفت ذكره عن فكري اللهم اشغلنا بذكرك

عن

صورة الصفحة الأولى من نسخة العلاّمة الطباطبائيّ

الرقم ٣

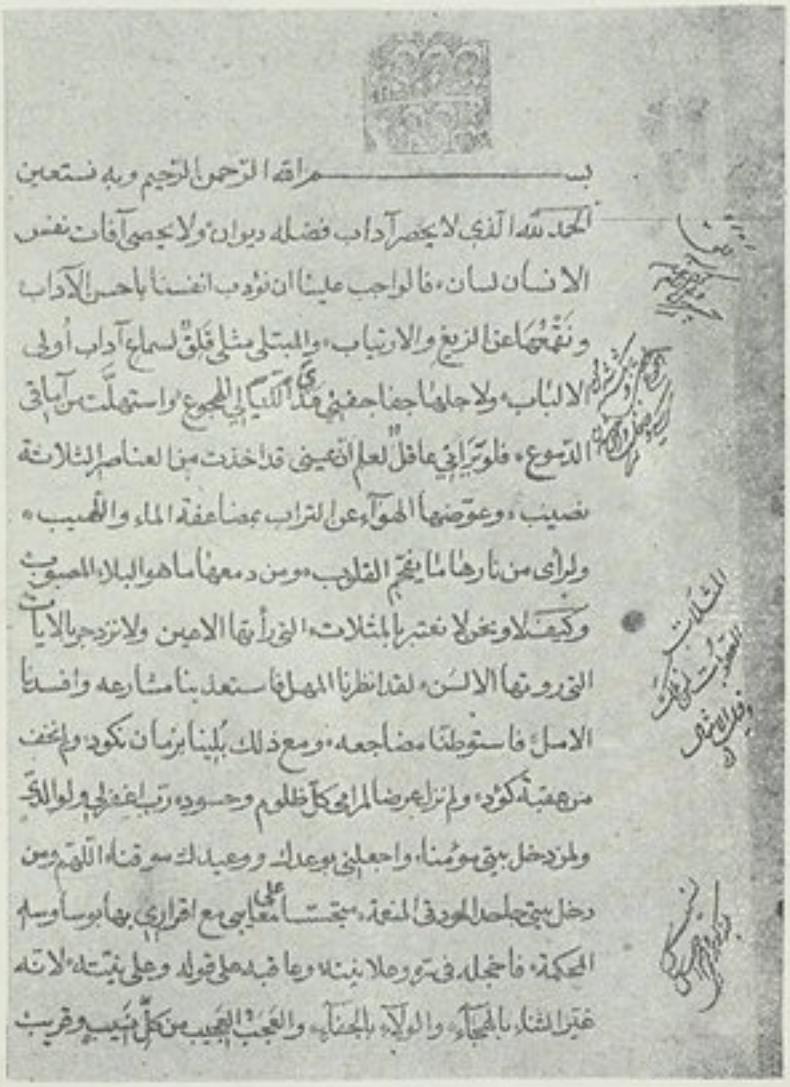

صورة الصفحة الأولى من النسخة (ر) الرقم ٤

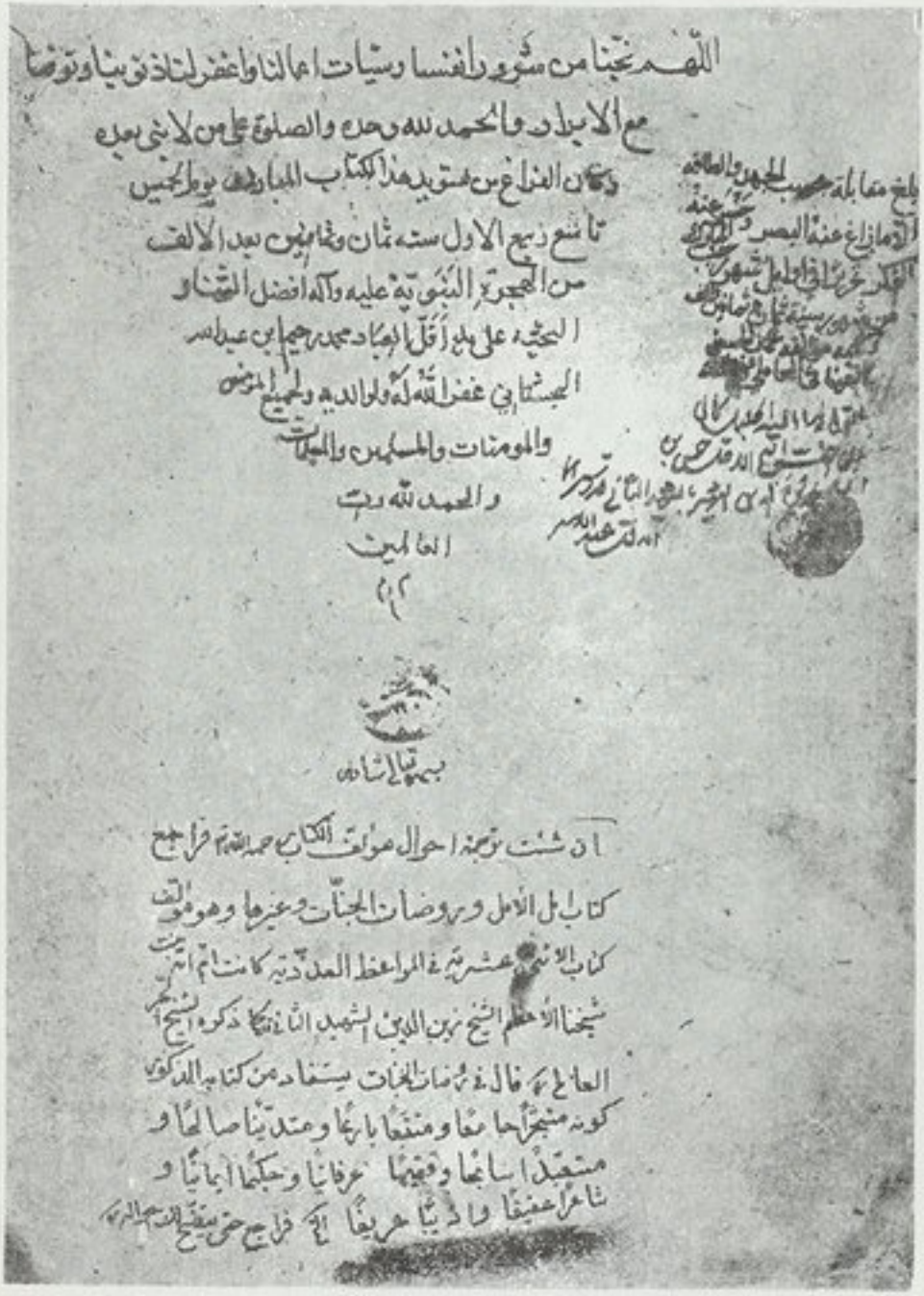

صورة آخر الكتاب من نسخة العلامة الطباطبائي، وبهامشه خط المؤلف الرقم ٥

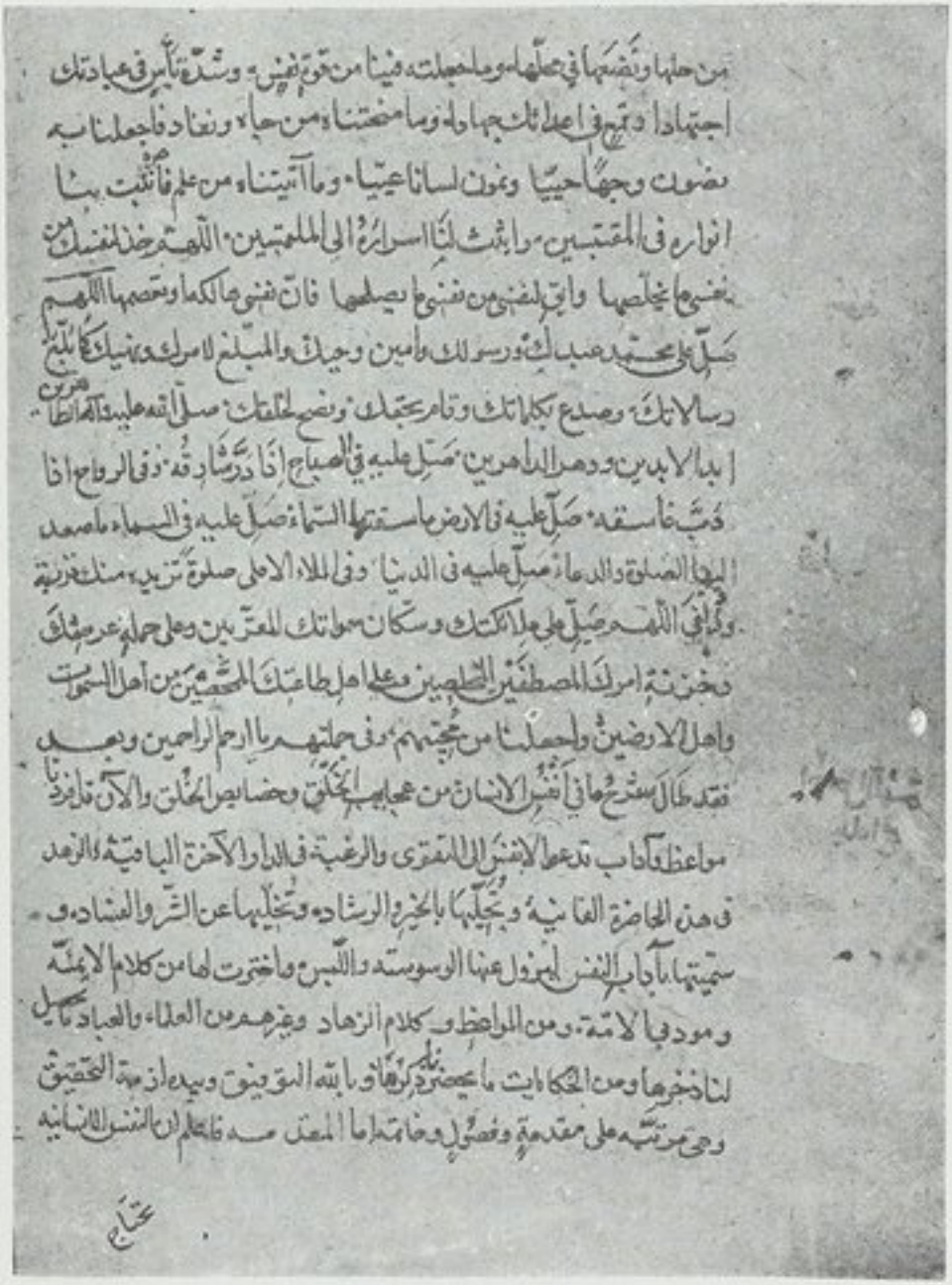

صورة صفحة من الديباجة فيها اسم الكتاب ، من نسخة العلاّمة الطباطبائيّ الرقم ٦

كلمة المصحح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، و الصلاة والسلام على رسوله نبيّ الرحمة ، وعلى آله الطيّبين الطاهرين قادة الأُمّة .

أغنانا عن التعريف بشخصيّة المؤلّف ماقدّمه العلاّمة الأُستاذ القاضي الطباطبائيّ و بقي أُمور لا مندوحة عن تحقيقها وحسر القناع عن وجهها :

١ - الاصلان

كانت نسخة العلاّمة القاضي مرجعاً وحيداً إلى ص ١٣٥ من المجلّد الأوّل ، و هناك وقفت على سقط كرّاسة من أوراقها ، فاستمددت من سيّدنا المحقّق الأُستاذ السيّد محمّد عليّ الروضاتيّ ، حفيد صاحب «روضات الجنّات» الفخم ، وثمرة تلكم الرياض النضرة و الأشجار اليانعة ، فلبّى يدي القصيرة الممدودة إلى جنابه ، ومنّ عليّ - وعلى القرّاء - بإتحاف نسخة من الكتاب كانت عنده ، وهي النسخة المرموز إليها بالرمز (ر) ، فجبرت السقط (من ص ١٣٥ إلى ١٥٤) واستعنت بها في سدّ كثير من الخروم الّتي وقعت في نسخة العلاّمة القاضي .

٢ - هل للكتاب اصل آخر ؟

على الرغم من إشراف المؤلّف على مقابلة نسخة العلاّمة الطباطبائيّ ، و تصحيحها بقلمه الشريف ، وجميل سعيه في وضع الحركات على الكلمات ، فهي كثيرة التحريف و التغيير ، غير مصونة عن السقط ، و ربما يقف القارىء حائراً أمام الكلمة ، أهي صحيحة أم

محرّفة ، و ما معناها في حال صحّتها ، أوما هو أقرب رسم حرّفت عنه .

و النسخة (ر) مع أنّ المؤلّف لم يطلع عليها أولم يمعن فيها أصحّ متناً من اُختها كما يظهر لمن سبر ما عثرنا عليه من أخطاء النسختين . فيقوى على الظنّ أنّ هناك نسخةً اُخرى من الكتاب انتسخت منها النسخة (ر) ولعلّها مسودّته ، ولم نظفر بها .

٣ ـ تصحيح الكتاب

قد أشرنا قُبيل ذاك إلى أنّ المؤلّف ـ رحمه الله ـ وضع الحركات على إحدى النسختين ، ومع الأسف أنتج ذلك نُصباً و عناءً لم نترقّبه ، حيث وقع فيها ما وقع . وهو رحمه الله بما كان عليه من مراتب الإيمان الصافي و اليقين لخالص بشرٌ ، ليس بمعصوم فيما يأتي و يذر ، وظنّي أنّه أشغله بُعد الهمّة في تحصيل المعاني عن أن يحوم حول الألفاظ ، فهو وإن كانت رجله في الثرى إلّا أنّ هامة همّته في الثريّا ! . ولا أظنّك ـ أيّها القارىء الكريم ـ أن ترضى منّي بإظهار بعض مافيه من الأخطاء العجيبة ، ولا نفسي ترضى به ، فارجع بصرك إلى مانبّهنا عليه في تعليقاتنا وانظر ماذا ترى .

ثمّ إنّي لم اُتعب نفسي في تخريج كلمات مشائخ الصوفيّة إلّا تفنّناً و استطراداً و ذلك لسوء ظنّي بكثير ممّن انتحل باسمهم ، و توسّم بسيماهم ، ولما يرى في مقالتهم من التناقض و أنّها لم يؤخذ جلّها من عين صافية ، و اُرشدك أنّ كثيراً من أقوالهم في الطبقات الكبرى للشعرانيّ و إحياء العلوم و رسائل إخوان الصفاء ـ و إن لم يكن الأخير عندنا ـ .

و أمّا الآثار و الأخبار و الأشعار فقد عُنيت في تنقيب مظانّها ، لاسيّما فيما كان يحتمل خطاؤها ، ولكنّي ماوفّقت في كلّها ، و « حاشاي إنّي مسلم معذور » فلم يكن بيدي إلّا أقلّ قليل من المصادر و « ما تصنع بالسيف إذا لم يك قتّالا » وإنّي وإن لم أنل بما بما تمنّيت ولكن بما استطعت أتيت و « ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه » .

٤ ـ في مآخذ الكتاب

كان كتاب إحياء العلوم إحدى دعائم الكتاب مضافاً إلى رسائل الإخوان ، فكم من خبر أو أثر أو عبارة أُخذ منه بأدنى تغيير أو بدونه ، ولا غرو أن نقول : إنّ كتاب الغزّالي بما فيها من الشطح و الطامات[1] أصبح أساساً لكثير من الكتب الّتي صنّفت بعده ، لاسيّما الّتي لها مساس بعلم الأخلاق ، فمالنا أن لا نستمع إليه و نتّبع أحسنه ؟

و كذلك ترى كثيراً من روايات الكتاب و آثاره في مجموعة ورّام بن أبي فراس .

٥ ـ ادب النفس أو آداب النفس ؟

ترى في تقدمة العلاّمة القاضي وفي الصورتين الفتوغرافيّتين من ظهر النسختين أنّ الكتاب سمّي بأدب النفس ، وهو الّذي انتقاه السيّد الأستاذ الروضاتيّ في رسالة أرسلها إليّ و كذا كان في الديباجتين بادىء الأمر ، ولكنّ المؤلّف أصلحه بقلمه بعدُ كما ترى في الصورة الرقم ٦ ، و يؤيّده ما قاله بعد البسملة براعة : « الحمد الّذي لا يحصر **آداب** فضله ديوان ، ولا يحصي آفات نفس الإنسان لسان » وافتفينا أثره ، ولم نراع ما سيخطر بالبال من كون التسمية الأخرى أنسب .

٦ ـ عذر و استدعاء

تكلّفت في هذا الكتاب محاكاة رجل كبير الشأن ، أورجال عظماء القدر ، ولم يمض عليّ أكثر من خمسة و عشرين ربيعاً ، مع ضعف منّتي و قلّة حيلتي ، فمهما عثرت على زلّة و عثرة ـ و كثيرة ماهي ـ فالرجاء غضّ البصر ولفت النظر ، وعين الرضا من كلّ عيب كليلةٌ .

---

(١) انظر ما أملاه العلامة الامينى فى تقدمة كتاب المحجة البيضاء .

ثمّ إنّي اعتمدت في تصحيح الجزء الأوّل من الكتاب على هذه الكتب الّتي أسردها، وسنذكر ما تفرّد به الجزء الثاني في محلّه، وأعرضت عن ذكر كتب استفدت منها مع واسطة :

١ ـ الاثنا عشريّة للمؤلّف ط إيران ١٣٧٦ هـ

٢ ـ إحياء علوم الدين [١] للغزاليّ ط مصر ـ

٣ ـ الاختصاص للمفيد ط إيران ١٣٧٩

٤ ـ أخلاق ناصري للمحقّق الطوسيّ ط الهند ١٢٦٧

٥ ـ إرشاد القلوب للديلميّ ط إيران ١٣٧٤ هـ

٦ ـ أساس البلاغة للزمخشريّ ط مصر ١٩٥٣ م

٧ ـ الاستيعاب [٢] لابن عبدالبرّ « « ١٣٥٨ هـ بهامش الإصابة

٨ ـ الإشتقاق لابن دريد ط مصر ١٣٧٨ هـ

٩ ـ الإصابة لابن حجر العسقلانيّ ط مصر ١٣٥٨ هـ

١٠ ـ الأعلام للزركليّ « « ١٣٤٥ هـ

١١ ـ الأغاني لأبي الفرج الإصبهانيّ ط مصر الساسي

١٢ ـ اكتفاء القنوع لفنديك ط مصر ١٨٩٦ م

١٣ ـ الأماليّ للشريف المرتضى ط « ١٣٧٣ هـ

١٤ ـ الأماليّ لأبي علي القالي ط « ١٣٧٣ هـ

١٥ ـ الأماليّ للشيخ الطوسيّ ط إيران ١٣١٣ هـ

١٦ ـ بحار الأنوار للعلّامة المجلسيّ ط إيران أمين الضرب وتبريز

١٧ ـ البيان والتبيين للجاحظ ط مصر ١٣٦٧ هـ

١٨ ـ البرهان في تفسير القرآن للبحرانيّ ط إيران ١٣٧٥ هـ

١٩ ـ تحف العقول لعليّ بن شعبة الحرّاني إيران ١٣٧٦ هـ

٢٠ ـ تفصيل النشأتين للراغب الإصبهانيّ ط صيدا ١٣٧١

تنبيه الخواطر = مجموعة ورّام .

---

(١) واستفدت الى ص٤١ من الجزء الاول من طبعة مصر ١٤٢٢ هـ .

٢١ ـ ثمرات الأوراق لابن حجّة الحمويّ وذيلاه بهامش المستطرف
٢٢ ـ جامع الأخبار ط إيران ١٣٥٤
٢٣ ـ جامع السعادات للمولى مهديّ النراقيّ ط النجف ١٣٧٥ هـ
٢٤ ـ حياة الحيوان للدميريّ ط مصر ١٣٧٤ هـ
٢٥ ـ الحيوان للجاحظ ط مصر ١٣٦٤ هـ
٢٦ ـ خزانة الأدب للبغداديّ ط بولاق ١٢٩٩ هـ
٢٧ ـ الخصال للشيخ الصدوق ط إيران ١٣٠٢
٢٨ ـ ديوان امرىء القيس من «القصائد المختارة» ط مصر ١٣٧٤ هـ
٢٩ ـ « أمير المؤمنين عليه السلام ط الهند ١٣١٠
٣٠ ـ « البحتريّ ط بيروت ١٩١١ م
٣١ ـ « أبي تمّام الطائيّ ط مصر ١٣٦١
٣٢ ـ « جرير ط مصر ١٣١٣
٣٣ ـ « الخنساء ط بيروت ١٨٩٦ م
٣٤ ـ « عمر بن أبي ربيعة ط مصر ١٣٧١ هـ
٣٥ ـ « الفرزدق ط مصر ١٣٥٤ هـ
٣٦ ـ « الهذليّين ط مصر ١٣٦٤ هـ
٣٧ ـ ذيل أمالي القالي ط مصر ١٣٧٣
٣٨ ـ زهر الآداب للحصريّ القيروانيّ ط مصر ١٣٥٠ هـ
٣٩ ـ السيرة النبويّة لابن هشام ط مصر ١٣٧٥ هـ
٤٠ ـ شرح الحماسة للمرزوقيّ ط مصر ١٣٧١ هـ
٤١ ـ « الشافية للرضيّ ط مصر بالتزام محمود توفيق
٤٢ ـ « شواهد الألفيّة للعينيّ بهامش خزانة الأدب
٤٣ ـ « شواهد مجمع البيان ط إيران ١٣٣٩ بطرّتي
٤٤ ـ « شواهد المغنى للسيوطيّ ط مصر ١٣٢٢ هـ

٤٥ ـ شرح مجاني الأدب ط بيروت مطبعة اليسوعيين
٤٦ ـ « نهج البلاغة لابن أبي الحديد ط بيروت دار الفكر
٤٧ ـ « « « لعبده ط مصر الرحمانية
٤٨ ـ « « « للفيض ط ايران ١٣٧٠ هـ
٤٩ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ط مصر ١٣٦٦
٥٠ ـ الصحاح للجوهري ط إيران ١٢٧٠
٥١ ـ طبقات الشعراء لابن المعتز ط مصر دار المعارف
٥٢ ـ الطبقات الكبرى للشعراني ط مصر
٥٣ ـ الطرائف للسيد ابن طاوس ط إيران
٥٤ ـ طهارة الأعراق لابن مسكويه بهامش مكارم الأخلاق ط إيران ١٣١٢
٥٥ ـ عجائب المخلوقات للقزويني بهامش حياة الحيوان
٥٦ ـ الفائق للزمخشري ط مصر ١٣٦٦ هـ
٥٧ ـ فصوص الحكم لمحيي الدين ط مصر ١٣٦٥ .
٥٨ ـ الفصول لابن فهد بهامش مكارم الأخلاق ط إيران ١٣١٢
٥٩ ـ الفصول المهمة لابن صباغ المالكي ط النجف ١٩٥٠ م
٦٠ ـ فقه اللغة للثعالبي ط مصر ١٣٧٣ هـ
٦١ ـ الفهرست لابن النديم ط مصر الاستقامة
قاموس الأعلام ، انظر الأعلام للزركلي
القصائد المختارة ، انظر ديوان امرىء القيس
٦٢ ـ قصص العرب للمؤلفين ط مصر ١٣٧٣ هـ
٦٣ ـ الكاشف عن ألفاظ النهج للمصطفوي ط إيران ١٣٣٩
٦٤ ـ الكافي أصوله وفروعه وروضته للكليني ط إيران في ٨ مجلدات
٦٥ ـ الكتاب لسيبويه ط بولاق ١٣١٦ هـ
٦٦ ـ كشف الظنون ط إستنبول ١٣٦٠ هـ

٦٧ ـ الآلىء للبكريّ بتحقيق العلّامة الميمنيّ ط مصر ١٣٥٤ هـ
٦٨ ـ لسان العرب لابن منظور ط بيروت دارالفكر
٦٩ ـ اللهوف للسيد ابن طاوس ط إيران ١٣٧٧ هـ
٧٠ ـ المؤتلف للآمديّ ط مصر ١٣٥٠ هـ
٧١ ـ مجاني الأدب للأب شيخو ط بيروت
٧٢ ـ مجمع البحرين للطريحيّ ط إيران ١٢٦٣ هـ
٧٣ ـ مجمع الأمثال للميدانيّ ط مصر ١٣٥٢ هـ
٧٤ ـ مجموعة ورّام للأمير ورّام بن أبي فراس ط إيران ١٣٧٦
٧٥ ـ المحاسن والأضداد للجاحظ ط بيروت مكتبة العرفان .
٧٦ ـ مراصد الاطّلاع لصفيّ الدين البغداديّ ط مصر ١٣٧٤ هـ
٧٧ ـ المرشد لمحمّد فارس بركات ط دمشق ١٣٧٧ هـ
٧٨ ـ مروج الذهب للمسعوديّ ط مصر بتحقيق محمّد محيي الدين عبدالحميد
٨٩ ـ المزهر للسيوطيّ ط مصر ١٣٧٨ هـ
٨٠ ـ المستطرف للأبشيهيّ ط مصر عبد الحميد أحمد حنفيّ
٨١ ـ معاني الأخبار للصدوق ط إيران ١٣٧٩
٨٢ ـ معجم الأدباء لياقوت الحمويّ ط مصر مكتبة دارالمأمون
٨٣ ـ معجم الشعراء للمرزبانيّ ط مصر ١٣٥٠ هـ
٨٤ ـ معجم ما استعجم للبكريّ ط مصر ١٣٦٤ هـ
٨٥ ـ المفضّليّات للضبّيّ ط مصر ١٣٦١ هـ
٨٦ ـ مكارم الأخلاق للطبرسيّ ط إيران ١٣٧٦ هـ
٨٧ ـ الملل والنحل للشهرستانيّ ط مصر ١٣٦٨ هـ
٨٨ ـ المناقب لابن شهرآشوب ط إيران ١٣١٧ هـ
٨٩ ـ منتهى الآمال للمحدّث القميّ ط إيران ١٣٧١ هـ
٩٠ ـ المنجد للأب معلوف الطبعة ١٥

٩١ ـ مهج الدعوات للسيّد ابن طاوس ط إيران ١٢٩٩

٩٢ ـ الموشّح للمرزبانيّ ط مصر ١٣٤٣ هـ

٩٣ ـ الميزان في تفسير القرآن ط إيران ١٣٣٧

٩٤ ـ النهاية لابن الأثير الجزريّ ط مصر ١٣١١ هـ

٩٥ ـ وفيات الأعيان لابن خلّكان ط مصر ١٣٦٧ هـ

وربّما اكتفينا بذكر صاحب الكتاب كما يلي :

ابن خلّكان عن كتابه وفيات الأعيان

ابن شهر آشوب « « المناقب

الحرّانيّ « « تحف العقول

الدميريّ « « حياة الحيوان

الديلميّ « « إرشاد القلوب

شيخو « « مجاني الأدب

الغزّاليّ « « إحياء العلوم

القزوينيّ « « عجائب المخلوقات

الكلينيّ « « الكافي

المسعوديّ « « مروج الذهب

الميدانيّ « « مجمع الأمثال

النراقيّ « « جامع السعادات

ياقوت « « معجم الأدباء

السيد كاظم الموسوى الميامى

١٥ شهر شعبان المعظم ١٣٨٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يحصر **آداب** فضله ديوان ، ولا يحصي آفات **نفس** الإنسان لسان ؛ فالواجب علينا أن نؤدّب أنفسنا بأحسن الآداب ، ونقمعها عن الزيغ والارتياب . والمبتلى مثلي قلق لسماع آداب اُولي الألباب ؛ و لأجلها جفا جفني مَدى اللّيالي الهُجوع[١] ، واستهلّت من آماقي[٢] الدموع ؛ فلو يراني عاقل لعلم أنّ عيني قد أخذت من العناصر الثلاثة نصيب ، وعوّضها الهواء عن التراب بمضاعفة الماء واللّهيب ، ولرأى من نارها ما يفحّم القلوب[٣] ومن دمعها ما هو البلاء المصبوب ؛ و كيف لا ؟ و نحن لا نعتبر بالمَثُلات الّتي رأتها الأعين ، ولا تزدجر بالآيات الّتي روتها الألسن . لقد أنظرَنا المهلُ[٤] فاستعذبنا مشارعَه[٥] وأفسدَنا الأملُ فاستوطنّا مضاجعه ؛ ومع ذلك بُلينا بزمان نكود[٦] ، ولم نخَف من عقبة كؤود[٧] ، ولم نزل عرضاً لمرامي كلّ ظلوم وحسود .

ربّ اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً ، و اجعلني بوعدك ووعيدك موقناً ؛ اللّهمّ ومن دخل بيتي جاحداً لمودّتي المنعمة ، متجسّساً عليّ معايبي مع إقراري بها بوساوسه المحكمة ، فاخجله في سرّه وعلانيته ، وعاقبه على قوله وعلى نيّته ؛ لأنّه غيّر

---

(١) مصدر : هجع يهجع ـ من باب منع ـ النوم بالليل أو مطلقاً .

(٢) جمع المؤق ـ بالضم ـ مجرى الدمع من العين .

(٣) أى يصيرها اسود كالفحم .

(٤) اى أمهلنا الرفق والتؤدة . والمهل ـ بفتحتين او سكون الثانى ـ مصدر .

(٥) اى وجدنا محل ورود الشاربة منه عذباً .

(٦) أى منوع ، كثير سؤاله وقليل خيره .

(٧) صعبة شاقة المصعد .

الثناء بالهجاء، والولاء بالجفاء. والعجب العجيب من كلّ نسيب وقريب أن ينفي مودّتي من خاطره، بما أثبته الحاسد في فاطره؛ فتغاضبت وقلت: همزة مشّاء بنميم، و غلطة صديقٍ أتجرّعها ولو كانت من حميم؛ وأخليت من حديثه فمي ومجلس سدري، و صرفت ذكره عن فكري. اللّهمّ اشغلنا بذكرك عن كلّ ذكر، واستعمل جوارحنا بشكرك عن كلّ شكر؛ يا من له الصنع الكريم والفضل العظيم، والمنّ العميم، والأمر الحكيم، واللّطف الّذي يملأ العيون ويملك القلوب، والعفو الّذي يستر العيوب ويغفر الذنوب؛ ويا من لا يحيط بكنه عظمته البصائرُ، ولا يدرك كلّ رحمته الخواطر؛ و يا من لا تَنفد حكمته إذا نفد القرطاس، ولا تُعدّ نعمته ولو عدّت الأنفاس؛ ويا من لا يقبل من الأفعال غير صافيها، ولا يرضى من الأخلاق سوى زاكيها؛ ولا يؤاخذ المذنب إلّا بعد إمهالٍ و إنظارٍ، ولا يعاقب المسيء إلّا عقيب تحذير و إنذار! أنت للمستعين حيث الاستعانة، وللمستغيث حيث الإغاثة، و للآمل موضع المأمول، و للسائل الداعي بمرصد المسؤول؛ ونحن ندعوك عن أضرع دعاءٍ وأخضعه، وأخبت سؤال وأنجعه[1] أن تقابل لنا هذا الكتاب و كلّ عملٍ صالحٍ بقبولك، وتفتح لنا كلّ يومٍ باباً إلى مرضاتك، و أن تجعلنا ممّن يحسن بالعمل رعاية ما ارتاد من القول؛ وتنصبَ لنا علماً يهدينا، ونوراً يسعى بين أيدينا، وشريعةً نردها إلى طاعتك، وذريعة نتوسّل بها إلى رحمتك، و سبيلاً نتهجه أيّاماً إلى الرشاد، وحبلاً نعتلقه عصاماً من الفساد.

اللّهمّ اجعلنا ممّن يتعرّض في مُفتتح كل أمرٍ أسباب النّجاح، ويعتمد في مختتم كلّ شيء عواقب الفلاح؛ اللّهمّ اجعل[2] رجاك أوفى عُدّتنا، وأمضى سلاحنا، و اجعل أمرك ونهيك نُصب أعيننا، والرغبة إليك أصل كلّ تدبيرنا، والرهبة منك مدار كلّ أُمورنا، وأدم خيرنا وأبق نعمتك علينا بتقديرنا أُمورنا على قدر الزمان، وبمقدار الإمكان، أكرمنا بالصمت في أوانه، وأيّدنا بالإبلاغ في المنطق في مكانه، اجمع لنا محبّة القلوب بالتواضع لمن نجالس، والثقة والطمأنينة بمن نؤانس، والاستظهار على من دوننا بالتفضّل

(١) نجع فيه الامر والخطاب والوعظ: أثر فيه ونفع. مجمع البحرين.
(٢) اجعل اللهم. خ ل.

وعلى نظرائنا بالإنصاف والتحمّل ، وعلى من فوقنا بالإجلال .

اللّهمّ ما وهبتناه من غنىً وقنىً [١] فارزقنا أن نقضي به حقوق الضعفاء ونوفي منه فروض الفقراء ، وأن نكسبها من حلّها ، و نضعها في محلّها ، وما جعلته فينا من قوّة نفسٍ وشدّة بأس ، في عبادتك اجتهاداً ، وقمع في أعدائك جهاداً ؛ وما منحتناه من جاه و نفادٍ فاجعلنا به نصون وجهاً حيياً [٢] ، ونمون لساناً عيياً [٣] ؛ وما آتيتناه من علمٍ فائبث بنا أنواره في المقتبسين ، واثبت لنا أسراره إلى الملتمسين ؛ اللّهمّ خذ لنفسك من نفسي ما يخلّصها ، وأبق لنفسي من نفسي ما يصلحها ، فإنّ نفسي هالكة أو تعصمها .

اللّهمّ صلّ على محمّد ﷺ عبدك ورسولك وأمين وحيك والمبلّغ لأمرك ونهيك كما بلّغ رسالاتك ، وصدع بكلماتك وقام بحقّك ، ونصح لخلقك ، صلّى الله عليه وآله الطاهرين أبد الآبدين و دهر الداهرين ، صلّ عليه في الصباح إذا درّ شارقه [٤] ، و في الرواح إذا دبّ غاسقه [٥] صلّ عليه في الأرض ما سقتها السماء ؛ صلّ عليه في السّماء ما صعد إليها الصّلاة والدّعاء ؛ صلّ عليه في الدّنيا و في الملأ الأعلى ، صلاةً تزيده منك قربةً وزلفى .

اللّهمّ صلّ على ملائكتك و سكّان سماواتك المقرّبين و على حملة عرشك و خزنة أمرك المصطفين المخلصين ، وعلى أهل طاعتك الممحّصين من أهل السماوات وأهل الأرضين ، واجعلنا من محبّيهم و في جملتهم يا أرحم الراحمين .

و بعد : فقد طال شرح ما في أنفس الإنسان من عجائب الخلق و خصائص الخُلق والآن قد أفردنا مواعظ وآداب تدعو الأنفس إلى التقوى والرغبة في الدار الآخرة الباقية ، والزهد في هذه الحاضرة الفانية ؛ و تحلّيها بالخير والرشاد ، وتخلّيها عن الشرّ والفساد ،

---

(١) قنا المال يقنوه : جمعه واتخذه لنفسه .

(٢) اى ذوالحياء ، فعيل من حيى .

(٣) اى تحتمل مؤونة من يعجز عن اداء مقصوده .

(٤) الصواب « ذر » باعجام الذال ؛ قال الزمخشري في الاساس(شرق) : ويقال : طلع الشرق و الشارق ، للشمس ، وتقول : لا أفعلُ ذلك ما ذر شارق ، وما در بارق .

(٥) دب : مشى كالحية ، أو على اليدين والرجلين كالطفل . والغاسق : القمر ، الليل اذا اشتدت ظلمته . وهذه الجملة قليلة الاستعمال .

و سمّيتـــــــها :

آداب النفس

ليزول عنها الوسوسة و اللّبس ؛ و اخترت لها من كلام الأئمّة و مؤدّبي الأُمّة ، و من المواعظ و كلام الزهّاد ، و غيرهم من العلماء و العبّاد ما يحصل لنا ذُخرها ، و من الحكايات ما يحضرنا ذكرها . و بالله التوفيق ، و بيده أزمّة التحقيق .

وهي مرتبة على مقدمة و فصول و خاتمة

اما المقدمة :

فاعلم أنّ نفس [١] الإنسانيّة يحتاج إلى تأديب وتهذيب وتعنيف وترغيب ؛قال الله تعالى [٢] : « إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلّا ما رحم ربّي » وقال جلّ وعلا [٣] : « قدأفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها » أي نقّصها بالذنوب والمعاصي . ولو لم يكن إلّا قوله عزّ

---

(١) قال القزويني (٢:٩٢) : اعلم ان الانسان حال ما يكون شديد الاهتمام بالشيء يقول : فلت كذا ، وفعلت كذا ، وهو في هذه الحالة عالم بذاته غافل عن جميع أعضائه الظاهرة والباطنة والمعلوم في هذه الحالة هوالنفس ، وانه متقلد لهذه التكاليف ، متعرض لخطر الثواب والعقاب ، باق بعد الموت اما في نعيم وسعادة كما قال الله تعالى : ﴿ بل احياء عند ربهم يرزقون ، فرحين ﴾ و اما في جحيم وشقاوة كما قال عز و جل من قائل : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً و عشياً ﴾ .

و في اللسان (٧:٢٩٤ ،نفس) قال ابواسحاق : النفس في كلام العرب يجري على ضربين : احدهما : قولك : خرجت نفس فلان ، اي روحه ، و الضرب الاخر معنى النفس فيه معنى جملة الشيء و حقيقته . ثم قال ــ بعد ذكر معان متعددة للنفس هذبها و رتبها الطريحي في مجمع البحرين ــ : روى عن ابن عباس أنه قال : لكل انسان نفسان : احدهما نفس العقل الذي يكون به التمييز ، و الاخرى نفس الروح الذي به الحياة . و انظر احياء العلوم (٣ : ٣) و اخلاق ناصري : ١٣ و الفصول لابن فهد : ٤٤ و طهارة الاعراق لابن مسكويه : ٥ وقصيدة شيخ الرئيس في النفس في مجاني الادب (٦:١٧٢) .

(٢) سورة يوسف : ٥٣ .

(٣) سورة الشمس : ٩ ــ ١٠ .

من قائل [١] : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » لكفى بذلك واعظاً ولأنفسنا زاجراً . و غير ذلك من الآيات القرانية والآداب الدينيّة .

فالواجب على كلّ ذي عقل أن يؤدّب نفسه بمكارم الأخلاق [٢] ولذا قيل : تمام السعادة بمكارم الأخلاق ، كما أنّ تمام الشجرة بالثمرة .

و تهذيب الأخلاق باب طويل وعلم شريف يحتاج إلى بسط و كلام كثير لابدّ أن نذكر منه شمّة يعرف منها مانحن بصدده من صفات الأنفس البشريّة ؛ فنقول :

و كلّ امرىء ذي عقل يمكنه إصلاح نفسه وتهذيب أخلاقه . فالخلق ملكة يصدر عنها جميع الأفعال بسهولة من غير رويّة ؛ و زعم بعضهم : أنّ الخُلق كالخَلق لا يمكن تغييره ولا تبديله ، بل الخُلق هو الّذي يقتضية المزاج المخصوص كحارّ مزاج القلب فإنّه يكون شجاعاً وضدّه جباناً و كذا بقيّة الأخلاق ، و هو ضعيف ، بل الصواب أنّه يمكن تبديله وتغييره بالزيادة والنقصان ؛ فالاعتدال والانحراف بكثرة مزاولة الأفعال والأقوال والحركات والسكنات والتصوّرات ولولا ذلك لما اجتهدت الأنبياء و الأولياء و الحكماء في الدعوة إلى الله تعالى بكلّ طريق ، ولما أمرت بمكارم الأخلاق ، وقد قال سيّد البشر صلى الله عليه وآله [٣] : «بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق» . والعاقل يمكنه أن يعرف ذلك بكثرة التأمّل و التجربة و لنزيد ذلك بياناً :

اعلم أنّ العلماء اختلفوا في أنّ الإنسان هل يمكنه تغيير خلقه أم لا ؟ فالغزاليّ

---

(١) سورة الذاريات : ٢١ .

(٢) قال الطريحي في مجمع البحرين (كرم) : و مكارم الاخلاق التي حض النبي صلى الله عليه وآله بها عشرة : اليقين والقناعة والصبر و الشكر و الحلم و حسن الخلق و السخاء و الغيرة و الشجاعة والمروءة ، وفي الحديث : امتحنوا انفسكم بمكارم الاخلاق فان كانت فيكم فاحمدوا الله تعالى ، والاتكن فيكم فاسألوا الله وارغبوا اليه فيها ، ثم انه عليه السلام ذكر العشرة السالفة ، و فيه وقد سئل عن مكارم الاخلاق فقال : العفو عمن ظلمك وصلة من قطعك و اعطاء من حرمك و قول الحق ولوعلى نفسك .

(٣) والخبر عنه صلى الله عليه وآله ذائع مشهور و رواه الغزالي في الاحياء (٢٤٩:٢) وفي مجموعة ورام (٨٩:١) : بعثت لاتمم محاسن الاخلاق .

في الإحياء والمحقّق الطوسيّ في الأخلاق [١] على الأوّل ؛ و يعضده قول النبيّ صلى الله عليه وآله [٢] « حسّنوا أخلاكم » . وبعض الأكابر [٣] على الثاني ؛ و عليه قول بعضهم [٤] :

لكلّ داءٍ دواء يستطبّ به * إلّا الحماقة أعيت من يداويها

و قال بعضهم :

يا من تقاعد عن مكارم خُلقه * ليس التفاخر بالعلوم الفاخرة
من لم يهذّب علمه أخلاقه * لم ينتفع بعلومه في الآخرة

و قال آخر :

و كلّ جراحة فلها دواءٌ * و سوء الخلق ليس له دواءُ

وقال الراغب في الذريعة : من منع من تغيّر الخُلق فإنّه اعتبر القوّة نفسها ، و هذا صحيح ، فإنّ النّوى محال أن ينبت منه الإنسانُ تفّاحاً ، ومن أجاز تغيّره فإنّه اعتبر إمكان خروج ما في القوّة إلى الوجود وإفساده بإهماله ، نحو النّوى فإنّه يمكن أن ينعقد فيُجعل نخلاً ، و أن يترك مهملاً حتّى يعفّن ؛ فإذاً اختلافهما بحسب اختلاف نظريهما .

وقد عرفت أنّ الإنسان له قوى [٥] ثلاث : القوّة العقليّة ، و القوّة الشهويّة ، القوّة الغضبيّة .

---

(١) احياء العلوم (٣: ٤٠) واخلاق ناصرى : ٥٢ .

(٢) رواه الغزالى (٣: ٤١) والروايات الواردة عنه صلى الله عليه وآله فى حسن الخلق فى الاحياء (٣: ٣٧) . وانظر اصول الكافى (٢: ٩٩، ٣٢١) .

(٣) لعله اراد به جالينوس حيث ذكر الطوسى : ٥٣ انه قال : بعض الناس اهل الخير طبعاً و بعضهم اهل الشر طبعا ، وبعض متوسط بينهما قابل لهذا وذاك . أقول : وانظر مقالاته فى النفس عند ابن مسكويه : ١٨٦ .

(٤) والبيت عند الابشيهى فى المستطرف (١ : ١٦) راجعه .

(٥) قال القزوينى (٢: ١٤٩-١٥٩) : القوى صنف من الملائكة خلقها الله تعالى لتدبير الابدان وقوام منافع أعضائها من الافعال والادراكات فتشبه أفعالها فيها أفعال صناع البلاد و سكانها ، فان حال البدن مع الروح وهذه القوى تشبه مدينة عامرة بآلاتها ، مأنوسة بسكانها ، مفتوحة الاسواق مسلوكة الطرقات ، مشتغلة الصناع . وحاله عند النوم وهذه الحواس وسكون الحركات تشبه

فالاولى : هي الملكيّة وهي مبدأ التميّز و الفكر والشوق إلى إدراك الحقائق و يسمّى تهذيبها حكمة نظريّة . **والثانية** : هي النفس البهيميّة وهي مبدأ الشهوة وطلب الغذاء والشوق إلى الالتذاذ بالمآكل والمشارب والمناكح والملابس . **والثالثة** : هي النفس السبعيّة وهي مبدأ الغضب والإقدام على الأهوال والتسلّط والترفّع و الجاه و العزّ .

والعدالة هي التساوي بين هذه القوى بحيث لا يخرج عن حدّ الإفراط و التفريط حتّى لايكون فيها ميل ؛ فإن خرجن إلى الإفراط ، فبالنسبة : إلى الحكمة سفهاً وجربزةً وإلى الشهوة شرهاً ، وإلى الغضب تهوّراً ؛ و إلى التفريط ، بالنظر إلى الحكمة بلهاً ، و إلى

حال المدينة بالليل اذا غلقت أبوابها ، و تعطلت صناعها ، ونام أهلها .

ثم أخذ في بيان أنواع القوى واقسامها بشرح بسيط ، ونحن نذكر مقالته باختصار . قال :

النوع الاول القوى الظاهرة وهي الحواس الخمس : اللمس ، الشم ، البصر ، السمع والذوق.

النوع الثاني القوى الباطنة ، هي اصناف : الاول النباتية وهي اربع : الجاذبة ، الماسكة ، الهاضمة و الدافعة . الصنف الثاني القوى الخادمة ، وهي اربع أيضاً : الغاذية ، النامية ، المولدة والمصورة . الصنف الثالث القوى المدركة التي في الباطن ، و هي خمس : الحس المشترك ، المتخيلة ، الوهم ، الحافظة والمفكرة .

النوع الثالث القوى المحركة ، وهي صنفان : الصنف الاول الباعثة وهي ضربان : شهوية وغضبية . الصنف الثاني القوة الفاعلة التي يصدر عنها تحريك الاعضاء .

النوع الرابع القوى العقلية : وهي أربع مراتب : الاولى القوة التي بها يفارق الانسان البهائم وهي استعداده لقبول العلوم النظرية والصنائع الفكرية . الثانية القوة التي تدخل الوجود للصبي المميز ، وبها يدرك الضروريات والممكنات والممتنعات كالعلم بان الاثنين أكثر من الواحد فيقال له التصورات و التصديقات الضرورية . الثالثة قوة تحصل بها العلوم المستفادة من التجارب بمجاري الاحوال ، فمن اتصف بها يقال له « عاقل » في العادة ، ومن خلا عنها يقال له « غبي » وهي معان مجتمعة في الذهن فيستنبط بها مصالح الاغراض . الرابعة قوة يعرف بها حقائق الامور و مباديها و مقاطعها حتى يقطع الشهوة العاجلة للذة الاجلة . ثم قال : والاولان مجبولان ، و الاخيران مكتسبان ، وقد قال امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام :

رأيت العقل عقلين ◦ فمطبوع ومسموع ◦ فلا ينفع مسموع ◦ اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ◦ وضوء العين ممنوع

انتهى كلامه . وذكر الطوسي فصلا في القوى اوجز مما ذكره القزويني ، انظر اخلاق ناصري ١٨-٢٠ و انظر جامع السعادات للمولى النراقي أيضاً (١ : ٢٩) و بعد ماذكرناه فانت تقدر على استخراج ما قاله المصنف منها .

الشهوة جموداً ، وإلى الغضب جبناً . فإذا اعتدلت فضيلة ثالثة هي العدالة ، و هي الحادثة من تهذيب القوّة العمليّة ، وطرفاها الظلم والانظلام ، فإذا هذّبت القوّة الشهويّة تسمّى عفّة ، وتهذيب القوّة الغضبيّة تسمّى شجاعة ، و تهذيب العقليّة تسمّى حكمة . فبعد تهذيبها تسمّى بالحكمة والعفّة والشجاعة .

والعدالة هي الوسط [١] بين كلّ طرفين والوسط محصوربين الأطراف ، والأطراف لاتنحصر ولا تقف عند حدّ بل إلى غير النهاية . و كلّ فضيلة فهي وسط بين رذيلتين هما طرفا الإفراط و التفريط ، و الوسط هو الصراط المستقيم ؛ صراط أولياء الله و خلفائه المنعم عليهم .

فيجب على طالب الكمال أن لايتجاوزه فإنّ بتجاوزه بقدر الانحراف عنه ينحرف عن السعادة الأُخرويّة ، وهذا هوالداء المُعضَل والمرض المشكل الّذي يعجز عنهالبشر ، إلّا الشريد الكامل الفريدمن الأفاضل والأماثل ، وهوطريق الأنبياء والأولياء و كلامهم فيه كثير ، وهو يدلّ على صعوبة الطريق ، وأنّ الواقف على الوسط قليل ، و أنّ الناس يتفرّقون و يتمرّقون عن حافة الوسط في البرازخ المتعدّدة أنحاءً شتّى : منها مايقرب إلى الوسط ، ومنها ما يبعد عنه على مراتب لايمكن حصرها .

و يدخل تحت الحكمة ستّة [٢] : **الذكاء** و هو سرعة إنتاج القضايا و سهولة استخراجها لكثرة مزاولة المقدّمات وصيرورة ذلك ملكة . **وسرعة الفهم** وهو حركة النفس من الملزومات إلى اللوازم بلا توقّف . **وصفاء الذهن** و هو استعداد النفس لاستخراج المطالب بلا اضطراب . **وسهولة التعلم** وهو أن تكون النفس حدّة في اكتساب المطالب بلا ممانعة الخواطر المتفرّقة بحيث تكون بكلّيّتها متوجّهة إليها . **والتحفظ** وهو أن يكون صورالأُمور المدركة بالعقل بقوّة التفكّر و التخيّل مستحصلة بأقلّ نظر . **والتذكر** وهو أن تلاحظ النفس صور المحفوظ في أيّ وقت شاءت بسهولة من جهة الملكة المكتسبة .

---

(١) وانظر الاقوال فى حقيقة العدالة عند النراقى (١ : ٥٢) .

(٢) ترى تفصيل هذه الفضائل فى طهارة الاعراق راجعه .

و يدخل تحت الشجاعة **كبر النفس** وهو عدم المبالاة بالكرامة و الهوان . **والنجدة** وهي أن يكون الإنسان واثقاً بثبات نفسه عند الخوف من الجزع الموجب للحركات المضطربة . **وعلو الهمة** وهو أن لا تكون النفس مستبشرة بالسعادة الدنيويّة ولا متضجّرة بها غير خائفة من الموت . **وثبات الهمة** و هو أن تكون للإنسان قوّة مقاومة الآلام والشدائد . **والحلم** وهو قوّة تمنع النفس عن الغضب بسهولة . **والسكون** وهو أن تكون النفس حريصة على اقتناء الأمور العظيمة لتوقّع الذكر الجميل . **والتحمل** وهو أن تكون النفس قويّة على استعمال الآلات في اكتساب الأمور اللائقة . **والتواضع** وهو أن لا تجعل لنفسك مرتبة على من هو دونك في الجاه علوّاً . **و الحمية** وهو أن يحافظ الإنسان على ما يجب محافظته من غير تهاون . **و الرقة** وهو أن تكون النفس متأثّرة من تألّم أبناء الجنس من غير اضطراب .

ويدخل تحت العفّة **الحياء** وهو تغيّر يحصل عند استشعار ارتكاب القبيح احترازاً عن استحقاق المذمّة . **والرفق** وهو انقياد النفس إلى الأمور الجاذبة على جهة الشرع . **و حسن الهدى** وهو أن يكون للنفس في تكميل نفسها رغبة صادقة . **و المسالمة** وهو أن يظهر المجاملة في النفس عند المنازعة في الآراء بلا اضطراب . **والدعة** وهو أن يكون النفس ساكنة عند حركة الشهوة ، مالكة لزمام نفسها . **والصبر** وهو مقاومة النفس للأمور الملذّة القبيحة حتّى لا تصدر عنه . **و القناعة** وهو رضاء النفس بضروريّات البدن . **والوقار** وهو كون النفس عند توجّهها إلى المطالب خالية عن الاضطراب . **و الورع** وهو أن تكون النفس ملازمة على الأفعال الجيّدة والأعمال اللائقة . **والانتظام** وهو أن يكون للنفس تقرير وترتيب بحسب الوجوب و رعاية المصالح و يكون ذلك ملكة . **والحرمة** وهو أن تتمكّن النفس من اكتساب المال من المكاسب الجميلة و يصرفها في الوجوه المحمودة . **والسخاء** وهو إنفاق المال على وجه الأسهل ، وتحته الكرم وهو أن يسهل على النفس بذل ما يحتاج إليه عند ظهور الاستحقاق . **و العفو** وهو أن يسهل على النفس ترك المكافاة . **والمروءة** وهو أن تكون للنفس رغبة في التحلّي بزينة الإفادة وبذل ما لابدّ منه . **و النبل** وهو أن تكون النفس مبتهجة بملازمة السيرة الحسنة **و المواساة** وهي معاونة

الأصحاب والمستحقّين في المعيشة والمال. **والمسامحة** وهو ترك مالا يجب تركه من طريق الاختيار وما يدخل تحت العدالة و تهذيب النفس وتحصيل الأجر. **و الصداقة** وهي محبّة صادقة تبعث على تهيّؤ أسباب فراغة الصديق. **والالفة** وهي معاونة بعض لبعض في تدبير المعيشة من جهة الاعتقاد في الصحبة، والوفاء التزام طريق المواساة و المعاونة الغير المتجاوزة. **والشفقة** أن يكون عند مشاهدة حال غير ملائمة بأحدتهتمّ بإزالة ذلك. **وصلة الرحم** وهو أن تشرك الأقرباء والمتعلّقين في الخيرات الدنيويّة. **و المكافاة** وهو أن يقابل الإحسان الّذي صنع به بمثله أو بأكثر منه. **وحسن الشركة** وهو أن يكون الأخذ والعطاء في المعاملات على وجه الاعتدال الموافق. **وحسن القضاء** وهو أن تكون الحقوق المتوجّهة عليه يؤدّيها على وجه لايكون فيها منّة و ندامة. **و التودد** وهو طلب مودّة الأكفاء وأهل الفضل بحسن النظر والقول. **والتسليم** وهو أن يكون الفعل المتعلّق بالبادي لا يعترض عليه. **والتوكل** وهو أن تكون الأفعال المتعلّقة بالقدر و الكفاية البشريّة يفوّضها إلى الله تعالى بحيث يعلم أنّه المتصرّف فيها والفاعل، ولا يطلب زيادة ولا نقصاناً ولا تعجيلاً ولا تأخيراً. **و العبادة** وهو أن يكون الباري تعالى معظّماً عنده في النفوس ممجّداً في القلوب، و كذلك مقرّبي[٢] الحضرة الإلهيّة كالأنبياء و الأولياء و الملائكة عليهم السلام وطاعتهم.

فهذه أنواع الفضائل الّتي ينبغي للطالب أن يحصّلها بأسرها و يضمّها إلى جميع المحاسن الّتي يهذّب بها نفسه ولا يتساهل في ترك شيء منها فيتساهل في المعاد والله المسؤول لنيل المراد و المأمول للوصول إلى طريق الرشاد.

وقيل[١]: الأدب أدبان: أدب النفس و أدب الدرس. فأدب النفس أشرف من أدب الدرس كشرف النفس على الجسد لأنّ أدب الدرس ينفع ولا يضرّ؛ وأدب الدرس بلا أدب النفس فليس يكون عن عقل لكن عن تأديب يجري مجرى تأديب القرد و الدبّ و الفيل و ما يجري مجراها من البهائم، ولقد أجاد بعض أهل الحكمة في قوله: «اقدعوا هذه النفوس فإنّها ضلعة، و حادثوها فإنّها سريعة الدثور».

(١) ذكره ابن منظور في اللسان مادة (ادب).
(٢) الصواب: مقربو، بالرفع

و يقرّر مع النفس أيضاً أن يحفظ عليها النعم الغير [١] المتناهية و الذخائر والمواهب الّتي لا تعدّ ولا تحصى فلا يهمل ذلك بالكسل و التغافل و الإغماض و يجاهد نفسه حقّ الجهاد ويعالج منها بعض مافيها من الأمراض فإنّ الأمراض النفسانيّة أعظم من الأمراض البدنيّة وعلاجهاأصعب من علاجها وأنفع وأجدى .

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وقدرجع عن بعض غزواته [٢] : « رجعنا من الجهادالأصغر إلى الجهاد الأكبر » و عنى بذلك جهاد النفس ، نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لذلك إنّه كريم وهّاب .

و روي [٣] عن كميل بن زياد ، قال : سألت مولانا أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال : فلت : يا أمير المؤمنين ! أُريد أن تعرّفني نفسي ، فقال : يا كميل ! أيّ النفس تريد أن أعرّفك ؟ قلت : يامولاي وهل هي إلّا نفس واحدة ؟ فقال : يا كميل إنّها هي أربعة : النامية النباتيّة ، و الحسّيّة الحيوانيّة ، و الناطقة القدسيّة ، و الملكيّة الإلهيّة [٤] ، ولكلّ واحدة من هذه خمس قوى وخاصّيّتان .

فالنامية النباتيّة لها خمس قوى : ماسكة ، و جاذبة ، و هاضمة ، و دافعة ، ومربيّة . ولها خاصّيّتان : الزيادة والنقصان ، و انبعاثها من الكبد وهي أشبه الأشياء بأنفس الحيوان .

والحسّيّة الحيوانيّة لها خمس قوى : سمع ، وبصر ، و شمّ ، وذوق ، ولمس . ولها خاصّيّتان : الرضاء والغضب . وانبعاثها من الكبد وهي أشبه الأشياء بأنفس السباع .

والناطقة القدسيّة لهاخمس قوى : فكر ، وذكر ، و علم ، و حلم ، و نباهة . و ليس لها انبعاث وهي أشبه الأشياء بأنفس الملائكة . ولها خاصّيّتان : النزاهة و الحكمة .

والملكيّة الإلهيّة [٥] ، لها خمس قوى : بقاء في فناء ، ونعيم في شقاء ، و عزّ في

---

(١) الصواب ، غير المتناهية ، بحذف لام « الغير » ومثله قدمر وسيأتى مراراً .

(٢) ذكره الطريحى فى مجمع البحرين مادة (جهد) وورام فى مجموعته (٩٦:١) .

(٣) رواه الطريحى مادة (نفس) بتفصيله .

(٤و٥) فى المجمع : الكلمة الالهية ، فى الموضعين .

ذلّ ، وفقر في غناء ، وصبر في بلاء . ولها خاصّيّتان : الحلم ، والكرم ، وهذه الّتي مبدأها من الله تعالى و إليه تعود لقوله تعالى [١] « فنفخنا فيه من روحنا » و أمّا عودها فلقوله تعالى [٢] : « يا أيّتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة » و العقل وسطاً لكيلا يعلم أحد كم شيئاً من الخير والشرّ إلّا بقياس معقول .

وقال بعض البلغاء في الاهتمام بما هو الأهمّ من إصلاح أمر النفس على تقديم البدن وتقديم طبّها وعلاجها عليه : بأنّ الإنسان إذا كان قد علم أنّه مركّب من شيئين : أحدهما أشرف وهو النفس والآخر أدنى وهو الجسم ، فاتّخذ للدنيء منها أطبّاء يعالجونه من أمراضه الّتي تعروه ، ويواظبون عليه بأقواته الّتي تغذوه ، ويتعاهدونه بأدويته الّتي تنقّيه ، وترك أن يفعل بالشيء الشريف مثل ذلك ، فقد أساء الاختيار عن بيّنة ، وأتى بالغلط عن بصيرة . و أطبّاء هذه النفس هم الأفاضل العلماء ، وأقواتها الغاذية هي الآداب المأخوذة عنهم وأدويتها المنقّية هي النواهي والمواعظ المسموعة منهم .

واعلم إنّ الإنسان إذا ادّعى معرفة الأشياء وهو لا يعرف نفسه ، فمثله مثل من يطعم الناس وهو جائع ، أو مثل من يكسو غيره وهو عريان ، أو كمثل من يداوي غيره وهو عليل أو كمثل من يهدي الناس طريقاً وهو لا يدري طريقه ، وقد علم أنّ هذه الأشياء ينبغي الإنسان أن يبتدء فيها أوّلاً بنفسه ثمّ بغيره .

وأعلموا أيّدكم الله ؛ أنّ اسم الإنسان هو واقع على هذا الجسد الّذي هو كالبيت المبنيّ ؛ وعلى هذه النفس الّتي هي كالساكنة فيه وهما كالجزءين له وهو جملتهما والمجموعة منهما ؛ ولكن أحد الجزءين الّذي هو النفس أشرف و هو اللبّ ، والآخر الّذي هو الجسد كالقشر . والإنسان الّذي هو جملتهما كالثمرة . ووجه آخر : أحدهما كالراكب وهو النفس والآخر كالمركوب وهو الجسد والإنسان الّذي هو جملتهما كالفارس . فمن أجل هذا يحتاج الإنسان في أن يعرف نفسه ، و الشاهد في ذلك قوله ﷺ : « من عرف نفسه فقد عرف

---

(١) سورة الانبياء : ٩١ ، سورة التحريم : ١٢ .

(٢) سورة الفجر : ٢٨ .

ربّه ، فحينئذٍ معرفة النفس واجبة على كلّ عاقل .

وحقيقة ذلك أن ينظر من وجوه ثلاثة :

أحدها : النظر في حال الجسد ما هو ، و كيف هو من تراكيب أجزائه ، وتأليف أعضائه ، وما الصفات المخصوصة به خلواً من النفس .

والجهة الأخرى النظر في نفس الأمر المجرّدة من الجسد وقواها وماهي و كيف هي وما الصفات المخصوصة بها .

و الجهة الثالثة بالنظر في مجموعهما ، وما يظهر من جملتهما من الأخلاق والأفعال والحركات والصنايع والأعمال والأصوات وما شاكل ذلك .

و نبتدىء أوّلاً فنذكر من حالات الجسد وصفاته شيئاً مختصراً كيما يكون ذلك دليلاً على أمر النفس و حالاتها ، لأنّ حالات الجسد ظاهرة مكشوفة جليّة مدركة بالحواسّ ، وأمّا أمر النفس وحالاتها وأمراضها و علاماتها فغايبة عن إدراك الحواسّ ، و باطن في عمق الجسد مستور خفيّ ، وإنّما يدرك ذلك بالعقل .

و اعلموا أيّدكم الله أنّ الشاهد من حالات الجسد يدلّ على الغائب من حالات النفس ، والظاهر المكشوف على المستور ، والجليّ على الخفيّ ، و المحسوس على المعقول ، فالجسد هو المؤلّف من اللحم والدم والعظام والعروق والعصب والجلد وما شاكلها ، و كلّ هذه أجسام أرضيّة ميّتة مظلمة ثقيلة متغيّرة فاسدة . فأمّا النفس ، فإنّها جوهرة سماويّة روحانيّة حيّة نورانيّة غير ثقيلة ، متحرّكة غير فاسدة ، علاّمة درّاكة لصور الأشياء .

و اعلموا أيّها الإخوان أيّدكم الله وإيّانا بروح منه ، أنّ الله سبحانه لمّا خلق جسد الإنسان وسوّاه ، ونفخ فيه من روحه و أحياه ، ثمّ أسكن فيه النفس و ولاّها ، فكان مثال أساس بنية الجسد ، وتركيب أجزائه ، وتأليف أعضائه كمثل أساس بناء مدينة بنيت من أشياء مختلفة من حجارة ، ولبن ، وطين ، وآجرّ ، ونورة ، ورماد ، وخشب ، و جذوع ، وحديد وماشاكلها ، فأُحكمت بنيتها ، وشُيّد بنيانها ، وحُصّن سورها ، وقُسّمت محالّها ورُتّبت منازلها ، و مُلئت خزائنها ، و سُكنت دورها ، و سُلكت طرقاتها ، و أُجريت أنهارها ، وفتحت أسواقها ، واشتغلت صنّاعها ، وقعدت تجّارها ، ودبّرها ملكها ، وخدمه

أهلها ، وأسكنها أطبّاءها ، وأرسل إليها أنبياءها ليهدوا أنفس أهلها .

روي : المسيح عليه السلام يخرج من بيت مومسة [١] فقالوا : ياروح الله ماتصنع عند هذه ؟ فقال : إنّما يأتي الطبيب المرضى فسبيل الحازم الّذي يريد أن يستبدل بالشرّ خيراً ويستفيد مكان الرذيلة فضيلة و يقتني من الخطاء صواباً سبيل من أضلّ لؤلؤة ، فجمع ما حول مسقطها من التراب ، ثمّ التمسها حتّى وجدها ، فكذلك هذا يجمع وجوه الرأي في أمره ، ثمّ يضرب بعضه ببعض حتّى يخلص إلى رشده ، يوقظ بذلك نفسه كلّ يوم مراراً بالذكرى ، وإن عاقه عائق أن يكون ذلك متواصلة تترى ، فلا يقصّر فيها في وقتين من النهار صباحاً قبل الإشغال بالأعمال ، ورواحاً قبل الميل إلى المنام والجمام [٢] . فيعدّل الميل ويقوّم الأود [٣] ، ويصلح الفاسد ومادام الطبع في حدّ النشوء والنبات قبل أن يتأصّل و يستحكم ويستفحل فيصير داء لامطمع في علاجه ، وباباً مُصمَتاً مرصداً لاسبيل إلى رتاجه .

وقال بعض الحكماء : لاينبغي للعاقل أن يخلّي نفسه في كلّ يوم من أربعة أوقات ، فوقت منها يناجي فيه ربّه ، ويشكر فضله ، ويحسن عبادته ، ووقت يحاسب فيه نفسه فإن وجد فيه فساداً أصلحه وإن رأى زيغاً قوّمه ، ووقت يكسب فيه لمعاشه الّذي يقيمه ويغنيه أن يكون عيالاً لمثله ، و كلاًّ على صاحبه ، ووقت يخلّي فيه بين نفسه و بين حاجتها من غير محرّم ومعاب ويستعين به على سائر الأوقات .

وقال بعض الحكماء : كفّوا عزب أنفسكم ، فطال ما أهرجتموها في البطالات ، وشدّ ما أمزجتموها في الخسارات ، و القلب إذا انغمس في بحر الشهوات لم يتّقد فيه أنوار الهدايات كالجسد إذا استحكم فيه الدّاء لم ينفعه بعد ذلك الدواء ، فردّوا تنفرة النفوس قبل استفحالها ، وأدملوا جروح الهوى قبل إعيائها وإعضالها ، وتعوّدوا الخير في حال اللّين من أعوادكم ، وإمكان التغيّر والنقل في معتادكم قبل أن يرسخ فيكم الشرّ على مرور الأزمان ، ويستمرّ بكم الفساد على المواظبة والإدمان ، يطاوعكم الكبر للعود

(١) بهامش الاصل : اسم امرأة فاحشة .

(٢) بكسر الجيم جمع الجم : الكثير من كل شيء .

(٣) الاود : الاعوجاج .

على عود عاسي ، وخلق جاف جاسي [١] . وطينة جامدة لم يبق فيها لدونة [٢] ، و قوّة هامدة ما بها على عمل معونة .

اختم وطينك رطب إن قدرت فكم * قد أمكن الطين أقواماً فما ختموا [٣]
ولّوا فما رحموا أيّام عزّهم * حتّى إذا عزلوا ذلّوا فما رُحموا

فهذا حدّ الأوقات الأربعة في طريق تهذيب الأخلاق . و قال البُحتريّ :[٤]

لم يبق من جلّ هذا الناس باقية * يناله الوهم إلّا هذه الصّور
لا يدهمنّك من دهمائهم عدد * فإنّ كلّهم أو جلّهم بقر

وقال آخر :

خنازير ناموا عن المكرمات * فأيقظهم قدَرٌ لم ينَم
فيا قبحهم في الّذي خُوّلوا * و يا حسنهم بزوال النعم !

فلا شيء في هذا الباب كالمعاصي عن هوى ، وفي حال صبىً ؛ فإنّ الإنسان يستقبح عن غيره وينكرها منه غاية الإنكار ، ثمّ إذا تعاطاها بنفسه جاءه صباه بعذره ، وحدّثته نفسه بمغفرة الله له وعفوه عزّ وجلّ عنه ، ولغلبة هذا المعنى على النفوس بأسرها ما ذكر الشاعر هذه الآفة عامّة ولم يخصّ ، وأرسلها مطلقة ولم يقيّد فقال :

أرى كلّ إنسان يرى عيب غيره * و يعمى عن العيب الّذي هو فيه
وما خير من يخفى عليه عيوبه * ويبدو له العيب الّذي لأخيه

وفي بعض الخطب : استبينوا بعقولكم طريق الصلاح ، واستبصروا برأيكم وجه الفلاح ، فما أبين وجوه الهدى في النهى إن لم تصدأ [٥] بأنفاس الهوى ! ومن لم يتأمّل

(١) عسا النبات يعسو : غلظ و صلب الجاسى من النبات ونحوه : اليابس .
(٢) اى رطوبة .
(٣) قوله « ختم » من ختم الاناء يختمه - بالفتح فى الماضى و الكسر فى المستقبل - سده بالطين أوغيره .
(٤) انظر ديوانه (٢ : ٦٧٣) وروايته : ينالها الفهم .
(٥) صدأ الحديد : علاه الصدأ ، و الصدأ - محركة - مادة لونها يأخذ من الحمرة و الشقرة تتكون على وجه الحديد ونحوه بسبب رطوبة الهواء .

الشيء بعين لبّه وقعت ذبابة اقتحامه في سوداء قلبه . ومن أطاع هواه فقد عصى رشده ، ومن وجدمُناه ضلّ هداه وقصده ، ومن لم يتوخّ محامد الأُمور سقط في مهالك الثبور ، و ليس الخير إلّا ما حمده المرء من سواه ، ولا الشرّ إلّا مازمّه ممّن عداه ، فأمّا الّذي يعجبكم من أفاعيلكم فلا تثقوا فيه بأنفسكم حتّى تقدّروه واقعاً عن غير كم ، و كيف تصدّقكم أنفسكم عن سنن تبتكرها وتبيّن لكم جهات خيرها وشرّها ، ومع العقل الهوى والغضب يخالطانه ويغالطانه ، ويجاذبانه ويغالبانه ، ولا يدلوواحد باثنين،ولاطاقةلمغموربين الضدّين. فأمّا استقراء فعل الغير في الشرّ والخير ، فهوخالص عن شوب هوى النفس وأربها ، فارغ عن تواري غيظها وغضبها ؛ فتقبّلوا ما استحسنتم منه أوتقيلوا ، وماستهجنتم فاجتنبوه ولا تفعلوه .

وقد روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : إنّما هو خير يرجى أو شرّ يتّقى ، و باطل عُرف فاجتنب ، وخير تيقّن وطُلب ، وآخرة أُظلّ إقبالها فسعى لها ، و دنيا أزف نفادها فأعرض عنها ، أيّها الناس إنّ الأشياء ثلاثة : أمر استبان رشده فاتّبعوه ، وأمر استبان غيّه فاجتنبوه ، و أمر اختلف عليكم فردّوه إلى الله ، أيّها الناس إنّ ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن[1] وما رآه المسلمون سيّئاً فهو عند الله سيّىء .

قال الغزاليّ : فهذا هو المذهب الأتمّ و السبيل الأقوم في استحسان ما استحسنه المسلمون والاقتداء بهم إذاكان ذلك مأموناً من ميل هوى ، وزيغ دواعي الطبع على ماذكرناه مراراً ، على أنّ لشدّة جواز الخطاء على الإنسان من قبل هواه و كذب النفس فيما يعلمه ويهواه ما كان من مذهب كثير من ذي الرأي و الدهاء ؛ تحرّى رأياً من الآراء ثمّ تنكّبه إلى ضدّه وردّه إلى عكسه ، كما حدّث أبوالفتح البستيّ قال : كنت خارجاً إلى السلطان الماضي عن الدولة بظاهر بلدة نيشابور ، فاستقبلني الراعي العلويّ في بعض الطريق وبيننا مخاضة وكان في فصل الربيع ، فلمّا بصربي خاض تلك المخاضة حتّى حصل في الجانب

---

(١) بهامش الاصل : قوله صلى الله عليه وآله : «ان ما رآه المسلمون حسناً الخ» يعنى اكثر المسلمين لا من قل منهم فان القليل غالباً لا يخلو من الزيغ والضلال والله أعلم بحقيقة الحال . منه .

الّذي كنت فيه منها ، ثمّ أخذ يسألني عن حالي وما أتصرّف عليه في أشغالي وأنا أفاوضه في كلّ فنّ من أمرنا وشأننا ، فقال لي : إنّني إذا استقبلني أمر أشكل عليّ وجه الصواب فيه لم أزل أقلّب الرأي ظهر البطن وأفكّر في تبيّن صورة الصلاح ، وسفور وجه النجاح ، فإذا تبيّن لي ذلك خالفته إلى ضدّه فجاءني الأمر كما أريد ، فقلت : وأنا بهذا الحال ولي في ذلك أبيات من قصيدة فلتها :

و إن هممت بأمر * و لن تطق تخريجه

فقس قياساً صحيحاً * واحكم بضدّ النتيجه انتهى[1] .

قلت : هذه تعليلات لا فائدة فيها فإنّا رأينا من أهل زماننا هذا يستحسنون القبيح ويستمرّون على فعله زماناً طويلاً حتّى يزول قبحه ، وسبب ذلك ميل النفس إلى الظلم وزيغ الطبع عن الحقّ و اتّباع الهوى واختلاف الآراء ، والمثل المشهور[2] « حبّك للشيء يُعمي و يُصمّ » ومتى أحبّ الإنسان أفعاله القبيحة صارت في نظره حسنة مقبولة لا يمكنه العدول عنها ، فإذا رآها من هو في رتبته من الجهل والعمى اقتدى به و فعل مثلها ، و هكذا يتسلسل الأمر من واحد إلى آخر حتّى يشتهر ، و تصير تلك البدعة من

---

(١) انظر احياء العلوم . و **البستي** الذي ذكره الغزالي هو علي بن محمد بن الحسين بن يوسف ، الشاعر المشهور صاحب الطريقة الانيقة و التجنيس الانيس ، وكان في عنفوان أمره كاتباً لبابتوزصاحب **بست** ولما افتتحها ناصر الدين سبكتكين استحضره وفوض اليه مهمات ديوانه ، ثم بقي يكتب عند يمين الدولة محمود بن سبكتكين الى أن زحزحه القضاء عن خدمته ونبذه الى ديار الترك فانتقل بها الى جواربه . وله نثر رائق بديع وفصول قصار تجرى مجرى الامثال اشهر قصائده نونيته التي يقول فيها :

زيادة المرء في دينه نقصان * و ربحه غير محض الخير خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها * فأنت بالنفس لا بالجسم انسان

من استعان بغير الله في طلب * فان ناصره عجز و خذلان

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم * فطال ما استعبد الانسان احسان

وهي قصيدة تربو على خمسين بيتاً أوردها الاب شيخو (٤ : ٩٤-٩٧) ولد البستي سنة ٣٣٩ وتوفي ٤٠٠ هـ انظر وفيات الاعيان (٣ : ٥٨ ، برقم ٤٤٣) ومجاني الادب (٦ : ٣٠٦) .

(٢) انظر مجمع الامثال للميداني (١ : ٢٠٥) .

جملة المستحسنات بل من العبادات المستحبّات كالغناء وسماع المطربات ، كما ذكره ونصّ عليه في كتابه عبدالسلام[١]، وهو كتاب موسم بحلّ الرموز ومفاتيح الكنوز ، بعد أن نقل الأخبار الموضوعة في تجويز الغناء ، فقال :

وقد ثبت النصوص بالغناء في بيته - أي بيت رسول الله ﷺ - و ضرب الدفّ في حضرته ورقص الحبوش في مسجده ، وإنشاد الشعر بالأصوات الطيّبة بين يديه ، فلا يجوز أن نقول بتحريم الغناء واستماعه على الإطلاق ، بل يختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص وأرباب الرياء والإخلاص .

وقال في الكتاب المذكور :

اعلم أنّه تحتمّ ههنا ، و وجب ذكر السماع ، وما هو منه محظور ، وما هو منه مباح ، وما هو مستحبّ مستحسن ، فإنّ كثيراً من المتعمّقين والمتقشّفين [٢] كرهوه وأنكروه أصلاً وفرعاً وحقيقة وشرعاً ، وهذا غلط منهم ؛ لأنّ ذلك يفضي إلى تخطئة كثير من أولياء الله ، وتفسيق كثير من العلماء ، إذ لا خلاف أنّهم سمعوا وتواجدوا وأفضى بهم إلى الصُراخ والغشية والصعق ، فكيف ينسب إليهم نقص وهم سالكو أتمّ الأحوال ؟ قال أبوطالب المكّيّ [٣]: إن طعنّا على السماع فقد طعنّا على سبعين صدّيقاً وقال أبوالقاسم الجنيد[٤]: السماع لايُحدث في القلب شيئاً ، وإنّما هو مهيّجُ ما فيه ، فتراهم يهيجون من

---

(١) هو عبد السلام بن غانم المقدسي الشافعي المتوفى سنة ٩٧٨ هـ واسم كتابه «حل الرموز وكشف الكنوز» في التصوف . انظر كشف الظنون ط استنبول (١: ٦٨٦) .

(٢) بهامش الاصل : التقشف : لبس الثياب الخلقة المرقعة ، المتقشف : الذي يتبلغ بالقوت و بالمرقع .

(٣) هو محمد بن على بن عطية الحارثي ، واعظ فقيه ، اشتهر بمكة و رحل الى بغداد فتوفى فيها سنة ٣٨٦ هـ وله كتاب «قوت القلوب» في التصوف ، مجلدان و «علم القلوب» . وفيات الاعيان (٣ : ٤٣٠ برقم ٦٠٢) قاموس الاعلام : ٩٤٤ .

(٤) هو الجنيد بن محمد الخزاز ، أصله من نهاوند ومولده و منشأه العراق ، قال ابن الاثير: امام الدنيا في زمانه ، وعده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب و السنة ، و لكونه مصوناً من العقائد الذميمة ، محمي الاساس من شبه الغلاة ، سالماً من كل ما يوجب اعتراض الشرع . توفى ببغداد ٢٩٧ هـ انظر كامل التواريخ لابن الاثير حوادث تلك السنة ، و وفيات الاعيان (١: ٣٢٣ برقم ١٤٠) وشرح المجاني : ٣١٠ و قاموس الاعلام : ١٩٥ .

حيث وجدهم ، وينقطون من حيث قصدهم ، ويتواجدون من حيث كامنات سرائرهم لا من حيث قول الشاعر ومراد القائل ، ولا يلتفتون إلى الألفاظ ؛ لأنّ الفهم يبادر إلى ما يتخيّله الذهن . وشاهد ذلك ما حكي أنّ أباحلمان الصوفيّ سمع رجلاً ينادي : يا سعتر برّي ! فسقط وغشي عليه ، فلمّا أفاق قيل له في ذلك ، فقال : سمعته : إسع ترى برّي . ألا ترى أنّ وجده وحركته من حيث ما هو فيه من وقته لا من حيث قول القائل وقصده . كما روي عن بعض الشيوخ أنّه سمع قائلاً يقول : الخيار عشرة بحبّة ، فغلبه الوجد ، فسئل عن ذلك فقال : إذا كان الخيار[1] عشرة بحبّة ، فما قيمة الأشرار ؟ **و الذي** سمعته من بعض هؤلاء الصوفيّة ، أنّ رجلاً منهم قال لي عند دقّ النقّارات ، والنفخ في البوقات ، والنفير في الأسحار و أواخر النهار : إنّ هذه ليست بملاهي ، وإنّما هي في نفس الأمر عبادات وأذكار مشغولة بذكر الباري سبحانه و تعالى .

فهذه التعليلات وأمثالها لا تجدي نفعاً ولا تقبل عقلاً ولا شرعاً ، و إنّما هي من الموبقات والمناهي المحرّمات . وذكر عبدالسلام في كتابه المذكور غير ذلك ، مثل استشهاده على تجويز الغناء والسماع بما رآه بعضهم من المنامات ، فكيف يحلّ لمسلم أن يترك العبادات المستحبّة بل الواجبة أيضاً ويشتغل بمثل هذه المستحسنات ؟

وأمّا أهل الدين ، فمذهبهم أنّها تجرّ الأنفس إلى الكفر والزندقة ، ومنشأ هذا حصل من مخترعات العامّة وتلبيساتهم لأمور لم يحتملها هذا المختصر ؛ فالمرجوّ من الخاصّة أن يتّبعوا أقوال أئمّتهم الطاهرين عليهم السلام وأفعالهم الّتي لا يشوبها زيغ ، وهم - صلوات الله عليهم - أمرونا بضدّ ما تفعله ؛ فإنّه الحقّ والصواب ويترقّب عليه جزيل الثواب ، و كلّها يعجب النفس وتستحسنه فلا فائدة فيه فينبغي أن يخالفه إلى ضدّه .

ومن هذا قول الأحنف بن قيس[2] : « كفى بالرجل رأياً إذا اجتمع عليه أمران

---

(١) الخيار هذا جمع الخير ، وما سبق مفرد ، وهو تمر كالقثاء .

(٢) أبو بحر ، الضحاك بن قيس التميمي . لقب بالاحنف لانه كان يمشي على ظاهر رجله ، و هو من كبار التابعين، معروفاً بحصافة العقل ، يضرب المثل بحلمه . شهد مع علي عليه السلام وقعة صفين ، وله مع معاوية معاتبات توفي سنة ٦٧هـ . ترى أحواله وأقواله في الوفيات (٢ : ١٨٦ برقم ٢٨٢) و مجمع الامثال (١ : ٢٢٩ في : أحلم من الاحنف) و متفرقات في الاغاني . وانظر المستطرف (٢ : ٨) ومجاني الادب (٥ : ٦٤) و شرحه ٢٥-٢٦ .

فلم يدر في أيّهما الصواب، أن ينظر أعجبهما إليه وأغلبهما عليه فيحذره، و كما أنّ مخالفة ما يعجب المرء من الأمرين، قد غلبته عليه نفسه من الرأيين طريق في استنباط الصواب و استثارة الحقّ، استشارة ذي الجهل والأفن [١] في الرأي ليخالف ما يشير به إلى ضدّه أيضاً طريق قريب.

وقد جاء به الشرع، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله [٢]: «شاوروهنّ وخالفوهنّ» و ذلك لفتنة أدوائهنّ و ضعف عقولهنّ و ميل الهوى بهنّ إلى ما هو غير الرشد فعلاً و السداد قولاً.

وقال بوذرجمهر: إذا اشتبه عليك أمران فانظر أحبّهما إلى نفسك فاجتنبه، وإذا أعياك فشاور امرءة وخالفها.

ولمّا وقعت الفتنة بالبصرة أيّام ابن الزبير، مرّ أبو الأسود الدؤليّ [٣] على مجلس بني قشير، فقال: يا بني قشير! على ماذا اجتمع رأيكم في هذه السنة؟ قالوا: و لِمَ تسألنا يا أبا الأسود؟ قال: لأُخالفه فإنّ الله لا يجمعكم على هدىً [٤]. و أُنشد في هذا المعنى:

إذا اشتبه الأمران يوماً وأشكلا * عليّ، ولم أعرف صواباً ولم أدر
سألت أبا بكر خليل محمد * فقلت له: ما تستحبّ من الأمر؟
فإن قال قولاً، قلت شيئاً خلافه * لأنّ خلاف الحقّ قول أبي بكر

---

(١) أفن يأفن ـ من باب علم يعلم ـ ضعف رأيه، فهو أفين ومأفون، ولم يستعمل منه «أفن».

(٢) وانظر المستطرف (١: ٧٤) وربيع الابرار للزمخشري باب مشاورة النساء.

(٣) ظالم بن عمرو بن سفيان الكناني ـ وفي اسمه و نسبه خلاف ـ واضع علم النحو والنقط في القرآن، كان معدوداً من الفقهاء والامراء والشعراء والفرسان، رسم له علي عليه السلام شيئاً من اصول النحو فكتب فيه أبو الاسود، سكن البصرة و ولي امارتها [١٦ ق هـ ـ ٦٩ هـ] الاغاني (١١: ١٠١) الاصابة (٢: ٢٣٢) معجم المرزباني ٢٤٠ خزانة الادب (١: ١٣٦) قاموس الاعلام ٤٥٤.

(٤) وذلك أن بني قشير كانوا أنصار عثمان، وكانوا يميلون الى أبي الاسود، وله معهم خبر وشعر أورده أبو الفرج في الاغاني (١١: ١١٢-١١٣).

ولمّا كان الإنسان قد يغالط غير نفسه أيضاً، إمّا بسبب حبّ ومِقة [١] أو بغض ومقت، كما قيل:

وإذا كرهتُ فتىً كرهت لقاءه * وإذا سمعت كلامه لم أطرب

وقال آخر [٢]:

فعين الرضا عن كلّ عيب كليلة * ولكنّ عين السخط تُبدي المساويا

وقال آخر:

وعين السخط تُبصر كلّ عيب * كذا عين الرضا عن ذاك تُعمي

وقال آخر:

ويقبح من سواك الفعلُ عندي * و تفعله فيحسن منك ذاكا

وقال آخر:

و يحسن دلّها و الموت فيه * كما يستحسن السيف الصقيل

وكان الشبليّ [٣] ينشد:

ذاب ممّا بفؤادي بدني * و فؤادي ذاب ممّا في البدن

زاد من فرط تحولي حزني * وتحولي زاد في فرط الحزن

شجني هيّج للعين البكا * و البكا هيّج للعين الشجن

فاقطعوا حبلي وإن شئتم صِلوا * كلّ شيء منكم عندي حسن

واعلم أنّ السبب الباعث على ميل الإنسان إلى اعتبار هذا الحال وانجذابه إلى

---

(١) مصدر قولك: ومقه يمقه - بكسر العين فيهما - أحبه، وفي الاصل مشكولا بفتح الواو وسكون الميم، وبهامشه «الومقة الرؤية المستحسنة» وهو عجيب!

(٢) البيت عند الثراقي (١: ٢٨٤) بلاعزو.

(٣) أبوبكر دلف بن جحدر الشبلي - منسوباً الى شبلة، بلدة عظيمة وراء سمرقند - صوفي ناسك بغدادي، كان في مبدء أمره والياً في دنباوند - من نواحي رستاق الري المعروف اليوم بدماوند - ثم ترك الولاية في ٤٠ من عمره وعكف على العبادة وصار من شيوخ الصوفية، وبالغ في التقشف حتى أنه يكحل عينيه بالملح لكي لاينام؛ ولد ٢٤٧ و توفي ٣٣٤ هـ. وفيات الاعيان (٢: ٣٩ برقم ٢١٥) وقاموس الاعلام: ٣١١.

مثل هذه الأغلاط هو ميله إلى الشهوة والمحبّة المركوزة في جبلّته فيخيّل له الشرّ على أنّه خير والجور على أنّه عدل ، و الخطأ على أنّه صواب ، والهوان على أنّه حلم ، والبخل على أنّه حزم ، والاقتحام على هلاك النفس أنّه نجدة ، والجُبن على أنّه تقيّة . ألا ترى كيف يخيّل للشاعر الحقد عقلاً وفضلاً فقال :

وما الحقد إلّا توأم العقل للفتى * وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض

إذا الأرض ادّت ربع ما أنت زارع * من البذر فيها ، فهي ناهيك من أرض

وهو كما ظنّ آخر فقال :

الحلم عجز والتواضع ذلّة * عندي، وبعض الجهل حلو المُجتنى

وكما ظنّ ابن المعتزّ [١] البخل خيراً وفيه قال :

يا ربّ جود فقر امرءاً * فقام في الناس مقام الذليل

فاشدد عرى ما كلّ واسعته * فالبخل خير من سؤال البخيل

واعلم أنّ المنهج الواضح والطريق الجدد الشارع نحو تهذيب الأخلاق ، هو الاعتماد على أهل الدين والعلماء الراسخين ، الّذين اجتمعت الكلمة فيهم على الصدق و ثقابة [٢] المعرفة وردع النفس و صرامة [٣] الرأي والبعد عن الملق ومحبّة الإكثار ، و عن غشيان الأكابر ومنادمة ذوي اليَسار ، فإنّ المبتلى بهم لا تخلص نصيحته ولا أمانته ؛ إمّا رهبة من الأقرناء أو رغبة في الأغنياء . فإذا ظفرت بواحد ممّن له هذه الشمم والشمائل وهذه الأخلاق

---

(١) هو المرتضى بالله عبدالله بن محمد المعتز بالله العباسي ، الشاعر المبدع ولد في بغداد و أخذ الادب عن المبرد وثعلب واشتغل بالتاليف و التصنيف ، جاءته النكبة من حيث يسعد الناس ، أقبل عليه القواد واصطفوه بالخلافة وخلعوا المقتدر بالله ، فلم يمض عليه أكثر من يوم أن وثب عليه غلمان المقتدر ، فعاد المقتدر وقبض عليه و سلمه الى خادم له فخنقه ، ولد سنة ٢٤٧ و توفى سنة ٢٩٦ الاغانى (١٣٥:٩) وفيات الاعيان (٢٦٣:٢ ، برقم ٣١٤) قاموس الاعلام : ٥٧٨ ومن أحسن ما قال (ديوانه :٣٣٣) :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى * واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر مايرى

لاتحقرن صغيرة ان الجبال من الحصى

(٢) ثقب - بالضم - ثقابة : أشبه النار فى شدة حمرته .

(٣) صرم - بالضم - السيف أو الرجل صرامة : كان صارماً أى ماضياً .

والجلائل ، وعرفته مقتصداً في المعيشة ، قانعاً بكفاية الحال ، وترجيه الوقت ومدافعة الأيّام تاركاً للفضول ، صادقه ثمّ فاوضه في شأنك والاصطناع لك لله والإحسان إليك بتفقّد أُمورك وإنقاذ روحك من أمراضها الموبية [١] وآلامها المُردية ، طالباً ذلك منه بأبلغ الجوار وأشدّ التضرّع والانكسار ، وبالغ في السؤال على أوفى الإكرام والإجلال ثمّ إذا أفضى لك الإقبال إلى قبوله ومقابلته إيّاك بما فيك من عيب ونقص فإيّاك والامتعاض [٢] لذلك والمحاجّة والاعتذار ، بل الاستفادة في نفسك والشكر له على ما أنعم عليك والسرور له سرور المحبّ بحبيبه ، والإكرام له إكرام المريض لطبيبه ؛

إنّ المعلّم و الطبيب كليهما * لا ينصحان إذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه * واقنع بجهلك إن جفوت معلّما

و ما أحسن ما قال أبو الأسود في تحكيم اللّبيب الودود [٣] :

أمنت على الرأي امرءاً غير جازم * ولكنّه والنصح غير مريب
أشاع به في الناس حتّى كأنّه * بعلياء نار أُوقدت بشَبوب
فما كلّ ذي لبّ بمؤتيك نصحه * وما كلّ مؤت نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد * فحقّ له من طاعة بنصيب

وفي وصيّة عبدالله بن شدّاد [٤] بن الهاد ابنه : لا تصحبنّ إلّا من تفقّدت موارده و مصادره فإن استطعت العِشرة و رضيت الخِبرة [٥] فآخه على إقالة العَثرة و المواساة في العُسرة و انتصح لنفسك في الانتفاع بعلمه و الاقتداء بخُلقه ، و كن كما قال المقنّع

---

(١) اسم فاعل اما من آباء الشيء : جعله يمتنع عنه ، وأما من أوبأ المكان ، والمؤبى منه : القليل من الماء أو المنقطع منه .

(٢) الامتعاض : الاغتياظ .

(٣) الابيات خمسة فى الاغانى (١١ : ١٠٥) و اثنان منها فى المستطرف (١ : ٧٣) .

(٤) لعله الدَّوْرخ الرحالة ، طاف بلاد الشام وجزيرة العرب ، وصنف رحلة سماها « الاعلاق الخطيرة » انظر قاموس الاعلام : ٥٥٩ .

(٥) خبر الشيء يخبره ـ بالفتح فى الماضى و الضم فى المستقبل ـ خبرة : علمه عن تجربة .

الكنديّ [١]:

أبل الرجال إذا أردت إخاءهم * و توسّمنّ أمورهم و تفقّد [٢]
فإذا ظفرت بذي الأمانة والتقى * فبه اليدين قرير عين فاشدد [٣]
فمتى يزلّ - ولا محالة زلّة - * حلّي أخيك بفضل حمدك فازدد

و أنشد:

نصح الألبّاء يجلو قلب صاحبهم * كما يجلّي سوادَ الظلمة القمرُ
وليس ذوالعلم بالجُلّى كجاهلها * ولا البصير كأعمى ما له بصر [٤]
لا ينفع العلم قلباً قاسياً أبداً * و هل يلين لقول الواعظ الحجر؟

واعلم بأنّ الّذي ذكرناه إنّما هو طريق سياسة العقلاء والخواصّ من الناس في تهذيب أخلاقهم وأحوالهم، فأمّا العوامّ الّذين لاخلاق لهم ولا موقع للقول النافع عندهم فطريق تهذيب أخلاقهم وإصلاح أنفسهم غير هذه الطرق.

وقد قال بعض حكماء الملوك: الناس ثلاث طبقات تسوسهم ثلاث سياسات: طبقة من خاصّة الأبرار يسوسهم القول المثبت الرشيد على رشده، الصارف بالمخطىء عن خطائه، وطبقة من خاصّة الأشرار يسوسهم الفعل الناكل والعنف المستأصل، وطبقة هم العامّة يسوسهم مرّة هذا ومرّة ذاك لئلاّ يخرجهم غِلظة الفعل بلا إبقاء، ولا يخرجهم لين القول بلا إرهاب. إذا عرفت ذلك: فينبغي لكلّ مؤمن أن يمرّن نفسه على مكارم الأخلاق [٥].

---

(١) هو محمد بن عمير، من بني كندة، شاعر مقل من شعراء الدولة الاموية، كان من أجمل الناس وجهاً وأمدهم قامة، فكان اذا كشف عن وجهه اصيب بالعين، فكان يتقنع دهره، فسمي المقنع ترى احواله وأشعاره في الشعراء (٢: ٧١٥) والاغاني (١٥: ١٥١) واللالي (١: ٦١٥) و شواهد المغني: ١٢٨.

(٢) «أبل» أمر من أبلاه بمعنى اختبره. توسم الشيء: تعرفه و تفرسه.

(٣) قوله «فبه» متعلق بقوله «فاشدد» و «اليدين» مفعوله.

(٤) الجلى مؤنث الاجل: الامور العظيمة.

(٥) بهامش الاصل بخط المؤلف - رحمه الله -: «أعلم أن أحوج الناس إلى الاقتباس من العلماء و توكيل أمرهم إلى الحكماء الملوك، لتمكنهم من تنفيذ هواهم كما شاءوا واقتدارهم على كل الانتقام

واعلم بأنّ الله سبحانه إذا أحبّ خلقاً أهوى إليه خُلقاً من أخلاقه، وإذا رحم الله عبداً أذن له في عمل من أعمال طاعته؛ فهذه ثمرة الرحمة، وتلك ثمرة المحبّة، وهذه غاية العصمة، وتلك غاية الحكمة من التشبّه بالأفعال الإلهيّة بأقصى الطاقة الإنسانيّة.

ـ من غضبوه.

وفي وصية كسرى الى الهرمزان: أما بعد فانه لو كان الملوك يعرفون من حاجتهم إلى ذوى الرأى مثل الذى يعرف أهل الرأى من حاجتهم الى الملوك لم يكن عجباً أن ترى مواكب الملوك على أبواب العلماء كما ترى مواكب العلماء على أبواب الملوك، ولذلك قال الاولون: اذا اراد الله بامة خيراً جعل الملك فى علمائهم و العلم فى ملوكهم، يكاد الملك أن يكون غنيا عن كل شيء اذا كان حكيمها الا عن شيء واحد: عن نصيح عاقل يسلطه على أمره و يردعه عن فلتات الرأى و نزوات الغضب.

وفي مجامع السياسة: ينبغي للملك أن يجالس العلماء ويباسط الحكماء حتى إن أصاب فى أفعاله حمدوه عليها، وإن أخطأ عرفوه وجه الخطاء و أرشدوه الى الصواب فيها، و أضر الاشياء الى الملك أن يقرب منه واحداً ممن له خلق سخيف او سيرة مذمومة فالرذائل كالامراض المعدية و أنشد بعض الشعراء:

لا تصحبن ما عشت انوك فاسدة ● كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد إلى الجليس سريعة ● والنار تدفن فى الرماد فتخمد

وفي أشعار الفرس:

بابدان كم نشين كه صحبت بد ● گرچه پاكى ترا پليد كند
آفتاب ار چه بس بزرك اورا ● پارهٔ ابر نابديد كند

وفيها: الملك انسان وكل انسان لايخلو عن عيب قد خفى عليه لمداراته نفسه بسبب هواه، و أصدق الناس للملك محبة من أراه عيوبه و ليس يحتمل الملك ذلك الا اذا كان فاضلا و محبا لان يزيد فى فضائله.

و كان الاسكندر يقول: انتفعت بأعدائى فيما لم انتفع بأصدقائى لان أعدائى كانوا يعيروننى بالخطاء وينبهوننى عليه، وكان أصدقائى يزينون لى دخلى فاصونه وأسكن اليه.

وسئل أردشير عن سبب اختصاصه رجلا من أصحابه فقال: لموافقته لنا على زلاتنا و ازالته بذلك العيب فى الدنيا و الاخرة عنا.

هذه سيرة عقلاء الملوك فى زمانهم المتقدم، وزماننا هذا زمان مجانين الملوك و الناس تبع لملوكهم، فان أردنا تأديب أولادنا لايقبلوا منا نصيحة فضلا عن حكام الجور، نسأل الله اصلاح الاعمال و انجاح الاقوال انه هو الكبير المتعال.

وعن عليّ عليه السلام أنّه قال : لو كنّا لانرجو جنّة ولا نخشى ناراً ولا ثواباً ولا عقاباً لكان ينبغي لنا أن نطالب بمكارم الأخلاق فإنّها ممّا تدلّ على سبل النجاح ، فقال رجل : فداك أبي وأمّي يا أمير المؤمنين سمعته من رسول الله ؟ قال : نعم وما هو خير منه : لمّا أتانا سبايا طيّء فإذا فيها جارية حمّاء [١] حوّاء لعساء لمياء عيطاء ، صلت الجبين ، لطيفة العرنين ، مسنونة الخدّين ، مقرونة الحاجبين ، لمياء الكعبين ، خدلّجة الساقين [٢] لفّاء الفخذين ، خميصة الخصرين [٣] ، ممكورة الكشحين ، مصقولة المتنين ، فأعجبتني و قلت : لأطلبنّ من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يجعلها في فيئي [٤] . فلمّا تكلّمت نسيتُ ما راعني من جمالها

---

(١) الحماء مؤنث الاحم ، وهو من الاضداد بمعنى الابيض والاسود والحواء مؤنث الاحوى : حمرة مائلة الى السواد أو سواد الى الخضرة . واللعس : سواد مستحسن في الشفتين ، ولمياء قريبة منها معنى . والعيطاء : طويلة العنق . صلت الجبين : واضحه . العرنين : الانف . رجل مسنون الوجه : مخروطه ، أو رجل في وجهه وأنفه طول . الخدلج الساق : ممتلؤه . اللفاء مؤنث الالف : من كثر لحم فخذه . الخصر : وسط الانسان . ممكورة الكشحين : مستديرة مابين سرتها الى وسط ظهرها ، أوحسنة . المتنين : مايكتنف الصلب عن يمين وشمال من لحم وعصب .

(٢) في الاصل : « مدلجة الساقين » وهو سهو ، قال حطم القيسي (اللالى ٢ : ٧٢٩) :

بات يقاسيها غلام كالزلم • خدلج الساقين خفاق القدم

(٣) بهامش الاصل بخط المؤلف : « الخنضربن . خ كذا وجدت » .

(٤) و يظهر من ابن هشام ما يخالفه ، و أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن يرغب فيها بل كان يحثها على اظهار أمرها و طلب خلاصها ، وهاك نص ابن هشام في السيرة (٢ : ٥٧٩) : فجعلت بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد ، كانت السبايا يحبس فيها ، فمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقامت اليه ـ وكانت امرأة جزلة ـ فقالت : يارسول الله ؛ هلك الوالد و غاب الوافد فامنن علي من الله عليك . قال : ومن وافدك ؟ قالت : عدي بن حاتم قال : الفار من الله ورسوله ؟ قالت : ثم مضى رسول الله (ص) و تركتني ، حتى اذا كان من الغد مر بي فقلت له مثل ذلك ، وقال لي مثل ماقال بالامس . قالت : حتى اذا كان بعد الغد مر بي و قد يئست منه ، فأشار الى رجل من خلفه : أن قومي فكلميه ، قالت : فقمت اليه ، فقلت : يارسول الله ؛ هلك الوالد و غاب الوافد ، فامنن علي من الله عليك ، فقال صلى الله عليه وسلم : قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك الى بلادك ثم آذنيني ، فسألت عن الرجل الذي أشار الى أن اكلمه ، فقيل : علي بن أبي طالب . ثم ذكر خبر رجعتها وقدوم أخيها عدي .

من فصاحتها ، وعذوبة عبلاتها [١] ، فقالت : يا محمّد إن رأيت أن تخلّي عنّي و لاتُشمت بي أحياء [٢] العرب ، فإنّي ابنة سُرّة [٣] قومي ؛ كان أبي يفكّ العاني ، ويعطي الغاني [٤] و يحمي الذمار [٥] و يقري الضيف و يشبع الجائع ويُكسّب المُعدِم [٦] ويفرّج عن المكروب ، أنا ابنة حاتم طيّء ، فقال : خلّوا عنها فإنّ أباها كان يحبّ مكارم الأخلاق ، والله يحبّ مكارم الأخلاق ، فقام أبو بردة فقال : يا رسول الله ! الله يحبّ مكارم الأخلاق ؟ فقال : يا أبا بردة لا يدخل الجنّة أحدٌ إلّا بحسن الخلق .

وممّا جاء في مكارم الأخلاق من بني هاشم الّذين هم كما قال الجاحظ [٧] : ملح الأرض ، وسنام العالم ، وصفوة الأمم ، وعزّة العرب ، ولباب البشر ، ومُصاص بني آدم [٨] وزينة الدنيا ، وحلية الدهر ، والطينة البيضاء ، و المغرس المبارك ، و النصاب الوثيق ، و معدن المكارم ، وينبوع الفضائل ، وأعلام العلم ، وأيمان الإيمان .

قول عليّ عليه السلام للحسنين عليهما السلام [٩] : إنّ أشرف الأفعال و أكرم الأخلاق تقوى الله فاتّقياه ، والعزوف عن الهوى فلا تتّبعاه ، والدنيا فلاتبغياها و إن بغتكما ، ولا تأسفا على شيء يزوى عنكما ، قولا بالحقّ ، وارحما اليتيم ، وأعينا الضعيف ، وأنظرا المعسر واصنعا للأجر ، وكونا للظالم خصماً ، وللمظلوم عوناً ، تحرزا مكارم الأخلاق .

وقال عليه السلام : وقد سئل عن أكرم الأفعال وأحسن الأخلاق : احفظوا عنّي خمساً

---

(١) جمع عبلة مؤنث العبل : الورق الساقط من الشجر . كنى بها عن كلماتها .

(٢) جمع الحي . القبيلة والطائفة .

(٣) سرة الوادى : وسطه ، أو أفضل مواضعه .

(٤) العانى : الاسير ، والغانى : المقيم فى بلد ، وفى الاصل : « الغانى » وهو غلط .

(٥) الذمار : مايلزمك حفظه وحمايته والدفع عنه .

(٦) المعدم : من افتقر . وفى الاصل : « المعدوم » وهوسهو .

(٧) شمة فى كتابه الحيوان (٤ : ١٤٠ ، ٦ : ٧٢) .

(٨) لباب الشىء : مختاره ومصاص القوم أخلصهم نسباً .

(٩) هذا مما أوصى به أهله وولده ، وليس فيه من كلمة «مكارم الاخلاق » ذكر و نحن نورد موضع الحاجة من الوصية بعينها عن شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (٤ : ٥٥ ، ط بيروت) اوصيكما بتقوى الله وأن لاتبغيا الدنيا وان بغتكما ، ولا تأسفا على شىء منها زوى عنكما ، و قولا بالحق واعملا للاجر (للاخرة ، خ) وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً .

لوحشتم المطيّ في طلبها[١] كان يسيراً : ألا لا يرجونّ أحد إلّا ربّه ، ولا يخاف إلّا ذنبه ، ولا يستحيي الّذي لا يعلم أن يتعلّم ، ولا يستحيي الّذي لا يعلم أن يقول : « لا أعلم » ولينزّل كلّ أحد الصبر من إيمانه بمنزلة الرأس من الجسد .

وعنه عليه السلام : الإنسان عقله دينه ، وكرمه خلقه ، ومروءته حيث يجعل نفسه . الرزق والأيّام دُوَلٌ والناس من رجل[٢] وإنّما الفضل بالأخلاق .

وقال كميل بن زياد النخعيّ : قبض على يدي عليّ عليه السلام فقال : قل يا نخعيّ لأهلك يروحوا في كسب المكارم ويدلجوا في حاجة من هو نائم ، فوالّذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلّا خلق الله من ذلك السرور شخصاً ، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في انحداره والنجم في انكداره ، وطردها عنه كما يطرد غريبة الإبل .

وقال الحسن بن عليّ عليهما السلام : « الحلم زينة ، والوقار مروءة ، والحياء شرف ، والخلق جمال ، والصدق نجاة ، والإكثار صلف[٣] ، والعجلة سفه ، والسفه ضعف ، والغلظة ورطة ومجالسة أهل الفسق ريبة » وتزعم الرواة أنها ممّا أملته نفسه الطاهرة على لسان مكارمه الوافرة .

وكان الحسين بن عليّ سيد الشهداء عليه السلام كثيراً ما ينشد هذه الأبيات :

لئن كانت الأفعال يوماً لأهلها * كمالاً ، فحسن الخلق أبهى وأكمل
وإن كانت الأرزاق قسماً مقدّراً * فقلّة جهد المرء في الكسب أجمل
وإن كانت الدنيا تُعدّ نفيسة * فدار ثواب الله أعلى وأنبل
وإن كانت الأبدان للموت أُنشئت * فقتل امرىء بالسيف في الله أفضل
وإن كانت الأموال للترك جمعها * فما بال متروك به المرء يبخل

وقيل لمحمّد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام : من أعظم الناس قدراً ؟ قال : من لم يبال بالدنيا في يد من كانت .

---

(١) في الاصل « في طلبه » وفي النهج (٤ : ٣٧٧) : اوصيكم بخمس لوضربتم اليها آباط الابل لكانت لذلك أهلا : لا يرجون أحد الخ مع اختلافات اخر يسيرة . و هذه هي الكلمة ٨٢ من حكمه القصار .

(٢) بهامش الاصل : أي من رجل واحد وهو آدم عليه السلام .

وقال جعفر الصادق عليه السلام : إحسانكم أخلاقكم ، وأكرمكم أتقياؤكم ، و النسب واحد ، من آدم خلقتم . وقال : أكرم الصفايا أشدّها ولهاً إلى أولادها ، و أكرم الإبل أحنّها إلى أوطانها ، وأكرم الأفلاء (٢) أشدّها ملازمة لأمّهاتها ، و خير الناس أكرمهم خلقاً ، وأشدّهم إلفاً [١] .

وقال محمّد بن الحنفيّة : الكمال في أخلاق ثلاثة : الفقه في الدين والصبر على النوائب والتقدير في المعيشة .

وقال المأمون : «كان في عليّ بن موسى الرضا (عليه السلام) خلال من الخلق ماوجدت مثلها في أحد : كان احتماله للعدوّ كانخفاضه للوليّ ، وكان لايستحيي من الحقّ ، ويستحيي من ردّ سائله ؛ وما ذمّ أحداً قطّ ، ولا أعرض عن شانئه و حاسده ؛ وكان إذا خاطبه الطالب أجابه بطلبته ، وكان النجم أقرب من سميره إلى أُذنه إلى شيء من أسراره [١] ، وكان يقلّ الدعابة ويكثر الاستغفار» فينبغي لنا أن نؤدّب أنفسنا بمثل هذه المكارم و نرغّبها في الطاعات الباقية و نصرفها عن شهوات الدنيا الفانية .

(١) وانظر جامع السعادات (١:٣٠٣-٣١٢) وبحار الانوار (١٥:٢٠٧) .

(٢) السمير : الذى يحدث ليلا ، يقول : كان النجم - مع بعده - الى شيء من أسراره أقرب مكاناً ممن يحدثه ليلا . وهو كناية عن شدة تحفظه على أسراره .

﴿فصل ١﴾

✡(فى الترغيب فى الطاعات والزهد فى الدنيا الفانية)✡

قال بعض الحكماء : أتعرفون الله ثمّ تعصونه وتشكونه لبلاء ؟ و فضله عليكم لا تحصونه ، بالها من صحّة أبدان ، وصفوة أذهان مصروفة عن طاعة من برأكم [١] في أحسن تقويم ، وذرأكم لكلّ متاع ونعيم ، إلى كلّ هوىً تعصف عليكم رياحه بخسران ، و يعقبكم ارتياحه بندمان فهلاّ تعجّلون [٢] الاجتهاد غنيمة صحّتكم ، والعمل فرصة قوّتكم ؟ فليس كلّ الزمان مؤاتياً مطاوعاً ، ولا مافات من العمر معاوداً مراجعاً ، ولكلّ فراغ شغل شاغل ، ووراء كلّ دعة خطب نازل :

بادر إذا الخيرات يوماً أمكنت * بزوالهنّ سوابق الآفات
كم من مؤخّر يومه في خيره * لغد ، و ليس غدٌ له بمؤات
تأتي المكاره حين تأتي جمّة * وترى السرور يجيء في الفلتات

و أيّ شيء أقبح من هوى ساعة يفسد أمر الغد ، و يكدّر عيش الأبد ؟ وأيّ شيء أبهى من [علم [٣]] زيّن بالعمل راشده ، ومن عمل حلّى بالعلم زائده ؟ و أيّ شيء أحسن من شباب يضع و ارفه [٤] ، و يسحب [٥] على الهدى مطارفه ؟ و أيّ شيء أجلّ من مشيب روعي بطاعة الله دفاره [٦] ، وعوفي عن نزق [٧] الهوى وقاره ؟

---

(١) برأ الشيء : خلقه .
(٢) كذا فى الاصل مشكولا ، ولعل الصواب : تجعلون .
(٣) زيادة منا ليس فى الاصل .
(٤) ورف النبات يرف ـ كوعد يعد ـ نضر واهتز واشتدت خضرته ، فهو وارف .
(٥) سحبه ـ كمنعه ـ : جره ، وسحب ذيله : تبختر فى المشى .
(٦) الدفار ـ بفتح الدال ـ : الدنيا .
(٧) بفتح الاولين : الخفة فى كل أمر ، العجلة فى جهل وحمق .

إنّ امرءاً غلب البياض سواده * و رمى الزمان بفرقه أنداده
لحري بأن يعصي الهوى وقياده * و يعدّ للسفر الطويل عتاده

إنّ زلفته لعمرك تميله (؟)، وإلى رحمة الله وسيلة. وربّما يعاجل شبابك أن تعمل في المشيب فبادر بالعمل ورداء الشبيبة نشيب [١]، فالمسعود من أعدّ واستعدّ، والمجدود [٢] من جدّ و أجدّ، و الحازم من لا يركن إلى الخيال الزائر و الفيء الزائل، و العارية المرتجعة و السحابة المقشعة [٣].

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها * على أنّهم فيها عراة و جوّع
أراها و إن كانت تحبّ كأنّها * سحابة صيف عن قليل تقشّع

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: إنّ هذه الدار دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح [٤] لا منزل فرح، فمن عرفها لا يفرح لرخاء ولا يحزن لشقاء، ألا و إنّ الله خلق الدنيا دار بلوى والآخرة دار عقبى، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سبباً، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، و يبتلي ليجزي، و إنّها لسريعة الذهاب، و شيكة الانقلاب، واحذروا حلاوة رضاعها لمرارة فطامها، واهجروا لذيذ عاجلها لكرامة آجلها، ولا تسعوا في عمران دار قد قضى الله خرابها، ولا تواصلوها و قد أراد منكم اجتنابها، فتكونوا لسخطه متعرّضين، ولعقوبته مستحقّين.

وقد صحّف المحقّق ملا جلال الدوّاني [٥] الحديث المشهور؛ وهو قوله عليه الصلاة و السلام: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة» بقوله: «حبّ الدينار أسّ كلّ خطيئة»، ولا يخفى حسنه.

---

(١) نشب ـ كعلم ـ الشيء في الشيء: علق. يقول: بادر بالعمل في حال يكون نسوج رداء شبابك مفتولة لم تنفصم ولم تفشل بعد.

(٢) مفعول من الجد ـ بالفتح ـ بمعنى الحظ والبخت.

(٣) قشع ـ من باب منع ـ الريح السحاب: كشفته و فرقته.

(٤) بالفتحتين: الحزن و الهم و الغم.

(٥) اسمه محمد بن أسعد الصديقي، وجلال الدين لقبه. فاضل باحث، ولد سنة ٨٣٠ هـ في دوان من بلاد كازرون، سكن شيراز وولي قضاء فارس وتوفي فيها سنة ٩٠٧ هـ له كتب ورسائل. قاموس الاعلام: ٨٦٣.

و يقال : إنّ أوّل كلام الحسن [١] أنّه صلّى يوماً بأصحابه ثمّ انفتل و أقبل عليهم ، فقال :

أيّها الناس إنّي أعظكم وأنا كثير الإسراف على نفسي غير مصلح لها ولاحاملها على المكروه من طاعة ربّها قدبلوت نفسي في الضرّاء و السرّاء فلم أجدلها كثير شكر عند الرخاء ولا كثير صبر عند البلاء ، ولو أنّ الرجل لم يعظ أخاه حتّى يُحكم أمر نفسه ويكمل في الّذي خلق له من طاعة ربّه لقلّ الواعظون الساعون إلى الله بالحثّ على طاعته ولكن في اجتماع الإخوان واستماع حديث بعضهم من بعض حياة للقلوب و تذكّر من النسيان ، أيّها الناس إنّ الدنيا دار من لادارله وبها يفرح من لاعقل له فأنزلوها منزلتها ثمّ أمسك .

وقال هذا القائل في بعض الخطب :

إنّكم كفيتم مؤونة هذه الحاضرة ، و أُمرتم بطلب دار الآخرة ، فلا أنتم عن طلب ما كفيتم تمسكون ، ولا أنتم طريق ما أُمرتم تسلكون ، فلا أمر كم إلّا كما وصفه القائل:

ما بال نفسك لا تهوى سلامتها　　*　　و أنت في عرض الدنيا ترغّبها
داراً إذا جاءت الآمال تعمرها　　*　　جاءت مقدّمة الآجال تخربها
أراك تطلب دنيا ليس تدركها　　*　　فكيف تدرك أُخرى ليس تطلبها ؟
إذا كان أدنى العيش ليس بحاصل　　*　　لذي اللبّ في الدنيا بغير المتاعب
فكيف بأسنى العيش في عالم البقا　　*　　لذي الجهل ، مع تقصيره في المطالب ؟

و قال : من أبصر تصاريف الدنيا أقصر ، ومن عرف غاية المنى اختصر . ومن رضي بفتنة الآخرين تقيّل ، ومن سمع وصيّة الأوّلين تقبّل . ومن أصلح في السرّ سريرته أصلح الله في الباطن سريرته . ومن أسرّ في قلبه للناس غير مايُظهره أظهر الله عليه مايُضمره .

---

(١) هو أبوسعيد الحسن البصري ابن يسار مولى زيدبن ثابت الانصاري و امه خيرة مولاة ام سلمة ام المؤمنين ، جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة ، وكان فصيحاً جميلا وسيماً ، وله مع الحجاج مواقف هائلة . ولد سنة ٢١ وتوفى ١١٠ هـ و فيات الاعيان (١ : ٣٥٤ ، برقم ١٤٨) قاموس الاعلام : ٢٤٣ و شرح المجانى ٢١٥ .

ومن ظنّ أنّه في الخلوة غير مرقوب [١] وعلى طول المهلة غير مطلوب ، فطلبه إثم يوبقه، واغترار يرهقه .

إذا ماخلوت الدهر يوماًفلاتقل * خلوت ، ولكن قل : عليّ رقيبُ

ولا تحسبنّ الله يغفل ساعة * ولا أنّ ما تخفيه عنه يغيب

وقال:ماهذا القعود وقد وضح السبيل ؟! وماهذا الصدود وقداُسمع الدليل ؟! الجري في الاغترار أمدٌ طلق [٢]، و الركض في الاستكبار أشدّ عنق [٣] . لا يعترض للعين شهوة إلّا كان الهوى لها شافعاً ؛ ولا يرتكض في معصية إلّا كان القلب لها طائعاً ؛ فأين الحياء عن الإصحار [٤] بالمحارم ؟ وأين التُقى عن الإمعان في المآثم ؟ وإلى كم هذه التهافت في النار تهافت الفراش في الضرام ؟ والتهالك على الحطام تهالك الصبيّ على الطعام ؟ تُدعون إلى النجاة و أنتم كارهون ! و تُنصحون و أنتم في واد الهلاك تائهون ! أما تعلمون أنّ طالب متاعها خاسر لدينه غبين ، و خاطب قماشها ظالم لنفسه مبين . يستقي من مشارعها أشربة الأحزان ، ويستملّ من صحائفها أمثلة الحدثان . ويجتني من راحتها ثمرة العناء ، ويستأنف من بقائها رائحة الفناء .

أيا شفتي فمّي ! أما من شريعة * من الموت إلّا أنتما توردنيا ؟

ويا شفتي فمّي ! أمالي إليكما * سبيل،وهذاالموت قد حلّ دانيا ؟

يسدّ سبيل المُنى عن الإطماع ، ويرحّل المرء عنها بغير متاع . وينبذ أعزّ أبنائها نبذ النواة ، ويطرح أنفس أشيائها طرح القذاة . وتذر نفوس الأفهار [٥] رماد جمراتها ، وقلوبهم أغماد باتراتها [٦] .

مزمومة بالغيّ مخطومة * سمّ زعاف درّ أخلافها

ولم تزل تقتل ألّافها * أُفّاً لقتّالة آلافها

---

(١) أى ليس عليه رقيب .

(٢) الطلق ـ بفتحتين ـ : الشوط الواحد فى جرى الخيل .

(٣) بالفتحتين ، السير السريع .

(٤) الاصحار بالامر : اظهاره ، من أصحر خرج الى الصحراء .

(٥) أى تقطع نفوس الاحجار .

(٦) جمع الباترة ، والباتر : السيف القاطع .

خطب قطريّ بن الفجاءة [١] ؛ فقال :

أُحذّركم الدنيا فإنّها حلوة خضرة حفّت [بالشهوات [٢]] و رافت بالقليل ، و تحبّبت بالعاجلة ، وجلبت بالآمال [٣] ، وتزيّنت بالغرور ، لاتدوم خيرتها ولا يؤمن فجيعتها [٤] غرّارة ضرّارة ، حائلة زائلة ، نافدة بائدة [٥] : أكّالة غوّالة . لاتعدو إذا تناهيت إلى أُمنيّة أهل الرغبة [٦] فيها و الرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالى [٧] : « كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كلّ شيء مقتدراً » مع أنّ امرءاً لم يكن فيها في حِبرة إلّا أعقبته بعدها عَبرة ، ولم يلق من سرّائها بطناً إلّا منحته من ضرّائها [٨] ظهراً . لم تظلّه غيمة رفاء إلّا هطلت [٩] عليه مُزنة بلاء . وحريّة [١٠] إذا أصبحت له منتصرة أن تُمسي له خاذلة متنكّرة . وإن جانبٌ منها اعذوذب وإحلولى ، أمرّ عليه جانب منها وأوبى [١١] وإن أتت أمرءاً من غضارتها ورقاً ، أرهقته من نوائبها تعباً . لم يُمس منها امرؤ في جَناح أمن ، إلّا أصبح فيها على قوادم خوف . غرّارة غرورٌ ما فيها فانٍ من عليها . لاخير في شيء من زادها إلّا التقوى . من أقلّ منها استكثر ممّا يؤمنه ومن استكثر منها استكثر ممّا يوبقه [١٢] . كم من واثق بها قد فجعته [١٣] وذي طمأنينة

---

(١) أبو نعامة قطرى بن الفجاءة المازنى التميمى ، من رؤساء الازارقة ، كان خطيباً فارساً شاعراً ، خرج فى زمن مصعب بن الزبير لما ولى العراق ، وبقى عشرين سنة فى قتال الامراء وبسلم عليه بالخلافة وله مع الحجاج والمهالبة وقائع هائلة . عثر به فرسه فمات وجيء برأسه الى الحجاج و قال الدميرى (٢ : ٣٥٧) : اسمه : جعونة بن مازن . توفى سنة ٧٨ هـ وفيات الاعيان (٣ : ٢٥٥ ، برقم ٥١٧) قاموس الاعلام : ٧٩٧ . والخطبة فى عقد الفريد وعنه فى مجانى الادب (٥ : ٤٠٠) .

(٢) زيادة أخذناها من المجانى .

(٣) فى المجانى و تجلببت بالعاجل وغمرت بالامال وتحلت بالامانى .

(٤) رواية المجانى : لاتدوم زهرتها ، ولا تؤمن فجعتها .

(٥) فى الاصل : نافذة و المهملة أنسب بالكلمة بعدها .

(٦) فى الاصل : اذا تناهت الى امنيه أقل الرغبة فيها .

(٧) سورة الكهف : ٤٦

(٨) فى المجانى : من سرائها بطناً الامنحته من ضرائها ظهراً .

(٩) هطل المطر : نزل متتابعاً متفرقاً عظيم القطر .

(١٠) فى الاصل : و جربة .

(١١) أوبأ المكان : كثر فيه الوباء .

(١٢) فى المجانى : ومن استكثر منها لم يدم له . وزال عما قليل عنه استكثر مما يوبقه .

(١٣) فى الاصل : قد جمعته .

إليها قد صرعته ، وذي احتيال فيها قد خدعته . و كم ذي اُبّهة فيها قدصيّرته حقيراً ، و ذي نخوة قد ردّته ذليلاً ، و من ذي تاج قد كبتّه لليدين و للفم . سلطانها دول . و عيشها رنق [١] . وماؤها اُجاج . وحلوها صبر [٢] . وغذاؤها سمام،وأسبابها رمام [٣] . حيّها بعرض موت ، صحيحها بعرض سقم ، منيعهابعرض اهتمام [٤] . مليكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وسليمها منكوب ، و جارها محروب . مع أنّ من وراء ذلك [٥] سكرات الموت وهول المطّلع و الوقوف بين يدي الحاكم العدل ، ليجزي الّذين أساءوا بما عملواويجزي الّذين أحسنوا بالحسنى [٦] .

و قال بعض الحكماء : إنّ مثلها و مثل الراغب فيها و مثل الراغب عنها كمثل رجلين ، يسيران في سفرا كبين ، أحدهما أعمى والآخر صحيح العين ، فنزلا منزلاً وأرادا أن يغلسا سائرين ، و طلب الأعمى مقرعته فأصاب حيّة سوداء فقال : ما ألينه من سوط ! نعم البدل عن سوطي ، فلمّا برق الإصباح ، وأضاءت للناظرين صورالأشباح ، أبصر البصير الأعمى قد قبض على حيّة رقشاء [٧] ففزع له وصاح به ، فقال الأعمى : إنّي أراها ليّناً مسّها ! فهي قاتل نهشها ، حين أراد أن يقنّع بها حماره نهشته نهشة تناثر لها لحمه ، وتخاذل عظمه . و والله إنّ الدنيا لأشدّ لسعة للمغترّ بها من تلك ؛ إنّ قتيلها شهيد ، وقتيل الدنيا هدر مطلول ، [٨] لا عقل ولا قَوَد ولا يُودى ولا يؤسى [٩] .

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة * و إلّا فإنّي لا أخالك خاليا

---

(١) رنق الماء ـ من باب نصر ـ كدر .
(٢) الصبر بفتح الاول وكسر الثانى : عصارة شجر مر ، وفى المجانى : زحام .
(٣) الرمام بالكسر جمع الرمة : ما بلى من العظم . وفى المجانى : زحام .
(٤) فى المجانى : بعرض اهتضام .
(٥) فى الاصل : مع ازدراء ذلك :
(٦) ما ذكره جزء من خطبته ، وقد نقلها الاب شيخو بتمامها ، راجع مجانيه .
(٧) الرقشاء من الحيات : المنقطة بسواد و بياض .
(٨) طل الدم : هدر أولم يثأر ، فهو طليل و مطلول .
(٩) العقل : الدية . القود ـ بفتحتين ـ : القصاص . يودى من ودى دية . يؤسى من آسى .

و قال : طهّروا أنفسكم من ذنبها ، و خذوا لها الأمان من ربّها ، إنّ أخذه أليم شديد ، وعذابه غليظ عتيد . ولا يغرّنكم متاع قليل وعمر قصير ، فيفجأكم يوم طويل وخطب كبير . إنّ هذا الشباب وإن راق فتيانه فبعده مشيب ، وإنّ الموت لينظر من بعيد و يخطف من قريب . ذئب ضارّ أو عقاب كاسر ، لا ينجو منه ماش ولا طائر . يشرب الحيوان شرب الهيم ، و يحطم العُمران حطم الهشيم . فأين الّذين كانت لهم أقاليمها و أمصارها ، إلى أمرهم مصيرها و على رأيتهم مدارها ؟ أين [١] الّذين كنزوا ككُثبان [٢] الرمال ، و ادّخروها مِلء الأماني والآمال ؟ كم ولا حاجة لهم جمعوها ، و كم من ذي حاجة منعوها . حاسبوا أنفسهم فيها ، ثمّ تركوها لمن لا يحاسب . و كم بخلوا على أنفسهم و أهاليهم بأرباحها ثمّ خلّوا أُصولها لمن لا يناسب .

كتب سهل بن هارون [٣] إلى ذي الرياستين [٤] حين استوزر : إنّ للأزمنة فرحاً فكن من ولاة فرحها ، ولأيّامها دولاً فخذ بحظّك منها ، ولدولتها أجزاء فتزوّد منها قبل انصرامها . فإن تعاظمك ما انتهى بك عنه فانظر في جوانبها يأخذك الموعظة من جميع نواحيها ، و اعتبر بذلك الاعتبار على أنّك مسلّم ما يسلّم إليك منها كما سلّم إليك من كان منك أشدّ كلفاً و أعظم شغفاً . انظروا إليهم كيف صاروا رماماً لا يذكرعنهم ، كأنّهم كانوا أحلاماً .

---

(١) في الاصل : ان الذين كنزوا .

(٢) جمع الكثيب : التل من الرمل .

(٣) أبو محمد سهل بن هارون بن راهبون ، الفارسي الاصل ، الدستميساني ، دخل البصرة و اتصل بالمأمون فولاه خزانة الحكمة ، و كان أديباً كاتباً شاعراً حكيماً شعوبياً ، يتعصب للعجم على العرب ، و هو من واضعي القصص وكان مشهوراً بالبخل ، و له رسالة في مدحه ، أرسل نسخة منها الى الوزير حسن بن سهل ، فوقع عليها الوزير : لقد مدحت ما لام الله وحسنت ما قبح . والجاحظ معجب به . و له كتاب و رسائل منها « ثعلة و عفراء » على نسق كليلة ودمنة ، و « دوامق وعذراء » توفي ٢١٥ هـ معجم الادباء (١١ : ٢٦٦) البيان والتبيين (١ : ٥٢) الفهرست لابن النديم ١٨٠ .

(٤) هو الفضل بن سهل السرخسي وزير المأمون وصاحب تدبيره ، كان حازماً عاقلا فصيحاً ، اتصل به في صباه و أسلم على يده سنة ١٩٠ هـ و صحبه قبل أن يلي الخلافة فلما وليها جعل له الوزارة و قيادة الجيش معاً و لذا لقب بذي الرياستين ، ولد في سرخس ١٥٤ هـ وتوفي بها بينما كان في الحمام سنة ٢٠٢ هـ . قاموس الاعلام : ٧٧٣ .

انظروا إليهم ساكنين لايحسّون و ساكتين لا يُنبشون . حبل حياتهم أنكاث ،[١] و جميع أُمورهم ميراث . عمّرت بهم بطونُ الأرض بعد ظهورها ، و استبدلوا قبورها من قصورها ، ثمّ لايدرون ما حالهم ، و على أيّ جملة إلى الله مآلهم .

لقد خاب إنسان تولّى ، وغرّه * من الله دنياً غير باق نعيمها
فياحسرة النفس الّتي كان سعيها * ضلالاً ، إذا لم يبق إلّا نسيمها

عاد الحسن عبدالله بن أهتمّ في مرضه الّذي مات فيه فأقبل عبدالله يضرب ببصره إلى صندوق في جانب البيت ، ثمّ قال للحسن : يا أبا سعيد ما تقول في مائتي ألف في هذا الصندوق لم يؤدّ منها زكاة ولم يوصل بها رحم ؟ فقال الحسن : ثكلتك أُمّك فلم أعددتها ؟ قال : أعددتها لروعة الزمان ومكاثرة[٢] الإخوان وجفوة السلطان . ثمّ مات فحضر الحسن جنازته ، فلمّا دفن ضرب بإحدى يديه على الأُخرى ، فقال : إنّ هذا أتاه شيطانه فحذّره روعة زمانه و جفوة سلطانه و مكاثرة [٣] إخوانه فما استودعه الله إيّاه ثمّ خرج منها حزيناً سليباً لم يؤدّ منها زكاة ولم يصل بها رحماً .

ثمّ التفت فقال : أيّها الوارث كُل هنيئاً فقد أتاك هذا المال فلا يكون عليك وبالاً آثاره ، ممّن كان له جموعاً منوعاً يلجّ فيه في لجج البحار و مفاوز القِفار . من باطل جمعه ، ومن حقّ منعه ، ولم ينتفع به في حياته ، جمعه فأوعاه وشدّه . إنّ يوم القيامة ليوم ذو حسرات ، و إنّ أعظم الحسرات أن ترى مالك في ميزان غيرك ، ذاك رجل آتاه الله مالاً حلالاً فبخل أن ينفقه في طاعة الله فورثه الله غيره فأنفقه في طاعة الله . فيالها حسرة لاتقال ! ورحمة لاتنال ! فإنّا لله وإنّا إليه راجعون[٤] .

و قال : ماذا يغرّكم من دارٍ الفَناءُ من صفاتها ، و الفنا [٥] من عاداتها . و الفقر

---

(١) جمع النكث ـ بالكسر ـ ما نقض من الفتل و الاكسية ليغزل ثانية .
(٢و٣) في الاصل في الموضعين « مكاثرة » سهواً .
(٤) و من حكم أمير المؤمنين (ع) ومواعظه القصار (شرح النهج للفيض ١٢٧٦ ، برقم ٤٢١): ان أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل كسب مالا في غير طاعة الله ، فورثه رجل فأنفقه في طاعة الله سبحانه فدخل به الجنة ، و دخل الاول به النار .
(٥) كذا في الاصل .

حِلية من حُلاها ، و الغرور سجيّة من سجاياها و الآلام و الأحزان من خِلالها [١] ، و الشيب و الموت من حالها ، و البكاء حياة داخلها ، و الإبكاء زاد راحلها . تبكي المولود فيها مُستهلاً إذا دخل ، ويُبكى على المتوفّى منها ساعة ارتحل . شدائد لو أنّها راعتنا بواحدة منها لكان حقّاً [أن] تتبادر [٢] من قربها ، و تتفادى من حبّها ، فكيف وهو مجتمع فِرقها ، و ملتقى طرقها ؟ [٣] ثمّ المبيت حيث الفراش التراب ، و ليس إلّا الديدان أصحاب . فيالها غمّة مدهشة ، و وحدة موحشة ! . ينادي ملك الأرزاق : نفد الزاد وحان الفراق . ويقول ملك الموت : حقّ الوعد و الوعيد ، و ذلك ما كنت منه تحيد ، أزف الرحيل ، و وجب التحويل . و حالت الحال ، و زال الجمال . انطفأ المصباح ، و ركدت تلك الرياح . ويقول ملك العمل لشيطان الأمل : ثبّتّ حبائل الزور ، و نصبت أشراك [٤] الغرور . و شغلته بالباطل حتّى جاءت سكرة الموت بالحقّ ، وسأل سائل القبر بالصدق . فالآن يلقى المسكين ربّه بصورة نكير أو صحيفة سوداء ، لم يعدّ لليوم المحتضر ، ولم ينظر في الآجل المنتظر . جمع مالم يأكل ، ورجا مالم ينل . فيا حسرتا على ظلّ انحسر وشمل افترق ؛ أصابته إعصار فيه نار فاحترق . و يا أسفاً على رَوح آخره عَنا ، و عذب حاصله عذاب ، و وصل عُقباه اجتناب ، و سكون منتهاه ارتياب .

روي عن النبيّ ﷺ قال : إنّما مثلي ومثل الناس كرجل استوقد ناراً فلمّا أضاءت ما حوله جعل الفراش يتهافت [٥] فيها جعل ينتزع عنهنّ و يحول بينها و بينها ، فها أنا آخذهم عن النار وهم يقتحمون فيها .

و قال بعضهم : إنّ الأيدي الباسطة بالجور ستقبضها يد الأيّام ، و إنّ العيون السامية بالكبر سيغضّها ريب الحِمام [٦] . و إنّ أعناق العبيد ستخضع لطارق المنيّات ،

(١) جمع الحلة ـ بالفتح ـ الخصلة .
(٢) كان في الاصل ، لكان حقنا تتبادر الخ .
(٣) يريد : فيها شدائد لو سامحتنا ولم تبتلنا بواحدة منها لكان حقاً أن تتسابق الى حبها ، ولكن كيف يمكن حبها وهي مجتمع متفرقات الشدائد و طرقها ؟ .
(٤) جمع الشرك ـ بفتحتين ـ : حبائل الصيد .
(٥) تهافت الفراش في النار : تفرق .
(٦) الحمام ـ بالكسر ـ الموت .

إنّ الخدود الصعر [١] ستضرع لمنتقص اللّذّات . أمّا إنّه لو كُشف الغطاء وبرح الخفاء لأقصر ظالم عن ظلمه ، وأقسط جابر في حكمه وبكى مخذول بملء عينه على ذنبه ،وخاف مسؤول مقام ربّه .

فقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله [٢]: أنّه قال : لا يزول قدم العبد عن مكانه حتّى يسأل عن ثلاث : شبابك فيما أبليت ، وعمرك فيما أفنيت ، وما لك من أين جمعته و فيما أنفقته .

وقال هذا القائل في كلامه منها : إنّ تقوى الله أصدق مخيلة ، و طاعته إلى رحمته أقرب وسيلة . و البرّ شربه أخلص و أصفى ، و الإنصاف حظّه أوفر و أوفى ، و الإسعاف بذله أحقد وأخفى . والحقّ شاهده أصدق ، والحال لسانه أنطق ، ولا يأخذ ماليس لهمن [٣] بان فضلُه ، ولا يطمع في مال غيره من تمّ عقله . **والحر عبد اذا طمع،والعبد حر اذا قنع** . وإن يكن العُدم مجهدةً فإنّ الجِدة مفسدة . والراحة عُقلة [٤]، والدولة نُقلة [٥] والهوى ندامة ، و المُنى سلامة . والمال رائح وغادي ، و الصروف عن الآمال غوادي [٦] ، و الهدى يطرُق [٧] الرجل فإن وجد فيه الزهد و إلّا ارتحل ، و التقى يستقري [٨] العمل فان رآه صالحاً طلع وإلّا أفل . و الحرص نار تحرّق الواقع فيها ، و الأماني بحر يغرّق وارديها . وخير الغرس الخير ؛ لا يذبل [٩] عوده ولا يأفل سعوده [١٠] وشرّ الزرع الشرّ؛ لا تنال [١١] عاقبته و إن طالت مدّته . و الرضا إمام أحوال المتّقين ، و التسليم زمام أفعال المخلصين . والمنّ يمحو الإحسان محو الريح للسُحب ، والعذر يطوي الذنب طيّ السجلّ

(١) صعر وصاعر وأصعر خده : أماله عن النظر الى الناس تهاوناً وكبراً .

(٢) والمروى فى الخصال (١ : ١٧٣) عنه صلى الله عليه وآله ان السؤال عن أربعة بزيادة « وحبنا أهل البيت » و الرواية هنا مضطربة فصدرها ضمير الغائب ثم التفت الى الخطاب .

(٣) « من » فاعل الفعل و « ما ليس له » مفعوله .

(٤) ما يعقل ، اى يربط به كالقيد .

(٥) اسم مصدر بمعنى الانتقال .

(٦) جمع الغادية : مطرة الصباح ، ويقال له بالفارسية : شبنم .

(٧) الطروق : المجيء بالليل .

(٨) استقرى البلاد : تتبعها وطاف فيها .

(٩) ذبل – بالفتح و الضم – يذبل – بالضم – النبات : ذل ماؤه وذهبت نضارته .

(١٠) السعود : اليمن والبركة .

(١١) فى الاصل : لا تنام .

للكتب . ورضى الناس غاية يثقل تتبعها ، ومفارقة العادة شربة يصعب تجرّعها . و الطمع إعصار فيه نار ، و الهوى خمر كلّه خمار . و الصدق مفتاح كلّ غُنية ، و الصلاح مصباح كلّ مُنية . والصديق الكذوب كالسيف الكهام[١] ، والمتملّق الخدوع كالغمام الجهام[٢] والحلم ما أنضر زهره ، و أحلى ثمره ! والعجلة ربحها خسران ، وزيادتها نقصان والصدق من مقاليد النجاه ، والتواضع من تباشر الدرجات و الآنات . لاتطلع ثمرة النجح إلّا من أكمامها ، ولا تظهر شمس الظفر إلّا عن غمامها . و التعفّف جريدة أوّلها الطاعة والغنى قصيدة مطلعها القناعة . و الورع فلك قطبه الحياء ، و الكرم جسد قلبه الوفاء . ومن ادّرع ثوب العَفاف فقد أمِن من جميع محاذيرها ، ومن استغنى بقدر الكفاف فقد ملكها بحذافيرها و من لزم قرارة داره ، و أرخى على حاله غشاوة أستاره ، و أعرض عن أبواب قوم و دافع يوماً بيوم ، فذلك الّذي درّت عليه أخلاف[٣] الراحة

و اعذوذبت عنده مشارب المعيشة و إن
كان صفر الراحة[٤]

---

(١) الكهام والكهيم ـ بفتح الكاف ـ : البطىء الكليل .
(٢) الجهام : السحاب لاماء فيه .
(٣) جمع الخلف ـ بالكسر ـ والمراد بها هنا حلمة ضرع الناقة .
(٤) اى خالى الكف من المال .

﴿ فصل ٢ ﴾

✡(في العزلة والخلوة (١))✡

لابدّ لمن آثر الله على من سواه من العُزلة في ابتدائه توحّشاً من غير الله ، و من الخلوة في انتهائه اُنساً بالله . والتزهّد شجرة استقى عرقُها من منبع التفرّد ، وخرج غصنها من متّبع التوحّد . قد أنبت الله في قرارة الفرد دوحتها(٢) ، وأطلع عن زهرة الفاقة ثمرتها وجعل الانقطاع عن غيره من شربها الصافي ، والاُنس به وحده من ظلّه الضافي(٣) والاعتصام بحبله من أورع مرعاها ، و التصرّف على حكمه من أطيب جُناها .

قال أبو عثمان المغربيّ : من اختار الخلوة على الصُحبة فينبغي أن يكون خالياً عن جميع الأذكار إلّا ذكره ، وعن جميع الإرادات إلّا أمره ، و عن جميع مطالبات النفس إلّا حكمه .

و قال يحيى بن معاذ(٤) : انظر اُنسك بالخلوة معه أم في الخلوة ؛ فإن كان اُنسك بالخلوة ذهب اُنسك إذا خرجت منها ، وإن كان اُنسك في الخلوة معه استوت بك الأماكن في الصحاري و البراري . وقال : الوحدة جليس الصدّيقين وأنيس الصادقين . وقال: العبادة حرفة وحوانيتها الخلوة ، ورأس مالها الاجتهاد بالسنّة و ربحها الجنّة .

وقال أبوعبدالله الرمليّ : ليكن خدنك(٥) الخلوة، وطعامك الجوع ، وحديثك المناجاة

---

(١) وانظر الاقوال فى العزلة وفوائدها وآفاتها عند الغزالى (٢ : ١٤٩-١٦٣) .

(٢) الدوحة : الشجرة العظيمة المتسعة .

(٣) الضافى : الممتلى .

(٤) أبوزكريا ، يحيى معاذ الرازى الواعظ ، أحد رجال الطريقة ، خرج الى بلخ و أقام بها مدة ورجع الى نيسابور ومات بها سنة ٢٥٨ وذكره القشيرى فى رسالته وقال فى حقه : نسيج وحده فى وقته ، له لسان فى الرجاء وكلام فى المعرفة . وفيات الاعيان (٥ : ٢١٤ ، برقم ٧٦٥) . و ترى أقواله عند ابن خلكان و الخطيب فى تاريخ بغداد .

(٥) الخدن ـ بالكسر ـ الحبيب والصاحب .

فإمّا أن تموت و إمّا أن تصل . وكان بعض العارفين يصيح و يقول : الإفلاس الإفلاس ! فقيل : وما الإفلاس ؟ قال : الاستيناس بالناس .

وحدّث أبو العبّاس الدامغانيّ قال : أوصاني بعض العارفين ، وقال:الزم الوحدة ؛ وامحُ رسمك عن القوم ، واستقبل الجدار حتّى تموت .

ودخل شعيب بن حرث على مالك بن معول و هو في داره بالكوفة جالس وحده ، فقال : أما تستوحش في هذه الدار وحيداً ؟ فقال : ما كنت أظنّ أنّ أحداً استوحش مع الله.

و عن خلف بن تميم ، قال : جئت لأطلب إبراهيم بن أدهم [١] في يوم مطير [٢] فأطلعت ولم أره فإذا هو قاعد تحت السرب وقد فرّ من الوكف[٣] فلمّا نظر إليّ قال : ارض بالله صاحباً و ذر الناس جانباً .

و كان الفُضيل بن عِياض [٤] يقول : كفى بالله محبّاً ، و بالقرآن مؤنساً ، و بالموت واعظاً .

وقال أبو الربيع الزاهد لداود الطائيّ : [٥] أوصني فقال : صُم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفرّ من الناس فرارك من الأسد [٦].

---

(١) أبو اسحاق ابراهيم بن أدهم بن منصور العجلي البلخي الزاهد وكان ذا ثروة عريضة، ثم رفض الدنيا و صار الى الزهد . توفي في بلاد الروم سنة ١٦١ . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة .

(٢) يوم مطير وماطر ومطر : ذومطر .

(٣) الوكف - بفتحتين - : الاصابة بمكروه و نقص .

(٤) أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي سنترجم له في خبر له مع هارون الرشيد حين و طيء الجرادة .

(٥) أبوسليمان داود بن نصر الطائي ، من أئمة المتصوفين ، كان في أيام المهدي العباسي مولده بالكوفة ورحل الى بغداد فأخذ عن أبي حنيفة وغيره واشتغل بالعلم ودرس الفقه ثم فرق كتبه واختار العزلة وعاش عشرين سنة بثلاثمائة درهم. مات بالكوفة ١٦٠ وقال محارب بن دثار : لو كان داود في الامم الماضية لقص الله تعالى شيئا من خبره . و فيات الاعيان (٢ : ٢٩ ، برقم ٢١١) قاموس الاعلام : ٣٠٦ .

(٦) في الوفيات : واجعل افطارك فيها الموت ، وفر من الناس فرارك من السبع .

و كتب إلى ابن السمّاك [١] صاحب له : أمّا بعد ، فإنّ الناس كانوا دواء يتداوى به ، فأصبحوا داء لايقبل الدواء . وفرّ منهم فرارك من الأسد ، واتّخذ الله مؤنساً .

وقال أبو يزيد [٢] : من عرف الآخرة فليس له في الدنيا رغبة ، ومن عرف الدنيا فليس له في المعيشة حلاوة ، ومن عرف الله فليس له من الخلوة لذّة .

و عن بعض الحكماء : توحدّ ما أمكنك ، فمن و طئته الأعين و طئته الأرجل ، و أنشد :

عليك بإقلال الزيارة إنّها * تكون إذادامت إلى الذلّ مسلكاً
فإنّي رأيت الغيث يسأل دائبا * و يطلب بالأيدي إذا هو أمسكا
فطول مقام المرء في الحيّ مخلق * لديبا جتيه فاغترب يتجدّد
فإنّي رأيت الشمس زيدت محبّة * إلى الخلق إذ ليست عليم بسرمد

وقال بعض الحكماء : إنّما يستوحش الإنسان بالوحدة لخلاء ذاته و عدم الفضيلة من نفسه فيتكثّر حينئذ بملاقاة الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم ، فإذا كانت ذاته فاضلة ونفسه كاملة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة و يتفرّغ لاستخراج العلم والحكمة .

وقال بعضهم : انسلخوا عن جلودكم انسلاخ الحيّات ، و دبّوا دبيب الديدان ، و تجرّعوا الزعاف [٣] تعيشوا و استحبّوا الممات تحيوا ، و طِروا ولا تتّخذوا وكراً ، فمصيدة الطير أوكارها . كونوا نعاماً تلتقم الجنادل المحميّة ، و سمادل تغشي النيران المضطرمة ، وثعابين تسترط [٤] العظام الكبار ، وخفافيش لا تبرز نهاراً ، فخيار الطيور خفافيشها . وجانبوا الناس مجانبة السباع الضارية ، فماأكثر مايقولون وأقلّ مايفعلون و

---

(١) أبو العباس محمد بن صبح ، مولى بني عجل الكوفي الزاهد المشهور ، لقي جماعة من الصدر الاول . وفيات الاعيان (٣ : ٤٢٨ ، برقم ٦١) .

(٢) طيفور بن عيسى البسطامي الزاهد المشهور ، كان جده مجوسيا ثم أسلم ؛ وله أخوان زاهدان ومقالاته كثيرة . وفيات الاعيان (٢ : ٢١٣ ، برقم ٢٨٩) .

(٣) سم زعاف ـ بالضم ـ : يقتل سريعاً .

(٤) استرط العظام : ابتلعها .

أكثر مايسمعون وأقلّ ماينتفعون ! وشرّ المقال ماضاع . وبالله الاستعانة وعن الناس البراءة ومن سلك غير هذا الطريق ضلّ وذلّ .

قال ابن هرمة [١] :

إنّ السباع لتهدى عن فرائسها * و الناس ليس بهاد شرّهم أبدا
الله يعلم أنّي حين أبصرهم * أرى أناساً ولكن لا أرى أحدا
ماأكثر الناس لكن ما أقلّهم؟ * و الله يعلم أنّي لم أقل فندا
إنّي لأفتح عيني حين أفتحها * على كثير ولكن لا أرى أحدا
بلوت أخلاّء هذا الزمان * فأقللت بالهجر منهم نصيبي
و كلّهم إن تأمّلتهم * صديق العيان عدوّ المغيب
و زنت هذا الناس لا مرّة * بكفّتَي خُبري و تجربي
فكلّهم أروغ من ثعلب * و كلّهم أغدر من ذيب [٢]

البستيّ :

دعني فلن أخلق ديباجتي * و لست أبدى للورى حاجتي
منزلتي يحفظها منزلي * و باجتي تكرم ديباجتي

القاضي أبو الحسن :

ما تطعّمت لذّة العيش حتّى * صرت في وحدتي لكتبي جليساً
ليس شيء أجلّ عنديَ من * نفسي ، فلم أبتغ سواها أنيساً
إنّما الذلّ في مداخلة الناس * فدعها و كن كريماً رئيساً

عبد الصمد الطبريّ :

ولقد لزمت فناء بيتي لابساً * حُلَل الغِنا، إلف القطا الأفحوصا [٣]
لم أدّرع طمعاً ولم أمدد يداً * نحو النوال ، ولا جررت قلوصا

---

(١) البيتان الاولان له فى لسان العرب (هدأ) و ربما نسبا الى الشافعى .

(٢) الذيب : الذئب ، سهل همزته .

(٣) يريد : لزمت فناء بيتى وألفت به كالف القطا الموضع الذى تفحص التراب عنه لتبيض فيه .

و إذا أردت منادماً لم تلفني * إلّا على عزّ العلوم حريصا
فترى الكتاب مجالسآلي مودعا * سمعي فضولاً تنتفي و فصوصا
لا مُفشياً سرّي ولا متنمّراً * جهم اللّقاء، ولا عليّ خروصا[1]

أبوسليمان الخطّابيّ : [2]

إذا خلوت صفاذهني وعارضني * خواطر كاطّراد البرق في الظلم
وإن توالى صياح الناعقين على * أُذني، عرتني منه حُلكة العجم[3]

منصور الفقيه [4] :

قد أولع الناس بالتلاقي * و المرء صبٌّ إلى مُناه[5]
و إنّما منهم صديقي * مَن لا يراني ولا أراه!
كن لأرض البيت حِلساً * و ارض بالوحدة أُنسا[6]
لست بالواجد خلاًّ * أو تردّ اليوم أمسا
ما رأينا أحداً يسـ * ـوي على الخِبرة فلسا[7]

وقال : الناس بحر عميق * و البعد عنهم سفينه

---

(١) جهم - بالضم - جهامة : صارعابس الوجه فهوجهم .

(٢) هو حمدبن محمد بن ابراهيم بن الخطاب البستى ، فقيه محدث ، له «معالم السنن» فى شرح سنن أبى داود وشرح البخارى و غيرهما ، ولد ٣١٧ وتوفى ٣٨٨ هـ . انظر و فيات الاعيان (١ : ٤٤٣ ، برقم ١٩٦) وقاموس الاعلام ٧٧٦ .

(٣) الحلكة : شدة السواد . والعجم هنا : النواة ، يريد السواد والظلمة الذى أحاط بها .

(٤) أبوالحسن منصور بن اسماعيل بن عمر التميمى المصرى الفقيه الشافعى الضرير ، أصله من رأس عين الجزيرة ، كان أديبا شاعراً مجيداً متفننا له حظ من كل علم . قدم مصر وبها توفى ٣٠٦ هـ ترى أحواله وأشعاره فى الوفيات (٥ : ٣٧٦ ، برقم ٧١٢) ومعجم الادباء (١٩ : ١٨٥) .

(٥) الصب : العاشق وذوالولع الشديد .

(٦) فى هامش الاصل : « الحلس : البلاس ، وفى الحديث : كن حلس بيتك » والكلمة مصحفة فى الاصل والهامش بالغاء المعجمة .

(٧) كذا فى الاصل ، ولعل الصواب : لدى الخبرة .

وقد نصحتك فانظر * لنفسك المستكينه [١]
كلّ من أصبح في دهـ * ـرك ممن قد تراه
فهو في خلفك مقرا * نٌ و في الوجه مراه
ألم تر كيف قد قلّ الكرام * و كيف انحطّ في السفل الأنام
و كيف غدت عقول الناس فوضى * كأنّ الجهل بينهم اقتسام
فلا تعب البلاد فكلّ أرض * كذلك ، غالب فيها اللئام
و كن طلقاً ، لكلّ يدٍ نوالٌ * كما قالوا : لكلّ غد طعام
فإن تك سائلاً عنّي فإنّي * لأهل الفضل كلّهم غلام
أحبّهم لأنّهم قليل * وفي الأنذال والسفل ازدحام [٢]
اعلم بأنّ الناس من طينة * يصدق في الثُلب لها الثالب
لولا علاج الناس أخلاقهم * إذاً لفاح الحمأ اللازب [٣]
إذا ما الناس جرّبهم لبيب * فإنّي قد أكلتهم ذواقا [٤]
فلم أر ودّهم إلّا خداعا * ولم أر دينهم إلّا نفاقا
كلّ الأنام كلاب * هرّوا بكلّ طريق [٥]
فإن ظفرت بحرٍّ * فاحفظه فهو سلوقي

فإذا كان الشرّ فاشياً ، والآفة عامّة ، والطينة فاسدة ، والعقول مدخولة ، وجب علينا ملازمة الخلوة .

وفي بعض الآثار : وجدنا خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقلّة ، وشرّهما في الكثرة

---

(١) في الاصل « المسكينه » والتصحيح من الوفيات و معجم الادباء .

(٢) في الاصل : وفي السفل .

(٣) فاح المسك : انتشرت رائحته . الحمأ : الطين الاسود .

(٤) ذاق الشيء ذواقا : اختبر طعمه .

(٥) هر الكلب : صات دون نباح

و الخُلطة . وفي بعضها : إذا أرادالله أن ينقل العبد من ذلّ المعصية إلى عزّ الطاعة آنسه بالوحدة و أغناه بالقناعة ، وبصّره عيوب نفسه ، ومن أُعطي ذلك أُعطي خيرالدارين .

ورأى أياس بن قتادة العبشمي[١] شيبة في لحيته فقال : أرى الموت يطلبني ، و أراني لا أفوته ، أعوذبك من فجاءة الأُمور ، يابني سعد ! قد وهبت لكم شبابي فهبوا لي شيبتي و لزم بيته ، فقال له أهله : تموت هزلاً ، فقال : لأن أموت مؤمناً مهزولاً أحبّ إليّ من أن أموت منافقاً سميناً .

وقال عمروبن عُبيد [٢] للمنصور : إنّ الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها و إنّ هذا الّذي أصبح بيديك لوبقي في يد من كان قبلك لم يصر إليك[٣] ، فاحذر ليله تمخض بيوم هو آخر عمرك فبكى المنصور . ثمّ قال : سل حاجتك ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ! لاتعطني حتّى أسألك ، و لاتدعني حتّى أجيئك .

وحكي أنّ الرشيد طاف بالبيت فوطىء جرادة فلم يدرما عليه فيها ، فبعث المأمون إلى الفضيل بن عياض[٤] فسلّم عليه ، وقال : أمير المؤمنين يقرأعليك السلام ويقول : لنا إليك حاجة فأُحبّ أن تصير إلينا ، فلم يجب الفضيل بشيء ، فرجع المأمون وقال : رأيت رجلاً ليست به إليك حاجة ، فقام الرشيد مغضباً حتّى تخوّفنا على الفضيل ، فقال : رحمك الله قد كان

---

(١) نسبة الى عبد شمس .

(٢) أبوعثمان عمروبن عبيدبن باب ، المتكلم الزاهد المشهور ، مولى بنى عقيل . شيخ المعتزلة فى عصره كان جده من سبى كابل ، وأبوه نساجاً ثم شرطياً للحجاج فى البصرة . أخذالعلم عن الحسن البصرى واشتهر بالعلم و الزهد و أخباره مع المنصور العباسى ، وفيه قال المنصور :

كلكم يمشى رويد ٭ كلكم طالب صيد ٭ غير عمرو بن عبيد

ولد سنة ٨٨ و توفى ١٤٤ هـ . انظر الوفيات (٣ : ١٣٠ ، برقم ٤٧٦) .

(٣) فى الوفيات : لم يصل اليك .

(٤) أبو على الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى اليربوعى ، شيخ الحرم ، من أكابر العباد الصلحاء ، كان ثقة فى الحديث ، أخذ عنه الشافعى و غيره أصله من الكوفة ومولد فى سمرقند ١٠٥ سكن مكة و توفى بها ١٨٧ هـ و فى الوفيات : يحكى أن الرشيد قال له يوماً . ما أزهدك ؛ قال له الفضيل : أنت أزهد منى ، قال : و كيف ذلك ؛ قال : لانى أزهد فى الدنيا ، و أنت تزهدفى الاخرة و الدنيا فانية و الاخرة باقية . انظر الوفيات (٣ : ٢١٥ ، برقم ٥٠٤) و قاموس الاعلام : ٧٧٦

الواجب أن تأتينا وتعرف حقّنا، إذ ولّانا الله أُمورکم ، وصيّرنا الحكّام عليكم، والذابّين عن حريمكم . و إذ لم تأتنا فقد آتيناك ، إنّي و طئت الآن على جندبة فما ديتها ؟ فبكى الفضيل بكاءً شديداً حتّى علا صوته ، وقال : إذا كان الراعي يسأل الغنم هلكت الغنم وإنّما يجب على الراعي أن يرتاد لغنمه أمن المرعى ، و أجود الكلاء ، وأعذب الماء ، فإذا كنت يا أمير المؤمنين عن معالم الدين غافلاً فبأيّ شيء تسوس الرعيّة ؟ فخجل الرشيد حتّى عرق و انصرف .

وممّا يؤنس بالعزلة ويوحش عن الخُلطة مايحكى عن الحسن أنّه قال : كلمات احفظهنّ من التوراة : قنع ابن آدم فاستغنى ، واعتزل الناس فسلم ، ترك الشهوات فصار حرّاً ترك الحسد فظهرت مروءته ، صبر قليلاً فتمتّع طويلاً .

وحكى بعضهم قال : كنت في سفينة و معنا شابّ من العلويّة فمكث معنا سبعاً لا نسمع كلاماً ، فقلنا : ياهذا ! جمعنا الله وإيّاك منذ سبع ولانراك تكلّمنا ، فأنشأ يقول :

قليل الهمّ لا ولد يموت * ولا أمر يحاذر أن يفوت
قضى وطر الصبى وأفاد علماً * فغايته التفرّد والسكوت

وكان الفضيل يقول : إنّي لأجد للرجل عندي يداً إذا لقيني أن لايسلّم عليّ ، وإذا مرضت أن لايعودني .

وقال إسحاق بن إبراهيم : إذا لم يكن في العزلة أكثر من أنّك لاتجد أعواناً على الغيبة لكفى .

وفي العزلة : [1] السلامة من آفة الرياء ، والتصنّع للناس ، و استعمال المداهنة لهم ، والمداراة في رضاهم .

وفيها : السلامة من المآثم ، والمنكر تراه فلا تغيّره ، والأمان من غوائل أهله و عاقبتهم إذا غيّره . قال الفضيل : من خالط الناس لايسلم من أحداثين : إما أن يخوض معهم إذا خاضوا في الباطل ، أو يسكت إن رأى منكراً فيأثم .

(١) وانظر في فوائد العزلة و مضارها مضافاً الى احياء العلوم ، جامع السعادات للنراقي (٣ : ١٩٣ - ١٩٨) .

وفيها السلامة من الآفات ، والنظر إلى زينة الدنيا وزهرتها ، والاستحسان لما ذمّه الله من زخرفها ، ومنع النفس من التطلّع إليها ، والاستشراف لها ، وعن مخاتلة أهلها ، ومنافستهم عليها قال الله تعالى [١] : «ولا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه» .

وقال رسول الله ﷺ : « انظروا إلى من هو دونكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم» وأنشد :

إذا كنت تهوى أن تسرّ فلا تكن * على حالة إلّا رضيت بدونها

ونسب الماوردي [٢] هذا البيت إلى الرسول ﷺ وليس بصحيح لأنّه ﷺ لم ينظم الشعر ، وقد ذكرت هذا البيت والردّ على من نسبه إليه صلوات الله عليه مستوفى في كتابي الموسوم بالاثني عشريّة .

ومن عزّ العزلة وفوائدها أنّها خالعة عنك ذلّ الإحسان ، وقاطعة رقّ الأطماع ، و مفيدة عزّ اليأس عن الناس . وبحقّ ما قال من قال : مَن آثر العزلة حصل العزّ له ، و قيل : العزلة عن العامّة مروءة تامّة ، و قيل : معاشرة الأشرار تورث سوء الظنّ بالأخيار .

وفي العزلة أنّها تستر الفاقة ، و تكفّ جلباب التجمّل ، والتجمّل من شيم الأحرار ، وشمائل ذوي الأخطار ، وأنشدوا :

لا عار إن زالت عن الحرّ نعمة * ولكنّ عاراً أن يزول التجمّل

إنّ الكريم ليُخفي عنك خلّته * حتّى تراه غنيّاً وهو مجهود [٣]

---

(١) سورة طه : ١٣١ .

(٢) القاضي ابوالحسن على بن محمد بن حبيب ، من علماء الشافعية الباحثين ، كان متبحرا في المذهب ، ولد في البصرة ٣٦٤ هـ وانتقل الى بغداد ، ولي القضاء في بلدان كثيرة ، و جعل أقضى القضاة في أيام القائم بأمر الله العباسي ، نسبته الى بيع ماء الورد ، توفي ٤٥٠ انظر الوفيات (٢: ٤٤٤ برقم ٤٠١) والاعلام : ٦٩٠ .

(٣) الخلة ـ بالفتح ـ هنا : الفقر والحاجة .

كم فـاقة مستورة بمروءة * وخصاصة مطويّة بتجمّل[1]

لو سوّد الهمّ الملابس لم تجد * بيض الثياب على امرىء في محفل

وفي العزلة فوائد منها أنّها معينة لمن أراد نظراً في علم ، أو إثارة لدفين رأي ، واستنباطاً لحكمة ؛ لأنّ شيئاً منها لا يتمّ إلّا مع خلا الذرع وفراغ القلب ، ومخالطة الناس ملغاة ومشغلة .

وقال بعض الحكماء : من الطيور من جعل راحته في اعتزال العمران ، وآثر المواضع النائية عن الناس فليتشبّه به من أراد النظر في كتب الحكمة .

ولمّا أخذ محمّد بن الحسن الشيباني[2] في تصنيف الجامع الكبير ، خلا في سرداب وأمر أهله أن يراعوا أمر غذائه ووضوئه فيقدّموا إليه حاجته منهما ، وأن لا يوردوا عليه شيئاً يشغلوا خاطره ، وأقام في ماله وكيلاً ، وفوّض إليه أمره كلّه ، ثمّ أقبل على تصنيف الكتاب ، فلم يشعر إلّا رجل نزل إليه حتّى وقف بين يديه فأنكره ، فقال : من أنت ؟ فقال : أنا صاحب الدار أبيعها[3] من فلان - يعني وكيله - فاحتاج إلى الانتقال .

وقال بعض الأخيار: لا يتمكّن أحد من الخلوة إلّا بالتمسّك بكتاب الله ، والمتمسّكون بكتاب الله هم الّذين استراحوا من الدنيا بذكر الله ، الذاكرون الله بالله ، عاشوا بذكر الله وماتوا بذكر الله ولقوا الله بذكر الله .

وقيل لبعض العبّاد : ما أصبرك على الوحدة ! فقال : ما أنا وحدي ، أنا جليس الله جلّ وعزّ ! إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه ، وإذا أردت أُناجيه صلّيت .

---

(١) الخصاصة : الفقر ؛ قال تعالى: « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (الحشر:٩)

(٢) أبو عبدالله امام الفقه والاصول ، كان من موالي بني شيبان ، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة ولد بواسط ١٣١ هـ ونشأ بالكوفة وقدم بغداد فولاه الرشيد القضاء بالرقة ثم عزله ، ولما خرج الرشيد الى خراسان خرجته الاولى صحبه فمات في الري ١٨٩ هـ يوم موت الكسائي فيه ايضاً - على ما قال السمعاني - قيل : ان الرشيد قال : دفنا الفقه والعربية بالري . له كتب نادرة منها الجامعان الكبير والصغير في الفروع، ولهما مرتبة جليلة عند العلماء ، وشرحهما عدة منهم . انظر الوفيات وكشف الظنون ط استنبول (١:٥٦١ ، ٥٦٧) .

(٣) كذا في الاصل والصواب : ابتعتها .

وقيل لبعضهم : إلى أيّ شيء أفضى بكم الزهد والخلوة ؟ فقال : إلى الأُنس بالله .

و حكى سفيان بن عيينة [١] قال : لقيت إبراهيم بن أدهم في بلاد الشام ، فقلت : يا إبراهيم اتركت خراسان وبلادك ؟ قال : ماتهنّأتُ بالعيش إلّا ههنا ، من شاهق إلى شاهق فمن رآني يقول : موسوس أو جمّال أو ملّاح .

وقيل للحسن : يا أباسعيد ! ههنا رجل لم نره قطّ جالساً إلّا وحده خلف سارية [٢] ، فقال الحسن : إذا رأيتموه فأخبروني به فنظروا إليه ذات يوم فدلّوا الحسن عليه و مضى الحسن إليه وقال له : ياعبدالله ! أراك قد حبّبت إليك العزلة فما يمنعك من مجالسة الناس ؟ فقال : أمرٌ شغلني عن الناس ، قال : فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الّذي يقال له الحسن ؟ فقال : أمرٌ شغلني عن الناس وعن الحسن ، فقال الحسن : وما هذا الشغل رحمك الله ؟ قال : إنّي أُصبح وأُمسي بين نعمة وذنب ، فرأيت أن أشغل نفسي بذكر الله على النعمة والاستغفار على الذنب ، فقال له الحسن : يا عبدالله أنت عندي أفقه من الحسن فالزم ما أنت عليه .

وكان الفضيل يقول : إذا رأيت اللّيل مقبلاً فرحت به ، وقلت : أخلو بربّي ، وإذا رأيت الصبح أقبل استرجعت [٣] كراهية لقاء الناس ، و أن يشغلني عن ربّي .

ومن آفات الخلطة : التمضمض بأعراض الناس ، والتفكّه بمعائبهم ، والاسترواح بذكرهم ، فإن خاوضتهم فيه أثمت ، وإن سكتّ شاركت ؛ فالمستمع أحد المغتابين .

و منها : لزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللّذين السكوت عنهما معصية ، والوفاء بهما يعرض لصنوف من المكروه ، ربّما يجرّ طلب الخلاص منه إلى معاصي أكبر ممّا نهي عنه ، وقلّ ما يخلو الآمر فيه من إثارة الخصومات وتحريك غوائل الصدور .

وكم سُقت في آثاركم من نصيحة * وقد يستفيد البغضةَ المتنصّحُ

وما مثله إلّا كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه ،

---

(١) ابن ميمون الهلالي الكوفي ، المحدث الحافظ ، قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ، حج سبعين سنة ، ولد بالكوفة ١٠٧ و توفي بمكة ١٩٨ هـ . انظر وفيات الاعيان (٢ : ١٢٩ برقم ٢٥٣) والاعلام ٣٧٥ .

(٢) السارية هنا : الاسطوانة .

(٣) بهامش الاصل : أي أقول : انا لله وانا اليه راجعون .

نعم لو وجد أعواناً يمسكون الحائط حتّى يدعمه استقام ، و أنت اليوم لا تجد الأعوان فدعهم وانج رأسك .

ومنها : أنّ من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راياهم وأثنى عليهم بحقّ وباطل ، و المخالط إذا جامل المعاندين صار من شرار الناس الّذين قال فيهم النبيّ ﷺ : « إنّ من شرار الناس ذا الوجهين » يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وإن لم يلقهما جميعاً بما يوافقهما ثقل عليهما وعاداه . وأدنى ما يقوله من يلقى الناس المسألة عن الحال والأهل ، والباطن في خلا من الاهتمام بذلك ، ثمّ ذكر الشوق إلى اللّقاء و لعلّه لو عاش سنين لا يذكره ، ولئن كان إليه شيء من المحبّة والميل فالعادة جارية في التزيّد على ما هو عنده .

قال السريّ [١] : لو دخل عليّ أخ فسوّيت لحيتي بيدي [٢] لدخوله لخشيت أن أن أُكتب في ديوان المنافقين .

و كان الفضيل جالساً وحده في المسجد الحرام فجاء إليه أخ له ، فقال له : ما جاء بك ؟ قال : المؤانسة يا أبا عليّ ، فقال : هي والله بالمواحشة أشبه ! هل تريد ألّا تتزيّن لي وأتزيّن لك وتكذب لي وأكذب لك ، إمّا أن تقوم عنّي وإمّا أن أقوم عنك .

و لقي حاتم الأصمّ حامد اللّفّاف فقال : كيف أنت في نفسك ؟ فقال : سالم معافى فكره حاتم جوابه ، فقال : يا حامد ! السلامة من وراء الصراط ، والعافية في الجنّة .

وقال ابن سيرين [٣] لرجل : كيف حالك ؟ فقال : وما حال من عليه خمسمائة درهم ؟ فقال له : خذ منّي خمسمائة درهم تقضي بها دينك و خمسمائة درهم تغدو بها على عيالك . و لم

---

(١) أبو الحسن سرى بن المغلس السقطي ، من أعلام المتصوفة ، بغدادي المولد والوفاة ٢٥١ هـ وهو خال الجنيد وتلميذ المعروف الكرخي ومن كلامه : من عجز عن أدب نفسه فهو عن أدب غيره أعجز . وفيات الاعيان (٢ : ١٠١ برقم ٢٤٢) والاعلام : ٣٦١ .

(٢) في الاصل : « بيده » وهو سهو ظاهر .

(٣) ابو بكر محمد بن سيرين البصري ، التابعي الفقيه الورع ، اشتهر بالفقه والحديث وتعبير الرؤيا ، أبوه عبد لانس بن مالك و امه صفية مولاة أبي بكر ، كان من أصحاب الحسن البصري ثم تهاجرا ، ولد ٣٣ وتوفي ١١٠ هـ وفيات الاعيان (٣ : ٣٢١ ، برقم ٥٣٧) الاعلام ٩٠٣ .

يكن عنده غيرها . ثمّ قال : والله لا أسأل أحداً عن حاله أبداً و إنّما فعل ذلك مخافة أن يصير سؤاله من غير اهتمام بأمره نفاقاً ورياءً . و لذلك كان سؤالهم أبداً عن أُمور الدين وأحوال القلب في معاملة الله ، وإن سألوا عن أُمور الدنيا فعن اهتمام و عزم على القيام بمايظهر لهم من الحاجة ، وسدّما يبيّن من الخلّة .

وقال بعضهم : إنّي لأعرف أقواماً كانوا لا يتلاقون ، ولوحكّم أحدهم على صاحبه بجميع ما يملكه لم يمنعه ، وأرى الآن أقواماً يتلاقون ويسألون عن الدجاجة في البيت ولو انبسط أحدهم بحبّة من ماله لمنعه ، فهل هذا إلّا محض الرياء والنفاق ؟ ومن هذا ترى المتلاقين يقول هذا : كيف أنت ؟ ويقول صاحبه : كيف أنت ؟ فالسائل لا ينتظر الجواب والمسؤول لا يشتغل بالسؤال ولا يعرج على الجواب ، علماً من الجانبين أنّ ذلك سؤال رياء وتكلّف ، لا سؤال اهتمام وتلطّف . ولو لم يكن في الخلطة إلّا استصغار ما في الناس من الأخلاق الذميمة والأفعال القبيحة بسبب طول المشاهدة و كثرة الرؤية ، ولو لم يكن فيها إلّا أحد الشرّين : إمّا مخالفة الناس بأخلاقهم ، أو مقتهم واستثقالهم بالإنكار عليهم لكان في ذلك المحنة العظيمة والبليّة الشديدة والمؤونة الغليظة،وإذاكانت الرحمة تنزل عند ذكر الصالحين لما يكون عند ذلك من انبعاث القلب على الاقتداء بهم ، والاستنان بسنّتهم، والتنكّر لما عليه الإنسان من القصور والتقصير،فعلى مقابلته تنزل اللّعنة عند ذكر الفاسقين لما يعرض ذكرهم من أضداد هذه الخصال . فإذا كان هذا حال الذكر فكيف يكون حال المشاهدة ؟ ولاخفاء بأحوال أهل هذا الزمان وبُعدهم عن مذاهب الصالحين .

وقال بعضهم ـ ونعم ما قال ـ : إنّ رؤية أهل زماننا تميت القلوب ، وذكر الصلحاء السابقين يحيي القلوب ، فليكن الرجل السعيد على ترك لذكرهم،وبمعزل عن لقائهم فإنّهم يؤذونه مرّة بالغيبة ومرّة بسوء الظنّ والتهمة ، ومرّة بالاقتداحات المجحفة و الأطماع الكاذبة ، ومرّة بالنميمة عنك أوالكذب عليك . و ربمّا يرون من أعمالك ويسمعون من أقوالك ما لايبلغهم فهمه ، ولا تتناول عقولهم كنهه ، فيظنّون ظنّ السوء و يسيئون بذلك فيفشون بك إلى أعدائك ، ويتّخذونه وليجة إلى أذائك .

قال بعض الحكماء لصاحب له : أُعلّمك بيتاً هو خير من عشرة آلاف درهم ، ثمّ أنشد :

اخفض الصوت إن نطقت بليل * والتفت بالنهار قبل الزوال
ليس للقول رجعة حين يبدو * بقبيح يكون أو بجمال
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه * وصدّق ما يعتاده من توهّم
و عادى محبّيه بأوهام نفسه * وأصبح في ليل من الشكّ مظلم

وأيضاً ؛ فإنّ ظاهر أحوال الناس جميل والمخالطة تكشف عن عيوبهم و تصرّح العلم بمشوبهم ومن هذا قول أبي الدرداء : اخبر تُقلِه[1] وأنشد :

من حمد الناس ولم يبلهم * ثمّ بلاهم ، ذمّ من يحمد
و صار بالوحشة مستأنساً * يوحشه الأقرب والأبعد

و كان بعض الأعراب يلزم شجراً ويقول : هو نديم إن سمع منّي لم ينمّ عليّ ، وإن تفلت في وجهه احتمل ، و إن عربدت معه لم يغضب، يحدّثني بحفيفه وينفعني بظلّه و يطعمني من ينعه[2] فسمع الرشيد ذلك ، فقال : زهّدني[3] في الندماء .

و كان بعضهم يلزم الدفاتر والمقابر ، فقيل له في ذلك فقال : لم أر أسلم من وحدة ، ولا صاحباً أوعظ من قبر ، ولا جليساً أمتع من دفتر .

وقال سفيان بن عيينة : قال بعض العارفين في اليقظة في حياته وفي المنام بعد موته أقلّ من معرفة الناس ؛ فإنّ التخلّص منهم شديد ، ولا أحسب رأيت ما أكره إلّا ممّن عرفت .

و جمع بعض العلماء آداب العزلة فقال : أوّل ذلك أن ينوي المعتزل بعزلته كفّ شرّ نفسه أوّلاً ، ثمّ طلب السلامة من شرّ الأشرار ثانياً ، ثمّ الخلاص من آفة القصور عن القيام بالحقوق ثالثاً ، ثمّ التجرّد بكنه الهمّة لعبادة الله رابعاً ، ثمّ ليكن في خلوته مواظباً على العلم والعمل والذكر والفكر ليجتني من هذه الأشجار الأربعة ثمار العزلة وليمنع

(١) من الاقالة . وبهامش الاصل : اى تهجره وتتركه اذا اختبرته .
(٢) بتقديم الياء على النون : ثمر الشجر .
(٣) زهده في الشيء وعنه : ضد رغبه فيه .

من أن يكثروا غشيانه وزيارته فيتشوش وقته ، وليكف عن السؤال عن أخبارهم وأحوالهم فوقوع الأخبار في السمع مثل وقوع البذر في الأرض لابد أن ينبت في القلب منه وساوس وهموم وأحاديث ، و يتفرع فروعها وأغصانها وتتبع أحاديث النفس أحزانها وأشجانها ، و المعتزل عن جميع ذلك بمندوحة [١] ؛ فما أحراه بقطع الوساوس الصارفة عن ذكر الله تعالى ! وليقنع باليسير من المعيشة مطعماً وملبساً ومسكناً و إلّا ألجأه التوسع إلى الناس وليجتنب من مدح الناس اعتزاله وذمهم أفعاله ، ما يحول بينه وبين قلبه، وكل ما حال وشغل وقف عن السير في طريق الآخرة ، والسير السريع إليها هو بالمواظبة على ورد وذكر مع حضور القلب ، أو بالفكر في جلال الله تعالى وحكمته وقدرته ، أو بالتأمل في دقائق الأعمال ومفسدات الأحوال ، تخليصاً للقلب عنها وتحرزاً للنفس منها ، وليعلم أن من لا يتمكن في قلبه من ذكر الله و معرفته ما يأنس به لم يحتمل وحشة العزلة ، و من تمكن في قلبه ذلك لم يحتمل أذى الخلطة، وتمنى التوحد بجهده ويضيق ذرعاً بغيره ، ويكون أنسه في البوادي والقفار والمواضع الأغفال عن الناس .

وإني لأستنعس ومابي نعسة * لعل خيالاً منك يلقى خياليا
وأخرج من بين الجلوس لعلني * أحدث عنك النفس بالسر خاليا

وقيل : الانفراد في الخلوة أجمع لدواعي السلوة [٢] ، ومنه قولهم : خلاؤك أقنى لحيائك [٣] .

وكان بعض العارفين يقول : مكابدة [٤] العزلة أيسر من مداراة الخلطة . وكان يقول: من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس ويستوحش من الأغنياء ، و ليجانب السلطان كما يجانب الرجل السباع الضارية والهوام العادية .

وسئل عن الخلوة فقال : إن السلامة مصاحبة لمن طلب السلامة بترك المخالطة و

---

(١) أى فى سعة منها .
(٢) بضم السين وبفتحها : رغد العيش وكشف الهم .
(٣) قنى المال واقتناه : جمعه . الحياء : لزمه والحياء هنا : الحشمة .
(٤) كابد الامر : قاساه وتحمل المشاق فى فعله .

ترك التطلّع إلى ماأوجب العلم مفارقته ، والحياء مجانبته .

وقال ذوالنون : [١] لم أرشيئا أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة ، لأنّه إذاخلا لم يرغير الله ، و إذا لم ير غيره لم يحرّكه إلّا حكمة[٢] .ومن أحبّ الخلوة فقد تعلّق بعمود الإخلاص ، واستمسك بركن شديد من أركان النجاة .

ورأى إبراهيم الخوّاص رجلاً في البادية حسن الأدب حاضر القلب فسأله فقال : كنت أعمل بين الناس ، والمعارف في التوكّل والرضا و التفويض ، فلمّا فارقت المعارف لم يبق لي ممّا كان معي من ذلك ذرّة ، حجبت حتّى أُطالب نفسي ههنا بدعائها إذا انفردت عن المعلومات والمعارف .

وكان أبو المسيّب من كبرائهم ، وكان ينفرد في المساجد الشعثة ، و صادفه الدرّاج ليلة في المسجد فقال : من أين أنت ؟ فقال : أنا من كلّ مكان ، فقال : و من كان من كلّ مكان فما علامته ؟ قال : لم يستوحش من شيء ولم يستوحش منه شيء ، قال : فحملت إليه الشبليّ فنظر إليه ، فقال : ليس هذا من دوابّ هذاالإصطبل فأين سمته [٣] ؟

و عن بعض الحكماء حين قيل له : لما رفضت الناس ؟ فقال : لم أر إلّا عدوّاً يداجيني [٤] بعداوته ، وصديقاً يعدّ علي معايبي في أيام صداقته ، ثمّ أنشد :

أُناس أمنّاهم فنمّوا حديثنا * فلما كتمنا السرّ عنهم تقوّلوا
ولم يحفظوا الودّ الّذي كان بيننا * ولاحين همّوا بالقطيعة أجملوا

آخر: لا تصحبنّ ممازقاً * خلط المرارة بالحلاوة

---

(١) أبوالفيض ثوبان بن ابراهيم ، من رجال الطريقة قال ابن خلكان : كان أحد وقته علما وورعاً وحالا وأدباً ، وهو معدود في جملة من روى الموطا عن الإمام مالك ، و كان أبوه نوبيا ، وقيل : من أهل اخميم - مولى لقريش ، وكان قد سعوا به إلى المتوكل العباسي فاستحضره من مصر ، فلما دخل عليه وعظه ، فبكى المتوكل ورده مكرماً و توفي بها ٢٤٥ هـ انظر الوفيات (١: ٢٨٠ ، برقم ١٢٦) والاعلام : ١٧٣ .

(٢) كذا في الاصل بالتاء . وأظن ان الصواب «حكمه» بالهاء .

(٣) بهامش الاصل مكان «فابن» : «فاقف ظ اى اتبع» وهو سهو ، و السمت : الطريق والمحجة ، والمعنى ظاهر .

(٤) داجاه . منعه بين الشدة والرخاء .

يحصي الذنوب عليك أيّـ * ـام الصّداقة للعداوة

آخر : احذر عدوّك مرّة * واحذر صديقك ألف مرّة

فلربّما انقلب الصديق * فكان أعرف بالمضرّة

آخر : اغشش بني آدم فكلّهم * لله عاس فكن لهم دغلاً

اسقهم المرّ إن ظفرت بهم * وامزج لهم من لسانك العسلا

لاتخف بالنازل المقيم ولا * تبك على ظاعن إذا ارتحلا

من غاب أوحال عن مودّته * فخلّ عنه و اطلب به بدلا

فأنت في الناس واجد بدلا * إذا طلبت الخلاّن و الخللا

ولا تقل : أحفظ الذمام، ولا * أنس فلاناً وحسن مافعلا

ومل مع الريح مثل منتقل * عن كدر العيش واتبغ الدولا

و كن ذليلاً إذا قهرت، فإن * أحسست عزّاً فكن له بطلا

فقد حلبت الزمان أشطره * آخذ منه الهموم و الجدلا

فلا أرى وافياً بذمّته * والغدر كلّ الأنام قد شملا

و كن من الناس من أبيك ـ فلا * أقرب منه ـ مستوحشاً وجلا

إن مستشيراً أتاك منتصحاً * فامدد له كيف ما اشتهى طولا

خلّط على الناس ينسبوك إلى * الظرف وشتّت عليهم السبلا

قدّم وأخّر واسلك بهم سبلاً * يلقون فيها العثار و الزللا

و اسخر بهذا الأنام كلّهم * واسرق متاع الرفيق إن غفلا

هذا المساعي وقد أمرت بها * وهي صواب فدونك العملا

إنّ رجال الوفاء قد زهدوا * لأنّ نجم الوفاء قد أفلا

إنّي رأيت الزمان منقلباً * و كن له من رجاله رجلا

هذا كتابي أخذت نسخته * من فيلسوف بقريتي نزلا

وحديث هذه الأبيات أنّ المأمون مرّ بأنطاكية [1] إلى بلاد الروم فنزل بكوفى،

(١) بهامش الاصل : انطاكية مدينة فى بلاد الشام خراب .

-قرية من قرى أنطاكية-فقال : لمن هذا ؟ قالوا : لرجل يقال له « ابن طلنب » و قال : هو صاحب القصيدة : « اغشش بني آدم » ؟ قالوا : نعم ، قال : ومافعل ؟ قالوا : شيخ كبر ، قال: ائتوني به ، فلمّا مثّل بين يديه استنشده هذا الشعر ، فلمّا بلغ قوله : « إنّ رجال الوفاء قد ذهبوا » قال المأمون : نجوت بهذاالبيت بعدأن استحققت التأديب ، اذهب لسبيلك ، فقال : إلى عجائز وصبية يعيّروني بأنّي قد وقفت بين يدي أميرالمؤمنين فرجعت صفر اليدين ؟ قال : أوماترضى أن تفلت منّا ؟ فقال : لو أضفت هذا الفضل إلى ذلك الفضل ! فضحك المأمون وأمرله بعشرة آلاف درهم .

وممّا جاء من حكايات من آثر الخلوة واختار العزلة ، حديث ذي النون قال : وصفوا لي عابداً بالجزيرة فحملتني نفسي على لقائه فأتيت ممسياً فقلت : السلام عليك يا عابد ، فلم يجبني ، ثمّ ناديته فلم يجبني ، فقلت : بحقّ معبودك إلّا أشرفت عليّ ، فأشرف علي شيخ ؛ قد سقط حاجباه على عينيه من كبرسنه ، فقلت له : أوصني ، فأومأ بيده إليّ أنّي لا أكلّم أحداً ، فمكثت عنده يومي فسمعته يقول في مناجاته : إلهي عجبت ممّن استأنس بك كيف يستأنس بالمخلوقين ؟ عجبت ممّن عرف خزائن ملكك كيف اتّكل على الآدميّين ؟ فقلت : كفاني من الوصيّة ماقد سمعت فرجعت وأتيت قرية بقربه ، فسألت أهلها : كم هذا الشيخ في هذا المكان ؟ قالوا : منذ تسعين سنة ، قلت : فلمَ لم يكلّمني قالوا : منذ خمسين سنة مارأيناه يكلّم أحداً ، قلت : من أين طعامه ؟ قالوا : أما رأيت الّذي اجتمع حول صومعته : العسل ، ليس يأكل غيره ، وقد عرضنا عليه الطعام غيرمرّة فأبى .

وقيل لبعضهم : ههنا أحد يستأنس به ؟ فقال : نعم و مدّ يده إلى مصحف حوله ، فقال : هذا ، وأنشد :

و كتبك حولي لاتفارق مضجعي　　*　　و فيها شفاء للّذي أناكاتم
كأنّي سقيم قد أُصيب فؤاده　　*　　وهنّ حوالي الرقا والتمائم

وذكر بعضهم قال : بكّرت[1] إلى السريّ يوماً في الشتاء في الليالي الطوال ، فقلت كيف بتّ البارحة ؟ فأنشأ يقول :

---

(١) اى دخلت عليه بكرة .

أوحش الناس جانبيّ فما * أُنسي إلّا بوحشتي وانفرادي

وقال بعضهم : العزلة في الحقيقة اعتزال الخصال المذمومة لاالانقطاع عن الإخوان والتنائي عن الأوطان ، فلهذا قيل للعارف « كائن بائن » أي كائن مع الخلق ، بائن عنهم بالسرّ .

كالبدر يبعد في السماء محلّه * و كأنّه معنا لقرب ضيائه

وقال بعضهم : البس مع الناس ما يلبسون ، و تناول ما يأكلون ، و انفرد عنهم بالسرّ ، و على هذا لا تتمّ الخلوة مادام المرء في صحبة النفس و إن عبر دهره وحيداً فريداً.

وسئل بعضهم : كيف الطريق إليه ؟ فقال : زلّ عن الطريق تصل .

و قال أبو سليمان الدرائيّ :[1] مارجع من رجع إلّا من الطريق ،فإذا وصلوا إليه لم يرجعوا عنه أبداً .

وسئل عن حقيقة الوصول فقال : أن تزول عنك نفسك ، ولا يأخذ منك وقتك ، ثمّ أنشأ يقول :

ما زلت أعرف أيّامي وأنكرها * حتّى استنارت فلابيض ولا سود

وخاض بي في بحار السكر مختبطا * لا القرب قرب ولا التبعيد تبعيد

و ممّا يحكى في اعتزال عمل السلطان وترك التصرّف ولزوم البيت واغتنام الكفاية وإعتاق النفس عن ذلّ المطالب أنّ رجلاً من المتصرّفين [2] خرج في عسكر المعتصم وهو يريد مصر ، وقدر أي أن يتصرّف ويتعيّش فلم يحظَ بشيء[3] ممّا أمّل حتّى دخل المعتصم مصر ، قال الرجل : فأصبحت يوماً وقد نفدت نفقتي ، وتقطّعت ثيابي وأنا من الهمّ والغمّ على مالا يوصف عظماً ؛ فقال لي غلام من غلماني : أيّ شيء تعمل اليوم ؟ فقلت : هذا لجام

(١) كذا في الاصل و الصحيح الدارانى و هو نسبة ـ من شواذ النسب ـ الى « دار يا » بتشديد الياء من قرى غوطة دمشق ، اسمه عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسى ، أحد رجال الطريقة وأرباب الجد فى المجاهدات ، قال ابن خلكان : وله كل معنى مليح . انظر الوفيات (٢ : ٣١٣ ، برقم ٣٣٦) والاعلام : ٤٨٤ .

(٢) المتصرف : الحاكم على قطعه من المملكة ، يقال له بالفارسية « آستاندار » .

(٣) حظى بالرزق يحظى ـ من باب علم ـ : نال حظا منه ، لم يحظ : لم ينل .

الدابّة فبعه فإنّه محلّى بالفضّة وابتع مكانه لجاماً حديداً ، واشتر لنا خبزاً سميداً [١] و جدياً سمينا ، فقد و الله قرمت إليه [٢] و عجّل ولا تدع أن تبتاع ممّا تبتاعه كوز نبيد شيرويّ [٣] ، فمضى الغلام وحصلت مفكّراً في أمري ومن ألاقي وما أعمل ، فإذا بباب الدار قد دقّ دقّاً شديداً حتّى كاد أن ينكسر ، فإذا رهجٌ شديدٌ ، فقلت لغلام لي كان واقفاً بين يديّ : بادر فانظر ما هذا ، فألى [٤] ما يفتح الباب فاُكسر و امتلأت الدار من الغلمان الأتراك وغيرهم فإذا بأشناس حاجب المعتصم و محمّد بن عبد الملك الزيّات و هو الوزير ، في جملة أهل العسكر و قد دخلت فطرحت لهم زيوليّة فجلسا عليها ، فإذا معهم حفّارون ، فلمّا رأيت ذلك بادرت فقبّلت أيديهما فسألاني عن خبري فعرّفتهما إيّاه و أنّي خرجت عن سُرّ من رأى طمعاً في التصرّف ، وذكرت حالي وما قد آلت إليه فوعدا جميلاً ، و الحفّارون يحفرون في وسط الدار حتّى ترجّل النهار [٥] ، و أنا واقف بين أيديهما وربّما حدّثتهما . فالتفت أشناس إلى محمّد بن عبد الملك ، فقال : أنا و الله جائع ، فقال له محمّد : أنا و الله كذلك ، فقلت له عند ذلك : يا سيّدي عبد [٦] خادمكما قد اتّخذله شيئاً فلو أذنتما في إحضاره ، فقالا : هات ما عندك ، فقدمت الجدي ، وما كان اُصلح وابتيع لنا فأكلا و غسلا أيديهما ، فقال اشناس : عندك من ذلك الفنّ شيء ؟ قلت : نعم فسقيتهما من الكوز ثلاثة أقداح وجعل أحدهما يقول لصاحبه : «ظريف ، وماينبغي أن يضيّعه اليأس» فبينا نحن على تلك الحال ونفسي قدقويت بما وعداه ، إذا ارتفع التكبير من عند الحفّارين فإذا قد كشفوا عن عشرين مرجلاً [٧] دنانير ، فوجّهوا بالبشارة إلى المعتصم و اُخرجت المراجل ، فلمّا عزما أن يقوما قال أحدهما للآخر : فهذا الشقيّ الّذي أكلنا طعامه و شربنا شرابه و تركناه بلا شيء ، وهو من أسوء الناس حالاً ندعه هكذا ؟ فقال الآخر :

---

(١) السميد - بالدال المهملة والاعجام أفصح - : الدقيق الأبيض .
(٢) قرم - من باب علم - الى اللحم وغيره : اشتدت شهوته اليه .
(٣) أظن أنه نسبة الى شروان .
(٤) أى أبطأ وقصر .
(٥) اى ارتفع وعلا وقام على رجليه .
(٦) فى الاصل : « عند خادمكما » وهو لايوافق ما بعده .
(٧) بكسر الميم وفتح الجيم : القدر .

نفعل به ماذا ؟ فقال : نحفن له من كلّ مرجل حفنة فإنّها لاتبيّن فيها ونكون قد أغنيناه ونصدق أمير المؤمنين الخبر [١] ، ثمّ قالا : هات حجرك فجعل كلّ واحد يحفن لي من كلّ مرجل حفنة بالكفّين، ثمّ حملا المال و انصرفا ، فنظرت فإذا قد أعطياني نحو عشرين ألف دينار ، فانصرفت بانصراف المعتصم إلى العراق والمال معي فاتبعت ضياعاً وازمت منزلي وتركت التصرّف .

و ذكر أبو الحسين عبد الله بن محمّد الياقطاني قال : كنّا نتعلّم و نحن أحداث في ديوان إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب الظاهري [٢] وكنت ملازماً مجلس فتى من الكتّاب له مروءة وخلق جميل يعرف بأبي غالب ، قدفرّ جماعة من الكتّاب تزويراً بمال ، وقف إسحاق على خبرهم فطلبهم وظفر ببعضهم وهرب الباقون ، و كان فيمن هرب الفتى الّذي كنت ألزم مجلسه فغاب سنين كثيرة حتّى مات إسحاق .

فبينا أنا ذات يوم في بعض شوارع بغداد إذا أنابه ، فقلت : أبوغانم [٣]! قال : نعم، وإذا تحته دابّة في نهاية الفراهة وسرج محلّى ، وعليه ثياب حسنة ، فقلت : عرّفني حالك فقال : في المنزل ، فسرت معه إلى منزله ، فاحتبسني ذلك اليوم فرأيت مروءة حسنة وأمراً جميلاً ، فسألته عن خبره بعد مفرّه واستشرحته إيّاه ، فقال لي : لمّا طلبنا إسحاق استترت فلمّا بلغني ما عامل به من كان معي فيما جنيناه ضاقت عليّ بغداد ولم آمن أن يظفر بي فخرجت على وجهي خوفاً منه ومن عقوبته ، فلم أزل مستخفياً إلى أن وافيت ديار مصر ، ثمّ رحلت عنها وقد نفدت نفقتي ، فبعت آلتي وصرت إلى حلب ، ثمّ منها إلى حمص ، و

---

(١) اى نتبته الخبر صدقا .

(٢) الصواب : اسحاق بن ابراهيم بن معصب الخزاعى ، و هو ابن أخى طاهر بن الحسين ذى اليمينين كان صاحب شرطة بغداد أيام المأمون و المعتصم والواثق و المتوكل ، واستخلفه المأمون على بغداد حين قصد غزاة الروم سنة ٢١٥ هـ ، وسيره المعتصم فى جيش كبير لقتال بابك الخرمى توفى ٢٣٥ هـ وجزع المتوكل لموته الاعلام : ٩٦ و د الظاهرى ، مصحف « الطاهرى » نسبة الى طاهر المذكور ، مع أن صاحب الترجمة ليس من أولاد طاهر .

(٣) كذا بالاصل ، وقد سبق أنه أبو غالب .

أنا أُريد مصر للتصرّف [١] ، فما زلت أبيع في كلّ بلدة بعض ما معي حتّى دخلت مصر وما معي إلّا خمسة دنانير و دابّة وسرج ولجام محلّى وثياب قد أُخلقت ، فوجّهت بالسرج و اللجام فبعتهما و استأجرت داراً ، و ابتعت سرجاً ولجاماً بغير حلية فكنت أركب كلّ يوم وتعذّر عليّ التصرّف و تفرّق عنّي كلّ ماكان معي ومن كان عندي ، فلم يصبر عليّ إلّا غلام واحد، وجعلت حالي كلّ يوم ترقّ وتضعف حتّى اضطررت إلى بيع الدابّة فبعتها وبعت السرج وأنفقت الثمن ، ثمّ جعلنا نبيع ما في البيت فنبيعه حتّى لم يبق في البيت شيء سوى البيت وأيست من الفرج ، وأصبح الغلام ذات يوم فقال : يا مولاي أيش [٢] تعمل ؟ فقلت : لاوالله ماأدري فخذ منطقتي فبعها وابتع لنا ما نحتاج إليه وابتع لنا لحماً بدرهم واجعلها في التنّور واجعل تحته جوذابه (؟) فقد قرمت نفسي إلى ذلك ، فخرج الغلام و بقيت في الدار وحدي و أُفكّر في أمري و أنا في دار غربة ، لا أحد يعرفني ، ولا إنسان يسعفني [٣] ولالي وجه التصرّف ، ولا شغل يلوح ، فضاق صدري ولحقني ما كاد يغلب على عقلي، فبينا أنا على تلك الحال ، إذا جرذ [٤] قد خرج من كوّة البيت الّذي أنا فيه جالس وفي فيه دينار فوضعه ، ثمّ عاد إلى موضعه فما زال ينقل نحو ثلاثين ديناراً ، فصففها و جعل يتقلّب عليها و يلعب ويرقص و أنا أنظر إليه ، وقد قويت نفسي و زال الفكر عنّي ، و حدث لي فكر في حفر الموضع وطرح الجرذ عنه ، والجرذ على حاله في رقصه وتقلّبه ، ثمّ ضجر فابتدأ وأخذ ديناراً ليردّه فذهبت وقمت (كذا) فأخذت الدنانير و جمعتها وشددتها ، و جاء الغلام ومعه ما قد ابتاعه فتغدّينا جميعا ، فقلت له : يابنيّ قم فابتع لنا فأساً ، قال : لأيّ شيء تريد ؟ هذا والله من عمل الفكر السوداويّ ! فعرّفني قد عزمت على هدم دار القوم ؟ فضحكت وحدّثته بالحديث فكاد يموت فرحاً ومضى وابتاع الفأس ، وأغلقت الباب و حفرنا الموضع فوجدنا برنيّة [٥] فيها تسعة آلاف دينار فأخذناها و أصلحنا الموضع ، فقال لي غلامي : إمّا أن

---

(١) اى للتعيش فيها .

(٢) مخفف < أيّ شيء >

(٣) أسعفه بحاجته : قضاها له .

(٤) بالضم فالفتح : نوع من الفأر ، وفي الإصل بالدال في جميع المواضع سهواً .

(٥) البرنية : إناء من خزف .

أخذت [١] بها سفايح [٢] وأنفذني بها وأقمت بموضعك ، فإذا صحّت لنا السفائح ببغداد كتبت إليك فقدمت ، وإمّا أن أخذت السفائح وشخصت وأقمت، فإذا صحّت كتبت إليّ ، فقلت له : هذا هو الرأي فأخذت سفيحة بالمال بعد إن تركت منه ما أحتاج إليه لمؤونتي ونفقة سفري ، وأنفذت الغلام بها فلما كتب إليّ بصحّتها شخصت فوافيت و أصلحت منزلي وتأثّثت و ابتعت ضيعة ومستغلاً وتركت التصرّف و تنكّرت عمل السلطان ، واغتنمت الدعة والفراغ ، فهذا جرى . فدعوت له وانصرفت .

وكلّ ماذكر من أنواع العزلة والحثّ عليها في هذا الفصل فهو عين العقل ؛ فإنّ العقلاء إنّما اختاروا العزلة لقلّة إخوان الصفا وخُلاّن الوفاء وإلاّ فهم علموا أنّ المعاشرة مع الأبرار الصالحين والأخيار المتّقين أفضل من الوحدة و الانفراد ، ومن يترك الأخيار اختياراً ابتلي بالأشرار اضطراراً فإن لم نجد من لم يتحلّ بالعقل ، ولم يتجمّل بالعلم [٣] والفضل لزمنا زوايا البيوت وتوكّلنا على الحيّ الّذي لايموت .

---

(١) في الاصل : < اما اذا اخذت > وما أثبتناه أوفق بما يأتي .

(٢) جمع السايحة ، وهي الكساء الغليظ .

(٣) كذا ، والصواب حذف < لم > من الفعلين .

﴿فصل ٢﴾

✡(في صحبة الانفس الطاهرة ومعاشرتها ، والانس بالاخلاق)✡
✡(الباهرة و مخالطتها)✡

واجب على كلّ أحد أن يحسن ارتياد [١] الأخلاق الطيّبة ، ليستعملها مع الناس في مواضع الصحبة . وأن يخلط نفسه بأهل الخير متخلّقاً بخلائقهم ، ويسيمها [٢] في مراعي أُولي الفضل ، سائراً في طرائقهم ويجتهد أن لايزال القلوب متعلّقة منه بنصيحة أو كفاية في أمردين أومهمّ دنيا وأن يستدعي محبّة الناس بالتواضع و مودّة الأخلاء بالمؤانسة و المشاورة والثقة والطمأنينة ، وفائدة العلماء بالخدمة والملازمة ، ونعمة الكبراء بالطاعة والمتابعة يستظهر على من دونه بالإفضال ، وعلى نظرائه بالإنصاف والإجمال ، وعلى من فوقه بالإعظام والإجلال ، وعلى من يناديه ويناويه [٣] بحسن الدفع ولين المقال . وليس بحكيم من لايعاشر من لايجد في معاشرته بدّاً حتّى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً . ومن الأخذ بوثائق الأُمور وأزمّة [٤] التدبير ، صحبة العقلاء ، فإنّ من استقرى أحوال العاقل فكأنّما يحصي أمواج البحر ، وشآبيب القطر . والعاقل هو الّذي يصا في العاقل ويوافقه ، فأمّا الجاهل فلايوافق الجاهل ولاالعاقل . ومثال ذلك المستقيم من الخطّ الّذي ينطبق على المستقيم فأمّا المعوجّ فإنّه ينطبق على المعوجّ ولا على المستقيم .

وينبغي أن ينافس [٥] الرجل فيمن جرّبته الرجال قبله ، و محّضه اختبارهم له ،

---

(١) ارتاد الشيء : طلبه .
(٢) أسام الماشية يسيمها إسامة : أخرجها الى المرعى .
(٣) ناواه يناويه - وأصله بالهمز - : عاداه .
(٤) جمع الزمام : ما يقاد به : وما يشد به .
(٥) نافس في الشيء : رغب فيه .

فتعتقده من أنفس العِقد ، وتشربه على الصفو والكدر ، و حسبك أن يكون لك من أخيك أكثره .

كان على عهد كسرى رجل يقول : من يشتري ثلاث كلمات بألف دينار فتطيّر منه [١] حتّى اتّصل خبره بكسرى فأحضره و سأله عنها فالتمس إحضار المال فأُحضر ، فقال الرجل : « ليس في الناس كلّهم خير » فقال كسرى : هذا صحيح ، ثمّ قال : « ولابدّ منهم » فقال : صدقت وأيّ شيء ؟ قال : « فالبسهم [٢] على قدر ذلك » قال كسرى : قد استوجبت المال فخذه ، فقال : لا حاجة لي فيه ، قال : فلم طلبت ؟ قال : لأنّي أردت أن أرى من يشتري الحكمة بالمال ، فاجتهد كسرى في قبول رأيه .

وليجتهد الرجل في صحبة إخوانه إلى الاستقصاء على النفس ، وإلى ترك الاستقصاء عليهم في مطالبتهم بما يلزمهم له . والاستقصاء على النفس لهم ينقسم إلى تسهيل الحجاب لهم ، وإلى حسن كفايتهم ، وإلى القيام بحقوقهم في عيادة المرضى ، وحضور الجنائز ومجامع الأفراح والأحزان ، وإلى بذل المال لهم عند حاجتهم في الحوادث ، وإلى بذل الجاه لهم . وترك الاستقصاء عليهم ينقسم إلى الصبر عليهم ، والاحتمال بهم عند تركهم الواجب عليهم من الحقوق ، وإلى الصفح عن زلّاتهم قولاً وفعلاً .

قال بعضهم : ليسعى الرجل في إخوانه أن يكون جاراً لهم [٣] من الحدثان ، فإن لم يمكنه فليجهد أن لايكون عليهم مع الزمان ، وأُنشد في هذا المعنى لعبدالله بن طاهر :

خليليّ ! لو كان الزمان مساعدي * وآذيتماني لم يضق عنكما صدري
فأمّا إذا كان الزمان معاندي * فلا تصحبا عوناً عليّ مع الدهر

و قد وفى علقمة بن لبيد العطارديّ شرط الاستصحاب في وصيّته لبعض أولاده ، فقال : يا بنيّ ! إن نازعتك نفسك إلى صحبة الرجال لحاجتك إليهم فاصحب من إن صحبته زانك ، و إن خدمته أعانك ، و إن قلت له صدّق قولك ، و إن صُلت به سدّد صولك .

---

(١) كذا في الاصل . وفسره بهامشه بالتشاؤم . والصواب : فتطاير ، اى شاع خبره وانتشر حتى اتصل بكسرى .

(٢) لبس ـ من باب علم ـ فلاناً : تمتع بعشرته ومصاحبته مدة من الزمان .

(٣) الجار هنا : المجير .

اصحب من إن مددت يدك لفضل مدّها، وإن تخفّفت له صانك، وإن عرتك مؤونة معانك،

اصحب من إن رأى منك حسنة عدّها، أو بدت منك ثلمةٌ سدّها.

اصحب من إن سألته أعطاك، وإن سكتّ عنه ابتدأك، وإن نزلت بك ملمّة كفاك، وإذا احتجت إلى ماله واساك.

و قال مهديّ بن أبان: قلت لولّادة العبديّة - و كانت من أعقل النساء -: إنّي أُريد الحجّ فأوصني. قالت: أُوجز فأبلغ أم أُطيل فأُحكم؟ فقلت: ما شئت. قالت: جُد تسُد، و اصبر تفُز، و قِ[1] دينك بدنياك، و وفّر عِرضك بعرَضك، و تفضّل تُخدم واحلم تقدّم. قلت: فبمن أستعين؟ قالت: بالله قلت: من الناس؟ قالت: الجلد[2] النشيط، أو الناصح الأمين. قلت: فمن أستصحب؟ قالت: الصديق المسلم، والمداجي[3] المتكرّم. ثمّ قالت: يا ابناه! إنّك تفِد[4] إلى ملك الملوك فانظر كيف يكون مقامك بين يديه.

و قال عبدالله بن المعتزّ: إنّ إخوان الصدق زينة في الرخاء، و عُدّة في البلاء، يتصرّفون مع القلوب تصرّف السحاب مع الحبوب. و إن إخوان السوء يتصرّفون عند النكبة، ويتقلّبون مع النعمة، ومن شأنهم التوصّل بالإخلاص و المحبّة إلى أن يظفروا بالأُنس والثقة ثمّ يوكّلون الأعين بالأفعال والسماع بالأقوال؛ فإن رأوا خيراً أو نالوه لم يذكروه ولم يشكروه، وعملوا على أنّهم خدعوا صاحبهم عنه وقمروه، وإن رأوا شرّاً أو ظنّوه أذاعوه ونشروه، فإن أدمت مصاحبتهم فهو الداء المماطل المخوّف على التقاتل، وإن استرحت إلى مصادمتهم ادّعوا الخِبرة بك لطول العشرة، فكان كذب حديثهم صدقاً وباطله حقّاً.

وأُنشد لإبراهيم بن العبّاس الصوليّ:

وإنّي وإعدادي لدهري مجّداً ✻ كملتمس إطفاء جمر بنافخ

---

(١) أمر من وقى يقي.

(٢) بالفتح فالسكون: الشديد القوى. ارادت: استعن من الناس اما بالشديد القوى الذى يعينك بقوته، واما بالناصح الامين الذى يعضدك بفكره.

(٣) داجاه: داراه وسارّه المداوة.

(٤) مضارع قولك: وفد وفوداً: قدم.

أخ كنت آوي منه عند ادّكاره * إلى ظلّ آباء من العزّ باذخ
سعت نُوَب الأيّام بيني وبينه * فأُقلعن عنّا عن ظلوم وصارخ (١)

واعلم أنّ حسن اللّقاء عند الأحرار أكبر من الإعطاء، والبُشر آثر من البرّ، وقد جاء في الحديث عن النبيّ ﷺ: «إذا التقى المسلمان كان أحبّهما إلى الله أحسنهما بشراً لصاحبه، إذا تصافحا أنزل الله عليهما مائة رحمة تسعون منها للّذي بدأ» (٢).

قال بعض العلماء: ذلك من قبل أنّ المؤمن عليه سمت الإيمان و وقاره و بهاؤه وجماله، فأحسنهما بشراً أفهمهما وأعقلهما لذلك عن الله عزّ وجلّ، وأدركهما لما منّ الله به عليه حتّى يظهر ببشره العلم بالله، وبمنّة الله على عبده، ولأنّ المؤمن عطشان إلى لقاء ربّه شوقاً إليه، وورود اً عليه، فإذا رأى المؤمن أو سمع كلام الله الّذي أنزله أو رأى نبيّه (؟) اهتشّ لذلك روحه، وتبسّم قلبه، روح ما يجد من آثار مولاه الّذي قد فلق تبرّماً من أجل حبسه عنه فيطمئنّ ويبشّر بذلك فيظهر بُشره. وإنّما صار أحبّ إلى الله بماله من الحظّ من الله، وأمّا الصفاح (٣) فهو كالبيعة لأنّ من شرط الإيمان الأُخوّة والصحبة والولاية والخلطة فإذا لقيه وصافحه فكأنّما يبايعه على هذه الخلال، وكلّما يلقاه يتجدّد بيعته فيجدّد الله له ثوابها كما يجدّد ثواب المصاب تجديده الاسترجاع، وكما يزيد النعمة يزيد الحمد (٤).

ففي مراعاة هذه الآداب إقامة حرمة الإسلام، و تعظيم النور الّذي جعله الله في قلبه وزيّن أحواله به وعلى هذا قول ابن عبّاس: إنّ الركن يمين الله يصافح عباده، ولأنّهم يوم الميثاق بايعوا الله فصافحوا الحجر، فلمّا أنزله الله من الفردوس ووضع في ركن البيت دعوا إليه ليجدّدوا البيعة، و عن هذا قالوا لذلك التمسّح: «الاستلام» افتعالاً من الإسلام في أدب اللّقاء.

---

(١) النوب - بالضم فالفتح - جمع النوبة - بالضم والسكون - النازلة والمصيبة. وأراد بالصارخ نفسه وبالظلوم صديقه.

(٢) و جاء في الخبر أن يحيى لقي عيسى عليهما السلام و عيسى يتبسم فقال يحيى: مالي أراك لاهياً، كأنك آمن، ؟ فقال عيسى: مالي أراك عابساً، كأنك آيس، فقال: لا أبرح حتى ينزل علينا الوحي فأوحى الله اليهما: أحبكما إليّ الطلق البسام.

(٣) بهامش الاصل: الصفاح هنا بمعنى المصافحة.

(٤) كذا في الاصل. والصواب: يزيد الحمد. وهو مصدر «زاد»

ثمّ نظام أمر الصحبة وقوامها ، وملاك قاعدة العشرة ومساكها في أربعة أشياء: الموافقة والشفقة والإيثار والخدمة وعنوانها الموافقة ، نطاحة الكاتب :

هموم الناس في أمور كثيرة * و همّي في الدنيا صديق مساعد

يكون كروح بين جسمين فرّقا * فجسماهما جسمان والروح واحد

و قيل : ملاك صحبة الأكابر الاحتراز و الاحتشام و الإعراض عن الاعتراض و الإمساك عن كلام يكلّف الجواب ، أو يوجب إعادة الخطاب .

وملاك صحبت الأشكال حسن الاستماع و كثرة الانبساط ، و ملاك صحبة الأصاغر الإحسان إليهم والتجافي عنهم ، على أنّه لاشيء في أدب صحبة الناس كحسن الحديث إذا حدّث وحسن الاستماع إذا حُدّث ، ومن إحسان الصحبة و كرم العشرة أن تداوي من ساء خلقه حتّى يعذب لك منه ماكان ملحاً ، ويسهل ماكان وعراً [١] .

قال بعضهم : خطبت [٢] امرأةً فأجابت ، فقلت : إنّي سيّيء الخلق ، فقالت: أسوأ خلقاً منك من يلجئك إلى سوء الخلق . وكانت عند الحسن بن الحسن عليه السلام امرأة تميميّة ، فضجر يوماً فقال : أمرك بيدك فقالت : أما و الله لقد كان في يدك عشرين سنة فحفظته ، أفأضيّعه في ساعة صار في يدي؟ قد رددت إليك حقّك، فأعجبه حسن مداراتها ، و أحسن بعد ذلك صحبتها .

وكان أبوه الحسن عليه السلام طلّق امرأتين قرشيّة و جُعفيّة ، و بعث إلى كلّ واحدة منهما عشرين ألفاً ، فقالت القرشيّة : جزاه الله خيراً ، وقالت الجعفيّة : « متاع قليل من حبيب مفارق » فراجعها وقال : إنّها لأكرم صحبة .

وممّا يستديم الصحبة ويستبقي الخلّة الإغضاء على العيوب ، والتجافي على الإساءة، والإحسان عند الجفوة :

تجمّل أخاك على مابه * فمافي استقامته مطمع

وإنّي على خلق واحد * و فيه طبائعه الأربع

---

(١) بفتح الاول و سكون الثانى - وقد يفتح - : المكان الصلب ، ضدالسهل .

(٢) خطب - من باب نصر - خطبا و خطبة - بكسر الخاء - الفتاة : دعاها أو طلبها الى التزوج .

أبو العبّاس ثعلب [١] :

إذا أنت وافقت الرجال فكن لهم * كأنّك مملوك لكلّ رفيق

و كن مثل طعم الماء عذباً وبارداً * على الكبد الحرّى لكلّ صديق

قالوا : وممّا يعتمد في الصحبة الشرف في النفس ، و الصحّة في العقل ، والتجربة في الأفعال ، والحرّيّة في الأخلاق ، وإنّها مثل قوائم السرير لايكون مستوياً إلّا بأربع قوائم ، فكذلك لاتطّرد أسباب الصحبة إلّا بهذه المعاني الأربعة ، ولا يقوم آخرها إلّا بها ، ولاشيء أعدى لها من أضدادها .

وفي وصايا بعض ملوك العجم أنّه لاشيء أضرّ من معاشرة سخيف أو مخاطبة وضيع ، وأنّه كما أنّ النفس تصلح والعقل يزيد على مخاطبة الشريف الأديب الحسيب ، كذلك تبطل وتفسد على معاشرة الدنيء السخيف حتّى يزيلها ذلك عن فضيلتها ، ويغيّرها عن جبلّتها . و كما أنّ الريح إذا مرّت بالطيب حملت طيباً تحيي به النفوس وتحيي به الحواسّ كذلك إذا مرّت بالنتن فحملته أملّت به النفوس ، وأضرّ بجوارحها ما اعتلقتها منه . على ماقال رسول الله صلّى الله عليه و آله : « مثل الجليس الصالح مثل الداري [٢] إن فاتك ربحه لم يفتك ريحه [٣] ، ومثل الجليس الفاسد مثل صاحب الكير [٤] إن لم يحدّك شرره آذاك بدخانه » . وفي حديث علي عليه السلام [٥] : «مقاطعة الأحمق قربان إلى الله » وأنشد [٦] :

---

(١) أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار النحوى الشيبانى المنبوذ بثعلب ، امام الكوفيين فى النحو و اللغة ، راوية للشعر ، مشهور بالحفظ وصدق اللهجة ، ثقة حجة ، ولد ومات ببغداد ٢٠٠ - ٢٩١ هـ وفى الاصل : « تغلب » سهواً .

(٢) الدارى : العطار ، نسبة الى « دارين » و هى فرضة بالبحرين ، كان يحمل اليها المسك من بلاد الهند .

(٣) وقال عمر بن الخطاب : لوكنت تاجراً لما اخترت على العطر ؛ فان فاتنى ربحه لم يفتنى ريحه . مجانى الادب (١:١١٣) .

(٤) زق الحداد الذى ينفخ به .

(٥) انظر مقاله فى « الاحمق » فى هذه الارقام من حكمه ومواعظه القصار : ٣٨، ٤٠، ٤١ و ٣٤٩ .

(٦) ليست توجد الابيات فى ديوانه عليه السلام ، نعم ذكرها له الاب شيخو فى مجانيه (٣:١٢٦ - ١٢٧) عن عقد الفريد مع اختلاف يسير فى روايتها .

لاتصحب أخا الجهل * و إيّاك و إيّاه
فكم من جاهل أردى * حكيماً حين واخاه
يقاس المرء بالمرء * إذا ما هو ماشاه
و للشيء على الشيء * مقاييس و أشباه (١)
و للقلب على القلب * دليل حين يلقاه

وقال آخر :

إن كنت تبغي العلم أو أهله * و شاهد يخبر عن غائب
فاعتبر الأرض بأسمائها * واعتبر الصاحب بالصاحب

وآخر : (٢)

إنّي لآمن من عدوّ عاقل * و أخاف خلاً يعتريه جنون
فالعقل فنّ واحد و طريقه * أدرى فأرصد ، و الجنون فنون

آخر : أخ لم يزل كالشهد منه إخاؤه * يزيد على مرّ الدهور وفاؤه
له خلق لو مازج البحر لم يكن * أجاجاً ، وأروى وارديَ البحر ماؤه
فقارن إذا قارنت شرّواه ، إنّما * يزين و يزري بالفتى قرناؤه (٣)

ومن لايخاف الله لايؤمن من غائلته ، ولا يوثق بمخالطته .

وإذا ساء الخلق وإن تمّ العقل فباعتبار الأخلاق السيّئة يكون الرجل مغلوباً في يد غضبه ، مملوكاً في شهواته ، عاجزاً عن تهذيب أحواله وتقويم أخلاقه ، فلا خير في صحبة مثله ، ويسند هذا الشعر إلى عليّ عليه السلام :

إنّ أخاك الحقّ من كان معك * و من يضرّ نفسه لينفعك
و من إذا ريب زمان صدعك * شتّت شمل ماله ليجمعك

---

(١) في المجاني : وللناس من الناس مقاييس . و بعد البيت فيه : وفي العين على العين دلّ اذا تنطق أفواه . وقال في شرحه : اي ان العين تخبر بما في القلب كما يخبر الفم .

(٢) البيتان في المجاني (٣:١٢٩) .

(٣) شرى الشيء : مثله . أزرى به : عابه ووضع من حقه .

وكان سهل بن عبدالله[١] يقول : اجتنبوا صحبة ثلاثة نفر من الناس : صحبة الجبابرة الغافلين ، والقرّاء المداهنين ، و المتصوّفة الجاهلين .

وقال بشر[٢] : الإخوان ثلاثة : أخ لآخرتك ، وأخ لدنياك ، وأخ لتأنس به .

وعن المأمون : الإخوان ثلاثة : أحدهم مثله مثل الغذاء لايستغنى عنه ، و الآخر مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت ، والثالث مثل الداء لايحتاج إليه قطّ .

وقال بعضهم : الناس أربعة : فواحدحلوٌ كلّه ومثله لايشبع منه ، وآخر مرٌّ كلّه و مثله لايؤكل بل يرفض ويلفظ ، وآخر فيه حموضة فخذمنه قبل أن يأخذ منك ، و آخر فيه ملوحة فخذ منه قدر الحاجةفقط .

وقيل : مثل جميع الناس مثل الشجر والنبات ، فمن الشجر ماله ظلّ وليس لهثمرٌ مثل الخلاف والسرو و نحو ذلك ، و منهم مثلٌ [له] ، له رواء[٣] و ماله ثمر وهو مثل الأخ النافع فيالدنيا والآخرة ؛ فإنّ الدنيا ظلّ وحُلمٌ باطل . ومن الشجر ماله ثمر و ليس له ظلّ مثل الكرم ؛ فإنّه ليس له ساق يستظلّ تحته ، وفيه النفع الكثير وهومثل الأخ النافع في أُمور الآخرة ، ينفع من يقرب منه ولا يضرّ أحداً .

وكنت كالكرم من تكرّمه * تلتفّ أوراقه بما قربا

ومنها ماله ظلّ وثمر ، وهو صاحب العلم والعمل،فإخاء مثله خيرالدنيا والآخرة ، وسعادة أخيه ؛ تعلّماً من علمه ، وتقبّلاً له فيعمله ومثله في ذلك ما قيل :

كأنّكم شجر الأُترج طاب معاً * حملاً ونوراً وطاب العودوالورق

---

(١) أبومحمد سهل بن عبدالله بن يونس التستري ، قال ابن خلكان (٢:١٤٩) : لم يكن له في وقته نظير فيالمعاملات والورع ، لقي ذاالنون المصري بمكة ، وكان لهاجتهاد وافر ورياضة عظيمة ولد بتستر سنة ٢٠٠ أو ٢٠١ وتوفيبالبصرة ٢٨٣ .

(٢) أبو نصر بشر بن الحارث بن عبدالرحمن ، المروزي ، المعروف بالحافي ، أحد رجال الطريقة ، و من كبار الزهاد ، أصله من قرى مرو ، سكن بغداد وكان يروي الحديث . و انما لقب بالحافي لانه جاء الى اسكاف يطلب منه شسعاً لاحد نعليه و كان قدانقطع فقال لهالاسكاف : ما أكثر كلفتكم على الناس ياأهل الطريقة ؛ فالقى النعل من يده والاخر من رجله وحلف لا يلبس نعلا بعدها ولد سنة ١٥٠ و توفي ٢٢٦ هـ وفيات الاعيان (١ : ٢٤٨ ، برقم ١١١) و شرح المجاني (١ : ٢٩٨) .

(٣) بين المعقوفين زيادة منا ليس في الاصل ، والرواء بالضم : حسن المنظر ، ماء الوجه .

ومنها ماليس له واحد منهما مثل اُمّ غيلان ، ينفد خباه [١] ولا يستطلّ بذاره [٢] ويمزّق الثوب فلا يؤمن أذاه ، واُنشد في هذا المعنى :

الناس شتّى إذا ماأنت ذقتهم * لايستوون، كمالايستوي الشجر

هذا له ثمر حلوٌ مذاقته * و ذاك ليس له طعم ولا ثمر

و قالوا في آداب الصحبة وحقوق أهلها : إنّ حقّ الجليس إذا دنا أن يوسّع له ، و إذا حدّث أن يقبل عليه .

وقيل : حقّ جليس الملوك أن يكون حافظاً للسمر [٣] صابراً على السهر .

وقيل: أكرم صَحب الملوك من حسنت موافقته وقلّت مؤونته .

وفي الحديث : مثل الإخوان مثل اليدين ؛ تغسل إحداهما الأُخرى ، فكما أنّ اليدين تتعاونان على غرض واحد فكذلك الإخوان .

وقالوا : في المواساة معهم :إنّها على أربع درجات :

احداها : إن تنزّله منزلة أهلك وعبيدك ، وتصرف فضلة مالك عن حاجتك إليه من قبل أن تحوجه إلى مسألتك ، وإن أحوجته إلى السؤال فذلك غاية التقصير في حقّ الإخاء .

والثانية : أن تنزّله منزلة نفسك شريكاً لك في مالك . قال الحسن :كان أحدهم يشقّ إزاره باثنين .

والثالثة : هي أن تؤثره على نفسك ، وتقدّم حاجته على حاجتك .

و الرابعة : ـ وهي الدرجة العليا ـ هي أن يتعدّى الإيثار من المال إلى النفس ، فتقيه بنفسك ، وتفديه على حكم الإخلاص بروحك . يحكى أنّه سعي بجماعة من الصوفيّة إلى بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم ، وفيهم أبو الحسين الثوريّ فبادر إلى السيّاف ليكون

---

(١) الخباء ـ بالكسر ـ هنا : كمام الزهر . ومحتمل «جناه» . و بهامش الاصل : « يفقد خباه:ظ » .

(٢) الذرى ـ بالفتح مقصوراً ـ هنا : الملجأ وكل ما استترت به .

(٣) السمر بالفتح : الحديث بالليل ، وهو هنا كناية عن كتمان ما يجب كتمه مما يقع في مجالس السلطان بالليل .

أوّل مقتول فقيل له ذلك ، فقال: أحببت أن أُوثر إخواني بالحياة ولو بلحظة ، فكان سببّ ذلك تجافي الخليفة عن قتلهم جميعاً .

وفي هذه الدرجة العليا درجة الإيثار أو المشاركة يقول الله تعالى [١] : « وأمرهم شورى بينهم وممّا رزقناهم ينفقون » أي هم خلطاء في الأموال ، لا يتميّز بعضهم في مال وملك عن بعض .

وقال الحسين بن عليّ عليه السلام لرجل: «هل يدخل أحدكم يده في كمّ أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد من غير إذن ؟ قال : لا ؛ قال : فلستم بإخوان » .

و كان أبو سليمان الدارانيّ يقول : لو أنّ الدنيا كلّها لي فجعلتها في فم أخ من إخواني لاستقللتها له . وقال : إنّي لألقم اللّقمة أخاً من إخواني فأجد طعمها في فمي .

وفي حديث عليّ عليه السلام : «لعشرون درهماً أعطيها أخي والله أحبّ إليّ من أن أتصدّق بمائة درهم على المساكين و قال أيضاً : « لأن أصنع صاعاً من طعام و أجمع عليه إخواني في الله أحبّ إليّ من عتق رقبة ».

ويروى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله دخل غَيضة [٢] مع بعض أصحابه فاجتنى منها سواكين : أحدهما معوجّ والآخر مستقيم ، فدفع المستقيم إلى صاحبه ، فقال له : يا رسول الله ! كنت أحقّ بالمستقيم منّي ، فقال : ما من صاحب يصحب صاحباً ولو ساعةً من نهار إلّا سئل عن صحبته هل أقام فيه حقّ الله أو أضاعه ؟

وقال عليه السلام : «ما اصطحب اثنان قطّ إلّا كان أحبّهما إلى الله أرفقهما بصاحبه» .

ودخل محمّد بن واسع ومالك بن دينار دار الحسن والحسن غائب ، فأخرج محمّد سلّة فيها طعام تحت سرير الحسن فاندفع يأكل ، فقال له مالك : كفّ يدك حتّى يجيء صاحب البيت ، فلم يلتفت إليه وأقبل على الأكل ، فدخل الحسن فقال : يا مُويباك [٣] ! هكذا كنّا لا يحتشم بعضنا عن بعض حتّى ظهرت أنت وأصحابك .

---

(١) سورة الشورى : ٣٨ .
(٢) الغيضة : الاجمة ، مجتمع الشجر .
(٣) صغره تحقيراً له .

وقيل: إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكّره ثانية، فلعلّه نسي؛ فإن لم يقضها فكبّر عليه واقرأ هذه الآية [١] «والموتى يبعثهم الله».

وقال ميمون بن مهران: إنّ من لم تنتفع بصداقته لم تضرّك عداوته.

و في الحديث: «ألا وإنّ لله أواني في أرضه و هي القلوب، فأحبّ الأواني إلى الله أصفاها و أصلبها و أرقّها. فأصفاها من الذنوب، و أصلبها في الدّين، و أرقّها على الإخوان».

قالوا: ومن حقّ الإخاء ما هو في السكوت و في الكلام؛ في السكوت عن ذكر عيوبه حاضراً وغائباً، وترك المماراة والمناقشة معه، والتجسّس على أحواله، وأن لا يبثّ سرّه، ولا يذكر أحداً بقبيح، ولا يُبلغه ذلك عن أحد، وأن لا يخطر ذلك بباله كما لا يفوّه بلسانه. وفي الكلام: التودّد باللّسان وإظهار المساهمة والمواساة في الضرّاء والسرّاء والشدّة والرخاء. وفي الحديث: «إذا أحبّ أحدكم أخاه فليخبره».

قال عليّ عليه السلام «من لم يحمد أخاه على حسن النيّة لم يحمده على حسن الصنيعة» وأبلغ من ذلك كلّه في جلب المحبّة الذبّ عنه والنصح منه بالمغيب. وفي الحديث «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» وإهماله وإسلامه ليمزّق عرضه كإسلامه ليمزّق جلده. وأخسس [٢] بأخ يراك والكلاب تفترسنّك وتمزّقن لحمك ولا تبعثه بواعث الأُخوّة على الذبّ عنك والانتصار لك! ولذلك شبّه الله الغيبة بأكل لحم الأخ ميتاً [٣] والملك الّذي يمثّل في المنام ما يطالعه من السماء من الأمثلة المحسوسة بمثل الغيبة بأكل لحم أخيه فإنّه من يرى أنّه يأكل ميّتاً فإنّه يغتاب الناس.

---

(١) سورة الانعام: ٣٦.

(٢) فعل تعجب، اى ما أحقره! . وأخسه - بيناء باب الافعال - أى وجده خسيساً، احتقره.

(٣) قال تعالى (الحجرات: ١٢): «ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم». وحيث ان القرآن نزلت أحكامه على الفطرة المستقيمة قد جرى هذا المضمون على لسان المثقب العبدى أحد فحول شعراء الجاهلية و حكمائها فى قصيدة له ذكرها المفضل فى مفضلياته: ٢٩٤ فقال:

لا ترانى راتعا فى مجلس　　•　　فى لحوم الناس كالسبع الضرم

وتذاكر اثنان حديث المخالصة في الأخوة بظهر الغيب ، فقال أحدهما : ما ذكر أخي لي بغيب إلّا تصوّرته جالساً فقلت فيه ما يحبّ أن يسمعه حاضراً . و قال الثاني : ما ذكر أخ لي إلّا تصوّرت نفسي في صورته فقلت فيه مثل ما أُحبّ أن يقال فيّ

و نظر أبوالدرداء إلى ثورين يحرثان في فدّان [١] فوقف أحدهما يحكّ جسمه فوقف الآخر ، فبكى وقال : هكذا الأخوان في الله يعملان في الله ، فإذا وقف أحدهما وافق الآخر .

وقال ذوالنون : لاتصحب مع الله إلّا بالموافقة ، ولامع الخلق إلّا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلّا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلّا بالمراغمة ،

و في قوله ﷺ : « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمناً » إشارةٌ إلى أنّ فضل الصّحبة على الجوار فضل الإيمان على الإسلام .

و قال إبراهيم النخعيّ : لاتقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه ، فإنّه يتركه اليوم وتتركه غداً ، وهومن الحديث : «اتّقوا زلّة العالم ولا تقطعوه و انتظروا فيئه » .

ويحكى أنّ أخوين في السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقيل لأخيه : لا تقطعه ولا تهجره ، فقال : أحوج ماكان إليّ في هذا الوقت ، وأنا حقيق بأن آخذ بيده ، وأتلطّف له في المعاتبة ، و أدعو له بالعود إلى ما كان عليه ، و في شعر عمر بن [أبي] ربيعة [٢] زيادة على هذا وهو :

و خِلٍّ كان عين النصح عنّي * و مستمعاً لما أهوى سميعا
أطاف بغيّة فنهيت عنها * و قلت له : أرى أمراً شنيعا [٣]
أردت رشاده جهدي فلمّا * أبى و عصى أتيناها جميعا

وقيل : أكرم من تصحبه الأكابر من حسنت موافقته وقلّت مؤونته .

وقيل : هلاك المرء من صاحب يحسّن القول ولا يحسن العمل .

---

(١) بفتح الفاء وتشديد الدال وتخفيفها : الثوران ، الزرعة . وهوالمراد هنا .
(٢) بين المعقوفين زيادة وتصحيح منا ، وانظر الابيات فى ديوانه : ٤٨٧و٤٨٨ .
(٣) فى الاصل : « بغيبة » والاصلاح من الديوان .

وقيل : الإخوان كالسلاح ؛ فمنهم كالرمح يطعن به من بعيد،ومنهم كالسيف الّذي لا يفارقك ، ومنهم كالسهم يرمى به ولا يعود إليك .

وقيل:يستحبّ من الخريف الخصب ، ومن الربيع الزهرة ، ومن الجارية الملاحة ، و من الغلام الكَيس[1] و من الصاحب الرفق ، و من القريب الانبساط ، و من الغريب الانقباض .

وممّا قاله بعض العلماء في إحسان الصحبة إنّ الخلق كلّهم سفر[2] يسير بهم العمر سير السفينة براكبها ، وحقّاً ما قيل : إنّ الناس كركب في سفينة يسار بهم وهم نيام . ومن شرط المسافرين أن يحسنوا صحبة من يرافقهم في سفرهم إلى أن يبلغوا مقصدهم .

حدّث أبو بكر بن محمّد السامانيّ قال : ضجرت في بعض أسفاري على غلام لي استقصرته في خدمة وحضرني حرير الطبيب فأنشدني :

أكرم رفيقك حتّى ينقضي السفر * إنّ الّذي أنت توليه سينتشر

ولا تكن كلئام أظهروا هجراً * إنّ اللّئام إذا ما سافروا ضجروا

ثمّ إنّ الإنسان إمّا أن يكون في دنياه وحده ، أو مع أهله وولده وجاره وذويه ، وإمّا أن يكون مع عموم الخلق ، وحقّ عليه أن يحسن الصحبة في جميع هذه الأحوال ، فإن كان وحده فهو وإن كان في الصورة شخصاً واحداً فهو في الحقيقة كثير ، وفيه من خلق الله جنود واجب عليه أن يحسن صحبتها ، ويقوم بحقوقها : فمن الجنود المجتمعة في الإنسان الشهوة الّتي يجتلب بها إلى النفس ما يقيمها ويغذوها حيّاً ويعقّب عنها بعد الموت نسلاً ، وغضبه الّذي يحمى به الذمار ، و يدفع عنها المضارّ ، وعقله الّذي يستصلح به الأمور و يستوي منه على حسن التدبير ، فهو من هذه الجهة أنفس ثلاثة مجتمعة متغالبة ، المغلوب منها في يد الشهوة بأمثال الخنازير أشبه ، والثائر الغضبان من السبع الضاري أقرب ، و الكريم المحسن إلى الملك أنزع . وليس عليه إبطال الأوّلين من الأصل بل تعديلهما بالثالث ، وإعطاؤهما نصيبها الّذي يحسن معه حالهما حتّى يكون كريم الصحبة مع كلّ واحد منهما ، ولكنّ النصيب

(١) بالفتح : العقل والظرف والفطنة .

(٢) بالفتح : جمع المسافر .

العدل على الإنصاف الحقّ ما دام الروح والبدن في هذا العالم مجتمعين مع ما قرنت ما يفترقان . ولله ما قال الأعرابيّ القديم ! فكأنّه ينظر إلى هذا المعنى في قوله :

فأنصف أخاك الدهر ما عشتما معاً * كفى بالممات فرقة وتنائيا

زوّدينا بحسن وجهك ما * دام بحسن الوجوه حال يحول

وصلينا نصلك في هذه الد * نيا ، فإنّ المقام فيها قليل

فهذا في صحبتك مع نفسك ، فأمّا صحبتك مع أهلك وولدك و من يضمّه كنفك ويكنفه حفظك فإحسانها بالتوسعة عليهم والتجافي عن الإساءة بهم على أتمّ التوقّي من جنايتهم والجناية عليهم

وأمّا صحبتك مع الناس فأدنى الأحوال في ذلك كفّ الأذى عنهم ، وأوسطها إدلال الإحسان إليهم ، وأعلاها احتمال الأذى منهم .

نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ بقوله تعالى:[1] «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فقال : يا محمّد جئتك بأكرم أخلاق الأوّلين والآخرين فصل من قطعك ، وأعط من حرمك، واعف عمّن ظلمك ، وممّا جاء من الأحاديث في خصال الصحبة مع الخاصّ و مع العامّ قوله ﷺ في كفّ الأذى : «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه » فعلى فحوى هذا الحديث أنّ من لم يسلم الناس من يده ولسانه فليس بمسلم، فينبغي أن تؤوّله على المسلم الكامل ، أي ليس بكامل في إسلامه وهذا مثل قولهم « الناس العرب » أي أفضل الناس العرب ، و كذلك قولهم : « المال الإبل » وما أشبه ذلك .

وقال ﷺ في بسط الإحسان : « الخلق عيال الله فأحبّهم إلى الله أبرّهم بعياله» .

وقال ﷺ في معاملة الناس بما يحبّ أن يعامل به : « من سرّه أن يزحزح عن النار فليأت إلى الناس ما يحبّ أن يؤتى إليه » .

و قال في توقير من يصاحب من المشائخ « من إجلال الله إكرام ذي الشيبة » .

وقال ﷺ في إحسان الخلق معهم : « إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم » .

---

(١) سورة الاعراف : ١٩٨ .

وقال ﷺ : « إنّ الله يحبّ السهل الطلق » .

وقال ﷺ في الإصلاح بين المسلمين : « أفضل الدرجات إصلاح ذات البين، وإفساد ذات البين هي الحالقة » .

و قال ﷺ في إقالة العثرات : « من أقال مسلماً عثرته أقاله الله يوم القيامة » .

وقال في ستر عورات الناس : « من تتبّع عورة أخيه المسلم تتبّع الله عورته ، ومن تتبّع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته » .

و قال ﷺ في السعي للمسلمين : « قيامك مع أخيك ساعةً خير من اعتكافك سنة » .

وقال ﷺ في التبارد بالسلام والمصافحة : « إذا التقى المسلمان فتصافحا قسّمت بينهما مائة رحمة ، تسعة وتسعون لأحسنهما بشراً » .

وقال ﷺ في نصرة المسلم بظهر الغيب : « ما من امرئ ينصر مسلماً في موضع ينتهك فيه عرضه ويستهلّ حرمته إلّا نصره الله في موضع يحبّ أن ينصره » .

وقال ﷺ في مداراة أهل الشرّ : « خالطوا الناس بأعمالهم، وزايلوهم بالقلوب » .

وقال ﷺ : « ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة » .

وقال ﷺ في التحذير عن مجالسة الأغنياء : « إيّاكم ومجالسة الموتى ، ألا وهم الأغنياء » وكان ﷺ إذا رأى في المسجد مسكيناً جلس إليه و قال : « مسكين جلس إلى مسكين » .

وقال في تنزيل الناس منازلهم : « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه » .

وفي معاشرة الناس بأخلاقهم أوحى الله إلى داود : « يا داود ! خالق أهل الدنيا بأخلاق الدنيا ، وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة . »

وفي صحبة الخواصّ قال ﷺ : « أتدرون ما حقّ الجار ؟ إن استعان بك أعنته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عُدت عليه ، وإن مرض عدته ، وإن مات اتّبعت جنازته ، وإن أصابه خير هنّأته ، وإن أصابته مصيبة عزّيته ، ولا تستطيل عليه بالبناء ، وإذا اشتريت فاكهة فأهدمنها وإلّا فأدخلها دارك سرّاً ، ولا يخرج ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقُتار[1] قدرك إلّا أن تغرف له منها » .

---

(١) بالضم : رائحة المطبوخ .

وقال عليه السلام في القرابة : « قال الله تعالى : أنا الرحمن ، وهذا الرحم ، قد شققت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته » .

وقال عليه السلام : « ساووا بين أولادكم بالعطيّة » .

وقال عليه السلام في المماليك : « اتّقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، أطعموهم ممّا تأكلون واكسوهم ممّا تلبسون ، ولا تكلّفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فإنّ الله ملّكهم إيّاكم ولو شاء لملّككم إيّاهم بدل ملكهم إيّاكم » .

وقال صلى الله عليه وآله : في الزوجات : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » .

وكان عليه السلام من أفكه الناس مع نسائه .

وقال عليه السلام في الصحبة : « فوالله يقول الله يوم القيامة : أين المتحابّون فيّ ؟ بجلالي اليوم أظلّهم في ظلّي » .

وقال عليه السلام : « إنّ حول العرش منابر من نور ، عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء ، والشهداء ، هم المتحابّون في الله ، و المتزاورون في الله .

وألغز بعض الحكماء كلاماً في اصطحاب الإخوان في الطريق إلى الله ، قال : برزت طائفة تقتنص [١] فنصبوا الحبائل ورتّبوا الشُرك [٢] وهيّؤوا الطُعم ، وتواروا في العُشب [٣] وإنّا في سيرة [٤] طير ترافقنا زماناً إذ لحظونا فصفّروا مستدعين ، فأحسسنا بخَصب و أصحاب ، ما يخالج في صدورنا ريبة ، ولا تزعزعنا عن قصدنا تهمة . فابتدرنا إليهم مقبلين ، وسقطنا خِلال [٥] الحبائل ، فإذا الحلق تنضمّ على أعناقنا ، [٦] و الشرك يتشبّث بأجنحتنا ، والحبائل يتعلّق بأرجلنا . ففزعنا إلى الحركة فما زادت إلّا بُعداً

(١) تقنص واقتنص الطير : اصطاده .

(٢) بضم الاولين جمع الشرك بفتحهما : حبائل الصيد .

(٣) العشب بضم الاول : الكلا الرطب .

(٤) السيرة هنا : الطريقة .

(٥) بكسر الخاء جمع الخلل - بفتحها - وهو هنا المنفرج بين الشيئين .

(٦) في الاصل « اعناقها » وما أثبتناه هو الصواب .

فاستسلمنا للهلاك ، وشغل كلّ واحد منّا ما خصّه من الكرب عن الاهتمام لأخيه ، و أقبلنا نتبيّن الحيل في سبل التخلّص حتّى أنسينا صورة أمرنا ، و استأنسنا بالشرك ، و اطمأنّا إلى الأقفاص .

فأطلعت ذات يوم من خصاصها [١] فلحظت رفقة من الطير أخرجت رؤوسها من الشرك ، وبرزت من أقفاصها يطير ، وفي أرجلها بقايا الحبائل لايؤودها [٢] فتفوتها النجاة ولا تبينها فتصفولها الحياة .

فذكّرتني ما أنسيته ، ونفضت إليّ ماألفته . فكدت أنحلّ تأسّفاً ، وتنسلّ روحي تلهّفاً ، فناديتهم من وراء القفص أن : اقربوا منّي فتوقفوني على حيلة الراحة فقد أعيتني ، فتذكّرواخدع المقتنصين ، فما زادوا إلّا نفاراً فناشدتهم الخلّة القديمة ، والصحبة المصونة ، والعهد المحفوظ ، حتّى تحلّ بقلوبهم الثقة ، وانتفى عن صدورهم الريبة ، فوافوني حاضرين محضرين فسألتهم عن حالهم فذكروا أنّهم ابتلوا بما ابتليت ، و أمسوا و استأنسوا بالبلوى ، ثمّ عالجتني فنحّيت الحبالة عن رقبتي ، والشبكة عن أجنحتي وفتح باب القفص وقيل لي: استغنم النجاة . وطالبتهم بتخليص رجلي عن الحلقة ، فقالوا : لواقتدرنا لابتدرنا ، ويشفيك الغليل .

فنهضت معهم من القفص أطير فقيل لي : إنّ أمامك بقاعاً لن تأمن المحذور إلى أن تأتي عليها قطعاً ، فاقتف آثارنا تنج بك ، ونهديك سواء السبيل ، فساوى بهذا الطيران بين صدفي جبل المراد [٣] ، في واد مُعشب خصيب ، بل يبيس جديب ، حتّى تخلّف عنّا جنابه [٤] وجُزنا جيرته [٥] ووافينا هامة الجبل ، فإذا أمامنا ثمان شواهق ، تنبوعن قللها اللواحظ ، ويسقط قبل التحليق [٦] إليها الخوافي والقوادم .

(١) بفتح الخاء : الفرج في البناء ونحوه يريد : خرجت الطير التي ترافقنا زمانا من اعشاشها .
(٢) آده الامر : ثقل عليه .
(٣) مأخوذ من الاية الكريمة : «حتى اذا ساوى بين الصدفين» في قصة ذي القرنين الكهف: ٩٦ . والصدف بفتحتين وبضمتين و بفتح الصاد وضم الدال وبالعكس : منقطع الجبل أو ناحيته .
(٤) الجناب ـ بالفتح ـ هنا : الناحية .
(٥) « جزنا » أمر من جاز يجوز بمعنى عبر . والجيرة جمع الجار : أى عبرنا من مجاورته .
(٦) تحليق الطائر : ارتفاعه في طيرانه .

وقال بعض لبعض : سارعوا ، فلا نأمن الأعداء إلّا بعد أن نجوزها ناجين ، فعايقنا النجا [١] حتّى أتينا على ستّ من شوامخها وانتهينا إلى السابع فلمّا تقلقلنا تخومه [٢] قال بعضنا : هل لكم في الجِمام [٣] فقد أدهشنا النصب ، وبيننا وبين الأعداء مسافة قاصية ؟ فرأينا أن نجمّ أبداننا ؛ فإنّ الشرود [٤] على الراحة أهدى إلى النجاة من الانبيات [٥].

فوقفنا على قلّته فإذا جنان مخضرّة الآرجاء [٦] ، عامرة الأقطار ، مثمرة الأشجار ، جارية الأنهار ، يروي بصرك نعيمها ، وصوريكاد لبهائها يشوّش ويستنهب الألباب ، ويُشمّك نسيمها روائح لا يدانيها المسك السريّ [٧] و لا العنبر الطريّ [٨] ، و يُسمعك بأغانٍ شجيّة [٩] ، وألحان مطربة فأصبنا من ثماره ، وشربنا من أنهاره .

ومكّننا به ريب ما أطرحنا الإعياء [١٠]. وقال بعضنا لبعض : لا مخدعة كالأمن . ولا منجاة كالاحتياط ، ولا حصن أمنع من إساءة الظنون . وقد امتدّ بنا المقام بهذه البقعة على شفا [١١] غفلة ، ووراءنا أعداؤنا ، يقتفون أقدامنا ، ويفتقدون مقامنا ، فهلمّوا نحو هذه البقعة ؛ وإن طاب بها الثواء [١٢] فلاطيب كالسلامة .

وأجمعنا على الرحلة وانفصلنا عن الناحية ، وحللنا بالثامن ، فإذا شامخ غاص برأسه في عنان السماء ، سكن جوانبه طيورٌ لم ألق أعذب ألحاناً و أحسن ألواناً و أظرف صوراً

---

(١) النجا مقصوراً : الخلاص ، والمناسب هنا الاستراحة .

(٢) أى دخلنا حدوده على تعب وشدة .

(٣) الجمام هنا : الاستراحة .

(٤) النفور والخروج عن الطاعة ، والمناسب هنا : الفرار .

(٥) الظاهر أنه من البيتوتة والفعل ليلا ، الا انه لم يشتق منه باب « الانفعال » .

(٦) جمع الرجا ممدوداً ومقصوراً : الناحية .

(٧) السرى : الجيد من كل شيء .

(٨) الغض اللين من كل شيء .

(٩) أى بأغان يشغل البال .

(١٠) أى وتطرق بنا ريب ما اطرحنا فى المشقات .

(١١) الشفا ـ بالفتح ـ حرف كل شيء وحدّه .

(١٢) ثوى المكان وفيه وبه : أقام .

وأطيب معاشرة وأكرم صحبة منها ، و لمّا حللنا في جوارها عرفنا من إحسانها و تلطّفها و إيناسها ما لن يفي [١] بوصف أهونها ، و إن قصرنا عليه مدّة عمرنا ، بل استمددنا إليه أضعافاً .

و لمّا تقرّر بيننا و بينها الانبساط أوقفناها على ما ألمّ بنا ، فأظهرت المساهمة في الاهتمام ، وذكرت أنّ وراء هذا الجبل مدينة ينتوّها (كذا) الملك الأعظم ، كلّ مظلوم استعدى به وتوكّل عليه كشف عنه الضرّاء بقوّته و معونته ، فأطمأنّا إلى إشارتها ، ويمّمنا [٢] مدينة الملك حتّى حللنا بفنائه منتظرين لإذنه فخرج الأمر بإذن الواردين وأُدخلنا قصره فإذا نحن بصحن لا يفي [٣] بوصف رحبه ، فلمّا جُزناه رفع لنا الحجاب و لحظ الملك في جماله وفرط إشراقه وبهائه عيوننا ، وتعلّقت به أفئدتنا ، ودُهشنا دهشاً عاقنا عن الشكوى ، فوقف على ما غشينا فردّ علينا الجواب بتلطّفه حتّى اجترأنا على مكالمته ، و غمرنا بين يديه عن قصّتنا ، فقال : لن يقدر على حلّ الحبائل عن أرجلكم إلّا عاقدوها ، و إنّي منفذ إليهم رسولاً يسومهم [٤] إرضاءكم وإماطة السوء عنكم ، فانصرفوا مغبوطين .

وهو ذا نحن في الطريق مع الرسل وإخواني متشبّسون بي يطلبون إلى حكاية بهاء الملك ، وسأصفه وصفاً موجزاً ، فأقول : إنّه الملك الّذي مهما حصّلت في خاطرك كمالاً لا يمازجه نقص ، وجمالاً لا يشاوبه قبح ، صادفتَه مستوفى لديه ، و كلّ جمالٍ بالحقيقة له ، و كلّ نقصٍ ولو بالمجاز فمنفيّ عنه كلّه ، لحسنه وجهٌ ولجوده يدٌ ، من خدَمه فقد أغتنم السعادة القصوى ، ومن حرمه فقد خسر الآخرة والأُولى . هذا ماقاله هذا الحكيم على سبيل الرشد بالصحبة في طريق الآخرة .

ومن أنفاسهم في آداب الصحبة قول ذي النون : لا تصحب مع النفس ولا مع الشيطان إلّا بالمخالفة ؛ فإنّه يفتح لك تسعة و تسعين باباً من الخير حتّى يصطادك عند تمام المائة فقابله بالأضداد ، فإن دعاك إلى الدنيا فقل : هي فانية ، و إن دعاك إلى الشهوات فقل : هي ندامة ، وإن دعاك إلى الكبر فقابله بمعرفة أصلك وفرعك : حمأٍ مسنون

(١ و ٣) سقط من العبارة فاعل الفعل .
(٢) أى قصدنا وعزمنا .
(٤) من سامه الامر : كلفه اياه .

وماء مهين ، وإن دعاك إلى العُجب فقل : كيف أعجب بما ليس منّي ؟ إنّما هو توفيق و عصمة ، و كيف أعجب بعملي ؟ فلا أدري بما يختم لي .

فقال له يوسف بن الحسين عند مفارقته إيّاه : من اُخادن وإلى من أسكن ؟ فقال : من لا يحتاج أن تكتمه ما يعلمه الله منك وإلّا فاجعل للناس ظاهرك ولله باطنك ، ودارهم في نفسك وخادعهم عن دينك وعاشرهم بالّتي هي أحسن .

وسئل أبو الحسن الدينوريّ : ما الّذي يجب علي الإخوان إذا اصطحبوا ؟ فقال : التؤاخي بالحقّ والتواصي بالصبر قال الله تعالى [١] « وتواصوا بالصبر » .

وكان شرط إبراهيم بن أدهم مع من يصحبه أن يكون الخدمة والأذان له ، و أن يكون يده في جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيدهم .

وكان رحمه الله يعمل بالنهار ، وكانوا يجتمعون بالّليل في موضع وهم صيام ، فكان إبراهيم يبطىء في الرجوع من العمل ، فقالوا : نأكل فطورنا دونه حتّى يعود بعد هذا أسرع ، فأفطروا وناموا ، فلمّا رجع إبراهيم وجدهم نائمين فقال : لعلّهم لم يكن لهم طعام فعمد إلى شيء من الدقيق كان هناك فعجنه وأوقد النار وطرح الملّة[٢] فانتبهوا و هو ينفخ في النار واضعاً محاسنه على التراب فقالوا له في ذلك ، فقال : قلت : لعلّكم لم تجدوا فطوراً فأحببت أن تستيقظوا والملّة اُدركت ، فقال بعضهم : أبصروا أيش عملنا وما الّذي به يعاملنا؟

ويحكى أنّه كان في سفر و معه ثلاثة نفر فبلغوا مسجداً في بعض المفاوز ، و كانت ليلة باردة ولم يكن للمسجد باب ، فلمّا كان وقت النوم ناموا وقام إبراهيم على الباب إلى وقت الصباح فقيل له : لم تنم ؟ قال : خشيت أن يصيبكم البرد فقمت مقام الباب .

وقال أبو عليّ الرباطيّ : صحبت عبدالله المروزيّ وكان يدخل البادية قبل أن أصحبه بلا زاد ، فلمّا صحبته قال لي : أيّما أحبّ إليك أن تكون أنت الأمير أم أنا ؟ فقلت : لا بل أنت ، قال : و عليك الطاعة ؟ قلت : نعم ، فأخذ مخلاةً [٣] و وضع فيها الزاد و حمل

---

(١) سورة العصر : ٣ .

(٢) بهامش الاصل : الملة خبزة من عجين يوضع عليها النار والرماد حتى تشتوى .

(٣) المخلاة : ما يجعل فيه العشب ، ومنه ما يعلق فى عنق الدابة .

على ظهره فإذا قلت له : أعطني حتّى أحمله ، يقول : ألست أنا الأمير ؟ فعليك الطاعة ، قال : فأخذنا المطر ليلة ، فوقف على رأسي طول اللّيل إلى الصباح ، وعليه الكساء وأنا جالس يمنع عنّي المطر ، فكنت أقول في نفسي : ليتني متّ ولم أقل أنت الأمير ، ثمّ قال : إذا صحبك إنسان فاصحبه يا أخي كما رأيتني صحبتك أو انفرد .

وقيل لذي النون : مع من أصحب ؟ قال : من إذا مرضت عادك ، وإذا أذنبت تاب عنك .

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم * و تذنبون فنأتيكم فتعتذروا[1]

وعن إبراهيم بن شيبان ، قال : كنّا نصحب أبا عبدالله المغربيّ ونحن شَباب ، و سافر بنا في البراري والفلوات وكان معه شيخ اسمه الحسين ، قد صحبه سبعين سنة ، و كان إذا جرى من أحدنا خطأ ويتغيّر علينا قلت للشيخ : « نتشفّع بهذا الشيخ » حتّى يرجع لنا إلى ما كان ، إعظاماً لحرمته ومعرفته تقلّد طول صحبته .

ومما يجب من حقوق الصحبة التجافي عن العيوب ، والإغضاء عن الذنوب ، وربّما يجب في صحبة الأحداث ومن لم يرتض برياضات آدابهم التلقّي بالتأديب والتقويم .

وقد جمع أبو عبدالرحمن السلميّ آداب الصحبة في كتاب وجملتها : حسن الخلق ومعاشرة من يوثق بدينه وتستوثق من أمانته ، والصفح عن عثرات الإخوان وقلّة الخلاف عليهم ، وإحمادهم على حسن نيّاتهم ، والتباعد عن مناقشتهم في نعم الله عليهم ، و أن لا يواجههم بما يكرهون ، ولا يحتجب عنهم ، ولا يهجرهم ، ويستحيي منهم في كلّ حال . ويعايشهم ببشاشة الوجه ، و طلاقة اللّسان ، و بسط الكفّ ، وصدق الوعد ، و دوام العهد ، و حفظ الأسرار ، و إيثار الإرفاق ، وقبول الأعذار ، واحتمال الأذى ، وبسط المعروف ، و تليين الكنف ، وتسهيل العطف ، وصدق الوفاء ، وحسن التفاعل ، ونشر المحاسن ، وستر المقابح ، وإظهار الفرح ، وبذل النصيحة وقبولها منهم ، وأن يراعي صلاحهم لأفرادهم ، ويحبّ لهم مايحبّ لنفسه ، ويكرم كلّ أحد منهم على قدره ، ويسترسل[2] معه على سجيّته ، ولا يُطريه في وجهه ، ويكون طوع أمره ونهيه ووفق قوله و فعله - . وهذه المعاني أجمع في سلك النظم

---

(١) الصواب : اذا مرضتم

(٢) معنى استرسل هنا : انبسط اليه واستأنس .

منها في النثر ، ومحاضرتها بالشعر أعذب و أعجب كما قيل في صدق الموافقة :

تريدين أن أرضى وترضى وتمسكي * زماني ما عشنا معاً و عناني
إذاً أبصري الدنيا بعيني، واسمعي * بأذني فيها ، وانطقي بلساني

وقال الموسويّ :

أنت الكرى مونسا طرفي وبعضهمُ * مثل القذى مانعاً عيني من الوسن (١)
لقد تمازج قلبانا كأنّهما * تراضعا بدم الأحشاء لا اللّبن

بعض المتقدّمين :

أميل مع الذمام علي ابن عمّي * و أفضي للصديق على الصديق
و إن ألقيتني ملكاً مطاعاً * فإنّك واجدي عبد الصديق

القاضي أبوالحسن :

وتركي مواساة الأخلاّء بالّذي * تنال يدي ظلمٌ لهم و عقوق
وإنّي لأستحيي من الله أن أُرى * بحال اتّساع والصديق مضيق

وقال محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام : أيدخل أحدكم يده في كمّ صاحبه فيأخذ حاجته من الدنانير ؟ قالوا : لا . قال : فلستم بإخوان إذن(٢).

وقال حكيم : من ودّك لأمر ولّى مع انقضائه .

كان مع مالك بن دينار(٣) كلبٌ فقيل له : يا أبا يحيى ! ما هذا ؟ قال : خير من جليس سوء.

وقال [ال]فضيل للثوريّ : دلّني على جليس أجلس إليه ، قال : تلك ضالّة لا توجد .

لقمان : إيّاك وصحابة السوء ؛ فإنّه كالسيف : يعجبك منظره ويقبح أثره .

مرس السعديّ :

أخ لي كأيّام الحياة إخاؤه * تلوّن ألواناً عليّ خطوبها

---

(١) الكرى مصدر بمعنى النعاس . والوسن : ثقل النوم .

(٢) وقد سبق عن جده الشهيد عليه السلام ، ولامنافاة .

(٣) أبويحيى مالك بن دينار البصرى من رواة الحديث كان ورعاً يأكل من كسبه ، و يكتب المصاحف بالاجرة ، توفى بالبصرة ١٣١ . انظر الوفيات والاعلام : ٨٢٦ .

إذا عبت منه خصلة فهجرته * دعتني إليه خصلة لا أعيبها

ثلاثة لا تعرفهم إلّا عند ثلاثة : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الحرب، والأخ عند حاجتك إليه .

قيل لروح بن زنباع[١] : ما معنى الصديق ؟ قال : لفظ لا معنى له . الصديق الفاضل من أحبّ صديق صديقه . كلّ مودّة عقدها الطمع حلّها اليأس .

قال رجل لمطيع بن إياس[٢] : قد جئتك خاطباً قال : لمن ؟ قال : لمودّتك ، قال : أنكحتك إيّاها وجعلت الصداق أن لا تقبل فيّ مقالة قائل .

قال حكيم : ليكن اختيارك من الأشياء جديدها ، ومن الإخوان أقدمهم .

صديق حضارة و صديق عين * وليس لمن تغيّب بالصديق

امرؤالقيس[٣] :

إذا قلتُ : هذا صاحب قد رضيته * وقرّت به العينان بدّلت آخرا

كذلك حظّي ما أُصاحب صاحباً * من الناس إلّا خانني وتغيّرا

مجاهد : لولم يكن في الصاحب الصالح إلّا أنّ حياءه يمنعك عن معصية الله كفاك .

النبيّ ﷺ : « أكثروا من الإخوان فإنّ ربّكم حيّ كريم يستحيي أن يعذّب عبده بين إخوانه » .

وعنه ﷺ : « من نظر إلى أخيه نظر مودّة لم يكن في قلبه عليه إحنة ، لم يطرف حتّى يغفر الله له ماتقدّم من ذنبه » .

---

(١) أبوزرعة روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامي . أمير فلسطين . قيل : له صحبة ، كان عبدالملك بن مروان يقول : جمع روح طاعة أهل الشام ، ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز ، توفي ٨٤ هـ . الإصابة (١ : ٥٠٨ ، برقم ٢٧١٣) .

(٢) مطيع بن اياس الكناني ، شاعر من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية ، كان ظريفاً مليح النادرة ، متهماً بالزندقة . مولده ومنشأه بالكوفة ، وأصل أبيه من فلسطين ، انقطع في العباسية الى جعفر بن المنصور ، ولاه المهدي الصدقات بالبصرة فتوفي فيها سنة ١٦٦ هـ . الاغاني (١٢:٧٥) والاعلام : ١٠٤٩ .

(٣) انظر القصائد المختارة : ٤٦ من قصيدة في ٥٤ بيتاً قالها حين توجه الى قيصر .

عليّ عليه السلام : « من كان له صديق فإنّه لا يعذّب ، ألا ترى كيف أخبر الله عن أهل النّار [١] : « فمالنا من شافعين ولا صديق حميم » .

وعنه عليه السلام : « لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث : في نكبته وغيبته و وفاته » .

و عنه عليه السلام : « أعجز الناس من عجز عن الإخوان ، و أعجز منه من ضيّع من ظفر بهم منهم » .

ثلاث يثبتن الودّ في قلب أخيك : أن تبدأه بالسلام ، و توسّع له في المجالس ، و تدعوه بأحبّ أسمائه إليه .

آخر :

أُحبّ من الفتيان كلّ مؤاتي * و كلّ غضيض الطرف عن عثراتي
يوافقني في كلّ أمر أُحبّه * و يحفظني حيّاً وبعد وفاتي
فمن لي بهذا الشيء إن قد وجدته * فقاسمته مالي و من حسناتي

الشافعيّ :

مرض الحبيب فعُدته * فمرضت من حذري عليه
و أتى الحبيب يعودني * فبرئت من نظري إليه

آخر :

كم صديق عرفته بصديق * صار أحظى من الصديق العتيق
و رفيق رأيته في طريق * صار عندي هو الصديق الحقيقي

آخر :

أخلّاء الرخاء هم كثيرٌ * ولكن في البلاء هم قليلُ
فلا يغررك خلّة من تؤاخي * فمالك عند نائبة خليل

آخر :

شفيعك من قلبي شفيع مشفّع * وحظّك من ودّي حريم ممنّع

(١) أي أكثر حظا .

فلا تسألنّي في هواك زيادة * فأيسره مُرض و أدناه مقنع
عليك سلام الله أنت وديعتي * إليه ، وما يُستودع الله أودع

آخر :

تذلّل لمن إن تذلّلت له * يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لايزال * على الأصدقاء يرى الفضل له

آخر :

وإذا صاحبت فاصحب ماجداً * ذا وفاء و حياء و كرم
قوله للشيء : لا ، إن قلت : لا * و إذا قلت : نعم ، قال : نعم

آخر :

لا تصحبنّ لئام الناس إنّ لهم * عدوى وإن كنت من غرّ مناجيب (١)
واصحب أخا كرم تحظى بصحبته * فالطبع مكتسب من كلّ مصحوب
و الريح آخذة ممّا تمرّ به * نتنا من النتن ، أو طيباً من الطيب

آخر :

بابدان كم نشين كه صحبت بد * گرچه پاكى ترا پليد كند
چشمهٔ آفتاب رخشان را * پارهٔ ابر ناپديد كند

آخر :

هيچ صحبت مباد باعامت * كوچوخود مختصر كندنامت
صحبت عام در بهشت آباد * مرك باشد ، كه مرك عامى باد

آخر :

إذا ما الخلّ لم يحفظ ثلاثاً * فبعه ولو بكفّ من رماد
وفاء للعهود و بذل مال * و كتمان السرائر في الفؤاد

---

(١) الغر - بالضم . جمع الاغر وهوهنا : السيد الشريف والمناجيب - بفتح الميم - جمع المنجاب - بكسرها - وهو الذى ولد النجباء . يستوى فيه المذكر والمؤنث .

آخر :

نه برادر بود بنرم و درشت * گربرای شکم بود همپشت

آخر :

چون کم آید ز راه توشهٔ تو * ننگرد در کلاه گوشهٔ تو

آخر :

یار « هم کاسه » هست بسیاری * لیك «هم کیسه » کم بود یاری

آخر :

ما را بهشت ، صحبت یاران همدست * دیدار یار نا متناسب جهنّمست

هردم که درحضور عزیزی بر آوری * درباب کز حیات جهان حاصل آندمست

آخر :

غائظ صدیقك ، تکشف عن ضمائره * وتهتك الستر عن محجوب أسرار

فالعود ینبیك عن مکنون باطنه * دخانه حین تلقیه علی النار

ولقد أطلنا فصل «الصحبة» نثراً و نظماً ، و ختمناه بالأبیات الفارسیّة [لیکون] أحسن ختماً (١) .

وأعلم بأنّي عاشرت الناس خمسین سنة فلم أجد أحداً غفرلي زلّة وأقال لي عثرة ، ولكنّ الأولى بالصداقة الصديق الّذي أدّب نفسه بهذه الأربعة:وهي أن ينزّه النفس بالعفّة ، ويقوّيها بالتقوى ويزهّدها في حُطام الدنيا ، و يهذّبها بالورع عن المعاصي

(١) بين المعقوفين زيادة منا رعاية لاعراب « ختماً » .

﴿ فصل ٤ ﴾

✡(في آداب النفس بالعفة و التقوى و الزهد والورع)✡

اعلم أنّ العفّة ضبط النفس عن اللّذّات المشتركة بين عامّة الحيوانات ، من جملة المذوقات والملموسات ، وليس معنى ضبط النفس عنها رفضها بواحدة و قهر الشهوة و حصر الهوى على كلّ حال، ولو كانت الشهوة مما يستغنى عنها ويتجزّى بواحدة منها لكان خلقها في أصل التركيب عبثاً و وبالاً على صاحبها ، كيف وإلى المذوقات ضرورة بقاء البدن ، وفي المناكح ضرورة بقاء النسل ؟ ولكن معنى ضبط النفس عنها هو أن يجري أمر تناولها على أربعة أنحاء : أن يتناول منها ما ينبغي ، وفي الوقت الّذي ينبغي ، و من المقدار الّذي ينبغي ، ومن الوجه الّذي ينبغي . فتكون شهوته تحت طاعة عقله ، و إيثاره الجميل على الكفّ على إيثاره اللّذيذ، فيستلذّه من حيث هو جميل بما ذكرنا من الأوصاف الأربعة . إلّا أن يستجلبه من حيث إنّه لذيذ بهوى نفسه ، وشهوة جسده ، وضراوة[1] عادته ، وتسويل شيطانه . و كذلك في الغضب حاجة الأنفة من العار والحماية والذمار والقبض على يد الشهوة والأخذ بعنان الهوى ، فيكون عنده كالشيء المحظور الأصل ، المباح الفرع كالرخصة الّتي يستباح بها الشيء مع قيام الحرمة .

وقد قال بعض البلغاء في تمثيل أمرهما أنّهما يجب أن يجريا مع العقل مجرى المركوب الّذي يركب عند الحاجة بأربعة أشياء : بسرج يذلّله ، و شكيمة تكبحه[1] ، و عنان يثنيه ، وسوط يحثّه ، فإذا نزل عنه راكبه ألزمه الرباط و الشكال لئلّا يجد على حال من الأحوال سبيلاً إلى أن يشرد فيهلك نفسه ، و يجني على غيره ، و كما يخاف من هذا المركوب الشرود فقد يخاف عنه الحران[2] .

وشرود الشهوة الشره ، و حرانه الخمود ، وشرود الغضب التهوّر ، وحرانه الجبن و

(١) ضرى بالشيء ـ كرضى ـ ضراوة : اهيج به .
(٢) الشكيمة : الحديدة المعترضة في فم الفرس . كبحه : جذبه .
(٣) حرن البغل ـ من باب نصر و كرم ـ : وقف .

آفة الشره أغلب من آفة الخمود ، وفي الغضب على العكس ولهذا كانت المواعظ و الوصايا في معالجة الشره والجبن أكثر وأبلغ منها في معالجة ضدّيهما ، إلّا أنّ الشره أشبه بما يكون طوعاً من الجبن ، والجبن أشبه بما يكون طبعاً من الشره ، ولا يُعذر الشره ، وقد يعذر الجبان ويصلح معالجة الشره دون معالجة الجبن ، ويستحكم عادة الإمساك عن الأوطار من غير ركوب الأخطار ، ولا يستحكم عادة الاستهانة بالعظائم إلّا بركوب الملاحم .

و أسباب الشره ليس بمرغوب عنها و الشره عينه مرغوب عنها ، و أسباب الجبن مرغوب عنها و الجبن نفسه ليس بمرغوب عنها ، فبين الشره و الجبن و الخمود و التهوّر مفارقات من حيث هذه الإضافات والاعتبارات ، ولكن لا مخالفة في المحمود من وسيطهما عنه ، ونجده من حيث إنّ ذلك طاعة الشهوة العقل في تناول الملاذّ ، وطاعة الغضب العقل في دفاع المحاذر . فإذاً العفيف لن يشتهي اللذّات الّتي يستغني عنها ، ولا يحزن لفوات الملذّات الّتي يحتاج إليها ، و عكسه الشره فيكون العفيف ضابطاً متمالكاً ، و الشره ساقطاً متهالكاً .

ثمّ قد يعمل الإنسان عمل الأعفّاء من غير أن يكون على إحدى أربع جهات :

أحدها العلم بالشيء كمن يذوق الأشربة أو يختبر الأطعمة ، فيكون حاله حال العفيف الّذي يكفيه الطفيف [١] ، وهو لو استطاع الأكل لاحتجفه و تخسّفه [٢] كالعقاب المسعور [٣] ، ولو أمكنه الشرب لاستنقذه و اشتفّه ، ولا الرمل الماء (؟) في الودائق [٤] .

والثاني : الامتلاء من الشيء كما لو قدّم طعام بين يدي خليع من الطعام ، نزيف من المدام .

والثالث : فرط العشق ، فإنّ من صدق عشقه لإنسان لم يرتح لغيره وإن كان موجّهاً

(١) القليل ، الغير التام ، الحقير ، الخسيس .

(٢) احتجف الشيء : استخلصه وحازه . ولم يعهد باب التامل من « خسف » و المراد هنا ان العفيف لو لم يعفّ لحاز الطعام وابتلعه ، من قولك : خسف في الارض : غاب

(٣) الحريص على الاكل وان امتلا بطنه .

(٤) اشتف ما في الاناء : سرب كل ما فيه . والوديقة : الموضع فيه العشب .

قال الأصمعيّ : ابتعت جاريةً فقالت : ماتبتغي ؟ فقلت : كلّي بكلّك مشغول ، فقالت : و كلّي بكلّك مبذول ، لكن التفت وراءك فإنّ وراءك من لاأعشره[١] فالتفتّ فصاحت: يا كذّاب لو كنت صادقاً لم تلتفت[٢].

والرابع عدم العلم بالشيء فإنّ من لم يذق اللّحم لم يؤثره على الرية ، ومن لم يجد طعم المآكل سهُل عليه مقاساة الطعم الكريه .

قال عليّ عليه السلام متأسّفاً : «إنّ ههنا علماً جمّاً لو أجد له حملة»[٣] .

وقال عليه السلام : « لو أخذت مائة قلوبهم كالذهب المصفّى ثمّ أخذت من المائة عشرة ثمّ

---

(١) بهامش الاصل : اى لا احصيه . انتهى . يعنى : ليس جمالى عشر جماله .

(٢) ولنعم ماقال الشيخ الجامى :

چهارده ساله بتى برلب بام • چون مه چارده ، درحسن تمام
برسر سرو ، كله گوشه شكست • بر گل ازسنبل تر ، سلسله بست
داد هنگامهٔ معشوقى ساز • شيوهٔ جلوه گيرى كرد آغاز
او فروزان چومهى كرده هجوم • بر در و بامش اسيران چو نجوم
ناگهان پشت خمى همچو هلال • دامن از خون شفق مالا مال
كرد در قبلهٔ او روى اميد • ساخت فرش ره او موى سپيد
گوهر اشك بمژگان ميسفت • وزدوديده گهرافشان ميگفت:
كاى پرى ! با همه فرزانگيم • نام رفت از تو بديوانگيم
لاله سان ، سوختهٔ داغ توأم • سبزه وش پى سپر باغ توأم
نظر لطف بحالم بگشاى • زنك اندوه ز جانم بزداى
نوجوان حال كهن پير بديد • بوى صدق از نفس او نشنيد
گفت : كاى پير پراكنده نظر • رو بگردان بقفا باز نگر
كه در آن منظره گلرخساريست • كه جهان ازرخ او گلزاريت
او چوخورشيد فلك ، من ماهم • من كمين بندهٔ او ، اوشاهم
عشقبازان چو جمالش نگرند • من كه باشم كه مرانام برند ؟
پير بيچاره چو آنسو نگريست • تابيند كه در آن منظره كيست
زد جوان دست وفكند از بامش • داد چون سايه بخاك آرامش
كانكه باما ره سودا سپرد ✡ **نيست لايق كه دگر جانگرد**
هست آئين دو بينى زهوس • قبلهٔ عشق يكى باشد و بس

(٣) فى الكلمة ١٤٧ من حكمه القصار فيما قاله لكميل النخعى . انظر شرح النهج لابن ابى الحديد (٤ : ٤١٩) .

من العشرة واحداً أخذت ثمّ اختبرته ببعض ما عندي إذا لقال : عليٌّ أكذب العرب ، و ذلك لأنّ الناس أعداء ما جهلوا ، فإذ اطلع لهم باب من العلم تقصر دونه أفهامهم كذّبوا قائله .

فعلى هذا من القسم الأوّل اكتفى أصحاب السلطان من العلم و الخير بتقريب العلماء و إجلال الزهّاد ، و بمقدار ما يُعدّون من جملة الأخيار من غير أن يسلكوا في طرائقهم ، أو يتخلّقوا بخلائقهم ، فهو رضي من الجسم بالاسم ، ومن الحميم بالشميم .

ومن الثاني وصيّة النساء والمتزيّنين عند الموت لذي الاستغناء والفوت . قيل لميمون ابن مهران : إنّ رقيّة امرأة هشام بن عبد الملك ماتت فأعتقت كلّ مملوك لها . فقال: يعصون الله تعالى مرّتين : يتجمّلون به وهو في أيديهم بغير حقّ ، فإذا صار لغيرهم أسرفوا فيه .

ومن الثالث رضاء أصحاب الدنيا بمتاع الغرور عن دين النسّاك و أحوال الزهّاد ، يرغبون في الدنيا الفانية، ويرغبون عن الآخرة الباقية وذلك لجهلهم بها . قيل للعتابيّ : إنّ فلاناً عالم ، قال : إذاً لا يفرح بالدنيا ولا يرغب فيها . وعلى هذا قول محمّد بن الحسن: «إذا أوصى بثلث ماله لأعقل الناس ، صرف ذلك إلى الزهّاد في الدنيا لكمال عقلهم» .

ومن الرابع غفلة الناس عن نعيم الآخرة ، و انصبائهم إلى زخرف الدار الحاضرة ، مع تعبهم و نصبهم فيها وطول شقائهم بها .

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها * على أنّهم فيها عراة وجُوّع
أراها وإن كانت تُحَبّ فإنّها * سحابة صيف عن قليل تقشّع

توقظهم الغِيَر ولا يرجعون ، وتعظهم العِبَر ولا يسمعون. لا يهلك أبناؤها إلّا بحياتهم ولا يحذرونها ، ولا تفني أولادها إلّا بأقواتهم ولا يسأمونها ، يجدون كلّ مرارة في شرابها ، ويردون كلّ خديعة من سرابها .

و الأنفس مع ذلك بغرورها زائدة الولوع ، والأكباد من همومها بادية الصدوع . فياللمرء منها ! لا يبقى قليلها ، ولا يسأمها عليلها . يدوم داؤها ، ويفنى طبيبها . ويكثر نصبها ، و يقلّ نصيبها .

يحكى أنّ سليمان بن عبد الملك دخل المدينة فأقام بها ثلاثاً ، فقال : ماههنا رجل أدرك أصحاب رسول الله ﷺ نبعث إليه فيجيئنا ؟ قالوا : بلى ههنا رجل صالح يدعى « أبا حازم » فبعث إليه فأتاه فقال له سليمان : يا أباحازم ! ما هذا الجفاء ؟ قال : وأيّ الجفاء رأيت منّي ؟ قال : أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني ، قال : أعيذك بالله أن تقول مالم يكن ، لم يجر بيني وبينك معرفة آتيك لها ، قال : صدق الشيخ .

ثمّ قال : يا أبا حازم ! لما نكره الموت ؟ قال : لأنّكم أخربتم آخرتكم ، وعمّرتم دنياكم ، فأنتم تكرهون أن تنقلوا من العمران إلى الخراب ، قال : صدقت . فكيف القدوم على الله ؟ قال : أمّا المحسن فكالحميم يقدم على أهله ، وأمّا المسيء فكالعبد الآبق يردعلى مولاه ، فبكى سليمان و قال : ليت شعري ! ما لنا عند الله ؟ قال : اعرض عملك على كتاب الله فأنت تعلم به مالك عند الله ، قال : فأين أصيبه من كتاب الله ؟ قال قوله تعالى [١] : « إنّ الأبرار لفي نعيم و إنّ الفجّار لفي جحيم » قال : فأين رحمة الله ؟ قال : قريب من المحسنين [٢] .

ويحكى أنّ سليمان هذا لبس يوماً أحسن ما عنده من الملابس . و جلس في أبهى المجالس ، و دعا بأحسن جارية يتحظّاها فقال لها : كيف ترين ؟ فقالت :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقي * غير أن لابقاء للإنسان
أنت خلو من العيوب و ممّا * يكره الناس غير أنّك فاني

فلمّا كان من الغد مرض على فراش الموت ، فأُنيم [٣] في غرفة ، فوقع بصره على راعي غنم ، فقال : ياليتني لم أملك هذا الملك و كنت عسيفاً [٤] أوراعياً أسعى بحلال رائحاً غادياً فبلغ ذلك أباحازم فقال : الحمد لله الّذي جعلهم عند الموت يتمنّون ولم يجعلنا نتمنّاهم.

ولمّا احتضر عمر بن هبيرة الفزاريّ أمير العراقين قال : لله درّ البغلات الموكفات [٥]

---

(١) سورة الانفطار : ١٣ - ١٤ .
(٢) مأخوذ من الاية الشريفة ، «ان رحمت الله قريب من المحسنين» . الاعراف : ٥٥ .
(٣) مبنى للمفعول من «أنام» .
(٤) العسيف : الاجير .
(٥) اى البغلات التى وضع عليها الوكاف - بالكسر - وهو البرذعة ، و بالفارسية «پالان» .

والله إنّي لوددت أنّي راعي إبل لرجل سيّىء الملكة .

فواحسرتا عليهم ! يظلمون أنفسهم ولا يبالون ، يتمنّون حال الصّالحين حين لا ينالون لا يصفو عيش قوم إلّا وأن يتكدّر على آخرين ، ولا يتمّ مراد حاضر إلّا بغيبة عن غابرين . ولا يسلم سالم فيما ترى العين إلّا وسقامه من سلامته ، ولا يزيد زائد في مال إلّا و نقصانه في زيادته . لا تخلو مع هذا نفس عن إخوان ، ولا نفس عن حدثان ، ولا زيادة عن نقصان . ولا ربح عن خسران ، ولا سرور عن حسرات ، ولا راحة عن بليّات .

حدّث بعض الصالحين قال : لقيت عليّ بن محمّد بن جعفر بن أحمد بن جعفر بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام بالكوفة بعد خلاصه عن حبس الموفّق ـ و كان حبسه مرّتين : مرّة لكفالته لبعض أهله ومرّة لسعاية عليه ـ وهنّأته بالسلامة، وقلت قد عُدتَ إلى وطنك الّذي تلذّه ، وإخوانك الّذين تحبّهم ، فقال : يا أبا عليّ ! ذهب الأتراب والشباب والأصحاب ، ثمّ أنشد :

هبني بقيت على الأيّام و الأبد * و نلت ما شئت من مال ومن ولد

مَن لي برؤية من قد كنت آلفه * و بالشباب الّذي ولّى ولم يعد ؟

فإلى متى هذا الدؤوب[1] فيها وأنت راحل عنها ، وذاهب منها ، ولاحق بمن تقدّمك من الإخوان ، ومضى قبلك من الخلّان ، بينا المرء يكدح في سعيه لها دائباً إذ تراه ضريع سعيه و قتيل سيفه ، كدود القزّ ينسج على نفسه إلى أن لا يجد مخلصاً عن نسجه ، ويموت بسبب عمله ، و كذلك العبد لا تزال نفسه بعلائق الدنيا من مال وجاه وأهل وولد وصديق و خول[2] ، فلا يجد لنفسه مخلصاً عنها ولا يمكنه أن يقطع سلسلة من سلاسلها عن نفسه ولو بجهد جهيد ، وسعي شديد ، إلى أن يفرّق طارق الموت بينه و بينها عن آخرها ، و القلب قد نشبت فيه مخالبها ، فهي تجاذبه إلى الدنيا ويد الموت تجذ به إلى الآخرة .

ألم تر أنّ المرء مادام عائشاً * معنّى بأمر ما يزال يعالجه

كدود كدود القزّ ينسج دائماً * ويهلك غمّاً وسط ماهو ناسجه[3]

(١) الجد والنعب و الاستمرار على العمل .
(٢) العبيد و الاماء وغيرهم من الحاشية .
(٣) « كدود » صفة من قولك : كدّ اذا تعب .

هيهات ! إنّ عين الحسرات تلاحظ جبهة الأمانيّ بالندامات، وإنّ يد الفناء تنازع أردية الأهواء . وإنّ عقبى أمرها يعصف على زهرات أُنسها بالدثور ، و إنّ حال أهلها تدعو الراغب فيها بالثبور . فتعفّفوا عن محارم ربّكم تكونوا عابدين أتقياء ، وارضوا بما قسّم لكم من الرزق تكونوا زاهدين أغنياء ، وصاحبوا الناس بما تحبّون أن يصاحبوكم به تكونوا عدولاً أزكياء . ولا تتعبوا أنفسكم بالجهد فكلٌّ مستوف أكله، غير منتقص شيئاً قدّر له، إنّه كان قبلكم أقوام جمعوا كثيراً وأمّلوا بعيداً ، و بنوا مشيداً ، فأصبح جمعهم بوراً ومساكنهم قبوراً ، وأملهم غروراً .

لمّا وُضع الإسكندر في تابوته قيل للعلماء : تكلّموا فقد كان يسمع إليكم وينصت لكم . وكانوا اثني عشر عالماً .

فقال الأوّل : يا أيّها الساعي المتعصّب! جمعت ماخانك عند الاجتماع ، وودّعك عند الاحتياج ، فلا قرابة يعضدك ، ولا وزير يفتقدك .

وقال الثاني : قد ذهبت زهرة بهجته كما ذهب شعاع الشمس بنور النبات .

وقال الثالث : هذا الإسكندر صاحب الأسراء أصبح اليوم أسيراً !

وقال الرابع : قد أمنك من كان يخافك ، فهل أمنت من الّذي كنت تخافه ؟

وقال الخامس : بل هل أمنت ما كنت تخاف نزوله بك ؟

وقال السادس : انظروا إلى حُلم النائم كيف انقضى ، وإلى ظلّ الغمام كيف انجلى .

وقال السابع : قد كان هذا الشخص يسأل عمّا قبله ، ولا يسأل عمّا بعده .

وقال الثامن : ورد علينا هذا الجسد بما كان يستبقيه .

وقال التاسع : ما أرغبنا فيما فارقت ، وأغفلنا عمّا عاينت !

و قال العاشر : ما أبعد شبه مكانك الّذي أنت به اليوم من مكانك الّذي كنت به الأمس ! .

وقال الحادي عشر : لم يقض هذا الجسد نهمته[1] من هذه الدنيا حتّى قضت الدنيا نهمتها منه .

(١) « قضى منه نهمته » اى شهوته وحاجته .

و قال الثاني عشر : أنت أمس كان أنطق منك اليوم ، و أنت اليوم أوعظ منك بالأمس (١)

وقال عامر بن قيس : الدنياوالدة الموت ، ميراث الدول،أوعية الفجائع،ناقضة للمبرم مرتجعة للعطيّة . و كلّ من فيها يجري إلى ما لايدري ، و كلّ مستقرّ فيما غير راض بها ، وذلك شهيد على أنّها ليست بدار قرار

قيل لزاهد : كيف سخت نفسك عن الدنيا ؟ فقال : أيقنت أنّي خارج منها كارها ، فأحببت أن أخرج منها طوعاً .

وقيل لحكيم : صف لنا الدنيا وأوجز ، فقال : ضحكة مستعبرة .

وسئل بعض العلماء عن رغبة الناس في دنياهم مع شدّة إتعابها إيّاهم ، فقال : ذلك لقلّة معرفتهم بها . كالصبيّ الغرّ أعجبه من لين الرقشاء لونها ومسّها ، فلم يبرح حتّى قتله نهشها ، ولو أنّهم عرفوها حقّ معرفتها لنظروا إليها نظر المريض إلى وجوه العوّد ، نظر الجزور إلى أشفار الجازر ، نظر المخمور إلى الشراب ، فلا سماعه يطيق إن ذكر بين يديه ولا إذا أحضر أمكنه النظر إليه ، ولا ذوقه وإن كلّف واكره عليه .

وقال بعض الصالحين : من عرف عفّ ، ومن عفّ خفّ :

بلوغ المنى أن لا يفكّر في المنى * ونيل الغنى أن لا يبالي بالغنى
ومن يك للدنيا أشدّ تصوّراً * تجده من الدنيا أشدّ تصوّنا

و قال بعض الخطباء : أيّها الناس ! لابدّ من الرحيل قربت أم بعدت المراحل ، ولا قرار دون التحويل في عاجل اليوم أو آجل ، فبطء الفتى أنساً في الأجل ، و أرخاً لطول المهل،والأيّام تطلبه شدّاً وتقريباً ، واللّيالي تحثّ به يداً وتعقيباً . لا يبرح واحد ما يشتهي منها حتّى يعود مفقوداً ، والرافل (٢) بخيلائه على ظهرها حتّى يصير ملحوداً .

عجباً لقوم يعجبون برأيهم * و أرى بعقلهم الضعيف قصورا
هدموا قصورهم بدار بقائهم * و بنوا لعمرهم القصير قصورا

(١) وانظر بعض أقوال حكماء اخر عند موته في مجاني الادب (٣ : ٣٩) عن زهر الاداب .
(٢) رفل : جر ذيله وتبختر .

أوردهم الردى [١] بعد الغبطة موارد كآبته [٢] ، و دعاهم الداعي الذي لابدّ من إجابته . سلبوا من بين العزّ والإمكان ، على عين الأنصار والأعوان . أنضر ما كانوا شباباً ، وأوفر ما كانوا أسباباً . كانوا يبصرون العيش غضّ المكاسر ليّن الأفنان ، ويردون اللّهو طيّب الورد قريب المكان ! فانظروا إليهم رمماً بوالي ، وإلى ديارهم رسوماً خوالي! فيا لغالب صار مغلوباً ! ويالسالب عاد مسلوباً ! ويالأكباد باردة راحت حرّى ، وأعين قريرة أمست عبرى !

قدمت على المهديّ الخيزران [٣] في مائة قبّة ملبّسة ديباجاً ووشياً [٤] وحريراً تكاد تترنّح بها [٥] الدنيا نضرة و سروراً ، فسأله عليّ بن يقطين - رحمه الله - أن يتغدّى عنده ففعل و كان يشتكي شيئاً في جوفه و كنّا نظنّ أنّ فرسه ظفر به فانقطع عرق في جوفه [٦] ، فتغدّى عنده و لم يمكنه المقام ، فانصرف و مات بعد ثلاثة أيّام فصلّى عليه الرشيد وأخذ البيعة لموسى الكاظم عليه السلام [٧] وعادت قباب الخيزران ملبّسة مسوحاً فقال أبو العتاهية :

رحن في الوشي فأ　　*　　صبحن عليهنّ المسوح
كلّ نطّاح على الـ　　*　　ـدهر له يوم نطوح

---

(١) الردى مقصوراً : الموت .

(٢) الكآبة والكأبة - بسكون الهمزة - الحزن والهم .

(٣) الخيزران ابنة عطاء أم ولد يمانية الاصل ، زوجة المهدى العباسى و ام ابنيه موسى الهادى وهارون الرشيد ، أخذت العلم عن الاوزاعي، وكانت ذات نفوذ كبير فى عهد زوجها وابنيها وكانت المواكب تغدو اليها وتروح فى أيام الهادى ، فمنعها الهادى من ذلك وسعى فى خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد ففضبت عليه ودبرت المؤامرة لاغتياله سنة ١٧٠ هـ . توفيت فى أيام الرشيد سنة ١٧٤ هـ انظر تاريخ الطبرى والبيان والتبيين (٢: ٢٦٩) والاعلام ٣٠٢ .

(٤) الوشى - بالفتح فالسكون - : نقش الثوب ، الثياب الموشية .

(٥) ترنح : تمايل من سكر أو نحوه .

(٦) وذلك ان المهدى ساق خلف صيد فدخل خربة فدق ظهره باب الخربة من قوة سوق الفرس. انظر حياة الحيوان للدميرى (١: ٧٥) .

(٧) و هذا من عجيب السهو للناسخ ولم يلتفت اليه المؤلف - رحمه الله - حين المقابلة ، والصواب « موسى الهادى » وهو الهادى العباسى أخو الرشيد ابن المهدى .

لتموتنّ ولو * عمّرت ما عمّر نوح
فعلى نفسك نُح * إن كنت لابدّ تنوح

وقال : إنّ مناهل الأوطار مراحل الأعمار ، فبمَ السكون والأحوال تحول،وعلامَ القرار والأعمار تزول ؟ تسعون وتدَعون والحاصل حسرة ، والأسف يمنة و يسرة ، غاية الأنس وحشة ، ونهاية الضحك عبرة .

وآخر إحسان اللّيالي إساءة * و عقبى مسرّات المساعي مساءة

وإنّما الحظّ من البقاء كالخطّ على الماء ، والنصيب في الحياة من الآمال كالنصيب في المنام من الخيال ، كم من أُناس شهدناهم فغابوا ، ورجال دعوا فأجابوا .

ثمّ انقضت تلك السنون وأهلها * فكأنّها و كأنّهم أحلام

فبما تتّقون ولمن تجمعون ؟ أما تعلمون النقص من كمالها ؟ أما تجدون البخس في أكيالها ، لاتمهل عاريتها إلّا ريث[١] انتزاعها ، ولاتهمل عطيّتها عن وخي[٢] ارتجاعها . ولا يرجع رائدها بالدفع والتأخير ، ولا يسمع طالبها العلل و المعاذير. لا تُنظر مقتضيها فواقاً ولا يبلع ريقاً ، ولاتُبقي عدوّاً ولا ترعى صديقاً .

وكانت لنا أصدقاء سُراة * و أعداء سوء فما خلّدوا [٣]
تساقَوا جميعاً بكأس المنون * فمات الصديق ومات العدو

فما لكم لا تعتبرون بالمثلات الّتي رأتها الأعين ، ولا تزدجرون بالآيات الّتي روتها الألسن؟لقد أنظر كم المهل فاستعذبتم مشارعه ، وأفسد كم الأمل فاستوطأتم مضاجعه[٤] هيهات ! سيعود ظنّكم في البقاء خائباً ، ونجمكم في طول الرجاء غائباً وإنّ هذه الوجوه الناضرة ستعود عن قريب كالحة باسرة ،[٥] وهذه الأيدي الناضرة سترجع عن قريب خاذلة

(١) الريث : مقدار المهلة من الزمن .
(٢) الوخى : القصد والعزيمة .
(٣) جمع السرى : صاحب المروءة . السيد الشريف السخى ، الجيد من كل شيء .
(٤) قد سبق مثل العبارة ومعناها فى ديباجة الكتاب .
(٥) كلح الوجه : عبس وتكشر . وبسر : زوى ما بين عينيه .

قاصرة . وهذه القدود الرائعة ، والأغصان اليانعة . والعيون الدُعج[١] والحواجب الزجّ.

أضحت قبورهم من بعد عزّهم * تسفي عليها الصبا والحرجف الشمل[٢]
لا يدفعون هواها عن وجوههم * كأنّهم خشب بالقاع منجدل[٣]
ناداهم صارخ من بعد ماقبروا : * أين الأسرّة والتيجان والحلل ؟
أين الوجوه الّتي كانت منعّمة * من دونها تضرب الأستار والكلل ؟
فأفصح القبر عنهم حين ساءله : * تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طال ما أكلوا دهراً وما شربوا * فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكلوا ![٤]

وهذا موضع التعلّل بأخبار من عرف الدنيا حقّ معرفتها ، وتصوّرها بصورتها ، من الملوك الأكياس فعفّ عنها و زهد فيها وتخلّى منها .

يحكى أنّ كيخسرو لمّا رأى طاعة الدنيا له ، ولين أعنّة الأقاليم بيده ، و تقلّب أحوال الزمان على رأيه ومراده . نظر بعين عقله إليها وغمّض عين هواه عن غرورها ، وصمّم رأيه في الإعراض عن أغراضها ، وأقبل ينحرف عن طرق الأملاك إلى طرق النسّاك ، إلى أن أمر بجمع القوّاد والأعضاد ، وحشر الوجوه والأعيان فقال لهم : يا عمومتي و إخوتي وأولادي ! إنّي ذاهب إلى ربّي ، ومشتغل عن معاشكم بمعادي ، ومستخلف عليكم لهراسف هو من أُرومتي[٥] وأبناء عمومتي، ومن رضيته لاستقامة أمره ، وصلاح سيرته . وإنّي لا أرتاب أنّه حافظ فيكم وصايتي ، فسلوني حوائجكم واضمنوا لي طاعة من أُملّكه عليكم ، فبكوا كثيراً وجزعوا طويلاً وتأسّفوا جميعاً على مفارقة ملك في صورة ملك .

ثمّ إنّه ولّاهم البلاد و ملّكهم الأصقاع وأمر بكتبة العهود لهم والاستيثاق منهم

---

(١) دعجت - من باب علم - العين : صارت شديدة السواد مع سعتها ، فصاحبها أدعج و جمعه دعج بضم الدال وسكون العين .

(٢) بتقديم الحاء المهملة على الجيم المفتوحتين : الريح الباردة . الصحاح .

(٣) المنجدل : المرمى بالارض .

(٤) الابيات في ديوان امير المؤمنين عليه السلام من قصيدة في ٢٥ بيتاً ، وفي المجاني (٣:٢٧): استنشد المتوكل أبا الحسن على بن محمد (عليه السلام) فقال : اني لقليل الرواية في الشعر ، فقال : ولابد . فأنشد القصيدة .

(٥) الارومة - بالضم - اصل الشجرة .

وقسّم كنزاً من كنوزه بينهم وأعطى « رستم » ثيابه ، و « طوس » دوابّه و « جودرز » ضياعه و « كيّو » أسلحته و « بيژن » فرشته ، وقضى حقّ كلّ أحد بما يقضى به الحقوق. وقسّم كنزاً له آخر في الفقراء والمساكين والعميان و المضطرّين ، وفي الزمنى و اليتامى والهرمى و الأيامى . وأخرج كنزاً له آخر لعمارة الحصون والرباطات ومواضع العبادات وإصلاح القناطر والجسور وسدّ المراصد والثغور ، ومداواة المرضى والممرودين [١] وإمدادا الغارمين .

ثمّ دعا لهراسف فأقعده على سريره ، وتوّجه بتاجه ، و أعطاه خاتم ملكه ، و أمر القوّاد بمبايعته ومتابعته وقال له : إنّما جرت العادة من المتقدّمين بأن يسمّوا أسلافنا الملوك أرباباً؛ لأنّ أفعالهم إذا و افقت العدل و الخير و أدّت إلى المصلحة وراحة الخليقة شابهت أفعال الله في كلّيّة العالم ، فالإلهيّة ربوبيّة سماويّة ، والملكيّة ربوبيّة أرضيّة ، ويجب لمنتحل [٢] هذا الاسم أن يلزم أحكام تدبير الخالق فيما مكّنه منه و ائتمنه من أمور خلقه ، ويبني على الجود والرأفة والحكمة عامّة أمره ، فيكون خليفة له في أرضه ، وقائماً عنه في مصالح عباده وبلاده . إلى كلام طويل في استعمال العدل والإحسان .

ثمّ ودّعهم وهام على وجهه [٣] و ساح في الأرض ، فخرج على سمت عقبه «غورك» فلم يوقف له على خبر ولا أثر .

وعن جرير بن عبدالله البجلي أنّ النعمان بن المنذر الأكبر خرج يتنزّه و معه عدّي بن زيد ، فمرّ بالقبور بظهر الحيرة ، فقال له عدي : أبيت اللعن ! [٤] أتدري ما تقول هذه القبور ؟ قال : لا ، قال : فإنّها تقول :

من رآنا فليحدّث نفسه * أنّه مُوف على قرب زوال

---

(١) الممرود هنا : من قطع عضو منه .

(٢) انتحل مذهباً : انتسب اليه .

(٣) هام على وجهه : ذهب لا يدرى أين يتوجه .

(٤) بهامش الاصل : « أبيت اللعن » أى ابيت ان تأتى بالامور القبيحة وما تستوجب به اللعن أقول : والكلمة كانت تقال لملوك الحمير . و اول من حيى بها يعرب بن قحطان . انظر تاريخ ابن الاثير ، ومجانى الادب (٣ : ٢٩٤) .

ربّ ركب قد أناخوا حولنا　　*　　يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر عليهم عصفة　　*　　وكذاك الدهر حال بعد حال

فانصرف من متنزّهه حزيناً كئيباً وقال لعديّ : إذا كان في السحر فاحضر تعرف خبري ، فحضره فوجده قد لبس المسوح ثمّ ساح على وجهه فلم يعرف له خبر [١] .

ويحكى [٢] أنّ هشام بن عبد الملك خرج ذات يوم مُصحراً [٣] في عام قد بكّر وسيمه [٤] ، وبايع وليّه ، فأخذت الأرض زخرفها من اختلاف أنوارها وفوائح [٥] أزهارها ، فنزل من الرصافة [٦] وادياً كأنّها فرشت بالعبقريّ [٧] وبسطت عليها ثقال الزرابيّ [٨] وسواقي الماء يتسلسل فيها كانسياب [٩] الحيّات في صفاء ماء الحياة ، وقد ضربت له سرادق من حبرات [١٠] كأنّها زهر الربيع .

ثمّ أذن للناس فلمّا أخذوا مجالسهم نظر إلى خالدين صفوان كالمستنطق له ، فقال خالد : أتمّ الله سرورك يا أمير المؤمنين بنعمه ، و أوزعك [١١] أن تشكرها بفضله و كرمه .

---

(١) الخبر والابيات بأكثر مما هنا فى الاغانى (٢ : ٣٢ - ٣٣) و فى الخبر تخليط حيث أن عدياً لم يكن زمن النعمان الاكبر ، المشهور بالاعور السائح ، بل كان فى عهد النعمان المنذر الذى قتله كسرى بسعى عدى هذا . ثم رأيت الابيات وخبر تنصر النعمان عند الاب شيخو (٣ : ١٨-١٩) عن الطرطوشى بوجه آخر راجعه .

(٢) حكاه أبو الفرج بالتفصيل فى الاغانى (٢ : ٣٣) .

(٣) أصحر : خرج الى الصحراء فهو مصحر .

(٤) كذا فى الاصل ، والصحيح « وسميه » بتقديم الميم ، والوسمى هو أول ما يبدو من المطر فى اقبال الشتاء ، على رأى ابن قتيبة ، والولى ثانيه وبعدهما : الربيع ثم الصيف - بفتح الصاد و تشديد الياء المكسورة - ثم الحميم . انظر فقه اللغة للثعالبى : ٣٤ (الباب الرابع) و ٢٥٧ (الباب الخامس والعشرون) .

(٥) الروائح الطيبة المنتشرة من الطيب ونحوه .

(٦) بالضم : كل منبت فى سواد البلدة .

(٧) العبقرى هنا : ضرب من البسط الفاخرة .

(٨) كل مابسط و اتكىء عليه . ومن النبت ماأصفر أو أحمر وفيه خضرة .

(٩) انساب : مشى مسرعاً ، الحية : جرت وتدافعت فى مشيها .

(١٠) بفتح الثلاثة او بكسر الحاء : ضرب من برود اليمن .

(١١) أوزعه الله الشكر : ألهمه .

وتابع لك الله المزيد فيها حتّى تصلها بعد طول التعمير بالنعمة الباقية في الدار الآخرة ، فتكون الآجلة خيراً لك من العاجلة ، يا أمير المؤمنين ! ما أجد شيئاً أبلغ في قضاء حقّك من أن أذكّرك نعمة الله عليك ، و أنبّهك لشكره ، ولا أجد في ذلك شيئاً أبلغ من حديث عن بعض سلف الملوك إن أذن لي فيه أمير المؤمنين ، قال هشام : هات ، فقال :

بلغني [١] أنّ ملكاً فيما خلا اجتمع له سعة الملك و فتى السنّ و صحّة الطباع و كثرة المال ، و كلّ ذلك يدعو إلى الباطل ، ويبعث على البطر والتناسي ، خرج في عام مثل هذا العام بناحية الخورنق والسدير [٢] فأشرف وأبعد النظر حتّى رجع نظره إليه حسيراً لطول ما سافر في عدده وعُدده ورجاله وماله .

فقال لمن حوله : لمن هذا ؟ قالوا : لك أبيت اللعن ! ثمّ نظر إلى نحو بلاد العجم فنظر إلى بياض الأنهار الجارية ، و شواخص الجنان الزاهية ، و أشراف القصور العالية فقال لمن هذا ؟ قالوا : لك أبيت اللعن ! فقال : عندما أعجبته نفسه و رأى مابسط من الملك له : هل أوتي أحد مثل ما أُوتيت ؟ فانبعث له رجل من جملة الحجبة فقال : أبيت اللعن ؟ سألت ماسألت أفتأذن في الجواب ؟ قال : نعم ، قال : أخبرني عمّا أنت فيه ممّا أعجبك أشيءٌ لم يزل ولم تزل فيه ، ولايزول عنك ولا تزول عنه ؟ أم شيء كان لمن قبلك ثمّ صار إليك ؟ قال : بل شيء كان لغيري ثمّ صارلي . قال : فهل عندك أمان من مثل مانزل بمن قبلك أن

---

(١) الخبر والابيات باختصار عند الاب شيخو (٣:١٦-١٧) وذكر أن الملك هو النعمان الاعور السائح باني الخورنق والسدير .

(٢) الخورنق قصر قرب الكوفة ، والسدير قرب منه ، ذكرتهما العرب في أشعارها و ضربت بهما الامثال في أخبارها . وكانا في ظاهر الحيرة بنى الخورنق أحد مهندسي الروم اسمه سنمار بأمر النعمان بن امرئ القيس (ويقال له المنذر و المحرق) نحو سنة ٤٠٠ م و قال أبو الفرج ، ان الذي أمر ببنائه هو يزدجرد ، وذلك لكي ينزل به ابنه الصغير «بهرام جور» خوفاً عليه عن علة اصابته ، فأشار عليه الاطباء أن يخرجه من بلاده الى بلاد العرب فأنفذه الى النعمان و أمر ببناء الخورنق وهو اليوم خراب بقي منه بعض الاثار المنبئة عن ضخمه ، واسمه اخذ من الفارسية ، معناه موضع الاكل والشرب وقال القزويني : بني في ستين عاماً . والسدير قيل : اسمه فارسي معناه القباب المتداخلة . وقيل : بل هو عربي سمي بذلك لكثرة شجره ونخيله . انظر الاغاني (٢:٣٦) ومجاني الادب (٢:٢٢١، ٣:٣٠٧) و شرحه : ٢٩٨ و ٣٧٠ .

لاينزل بك ؟ قال : لا ، قال : فلاأراك أعجبت بشيء يبقى ، إنّما سررت بشيء يفنى ، ولاتدوم لك بهجته ، ولايبقى عليك نعمته ، وتكون مؤاخذاً بتبعته غداً ، وربّما لم تنج عنها أبداً ، قال : صدقت فبما المخرج وكيف المذهب ؟ قال: إلى إحدى الخصلتين : إمّا أن تقيم في ملكك فتعمل بطاعة الله مؤثراً لها على هواك ، و إمّا أن تلبس أمساحاً[١] فتلحق بهذا الجبل حتّى يأتيك أجلك ، قال : فمالي إن فعلت إحدى الخصلتين ؟ قال : ملك عظيم لايظعن [٢] ، و نعيم مقيم لا ينفد ، وشباب ناعم لايهرم ، وعيش دائم لايبيد قال : فإنّي ناظر إلى نفسي و مختار لها إحدى الخصلتين ، فإن أقمت في ملكي كنتَ وزيراً لاتُعصى ، و إن اخترت بعض الفلوات كنت رفيقاً لا تجفى ، فإذا كان السحر فأتني تعرف رأيي ، قال : فلمّا كان الوقت الموعود أتاه الرجل فوجده قدألقى عليه أمساحاً وتهيّأ للزهد . فساحا جميعاً . وذلك قول عديّ بن زيد :

أيّها الشامت المعيّر بالدهر　　*　　أنت المبرّأ الموفور ؟
أم لديك العهد الوثيق من　　*　　الأيّام، أم أنت جاهل مغرور ؟
أين كسرى كسرى الملوك : أنو　　*　　شروان ، أم أين قبله شابور ؟
و أخو الخضر إذ بناه وإذ　　*　　دجلة تجبى إليه والخابور [٣]

---

(١) جمع المسح ـ بكسر الميم ـ هنا : ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفا .

(٢) ظعن : سار ورحل .

(٣) رواية أبي الفرج « الحضر » بالحاء المهملة . ونذكر خبرها وخبر أخوها من الاغاني (٢ : ٣٥) باختصار ، قال : الحضر كان قصراً بجبال تكريت بين دجلة والفرات ، وأخو الحضر هو الضيزن بن معاوية بن العبيد بن الاجرام من بني قضاعة ، ملك تلك الناحية وسائر أرض الجزيرة وكان ملكه قد بلغ الشام ، وانه أغار فأصاب اختاً لسابور ذي الاكتاف و فتح مدينة « نهرشير » و فتك فيهم ثم ان سابور ذا الاكتاف جمع بهم و سار اليهم و أقام على الحضر أربع سنين لايمكنه الفتح . و ان النصيرة بنت الضيزن حاضت فاخرجت الى الربض ـ و كذلك كانوا يفعلون بنسائهم اذا حضن ـ وكانت من أجمل أهل دهرها ، وكان سابور من اجمل أهل زمانه فرآها و رأته ، و عشقتها وعشقته ، وأرسلت اليه فوعدها ان يجعلها خير نسائه، فدلتها على طلسم المدينة ففتحها وقتل الضيزن . الى آخر ما ذكره مفصلا . و الخابور نهر بالجزيرة ، ذكره البكرى فى معجم ما استعجم (٢ : ٤٨١).

شاده مرمراً و جلّله كلـ * ـساً و للطير في ذراه وكور (١)
و تفكّر ربّ الخورنق إذ * أشرف يوماً و للهدى تفكير
سرّه ملكه و كثرة ما يمـ * ـلكه والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه و قال : وما * غبطة حيّ إلى الممات يصير ؟ (٢)
و بنو الأصفر الكرام ملو * ك الأرض لم يبق منهم مذكور (٣)
ثمّ أضحوا كأنّهم ورق جفّ * فألوت به الصبا و الدبور

هذا هو الحقّ لمن أبصر الرأي وهو رشيد ، والصدق لمن ألقى السمع وهو شهيد .

ولعلّه يشتبه حقيقة هذا الأمر على النفس إمّا لإظلام نظرها بسبب إحاطة الشبهات بها وا كتناف الشهوات لها ، وإمّا لغموض المسلك إليه وخفاء معناه وتشابه أقسامه . نذكر بعض ماقالوا في تحقيقه وتقسيمه وحرّروه من وصفه وتفهيمه .

قالوا : إنّ الزهد هو الرّغبة عن الشيء المرغوب فيه إلى ماهو خير منه ، وفي كتاب الله شاهد على ذلك إذ يقول في إخوة يوسف عليه السلام : « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » (٤) وصفهم بالزهد إذا أرادوا أن يخلولهم وجه أبيهم ، وكان ذلك أحبّ عندهم من أخيهم ، فباعوه رغبة عنه إلى ماهو أحبّ عندهم منه ، فإذاً من باع الدنيا بالآخرة ، إحداهما بالأخرى ، فهو زاهد فيها ، راغب في صاحبتها لغة ، إلّا أنّ بيع الدنيا بالآخرة هو الزهد في عرف الاستعمال ، كما خصّ الاستعمال الميل من الحقّ إلى الباطل بلفظ الإلحاد ، ومن كان راغباً عن الأشياء كلّها إلى شيء واحد جاعلاً همّه كلّه همّاً واحداً ، بحيث يرفض كلّ شيء عن قلبه ، ولا يريد غيره فهو الزاهد المطلق ، ومن كان راغباً عن كلّ مرغوب فيه من الدنيا وطالباً لما هو خير منه في الآخرة من نعيم الجنّة الباقيه فهو أيضاً زاهد و لكنّه دون الأوّل ؛ لثبوت الرغبة عن الشيء بالرغبة في مثله . والّذي يترك من حظوظ الدنيا

(١) شاد البناء : رفعه . الكلس : ما يقوم به الحجر في البناء ، ويتخذ منه باحراقه .
(٢) « ما » استفهامية والغبطة هنا : حسن الحال والمسرة وفي الاصل : حتى الى الممات تصير .
(٣) رواية الاغاني واللسان مادة (صفر) « ملوك الروم » وهو الصواب . قال ابن منظور : و بنو الاصفر : الروم ، وقيل : ملوك الروم ، قال ابن الاثير : لان اباهم الاول كان أصفر اللون .
(٤) سورة يوسف : ٢٠

الشيء دون الشيء ، كالّذي يرفض المال ويحفظ الجاه ، أو يتقلّل في القنية ، و يترفّه في المنعة ولا يتخطّى قدر الكفاية ، أو يجتزي في المطاعم ولا يدع التزيّن باللّبسة ، فدرجته بين الزاهدين في الدنيا درجة من يتوب عن بعض الذنوب دون بعض في التائبين، و كما أنّ التوبة عن بعض الذنوب دون بعض صحيحة فالزهد في بعض اُمور الدنيا دون بعض صحيح .

وربّما يكون صدق العزوف [١] عن بعض متاعها مرقاة إلى حسن العزوف عن جميعها ، و كما أنّ الاتّصاف بالرغبة عن الشيء زهداً بكونه مرغوباً فيه شرط ، فالقدرة عليه حتّى تصحّ الرغبة عنه مع التمكّن منه والميل إليه شرط أيضاً .

قيل لعبدالله بن المبارك : يا زاهد ! فقال: الزاهد عمر بن عبدالعزيز ؛ إذ جاءته الدنيا متبرّجة راغبة ، تركها راغمة .

وأمّا العجوز إذا طال عن يدها مجنى الإجّاص [٢] . فقالت : تضرّني الحموضات ! أو مثل ما قال بعض الشعراء :

مثل الثعلب لمّا * أن أتى للكرم رابض [٣]
قال للعنقود لمّا * لم ينله : أنت حامض

ولابدّ في إثارة هذه الرغبة عن إحداهما في الاُخرى بحالهما ، وعلى قدر العلم يكون الزهد في إحداهما والقصد للاُخرى ، والدنيا كالماء إلى الحدور في السيلان ، أو كالثلج عند الشمس في الذوبان ، والآخرة كالنجم في بقائه واعتلائه .

وبيع إحداهما بالاُخرى على قدر العلم في قوّته وضعفه حتّى أنّ من قوي علمه و صدق يقينه باع نفسه أيضاً مع بيعه ما فيها بالآخرة ، كما قال الله تعالى [٤] : « إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة » وقد رغّب عزّ وجلّ هذه المتاجرة . وأدنى أرباح هذه المعاملة كما قال [٥] : « فاستبشروا ببيعكم الّذي بايعتم به » و عرّفنا

---

(١) العزوف : الملال عن الشيء و الزهد فيه .

(٢) بكسر الهمزة وتشديد الجيم: الكمثرى .

(٣) الرابض هنا : العاجز .

(٤ و ٥) سورة التوبة : ١١٢ .

ـ معاشر عباده ـ خساسة أحد العوضين ، و نفاسة الآخر فقال عزّ من قائل [١] « قل متاع الدنيا قليل » وقال عزّ وجلّ [٢] : « وقال الّذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير » .

ولمّا قال رجل من الصحابة : اللّهمّ أرنا الدنيا كما تراه. قال رسول الله ﷺ : « لا تقل هكذا ولكن قل : أرينها كما أريتها الصالحين من عبادك » وذلك من قبل أنّ الله يراها حقيرة كما هي ، إذ كلّ مخلوق بالإضافة إلى جلال الله لاشيء ، و إنّ جلّ ذلك في نفسه و مقداره ، فكيف بالّذي هو بالإضافة إلى سماء الدنيا حتّى السماوات العلى بمنزلة النقطة الّتي لاحجم لها إلى الدائرة ، دع عنك ماوراء السماوات ؛ فإنّ حال السماوات منه حال الأرض منها . فالله عزّ وجلّ يحتقر الدنيا من حيث علمه بها و نظره في ذاتها ، والعبد يحتقرها لا بالنظر في عيبها ولكن بالإضافة إلى ماهو خير منها فيتركها له،وبايع الفرس وإن رغب عنه حتّى أباعه أي عرضه على البيع رغبة عنه فلا يراد في صورة الحشرات الّتي لاخير فيها ، فالمبايعة من كلّ أحد هو استبداله ماهو خيرٌ عنده بالّذي هو أدنى لديه [٣] فكذلك الزهد يقتضي ترك المزهود فيه ليصلح له أخذ بدله .

فيجب ترك الدنيا بأسرها مع أسبابها أغراضها وعلائقها وزخارفها وتليدها و طارفها فيخرج أوّلاً من القلب حبّها بحبّ الطاعات ، ويخرج جديدها من اليد و العين متاعها ، وصورتها باعتلاق القلب بالعبادات ، والنظر بالاعتبار في الموجودات وقطع مشاهدة الجزئيّات بتصوّر الكلّيّات،وإلّا كان المرء فيما يدفع بمنزلة من سلّم المبيع ولم يأخذ الثمن ذلك هو الخسران المبين .

وليس من الزهد ترك الدنيا على سبيل السخا بأموالها ، وإستمالة قلوب أهلها بمتاعها فكلّ من ذلك وإن كان محمولاً و في أحكام الفتوّة معدوداً ولكن لا مدخل لها في الزهد ، ولا بمثل ما يفعله الشيخ عمّ الفتّال من قبوله بعض غسالات أيدي الناس و وقفه ذلك

---

(١) سورة النساء : ٨٦ .

(٢) سورة القصص : ٨٠ .

(٣) الصواب ان يقال : استبداله ماهو أدنى عنده بالذى هو خير لديه ، قال تعالى : « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » . البقرة : ٦١ .

على المسجد الّذي هو حليفه ، والرباط الّذي هو نزيله ، فكلّ ذلك ترقيع خُلقان [١] بخلقان .

إنّما الزهد فيها تركها على أهلها (أهليها ل) بسبب خساستها ، رغبة في الآخرة لأجل نفاستها ، ألا ترى أنّه قد يسخو بها على عفاته (؟) من لا يؤمن بالآخرة ، ويتحلّى بشعار المروءة والفتوّة من لا مركب له في حلبة الزهادة ، ولا ذوق له من شرب الإرادة .

و إنّما الترك لها ينبغي أن يكون مثال ما تركه الزهّاد مثل إبراهيم بن أدهم وأشباهه ، غير الأنبياء والأولياء والأئمّة المعصومين؛ فإنّهم لمّا أخلصوا العبادة واستبدلوا بالدنيا الآخرة [٢] ، وأعتاضوا بالنوم السهر ، وبالراحة النصب ، فكان أحدهم يصلّي الفجر بوضوء العِشاء ويؤخّر الغداء إلى العَشاء ، وترك كلّ منهم ما كان له من الأموال ، وأخرجها من ملكه في سبيل الله .

ثمّ الزهد في نفسه مختلف متفاوت ؛ فمن زاهد في الدنيا وهو لها مشتهي وإليها ملتفت يُذيب نفسه ثمّ كيسه ، و هو بالمتزهّد أشبه فإنّ الزاهد أوّلاً يذيب كيسه ثمّ يذيب بدنه في الطاعة ، ويذلّ فلسه ثمّ يذلّ نفسه بالزهادة ، لا أنّه يقاسي الصبر على ما فات ، بل يعاني النصب فيما يفعل .

ومن زاهدٍ ترك الدنيا احتقاراً لها بسبب و شك فنائها [٣] وخسّة شركائها فيذهب بنفسه من كبرها عنها ، فهو ربما ينظر في نفسه و يلتفت إلى حاله و إباء نفسه ، فيعزف عن محاسنها .

ومن زاهدٍ كما زهد عنها طاوياً كشحه منها، ولاوياً صفحه دونها، ولم يعرّج على نفسه ولم ينظر في زهده وهو المبرّ بفضله على الزهّاد ، المطلّ بشأوه على جميع العباد ، العارف بجميع أُمور الدنيا و الآخرة ، الحائز لشرف الحالين بصدقهما، ومثله لم يترك ولو بالمجاز شيئاً وأخذ على الحقيقة كلّ شيء ، فيكون كمن ترك روثة وأخذ لؤلؤة فيكاد سروره وطهارة

---

(١) جمع الخلق - بفتح الخاء واللام - : الشيء البالي ، للمذكر والمؤنث .

(٢) الصواب هنا أيضا : واستبدلوا الدنيا بالاخرة .

(٣) الوشك مصدر بمعنى السرعة .

يده عن البعرة[١] يعادل سروره باشتمالها على الدرّة ، ومثل هذا الزاهد مأمون العيب عن أخطار الدنيا بالبال ، سالم الجَيب عن تقلّب الأحوال ، كما أنّ معتاض الدرّة عن البعرة آمن من الاستقالة ، ناج من الوضيعة .

قال أبو يزيد لأبي موسى بن عبدالرحيم : فيما تتكلّم ؟ قال : في الزهد عن الدنيا ، فنفض يده وقال : ظننّا أنّك تتكلّم في شيء ، الدنيا أيشَ حتّى نزهد فيها ؟

ومثال ذلك من قصد إلى دار ملك يتقرّب إليه بسبب جماله وحسن وجهه ، و طيبة المقام في داره ، فمنعه من دخول الباب كلب بالباب فألقى إليه كسرة خبز حتّى اشتغل بها ودخل الرجل الدار، أفتراه بتلك الكسرة الّتي ألقاها عن يده مع ما انتهى إليه من قرب الملك ونعيم الأبد خسر شيئاً ؟ فالشيطان كلب على باب الله يمنع عنه عباد الله والدنيا لقمة إن تلذّذت بأكلها مضغة تأذّيت بثقلها ثمّ نتنها ورجيعها مدّة ، تأكل لحمك كما أكلت ، وتشرب دمك كما شربت ، وتنقّصك الأرض كما نقّصت ممّا عليها ، حتّى تُدال[٢] منك ولا تبقي عليك ما لم تفنَ عنها اختياراً أو اضطراراً أو لنسبة جميع الدنيا مدّة حياتها بالإضافة إلى نعيم الآخرة و بقائها أقلّ من نسبة تلك البعرة أو هذه اللقمة إلى جميع زخرف الدنيا ومتاعها ، و كيف يمثّل الفاني البائد[٣] بالباقي الخالد ؟ وأنّى تقريب الكدر الشائب بالصافي الخالص ؟ ومن أين تشبيه الجزء الّذي لا يتجزّى بالشيء الّذي لا يتناهى ؟ فإذاً لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلّا وقد نظر إلى ما زهد فيه و اعتدّ به . ولا يعتدّ به إلّا من قصور علمه بما زهد فيه لأجله ، ولا يتمّ عمله[٤] إلّا بنور من ربّه ، وروح من أمره ، يهدي به من يشاء من خلقه ، ولا يكون زهد مثله لارتياعه[٥] من طلب الآخرة ، ولا ارتياحه[٦] بنعيم الجنّة كما يكون زهد الخائفين أو ارتياع الراجين .

فأتته ما ارتاحت بحسن ظبائها * وهناً ، ولا ارتاعت لزأر أُسودها

(١) البعرة ، رجيع ذوات الخف والظلف .

(٢) أي ينزع منك و يحول الى غيرك ما كان لك من الاموال و غيرها . و يحتمل أن يكون الصحيح « تدان » فيكون من الدَّين المشهور « كما تدين تدان » وهو من دانه بمعنى جازاه .

(٣) باد الشيء : هلك .

(٤) ولعل الصحيح « علمه » بقرينة ما سبق .

(٥) افتعال من الروع بمعنى الفزع وقد يأتي بمعنى « ارتاح » .

(٦) افتعال من الروح ، أي سر ونشط .

بل لايكون ذلك لشيء إلّا لله وطلب الزلفى لديه ، والوصول إليه فيكون زهده زهد الموحّدين الّذين أصبحوا و همومهم همّ واحد لا يطلبون غيرالله ولا يأنسون إلّا به ، كما قيل: إنّ العارفين وحش الله في الأرض ! لا يأنسون بغيره . ومثل أُولئك الخالفين الراجين و إن وصلوا إلى نعيم الجنّة مثل الصبيّ المستأنس إلى عصفوره ، اللاّعب بحمامه ، المشغول عن نعيم الملك السعيد ، المتبرّج بزينة الدنيا في صحن إيوانه ، ذلك لقصورحاله عن إدراك عزّ الملك ونفاذ الأمر وعلوّ السلطان .

مرغى كه خبر ندارد ازآب زلال * منقار درآب شور دارد همه سال

وقد قسّموا ورع الأنفس حسب ما قالوه في زهدها ، ورتّبوه على أربع درجات :

الأولى هي الورع عمّا يوجب ارتكابه التفسيق ويسقط العدالة عند القضاة و فتوى الفقهاء ، وهذه أدنى درجات الورع .

والثانية ورع الصالحين ، وهو الحذرعمّا يتطرّق إليه شبهة الحرمة وإن ساغ ذلك في الفتوى ، وهو الّذي قال فيه رسول الله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

والثالثة ورع المتّقين ، قال رسول الله ﷺ : « لا يبلغ الرجل درجة المتّقين حتّى يترك ما لا بأس به مخافة مابه بأس» وقال بعض الصحابة : « كنّا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام » ومن هذا كان بعضهم إذا استحقّ عشرة دراهم اقتصر على تسعة و ترك الواحدحاجزاً بينه وبين النار ، وكان آخر يأخذ مايأخذ بنقصان حبّة ويعطي مايعطي بزيادة حبّة ، فربما يتورّع المتّقي من الأطمعة الشهيّة و من لباس الزينة خيفة أن تجمح به النفس الأمّارة بالسوء إلى مواقعة محظور ، وربما لا يمدّ العين إلى ما متّع به الناس لئلاّ تتحرّك دواعي الرغبة فيه على ما قال الله تعالى [1] : « ولا تمدّنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا » ومّما يروى عن المسيح عليه السلام : « لا تنظروا إلى أهل الدنيا فإنّ بصيص [2] ثيابهم وبريق أموالهم يذهب بحلاوة إيمانكم » ومن قولهم : « من رقّ ثوبه رقّ دينه » وفسّر لباس التقوى الّذي وصفه الله بالخير ، بالصوف الخشن .

---

(١) سورة طه : ١٣١.

(٢) البصيص : البريق واللمعان .

الرابعة ورع الصدّيقين وهو توقّي ما لا يراد بتناوله القوّة على الطاعة أو يلمّ بصاحبه بعض خواطر المعصية ، كما يحكى أنّ ذا النون المصريّ كان محبوساً فكانت تبعث إليه امرأة صالحة بطعام تشتريه بغزلها ، وكان يقاسي الجوع ولا يتناول منه ويقول : إنّه جاء على طبق حرام - يريد السجّان - و لم يكن بشر الحافي يشرب ماء الأنهار الكبار الّتي يحتفرها السلاطين ، وأطفأ بعضهم سراجاً أشعله غلامه من دار ظالم ، وشرب بعضهم الدواء وأشير عليه بالمشي فقال : لم أمش قطّ في غير طاعة ولا أعرف لمشيتي هذه وجهاً فيها .

و أمثال هذه الأفعال إنّما توجد في غشّ [١] نفس وفت بقول الله تعالى [٢] : «ثمّ زرهم » فرأت كلّ ما لم يكن لله حراماً عليها فادّرج أنت عنه يا أخي إلى قِطار [٣] الدرجة الأُولى من الورع ممّا يقدح في العدالة ويسقط الشهادة .

وأنت يا سيّدي ويا أيّها الصالح المهتدي إيّاك أن تغترّ برخص الفتاوى بأنّ مطامح نظرها مجاري اُمور السياسيّة الدنياويّة من القانون الّذي يستعمله الاُمراء والقضاة و مواضع قياساتها موارد المعتادة من الأحوال المعتورة [٤] من الأمر المشاهديّ الّذي يقع به الامتثال على مفهوم الخطاب ، فينظرون في الزكاة إلى ما يسقط به طلب الساعي ، وفي الصلاة إلى ما تدرء تعزير الوالي وفي أكثر الأحكام إلى ما هو تخلية الأقسام ، و مقصود الصلاة الازدلاف وليس في الخراج منها ازدلاف ، ومقصود الزكاة من مهلكة البخل كما في الحديث: « ثلاث مهلكات : شحّ مطاع . الحديث [٥] » و هبة الرجل ماله من زوجته في آخر الحول واتّهابه مالها ليدرء بذلك الزكاة عن أنفسهما ثمّ ترادّهما هو الشحّ المطاع ، فكيف يتوخّى بمثله للنجاة ؟

و كذلك من يلجيء زوجته بإساءة معاشرته إيّاها حتّى تعفو عن صداقها ، فإنّ ذلك

---

(١) كذا في الاصل ، والمعنى المناسب للغش هنا : سواد القلب .

(٢) سورة الانعام : ٩١ .

(٣) القطار من الابل : قطعة منها يلى بعضها بعضاً على نسق واحد .

(٤) اى الاحوال المتداولة بين الناس ، من : اعتور القوم الشى بينهم ، أى تعاطوه وتداولوه

(٥) رواه الحرانى فى التحف : ٨ والصدوق فى الخصال باسناده الى سعد بن طريف عن الامام الباقر عليه السلام ، قال «وامّا الثلاث الموبقات ، فشحّ مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه » .

حرام محرّم ، وإن كان يفتي الفقيه بصحّة الإبراء مع قول الله [١] : « فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً » .

و كذلك السؤال على الملأ حرام فربّما يعطى بالحياء لا عن طيبة نفس ورضى ، فإنّ المستحيي يستخفّ ألم إزالة الملك في جنب ألم الحياء ، ويستهين بما كفّه لإجاء [٢] وجهه ولا فرق بين أن يأخذ ماله بما يؤذي به ظاهره من قوارض [٣] اليد وبين أن يأخذ ماله بما يؤذي به باطنه من قوارض القول فالكلّ مصادرة . و كذلك إذا سألت من وجه ورعك و تقواك فقد أكلت بدينك ، و إذا اعتضت عن زهدك في دنياك أوساخ الناس فما الّذي تطلب به من مولاك ؟ فكلّما بيع فقد زال عن الملك ، هذا إذا كنت زاهداً متّقياً ، فأمّا إذا أكلت به وأنت فيه كاذب فقد أخذت العوض عمّا ليس لك ، فليت شعري فما الّذي تفتي فيه الفقهاء ! [٤] .

---

(١) سورة النساء : ٤ .

(٢) جمه وأجمه : حازه و جمعه لنفسه .

(٣) جمع القارضة من قرضه : قطعه .

(٤) ما ذكره ـ رحمه الله ـ انما هو طريق يرتضيه المتقشفون الذين اطلق عليهم لفظ « الزاهد » ولا يليقون به ، وليس هو شيئا يستوى به أمر الجماعات والحشود من الناس ، ولو عمل الامم بهذا البرنامج لاختل نظامهم وتشتت شملهم وآل الامر الى التوحش ، وتلك اذا قسمة ضيزى من الحياة ، وقد قال تعالى في سورة القصص الاية ٧٧ : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » وقال رسول الله صلى الله عليه وآله (الكافى ٥ : ٧١) : « نعم العون على تقوى الله الغنى » وقال الصادق عليه السلام (الكافى ٥ : ٧٢) : « نعم العون الدنيا على الاخرة » فكأن الدنيا والاخرة عدلان على بعير لا يستقيم الابتعادلهما . وناهيك حجة على ماذكرنا ما وصل الينا من سيرة الرسول وأئمتنا المعصومين صلوات الله عليه وعليهم .

واما الزهد في الدنيا فقد حدد حدوده اهل بيت العصمة فيما روى عنهم فانظر مارواه الكلينى رحمه الله في الكافى (٥ : ٧٠ ، كتاب المعيشة) عن أبى الطفيل قال : سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول : « الزهد في الدنيا : قصر الامل و شكر كل نعمة و الورع عن كل ماحرم الله عز وجل » وعن السكونى عن ابى عبدالله عليه السلام « قال : قلت له ما معنى الزهد في الدنيا ؟ قال : ويحك ؛ حرامها فتنكبه » و عن اسماعيل بن مسلم عنه عليه السلام : « ليس الزهد في الدنيا باضاعة المال ولا تحريم الحلال ، بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما عند الله عزوجل » وهذا هو الكلم الطيب الذي يصعد الى الله ، والاخذ به هو العمل الصالح الذى يرفعه ، وهو الموافق لمذاق ـ

فالأولى بالرجل أن لايرضى عن نفسه ولا ينظر بعين الإحماد إلى فعله . بل ينبغي أن يراجع عقله ، ويستفتي قلبه كما قال عليه السلام : « استفت قلبك و إن أفتوك وأفتوك »

ومن الأمثلة الّتي ضربوها للزهد في الدنيا والصروف عن زخارفها أنّها كالظلّ الّذي ينحسر وهو في حالة امتداده سائر غير ساكن و ذاهب غير ثابت ، وإن كان لاترى ذهابه ورواله ، فالظلّ متحرّك بالحقيقة ، ساكن في الظاهر ، حتّى يظهر حقيقته ويبطن ظاهره .

وكان الحسن بن عليّ عليهما السلام يقول : « إنّ اغتراراً بظلّ زائل حمق » وأنشد :

أحلام نوم أو كظلّ زائل * إنّ اللبيب بمثلها لايخدع

وإنّ امرءاً دنياه أكبر همّه * لمستمسك منها بحبل غرور

وفي أخبار عيسى عليه السلام أنّه كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوزة شمطاء[1] عليها من كلّ زينة ، فقال لها : كم تزوّجت ؟ قالت : لا أحصيهم ، قال : فكلّهم قد مات عنك أو كلّهم طلّقك ؟ قالت : بل كلّهم قتلت! فقال عيسى عليه السلام : بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا

← الشريعة السهلة السمحة التي أتاها المنقشفون من غير بابه وأخذوه من غير أهله فتاهوا وبقوا حياري لايدرون اين يتوجهون .

اما ما ذكره من أفعال مشائخ الصوفية فنحن في ريب من صحتها أولا ومن حسن جميعها ثانياً ومن وقوعها على غير وجه الرياء ثالثاً ، كيف وقد مر قبيل هذا من بشر الحافي أنه لم يكن يشرب ماء الانهار الكبار التي يحفرها السلاطين ، مع ماعرفته في ص٧٢ عند ترجمته أنه طلب من اسكاف شسعاً لاحد نعليه فقال : ما اكثر كلفتكم على الناس يا أهل الطريقة ! وهذا يشعر بأنه انما طلبه بلاعوض وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام (الكافي ٥ : ٧٢) «ملعون ملعون من ألقى كله على الناس» واين هذا الطريق من طريق الفقهاء الذين لهم الناس كله مع الناس ، وعليهم ارشادهم في امور دينهم ودنياهم ؟ و ليت شعري هل الفقيه يفتي من عند نفسه وهوى رأيه أو مما وصل اليه من ادلة احكام هذه الشريعة السمحة؟ وهل الازراء به الا استهزاء بها ؟

ونعم ماقاله أبو حامد القاضي (يأتي في ص١٢٧) : ان ما يقوله جفاة الصوفية فهو قول يقولونه لافعل يفعلونه ، وهل هم الاجملة كلهم على غيرهم ، وتناولهم ما يشتهون من كد غيرهم . فلو صح لهم زهد لزهدوا عما في أيدي الناس وسوامع الساعين .

(١) بهامش الاصل : الشمط - بالتحريك - بياض شعر الرأس يخالط سواده ، والرجل شمط ، و المرأة شمطاء . مجمع البحرين .

يعتبرون بأزواجك الماضين ؟ .

وقال العلاء بن زياد : رأيت في النوم عجوزاً شوهاء [١] ذات لون حائل [٢] ، وجلد قاحل [٣] وشدق [٤] مائل ، وفرج بائل [٥] ، ورأيت أُناساً يتهارشون عليها ويقبلون بكلّيّتهم إليها فقلت لها : من أنت ؟ قالت : أوما تعرفني ؟ إنّي أنا الدنيا ، فقلت : أعوذ بالله من شرّك ، قالت : إذاً فاهجر المنقوش ، ودع عنك أمر الغد .

وحدّث الفضيل بن عياش عن ابن عبّاس قال: تؤتى الدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء شوهاء سوداء ، لايطاق النظر إليها لقبحها ، ولا الدنوّ منها لنتنها ، فيقال : تعرفون هذه ؟ فيتعوّذون بالله من معرفتها ، فيقال: هذه الدنيا الّتي تشاجرتم عليها، ثمّ تقذف في جهنّم فتنادي : أي ربّ : أين أتباعي وأشياعي ؟ فيقول الله : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها .

و في الحديث تمثيل الدنيا وصاحبها بالماشي في الماء ، هل يستطيع الّذي يمشي في الماء أن لايبتلّ قدماه ؟

وفي حديث آخر : « مثل هذه الدنيا مثل ثوب شقّ من أوّله إلى آخره فبقي متعلّقاً بخيط في آخره فيوشك ذلك أن ينقطع » .

وفي آخر : « مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلّما ازداد شرباً زاد عطشاً حتّى يقتله » .

وعن الحسن قال : بلغني أنّ النبيّ ﷺ قال لأصحابه : « إنّما مثلي ومثلكم و مثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ، حتّى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو مابقي ، أنفدوا الزاد وخسروا الظهر ومقتوا بين ظهراني المفازة ، لازاد ولا حمولة ، فأيقنوا

---

(١) بهامش الاصل : رجل أشوه : قبيح المنظر ، وامرأة شوهاء .

(١) » » : حال لونه اى تغيروا سود . مجمع البحرين .

(٣) » » يقال : قحل ـ من بابى منع وعلم ـ قحلا: اذا التزق جلده بعظمه من الهزال والبلى . مجمع البحرين .

(٤) بهامش الاصل ، الشدق بالفتح والكسر جانب الفم ، و الشدق بالتحريك : سعة الشدق .

(٥) من بال يبول بولا .

بالهلكة ، وبينماهم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حَلّة بقُطر رأسه[١] فقالوا : هذا قريب عهد بزِلف[٢] ، فلمّاانتهى إليهم قال : ياهؤلاء ! قالوا : ياهذا ! قال : على ما أنتم ؟ فقالوا : على ماترى ، قال : أرأيتكم إن هديتكم على ماء رواء ورياض خضر ما تعملون ؟ قالوا : لا نعصيك شيئاً ، قال : أعطوني عهودكم و مواثيقكم ،فأعطوه عهودهم لا يعصونه شيئاً فأوردهم ماءً رواء ورياضاً خضراء فمكث فيهم ماشاءالله .

ثمّ قال : ياهؤلاء ! قالوا : ياهذا ! قال : الرحيل ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى ماء ليس كمائكم ،وإلى رياض ليس كرياضكم ، فقال أكثرهم : والله ماوجدنا هذاحتّى ظننّا أن لن نجده ، وما نصنع بعيش خير من هذا ؟ و قالت طائفة ـ وهم أقلّهم ـ : ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم بالله لاتعصوه شيئاً ؟ وقد صدقكم في أوّل حديثه فوالله ليصدقنّكم في آخره . فراح[٣] فيمن اتّبعه ، وتخلّف بقيّتهم فيدركهم[٤] عدوٌّ فأصبحوا من بين أسير وقتيل .

ومن أمثلتهم في هذاالباب قولهم : إنّهم في حال اُناس ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى بعض الجزائر ، فخرجوا إليها بحوائج يقضونها ، و حذّرهم رُكّاب السفينة الإبطاء .

فمن بين مبادر في الرجوع لم يعوزه أوسع الأماكن وأوفقها .

ومن بين متوقّف يستمع بأزهارها الفائحة ، وأنوارها الضائعة[٥] ، وثمارهاالياتعة، وأطيارها الصادحة الشادية[٦] ، وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والصور والأشكال ، إلّا أنّه لمخافة[٧] أن تسير السفينة يجدّ معاجلاً إليها أسرع العود وأعجل في الرجوع،فهو وإن لم يتهيّأ له من فسحة المكان ـ بسبب الاستمتاع بالنظر و الاستيناس بالصور ـ ماتهيّأ

---

(١) الحلة ـ بفتح الحاء ـ هنا الزنبيل الكبير من القصب . و القطر ـ بالضم ـ الناحية و الجانب ، أى كان زنبيل على رأسه .

(٢) الزلف ـ بكسر الراء ـ : الروضة .

(٣) اى راح الرجل الذى هداهم .

(٤) الصحيح : فأدركهم .

(٥) الضائعة : المهملة ، اومن تضيع المسك : انتشر .

(٦) صدح الطائر ـ من باب منع : رفع صوته بغناء فهو صادح . والشادى بمعناه .

(٧) فى الاصل : لمخالفة .

للأوّل إلّا أنّه لمّا لم يثقل بأوزارها لم يصبه من أثقالها ماأصاب مستصحب تلك الأحجار الرائقة من معادنها ، والثمار المونقة من أشجارها ، وهذا الّذي حمل منها ما حمل لم تسعه السفينة خالياً مخفّفاً فكيف مثقلاً ، فهو على أخذ ما أخذ منها نادم ، وعليه سادم [١] و لا يفارقه المحمول ليستريح ولا هو لحمله يطيق .

فأمّا من توغّل الغياض [٢] وتولّج في الرياض ، وأبعد في مسيره عن السفينة حتّى نسيها فلا هو يسمع نداء الركّاب ، ولا هو يأمن ركوب الآفات والأخطار ، ولا هو يتمكّن لكثرة العوائق والحوادث من العود ، فهم من بين فريسة السباع و من تائه على وجهه حتّى يهيم في أودية البليّات ، بعيداً عن الوطن عادماً للأهل والسكن ، حاصلاً على شفا جُرُف هارٍ ينهار إلى النار [٣] .

فهذه أمثلة طلّاب الدنيا ، و كلّ ذلك يدعو إلى الزهد فيها ، والرغبة عنها ، ولا يتمّ الزهد فيها إلّا بأربع خصال : صفاء النفس عن كدورة الدنيا ، وطهارة القلب من أدناسها ، والأُنس بذكر الله ، والحبّ له . وصفاء النفس وطهارة القلب لايكونان إلّا بالكفّ عن الشهوات ، والأُنس والحبّ لا يتمّان إلّا بكثرة الذكر ودوام الفكر .

و كلّ ذلك من الباقيات الواقيات . تناضل عن العبد ، فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه ، وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه . فتكون الأعمال الصالحة من المنجيات .

فأمّا ما يرجع إلى صفاء النفس وطهارة القلب فإنّه من المُسعدات يسعد العبد بالزلفى و القبول ، و يبلّغه مأوى الكرامة المأهول ، فهذه السعادة تعجّله عقيب الموت ، أوائلها ، إلى أن تنتهي إلى حقيقة اللّقاء مصائرها ، فإنّه عقيب الموت يصير القبر روضة من رياض الجنّة ، كيف لا و لم يكن له إلّا مونس و إلّا محبوب واحد ؟ و كانت العوائق

---

(١) رجل سادم : مغتاظ .

(٢) جمع الغيضة - بالفتح - وقد ذكرنا انها الاجمة ومجتمع الشجر .

(٣) قد تقدم معنى « الشفا » وانه طرف كل شيء وحدّه . والجرف : الجانب الذى أكله الماء من حاشية النهر فهو « هائر » و « هار » كما يقال : شائك السلاح وشاكى السلاح . وانهار البناء : انهدم وسقط .

تعوّقه ، والموانع تصدّه عن الأُنس بدوام ذكره ومطالعة جماله فقد ارتفعت العوائق ، و انحلّت الشُكل[١]، وأفلت المسجون ، وتجلّى المحبوب ، فقدم المحبّ عليه مسروراً ناجياً من الآفات ، آمناً من روعة الفراق ، و كلّ ذلك لزهده فيما كان يصدّه منه ، ويعارضه دونه .

فأمّا محبّ الدنيا فكذلك لم يكن له إلّا محبوب سلب منه ، وغصب عليه ، و حيل بينه وبينه ، وسدّت عليه طريق الرجوع إليه ، وإعمال الحيلة فيه .

ماحال من كان له واحد * يؤخذ منه ذلك الواحد

وليس الموت إلّا مفارقة أحوال الدنيا وما تحبّبه النفس منها ، بالقدوم على الله ، ولا الدنيا شيء سوى ماقرّب من النفس عند استعماله البدن ، ولا الآخرة سوى الانتهاء إلى ما تأخذ عنها ، ثمّ فاجأها عند ترك هذا الاستعمال . فكلّ دان من النفس دنيا ، و كلّ مابعد الموت فهو آخرة وهذا العارض بينهما على ماقاله الصديق : أشدّ ماقبله وأهون مابعده .

فإذاً سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الخلال الأربع الّتي هي الصفاء والطهارة والذكر والفكر ، وحاصلها كلّ مايفطمه عن شهوات الدنيا ويبغّض إليه ملاذّها ويحمله على أعمال الخير ويهوّن عليه صعابها و كلّ ذلك لايمكن إلّا بالبدن وقوّته .

ولابدّ في ذلك من أسباب نصح وتقوى معها فالقدر الّذي لابدّ في ذلك منه إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا ، وكانت الدنيا في حقّه مزرعة الآخرة ، ومرحلة السفر ، ومناخ الظاعن[٢] ، ومنزل الراحل . وإن أخذ ذلك بحظّ النفس وعلى قصد الإخلاد إلى الدنيا والتنعّم بملاذّها صار من أبناء الدنيا والراغبين فيها ، إمّا استخفافاً لعذاب الآخرة ، ويسمّى ذلك حراماً ؛ وإمّا حيلولة بينه وبين الدرجات العلى وتعريضاً لطول الحساب ويسمّى ذلك حلالاً . وطول الموقف للحساب ، فمن نوقش في الحساب فقد عذّب[٣] ، و إذا كان حلالها حساباً كان أيضاً عذاباً إلّا أنّه عذاب أدنى دون الأكبر ، بل لولم يعقّب حساباً وإنّما يلحقه فوت الدرجات العلى لكان مايرد على القلب من هذا التحسير أيضا عذاباً ، ألاترى أنّه إذا سبقك

(١) بضمتين ، جمع الشكال ـ بالكسر ـ حبل يشد به قوائم الدابة .
(٢) المناخ : محل اناخة البعير . الظاعن : المسافر .
(٣) انظر الفائق للزمخشري مادة (نص) .

أقرانك وأشكالك بسعادات دنياوية كيف تقطعت نفسك عليها حسرات ؟ مع أنها زائلة حائلة، طيارة فرارة، مشوبة بالكدورات،محفوفة بالمنغصات ، فكيف بفوات مالايحيط أعلى الوصف بأدناه ، ولا ينتهي من الانتهاء إلى مداه .

وكان سليمان النبي عليه السلام يطعم الناس لذائذ الأطعمة وهو يأكل خبز الشعير . جعل الملك على نفسه بذلك امتحاناً .

فالصبر عن الشهوات مع الإمكان أشد، والعزوف عنها مع قرب المتناول أشق .ومن هذا تُزوى الدنيا عن الأنبياء والأولياء الأمثل منهم فالأمثل ، وهي كما يحمي الأب العطوف ولده ممّا يضرّه من لذيذ الفواكه وشهي الحلاوي حبّاً له لابخلاً عليه ، فإذاً كلّ ما كان حظّ المرء في العاجل فهو الدنيا ولايمكن أن يكون لله تعالى ، كما قال الله تعالى [1] : « اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد » وهذه الأوصاف هي ماذكره الله تعالى بقوله [2] : « زيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا » .

ومن الأشياء ماصورته الدنيا وهو لله وهو كلّ مايستعان بقدر الحاجة منه على التقوى والعبادة ، وإن كان في مطعم يناله ، أوملبس يصيبه ، وعلى العكس إذا أُريد بالكفّ عنه التشوّق والاشتهار .

وفي الحديث:«من طلب الدنيا حلالاً مفاخراً لقي الله وهو عليه غضبان ، ومن طلبها استعفافاً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر» .

وحدّث الطنافسي قال : كنت على باب بني شيبة في المسجد سبعة أيّام طاوياً فسمعت الليلة الثامنة و أنا بين اليقظة و النوم : ألا ! من أخذ الدنيا أكثر ممّا يحتاج إليه أعمى الله تعالى عين قلبه ، وصرف عنه محاسن نفسه .

وإنّما ذلك من قبل أنّ الدنيا مع العبد علاقتان [3] : علاقة مع النفس وهي حبّه لها ويشتمل ذلك على جميع صفاتها المتعلّقة بالدنيا من الكبر والغلّ والحسد والريا والمداهنة

(١) سورة الحديد : ٢٠ .
(٢) سورة آل عمران : ١٤ .
(٣) الصواب : ان للدنيا مع النفس علاقتين .

وسوء الظنّ وحبّ الثناء وإيثار التكاثر والتفاخر . وعلاقة أُخرى مع البدن وهي الاشتغال بإصلاح أعيان موجودة لإتمام أغراض مقصودة ، فيشتمل ذلك على جميع الحرف والمهن .

فالقلب إنّما تعمى عينه عن إبصار ما عليه أمره في الحال والمآل إذا تشبّث به علاقات النفس وعلاقات البدن ؛ علاقات النفس بالهوى ، وعلاقات البدن بالشغل . والحاجّ وإن كان قصده زيارة البيت لا ركوب الراحلة ولكنّه لابدّ [له] في الوصول[1] إلى البيت من مركب يركبه يسير عليه إلى مقصده و هذا البدن أيضاً مركب النفس يقطع به العبد مسافة العمر إلى ربّه ، وهذه الأعيان الّتي هي الدنيا لم تخلق إلّا لعلف هذا المركب الّذي يسير به العبد إلى الله تعالى ، فإنّ البدن لا يبقى إلّا بمطعم وملبس ومسكن ، كما لا تبقى الراحلة في طريق الحجّ إلّا بمثل ذلك .

و مثال العبد في توفّره على البدن ونسيانه أمر المسير إلى الآخرة مثال الحاجّ الّذي لا يزال في طريق الحجّ على إصلاح أمر الراحلة مكبّاً ، ونحوه تعهّدها و ترفيهها في المربع الخصيب والمورد القريب منصبّاً ، حتّى تفوته القافلة غافلاً من الحجّ ، ناسياً للمقصد ، وعلى العكس إذا لم يعرّج [2] على راحلته إلّا بالقدر الّذي لابدّ منه من قوّته على السير ويكون نافذ الصريمة [3] مستقرّ العزيمة نحو المقصد ، حتّى يسبق الوُرّاد ويحظى بالمراد . فكذلك الراحل المجدّ نحو الآخرة على مركب البدن ، لا يقبل عليه ولا يشتغل به إلّا بقدر الضرورة الداعية إليه ، كما يأتي المستفرغُ الكنيفَ عند الضرورة .

ولا فرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراجه من البطن في أنّ كلّ واحد منهما ضرورة البدن ، ومن همّه ما يدخل في بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه . ولو عرفوا لما وقفوا ولكنّهم جهلوا فغفلوا ، حتّى تتابع الشغل واتّصل الكلّ تائهين من كثرة الاشتغال في أودية النسيان ، قانعين من الربح بالخسران ، ومن الزيادة بالنقصان ، هاوين لا يخلص أحد عن هاوية من مهاويها ، إلّا ويقع في أبعد منها أعماقاً ، ولا يفكّ عن سبب من علائقها إلّا ويعتلق بأمرّ منها إيثاقاً .

---

(١) بين المعقوفين زيادة منا ليست في الاصل .
(٢) عرج على المكان وتعرج : حبس مطيه عليه وأقام فيه .
(٣) الصريمة : العزيمة .

ثمّ إنّهم تفرّقوا على ذلك أحزاباً ففرقة لم يتجاوز نظرهم أُمور معاشهم في الدنيا ما عاشوا فهم يكدحون في كسب القوت ليأكلوا ، ويأكلون ليقووا على الكسب ، يتعبون نهاراً ليأكلوا ليلاً ، ويأكلون ليلاً ليتعبوا نهاراً ، تراهم دائبين ، لا يستريحون إلّا بالموت .

وفرقة أُخرى كانوا أبعد من هؤلاء نظراً ، فظنّوا أنّه من الغناء دوام الكدّ من غير راحة ، وطول السير من غير جمام ، فآثروا بما في أيديهم قضاء الأوطار والتمتّع بالمسار ، يأكلون كما تأكل الأنعام ، ويلعبون كما تلعب الصبيان .

وأُخرى ظنّت السعادة في الجمع والتكاثر ، يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون مالا يسكنون ، يبخلون على أنفسهم بما يجمعونه ، ثمّ يتركونه لمن لا يحمدهم ممّن يورّثونه ولا يعتبر بهم معتبر ، ولا يزدجر عن سوء عاقبتهم مزدجر .

وأُخرى ذهبت في ذلك إلى التفاخر و المراء ، ومراعاة دواعي المدح والثناء يصرفون كدّهم ووُكدهم[١] في الملابس الحسنة ، والدوابّ النفيسة ، والغلمان الزوقة[٢] ، والدور العالية ، والآلات الفاخرة ، حتّى يقول الناس بأنّهم ذو مروءة وأصحاب نعمة وثروة ؛ فهم آناء اللّيل والنهار في تعهّد مواقع نظر الناس .

و أُخرى ظنّت السعادة في الجاه والكرامة والمنزلة عند الناس ، وانقيادهم لهم بالتواضع والإعظام ، والتوقير والإكرام ، يستجرّون الناس إلى طاعتهم بتقليد الولايات وإرادة العلوّ في الأرض على الجماعات ، قد شغلهم إيثار تواضع الناس لهم عن التواضع لله وحسن التصرّف على حكم الله .

و أمثال هؤلاء ممّن مال به الجهل إلى جانب الزيادة كثير ، و قد نيّفوا[٣] على السبعين .

و كذلك من أُنيف[٤] منهم إلى طرف النقصان ، حتّى ظنّت منهم طائفة في ترك الدنيا - دار المحن والبلايا - وإرادة الآخرة - مأوى النعم والسعادات - إلى أن قتلوا أنفسهم ، وأحرقوا أبدانهم .

---

(١) الوكد - بالضم - : السعي و الجهد .
(٢) بهامش الاصل : اى لابسين الثياب الجميلة .
(٣) نيف على كذا : زاد .
(٤) أناف على الشيء : أشرف وطال وارتفع .

وطائفة تحرّفوا عن أمانيّها ، ولكنّهم أماتوا قواها لشدّة الرياضة ، وعظيم المجاهدة ففسد عقول فرقة منهم ومرض آخرون .

وظنّ قوم منهم عند ذلك أنّ الشريعة تكليفات وتشديدات وأنّ الله مستغن عن عنا المتعنّتين وعبادة المتعبّدين ، فعاودوا إلى الشهوات بعد الإقلاع عنها وردع الأنفس منها .

وأخرى ظنّت أنّ العبادات طريق الوصول ، فإذا تمّ الوصول وصحّ المحصول فلا معنى لإتعاب النفس والرجوع إلى الطريق كذلك حتّى تحزّبوا أيضاً أحزاباً كثيرة .

و إنّما الفرقة الناجية واحدة و هي المتّبعة لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وآله و الأئمّة المعصومون عليهم السلام .

والحاصل : فلا يترك من الدنيا ما يكون بلغة له تبلّغه الآخرة ، ولا يقمع من ضروريّات المعاش ما يكون زاداً إلى المعاد ، غير مجاوز حدود الورع والتقوى والّذي كان النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام عليه هو القصد من غير تفريط وإفراط، العدل القويم المتوسّط بين الطرفين، أحبّ الأمور إلى الله فيكون العبد زاهداً فيه لا راغباً عنه بالكلّيّة

فهذا قول بعض العلماء[1]، و سلوكه طريق الزهد فيما أوردناه لحاجة في نفسنا قضيناها .

ثمّ عُدنا إلى ما كنّا أمليناه في هذا الفصل من الأخبار و آثار الصالحين في الزهد والتقوى .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أشرف الكلام كتاب الله ، وأوثق العُرى تقوى الله ، وأقوى السبل الزهد في الدنيا . وخير الملل ملّة إبراهيم ، وأحسن السنن سنّة محمّد . وأشرف الحديث ذكر الله . و خير الأمور عواقبها ، وشرّ الأمور محدثاتها . وأحسن الهدى هدى الأنبياء . وأشرف القتل قتل الشهداء. وأعظم الضلالة ضلالةٌ بعد هدى . وخير الهدى ما اتّبع . وشرّ العمى عمى القلب . واليد العليا خير من اليد السفلى . وشرّ الندامة ندامة يوم القيامة حيث لا توبة ولا إقالة . وشرّ الناس من لا يأتي الجماعة إلّا دبراً ، ولا يذكر الله إلّا هجراً [2] .

(١) وما أحسنه من قول وأنذه من كلام !

(٢) اى بعد مدة من الزمان .

وخير الغنى غنى النفس . ورأس الحكمة مخافة الله والنوح من عمل الجاهليّة ، والغلول من جمر جهنّم . والشعر مزامير إبليس . والخمر جوامع الإثم . والنساء حبائل الشيطان . والشباب شعبة من الجنون . وشرّ المكاسب كسب الزنا . وشرّ المآكل مال اليتيم . والسعيد من وعظ بغيره ، والشقيّ من شقي في بطن أُمّه . وكلّ ما هو آت قريب . والخير كثير ، ومن يعمل به قليل . والقناعة مال لا ينفذ . وخير كم من طال عمره وحسن عمله . وحسن الملكة [١] نماء . وصلة الرحم مِثراة في المال ، منسأة في الأجل . وسباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وحرمة ماله كحرمة دمه » .

وروى أبو أيّوب الأنصاريّ عن النبيّ ﷺ أنّه قال : « حلّوا أنفسكم بالطاعة [٢] وألبسوها قناع المخافة . واجعلوا حرثكم لأنفسكم ، وسعيكم لمستقرّكم . واعلموا أنّكم عن قليل راحلون ، وإلى الله صائرون ، فلا مغني عنكم هنالك إلّا عمل صالح قدّمتموه ، أو حسن ثواب حُزتموه إنّكم إنّما تقدمون على ما قدّمتم ، وتجازون ما أسلفتم ، فلا تخدعنّكم زخارف دنيا دنيئة عن مراتب جنّات عليّة ، وكأن قد كشف القناع ، وارتفع الارتياب ، ولاقى كلّ امرىء مستقرّه ، وعرف مثواه ومقيله » .

و روى مجاهد عن ابن عبّاس عن رسول الله ﷺ : أنّ عيسى مرّ بمدينة خربت عمرانها ، وسقطت بنيانها ، وقال لبعض حواريّه : أتدري ما تقول هذه القرية ؟ قال : لا ، قال : إنّها تقول : إنّها جاء وعد ربّي الحقّ ، فيبست أنهاري بعد غزارتها ، و جفّت أشجاري بعد نضارتها ، وخربت قصوري ، ومات سكّاني ، فها هي عظامهم في جوفي ، وأموالهم المجموعة من حلال وحرام في بطني ، ولله ميراث السماوات والأرض .

ثمّ تنفّس عيسى عليه السلام الصعداء [٣] وقال : عجبت من طالب الدنيا والموت يطلبه ومن باني القصر والقبر منزله ، ومن الضاحك ملء فيه [٤] والنار أمامه ، والجزاء قدّامه .

---

(١) الملكة : الصفة الراسخة في النفس .

(٢) اى زينوها بها .

(٣) بضم الصاد وفتح العين : التنفس الطويل من هم أو تعب .

(٤) اى يملأ فمه من الضحك .

يابن آدم ! لا بالكثير تشبع ، ولا بالقليل تقنع . تجمع لمن لا يرحمك ، و تقدم على من لا يعذرك ، فوا حسرتا عليك إذا بعثت من قبرك ، ووجدت مالك في ميزان غيرك ! .

وقال أيضاً : يا معشر الحواريّين ! إنّي قد أكبيت [١] لكم الدنيا على وجهها ، فلا تغشوها [٢] بعدي ، فإنّ من نكد [٣] الدنيا أنّ الله عُصي فيها ، وأنّ الآخرة لا تدرك إلّا بتركها . ألا فاعبروها ولا تعمروها .

وقال أبوهريرة : قال لي رسول الله ﷺ : يا أبا هريرة ! ألا أُريك الدنيا جميعاً بما فيها ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، فأخذبيدي وأتى بي وادياً من أودية المدينة ، فإذا مزبلة فيها رؤوس ناس وعذرات وخرق و عظام ، ثمّ قال : يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم وتأمل كآمالكم ثمّ هي اليوم عظام بلا جلد ، ثمّ هي صائرة رميماً و رماداً . و هذه العذرات ألوان أطعمتكم اكتسبتموها من حيث اكتسبوها ثمّ قذفوها من بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها [٤] . وهذه الخرق البالية كانت رياشهم و لباسهم ، فأصبحت و الرماح تصفقها . و هذه العظام عظام دوابّهم الّتي كانت ينتجعون [٥] عليها البلاد فمن كان باكياً على حاله من دنياه فليبك . فأجهشنا [٦] جميعاً في البكاء .

وقال ﷺ : « إنّ المؤمن بين مخافتين بين أجل قدمضى [لا يدري ما الله صانع فيه ، و بين أجل قد بقي] لا يدري ما الله قاض فيه [٧] فليتزوّد العبدمن نفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن حياته لموته ، ومن شبابه لهرمه فإنّ الدنيا خلقت لكم و أنتم خلقتم للآخرة . فوالّذي نفسي بيده ! ما بعد الموت مستعتب ، وما بعدالدنيا دارٌ إلّا الجنّة أوالنار » .

وقال عليّ عليه السلام : « من جمع ستّة خصال لم يدع للجنّه مطلباً ، ولا عن النارمهرباً أوّلها من عرف الله فأطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ، وعرف الحقّ فاتّبعه ، وعرف الباطل

---

(١) اكبى وجهه : غيره .
(٢) من : غشا يغشو فلانا : أتاه .
(٣) بالفتحين : قلة العطاء والخير .
(٤) الصواب : ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبتموها . تحاماه : اجتنبه و توقاه .
(٥) انتجع البلد : ذهب يطلبه .
(٦) أجهش بالبكاء : تهيأله .
(٧) بين المعقوفين اصلاح من اصول الكافي (٢ : ٧٠) باب الخوف والرجاء .

فاتّقاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها » .

وقال عليه السلام : « المدّة وإن طالت قصيرة ، والماضي للمقيم عبرة ، والميّت للحيّ عظة ، وليس لأمس إذا مضى عود ولا المرء من غده على ثقة . وكلّ لكلّ مفارق ، وكلّ بكلّ لاحق . اصبروا على عمل لاغنى بكم عن ثوابه ، وارجعوا عن عمل لاصبر لكم على عقابه ، إنّ الصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه . اعلموا أنّكم في مهل معدود ، وأمد ممدود وأجل محدود . ولابدّ للأجل أن يتناهى ، وللنفس أن يحصى ، وللسبب أن يطوى . فاتّقوا الّذي إن قلتم سمع ، وإن أخبرتم علم واحذروا الموت الّذي إن أقمتم أخذكم ، وإن هربتم أدرككم . وانظروا ثمّ انظروا أين من سعى واجتهد ، وأعدّ واحتشد ، وجمع وعدّد ، وبنى وشيّد ، وزخرف ونجّد ، وفرش ومهّد ، فما للمرء ! يسرّه درك مالم يكن يفوته ، ويسوؤه فوت مالم يكن ليدركه » .

انظروا إلى انتثار اللؤلؤ من هذا الكلام ، فإنّك ماترى ماتعجب صدقاً في المعنى ، وترتيباً في اللفظ ، وحلاوة في القلب ، فكأنّه على ماقاله ابن عبّاس : والله لكأنّ هذا الكلام ينزل من السماء .

وقال جعفر بن يحيى[1] : هكذا تكون البلاغة أن يقرن بكلّ كلمة اُختها ، فتلوح الاُولى بالثانية قبل طلوعها ، وتؤكّد الثانية الاُولى قبل انقضائها ، وتزيد كلّ واحدة نور الاُخرى وضياءها .

وكلّ كلام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : حلو بليغ جزل شريف ، يأخذ من البلاغة أبهى شعارها ويرتقي إلى أشرف درجاتها .

وسأل سائل بعض الصالحين : كيف ترى الدنيا ؟ فقال : تخلق الأبدان وتجدّد الآمال وتقرّب المنيّة ، وتباعد الاُمنيّة . قال فما حال أهلها ؟ قال : من ظفر بها تعب ، ومن فاتته نصب . قال : فما الغنى فيها ؟ قال : قطع الرجاء عنها . قال فأيّ الأصحاب أبرّ وأرضى ؟ قال : العمل الصالح والتقى . قال : أيّهم أضرّ وأطغى ؟ قال : النفس والهوى . قال : فما المخرج ؟ قال : في سلوك المنهج . قال : أوصني ، قال : قد فعلت .

وكان بعض الصالحين يخرج في بعض لياليه إلى المقابر إذا اُهدئت الأصوات ، ونامت

(١) ترى قوله عند ابن ابى الحديد ط بيروت (٢ : ١٦٠) ذيل الخطبة الغراء .

العيون . فيقول : يا أهل الغربة والتربة ! ياعسكر الأموات ! ياضيفان الأرض ! قدسلا[1] حميمكم ، ، وانتهك حريمكم ، وخربت ديار كم ، و تعطّلت آثار كم ، فلا تكلّمون أحداً ، ولا ترجعون أبداً !

وقال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام : «لايزال العزّ قلقاً حتّى يأتي داراً استشعر أهلها الزهد في الدنيا فيوطنها» .

وسئل عليّ بن موسى الرضا عليهما السلام عن صفة الزاهد فقال : «متبلّغ بدون قوته ، مستعد ليوم موته ، متبرّم بحياته» .

وقال الحسن : الزهد في الدنيا أن تبغض أهلها وتبغض مافيها .

وقال بعضهم : هو ترك مافيها على من فيها .

وقال آخر : هو أن يترك الدنيا كماهي . لا تقول : أبني رباطاً ، وأعمر مسجداً كما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله منها ولم يبن لبنة على لبنة .

وقيل : الزهد ترك اليد . وقيل : هوالرغبة عن حظوظ النفس كلّها .

وقال بشر : الزهد في الدنيا الزهد في الناس .

وقال أبوسليمان الدّارانيّ : الزهد ترك كلّ شيء يشغلك عن الله ، ثمّ قرأ قول الله تعالى[2] «إلّا من أتى الله بقلب سليم» وقال : هوالقلب الّذي ليس فيه غير أمر الله .

وكان حبيب البدويّ يقول : ازهدوا فقد زهد من خشع فقنع ، و اقترف فاعترف ، و وجل فعمل ، و حاذر فبادر . أفاد ذخيرة ، وأطاب سريرة . وقدّم مهاداً ، واستظهر زاداً .

وقال لأخيه : ياأخي ! أنت طالب ومطلوب ، يطلبك من لاتفوته ، وتطلب ماقد كفيته فكأنّ ماغاب عنك قد كشف لك ، ومافيه قد غفلت عنه . ياأخي كأنّك لم ترحريصاً محروماً ، ولا زاهداً مرزوقاً .

وقال الشبليّ : أيّ مقدار لأقلّ من جناح بعوضة حتّى يزهد فيها ؟ يريد الخبر المعروف .

---

(١) سلاالشيء : نسيه وغفل عنه .

(٢) سورة الشعراء : ٨٩ .

و قيل لبعضهم : لمَ زهدت في الدنيا قال : لمّا زهد في أكثرها أنفت عن الرغبة في أقلّها .

وقال بعضهم : الدنيا تطلب لثلاثة أشياء : للغنى والعزّ والراحة ، فمن زهد فيها عزّ ومن قنع استغنى ، ومن قلّ سعيه استراح .

وقال أبوالحسن الزنجانيّ : من كان رأس ماله التقوى و الورع كلّت الألسن عن وصف ربحه .

وقيل : لم ينظر أحد إلى الورع فصاقت عليه الأمور إلّا فرغ إلى التقلّل والتعفّف.

وتكلّم أبوسعيد الخزّاز في الورع فمرّ به عبّاس بن المهديّ وقال : أما تستحيي ! تجلس تحت سقف أبي الدوانيق ، وتشرب من بركة زبيدة ، وتتعامل بالمزّيفة وتتكلّم في الورع ؟ ثمّ أنشد :

فضع ما كنت حلّيت به سيفك خلخالاً * فما تصنع بالسيف إذا لم تك قتّالاً؟

وقال سهل بن عبدالله : من لم يصحبه الورع أكل رأس الفيل ولم يشبع .

وقال داود الطائيّ : ما أخرج الله عبداً من ذلّ المعاصي إلى عزّ التقوى إلّا أغناه بلا مال ، وأعزّه بلاعشيرة ، وأنسه بلا أنيس .

و قيل : ترك الدنيا مع ذكرها صفة الزاهدين ، و ترك الدنيا مع نسيانها صفة العارفين .

وقال محمّد بن عليّ الكنانيّ : الشيء الّذي لم يخالف فيه كوفيّ ولا مدنيّ ولاشاميّ الزهد في الدنيا ، وسخاء النفس ، والنصيحة للخلق .أي هذه الأشياء محمودة بكلّ لسان ، ممدوحة من كلّ إنسان .

قال بشر الحافيّ : الزهد ملك لايسكن إلّا في قلب خال .

و قال محمّد بن خفيف : الزهد سلوّ[1] القلب عن الأسباب ، ونفض الأيدي عن الأملاك.

وقدوة الزهّاد عيسى عليه السلام توسّد يوماً حجراً ، فقاله له الشيطان:أما كنت ترکت الدنيا

(١) سلا الشي يسلوه : نسيه ، طابت نفسه عنه وذهل عن ذكره .

فما بدالك ؟ فقال : ما فعلت ؟ قال : توسّدت حجراً وتنعّمت ، فرمى الحجر و قال : خذه فيما تركته لك .

وجلس يوماً في ظلّ حائط فأقامه صاحب الحائط ، فقال : ما أقمتني أنت ، إنّما أقامني الّذي لم يرض أن أتنعّم بظلّ الحائط .

و قال أبوسفيان بن معمر : الزهد في الدنيا معرفة صغر قدرها ، كما فسّر الحسن قوله تعالى [١] « الّذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً » بأنّ الثمن القليل هو الدنيا بحذافيرها ، قال : وإذا عرفت صغر قدرها لم يضرّك التنعّم بها بعد أن تكون عارفاً بقدرها .

وكان أبوبكر الفارسي صاحب كتاب الأُصول على مذهب الشافعيّ بخراسان ينكر أن يكون الزهد ترك التنعّم بمتاع الدنيا ونفض اليد عن زخرفها وزينتها ، عارضهم بقول الله [٢] « قل من حرّم زينة الله الّتي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق » وأنّ النبيّ ﷺ لا يحرّم ما أحلّ الله وقد قال الله تعالى [٣] : « يا أيّها النبيّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك » والخبر لا يرفع القرآن أساس والخبر بناء وفرع .

وكان أبوحامد القاضي من أصحابهم يقول : لا يصحّ الزهد في الدنيا ، لأنّ الإنسان خلق منها ، وتمّ بها ، وسكن فيها ، ونشأ عليها ، وأُشرب قلبه حبّها ، و جُبل على عمارتها فلا سبيل إلى إسلاخه منها . وما يقوله جفاة الصوفيّة فهو قول يقولونه ، لا فعل يفعلونه وهل هم إلّا جملةٌ كلّهم على غيرهم و تناو لهم ما يشتهون من كدّ غيرهم ، فلو صحّ لهم زهد لزهدوا عمّا في أيدي الناس ، وسعوا مع الساعين في أسباب الرزق .

ويعجبني دأب الّذين ترهّبوا * سوى أكلهم كدّ النفوس الشحائح

و أعجب من ذا مُطعم في حياته * سعاة ضلال بين غاد و رائح

وعلى أنّ إقلالهم ضرب من الكسل ، وسؤالهم أصل في الدناءة ومدحهم الفقر من

(١) سورة آل عمران : ٧٧ .

(٢) سورة الاعراف : ٣١ .

(٣) سورة التحريم : ١ .

باب الإزراء بنعمة الله تعالى. هذا قول القاضي منهم .

وأمّا أبو سعيد البسطامي من أصحابهم فهو كان لا يقف في هذا الإنكار على القول دون الفعل كما حدّث عنه أبو بكر الشاشي .

قال كان أبو سعيد من أعاجيب الرجال فسئل يوماً عن قول النبيّ ﷺ : « اللّهمّ أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً » فاندفع مغضباً يقول : من قال : إنّ رسول الله ﷺ كان مسكيناً فهو كافر بالله ، ثمّ أقبل على السائل وقال : والله لولا أنّي أعلم جهلك و غرارتك لأمرت بك حتّى تسحب على وجهك ، ويضرب بالسياط جلدك ، ولكنّك تلقّفت هذا من قول هؤلاء الحمقاء المكذّبين المحتالين الملحدين الّذين و صموا النبيّ ﷺ بهذا النعت وبما يجري مجراه . إنّ النبيّ كان غنيّاً ولا أعني بقولي غنيّاً إلّا غنيّاً بالله ذلك الغنى مربوط بالإيمان والتوحيد والإخلاص والطهارة ، وما أُريد به شيئاً من ذلك ، فإنّ كلّ ذلك موفور له في العاجل ، ومذخور له جزاؤه في الآجل ، وإنّما أعني الغنى الّذي هو الأثاث والمتاع والثياب والدوابّ والخدم .

فقيل له : فإنّ الله يقول[1] : «ووجدك عائلاً فأغنى » قال : هذا حجّتي فإنّ العائل هو المثقل بالدين وبزراية الحال وقد كان هذا قبل المبعث فلمّا بعثه أزاح الله علله ، فنوّر قلبه و ملأ من الدنيا يده ، و إلّا فبما جيّش الجيوش وعقد السرايا ، و هادى الملوك ، ونحل الصحابة ، وزوّد الوفود ، وأعطى المؤلّفة ، و أنفق على النساء ، وقرى الضيفان ، و كسّب المحروم ؟ وأين قوله لمن مات من الصحابة « من مات وترك مالاً فلورثته ، ومن ترك ديناً أو كلاًّ فعليّ وإليّ » وأين من قولهم ما روي في المشاهير أنّه ﷺ كان إذا دخل شهر رمضان أعطى كلّ فقير وفكّ كلّ أسير ، وأين أفراسه وبغاله وسيوفه ورياياته وبروده ودروعه الّتي لكلّ منه اسم لحسنه وإيفائه وإنافته على نظرائه وأين ما كان يدّخره لنفقة عامه و قوت عياله ، والفدك والعوالي ؟ والله ما أُوتيتم إلّا من تقليدكم القوم . تحلّوا عندكم بادّعاء الدين وقاتلوكم عمّا حوته اليدان وأنتم أيّها الأغنياء أشبه برسول الله وبصحابته من هؤلاء الّذين

(١) سورة الضحى : ٨ .

لبسوا هذه المرقّعات يتكفّفون الناس .

ولا نقول أنّه مع غناه لم يكن زاهداً في الدنيا بل كان غناه من غير الوجه الّذي كان زهده ، وكان غناه من جهة انتظام أمره ، وبهجة حاله ، و رفاهية عيش المتّصلين به ، والوافدين عليه ، وكان زهده من حيث إنّه لايفرح بما يرزق منها ، ولا يأسى على ما يحرم عنها ، ولايتوسّع في المطعم والملبس ، يلبس الشملة ويجتزىء بالعِلقة[1] ، و إذا جاءه مال لم يبيّته أولم يقبله ، و كان إذا جاءه في القائلة لم يمسكه إلى اللّيل ضنّاً به ، و إذا جاءه باللّيل لم يمسكه إلي القائلة حبّاً له ، بل كان يتكرّم ويتفضّل ويهب فيجزل .

فهذا من أقوال هؤلاء الفقهاء الفضلاء العلماء كتبناها على ما حضرنا .

ثمّ رجعنا إلي ما كنّا فيه من أنفاس الزهّاد الفقراء الخارجين بجملتهم عن الدنيا وزخارفها ، النافضين عن تالدها و طارفها ، و كانت تورّعت نفوسهم عنها ، و الورع الّذي كان في اُولئك الزهّاد لم تصل إليه عقولنا . وقد ذكرنا بعض أحوال الزهّاد المتورّعين في رسالتنا الاثني عشريّة فمن أراد الوقوف على أحوالهم فليطالعها فإنّ فيها غنية لمن أراد الاطّلاع علي حقيقة الزهد والورع .

منها ما حكي أنّ أبا الحسن البوشنجيّ كان في غاية الورع و من جملة و رعه أنّه بقي أربعين سنة لم يأكل لحم الغنم لمّا نهبت التركمان أغنام تلك الناحية ، وكان يأكل السمك فحكي له أنّ بعض الاُمراء تغدّى على حافة ذلك النهر الّذي كان يصاد له منه السمك فلمّا فرغوا من الغداء نفضوا فاضل السفرة في النهر المذكور ، فامتنع من أكل السمك.

وقال أبوعبدالله التستريّ : رأيت في النوم كأنّ القيامة قامت والخلق كلّهم في الموقف فرأيت طيراً أبيض يأخذ واحداً واحداً في الموقف ويدخلهم الجنّة ، فقلت : ما هذا الطير الّذي قد منّ الله به على عباده ؟ قال : فرمي إليّ بزقّ ، ففتحته فإذا فيه مكتوب : « هذا الطير شيء يقال له الورع طوبى لمن رزقه » .

ومكث مالك بن دينار بالبصرة أربعين سنة فلم يصحّ له أن يأكل من تمر البصرة ولا من رطبها لاستيلاء بعض المتغلّبة عليها ، فلم يذقها حتّى مات ، وكان إذا انقضى وقت الرطب

(١) الشملة : كساء واسع . العلقة : الثوب بلاكمين .

قال لأهل البصرة ـ و كشف عن بطنه ـ: قد خرج الرطب وما أكلته ، وأنا مالك بن دينار ، وهذا بطني ما نقص منه شيء وما زاد فيكم شيء .

وكان شيخنا الفاضل الألمعيّ الكامل التقيّ خالي الشيخ حسن بن الشيخ زين الدين الشهير بالشهيد الثاني قدّس الله روحيهما في غاية الورع ، و كان له طاحونة لم يأكل من غلّتها ، لاحتمال أن يكون طحن فيها حنطة لم تخرج زكاتها .

وكان يقول : لفقهائنا في هذه المسألة قولان :

أحدهما أنّ الزكاة تتعلّق بعين المال ، والثاني: الزكاة حقّ يلزم الذمّة فهذا لا إشكال فيه . وعلى القول الأوّل يجتنب ما أُخذ من الأُجرة ؛ لأنّ الزكاة باقية في تلك الحنطة الّتي لم تخرج زكاتها . وهذا غاية الورع . فاعتبروا يا أُولي الأبصار .

و لنختم هذا الفصل بأبيات تليق به وتدعو إلى الزهد في الدنيا ، والتمسّك بالورع والتقوى :

يا نازل الدنيا تحلّ * قد حان منها المرتحل
قدّم زاداً من عقل * أين الشباب ما فعل؟
ها هو ذا عاري الطلل * إن كنت لم تعلم فسل
فهي اللّيالي لم تزل * تطوينا طيّ الرحل
ما لاح نجم فاشتعل * إلّا كما لاح أفل
و إنّما الدنيا دول * كراحل قيل : نزل
أو نازل قيل : رحل * سمّ مذوف بعسل
يا نفس ! ما هذا العلل * كم قدر ما يرجى الطول

وقلت قصيدة على هذا الوزن والقافية :

يا دهر قد أفجعتني * بفراق أحبابي الأُول
الدهرُ خوّان ولا * يحزنك منه ما فعل
و ها أنا متأسياً * بمن مضى من الدول
وكن يقيناً خاشعاً * من ميتة على وجل

الموت ضيف نازل * لا يدفع الموتَ الحيل
يقتنص الآجال في * السفح و في رأس الجبل
ومنها من خالط الناس أسى * من اعتزل فقد عدل
من كثرت أمواله * كان له الناس خول
من راقب الرحمن في * أفعاله ، فقد كمل
فأفضل الزاد التقى * وأفضل التقوى العمل
ومنها طوبى لعبد قام في * محرابه ثمّ ابتهل
و تاب من ذنوبه * وحطّ عنها ما فعل
ومن يحمد الدنيا بخير يناله * فسوف لعمري اعن قليل يذمّها
إذا أقبلت كانت على المرء حسرة * وإن أدبرت كانت كثيراً همومها

وقال الصلصال بن دلهمس في مجلس رسول الله ﷺ هذه الأبيات ، ولها قصّة : (١)

تخيّر قريناً من فعالك إنّما * قرين الفتى في القبر ماكان يفعل
ولن يصحب الإنسان من قبل موته * ولا بعده ، إلّا الّذي كان يعمل
ألا إنّما الإنسان ضيف لأهله * يقيم قليلاً عندهم ثمّ يرحل
كلّ اجتماع فله فرقة * لابدّ يوماً من فراق الخليل
يا عجباً إنّا لنهفو و قد * نودي في أسماعنا بالرحيل (٢)
و إنّ امرءً ابتاع دنياً بدينه * لمنقلب منها بصفقة خاسر
ألم ترها ترقبه حتّى إذا صبا * فرت حلقه منها بشفرة جاذر (٣)
و للدنيا دوائر دائرات * فتذهب بالعزيز و بالذليل

(١) وهي أن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى بني تميم بشيء ، فقال قيس بن عاصم: وددت لو كان هذا الكلام شعراً نعلمه أولادنا ، فقال الصلصال : أنا أنظمه يا رسول الله فأنشد الابيات . والقصة والابيات أكثر من هذه الثلاثة في الاصابة (٢ : ١٧٦ - ١٨٧) وتراها مع ما أوصى في معاني الاخبار للصدوق ص ٢٣٣ وارشاد القلوب ص ٥٤ .

(٢) هفا الرجل : طرب وطاش وخفّ .

(٣) صبا اليه : مال وحنّ . و« فرت » من فرى الاوداج بمعنى قطعها .

و للدنيا يدٌ تهب المنايا　　*　　و تستلب الخليل من الخليل
أيامن قد تهاون بالمنايا　　*　　و من قد غرّه الأمل الطويل!
ألم تر أنّما الدنيا غرور　　*　　و أنّ بقاء ما فيها قليل

توقّوا من تصاريف اللّيالي　　*　　فإنّ نعيمها دون الرزايا
هما غرسان ليل أو نهار　　*　　ثمارهما البلايا للبرايا

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة　　*　　إذا زال عن عين البصير غطاؤها
و كيف بقاء المرء فيها و إنّما　　*　　ينال بأسباب الفناء بقاؤها

أين من كان قبلنا ، أين أينا　　*　　من رجال كانوا جمالاً وزينا؟
إنّ دهراً أتى عليهم فأفنى　　*　　معشراً منهم ، سيأتي علينا

فهم في بطون الأرض بعد ظهورها　　*　　محاسنهم فيها بوال دواثر
و أنت على الدنيا مكبّ منافس　　*　　لخطّابها فيها حريص مكاثر

إذا الرجال ولدت أولادها　　*　　واضطربت من كبر أعضادها
و جعلت أسقامها تعتادها　　*　　فهي زروع قد دنا حصادها

و ما أهل المنازل غير ركب　　*　　رحيلهم رواح وابتكار
لنا في الدهر آمال طوال　　*　　نرجّيها و أعمار قصار

﴿ فصل ٥ ﴾

✡(في أشياء متفرقة)✡

عن النبي[١] صلى الله عليه وآله : « سبعة يظلّهم الله يوم القيامة في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه : إمام عدل ، و شابّ نشأ في عبادة الله ، و رجل ذكر الله في خلأ ففاضت عيناه ، و رجل قلبه معلّق في المسجد ، ورجلان تحابّا في الله ، ورجل دعته امرأة ذات منصب و جمال إلى نفسها قال : إنّي أخاف الله ، و رجل تصدّق فأخفى حتّى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه » .

قال كعب بن عجرة : خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن تسعة ، خمسه و أربعة ، أحد العددين من العرب ، والآخر من العجم فقال : « اسمعوا هل سمعتم أنّه سيكون من بعدي أُمراء ، فمن دخل عليهم فصدّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منّي ولست منه وليس بوارد عليّ الحوض ، و من لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم و لم يصدّقهم بكذبهم فهو منّي وأنا منه وهو وارد عليّ الحوض » .

وعن عبيد بن عمير أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال : « ما ازداد رجل من السلطان قرباً إلّا ازداد من الله بُعداً ، ولا كثرت أتباعه إلّا كثرت شياطينه ، ولا كثر ماله إلّا اشتدّ حسابه » .

وقال حذيفة : إيّاكم ومواقف الفتن . قيل : و ما مواقف الفتن ؟ قال : أبواب الأُمراء .

وقال بعض المتقدّمين : إذا رأيت القارىء يختلف إلى الأغنياء فاعلم أنّه لصّ .

وقال ميمون بن مهران : في صحبة السلطان خطران : إن أطعته خاطرت بدينك وإن عصيته خاطرت بنفسك ، والسلامة هي أن لا يعرفك .

ويقال : ما أقبح بعالم يقال : أين هو ؟ فيقال : عند الأمير .

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا تزال يد الله على هذه الأُمّة ما لم يعظّم أبرارهم

---

(١) رواه الصدوق في الخصال (٢ : ٢) مع اختلاف .

فجّارهم ، وما لم يرفق خيارهم بشرارهم ، وما لم يمل قرّاؤهم إلى اُمرائهم . فإذا فعلوا ذلك رفع الله عنهم البركة وسلّط عليهم جبابرتهم ، وقذف في قلوبهم الرعب . وألقى عليهم الفاقة » .

وروي أنّ عيسى عليه السلام قال : « يا معشر العلماء ! كما أنّ الملوك تركوا الحكمة عندكم ، فاتركوا ملكهم عليهم » .

وقال الضحّاك بن مزاحم : إنّي لأتقلّب اللّيل كلّه على فراشي ألتمس كلمة أرضى بها سلطاني ولا أسخط بها خالقي فما أقدر عليها .

وقال ابن عبّاس رضي الله عنه : اجتنبوا أبواب الملوك ، فإنّكم لا تصيبون من دنياهم شيئاً إلّا أصابوا من دينكم ما هو أفضل منه .

وقال الفضيل : لو أنّ رجلاً لا يخالط هؤلاء - يعني السلاطين - ولا يزيد على الفرائض فهو أفضل من رجل يخالط السلطان ويصوم النهار ويقوم اللّيل ويحجّ ويجاهد .

قال المسعودي[١] : أظهر عبدالله بن الزبير الزهد في الدنيا وملازمة العبادة مع الحرص على الخلافة ، وشبر بطنه[٢] فقال : إنّما بطني شبر فما عسى أن يسع ذلك الشبر ؟ وظهر عنه شحّ عظيم على سائر الناس ففي ذلك يقول حمزة مولى آل الزبير :

لو كان بطنك شبراً قد شبعت وقد * أفضلت فضلاً كثيراً للمساكين
ما زلت في سورة الأعراف تدرسها * حتّى فؤادي مثل الخزّ في اللّين

وقال الضحّاك بن فيروز الديلميّ :

تخبّرنا أن سوف تكفيك قبضة * وبطنك شبرٌ أو أقلّ من الشبر
وأنت إذا ما نلت شيئاً قصمته * كما قصمت نار الغضا حطب السدر[٣]
فلو كنت تجزي أو تثيب بنعمةٍ * قريباً لردّتك العطوف على عمرو[٤]

وقال : هو عمرو بن الزبير أخوه ضربه عبدالله حتّى فات وكان مبائناً له .

---

(١) انظر مروج الذهب .
(٢) شبر بطنه : قاسه بالشبر .
(٣) الغضا : شجر من الاثل ، خشبه من اصلب الخشب ، وجمره يبقى زمناً طويلا لا ينطفىء .
(٤) جزى - من باب ضرب - فلاناً : كافأه . أثاب الرجل : اعطاه . والقريب هنا : الحميم .

قال علي عليه السلام [1]: [«ما لابن آدم والفخر! أوّله نطفة وآخره جيفة، لا يرزق نفسه ولا يدفع حتفه»[2] فأخذه بعضهم [3] فقال:

ما بال من أوّله نطفة * و جيفة آخره يفخر

يصبح لا يملك تقديم ما * يرجو ولا تأخير ما يحذر

وقال بعض الحكماء: الفخر هو المباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان، وذلك نهاية الحمق لمن نظر بعين عقله، وانحسر عنه قناع جهله فأعراض الدنيا عارية مستردّة، لا يؤمن في كلّ ساعة أن ترتجع، والمباهي بها مباهٍ بما في غير ذاته، وقد قال قائل لبعض من فخر ببزوته[4] ووفره: إن افتخرت بفرسك فالحسن والفراهة له دونك، و إن افتخرت بثيابك وآلاتك فالجمال لها دونك، وإن افتخرت بآبائك وسلفك فالفضل فيهم لا فيك، ولو تكلّمت هذه الأشياء لقالت لك: هذه محاسننا فما محاسنك؟.

وأيضاً فإنّ الأعراض الدنيويّة كما قيل: «سحابة صيف عن قليل تقشّع»، وظلّ زائل عن قليل يضمحلّ، و كما قال الشاعر:

إنّما الدنيا كرؤيا فرّحت * من رآها ساعة، ثمّ انقضت

بل كما قال الله تعالى [5]: «إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السّماء فاختلط به نبات الأرض ممّا يأكل الناس والأنعام حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّيّنت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس».

وإذا كان لابدّ من الفخر فليفخر الإنسان بعلمه وتشريف خلقه، وإذا أعجبك من من الدنيا شيء فاذكر فناءك وبقاءه، أو بقاءك و فناءه، أو فناء كما جميعاً. و إذا رافك ما هو لك فانظر إلى قرب خروجه من يدك، وبُعد رجوعه إليك، وطول حسابك عليه، وقد

(١) من هنا الى ص ١٥٤ سقط من الاصل.

(٢) الرقم ٤٥٠ من مواعظه وحكمه القصار.

(٣) هو أبو العتاهية في قصيدة يقول فيها:

عجبت للانسان في فخره * وهو غداً في قبره يقبر

(٤) بهامش الاصل: «بزته ظ. البزة هي الثياب، و منه سمي بياع الثياب بزازاً».

(٥) سورة يونس: ٢٤.

ذمّ الله تعالى الفخور فقال [١] : « وأنّ الله لا يحبّ كلّ مختال فخور » .

وقال الأصمعيّ : بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذا رأيت شاباً متعلّقاً بأستار الكعبة وهو يقول :

يا من يجيب دعا المضطرّ في الظلم * يا كاشف الضرّ والبلوى مع السقم [٢]
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا * و أنت يا حيّ يا قيّوم لم تنم
أدعوك ربّ ! حزيناً هائماً قلقاً * فارحم بكائي بحقّ البيت والحرم
إن كان جودك لا يرجوه ذو سعة * فمن يجود على العاصين بالنعم؟

ثمّ أنشأ بعد ذلك يقول :

ألا أيّها المقصود في كلّ حاجة ! * شكوت إليك الضرّ فارحم شكايتي
ألا يا رجائي أنت تكشف كربتي * فهب لي ذنوبي كلّها واقض حاجتي
أتيت بأعمال قباح رديئة * فما في الورى عبد جنا كجنايتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى * فأين رجائي ثمّ أين مخافتي ؟

ثمّ سقط على الأرض مغشيّاً عليه فدنوت منه فإذا هو زين العابدين ابن الحسين ابن عليّ عليهم السلام ، فرفعت رأسه في حجري و بكيت فقطرت دمعة من دموعي على خدّه ، ففتح عينه فقال : من هذا الّذي يهجم [٣] علينا ؟ قلت : عبدك الأصمعيّ ، سيّدي ! ماهذا البكاء والجزع وأنت من آل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ؟ أليس الله تعالى يقول [٤] : « إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً » فقال : هيهات يا أصمعيّ إنّ الله خلق الجنّة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشيّاً ، و خلق النار لمن عصاه ولو كان شريفاً

---

(١) سورة الحديد : ٢٣ .

(٢) والابيات الاربعة فى مهج الدعوات ص ٢٣١ وعنه فى البحار (٩ : ٥٦٢) لشاب مشلول رآه أمير المومنين عليه السلام يتضرع و ينشد هذه الابيات فعلمه الدعاء المعروف بدعاء المشلول فأفاق . فى خبر طويل .

(٣) هجم - من باب نصر - عليه : انتهى اليه بغتة على غفلة منه ، او دخل بغير اذن .

(٤) سورة الاحزاب : ٣٣ .

قرشيّاً أليس الله تعالى يقول[١]: «فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأُولئك هم المفلحون * و من خفّت موازينه فأُولئك الّذين خسروا أنفسهم في جهنّم خالدون»[٢].

وقال عليه السلام: «الغنى والفقر بعد العرض على الله» أي لا يعدّ الغني غنيّاً في الحقيقة إلّا من حصل له ثواب الآخرة الّذي لا ينقطع أبداً، ولا يعدّ الفقير فقيراً إلّا من لم يحصل له ذلك فإنّه لا يزال شقيّاً معذّباً و ذلك هو الفقر بالحقيقة، فأمّا

غنى الدنيا و فقرها فأمران عرضيّان زوالهما سريع وانقضاؤهما

وشيك، وإطلاق هاتين اللّفظتين على مسمّاها الدنيوي

على سبيل المجاز عند أرباب الطريقة

أعني العارفين.

---

(١) سورة المؤمنون: ١٠١-١٠٣.

(٢) وهذا الخبر عجيب من الاصمعي وهو من هو في بغض اهل البيت حتى قال في جنازته أبوقلابة الشاعر (حياة الحيوان ٢: ٣٥٧، النعام):

لعن الله أعظماً حملوها * نحو دار البلى على الخشبات

أعظماً تبغض النبي وأهل ال * بيت والطيبين و الطيبات

﴿ فصل ﴾

✡(في الشكر)✡

قال بعض أصحاب المعاني : قد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال[١] « لئن شكرتم لأزيدنّكم » واستثنى في خمسة أُمور وهي الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال[٢] : « فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » وقال[٣] : « بل إيّاه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » وقال[٤] : « يرزق من يشاء » وقال[٥] : « يغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وقال[٦] : « ويتوب الله على من يشاء » .

وقال بعضهم : كيف لا يكون الشكر مقاماً جليلاً وهو خُلق من أخلاق الربوبيّة؟ قال تعالى في صفة نفسه[٧] : « والله شكور حليم » وقد جعل الله تعالى الشكر مفتاح كلام أهل الجنّة فقال[٨] : « وقالوا الحمد لله الّذي صدقنا وعده » وجعله خاتمة كلامهم أيضاً فقال[٩] : « وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين » وقيل[١٠] للنبيّ ﷺ : قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر فلمَ تقوم اللّيل وتتعب نفسك ؟ قال : «أفلا أكون من الربّ مشكوراً» ؟

اعلم أنّ الزهد عدم الرغبة في مطلوب يفارقه عند موته وهي الحظوظ الدنيويّة

---

(١) سورة ابراهيم : ٧ .
(٢) سورة التوبة : ٢٩ .
(٣) سورة الانعام : ٤١ .
(٤) سورة البقرة : ٢١٢ وفي مواضع اخر .
(٥) سورة النساء : ٤٨ ، ١١٥ .
(٦) سورة التوبة : ١٦.
(٧) سورة التغابن : ١٧ .
(٨) سورة الزمر : ٧٤ .
(٩) سورة يونس : ١٠ .
(١٠) رواه الديلمي في ارشاد القلوب : ١٤٥ عن عائشة مع اختلاف في الالفاظ .

كالمأكل والمشرب والملبس والمنكح والجاه والمال والذكر الحسن والقرب من الملوك وغير ذلك من التكثّرات الّتي هي ملزومات العدم ، ويكون ذلك الزهد لا لعجز وجهل أو غرض من الأغراض ، وذلك هو الزهد في المشهور وهو الّذي يترك متاع الدنيا لمتاع آخر يستأجله وفي الحقيقة هو الّذي لا يكون زهده المذكور للنجاة من النار والفوز بالجنّة ، بل يكون ذلك ملكة له تكبّراً على ما دون الحقّ ، وتقرّباً إلى رضاه ، وتصير تلك الملكة صفة لنفسه تزجرها عن مشتهياتها ، وتروّضها بالأُمور الشاقّة حتّى تصير راسخة فيها كما قال وليّ الله عليّ بن أبي طالب عليه السلام [١] : « وأيم الله يميناً أستثني فيها بمشيّة الله لأروضنّ نفسي رياضة تهشّ معها [٢] إلى القرص إن قدرت عليه مطعوماً وتقنع بالملح مأدوماً » إلى قوله عليه السلام [٣] : « ما لعليّ ونعيم يفنى ولذّة لا تبقى ؟ » .

وبالجملة : فالنفس أمّارة ولا يمكن تأديبها إلّا بقطع العلائق البدنيّة والشهوات النفسانيّة كما قال بعضهم نظماً :

إذا شئت أن تحيا فمت عن علائق * من الحسّ خمس ، ثمّ عن مدركاتها
وقابل بعين النفس مرآة عقلها * فتلك حياة النفس بعد مماتها

وقال غيره أيضاً في هذا المعنى :

فإن شئت تهوى القوم فاسلك طريقهم * وما وصلوا إلّا بقطع العلائق
وما حمل الهنديّ وهو حديدة * على الكتف إلّا بعد ضرب المطارق [٤]

---

(١) فيما كتبه الى عثمان بن حنيف واليه على البصرة يستعتبه . تراه في شرح النهج لعبده طبع مصر (٢ : ٧٦) قوله : « لاروضن » من الرياضة . و « تهش » بفتح الهاء اى ترتاح و تنشط .

(٢) في الاصل : « بها الى القرص » .

(٣) هذه الجملة ليست مما كتبه الى عثمان بل من خطبة له يذكر فيها استماحة أخيه عقيل صاعاً من حنطة المسلمين انظر المصدر المذكور (١ : ٤٨١)

(٤) الهندى : السيف . المطارق جمع المطرقة : آلة يضرب بها الحديد و نحوه ، و هو بالفارسية (پتك) .

قوله [١] : **فصعق همام واغمى عليه** قال الله تعالى:[٢] « فصعق من في السماوات ومن في الأرض »

و اعلم أنّ الوجد أمر شريف قد اختلف الناس فيه فقالت الحكماء فيه أقوالاً ، وقالت الصوفيّة فيه أقوالاً .

أمّا الحكماء فقالوا : الوجد هو حالة تحدث للنفس عند انقطاع علائقها عن المحسوسات بغتة إذاكان قد ورد عليها وارد مشوّق ، وقال بعضهم : الوجد هو اتّصال النفس بمباديها المجرّدة عند سماع ما يقتضي ذلك الاتّصال .

وأمّا الصوفيّة فقد قال بعضهم : الوجد رفع الحجاب ، ومشاهدة المحبوب ، وحضور الفهم ، وملاحظة الغيب ، ومحادثة السرّ ، وهو فناؤك من حيث أنت أنت . وقال بعضهم : الوجد سرّ الله عند العارفين ، ومكاشفة من الحقّ توجب الفناء من الخلق .

و الأقوال فيه متقاربة في المعنى و إن اختلفت العبارة ، وقد مات كثير من الناس بالوجد عند سماع وعظ أوصفقة مطرب . والأخبار في هذا الباب كثيرة جداً وقد رأينا نحن في زماننا من مات بذلك فجاءة .

قوله: **كانت نفسه فيها** أي مات. و **نفث الشيطان على لسانك** أي تكلّم بلسانك[٣] وأصله النفخ بالفم وهو أقلّ من التفل .

و إنّما نهى أمير المؤمنين عليه السلام القائل [٤] : « فهلاّ أنت يا أمير المؤمنين ؟ » لأنّه

---

(١) أى قول الراوى بعد ما وصف أمير المؤمنين عليه السلام المتقين لهمام - وهو أحد أصحابه - فى خطبة له من أعلى خطبه عليه السلام مضموناً . وانظر شرح النهج لعبده (١ : ٤٢٤) ونص الرضى « فصعق همام صعقة كانت نفسه فيها » وستأتى من المؤلف أيضا. ولذكر هذا وما بعده مناسبة بعيدة مع مانحن فيه ولعل هنا أيضاً سقطا والله العالم .

(٢) سورة الزمر : ٦٨.

(٣) خاطب عليه السلام به الذى قال : فما بالك يا أمير المؤمنين ؟

(٤) لا بأس أن نرفع ابهام عبارة الكتاب بذكر تمام ما أورده الرضى ذيل الخطبة ، قال : « فصعق همام صعقة كانت نفسه فيها ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام : أما والله لقد كنت أخافها عليه ، ثم قال : أهكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها ؟ فقال له قائل فما بالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ويحك ! ان لكل أجل وقتاً لا يعدوه ، وسببا لا يتجاوزه . فمهلا لا تعد لمثلها ، فانما نفث الشيطان على لسانك » قال العلامة الشيخ عبده فى ذيل قوله « فما بالك الخ » فما بالك لا تموت مع انطواء سرك على هذه المواعظ البالغة ؟ وهذا سؤال الوقح البارد .

اعترض في غير موضع الاعتراض ، و ذلك أنّه لا يلزم من موت العاميّ عند وعظ العارف أن يموت العارف عند وعظ نفسه لأنّ انفعال العاميّ ذي الاستعداد التامّ للموت عند سماع المواعظ البالغة أتمّ من استعداد العارف عند سماع كلام نفسه ، أو الفكر في كلام نفسه ، لأنّ نفس العارف قويّة جدّاً ، والآلة الّتي يحفر بها الطين قد لا يحفر بها الحجر .

فإن قلت : فإنّ جواب أمير المؤمنين عليه السلام للسائل غير هذا الجواب .

قلت : صدقت إنّما أجابه من حيث يعلم هو ، والسامعون لا تصل أفهامهم إليه ، فخرج معه إلى حديث الآجال وأنّها أوقات مقدرّة لا تتعدّاها ، وما كان يمكنه عليه السلام أن يذكر الفرق بين نفسه و نفوسهم ، ولا كانت الحال تقتضيه ، فأجابه بجواب مسكت و هو مع إسكاته الخصم حقّ و عدل عن جواب حصل منه اضطراب و يقع فيه تشويش ، وهذا نهاية السداد وصحّة القول . من شرح نهج البلاغة .

قيل للشبليّ : ما يجب في مائتي درهم ؟ قال : أمّا من جهة الشرع فخمسة ، وأمّا من جهة الإخلاص فالكلّ .

كان الرجل من السلف يضع الصدقة ويمثّل قائماً بين يدي السائل الفقير ويسأله قبولها حتّى يصير هو في صورة السائل وكان بعضهم يبسط كفّه ويجعلها تحت يد الفقير العليا .

قال بعض الصالحين : الصلاة تبلغك نصف الطريق ، والصوم يبلغك باب الملك ، والصدقة تدخلك عليه بغير إذن .

قال الشعبيّ : من لم ير نفسه أحوج إلى ثواب الصدقة من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته ، وضرب بها وجهه .

وكان الحسن بن الصالح إذا جاءه سائل فإن كان عنده ذهب أو فضّة أو طعام أعطاه فإن لم يكن أعطاه زيتاً أو سمناً أو نحوهما ممّا ينتفع به ، فإن لم يكن أعطاه كحلاً أو خرج بإبرة وخيط يخيط بها ثوب السائل ، أو بخرقة يرقع بها ما تخرّق من ثوبه ، ووقف مرّة على بابه سائل ليلاً ولم يكن عنده ما يدفعه إليه فخرج إليه بقصبة في رأسها شعلة قال : خذ هذه وتبلّغ بها إلى أبواب ناس لعلّهم يعطونك .

﴿فصل ٧﴾

✡(في المعارف والسعادات النفسية)✡

كان منصور بن عمّار يقول : إنّ الحكمة تنطق في قلوب العارفين بلسان التصديق وفي قلوب الزاهدين بلسان التفضيل ، وفي قلوب العبّاد بلسان التوفيق ، وفي قلوب المريدين بلسان التفكير ، وفي قلوب العلماء بلسان التذكير .

وكان يقول : سبحان من جعل قلوب أهل الدنيا أوعية الأحزان ، وقلوب الزاهدين أوعية التوكّل ، وقلوب المتوكّلين أوعية الإرادة ، وقلوب المريدين أوعية المعرفة ، و قلوب العارفين أوعية الذكر .

قالوا : وأمّا المعارف الصحيحة الصادقة معرفة الله الواحد الحقّ باليقين التامّ الخالص وأمّا الأفعال الصالحة العبادة له والازدلاف إليه وطلب الرضوان عنه وغاية المعرفة الصادقة الاتّصال بالمعروف ، وغاية الأفعال الصالحة الفوز بالنعيم والخلود في جوار الله .

هذا هو الصراط المستقيم الّذي يقع الجواز عليه . فأمّا من هو عن هذا عم [١] فهو في قطيع النّعم ، وإن كان يتقلّب في أصناف النِعم ، كالكلب كلب عينه [٢] ، ولو احتلى بسلاسل وخلاخل وجلاجل .

رؤوس تحت أعلام ثقال　　*　　ولكن فوق أحلام خفاف

وقالوا : إنّ الناس على أربعة أصناف :

صنف عقولهم مغمورة بشهواتهم فهم لا يبصرون بها إلّا حظوظهم العاجلة ، و لذلك يكدحون في تحصيلها ، ويدأبون [٣] كلّ جدّ وجهد في تأثيلها [٤] . و هذا نعت طالبي

---

(١) مخفف « عمى » والعمى : ذوالعمى .

(٢) اى ذاته .

(٣) دأب - من باب منع - فى العمل : جد وتعب و استمر عليه .

(٤) أى فى اكتسابها وتثميرها .

الدنيا وعبيدها ، يطعمونها ولا يشبعون ، ويشربونها ولا يرتوون[١] و ينظرون إليها ولا يملّون . يطلبونها وهم على يقين من فراقها ، و يركضون إليها وهم لا يشكّون أنّهم من صُرعاها .

و صنف عقولهم متنبّهة عن هذه السنة لكنّها مخلوطة بشوائب الجهل ، فهم يحرصون على الخير واكتسابه ، ويهربون من الشرّ بأتمّ اجتنابه ، ولكنّهم يخطؤون كثيراً لعدم كمالهم في أحوالهم وهذا نعت العبّاد الجهلة ؛ فلا عباده إلّا عن انتباه ، والعلماء الفجرة ؛ فلا علم إلّا مع شعبة من رشاد .

وصنف عقولهم ذكيّة ، ونفوسهم ملتهبة ، لكنّهم غمّت عليهم حقيقة أمر الآخرة و صورة نعيمها ، ولم يقدّروها حقّ قدرها . فهم يدأبون في نيل الحظوظ الدنياويّة بعلمهم و يأكلون الدنيا بدينهم عن حيلة وإراغة ، لا أكل بني الدنيا الدّنيا بالسواعد الشداد ، و السيوف الحداد . فأولئك صدورهم مقتدحة بزند[٢] العلم لكنّها غير ثلجة[٣] باليقين ، ولا منشرحة بالحقّ ، و إلّا لما أقبلوا على ما يفارقونه خاسرين كلّ هذا الإقبال .

وصنف أضاءت عقولهم بما أفاء الله عليها من اللّطف الخفيّ و الصنع الحفيّ ، فهم صفوته الّذين يحملون بالدنيا، ويستيقظون بالآخرة، تراهم حضوراً وهم غيّب ، أشباهاً وهم متبائنون ، قلوبهم ملىء من المحبّة ، و نفوسهم غرقى في بحار الإرادة ، قد رفضوا الناس وماهم فيه ، إلّا المقدار الّذي اضطرّوا إليه . فهم الموصوفون بالعفّة و الورع و الحرّيّة و و العدالة و الهمّة و كبر النفس و النجدة ، موقنين أنّ الرّجوع إلى الله ، و أنّ الحياة قليلة ، و الجزاء بعدها سرمد ، فلا يكترثون بالممات ولا يفرحون بالحياة . فيتحلّون عند ذلك بحلية الشجعان ، و يحسنون الدفاع عن حومة الدّين ، و ينصبون العقل على الهوى ويحسنون الاقتداء بعباد الله الصّالحين ، وأنبيائه المرسلين .

ثمّ يعلم كلّ إنسان ما يتبعه من علم ما يلزم للصانع على المصنوع ، وللمنعم على

---

(١) افتعال من الرى ضد العطش .

(٢) الزند - بفتح فسكون - هنا : العود الاعلى الذى يقتدح به النار .

(٣) ثلج به و اليه - من باب نصر - ثلوجاً : ارتاح به و اطمأن اليه .

المنعم عليه من الطّاعة و شكر النعمة و محض العبادة ، ولا يدرك ذلك إلّا بالنظر الّذي هو النور المنبثّ من العقل في العالم جملة ، ثمّ مامنح منه كلّ نفس مرضيّة تختار فضائلها الّتي هي العلم و الحكمة و العفّة و الزهادة و العدل و النجدة والرحمة و الوفاء و الحياء و التواضع و الصدقة و النصيحة و الأمانة و نحوها .

وعن هذا قال بعض الحكماء : إنّ الواجب على كلّ إنسان أن يكون منه على بال في كلّ حال أربع خلال :

إحداها أن يعلم أنّ نفسه عن قريب فانية وأنّ بنيته عن الانتقاض دانية .

و الثانية : أن يعلم أنّ له ربّاً خالقاً إن انقطع إليه أغناه عمّن سواه .

و الثالثة : أن يعلم أنّ للخالق عنايةً بليغة بدقيق مافي هذا العالم وجليله ، حتّى ينتهي أمر كلّ أحد إلى أحسن أحواله ، و أتمّ أوصافه .

و الرابعة : أن يعلم أنّ خالقه لايقبل من قرباته إليه مايشوبه، بل مايطيب ويصفو عن الكدورات و يخلص ولا يمتزج بالمشوبات ، كما جاء في الحديث « إنّ الله طيّب لايقبل إلّا الطيّب » فهذا من المعاني النظريّة الّتي لم يخالف أحد أنّ قدم الصدق فيها للزّهاد ، بحيث لايحارون[1] في السّعي إليه و الطلب لها ، فأمّا المعاني العلميّة المختصّة بهم فجملتها أن لا يسأل ولا يردّ ولا يحبس ولا يملك ، ولا يكون له اختيار ولا تدبير ، ولا انزعاج إلى الأسباب ، ولا اغترار بالأحوال .

و أصل باب العمل الإعراض عن الاعتراض ، و الانخلاع من الحول و الطول ، و التجرّد عن شعار الأمل ، و إتعاب النفس بآداب العبوديّة حتّى يموت عنها ، و تعليق القلب بآثار الربوبيّة حتّى يحيا بها .

وعن هذا حدّ الحكماء الأوائل الحكمة بأنّها معاناة[2] تعاطي الموت لا يعنون بذلك الموت الطبيعيّ الّذي هو مفارقة الروح الجسد على ما جبلت عليه الصور من فسادها، و الموادّ من نفادها ، ولكنّهم يعنون به الموت الإراديّ الّذي هو إماتة الشهوات ،وتغليب

---

(١) حار : رجع ، تحير .

(٢) المعاناة : المقاساة والمعالجة .

العقل على الهوى و الإرادات ، و الخروج عن دواعي النفس ودواعي الدنيا ، وقطع منازعة أهلها ، ومهارشة أصحابها . وهذا في الحقيقة حياة الأفاضل الأخيار ، وهذا الفناء هو البقاء عند أهل التصوّف .

و أمّا المعاني الكسبيّة فهو اقتناء المحاسن في الأفعال ، و المكارم في الأخلاق ، و التوفّر على الأشياء الباقية الجميلة الّتي يفارق الإنسان الدنيا ولا تفارقه ، بل تصحبه في قبره وتؤنسه في وحشته ، وترافقه في يوم بعثه ، وتشفعه عند الله في الدار الآخرة حتّى يجعله أهل لقائه وجزائه . و ذلك كلّ خلق كريم و سجيّة روحانيّة و أفعال ملكيّة و زلفة إلهيّة ؛ لا العُرى [١] تنزعها ، ولا العُدى [٢] تسلبها ، ولا الموت يهلكها ، ولا الفوت يدركها ، يعمر بصاحبها النادي [٣] والعطف عاطل ، ويعبر به الوادي والمرء راجل .

فلمّا فرّسوا الآيات صاغوا * لها طرقاً كما عقد السحاب

إذا ماتت تورّثه بنيها * و إن تقتل فليس لها استلاب

أمّا المعاني السياسيّة فهي لزوم المجاهدة ، ورياضة النفس على العلم اليقينيّ ، و الجمال الحقيقيّ حتّى تستصلح المضغة الّتي هي قلب هذا العالم و لبّه ، فيصلح لصاحبه أمر داريه ، ويوضع في يديه زمام سعادتيه ، و ذلك بفطام النفس عن المألوفات ، و كسح عنانها إذا جمحت [٤] نحو الشبهات ، فلا يأكل إلّا عند الفاقة ، ولا ينام إلّا عند الغلبة ، ولا يتكلّم إلّا عند الضرورة . يغلق على نفسه باب النعمة ، و يفتح باب الشدّة ، و يصدّ عن جهة العزّ ، علماً بأنّه يورث الذلّ الطويل ، و يقبل إلى قلبه الذلّ ، تيقّناً أنّه يعقب العزّ العزيز ، ويتجنّب أسباب الثروة ، ويسلك سبيل الفقر والفاقة ، ويميت دواعي النفس ويحيي معالم الروح .

و ليس جمال المرء إلّا بنفسه * وليس جمال الوجه منه بمحتسب

و ليس يسود المرء إلّا بنفسه * و إن عدّ آباءً كراماً ذوي حسب

---

(١) جمع العروة ، وهوهنا : ما يعول عليه .
(٢) اسم جمع للعدوّ .
(٣) النادي : مجلس القوم ماداموا مجتمعين فيه .
(٤) جمح الفرس - من باب منع - : تغلب على راكبه وذهب به لا يثنى .

إذا الغصن لم يثمر - وإن كان شعبة　　*　　من المثمرات اعتدّ الناس في الحطب

وإذقد بان الغرض من هذا التقرير ، وتصوّر المعنى في هذا التصوير ، فإنّي أعود إلى ما هو الغرض في ذلك من ذكر السعادة وتقسيمها فأقول : إنّها ثلاثة أقسام : أحدها نفسانيّ والآخر جسمانيّ والثالث رياشيّ .

فالسعادة النفسانيّة هي أن يكون الإنسان جيّد النفس ، قويّها على العلم ، أعني أنّها تقوى على درك العلوم ، فاذا أدركها و استوفاها ، وخرج من حيّز القوّة إلى الفعل فحصلت له السعادة النفسانيّة بالعلم .

و الجسمانيّة هي أن يكون المرء حسن الخلقة ، مقبول الصورة ، معتدل التركيب والبنية .

و الرياشيّ هو أن يكون موفّقاً لتحصيل مايمونه من غير حاجة إلى ازدياد وقلّة ، ولا إلى فضله غاية و كثرة . و إنّما اشترط في الرياشيّ ذلك لأنّ حدّ الفقر هو عدم الكفاية ، وحدّ الغنى وجود مافوق الكفاية ، فما نقص عن الحاجة فهو فقر وإقلال ومازاد عليها فهو فضل ووبال .

غنا المرء مايكفيه عن سدّ خلّة　　*　　فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقراً

مازاد فوق الزاد خلف ضائع　　*　　في حادث أو وارث أو عار

أيا جامع المال ! و قرّته　　*　　لغيرك إذ لم تكن خالداً

فإن قلت تخشى صروف الزمان　　*　　فكن من تصاريفه واحداً

وقد ظنّ قوم أنّ السعادة هي الكرامة ، وأولئك يلزمهم ضدّ مايرومونه ، لأنّها في المكرِم دون المكرَم ، فتلك أحقّ بالمكرَم ، وأخصّ بالمفضِل والمنعم ، ومن قدّر أنّها هي عند الولاية والرياسة فقد أخطأ الحقّ ، وباين الصواب .

وذلك أنّ جلّ الحكماء قد أجمعوا على أنّ الأحاظي والجدود إنّما هي اتّفاقات وبخوت [1] لايعرف لها أسباب معلومة ، ودواعي مفهومة . و كلّ ما كان وجوده من غير علّة ، فيوشك أن يكون عدمه من غير علّة ، وما لم يؤمن عليه الزوال و الانتقال ، فحقيق

(١) جمع « بخت » وهو الحظ ، والكلمة فارسية .

أن لايعدّ سعادة ولا يحسب نعمة مستفادة ؛ فالسعادة الحقيقيّة هي القنية النفسانيّة الّتي تعبر معك الوادي ، وتعمر بك النادي ، و أنّ ماسواها فانٍ زائل ودائر سائل .

ثمّ إنّ للنفس والبدن زينتين : زينة النفس العلم ، وزينة البدن المال . وفضل العلم على المال كفضل النفس البدن [١] ، و لذلك ترى بخل العالم المقلّ بعلمه إن لوخيّر في الجهل والمال أشدّ [٢] من بخل الجاهل الغنيّ بماله إن لو خيّر في العلم و الإقلال . و النفس والعلم معاً علّتان لانتفاع البدن بالمال ، و إنّما اشترط العلم مع النفس ، من أجل أنّ الصبيان و المجانين لهم نفوس ، وليس لهم علوم ، فهم لا ينتفعون بالقنية و المال ، لإفسادهم إيّاهما بالجهل والخبال ، فمتى مافارقاه بطل انتفاعه بهما أصلاً ، وزال استمتاعه بمكانهما بتّة ، فالعلّة أفضل من المعلول ، والسّبب أقدم من المسبّب ؛ فالفاعل أشرف من المنفعل ، والسعيد من خيّر له شرف النفس و كرم الطبع ، وسيق إليه الفضائل المذكورة ووقف عليه السعادة الحقيقيّة مونورة ، وجعل مرتاحاً للعلم و ذويه ، طمّاحاً إلى الفضل ومنتحليه ، بأخلاق يتراجع عندها قيمة الجوهر العزيز ، و يزيّف معها سبيكة الذهب الإبريز .

فطوبى لمن غنيت نفسه باقتناء السعادات الباقية وتخليقها بالأخلاق الكريمة العالية وتبقية ما خوّل من الخير والسعادة بأداء زكاتها ، والنهوض بأحقّ واجباتها ، وهو التواضع

---

(١) قال أميرالمؤمنين عليه السلام لكميل النخعي : « ياكميل ! العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال . المال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الانفاق . و صنيع المال يزول بزواله . ياكميل ! العلم دين يدان به ، به يكسب الانسان الطاعة في حياته ، و جميل الاحدوثة بعد وفاته والعلم حاكم والمال محكوم عليه . ياكميل ! هلك خزان الاموال وهم أحياء ، و العلماء باقون مابقي الدهر ؛ أعيانهم مفقودة ، و أمثالهم في القلوب موجودة » انظر النهج الرقم ١٤٧ من حكمه . وفي ديوانه المنسوب اليه عليه السلام :

رضينا قسمة الجبار فينا ● لنا علم و للجهال مال
فان المال يفنى عن قريب ● و ان العلم باق لايزال

ورواية المجاني (١:٢٢) : وان العلم ليس له زوال .

(٢) مفعول ثان لقوله «ترى» .

لمن دونه ، وليس في الأخلاق أجلب لمحبّات الصدور ، وأملك لمحبّات القلوب من اثنين : أحدهما السماحة ، والآخر التواضع ، أمّا السماحة فلما فيها من الإحسان إلى الإنسان والنفوس مفطورة على حبّ الإحسان ، وأمّا التواضع فمعناه قريب من معنى السماحة ، وذلك أنّ المحمودين على التواضع هم الأكابر الّذين قد ارتفعت منازلهم ، وسمت درجاتهم ومراتبهم عمّن يتواضعون لهم ، ووجدوا بسطة عليهم وفسحة في الاستغناء عنهم ، فأولئك يرونهم أحقّاء بالترفّع على قدر الرفعة والتمكين على حسب المكانة والجدة[١] ، فلا يطمعون منهم ما يطمعون فيه من جهة الأكفاء والنظراء والقائمين في الحال على سواء ، فإذا تواضعوا لهم كانوا قد وضعوا عنهم الاعتداد بزيادة الحال و المحلّ عليهم ، و وصفهم لذلك هبة لتلك الزيادة لهم ، والواهب للشيء محبوب ، والمحسن بأيّ وجه كان محمودٌ .

فهذا ما قلته في السعادة الحقيقيّة ، فإذا ثبت هذا و هو الأصل المسلّم و البناء المسوّس[٢] ، فخلق الإنسان من أحكم وأقوم وأحسن وأزين ما خلقه الله في هذا العالم فلابدّ أن يكون خلقه لأمر عظيم لا يضاهيه أمر وإن عظم ، ولا يدانيه شأن و إن فخم ، فيكون ذلك كمال جوهره ، و غاية سعادته ، ومنتهى غبطته ، فيزعم الفقير أنّ ذلك هو التقنّي بعد الإقلال[٣] ، وأنّ السعادة العظمى هي إصابته ، ويزعم العليل أنّه الإبلال[٤] بعد الاعتلال وأنّه إذا تمّ بالبرء سلامته ، والذليل أنّه العزّة وأنّها إدامته ، والجهول أنّه العلم وأنّها غزارته ، والعالم أنّه الخير وأنّها إفاضته . وحتّى يظنّ الخليع الماجن[٥] أنّه اللّذّات الحيوانيّة ، و أنّها الانهماك فيها ، والمشوّق العاشق أنّه رؤية العشيق الشائق وأنّها الإمتاع به والعيش معه . وحتّى يرى أصحاب السلطان اليوم معظم سعادتهم في نحو فاخر الملبوس ، و فاره المركوب ، و مستلذّ المأكول و المشروب ، وإملاء البطون من

---

(١) بكسر الجيم و تخفيف الدال : الثروة .

(٢) سوس له أمراً : زينه . ولا يناسبه المقام .

(٣) التقنّي : ادخار الفضل من المال . والإقلال : الفقر والحاجة .

(٤) الإبلال هنا : البرء من المرض .

(٥) الماجن هنا : قليل الحياء .

المطبوخات و الحلويّات ، و إتيان النساء عند هيجان الشهوة . و هذا من أفسد الظنون بل من آكد الجنون ، وألأم الأمور ، كما قيل :

إنّي رأيت من المكارم حظّكم * أن تلبسوا خزّ الثياب وتشبعوا
فإذا تذكّرت المكارم مرّة * في مجلس أنتم بها فتقنّعوا

وقال آخر :

تظنّون أنّ الفخر أنّ ثيابكم * يلوح عليها حسنها و بصيصها
وليس العلى درّاعةٌ و رداؤها * ولا جبّة موشيّة و قميصها
فهلاّ كما استنّ الثواني إذ جرت * على عادة أثوابه و خروصها
يروح على الإخوان غالي ثيابه * و يصبح مترو كاً عليه رخيصها

وقال الحطيئة في هجاء زبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها * واقعد فإنّك أنت الطاعم الكاسي [1]

فثبت بما ذكرنا أنّ السعادة الحقيقيّة هي بالجملة التنزّه عن ملاحظة هذه الخسائس [2] ، ومعانقة هذه النقائص .

ثمّ أعلم أنّ كمال النفس وصولها إلى دار كرامته ، و مستقرّ رحمته في دار ثوابه وجزائه ، مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . ومعلوم أنّ من انتهى بنفسه من أمره إلى هذا الحدّ ، وبلغ بنفسه هذا المبلغ ، و وقف من عمله على هذا الغرض ، تراءت له الدنيا في أوحش صورة ، ونعيمها في أقبح هيئة ، و نظر إلى أهلها بعين الرحمة والإشفاق ، و إلى زخارفها نظر الازدراء [3] والإطراح ، كما ينظر الرجل العاقل منّا إلى صبيان يتنافسون على خشبة ، أو كلاب يتهارشون على جيفة .

قال محمّد بن الأشعث : إذا بكيت فأتبع بكاءك البكاء على عدم الصدق في البكاء ، فلعلّ بكاءك النافع هو البكاء على البكاء .

---

(١) قيل : ان هذا أهجى بيت في العرب . وقد ذكرنا ترجمة الحطيئة والزبرقان و سبب وقوع الهجاء بينهما في ما علقناه على شرح شواهد مجمع البيان ، والمقام لايناسب نقلها .
(٢) جمع الخسيسة : الدنيئة ، الناقصة الوزن أو القدر .
(٣) ازدراه : احتقره . وهو من زرى لامن زرأ .

وقال أبوعثمان المغربيّ : من أسّس بنيانه على التقوى و الورع و المحاسبة جاءت أذكاره صافية وأفعاله خالصة .

وقال أبوسليمان الدارانيّ : طوبى لمن صحّت له خطوة واحدة لايريد بها إلّا الله .

وكان معروف الكرخيّ يقول : يانفس ! أخلصي وتخلّصي .

وقال بشر بن الحارث : إنّ الله يحاسب عباده على صفاء الضمائر ، ونقاءالسرائر .

وقال الشبليّ : من أجاب عنه بالعبادة فقد ألحد في أسمائه ، ومن أومأ إليه بالإشارة فقد أشرك في دعائه ، ومن نطق فيه عن نفسه فهو غافل ، ومن سكت عنه فهو جاهل ، ومن أوهم أنّه واصل فليس له حاصل ، ومن ظنّ أنّه قريب فهو بعيد شارد ، و من تواجد فهو عليم فاقد . و كلّ ماميّزتموه بأوهامكم وأدركتموه بعقولكم فهو مصروف مردود إليكم محدث مصنوع مثلكم .

وقال مرّة أخرى : ماشمّ روائح التوحيد من تصوّر عنده التوحيد ، وشاهدالمعاني وأثبت الأسامي .

وقال أحمدبن عيسى الخرّاز : أوّل التحقيق في هذه المقامات فناء ذكر الأشياء عن القلب ، وانفراده بالربّ ، و رفض محبّة الأشياء عن الضمير ، فلا يلتفت إليها ، ولا يلتذّ بها ، ولا يرادها بذواتها ، بل بمراد الله منها .

وقال أبوبكر الكنانيّ لأصحاب المرقّعات : إخواني ! لئن كان لباسكم هذاموافقاً لسرائركم لقد أحببتم أن تطّلع الناس عليها ، وإن كان مخالفاً لقد هلكتم وربّ الكعبة .

وقال : لبس الصوف حانوت ، والكلام في الزهد حرفة ، وصحبة القوافل تعرّض ، وهذه كلّها علاقات و معارضات .

وكان السريّ يذمّ الجلوس في المسجد الجامع و يقول : جعلوا الجوامع حوانيت ليست لها أبواب .

وعن الشبليّ رقّع قلبك ولاترقع لبستك .

وقال مرّة أخرى : أهل المعرفة ثلاثة : قوم قالوا : أنا ، و قوم قالوا : هو ، وقوم خرسوا فلم يقدروا أن يقولوا شيئاً ، وهم أفضل الثلاثة .

وقال : احذر أماكن الاتّصال فإنّها خدع كلّها ، و قف حيث وقف العبوديّة تسلم

ثمّ أنشد :

وكذّبت طرفي فيك والطرف صادق * و أسمعت أُذني فيك مالم تسمّع

ولم أسكن الأرض الّتي تسكنينها * لكيلا تقولي أنّني بك مولع

وقال إبراهيم بن أدهم : ترك الدنيا هو علوّ الهمم عمّا تنافست فيه الأُمم ، مخافة أن تزلّ به القدم ، والزهد فيما أحلّ الله لا فيما حرّم .

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال للأنصار : « إنّكم لتقلّون عند الطمع وتكثرون عند الفزع » .

وأنشد عليّ عليه السلام في طلحة بن عبدالله :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه * إذا ماهو استغنى ويبعده الفقر

وقال آخر :

وجدّك إن أيسرت خيّمت عندنا * مقيماً و إن أسرعت زدت لماما

فما أنت إلّا البدر إن قلّ ضوؤه * أغبّ ، و إن زاد الضياء أقاما

قال أبوالحسن الثوريّ : نعت الفقير السكون عند العدم ، و البذل و الإيثار عند الوجود .

وقال ذوالنون : نعت الزاهد أن يعترف بذنبه ، ويحسّن ذنب غيره ، ويجود بمالديه ويزهد فيما عند غيره ، ويكفّ أذاه ، ويحمل الأذى من غيره ، والفتى يعطي قبل السؤال ، فكيف يبخل بعد السؤال ؟ ويعذر قبل الاعتذار ، فكيف يحقد بعد الاعتذار ؟

قال السريّ : خمس من رسوم المقرّبين ؟ الرضا عن الله فيما تحبّ النفوس من الحقّ و تكره ، والحبّ لله بالتحبّب إليه فيما يحبّ ، والحيا من الله ، والأُنس بالله ، والوحشة من كلّ شيء سوى الله

﴿فصل ٨﴾

✡(في آداب النفس(١))✡

قال سهل : أوّل مايؤدّب به المبتدي التبرّي من الحركات المذمومة ، ثمّ التنقّل إلى الحركات المحمودة ، ثمّ التفرّد لأمر الله ، ثمّ التوقّف ثمّ الرّشاد ، ثمّ الثبات ، ثمّ القرب ، ثمّ المناجاة ، ثمّ المصافاة ، ثمّ الموالاة . ولا يستقرّ هذا بقلبه حتّى يرجع إلى إيمانه ، فيكون العلم والقدرة زاده ، والرضا والتسليم مراده ، والتفويض والتوكّل حاله ، ثمّ يمنّ الله عليه بعد هذا بالمعرفة ، فيكون مقامه عندالله مقام المتبرّين من الحول و القوّة ، و هذا مقام حملة العرش ، وليس بعده مقام .

وسئل أبو حفص عن الأدب مع الله فقال : القيام بأوامره على الإخلاص ، و صحّة المعاملة معه على الظاهر و الباطن مع الخوف ، و الصحبة مع الخلق بالرفق و الحلم و السخاء والشفقة ، والأخذبالفضل ،وصلةالقاطع ، والإحسان إلى المسيء ، وتعظيم الجميع وأن ينأ عنه القلب ، وازدرته العين . فإنّ كلّ أحد من المسلمين كائناً من كان لا يخلو من فضل الله ، ولعلّه ممّن يطيع الله .

وقال : كن لربّك عبداً ، ولإخوانك خادماً . و اعلم أنّه لا أحد من المسلمين إلّا وله مع الله سرّ ، فاحفظ حرمة ذلك السرّ .

و قال محمدبن أبي الورد : آفة الخلق في حرفين:اشتغال بنافلة و تضييع فرض و عمل جوارح بلامواطأة قلب .

وقيل : إذا غلبك النوم فانو بذلك راحة الخلق عن أذاك ، وعزل النفس عن هواها ،

---

(١) و انظر في الادب ما جمعه العلامة القاضي الطباطبائي في آخر الجزء السادس من تفسيره الكبير الميزان من أدب الله وادب أنبيائه لاسيما نبينا صلى‌الله‌عليه وآله ، فان فيه غنى و كفاية لمن أرادان يتادب . وفي الادب اشعار كثيرة نكتفي ببعض ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا　　يغنك محموده عن النسب
فليس يغني الحسيب نسبته　　بلا لسان ولا له أدب
ان الفتى من يقول : ها أنا ذا　　ليس الفتى من يقول: كان أبي

وتخفيف المؤونة على الملكين ، والدخول في العبوديّة ؛ فإنّ النائم لايدبّر من أمره شيئاً قد ودّع الدنيا والنفس والخلق .

وكان الدقّاق يقول : من أساء الأدب على البساط ردّ إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب ردّ إلى سياسة الدّواب .

وسئل ابن عطا : ما الأدب ؟ فقال : الوقوف على المستحسنات ثمّ أنشد :

إذا نطقت جاءت بكلّ ملاحة * وإن سكتت جاءت بكلّ جميل

و بالجملة : الناس في الأدب على أربع طبقات والأدب في نفسه على أربع مراتب .

فأمّا طبقات الناس في الأدب فمنهم أهل الدنيا أكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة والأسمار [1] والأشعار والخطّ والحركة باليد خاصّة ، وبالبدن جملة .

و أهل الدين أكثر آدابهم التفقّه في أحكام الشرع ، و التحلّي بالعبادة و أركانها وشرائطها ، و الانتهاء في المعاملات إلى مأخذ الشرع ، توفّراً على المباحات و تصوّناً عن المحظورات .

وأهل الإرادة أكثر آدابهم في رياضة النفوس و تأديب الجوارح و حفظ الحدود و ترك الشهوات .

وأهل المعرفة أكثر آدابهم في طهارة القلوب وحفظ الوقت ومراعاة الأسرار و قلّة التعريج على النفس وخواطرها ، و شدّة التحفّظ في مقامات القربة ومواقعها .

وأمّا مراتب الأدب الأربع فهي أن يحافظ في المعاملات بحيث لايعيب عليه الكبراء ، ولا يأخذ من الدنيا ما يعيب عليه الزهّاد ، ولا يقع من إيثار الأمور مايعيب عليه الحكماء ، وتكون الصلاة في مراعاتها بحيث لا يعيب عليه الحفظة ؛ فإنّ الصلاة مناجاة الربّ فلا ينظر سرّه إلّا إلى مولاه ، ولا يطلب من الدارين إلّا رضاه ، فهذا في معرفة الأدب .

فأمّا مجارى أحوال القوم في هذا المضمار وارتكاضهم في هذا الميدان **فمن آدابهم الطهارة** ، و أن يكون دهرهم عليها سفراً و حضراً ، ولا يدرون متى يأتيهم الموت ، فيفارقون الدنيا على الطهارة و ربّما جدّدوا الوضوء لكلّ صلاة من غير أن يتخلّل وضوءهم حدثٌ ، والقيام إلى الصلاة عمل والكون على الوضوء سنّة مؤكّدة ، وقد ورد في

(١) جمع السمر - بالتحريك - وهو السامر ، الذي يحدّث ليلا .

بعض الأحاديث أنّ رجلاً شكا من ضيق المعاش فأُمر بالمداومة على الوضوء ، فرزق رزقاً واسعاً .

ومن آدابهم في الصلاة تأهّبهم لها قبل وقتها ، حتّى لا يفوتهم الوقت الأوّل . ثمّ منهم من يتعرّف الأوقات بالعلامة الدالّة عليها في الجوّ ، و من مقدار ظلّ الزّوال في النهار كلّ وقت وبكلّ ناحية ، معتبراً ذلك بمقدّمة كم يزيد و كم ينقص ، و من النجوم ثوابتها وسيّاراتها . و منهم من يتعرّف ذلك بأوراده من ليله و نهاره على ما اعتادها في الأوقات والأيّام على اختلاف الفصول من الأعوام و يجتهدون في مصاحبة النيّة التكبير فلا تسبقه ولا يسبقها .

و أكثر سعي[1]] : العارفين في أعمال الصلاة هو في الإخلاص بحضور القلب عند كلّ عمل فلا يقول الإنسان « الله اكبر » و في قلبه شيء أكبر من معبوده . و لا يقول : «وجّهت» إلّا وقلبه متوجّه إلى الله . ولا يقول «الحمد لله » إلّا و قلبه منعّم بشكر نعمائه . ولا يقول «إيّاك نعبد وإيّاك نستعين » إلّا وهو متبرّىء من حوله و حول كلّ أحد إلّا ممّن له الخلق والأمر ، كذلك يستشعر الخشوع في كلّ ما يفعله ويتفهّم معاني ما يقوله ويعمله إلى أن ينتهي إلى التشهّد فيكون في نهاية الإقبال .

وقد سئل أبوسعيد الخرّاز : كيف الدخول في الصلاة ؟ فقال : هو أن تقبل على الله كإقبالك عليه يوم القيامة ووقوفك بين يديه للمحاسبة ، فإنّه مقبل عليك ومناج لك فاعلم بين يدي من أنت .

وقال : إذا رفعت يدك في التكبير فلا يكون في قلبك إلّا كبرياؤه حتّى تنسى الدنيا والآخرة في كبرياء الله ، ومعناه أنّه إذا كان في قلب العبد شيء غير الله لم يكن صادقاً في قوله « الله أكبر » .

ثمّ أدب التلاوة أن يشاهد بسمع قلبه كأنّه سمع من الله ، أو كأنّه يقرأ على الله و يكون معه الخشية والهيبة ما يكاد أن يذوب من غير أن يقول ويفعل .

وكان سهل ضعيف الحركة ، فلم يكن يبرح الأرض ، وكان لا يكاد يقوم من مكانه

---

(١) هنا ينتهي ما اختص به النسخة (د) .

حتّى إذا دخل وقت الصلاة تردّ إليه قوّته فيقوم في المحراب مثل الوتد فإذا فرغ من صلاته رجع إلى حال ضعفه .

وأما آدابهم في الزكاة فما ينبغي لهم أن تفرض عليهم ، لأنّ الله قد زوى عن الزهّاد أموال الدنيا فلا يقتنون زخرفها .

وسئل الشبليّ : كم في مائتي شاهيّة ؟ فقال : خمسة منها في واجب الأمر ، وفيما يلزمنا كلّها [١] .

وكان محمّد بن منصور إذا أُعطي شيئاً منها لم يأخذه و لم يفرّقه على أصحابه من الفقراء ويقول : شيء لم أرضه لنفسي كيف أرضاه لغيري[٢] ؟ وإذا حمل إليه ولم يعلم أنّه زكاة وصدقة قبلها .

ورأيت في رقعة كتبها رجل غنيّ إلى فقير من الزهّاد : يا أخي ! قد أنفذت إليك شيئاً ليس من الزكاة ولا من الصدقة ولا لأحد غير الله عليك فيه منّة ، فأسألك أن تستثيب الله في إدخالك على قلبي السرور بقبوله . انتهى .

فينبغي أن يتلطّف كلّ مؤمن عند من يتصدّق عليه بأنواع التلطّف حتّى يقبلها الفقير من ذلك الغنيّ ، لأنّ المحتاج لا يقبلها إلّا عن فقر ، فيكون قد حمل زاداً ليوم يحتاجه .

كما روي عن زين العبّاد عليّ بن الحسين عليهما السلام أنّه كان إذا وقف عليه السائل قال له : مرحباً بمن يحمل زادي .

وروى أيضاً أنّه كان يعول عن محاويج أهل المدينة خمسمائة بيت سرّاً لم يطّلع عليه أحد إلّا بعد وفاته عليه الصلاة والسلام . فعرفوا ذلك بقرينتين : الأُولى أنّه انقطع عنهم ما كان يوصل إليهم بسبب موته ، والقرينة الثانية أنّهم رأوا على كتفه الشريف أثراً ما كان يحمله على عاتقه يشبه ركبة البعير .

و كان أئمّتنا عليهم السلام يأمرون شيعتهم بصدقة السرّ ، و يقولون : إنّها تطفىء غضب

(١) بهامش الاصل : هذا كلام لا يلتفت اليه .

(٢) وفي النسخة (ر) : لا أرضاه ، مكان « كيف أرضاه » .

الربّ [١] . فالواجب علينا أن نقتدي بأفعالهم وأقوالهم صلوات الله عليهم .

وآدابهم في الصوم : [٢] صحّة مقاصدهم ، ومبانيه شهواتهم ، و حفظ أطرافهم وصفاء مطعمهم ، ورعاية قلبهم ، ودوام ذكرهم ، وقلّة اهتمامهم بالمضمون من رزقهم ، وترك ملاحظتهم لصومهم ، و اعتيادهم الجوع من غير اكتراث في عامّة أوقاتهم حتّى في أيّام الصوم .

وحدّث عن رويم [٣] قال : اجتزت في الهاجرة الّتي تشوي كلّ شيء ببعض سكك بغداد ، وعطشت فتقدّمت إلى باب دار فاستسقيت فإذا بجارية قد فتحت باب الدار وبيدها كوز جديد من الماء البارد ، فلمّا أردت أن أتناول من يدها قالت لي : صوفيّ يشرب بالنهار ؟ فاستحييت من نفسي و ضربت بالكوز الأرض ، و نذرت أن لا أفطر أبداً [٤].

ومن آدابهم في الصوم أن لا يصوم واحد منهم في جماعتهم إلّا بإذنهم لئلّا شغل قلوب أصحابه بفطوره وهم على غير معلوم ، وإنّما أرزاقهم من الغيب ، ثمّ إن صام واحد منهم من بين الجماعة [برضاهم [٥]] وحضر الّذين لا يصومون بمطعوم فليس لهم أن ينتظروا وقت إفطار ذلك الواحد الصائم فربّما كان في الجماعة صاحب فاقة ، ولعلّ الله يفتح وقت إفطاره شيئاً آخر. والأحسن أن يصوم الفتيان بصوم الشيخ ويفطرون بإفطاره . وليس للصائم أيضاً أن يأخذ نفساً لنفسه يدّخره لوقت إفطاره لأنّه ضعف في حاله [٦].

يحكى أنّ الشبليّ قال لرجل : يحسن أن يصوم الأبد، فقال الرجل : كيف ؟ قال : تجعل ما بقي من عمرك يوماً و تصوم .

---

(١) و في نهج البلاغة ط مصر بشرح عبده (١: ٢٣٣) في خطبة ذكر عليه السلام فيها أفضل ما توسل به المتوسلون الى الله عز و جل : « و صدقة السر فانها تكفر الخطيئة ، و صدقة العلانية فانها تدفع ميتة السوء» .

(٢) وانظر جامع السعادات للنراقي (٣ : ٣٧٥ - ٣٧٧) .

(٣) بضم الراء وفتح الواو - مصغراً - ابن أحمد بن زيد بن رويم ، صوفي شهير ، من جلة مشائخ بغداد ، من كلامه « الصبر ترك الشكوى و الرضا استلذاذ البلوى » الاعلام : ٣٢٩ .

(٤ ، ٦) بهامش الاصل : هذا كلام لا يلتفت اليه .

(٥) زيادة من النسخة (ر) .

و لابدّ في طريقتهم من ضمّ كفّ الجوارح إلى الكفّ عن المطاعم والمشارب؛ فيحفظ اللّسان عن الغيبة ، والعين عن النظر بالريبة ، والقدم عن المشي إلى مالا ينبغي ، ونحو ذلك إلى أن ينتهي الأمر إلى كفّ القلب عن الخواطر المزعجة والوساوس الملهية عن ذكر الله تعالى .

ومن آدابهم في الحج [١] أن لا يقعدوا عنه وهم عادمون للزاد والراحلة [٢] إلّا أن يقعدهم فرض لازم أو مرض قادح [٣] و عامّتهم دائبون في قطع العلائق و مفارقة الأوطان ومهاجرة الإخوان،فيحوالون [٤] نحو بيت الله من غير نفقة ولا زاد ، ولا يسألون عن الطريق ، ولا يعرّجون على الرفيق ، لا يقضون من الحجّ وطرهم ، ولا يقطعون عن تلك المعاهد أثرهم.

سلام على تلك المعاهد إنّها * شريعة و ردي أو مهبّ شمالي

ومن عاداتهم إذا دخلوا البادية لا يكادون يقصرون الصلاة [٥] و لا يتركون شيئاً من أورادهم في الحضر ، إذ ليس لأسفارهم مدّة معلومة ، والحاضرة والبادية عندهم واحدة.

فكأنّهم خرجوا عن حدّ التكاليف الشرعيّة بسلوكهم هذا الطريق بغير زاد وراحلة، وعدم تقصيرهم في الصلاة هو تمام التقصير ، اللّهمّ إلّا أن يكون سفرهم أكثر من حضرهم فيجب عليهم الإتمام وضابطه أن لا يقيم المسافر في بلدة عشرة أيّام ، فإذا أقام عشرة ثمّ سافر يجب عليه التقصير، وإذا لم يقم وكان دائم السفر أتمّ الصلاة .

و كذلك لايمشون بالأميال والمراحل والأعلام والمنازل ، إذا أقامتهم الحقيقة أقاموا وإذا سارت بهم ساروا ، وإذا نزلت نزلوا . وإذا بلغوا الميقات غسلوا رؤوسهم بالماء وقلوبهم بالتوبة . وإذا نزلوا ثيابهم وتجرّدوا عن ملابسهم نزعوا عن أسرارهم الغلّ والحسد ، وعن قلوبهم الهوى ومحبّة الدنيا ، ولا يعودون إلى ما خرجوا عن ذلك . وبعد أن قالوا : « لبّيك

---

(١) وانظر فيه جامع السعادات (٣ : ٣٨٠ - ٣٩٤) .

(٢ ، ٥) بهامش الاصل : هذا كلام لا يلتفت اليه .

(٣) اى مرض مضر لايطاق معه السير .

(٤) فى الاصلين : فيحويون .

اللّهمّ لبّيك ! » لم يجيبوا داعي النفس و منادي الهوى . و إذا نظروا إلى البيت بأعين رؤوسهم ، فمن الآداب أن ينظروا إلى من دعاهم إلى البيت بأعين قلوبهم ، و إذا طافوا حوله بأبدانهم تذكّروا قول الله تعالى [١] « و ترى الملائكة حافّين من حول العرش » فكأنّهم ينظرون إلى ذلك بعيونهم ، وإذا بلغوا المقام علموا أنّه مقام عبد وفى الله بعهده ، وندب الأوّلين والآخرين إلى متابعة قدمه ، فحرصوا على الوفاء بعهده وإذا استلموا[٢] الحجر علموا أنّ الحجر ملك يشهد لمن حجّ البيت . وإذ صعدوا الصفا فمن الأدب أن لا يعترض كدورة بعد الصفا . وإذا هرولوا بين الصفا والمروة فمن الأدب أن يحيد[٣] المفرّ عن نفوسهم وأهوائهم . و إذا وافوا منى فمن الأدب أن يتأهّبوا اللّقاء ، فعسى أن يظفروا بالمُنى . وإذا وافوا عرفات فمن الأدب أن يتعرّفوا إلى الواحد المعروف ولا ينصرفوا عن أمره بعد الوقوف .

و إذا دفعوا إلى المزدلفة فمن الأدب أن يجعلوا الدنيا و الآخرة و راء ظهورهم . وإذا رموا بالجمار رموا معها بالإرادات والشهوات ، وإذا حلقوا رؤوسهم حلقوا عن باطنهم حبّ الثناء ، وعن ظاهرهم إرادة الرياء . وإذا ذبحوا بدؤوا بذبح أنفسهم عن هواها . وإذا رجعوا إلى طواف الزيارة وتعلّقوا بأستار الكعبة من الأدب أن يلزموا بابه ، و يفترشوا جنابه وتبرّؤوا من الأسباب ، ويعرضوا عن سائر الأبواب .

و من آدابهم فى قراءة القرآن [٤] أن يجلسوا لها على طهارة ساكنين مطرقين مستقبلين القبلة غير متّكئين ولا متربّعين ، فيقرؤونه كذلك بترتيل ، بغير هذرمة[٥] مستشعرين أنّهم قارئو كتابه و كلامه ومطالعو جمال علمه وحكمته .

ومن كان منهم ذا علم ومعرفة بالقرآن فلا يقرأه إلّا عن تدبّر لمعانيه ، وتردّد في رياض فوائده . وما صدر من قراءته عن غفلة فلا يعتبر به من عمله ، وربّما يعيده موقناً أنّ

---

(١) سورة الزمر : ٧٥ .
(٢) فى الاصلين : استسلموا .
(٣) حاد عن الطريق : مال عنه وعدل .
(٤) وانظر فيه اصول الكافى (٢ : ٥٩٦ - ٦٢٧) وجامع السعادات (٣ : ٣٦٤ - ٣٧٤)
(٥) الهذرمة : السرعة فى المشى .

تردّد آية واحدة و تدبّرها خير له من ختمات خاليات عن التدبّر ، و كان بعض العارفين يقول : لي في كلّ جمعة ختمة ، وفي كلّ شهر ختمة ، وفي كلّ سنة ختمة ، ولي ختمة منذ ثلاثين سنة فما فرغت عنها بعد . وذلك بحسب درجات التدبّر فبذلك تجتنى ثمرات المعرفة على اختلاف ألوانها و تشابهها في الحسن و البهاء من جميع أوصافها و لا أن يكون ذلك مقصوراً على اقتباس الأنوار دون الأحوال ، حتّى يكون بحسب كلّ منهم حال عند كلّ علم وصف .

ومن آدابهم : في سائر أحوالهم ما نورده على سبيل الحكاية عنهم .

قال بعضهم : لا يكمل الرجل حتّى يساوي باطنه ظاهره في النظافة . و حتّى يستوي في قلبه المنع والعطا والعزّ والذلّ .

و قال إبراهيم بن فاتك : نعت الفقير السكوت عند العدم ، والبذل و الإيثار عند الوجود .

وقيل لمعروف الكرخيّ [1] في موته : أوص ، قال : تصدّقوا بقميصي فإنّي أُريد أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها .

وقال أبو تراب النخشبيّ : الفقير قوته ما وجد ، ولباسه ماستر ، ومسكنه حيث نزل .

وقال يحيى بن معاذ : الورع ورعان : ورع الظاهر فلا يتحرّك إلا لله ، وورع الباطن فلا يدخل قلبه شيء سوى الله .

وقال أبو يزيد : قمت ليلة أُصلّي فجلست ومددت رجلي ، فسمعت هاتفاً : من يجالس الكبراء ينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب .

وقال محمّد بن حامد : حسن الأدب مع الخلق أن يعذرهم فيما يجري عليهم من القضاء ولا يعيّرهم إلّا في مخالفة فريضة أو سنّة .

---

(١) أبو محفوظ ، معروف بن فيروز الكرخي أحد أعلام الزهاد والمتصوفين كان من موالي الامام على بن موسى الرضا عليه السلام ، وكان ابواه نصرانيين ، ولد في كرخ بغداد ونشأ و توفي بها سنة ٢٠٠ هـ اشتهر بالصلاح وقصده الناس للتبرك به حتى كان أحمد بن حنبل في جملة من يختلف اليه . انظر الوفيات (٤ : ٣١٩ ، برقم ٧٠٠) . وكلامه هذا فيه .

وقال محمد بن الفضل[1] : من استعمل آداب الظاهر تأدّب بظاهره ظاهر أصحابه ، ومن استعمل أدب الباطن وقعت له الهيبة في القلوب .

وقال الفضيل بن عياض : إنّي لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق خادمي وحماري .

و صحبه أبوعليّ الرازيّ ثلاثين سنة فما رآه ضاحكاً ولا باسماً إلّا يوم مات ابنه عليٌّ فقلت (كذا) له في ذلك ، فقال : إنّ الله أحبّ أمراً فأحببت ذلك .

وجمع السريّ آداب الفقراء في كلمة فقال : أن لا يسأل من أحد شيئاً ولا يكون معه شيء يعطي أحداً .

و قال سهل : الاشتغال بوقت ماض يضيع وقت ثان . و قال : وقتك أعزّ الأشياء ، أشغله بأعزّ الأشياء .

وقال سفيان : حسرة أُمور قد مضت وتدبير أُمور ما أنت ، ذهبا ببركة عمرك .

وقال محمد بن أبي الورد : آفة الخلق في حرفين : اشتغال بنافلة وتضييع فرض ، وعمل جوارح بلا مواطاة قلب .

وقال سهل بن عبدالله : من أخلاق الصالحين أن يحلفوا بالله لا صادقين ولا كاذبين ولا يغتابون ولا يغتاب عندهم ، ولا يشبعون بطونهم ولا يمزحون أصلاً .

وقيل : ارجع عند حمد الناس وذمّهم لك إلى شهادة الله عليك وعلمه بك ، وإذا أردت النهي والتحذير فاذكر الصفة لا الموصوف ، تسلم من الغيبة والوحشة ، والعلم كثير والعمر قصير ، فعليك من العلم بما لا يصلح العمل إلّا به ولابدّ لك من مكان تأوي إليه ، وسبب لمعادك ومعاشك ، ورفيق يؤنسك ، وعلم يدلّك ؛ فاطلب من الموضع السلامة ، ومن الرفيق المؤانسة ، ومن السبب حسن العاقبة .

وقال أبوالحسن الخوارزميّ : إنّما سمّوا أبدالاً لأنّهم أبدلوا من كلّ خلق دنيء بخُلق سنيّ ، و كلّ حال يباعد عن الله بحال يوصل إلى الله .

---

(١) محمد بن الفضل بن العباس البلخي ، صوفي شهير من أجلة مشائخ خراسان ، أصله من بلخ واخرج منها فدخل سمرقند ومات بها سنة ٣١٩ . الاعلام : ٩٦٤ .

وقال الحسين بن منصور[١] من أراد أن يذوق شيئاً من هذه الأحوال فليكن كما كان في بطن أُمّه مدبّراً غير مدبّر، مرزوقاً من حيث لا يعلم، أو يكون كما يكون في القيامة.

و قال: من الأدب أن يكون مراد العبد مراد الله فيه، فلا يقول فيما يقول: «أنا» و «نحن» و «اي» فإنّه إن قال العبد: «أنا» قال الله: تمست بل أنا، وقال العبد: لابل أنت يامولاي، قال المولى: بل أنت يا عبدي[٢].

وقال السريّ من أطاع من فوقه أطاعه من دونه، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز. وقال: خير الأدب الورع، وخير الورع حفظ اللسان عن المدح والذمّ، وقال: اتّباع الشهوات مذلّة في الدنيا، وندامة في الآخرة، وعمىً في القلب، وحجاب العبد عن الله. وقال: من النذالة أن يأكل الرجل بدينه.

و ذكر بعضهم آداب التكلّم فقال: أدب الكلام أن يكون حديثك مع الناس إمّا تنفيساً عن ملهوف أو تفريحاً لمحزون، أو تذكيراً لغافل، أو تعليماً لجاهل.

وقالوا في أدب العلم: أن يزيّن علمه بنفسه لانفسه بعلمه، ويعلم أنّ قلبه لايسعه العلوم فيودع فيها مايصلح أن يكون زاده إلى ربّه، وما يدلّه على القيام بأوامره، وأنّ خلاقه لاتسع استعمالها مع الخلق فيستعمل خواصّ أخلاقه مع من يوافقه ويعاشره في طريقه، ويبذل للباقين عشرته وطلاقته ويستعمل الورع بشرائطه وهو أن يكون قيامه إلى العمل بلا فتنة، وزهده بلا رغبة، ويقينه بلا شكّ وتيقّظه بلا غفلة، حليماً حمولاً إن جهل عليه جاهل تجافا عنه، وإن ظلمه لم يظلمه. وإن كُذب عليه لم يغضب، وإن مُدح لم يفرح. يعطي أخاه النافلة، ولا يسأله الفريضة. و يوجب على نفسه التفضّل لمن يمنعه الإنصاف ولا يأسى على شيء فاته، فإنّما بين طرفي الفناء فانٍ «و كلّ الّذي فوق التراب تراب» و يلزم نفسه خدمة من أطاع ربّه بكلّ جهده، و يفوّض أمره كلّه إلى مدبّره و يحفظ أوقاته وأحواله وأنفاسه، فلا يضيّع منها شيئاً، وعلى كلّ حال يستأنس بربّه، ويستوحش من الخلق، ويراعي ظاهره ويراقب باطنه، و يحفظ لسانه. وينظر في الحقّ بعين واعقة، و

(١) هو الحلاج الملحد، و لعلنا نترجم له في موضع آخر.

(٢) بهامش الاصل: هذا كلام لايلتفت إليه.

يسمع من العِبَر بأُذن عاشقة ، و يتلقّى الخير بنفس قابلة ، و طبيعة جاذبة مائلة . يكون في الدنيا كالغريب الّذي لايجزع من ذلّها ، ولا يشارك أهلها في عزّها . للناس حال و له حال أُخرى ، قد أهمّته نفسه ، و عمل لما يبقى له ، فالناس منه في عافية ، و نفسه منه في شغل [١].

وبالجملة لا يصحّ أدب إلّا بالتأديب من إمام يدلّه على عوراته ، ويوقفه على عثراته ، فإنّ من قتل نفسه في المجاهدة و أفنى أوقاته في الزهادة يكون مصحوب نفسه ، لايعرف عيب ما فيه إلّا أن يدلّه عليه من سلك المقامات ونازل الأحوال و أصابته بركات المشائخ و أنوار صحبة الأخيار ، فإن أخطأ مثل هذا السالك المرشد الهادي المهتدي رجع إلى عالم ناصح عامل بعلمه ، معرض عن دنياه ، مقبل على أمر دينه ، وإصلاح حاله ، وتهذيب نفسه .

فإن عدمه أيضاً رجع بالكلّيّة إلى ربّه ، فعساه أن يرحمه و ينقذه . و لله سبحانه الحمد والمنّة ، ويتضرّع إليه كما قال رسول الله ﷺ :

« اللّهم فكما حسّنت خلقي فحسّن خُلقي »

(١) وانظر النهج بشرح عبده (١ : ٣٥٢) آخر الخطبة ١٧٤ .

﴿فصل ٩﴾

✡(نذكر فيه نبذة من آداب السفر)✡

الزهّاد منهم طائفة تميل إلى الإقامة إلّا سفراً لفرض حجّ الإسلام حتّى قال أبو يزيد لابن خضرويه ـ وكان دائم السفر والسياحة ـ : إلى كم تسيح كأنّك المسيح ؟ فقال : إنّ الماء إذا مكث أنتن ، فقال أبو يزيد : كن بحراً لاينتن ولا يتغيّر .

ودادٌ كماء المزن لا يتكدّر * و عهد كعهد النجم لا يتغيّر

و كان بعضهم يقول : الانتقال من صفة إلى صفة مترقّياً نحو أبعد الدرجات في الخيرات أولى من الانتقال من بقعة إلى بقعة ، و كم ترى من يسافر بنفسه في البقاع النائية وقلّما ما يُرى من مسافر بروحه في الأحوال العالية .

جسمي معي غير أنّ الرّوح عندكم * فالجسم في غربة و الروح في الوطن

فليعجب الناس منّي : إنّ لي بدناً * لا روح فيه ، ولي روح بلا بدن

وقال رجل للربيع بن برد : لهممت أن أشتري بالقرب منك داراً ليكثر لقائي إليك فقال : يا أخي إنّ مودّة يغيّرها قلّة اللقاء لمدخولة[1]، إنّما المودّة بالقلوب لابالأبدان. وأُنشد :

توهمّنيك الودّ حتّى كأنّما * أُناجيك من قربي وإن لم يكن قربي

أما و الّذي لوشاء لم يخلق النوى * لئن غبت عن عيني لما غبت عن قلبي

قدتحقّقتك في سرّي فناجاك لساني * فاجتمعنا لمعاني و افترقنا لمعاني

إن يكن غيّبك التعظيم عن لحظ العيان * فلقد صيّرك الوجد عن الأحشاء داني

فأمّا الّذين يؤثرون السفر فإنّما ذلك بعد استيفائهم آداب الحضور من المجاهدات فأرادوا أن يضيفوا إليها آداب السفر استصلاحاً لقلوبهم ،واستكشافاً لأحوالهم ، واهتماماً

---

(١) ولكن في الحديث « زرغباً تزدد حباً » وقال الهذلي (شرح شواهد مجمع البيان ١ : ٣٠٩) :

اذا لم يكن بين الخليلين ردة * سوى ذكر شيء قد مضى درس الذكر

لأوصافهم ، و رياضة لنفوسهم حين أخرجوها عن المعلومات ، و حملوها على نمارقة [١] المعهودات . وأنّهم كيف يعيشون بلا علاقة ولا وساطة ، ولا سكن ولا وطن . وأنّ النفس ربّما أظهرت الانقياد في الحضر ، وأجابت في المصر إلى صدق المورد والمصدر ، فإذا وقعت إلى اتّصال الأسفار خرجت عن معيار ذلك المعيار ، فتكون للنفس أحوال تعرف بها خبايا أمورهم، و مكامن صدورهم. ويكون ذلك من خبء الله الّذي يخرجه الله تعالى بمحبّته عباده كيف شاء ومتى شاء كما قال [٢] «يخرج الخبء في السماوات» .

وكان سعيد بن المسيّب يسافر الأيّام في طلب الحديث، حديث واحد، وبه كان يفسّر قوله تعالى [٣]: «السائحون» أي المسافرون في طلب العلم ، وفيه جاء الحديث : «من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتّى يرجع» .

وكان عبد الله المغربيّ يسافر أبداً مع أصحابه محرماً ، فكان إذا تحلّل من إحرامه أحرم ثانياً ، ولم يرقطّ اتّسخ له ثوب أو طال له ظفر أو شعر وكان يجتزي بأصول النبات وقيل له في طول هذه الأسفار ، فقال : أرد معاهده لعليّ أجد شاهده ، و أستأنس بأثره و إن لم يغنني عن نظره . وأنشد:

وقد زعموا أنّ المحبّ إذا دنا　　*　　أفاق ؛ فإنّ النأي يشفي من الوجد
بكلّ تداوينا فلم يشف ما بنا　　*　　على ذاك قرب الدار خير من البعد

و كما أنّ بعض آيات الله في أنفس العباد كما قال : [٤] «وفي أنفسكم أفلا تبصرون» فبعض آياته في أقطار البلاد كما قال : [٥] «وفي الأرض آيات للموقنين» و قد جاء في الحديث: «البلاد بلاد الله والخلق عباد الله فحيثما وجدت رزقاً قم واحمد الله» وتنعّم بنعمته و تردّد في آياته ، فمن جعلت آياته في نفسه وقف عليها ولم يعرّج على غيرها فأبصر و تبصّر ، ومن جعلت له الآيات في الآفاق تردّد في أقطار الأرض ذات الطول و العرض ،

---

(١) كان في الاصل « زمارقة » ولم نجده في اللغة . والنمرقة وسادة صغيرة يتكأ عليها .
(٢) سورة النمل : ٢٥ .
(٣) سورة التوبة : ١١٢ .
(٤) سورة الذاريات : ٢١ .
(٥) سورة الذاريات : ٢٠ .

فشرب ونقّب [١] وسرى وأسرى كما قال تعالى [٢] : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » وقال : [٣] «فسيروا في الأرض فانظروا » وقال [٤] «وإنّكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » وقال [٥] : « و كأيّن من آية في السماوات والأرض يمرّون عليها » وقال [٦] : « وهو الّذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها» أمر بالمشي في مناكب بساطه ، و الرتوع في أكلاً أرزاقه .

وفي بعض الآثار أنّ الله يوكّل بالمسافر[ين] ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم فيعطي كلّ واحد على نيّته ، فمن كان نيّته في طلب الآخرة وأهلها أُعطي من البصيرة و الفطنة ، وفتح له من التذكرة و العبرة بقدر نيّته ، وجمع له همّه ، و كفاه بالقناعة والزهد ما همّه وأهمّه ، ودعت له الملائكة بالرحمة والمغفرة و هذه النيّة تختلف باختلاف همّاتهم [٧] .

فمنهم من همّته في سفره طلب العلم .

و منهم من يسافر للقي الصالحين والالتقاء مع رجال الدين ، وخاصّة في سفر الحجّ فإنّه توجّه إلى الله و مهاجرة إلى بيت الله .

و منهم من يخرج عن الأمصار بدينه ليفارق الناس و الرسوم الدنياويّة و الحظوظ النفسانيّة .

ومنهم من يريد الفرار من الإلف ، والصدود عن الحبّ ، ونسيان العهد على طول العهد .

و منهم من يريد التوحّد الذاتي حتّى يقوى يقينه و يطمئنّ قلبه ، فيستوي عنده الأماكن والأقوام . قال الثوريّ : هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخامل فكيف المشهورين؟ هذا زمان رجل ينتقل من بلد إلى بلد كلّما عرف في موضع تحوّل إلى موضع .

و منهم من يخرج لطلب الرخص إيثاراً للتقلّل وتقليل الهموم بالقوت ، كما يحكى

---

(١) بهامش الاصل : نقب اى أحاط بنواحى الارض ، قال الشاعر :
لقد نقبت فى الافاق حتى ٥ رضيت من الغنيمة بالاياب

(٢و٣) سورة النحل : ٣٦ .
(٤) سورة الصافات : ١٣٧ .
(٥) سورة يوسف : ١٠٥.
(٦) سورة الملك : ١٥ .
(٧) كذا فى النسخة (ر) وفى الاصل الاخر « هما مهم » و الصحيح «همتهم » .

أنّ داود الطائيّ خرج من الكوفة إلى البصرة لرخص الأسعار بها فأقام على سبعة عشر درهماً ورثها برهة من الزمان حتّى إذا انتهى منه أكله انقضى عند ذلك أجله .

وذكر أبو نعيم قال: رأيت الثوريّ وقد وضع جرابه[١] على ظهره ، فقلت : إلى أين يا أبا عبد الله ؟! فقال : بلغني عن قرية فيها رخص ، فأُريد أن أُقيم فيها فقلت : وتفعل هذا يا أبا عبدالله؟ قال: نعم إذا بلغك عن قرية رخص فأقم بها فإنّه أسلم لدينك وأقلّ لهمّك .

ومنهم من يسافر إلى الثغور للجهاد والرباط .

ومنهم من يسافر لزيارة الأخيار من عباد الله . و في الحديث أنّ رجلاً زار أخاً له في قرية أُخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكاً فقال له : أين تريد ؟ فقال : أخ لي في هذه القرية ، فقال : أبينك و بينه رحم تصلها ؟ قال : لا ، قال : فله عليك نعمة تربّها ؟ قال : لا ، إلّا أنّي أحببته في الله ، فقال : قال : إنّي رسول الله إليك يبشّرك بالجنّة ، و يخبرك بالمغفرة .

ومنهم من يقصد بسفره زيارة أحد المشاهد المشرّفة الّتي هي مدافن الأئمّة الأطهار عليهم السلام ، أو زيارة أحد المساجد الأربعة[٢] مسجد الحرام و مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله و حائر الحسين ومسجد الكوفة . وربّما يريد أن يصلّي في جميعها في سنة واحدة فليستوجب على الله المغفرة .

فهذه موارد أسفارهم ، وهم في جميع ذلك مراعون لهممهم . حافظون لقلبهم .طريقهم فيه صدق التوكّل ، وزادهم خالص التقوى ، ورفيقهم الصبر على البلاء ، و الرضا بالتصريف على ساق القضا . يتقلّبون من التوكّل في يد الوكيل كيف شاء ، فالتوكّل هو الرضا بأمر الوكيل ، و الصبر هو التصرّف على إرادة الصبور ، و التسليم هو الرضا بحكم الحاكم كما قال عزّ من قائل [٣]: «الّذين صبروا وعلى ربّهم يتوكّلون » و قال[٤] : «إن الحكم

---

(١) الجراب ـ بكسر الجيم ـ هنا : وعاء من جلد .

(٢) وهي التي يغير المسافر فيها بين القصر والاتمام .

(٣) سورة النحل : ٤٢ .

(٤) سورة يوسف : ٦٧ .

إلّا الله عليه توكّلت » .

وقال : أبو محمّد الحريريّ : كمال الرجل في الغربة ليذلّ نفسه،والصحبة ليتخلّق بأخلاق الرجال ، و الفطنة ليميز .

وقال : إبراهيم بن المولّد : السياحة بالنفس لآداب الظواهر علماً وشرعاً و خلقاً ، والسياحة بالقلب لآداب البواطن حالاً ووجداً و كشفاً وكان يقول:نفسك سائرتك وقلبك طائر فكن مع أسرعهما وصولاً .

و قال ذوالنون ، سافرت سفرة فجئت بعلم يعلمه الخاصّ والعامّ ثمّ سافرت الثاني فجئت بعلم يعرفه الخاصّ و ينكره العامّ ، ثمّ سافرت الثالثة فجئت بعلم ينكره العامّ و الخاصّ وصرت به وحيداً شريداً طريداً .

وحيدٌ من الخلّان في كلّ بلدة * إذا عظم المطلوب قلّ المساعد

متى يشتفي من لاعج الوجد في الحشا * محبّ لها في قربها متباعد [1]

روى أبو القاسم الدمشقيّ قال : سمعت : أبا عمرو الدمشقيّ يقول لرجل يوصيه في سفر يريده : يا أخي لاتصحب غير الله ، فإنّه يكفيك المهمّات ، ويشكرك على الحسنات ويستر عليك السيّئات ، ولا يفارقك في خطرة من الخطرات .

و قال أبو يعقوب السّوسيّ يحتاج المسافر إلى أربعة أشياء في سفره : علم يسوسه ، و خُلق يصونه ، وورع يحجزه ، وجدّ يحمله .

و قيل : راحة القلب بأربعة : دوام السّفر ، و صفاء المطعم ، و مباينة الأيّام ، و إسباغ الوضوء .

وروي أنّ رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إنّي أُريد سفراً فقال: «في حفظ الله و كنفه . زوّدك الله التقوى ، وغفر ذنبك ، ووجّهك للخير حيث كنت » فانظر إلى هذه الأربعة في هذا الدعاء الشريف الّتي فاقت علي غيرها من الرباعيّات .

وقال رجل لرويم : إنّي أُريد سفراً و لكن منعني أنّه ليس عندي شيء ، فقال : لا

---

(١) اللاعج : الهوى الشديد المحرق .

يمنعنّك[١] العدم من سفرك و اخرج لقصدك ، فإن لم يعطك ما لغيرك لم يمنعك مالك .

وقال بعض الحكماء : التقلّب في الأمصار و التوطّن في المجامع و التصرّف في الصناعات و استماع فنون الأقوال ممّا يزيد الإنسان بصيرة و حكمة ، و تجربة ، و يقظة و معرفة وعلماً . فقيل : ماالبصيرة ؟ فأجاب : لحظ النفس الأمور ، والحكمة بلوغ القاضية[٢] في ذلك اللّحظ ، و التجربة كشف الغطاء عن الأمر ، والمعرفة تحصيل ماشاهد به الحسّ بنور الفعل ، و العلم كمال النفس .

و قيل : إنّما سمّي السفر سفراً لأنّه يسفر عن آيات الله

وقيل : لأنّه يسفر عن أخلاق الرجال .

وممّا أنشدني بعض الأصحاب في السير و السفر :

ماذا يريني اللّيل من أهواله * أناابن عمّ اللّيل و ابن خاله

إذا دجى دخلت في سرباله * لا كالّذي يفرق من خياله

يا ويح قلبي ! لايزال يروعه * ممّن يعزّ عليك وشك فراق

تتقاذف البلدان بي فكأنّني * ولّيت أمر مساحة الآفاق

وطول مقام المرء في الحيّ مُخلقٌ * لديبا جتيه ، فاغترب تتجدّد

ألم تر أنّ الشمس زيدت محبّة * إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

ما للمعيل و للمعالي ؟ إنّما * يسعى إليهنّ الدؤوب الفارد

كالشمس في أُفق السماء تجوبها * وأبو البنات النعش فيها راكد[٣]

الجمع و الفرق له أربعة معان : أحدهما أنّ الفرق مانسب إليك و الجمع ماسلب عنك. قال الأبهريّ : والجمع جمع المتفرّقات ، و الفرق تفرقة المجموعات . فإذا جمعت قلت: الله ولا سواه ، و إذا فرقت نظرت إلى الكون .

و الثاني أنّ الفرق شهود أحوال العبد في العبادة و الجمع ظهور ألطاف الربّ في

---

(١) كذا في النسخة (ر) وفي الاصل « لايمنعك » بدون نون التأكيد .

(٢) كذا في الاصل وفسره بهامشه بالموت والقاطعة ، وأظن أن الصواب « القاصية » بالمهملة اى الى نهاية اللحظ .

(٣) جاب البلاد يجوبها : قطعها .

العون و التوفيق فقوله تعالى : « إيّاك نعبد » إشارة إلى الفرق « و إيّاك نستعين » إشارة إلى الجمع قال الجنيد : إذا نظرت إلى نفسك فرّقت ، وإذا نظرت إلى ربّك جمعت .

و الثالث جمع الجمع وهوالاختطاف بشهود الحقّ عن شهود الخلق . قيل : الجمع عين اليقين ، والتفرقه علم اليقين ، وجمع الجمع حقّ اليقين . فمعنى علم اليقين أحكام الإسلام وما كان بشرط البرهان،وعين اليقين أداب الإسلام وماكان بحكم البيان ، وحقّ اليقين ما كان بنعت العيان من حقايق الإيمان.فعلم اليقين يقع فيه باضطراب و اختلاف،وعين اليقين عن موافقة و سكون ، وحقّ اليقين عن فناء واستغراق . فإذا انفرد علم اليقين عن عين اليقين وقعت فيه الشبهات ، وإذا انضمّ إليه عين اليقين ظهرت البيّنات ، و إذا زانهما حقّ اليقين انتهى صاحبه إلى أعلى الدرجات .

و أمّا الرابع فهو الفرق الثاني عن الجمع الثالث ، و هو الردّ إلى شهود الحال بالثبات الأوّل عند أوقات أداء الفرائض رجوعاً لله بالله لا للعبد بالعبد.وأنشد الجنيد :

إن يكن غيّبك التعظيم عن لحظ عياني * فلقد صيّرك الوجد من الأحشاء داني

ومن ذلك الفناء والبقاء وهو على أربعة معان أيضاً :

أحدها سقوط الأوصاف المذمومة و قيام الأوصاف المحمودة فلا يخلو العبد عن أحدهما بوجود الآخر فإنّه متى فني عن شهوته بقي بإخلاصه في عبوديّته .

و الثاني الغيبة عن الأغيار لاعيناً ولا أثراً فيقال فني عن الخلق و بقي بالحقّ .

والثالث فناء بعض الأوصاف ببعضها ؛ قال الله تعالى [1] : « فلمّا رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهنّ » لم يجدن عند لقاء يوسف ألم قطع الأيدي وهو موجود ، ووجدن حالاً أخرى غير موجودة ، حتّى «قلن ما هذا بشراً »ولقد كان بشراً وقلن : « إن هذا إلّا ملك كريم» ولم يكن ملكاً .

والرابع : فناء عن شهود فنائه عند استهلاكه في وجود بقاء الحقّ ، فيظهر ذلك البقاء الخفيّ ويفني ذلك الفناء الحقيقيّ فتزهر أنوار وتنطفىء نار .

ويحصل يوم ذو أهاضيب ماطر * ويخضرّ في يوم المسرّة عود [2]

(١) سورة يوسف : ٢١ .

(٢) الاهاضيب جمع الاهضوبة - بضم الهمزة - : الدفعة من المطر .

و يحدث أمر ليس يقدر قدره * و عيش جديد لايزال جديد
سقى الله أيّاماً نعمنا بطيبها * وصال و قرب دائم و شهود
سلام عليها لاسلام مودّع * ولكن سلام لا يزال يزيد

ومن ذلك الغيبة والحضور كلاهما أيضاً على أربع مراتب :

غيبة عمّا يجري عن أحوال الخلق لوارد خوف أورجاء من تذكّر ثواب أو عقاب كما يروى [١] أنّ عليّ بن الحسين عليهما السلام كان في سجوده فوقع حريق في داره فلم ينصرف عن صلاته فسئل عن حاله فقال : «ألهتني النار الكبرى عن هذه النار» .

وغيبة عن تصوّر سلطان الحقيقة بكماله لعدم طاقته واحتماله ، كما يحكى [٢] أنّ رجلاً وافى حيّاً من أحياء العرب فأضافه شابّ ، فبينا الشابّ في خدمته إذ غشي عليه فسأل الفقير عن حاله، فقال : بنت عمّه قد علقها ، يسمع حديثه وجرس حركته فغشي عليه فمضى الضيف إلى باب الخيمة فقال : إنّ للغريب فيكم حرمة وذمّة ، وقد جئت إليكم مستشفعاً في أمر هذا الشابّ الهالك الحرس ، فقالت المرءة : أنت سليم القلب ، إنّه لايطيق شهود غبار ذيلي فكيف يطيق صحبتي ؟

وغيبة عن دوام سلطان الحقيقة كما قال صلى الله عليه وآله [٣] : « إنّه ليغان على قلبي حتّى أستغفر الله في اليوم سبعين مرّة » و الغين الغيم ، و الاستغفار طلب الستر و الغفر الستر ومنه المغفرة والغفيرة ، فكانه عليه السلام يطلب الستر و الشدّ على القلب عند تجلّي سلطان الحقيقة بمقدار ماتؤوب إليه النفس فلا بقاء مع دوام التجلّي .

وأمّا الحضور فهو أيضاً على أربعة أوجه :

حضورالقلب للربّ باستدامة الذكر ، و الإقبال على الفكر ، و الإعراض عن أمور الدنيا .

وحضور بالحقّ إذا غاب عن الخلق بالغيبة عن أغراض النفس ، كما يحكى أنّ

---

(١) رواها المحدث القمي في منتهى الامال (٢ : ٨) عن عين الحياة .

(٢) الحكاية مضطربة العبارة والمقصود واضح .

(٣) رواه ابن الاثير في النهاية مادة (غين) والغزالي في الاحياء (٤ : ١٠) .

ذاالنون بعثواحداً من أصحابه إلى أبي يزيد لينقل إليه صفته فورد بسطام ودخل عليه فقال أبو يزيد : ما تريد ؟ قال : أريد أبايزيد ، فقال : من أبو يزيد ؟ أين أبويزيد ؟ أنا في طلب أبي يزيد . فخرج الرجل وقال : هذا مجنون ، فرجع إلى ذي النون فأخبره بماشهد فبكى وقال : ذهب أخي أبويزيد في الذاهبين إلى الله .

وحضور القلب بنعت البيان غير محتاج إلى ناقل الدليل ، وتطلّب السبيل ، فيكون مبسوطاً بصفاته ، غير مربوط بآناته ، كما أنشد .

ليلي بوجهك مشرقٌ * و ظلامه في الناس ساري
والناس في سدف الظلام ونحن في ضوء النهار[١]

وحضور بمشاهدات الذات ، والغيبة عن جميع الصفات ، عند توالي أنوار التجلّي؛ توالي بروق لا ينقطع آخرها عن أوّلها ، كما يطلع الصباح على المصباح فيصير المخطوف[٢] مألوفاً و الوميض[٣] شهاباً .

فلمّا استبان الصبح أدرك ضؤوه * بأنواره أنوار ضوء الكواكب
تجرّعهم كاساً لو ابتلي اللظى * بتجريعه طارت كأسرع ذاهب[٤]

(١) السدف ـ بفتحتين ـ الظلمة ، الضوء (ضد) .
(٢) المخطوف : الشيء الذى استلب بسرعة .
(٣) وميض البرق : لمعانه خفيفاً .
(٤) اللظى : النار أولهبها .

﴿فصل ١٠﴾

✡(يشتمل على مواعظ)✡

قال أبوذرّ رحمه‌الله : قال النبيّ ﷺ فيما يروي عن ربّه عزّ وجلّ : « قل! ياعبادي إنّي حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظلموا .

ياعبادي! كلّكم ضالّ إلّا من هديته ، فاستهدوني أهدكم .

ياعبادي! كلّكم جائع إلّا من أطعمته فاستطعموني أُطعمكم .

ياعبادي! كلّكم عار إلّا من كسوته فاستكسوني أُكسكم .

يا عبادي ! إنّكم تخطؤون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم . لو أنّ أوّلكم وآخركم،لوأن جنّكم و إنسكم كانوا على أتقى قلب واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئاً .

ياعبادي ! لوأنّ أوّلكم وآخركم جنّكم وإنسكم في صعيد واحد و سألني كلّ واحد منهم مسألة فأعطيته ما نقص ذلك ممّا عندي إلّا كالمخيط إذا دخل في البحر .

يا عبادي ! إنّما هي أعمالكم أُحصيكم وأُوفيكم إيّاها يوم القيامة ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلو منّ إلّا نفسه » .

وعن حذيفة عن النبيّ ﷺ قال : كان رجل ممّن كان قبلكم يسيء الظنّ بعمله فقال لأهله : إذا أنامتّ خذوني فأحرقوني و اذروني في البحر في يوم صائف ففعلوا به ذلك ، فجمعه الله ثمّ قال له : ماحملك على الّذي صنعت ؟ قال: ما حملني إلّا مخافتك،فغفر له .

وعن إبراهيم بن الأشعث قال : سمعت فضيلاً يقول : الخوف أفضل من الرجاء مادام صحيحاً فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل من الخوف . فذكرت ذلك لأبي عبيدة بن فضيل فقال : سمعت إبراهيم يقول : قال الفضيل : إذاكان في صحّته مسيئاً ساء ظنّه عند الموت ، ولم يعظم رجاؤه ، وإذا كان في صحّته محسناً عظم رجاؤه عند الموت وحسن ظنّه.

و قيل : إنّ النبيّ ﷺ حين خرج إلى الطائف مرّ بقبر ، قال : « هذا قبر

أبي رغال [1] قد دخل مكّة في بعض حوائجه فسلم بعد قومه مدّة طويلة ، فلمّا خرج من الحرم [أصابهما][2] أصاب قومه من الهلاك » .

وروى هشام بن عروة عن أبيه عن النبيّ ﷺ قال : «إنّ الشيطان يأتي أحدكم فيقول له : من خلق السماوات ؟ فيقول : الله ، فيقول : من خلق الأرض ؟ فيقول : الله ، فيقول: من خلق الله ؟ فإذا أحسّ أحدكم [من ذلك] [3] شيئاً فليقل : آمنت بالله ورسوله» .

وقال أبوسعيد المقبري ! مفتاح المحبّة لله المنّة من الله ، و مفتاح الجهد في الأعمال التقصير في الآمال ، ومفتاح التوبة مجلس الموعظة ، و مفتاح السخاوة حبّ الضيافة ، و مفتاح السلامة كظم الغيظ ؛ و مفتاح الظفر الصبر ، ومفتاح الغنيمة القناعة ، و مفتاح الحكمة ترك الشهوة ، ومفتاح الفراغ قلّة المعرفة ، ومفتاح الراحة ترك الفضول ، و مفتاح التواضع تقريب الفقراء ، ومفتاح الملامة ترك المشورة ، ومفتاح الوقوع في الهلاك ترك العمل بالعلم ، ومفتاح البلاء ترك الدعاء .

وعن عمر بن ميمون قال : افتتحنا بفارس مدينةً فدلّلنا على مغارة و ذكرلنا أنّ فيها أموالاً فدخلناها و معنا من يقول بالفارسيّة ، فصرنا إلى بيت شبيه بالأزج [4] عليه صخرة عظيمة فقلّبناها فإذا فيها سريرٌ من الذهب عليه رجل و عند رأسه لوح فيه كتابة ، فقرئت لنا فإذا فيها :

---

(١) هذا هو الصحيح : وفي الاصلين : «ابن ابى رغال» وهو من ثقيف طائف ، توجه اليهم أبرهة ليخرب بيتهم اللات ـ وكانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة ـ فقالوا له : ايها الملك انما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون، ليس لك عندنا خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد، انما تريد البيت الذى بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه . فبعثوا معه أبارغال يدله على الطريق الى مكة ، فخرج أبرهة ومعه أبورغال حتى أنزله المغمس ـ بتشديد الميم من باب التفعيل ، وهو موضع بطريق الطائف على ثلثى فرسخ من مكة ـ فلما أنزله به مات أبورغال هناك ، فرجمت قبره العرب ، فهو القبر الذى يرجم الناس بالمغمس . انظر سيرة ابن هشام (٤٧:١-٤٨) و ذكره ابن منظور فى اللسان (رغل) وقال : اسمه زيدبن مغلف . وقيل فيه وفى سبب موته غير ذلك . وانظر معجم ما استعجم ومعجم ياقوت .

(٢) بين المعقوفين زيادة منا رعاية لقوله « فسلم بعد قومه » .

(٣) زيادة من النسخة (ر) .

(٤) بيت يبنى طولا ، ويقال له بالفارسية « أوستان » . (لسان العرب) .

يا أيّها العبد المملوك ! لاتتجبّر على خالقك ، ولا تتعدّ قدرك الّذي جعله الله لك . إنّ الموت غايتك ، و إن طال عمرك ، و إنّ الحساب أمامك و إنّك إلى مدّة معلومة متروك ، ثمّ تؤخذ بغتة أحبّ ماكانت الدنيا إليك فقدّم لنفسك خيراً تجده محضراً ، ولا تتزوّد من متاع الغرور إلّا ليوم فاقتك .

أيّها العبد المملوك ! اعتبر بي فإنّي معتبراً وعليك من الله في حجّة ، أنا بهرام ابن بهرام ملك فارس ، من أغناهم بطشاً و أقساهم قلباً ، وأطولهم أملاً ، وأرغبهم في الدنيا لذّة ، وأحرصهم على حبّ الدنيا . دوّخت [١] البلاد ، و قتلت الملوك ، و هزّمت و ذلّلت المقاول [٢] ، وجمعت من الدنيا مالم يجمعه أحد قبلي ، ثمّ لم أستطع أن افتدي به من الموت إذا نزل بي [٣] .

وروي عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّه قال: «يوجد عقل ابن آدم وعمره في حسابه ، فإذا بلغ من السنين عشراً استدار في المحافل كاستدارة عقد العشرة ، فإذا بلغ العشرين توسّط المحافل كتوسّط الإبهام بين المسبّحة [٤] والوسطى ، فإذا بلغ الثلاثين انقفلت [٥] لحيته كانقفال الأشياء ، و إذابلغ الأربعين اعتمدعليه أهله كاعتماد الإبهام على المسبّحة ، فإذا بلغ الخمسين انحنى كانحناء الإبهام ، فإذا بلغ الستّين ركبه من كان يعتمد عليه كركوب المسبّحة للإبهام ، فإذا بلغ السبعين لصق بالأرض ، فإذا بلغ الثمانين أخذ العصا ، فإذابلغ التسعين ضاقت عليه الأرض بحذافيرها،فإذابلغ المائة عاد كيومه في العشرة»

وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «إذا بلغ المؤمن أربعين سنة آمنه الله تعالى من الأدواء الثلاثة الجنون و الجذام والبرص ، فإذا بلغ الخمسين خفّف الله عنه حسابه ، فاذا بلغ الستّين رزقه الله الإنابة،فإذا بلغ السبعين أحبّه أهل السماء ، فإذا بلغ الثمانين أمر الله عزّ وجلّ بإثبات حسناته وإلقاءسيّئاته ، فإذا بلغ التسعين غفر الله لهماتقدّم من ذنبه

(١) دوخ البلاد : قهرها واستولى على أهلها .

(٢) جمع المقول - بكسر الميم وفتح الواو - الملك من ملوك حمير .

(٣) في النسخة (د) : اذ نزل بى .

(٤) بكسر السين ، الاصبع السبابة . وبمعناه السباحة بتشديد الباء .

(٥) انقفل الباب : انغلق ، الغزاة : رجعوا ، الرجل : مضى لما هو فيه . وكلها غيرمناسب .

وما تأخّر ، و كتب : أسير الله في أرضه ، فإذا بلغ المائة فذلك أرذل العمر» .

وقال الحسن البصريّ : العلم خير ميراث ، و الأدب أزين لباس ، و التقوى خير زاد ، والعبادة أربح بضاعة ، والعقل خير قائد ، وحسن الخلق خير قرين ، والحلم خير وزير ، والقناعة أفضل غنى ، والتوفيق خير عون ، وذكر الموت خير مؤدّب .

وقال خطّاب العابد : قال بعض المتعبّدين : طلب الجنّة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء الرحمة ممّن لا يطاع حمق و جهالة .

وقال لقمان عليه السلام لابنه : «يابنيّ خلق الإنسان على ثلاثة أثلاث[1] ثلث لله و ثلث لنفسه و ثلث للدود والتراب فأمّا الثلث الّذي لله فروحه ، والّذي لنفسه فعمله ، و الّذي للدود والتراب فجسده . فالعاجز الخاسر من يتعصّب و يسعى للدود والتراب» .

وقال عيسى عليه السلام : «إلى متى توعظون ولا تتّعظون ؟ لقد كلّفتم الواعظين تعباً» .

وقال الحسن البصريّ : مامن يوم يمرّ على ابن آدم[2] إلّا قال : إنّي يوم جديد ، وإنّي على ماتعمل فيّ لشهيد فتزوّد فيّ فلو قد غابت شمسي لم أرجع إليك إلى يوم القيامة . وأُنشد في ذلك :

مضى أمسك الماضي شهيداً معدّلاً * و خلّفت في يوم عليك شهيد
فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة * فثنّ با حسان و أنت حميد
ولا تُرج فعل الخير يوماً إلى غد * لعلّ غداً يأتي وأنت فقيد

و قال الحسن :

يا عجباً لألسنة تصف ، وقلوب تعرف ، وأعمال تخالف !

وقال بعض الحكماء : ليس للدين عوض ، ولا للأيّام بدل ، ولا للبدن خلف . ومن كانت مطيّته الليل والنهار فإنّه يسار به وإن لم يسر .

وقال ذوالنون المصريّ : إن أردت أن تذهب قساوة قلبك فأدم الصيام ، فإن وجدت قساوة فأدم القيام ، فإن وجدت قساوةً فدع الحرام ، فإن وجدت قساوة فصِل الأرحام

---

(١) في النسخه (ر) : على ثلاثة أصناف (اثلاث . ل) .
(٢) » » » : على الناس . ل .

فإن وجدت قساوة فالطف الأيتام .

وقال الأنطاكي[١] : خمسة أشياء دواء القلب : مجالسة الصالحين ، وقراءة القرآن وخلاوة البطن ، وقيام الليل ، وتضرّع عند الصبح .

وسئل أبو القاسم الحكيم بسمرقند : هل من ذنوب تنزع الإيمان من العبد ؟ قال : نعم ، ثلاثة من الذنوب تنزع الإيمان من العبد : أوّلها أن لا يشكر الله على ما أكرمه من الإيمان ، والثاني أن لا يخاف فوت الإيمان عنه ، والثالث أن يظلم أهل الإسلام .

وقال عليّ عليه السلام[٢] ، «ثلاث من كنّ فيه فقد تمّت مروءته : من تفقّه في دينه ، و اقتصد في معيشته ، و صبر على النائبة إذا نزلت به » .

وقال عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطّاب : « ثلاث إن حفظتهنّ و عملت بهنّ كفيت ماسواهنّ ، وإن تركتهنّ لم ينفعك شيء سواهنّ » قال : وماهنّ ؟ قال : « إقامة الحدود على القريب والبعيد ، والحكم بكتاب الله تعالى في الرضا والغضب ، والقسم بالعدل بين الأحمر والأسود » . قال عمر : لقد أوجزت وأبلغت .

وقال عليه السلام : «ثلاث لا يزيد بهنّ الله إلّا خيراً : التواضع لا يزيد [الله] به إلّا ارتفاعاً ، وذلّ النفس في الله لا يزيد [الله[٣]] به إلّا عزّاً ، والتعفّف لا يزيد الله به إلّا غناءً » .

وقال عليه السلام : « المؤمن إن احتاج إليك أعفاك ، و إن احتجت إليه كفاك ، ومن كثر ضجره عذّب نفسه » .

وقال عليه السلام[٤] : « أمّا بعد فإنّ الدنيا قد أدبرت و آذنت بوداع ، و إنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطّلاع . ألا وإنّ اليوم المضمار[٥] وغداً السباق ، والسبقة الجنّة و

---

(١) هو داود بن عمر الانطاكي الضرير ، عالم بالطب والادب ، ولد في انطاكية ، و حفظ القرآن وقرأ المنطق والرياضيات وشيئاً من الطبيعيات ، ودرس اللغة اليونانية فأحكمها ، هاجر الى القاهرة فاقام بها مدة ، ثم رحل الى مكة ومات فيها ١٠٠٨ هـ ، وله كتب منها « تذكرة اولي الالباب » و « تزيين الاسواق » . الاعلام : ٣٠٥ .

(٢) انظر الخصال للصدوق (١:٦١) .

(٣) زيادة « الله » في الموضعين من النسخة (ر) .

(٤) ابتداء الخطبة ٢٨ . انظر شرح النهج لابن ابي الحديد طبعة بيروت (١:١٧١) .

(٥) المضمار هنا : مدة تضمير الفرس ليتهيأ للسباق .

الغاية النار [١] ، أفلا تائب من خطيئته قبل موته ؟ ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه » .

ومن كلامه عليه السلام [٢] : « الغاية أمامكم و إنّ وراءكم الساعة تحدوكم . تخفّفوا تلحقوا ، فإنّما ينتظر بأوّلكم آخركم » .

ومن كلامه عليه السلام [٣] : « ألا إنّ اللسان بضعة من الإنسان ، فلا يشغله [٤] القول إذا امتنع ، ولا يمهله النطق إذا اتّسع . وإنّا لأمراء الكلام ، وفينا انتشبت عروقه ، وعلينا تهدّلت غصونه [٥] .

واعلموا رحمكم الله أنّكم في زمانٍ القائل فيه بالحقّ قليل ، واللسان عن الصدق كليل ، واللازم للحقّ ذليل . أهله معكوفون على العصيان ، مصطلحون على الإدهان [٦]

---

(١) السبقة - بالتحريك - الغاية التي يجب السابق ان يصل اليها . قال الرضي - رحمه الله - بعد ذكر الخطبة : ومن اعجيب قوله عليه السلام : « الاوان اليوم المضمار وغداً السباق ، و السبقة الجنة والغاية النار » فان فيه مع فخامة اللفظ وعظم قدر المعنى وصادق التمثيل وواقع التشبيه سراً عجيباً ومعنى لطيفاً وهو قوله عليه السلام : « و السبقة الجنة و الغاية النار » فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين ، ولم يقل : السبقة النار ، كما قال : والسبقة الجنة ؛ لان الاستباق انما يكون الى أمر محبوب وغرض مطلوب ، وهذه صفة الجنة ، وليس هذا المعنى موجوداً في النار نعوذ بالله منها فلم يجز أن يقول : والسبقة النار ، لان الغاية ينتهي اليها من لا يسره الانتهاء ومن يسره ذلك .

(٢) في النسخة (ر) : ومن عجيب كلامه . وهذه هي الخطبة ٢١ من خطبه عليه السلام . انظر شرح النهج لعبده (١:٦٥) وتراها في الخطبة ١٦٥ الا انه قال هناك : فان الناس أمامكم ، وان الساعة تحدوكم من خلفكم . قال الرضي - رحمه الله - : واما قوله عليه السلام « تخففوا تلحقوا فما سمع كلام أقل منه مسموعا ، ولا أكثر محصولا ، وما أبعد غورها من كلمة ، وانقع نطفتها من حكمة ! اقول : قول الرضي : انقع من النقع وهو اطفاء العطش والنطفة هنا : الماء الصافي .

(٣) الخطبة ٢٣١ في شرح عبده (١:٤٨٩- ٤٩٠) مع اختلاف يسير .

(٤) كذا الاصلان ، وفي النهج فلا يسعده القول .

(٥) في الاصلين « تهذلت » بالذال المعجمة ، و التصحيح من النهج . و تهدلت : تعلقت و استرسلت .

(٦) أدهنه : خدعه وختله ، وأظهر له خلاف ما يضمره .

فتاهم عارم [١] ، وشائبهم آثم [٢] . وعالمهم منافق ، وقارئهم مماذق [٣] . لا يعظّم صغيرهم كبيرهم ، ولا يعول غنيّهم فقيرهم » .

ومما ينسب إليه من النظم قوله عليه السلام [٤] :

أبنيّ ! إنّ من الرجال بهيمة * في صورة الرجل السميع المبصر
فطناً بكلّ مصيبة من ماله * فإذا أُصيب بدينه لم يشعر
ذهب الرجال المقتدى بفعالهم * و المنكرون لكلّ أمر منكر
وبقيت في خلف يموّه بعضهم * بعضاً ليستر مُعور عن معور

وله عليه السلام : [٥]

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى * عدوّاً له ما من صداقته بدّ
فتبصره يبدي رضاً تحته قلىً * ويظهر وصلاً في جوانبه صدّ [٦]
و كم يمكن الأعداء قلب ابن حرّة * إذا نام عنه الغيظ أيقظه الحقد
رويداً العلّ الصبر يعقب راحة * وصبراً العلّ النحس يعقبه سعد

وعن الباقر عن أبيه عن جدّه صلوات الله عليهم أجمعين أنّه سمع أمير المؤمنين علياً صلوات الله عليه يقول :

إذا عقد القضاء عليك أمراً * فليس يحلّه غير القضاء
فما لك قد أقمت بدار ذلّ * و دار العزّ واسعة الفضاء ؟
تبلّغ باليسير فكلّ شيء * من الدنيا يؤول إلى انقضاء

---

(١) في الاصلين « غارم » بالمعجمة . والعارم : المرح الشرس الفاسد .

(٢) الشائب : المبيض الراس ، من الشيب . وفي الاصلين « شبانهم » ولا يناسبه وحدة « آثم » ولا فيه لطف « شائب » فان الاثم من الشيخ المبيض الرأس أقبح من اثم الشاب بمراتب .

(٣) ماذقه في الود : لم يخلص له الود .

(٤) البيتان الاولان في ديوانه ص ٥٠ و الاخير ان بزيادة بيت فيه ٥٧ باختلاف يسير .

(٥) وقال الشافعي (معجم الادباء ١٧ : ٣٠٨) :
و من البلية ان تحب ولا يحبك من تحبه * و يصدّ عنك بوجهه وتلج أنت فلا تغبه

(٦) القلى - بالكسر - مصدر قلى الرجل يقلوه ويقليه : أبغضه .

وسمع بصفّين يرتجز و يقول : [١]

أنا عليّ صاحب الصمصامه * وصاحب الحوض لدى القيامة
أخو نبيّ الله ذي العلامه * قد قال إذ عمّمني العمامه :
أنت أخي و معدن الكرامه * و من له من بعدي الإمامه

وفي هذا دليل على أنّه عليه السلام قد كان يذكّر الناس ماوقع من النصّ عليه و ينبّههم على ما قيل فيه ، و هذا يبطل قول من قال : لوكان النصّ حقّاً لاحتجّ به المنصوص عليه .

و ذكر أنّ معاوية كتب إليه كتاباً يظلمه فيه ، فأجابه عنه و كتب من جملة الجواب هذه الأبيات [٢] :

تنام ولم تنم عنك المنايا * تنبّه للمنيّة يا نؤوم !
تروم الخلد في دار المنايا * فكم قد رام قبلك ما تروم
إلى ديّان يوم الدين نمضي * و عند الله يجتمع الخصوم
سيُعلم في المعاد إذا التقينا * غداً عند الحساب : من الظلوم

قال قيس بن سعد [٣] : سمعت عليّاً عليه السلام ، يقول : « أنا أوّل من يجثو يوم القيامة بين يدي الله عزّ وجلّ للخصوم » و أنشد عليه السلام [٤] :

إذا المشكلات تصدّين لي * كشفت غوامضها بالنظر
و إن برقت في محلّ الصوا * ب عمياء لا يجتليها البصر
مقنّعة بغيوب العلوم * بعثت عليها صحيح الفكر
لساناً كشقشقة الأرحيّ * أوكالحُسام اليمان الذكر [٥]

(١) بزيادة أربعة أشطار في ديوانه ص ١٣٢ .
(٢) من كلمة في الديوان ص ١٢٨-١٢٩ في عشرة أبيات وتسعة منها في المجاني (٣:٢٥) .
(٣) رواه الشيخ الطوسي عنه في أماليه ص ٥٢ مسنداً . وفي الاصلين « قيس بن سعيد » وهو سهو .
(٤) بزيادة و نقيصة في ديوانه ص ٤٩ ، و للابيات خبر ذكره الشيخ في أماليه ٣٢٧ و عنه البحار في كتاب العلم (١ : ٨٥) باب آداب التعلم و الابيات للشافعي في معجم الادباء (١٧ : ٣٠٩)
(٥) الذكر من الحديد : أجوده ، وهوخلاف الانيث ، وسيف ذكر : شفرته حديد ذكر و متنه حديد أنيث .

أرحب قبيلة من همدان ينسب إليها الجمال الأرحبيّة .

و لست بإمّعة في الرجال * أسائل هذا وذا : ما الخبر ؟

الإمّعة الّذي يكون لضعف رأيه مع كلّ واحد و المدرى [١] القرن في موضع السنان .

و لكنّني مدره الأصغرين * أفيس بما قد مضى ما غبر [٢]

و سيّاق قومي إلى المكرمات * و جلّاب خير و دفّاع شرّ [٣]

ومن كلامه عليه السلام [٤] : « وإنّما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، فأنفق في يُسرك ، ولا تكن خازناً لغيرك » .

وقوله عليه السلام [٥] : « من أيقن بالخلف جاد بالعطيّة » .

وقوله عليه السلام [٦] : « كن سخيّاً ولا تكن مبذّراً ، و كن مقدّراً ولا تكن مقتّراً » .

وقوله : « لكلّ شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح » .

وقوله : « الجود خير من البخل ، والمنع خير من المطل » .

وقوله : « الردّ الجميل خيرٌ من المطل » .

وقوله صلى الله عليه وآله « الوعد مرض ، والإنجاز برؤه ، والمطل حتفه » .

و قوله : « عوّد نفسك السماحة ، وتخيّر من كلّ خلق أحسنه ، و ربّ [٧] معروفك بإماتة ذكره » .

وقوله : « غاية الجود أن تعطي من نفسك المجهود » .

---

(١) هذا تفسير للفظ « مدره » في البيت الاتي ، وهو سهو اشتقاقا وتفسيراً .

(٢) المدره - بكسر الميم و فتح الراء - السيد ، زعيم القوم المتكلم عنهم و ربما يروى « مذرب » من الذرب - بالتحريك - تقول : لسان ذرب - بكسر الراء : اى فصيح . والاصغرين القلب واللسان ، لصغر حجمهما ، ومنه المثل : المرء بأصغريه . انظر مجمع الامثال (٢:٢٥٠) .

(٣) في النسخة (د) : « وسباق » وما أثبتناه ألطف معنى .

(٤) الجملة الاولى والجملة الثالثة في ما كتبه لابنه الحسن عليه السلام . شرح عبده (٢:٥٧،٤٧)

(٥) الرقم ١٣٨ من حكمه عليه السلام .

(٦) الرقم ٣٣ من حكمه ، وفي النهج : كن سمحا .

(٧) أمر من التربية .

وقوله : « أظهر الكرم صدق الإخاء في الشدّة والرخاء » .

وقوله : « خطأ الجواد أحسن في الناس من صواب المنع » .

وقوله : « أجود الناس من جاد بالحقوق من غير مسألة » .

وذكر الهرويّ [١] في كتاب الغريبين : في حديث عليّ صلوات الله عليه[٢] : « لنا حقّ إن نُعطه نأخذه ، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل وإن طال السرى » قال القتيني[٣] أعجاز الإبل مآخرها جمع عجز ، وهو مركب شاقّ و معناه : إن منعنا حقّنا ركبنا مركب المشقّة صابرين عليه .

وقال الأزهريّ : لم يرد عليّ عليه السلام ركوب المشقّة و لكنّه ضرب أعجاز الإبل مثلاً لتقدّم غيره عليه ، و تأخيره عن الحقّ الّذي كان يراه له ، فيقول : إن قُدّمنا للإمامة تقدّمنا وإن أُخّرنا عنها صبرنا على الأثرة [٤] وإن طالت الأيّام .

وقال عليّ عليه السلام [٥] « شتّان بين عملين : عمل تفنى لذّته وتبقى تبعته ، وعمل تذهب مؤونته و يبقى أجره » .

إذا متّ كان الناس صنفان شامت * و آخر مثن بالّذي كنت أصنع [٦]

وقيل : سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الخير ماهو ؟ فقال [٧] : « ليس الخير أن يكثر مالك ، ولكنّ الخير أن يكثر علمك [٨] ، و أن يعظم حلمك ، و أن تباهي الناس بعبادة

---

(١) أبو عبيد احمد بن محمد الهروى المتوفى سنة ٤٠١ هـ صنف كتابه فى غريب القرآن و الحديث انظر كشف الظنون ط استنبول (٢:١٢٠٦ و ١٢٠٩) .

(٢) الرقم ٢١ من حكمه وانظر مافيل فى تفسيره اكثر مباحثنا فى اللسان و النهاية (عجز) قال ابن الاثير : وقيل : يجوز ان يريد : وان نمنعه نبذل الجهد فى طلبه .

(٣) كذا ، و أظنه سهواً ، و الصواب « القتبى » وهو ابن قتيبة الدينورى الاديب اللغوى .

(٤) الاثرة : المكرمة المتوارثة و الفعل الحميد .

(٥) الرقم ١٢١ من حكمه ومواعظه .

(٦) البيت لعجير بن عبدالله السلولى من تسعة أبيات له فى الاغانى (١١ : ١٤٦) . و اسم «كان» على هذه الرواية ضمير الشأن ، و روى « صنفين » و «نصفان» و ترجمة الشاعر و شرح البيت فى شرح شواهد مجمع البيان (٢:٢٩٠) بطرتى .

(٧) انظر النهج الرقم ٩٤ من حكمه .

(٨) فى الاصلين : عملك ، والاوفق ماأثبتناه عن نهج البلاغة .

ربّك . فإن أحسنت حمدت الله ، وإن أسأت استغفرت الله ولاخير في الدنيا إلّا لرجلين : رجل أذنب ذنوباً فهو يتدارکها بالتوبة ، ورجل يسارع في الخيرات » .

و [١] « لايقلّ عمل مع تقوى ، و كيف يقلّ مايتقبّل » ؟

وقال عليه السلام [٢] : « إنّ وليّ محمد صلى الله عليه وآله من أطاع الله ، و إن بعُدت لحمته [٣] ، و إنّ عدوّ محمد من عصى الله وإن قربت قرابته » .

وقال عليه السلام [٤] ـ وقد سمع حروريّاً يتهجّد ويقرأ ـ : « نوم على يقين خير من صلاة في شكّ » .

الظنّ والشكّ والتحرير [٥] نظائر ، إلّا أنّ الظنّ فيه قوّة على أحد الأمرين دون الآخر ، وجدّ ماقوى عند الظانّ كون المظنون على ما ظنّه ، مع تجويزه أن يكون على خلافه ، فبالتجويز ينفصل عن العلم ، وبالقوّة ينفصل عن الشكّ والتقليد وغيرذلك . في قوله تعالى [٦] : « وأمّا الّذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم » فسمّى الشكّ في الدين مرضاً لأنّه فساد يحتاج إلى علاج ، كالفساد في البدن يحتاج إلى مداواة ، و مرض القلب أعضل وعلاجه أعسر ودواؤه أعزّ وأطبّاؤه : أقلّ ، والرجس والنجس واحد . وسمّى الكفر رجساً على وجه الذمّ له ، وأنّه يجب تجنّبه كما يجب تجنّب الأنجاس ، و إنّما أضاف الزيادة إلى السورة لأنّهم يزدادون عندها ، و مثله « كفى بالسلامة داء » كما قال حميدبن ثور الهلاليّ :

أرى بصري قد رابني بعد صحّة * وحسبك داءً أن تصحّ وتسقما

---

(١) نهج البلاغة الرقم ٩٥ من حكمه .

(٢) نهج البلاغة الرقم ٩٦ من الحكم .

(٣) بضم اللام : النسب .

(٤) الرقم ٩٧ من الحكم . والحرورية هم المحكمة الاولى الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليه السلام حين جرى أمر الحكمين ، واجتمعوا بحروراء (بفتح الحاء والراء) من ناحية الكوفة ، ومن رؤسائهم ابن الكوا ، وعتاب بن الاعور ، وعبدالله بن وهب الراسبى ، وعروة بن جدير ، ويزيدبن عاصم المحاربى ، وحرقوص بن زهير المعروف بذى الثدية . انظر الملل والنحل (١ : ١٧٢) .

(٥) أراد بالتحرير الاطمئنان والعلم ، من حرر المعنى : استخلصه .

(٦) سورة التوبة : ١٢٦ .

وقال عليه السلام لابنه الحسين عليه السلام [١] : « يابنيّ ! خف الله تعالى خوفاً ترى أنّك لو آتيته بحسنات أهل الأرض لم يقبلها منك ، و ارج الله تعالى رجاء ترى أنّك لو آتيته بسيّئات أهل الأرض غفرها لك » .

وهذا مثل قول لقمان عليه السلام لابنه [٢] : « يابنيّ ! كن ذاقلبين : قلباً تخاف الله عزّ وجلّ خوفاً لايخالطه تفريط ، وقلباً ترجو به الله رجاء لايخالطه تغرير » .

وعنه عليه السلام يرفعه [٣] : « يقول الله : ياابن آدم : ما تنصفني أتحبّب إليك بالنعم ، وتتمقّت إليّ بالمعاصي خيري إليك منزل ، وشرّك إليّ صاعد ، ولايزال ملك كريم يأتيني عنك في كلّ يوم وليلة بعمل قبيح . يا ابن آدم ؟ لوسمعت وصفك من غيرك و أنت لاتعلم الموصوف لأسرعت إلى مقته » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « فأكرم نفسك عن كلّ دنيئة وإن شاقتك إلى الرغائب ؛ فإنّك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً . ولاتكن عبدغيرك وقد جعلك الله حرّاً » .

وقال : « ذروة الإيمان أربعة : الصبر للحكم ، والرضا بالقدر ، والإخلاص في التوكّل والاستسلام للربّ » .

وقال محمّدبن كرّام [٤] : دع التدبير من خلقك تسترح ، و من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء .

وقال بعض الحكماء :

سيكون الّذي قضي * كره العبد أورضي
فـدع الهمّ يافتى * كلّ همّ سينقضي

---

(١) رواه صاحب جامع الاخبار فى باب الخوف ص ١١٠ .

(٢) روى بغير هذه الالفاظ فى الارشاد ص ١٦٨-١٦٩ وجامع الاخبار ص ١١٠-١١١ .

(٣) رواه الديلمى فى الارشاد ص ٥٦ باب التخويف والترهيب ، باختلاف يسير .

(٤) ابوعبدالله السجزى ، امام الكرامية - من فرق الاسلام - كان يقول بان الله تعالى مستقر على العرش وأنه جوهر ، ولد فى سجستان وجاور بمكة خمس سنين وورد نيسابور فحبسه طاهربن عبدالله ثم انصرف الى الشام وعادالى نيسابور فحبسه محمدبن طاهر وخرج منها سنة ٢٥١ الى القدس فمات فيها ٢٥٥ هـ . الاعلام : ٩٦٦ .

وأنشد بعضهم [١] في معناه :

هوّن عليك فإنّ الأمور * بكفّ الإله مقاديرها
فليس بآتيك منهيّها * ولا صارف عنك مأمورها

وقال النبيّ ﷺ : «ليقلّ همّك ، ما قدّر يكون ، وما ترزق يأتيك » .

وقال بشر بن الحارث : قال لي الفضيل : يابشر ! الرضا عن الله أكبر من الزهد في الدنيا ، قلت : وكيف ذلك ؟ قال : يكون المنع و الإعطاء بمنزلة ، و الراضي لايتمنّى فوق منزلته .

و قال يحيى بن معاذ : عجبت من ثلاثة رجال: رجل يريد تناول رزقه بتدبيره ، ورجل شغله همّ غده عن غنيمة يومه و هو محتاج إلى غنيمة يومه شاكّ في حياة غده ، و من عالم مفتون يعيب على زاهد مغبوط .

وقال أبو تراب : ربّ مسرور بهلاكه ، ومحزون بنجاته .

وقال شقيق بن إبراهيم : سألت سبعمائة عالم عن خمسة أشياء فكلّهم أجابوا بجواب واحد ، قلت : من العاقل ؟ قالوا : من لم يحبّ الدنيا ، قلت : من الكيّس ؟ قالوا : من لا تغرّه الدنيا ، فقلت : من الغنيّ ؟ قالوا : الّذي يرضى بما قسم الله له ، فقلت : من الفقير ؟ قالوا : الّذي قلبه مع طلب الزيادة ، فقلت : من البخيل ؟ قالوا : الّذي يمنع حقّ الله من ماله .

وقيل : سخط الله على العبد في ثلاثة أشياء : أحدها أن يقصّر عمّا أمره الله تعالى به ، والثاني أن لا يرضى بما قسم الله تعالى له ، و الثالث أن يطلب شيئاً فلا يجده فيسخط على ربّه .

قال رسول الله ﷺ [٢] : «من كانت له مظلمة من أخيه من عرضه أو شيء فليستحلّه قبل أن لايكون دينار ولادرهم كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيّئات صاحبه فحملت عليه » .

(١) البيتان في الديوان المنسوب الى أمير المؤمنين عليه السلام ص ٥٣ .
(٢) الرواية مضطربة لفظاً ، والكتاب غير مصون من السقط فلعلها كانت هكذا « . . . ولادرهم فان لم يكن له دينار ولادرهم وكان له عمل الخ » .

وعنه عليه السلام أنّه قال : « يا ابن آدم ! عندك ما يكفيك فلم تطلب ما يطغيك ؟ لا بقليل تقنع ، ولا من كثير تشبع . إذا أصاحت آمناً في سربك معافى في بدنك ، معك قوت يومك فعلى الدنيا العفا » .

وفي بعض الروايات : «من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنّما خيّرت له الدنيا بحذافيرها» .

وقيل دعي حذيفة إلى مائدة فرأى بعض زيّ العجم فانصرف وهو يقول : من تشبّه بقوم فهو منهم .

ودعي أبوذرّ رضي الله عنه إلى وليمة فسمع صوتاً فانصرف وقال : من كثّر سواد قوم فهو منهم ، ومن رضي عمل قوم فهو شريكهم .

وقال لقمان عليه السلام لابنه : « احضر المآتم ، ولا تحضر الولائم ؛ فإنّ المآتم تذكّر الآخرة ، وإنّ الولائم تذكّر الدنيا » .

قيل : ودعا بعض الأُمراء بعض السلف إلى طعامه فاعتلّ ولم يأته ، فقيل له في ذلك فقال : فقدُ أكلة أيسر عليّ من بذل ديني لهم ، والله لاينبغي أن يكون بطن الرجل أعزّ عليه من دينه .

وقال حاتم : مذمّة الناس الرجل اليوم بثلاث مدح : أن يقال فلان لا يقبل ولا يسأل ولا يجيب[1] .

وقال موسى بن طلحة : أرسل إليّ بعض الخلفاء بمال أمرني أن أُوزّعه على الفقراء فأتيت أبارزين بعشرة آلاف درهم وهو مجهود ، فكأنّي ألقيت عليه العقارب ، فقال : لا حاجة لي في عطاء أمير المؤمنين فأبى أن يقبله .

وعن ميمونة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : «من أدان[2] ديناً وهو يحدّث نفسه بقضائه أعانه الله عليه » .

---

(١) بهامش الاصل : أى لا يجيب داعى ضيافة .

(٢) بهامش النسخة (ر) : من استدان . ظ .

وقال أمير المؤمنين (١) عليه السلام : « أكثر مصارع العقول تحت بروق الأطماع » .

وقال عليه السلام : « العبيد ثلاثة : عبد رقّ ، و عبد شهوة ، و عبد طمع . من أراد أن يعيش حرّاً أيّام حياته فلا يسكن الطمع قلبه » .

قيل : أتى أعرابيّ النبيّ صلى الله عليه وآله فقال : يارسول الله ! هل للإسلام منتهى ؟ قال (٢) : «فمن أراد الله به خيراً من العرب والعجم أدخله عليهم ، ثمّ وقع الفتن كالظلل ، تعودون فيها أساود صبّاً ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، و أفضل الناس يومئذ في شعب من الشعاب يتّقي ربّه ، ويدع الناس من شرّه » .

« صبّاً » ذكر الأزهريّ أنّه من الصبّ وقال : الحيّة السوداء إذا أرادت أن تنهش ارتفعت ثمّ صبّت .

و قال طاوس بن كيسان : خير الناس في آخر الزمان رجل معتزل يؤدّي حقّ الله عليه .

وروي أنّ عبدالله بن مسعود مرّ بطير قد صيد ، فقال من صيّد هذا الطير لا يكلّمني بشرّ و لا أكلّمه (كذا) ، فقال بعضهم في هذا المعنى :

يا ليتني كنت هذا الطائر الفردا * عن البريّة منحازاً و منفرداً
ما إن يؤرّقه همّ لرزق غد * ولا عليه حساب في المعاد غدا
طوباك من طائر طوباك ويحك طر * من كان مثلك في الدنيا فقد سعدا

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «نعم صومعة المؤمن بيته ، يكفّ فيه سمعه وبصره وقلبه ولسانه ويده . وإيّاكم والجلوس في الأسواق فإنّها تلهي و تلغي » .

وقال بعض المتقدّمين : الوحدة مُنية الصدّيقين .

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : لوددت أنّي أغلقت عليّ بابي فلم يدخل عليّ بشر ، ولم أخرج إليه حتّى ألقى الله عزّ وجلّ .

و قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : « سيكون أقوام لا يستقيم لهم الملك إلّا بالقتل و

---

(١) انظر نهج البلاغة الرقم ٢١٩ من الحكم .

(٢) ترى بعض الحديث ومعنى « الصب » في لسان العرب مادة (صبب) .

التجبّر ، ولا يستقيم لهم الغنى إلّا بالبخل والظلم والبطر ، ولا يستقيم لهم المحبّة في الناس إلّا باتّباع الهوى والاستخراج من الدين ، فمن أدرك ذلك فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على الذلّ وهو يقدر على العزّ و صبر على البغضة في الناس وهو يقدر على المحبّة ، أعطاه الله ثواب خمسين صدّيقاً .

وقال أبو الدرداء : اتّقوا الله واحذروا الناس ، فإنّهم مار كبوا ظهر بعير إلّا دبروه ، ولا ظهر جواد إلّا عقروه ، ولا قلب مؤمن إلّا خرّبوه .

وكان الربيع بن خثيم يقول : تفقّهوا ثمّ اعتزلوا و تعبّدوا .

وقال ابن عبّاس : خير المجالس مجلس في قعر بيتك حيث لا ترى ولا تُرى .

وقال الدارانيّ : صاحب العيال أعظم أجراً من المتفرّغ ، و المتفرّغ يجد حلاوة العبادة ما لا يجده المتأهّل لأنّه يشتغل عنه .

وقال مالك بن دينار : من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين فقد قلّ عمله وضاع عمره .

وقال وهب : أوحى الله تعالى إلى بعض أنبياء بني إسرائيل : إن أحببت أن تلقاني غداً في حظيرة القدس فكن في الدنيا محزوناً مهموماً فريداً وحيداً مستوحشاً ، بمنزلة الطير الواحد الّذي يطير في أرض القفار ، ويأكل من ورق الأشجار ، و يشرب من ماء القراح ، و إذا جنّه الليل آوى إلى غوامض الأوكار استيناساً بربّه ، واستيحاشاً بالناس .

وقال سفيان الثوريّ : العزلة أفضل العبادة و فيها الراحة من خلطاء السوء .

وقيل : كان رجل يغشى السلطان ، وكانت له منزلة فلزم بيته ورفضهم فكلّمه بنوه و أهله ، وقالوا له : تركت حظّك من السلطان ومنزلتك منه ، فلم يلتفت إليهم فقالوا : والله لئن دمت على هذا لتموتنّ هزيلاً ، فقال : و الله لأن أموت مؤمناً مهزولاً أحبّ إليّ من أن أعيش فاسقاً سميناً .

فقال الحسن : علم والله أنّ القبر - أو قال : النار - يأكل الشحم ولا يأكل الإيمان .

وقال بقيّة [١] : «من أراد أن يخشع قلبه فليأكل في نصف بطنه [٢].

وقال الحسن : كانت فاكهة أصحاب النبيّ ﷺ خبز الحنطة .

وقال يحيى بن معاذ : يا معشر الصدّيقين ! جوّعوا أنفسكم لوليمة الفردوس ؛ فإنّ شهوة الطعام على قدر تجويع الأنفس .

وقيل ليوسف عليه السلام : أتجوع وفي يدك خزائن الأرض ؟ قال : «إنّي أخاف أن أشبع فأنسى الجيّاع» .

وقال الفارانيّ : أحلى ما تكون العبادة إليّ إذا لصق بطني بظهري .

وقال سعيد بن أحمد : إن اللّقمة السمينة تطفىء نور الحكمة .

ويقال : إنّ الحكمة كالعروس تريد البيت الخالي .

قال [٣] لقمان عليه السلام لابنه : « إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة» .

وقال بعضهم : لولا ما نذكره من شدّة الحساب لشاركناكم في لين عيشكم .

أبو هريرة قال : دخلت على النبيّ ﷺ وهو يصلّي جالساً فقلت : يا رسول الله ! أراك تصلّي جالساً فما أصابك ؟ فقال : الجوع والضعف يا أبا هريرة ؛ فإنّ شدّة القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب في دار الدنيا .

وقال هرمس : إنّ المعدة إذا أُعطيت حظّها من الشبع نهضت كلّ جارحة من الجوارح في طلب حظّها من اللّهو ، وقويت بذلك فحاربت العقل ، وقهرت النفس الناطقة ، واستخدمتها في تحصيل حظوظها ، فتحصل النفس الشريفة الحيّة خادمة للجسم الخسيس الميّت الخبيث ، ويجري بها في طريق الهلكة و الرذائل والموت من العيش العقليّ . و إذا منعت المعدة الشبع قصرت الجوارح عن طلب حظّها من اللهو وكانت النفس الناطقة حرّة

---

(١) أبو يحمد بقية بن الوليد الكلاعي الحميري الحمصي الحافظ ، كان محدث الشام في عصره ، واسع العلم بالحديث ، كيسا ظريفاً . توفي ١٩٧ . الاعلام ١٥٠ .

(٢) وعن النبي صلى الله عليه وآله : «اشربوا وكلوا في أنصاف البطون فانه جزء من النبوة» رواه النراقي في جامع السعادات (٢ : ٧) وقال الشاعر :

كلوا في نصف بطنكم تعفوا ● فان زمانكم زمن خميص

(٣) رواه النراقي (٢ : ٥) . وكلمة « قال » ليست في النسخة (ر) .

مستريحة من استخدام الحواسّ لها ويخلّص العقل ممّا يحاربه أو يفسد عليه مقصده فيكون مجدّاً في خلاص النفس من عالم الطبيعة .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « من قلّ طُعمه صحّ بطنه وصفا قلبه ، ومن كثر طعمه سقم بطنه و قسا قلبه » .

وقال عيسى عليه السلام : « يا بني إسرائيل ! لاتكثروا الأكل ، فإنّه من أكثر الأكل أكثر النوم ، ومن أكثر النوم أقلّ الصلاة ، ومن أقلّ الصلاة كتب من الغافلين » .

وقال الأسود وعلقمة : دخلنا على أمير المؤمنين عليه السلام و بين يديه طبق من خوص ، وعليه قرص أو قرصان من شعير ، وإنّ أشطار النخالة لتبين في الخبز و هو يكسر على ركبته ويأكل بملح جريش[1] فقلنا لجارية اسمها فضّة : ألا نخلت[2] هذا الدقيق لأمير المؤمنين ؟ فقالت : أيأكل هو المهنّأ و يكون الوزر في عنقي ؟ فتبسّم عليه السلام و قال : أنا أمرتها ألاّ تنخله[3] ، قلنا : لِمَ ؟ قال : ذلك أجدر أن تذلّ النفس ، و يقتدي به المؤمن ، وألحق بأصحابي .

و سئل حكيم : بما تدرك الحكمة ؟ فقال : بقلّة الأكل .

وسئل عابد : ما وجه العبادة ؟ قال : قلّة الأكل .

وسئل زاهد : بما ينال الزهد ؟ قال : بقلّة الأكل .

وسئل عالم : بما يدرك العلم ؟ قال : بقلّة الأكل .

وسئل بعض الملوك : بماينال الأدبَ الملكُ ؟ قال : بقلّة الأكل .

وسئل بعض الأطبّاء : بماينال الصحّة ؟ قال : بقلّة الأكل .

وقال لقمان عليه السلام لابنه : « يابنيّ ! الشبع يمنعك عن نظر الاعتبار ، ويمنع لسانك عن الحكمة ، و يثلقك عن العبادة » .

و سأل رجل ابن سيرين فقال : علّمني العبادة ، فقال له : كيف تأكل ؟ قال : آكل حتّى أشبع ، قال : هذه عادة الدوابّ ، يجب عليك أن تتعلّم الأكل ثمّ العبادة .

---

(١) الجريش : مالم يطحن جيداً .

(٢ - ٣) بالحاء في النسخة (ر) سهواً .

وقال الحكماء : اللقمة خمسة : لقمة حلال ، و لقمة حرام ، و لقمة شبهة ، و لقمة شهوة ، و لقمة عادة .

فأمّا اللقمة الحرام فإنّها تورث في القلب العداوة ، و تجري على لسانك الكذب و الغيبة .

وأمّا لقمة[1] الشبهة فتورث في القلب الشكّ والوسوسة ، وتجري على لسانك فضول الكلام ، وتقسي القلب وتبعث على اتّباع الهوى .

و أمّا لقمة الشهوة فتورث في القلب الأمل ، و تجري على لسانك فضول القول .

و أمّا لقمة العادة فتورث القناعة في القلب ، وتجري على لسانك كلام الحكماء ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأمّا اللقمة الحلال فتورث في القلب رضا الربّ .

وقال يحيى بن معاذ : لم أجد شيئاً أدعى إلى الزهد من هذا الفقر ، ولا أعون على ذكر الآخرة من الجوع .

وقال يحيى بن بكّار[2] : من خبّرك أنّه شبع ويطيق القيام فلا تصدّقه .

و قال بعض الحواريّين : أجمع رأى سبعين صدّيقاً أنّ كثرة النوم من كثرة شرب الماء .

وقال الثوريّ : من أحبّ أن لاينام فليأكل ولايشرب .

وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : « لايزال العبد من الله والله منه مالم يبغض أهل الجوع و العطش ، فإذا أبغضهم أبغضه الله عزّ و جلّ و قلاه ، و جعل قلبه في غلاف لا يسمع الحكمة » .

وقال ابن عبّاس : قال النبيّ ﷺ : « لايزال العبد في ستر من الله مالم يبغض أهل الجوع والعطش فإذا أبغضهم هتك الله ستره ومقته » .

و قال ابن عبّاس : قال النبيّ ﷺ : أولياء الله من خلقه أهل الجوع والعطش

---

(١) في الاصلين « اللقمة » في الجميع ، وهو غلط في غير الاول والخامس .

(٢) في النسخة (ر) علي بن بكار .

فمن استذلّهم فآذاهم في الدّنيا بقول أو بفعل انتقم الله منه و هتك ستره و حرّم عيشه و كسبه

و عن ابن عمر أنّه قال : قال رسول الله ﷺ : «من ألان القول والكلمة لأهل الجوع والعطش في الدنيا كانت له درجة في الآخرة ، و من أحبّهم أعطاه الله قرّة عين في الآخرة وكان من الآمنين يوم القيامة» . ثمّ قال رسول الله ﷺ «من أحبّ قوماً جاء معهم يوم القيامة» .

وقال رسول الله ﷺ : «خيار أُمّتي في كلّ قرن خمسمائة والأبدال أربعون فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون ، كلّما مات رجل من الأربعين أبدل الله من الخمسمائة مكانه وأدخل من العامّة مكانهم» قالوا : يا رسول الله ! دلّنا على أعمالهم قال : «يعفون عمّن ظلمهم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم ويواسون فيما آتاهم الله عزّ وجلّ» .

وعن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : «إنّ في كلّ طائفة من أُمّتي قوماً شعثاً غبراً إيّاي يريدون ، وإيّاي يتّبعون ، و كتاب الله يقيمون ، أُولئك منّي وأنا منهم وإن لم يروني» .

وقال ذوالنون بن إبراهيم المصري إنّ لله لصفوةً من خلقه ، وإنّ لله لخيرة ، وقيل له : يابا الفيض! فما علامتهم؟ قال : إذا خلع العبد الراحة فأُعطي المجهود في الطاعة وأحبّ سقوط المنزلة ، ثمّ قال :

منع القران بوعده ووعيده * مقل العيون بليلها أن تهجع [1]

فهموا عن الملك الكريم كلامه * فهماً تذلّ له الرقاب و تخضع

فقال له بعض من كان في المجلس حاضراً : يابا الفيض ! من هؤلاء القوم يرحمك الله ؟ فقال : ويحك ! هؤلاء قوم خالط القرآن لحومهم ودماءهم فعزلهم عن الأزواج و حرّكهم بالأدلاج [2] ، فوضعوا على أفئدتهم فانفرجت ، وضمّوا إلى صدورهم فانشرحت ، و تصدّعت هممهم به فكدحت ، فجعلوه لظلمتهم سراجاً ، ولنومهم مهاداً ، ولسبيلهم منهاجاً ، ولحجّتهم

(١) المقل - بضم ففتح - جمع المقلة . هجع : نام . وفي الاصلين : فليلها .
(٢) جمع الدلج - بالتحريك - الساعة من آخر الليل .

أفلاجاً [١] يفرح الناس ويحزنون . وينام الناس ويسهرون ، ويفطر الناس ويصومون ، و يأمن الناس ويخافون . فهم خائفون حذرون وجلون مشفقون سمرون [٢] ، يبادرون من الفوت ويستعدّون للموت .

قال البراء بن عازب : قال : قال رسول ﷺ : «إنّ لله خواصّاً يسكنهم الرفيع من الجنان . كانوا أعقل الناس » قلنا : يا رسول الله ! و كيف كانوا أعقل الناس ؟ قال : « كانت همّتهم المسابقة إلى ربّهم ، والمسارعة إلى ما يرضيه ، وزهدوا في فضول الدنيا وزينتها ونعيمها وهانت عليهم ، فصبروا قليلاً واستراحوا طويلاً » .

وقال الحسن : لولا الأبدال لخسفت الأرض بمن فيها ، و لولا الصالحون لفسدت الأرض ، و لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم ، و لولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضاً ولولا الحمقى لخربت الدنيا ، ولولا الريح لأنتن ما بين السماء والأرض .

وقال الفضيل : ما من نبيّ إلّا وله نظير في أمّته .

وروي عن أبي عبيدة أنّه قال : رأيت امرأة على ساحل الفرات فقلت لها : ما مقامك في هذا الموضع و ليس معك أحد ؟ فصرخت و قالت : يا بطّال ! لو علمت من معي و من يحفظني لتقطّع قلبك حسرة على ما فاتك ، قلت : فأين تريدين ؟ قالت : الحجّ ، قلت : إنّه ساقط عنك ، قالت : لا ، بل هو ساقط عن أصحاب الأموال واجب عليّ ، قلت : و ما حقيقة ذلك ؟ قالت : لأنّهم اكتسبوها من الحرام فسقط عنهم فرض الحجّ ، ووجب عليّ لأنّي لا أستعين إلّا بالله عزّ وجلّ ، مركبي قدماي ، وزادي تقواي . قال : ثمّ خرجت و قالت : من لم يكسر لله شهوته لم يقرب طريقه في مسيره ، ثمّ أخرجت صرّة معها فيها حبّ مجموع من الحمّص والعدس ، فقالت لي : تحبّ أن تتغذّى من هذا ؟ قلت : ما أكره ذلك فإن أعطيتني شيئاً ، فأكلته فلم يلحقني جوع ولا عطش أيّاماً في طريقي .

وقال بعضهم : إيّاك والاغترار بالدنيا والركون إليها ؛ فإنّ أمانيّها كاذبة ، وآمالها خائبة وعيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأنت منها على خطر : إمّا نعمة زائلة وإمّا بليّة نازلة

(١) فلج - من باب ضرب ونصر - على خصمه : غلبه .

(٢) قد سبق ان معناه من يحدث بالليل ، وهو هنا كناية عن السهر في الليل .

وإمّا مصيبة موجعة ، وإمّا منيّة مفجعة .

و قال آخر : صاحب الدنيا في حرب مكائد الأهواء لتنقدع[١] ، والجهالة لتنقمع ، والأدواء لتندفع ، والآمال لتنال ، والمكروه ليزال ، وبعض ذلك عن بعض شاغل ، والمشتغل عنه ضائع . فلمّا رأى الحكماء أنّه لا سبيل إلى إحكام ذلك تركوا ما يفنى ليحرزوا ما يبقى .

وقال سقراط : إنّما الإنسان في الدنيا كفرخ في عشّ ، لمّا تمّ ريشه طار عن العشّ وتركه لغيره .

وقال : إنّما الدنيا كفخّ منصوب ، فيه طعم يسير ، مرّ عليه طائر كثير ، فلم يقع في ذلك الفخّ إلّا طير شرهت نفسه إلى طعمه فكان شرهه سبب حتفه .

وقال : ما أسرع خيانة الدنيا لمن ائتمنها ! وأقلّها لمن اطمأنّ إليها !

وقال : من رغب في الدنيا طال حزنه و كثر عدوّه ، ومن زهد فيها استراح قلبه و قلّ حسّاده .

وقال : من زهد في الدنيا أحبّه أهلها ، ومن أحبّ الآخرة ناله خيرها وحمد حسن عاقبتها .

وقال : طالب الدنيا إن نال ما أمّل تركه لغيره ، وإن لم ينل مات بغيظه .

وقال : الدنيا معبر إلى غيرها فمن استعدّ زاد السفر أمن من المفاوز الّتي يخاف فيها غيره ، ومن قصّر عن استعداد زاده قطع طريقه ، وعجز عن اللّحوق بمن سبقه .

وقال : ما أوفر حظّ من باع الفاني بالباقي ، والعاجلة بالآخرة .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام :[٢] «إنّ الله تعالى يسائلكم - معشر عباده - عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة ، والظاهرة والمستورة ، فإن يعذّب فأنتم أظلم ، وإن يعف فهو أكرم واعلموا عباد الله أنّ المتّقين ذهبوا بعاجل الدنيا و آجل الآخرة ، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم ، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم ، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت وأكلوها

(١) انقدع : انكفّ . وفي الاصلين بالذال المعجمة ، ولم يستعمل منه باب الانفعال ، مضافاً الى عدم تناسب معناه وهو الفحش .

(٢) فيما كتبه لمحمد بن ابي بكر حين قلده مصر . انظر شرح النهج لعبده (٢ : ٢٨)

بأفضل ما اُكلت،فحظوها في الدنيا بما حظى به المترفون ، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبّرون ، ثمّ انقلبوا عنها بالزاد المبلّغ والمتجر الرابح . أصابوا لذّة هذه الدنيا في دنياهم وتيقّنوا أنّهم جيران الله تعالى غداً في آخرتهم . لا يردّ لهم دعوة ، ولا لهم نصيب من لذّة فاحذروا عباد الله الموت وقربه ، وأعدّوا له عدّته[1] فإنّه يأتي أمر عظيم وخطب جسيم،إمّا بخير لا يكون معه شرّ أبداً ، أو شرّ لا يكون معه خير أبداً . فمن أقرب إلى الجنّة من عاملها ومن أقرب إلى النار من عاملها ؟ وأنتم طرداء[2] الموت إن أقمتم له أخذكم ، وإن فررتم منه أدركم ، وهو ألزم لكم من ظلّكم،الموت معقود بنواصيكم ، والدنيا تطوي من خلفكم،فاحذروا ناراً قعرها بعيد ، وحرّها شديد ، و عذابها جديد . دار ليس فيها دعوة ، و لا يفرّج فيها كربة ، فإن استطعتم أن يشتدّ خوفكم من الله تعالى وأن يحسن ظنّكم به ، فاجمعوا بينهما فإنّ العبد إنّما يكون حسن ظنّه بربّه على قدر خوفه من ربّه ، فإنّ أحسن الناس ظنّاً بالله عزّ وجلّ أشدّهم خوفاً منه »[3] .

وقال سقراط : الدنيا كلحم الميتة ، من قلّ تناوله منها كثرت سلامته ودامت عافيته و من كثر تناوله منها كثر عطبه[4] ودامت شقاوته ، و من زهد في الدنيا أحبّه العالم الأعلى ، والعالم الأدنى ، فأمّا محبّة العالم الأعلى فلتبرّيه من رذائل عالم الطبيعة ، و رفض اللّذّات الجسمانيّة ، وانتسابه بذلك إليهم ، وتشبّهه بهم ، وأمّا محبّة العالم الأدنى فبتركه لهم ما في أيديهم ، وترك مشاركتهم فيما أحبّوه منها .

وقال : الدنيا لدور من ساعة[5] يتبعها شقاء طويل ، والآخرة صبر قليل يتبعها راحة

---

(١) كذا في النسخة (ر) والنهج ، وفي الاصل الاخر « عدة » .

(٢) كذا في النهج ، وكان في الاصلين « طرد الموت » قال ابن ابي الحديد (٣ : ٦٦) : « قوله طرداء الموت : جمع طريد أي يطردكم عن أوطانكم ، ويخرجكم منها لابد من ذلك ، ان أقمتم أخذكم ، وان هربتم أدرككم . وقال الراوندي : طرداء هنا جمع طريدة وهي ما طردت من الصيد اوالوصيفة » انتهى موضع الحاجة .

(٣) عطب - من باب علم - هلك .

(٤) وقد ورد في عدة روايات اعتدال الخوف والرجاء في المؤمن . انظر اصول الكافي (٢:٦٧)

(٥) في النسخة (ر) لدن ساعة . ولعل الصحيح : لذة ساعة .

طويلة ومواصلة الدنيا حلاوة يسيرة قصيرة يتبعه مرارة كثيرة، ومقاطعتها [١] مرارة يسيرة قصيرة يتبعها حلاوة عظيمة طويلة. وعجباً لمن عرف سرعة انتقال الدنيا واستحالة أحوالها كيف يحزن عليها، وعجباً لمن رأى تنكّد العيش فيها كيف لا يرضى بالحقير منها، وحقّ على من عرفها أن يزهد فيها، وحقّ على من عرف ثمرة الزهد أن لا يرغب فيها.

وقال: الدنيا تنصح تاركها وتغشّ طالبها.

وقيل له: لمَ زهدت في الدنيا يا سقراط ولم تأخذ منها حظّاً؟ قال: أتدرون ما قالت العنكبوت لمّا قيل لها: ألا تحلّين [٢] رجليك بخلخال؟ قالت: أخاف تغصّ [٣] بها ساقي.

وقال: صاحب الدنيا دائم البطنة، قليل الفطنة، ساهي العقل لاهي النفس. همّته بطنه وفرجه، فهو إذا نام ميّت، وإن انتبه بهيمة.

وقال الزمان مكشوف العوار [٤] عند من تأمّله، فلن يغترّ به إلّا من جهله، وهو واعظ لمن بقي بمن مضى، حوادثه غبطة لقوم وهلاك لآخرين.

وقال: السكون إلى الدهر نهاية العجز والثقة به غاية الغرور وسوء الظنّ به أكبر الحزم، وهو جديد لا يبلى، وآكل لا يشبع، وخاذل لا يكلّ وخائن لا يوثق به، وجائر لا ينصف.

قال هرمس: الحكمة وحبّ الدنيا لا يجتمعان أبداً، والحكمة لا يثبت في القلب حتّى يتفرّغ من الدنيا.

وقال: ينبغي للعاقل أن يكون في الدنيا كالمريض الّذي لابدّ له من قوت ولا يوافقه كلّ الطعام، فهو في كلّ وقته بين مداواة وحمية، ومن عرف نفسه لم يكن للدنيا عنده قدر.

وقال: أعقل الناس من ترك الدنيا للآخرة.

وقال: الدنيا اسم لما يكون ويزول.

---

(١) كذا في النسخة (ر) وفي الاصل < مقاطعها >.
(٢) في النسخة (ر) لم لاتحلين.
(٣) غصّ الشيء - من باب نصر - قطعه.
(٤) بتثليث العين: العيب، الخرق والشق في الثوب.

وقال : الدنيا عقوبة العقلاء ونعيم الأشقياء .

وقال : الدنيا غفلة مفتون وصفقة مغبون . تصل العطيّة[١] بالرزيّة والمنحة بالمحنة . مغمورة بالألم والسقم والهرم والعدم. سلامتها عطب، وراحتها تعب ، وملكها سلب . وحياتها موت ، ودركها فوت . رغب منها من جهل ، ورفضها من عقل .

وقيل اجتمع عند رابعة[٢] العدويّة عدّة من الفقهاء والزهّاد فذمّوا الدنيا وهي ساكتة ، فلمّا فرغوا قالت لهم : من أحبّ شيئاً أكثر ذكره إمّا بحمد و إمّا بذمّ فإن كانت الدنيا في قلوبكم لا شيء فلم تذكرون ؟

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه * فما فاته منها فليس بضائر

وقال داود الطائيّ : إنّما اللّيل والنهار مراحل ، فإن استطعت أن تقدّم في كلّ مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل ، فإنّ انقطاع السفر عن قريب ، والأمر أعجل من ذلك[٣] وكأنّك بالأمر قد بغتك .

وعنه : لا تمهر الدنيا دينك ، فإنّ من أمهرها دينه وقب[٤] إليه الندم .

قيل : بنى ملك في بني إسرائيل مدينة فتنوّق[٥] في بنائها ، ثمّ صنع للناس طعاماً ونصب على باب المدينة من يسأل عنها فلم يعبها إلّا ثلاثة عليهم الأكسية فإنّهم قالوا : رأينا عيبين فسألهم فقالوا : تخرب ويموت صاحبها . فقال: فهل تعملون داراً تسلم من هذين العيبين ؟ قالوا : نعم ، الآخرة . فخلّى ملكه و تعبّد معهم زماناً ثمّ ودّعهم فقالوا : هل رأيت منّا ما تكرهه ؟ قال : لا ، ولكن عرفتموني فأنتم تكرموني فأصحب من لا يعرفني .

ابن سمّاك : من جرّعته الدنيا حلاوتها بميله إليها جرّعته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها .

---

(١) في النسخة (ر) : « العطبة » . وهي خرقة تؤخذ بها النار .

(٢) ام الخير ، رابعة بنت اسماعيل العدوية البصريه ، مولاة آل عتيك ، صالحة مشهورة ، لها في العبادة والنسك أخبار كثيرة ، مولدها في البصرة ورحلت الى القدس فتوفيت فيها ١٣٥ هـ . من كلامها : « اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم » . الاعلام : ٣١٤ .

(٣) هذه الجملة من الرسول صلى الله عليه وآله حين بنى المسجد فاشير اليه في تنويقه .

(٤) وقب الرجل - من باب وعد - أقبل وجاء .

(٥) تنوق في ملبسه أو مطعمه أو اموره : تجوّد فيها واهتم بها .

وقال النبيّ ﷺ : « إذا عظّمت أُمّتي الدنيا نزع الله منها هيبة الإسلام » .

وقال الفضيل : لو أنّ الدنيا بحذافيرها عرضت عليّ حلالاً لا أُحاسب عليها في الآخرة لكنت أتقذّرها كما يتقذّر أحدكم الجيفة إذا مرّت به أن تصيب ثوبه .

إبراهيم بن أدهم : فرّغ قلبك من ذكر الدنيا يفرغ قلبك الرضا إفراغاً .

وقفت أعرابيّة على قوم فقالت : تيسّروا للقاء الله عزّ و جلّ لأنّ هذه الأيّام تدرجنا إدراجاً .

وقال أنس : إنّ الله جعل الدنيا دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى فجعل بلوى الدّنيا لثواب الآخرة سبباً ، وثواب الآخرة من بلوى الدّنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي ويبلي ليجزي .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام [١] : « الدنيا دار ممرّ ، والآخرة دار مستقرّ ، و الناس فيها رجلان : رجل باع نفسه فأوبقها ، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها » .

وعنه عليه السلام [٢] : « أنتم في هذه الدنيا غرض تنتضل [٣] فيه المنايا ، مع كلّ جرعة شرقة [٤] ، ومع كلّ أُكلة غصّة ، لا تنالون منها نعمة إلّا بفراق أُخرى » .

وقال عليّ بن الحسين عليهما السلام [٥] « من هوان الدنيا على الله أنّ يحيى بن زكريّا عليه السلام أُهدي رأسه إلى بغيّ في طست من ذهب » تسلية لحرّ فاضل يرى الناقص الدنيء يطعم من الدنيا بالحظّ السنيّ كما أصابت تلك الفاجرة تلك الهديّة العظيمة .

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشّفت * له من عدوّ في ثياب صديق

---

(١) انظر النهج بشرح عبده (٢ : ١٧٥) الرقم ١٣٣ من الحكم والمواعظ القصار ، وفيه : دار ممر الى مقر .

(٢) صدر الخطبة ١٤٣ تراه في شرح عبده (١ : ٢٨٢) .

(٣) تنتضل فيه : ترامى اليه . وفي النسخة (ر) : عرض ينتصل .

(٤) شرق - من باب علم - بريقه : اعترض في حلقه منه شيء فمنعه من التنفس .

(٥) بل من كلام ابيه سيد الشهداء في مكة حين جاء اليه عبدالله بن عمر يشير اليه بصلح أهل الضلال انظر اللهوف ص ١٨ .

قال عيسى بن مريم عليه السلام : « من ذا الّذي يبني على موج البحر داراً ؟ تلكم الدنيا ، فلاتتّخذوها قراراً » .

قال بشر بن الحارث : اجعل الآخرة رأس مالك فما أتاك من الدنيا فهو ربح .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام (١) : « الدنيا قد نعت إليك نفسها ، وتكشّفت لك عن مساويها فإيّاك أن تغترّ بما ترى من إخلاد أهلها إليها ، وتكالبهم عليها ؛ فإنّهم كلاب عاوية ، و سباع ضارية ، يهرّ (٢) بعضها على بعض ، يأكل عزيزها ذليلها ، ويقهر كبيرها صغيرها . نَعم معقّلة ، وأُخرى مهملة قد أضلّت عقولها ، وركبت مجهولها » .

و قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه و سلامه (٣) : « فاُحذّركم الدنيا فإنّها دار قُلعة (٤) ، وليست بدار نجعة (٥) . دارٌ هانت على ربّها فخلط خيرها بشرّها ، و حلوها بمرّها . لم يرضها لأوليائه ، ولم يضنّ بها على أعدائه » . ربّ (٦) فعل يصاب به وقته فيكون سنّة ، وبخطأ بهوقته فيكون سيّئة .

سلام بن مسكين قال : قال لنا الحسن : يامعشر الشبّاب ! عليكم بطلب الآخرة فقدوالله رأينا أقواماً طلبوا الآخرة فأصابوا الدنيا و الآخرة ، و ما رأينا من طلب الدنيا فأصاب الآخرة .

قال أبوالعتاهية :

ياعاشق الدنيا يغرّك وجهها * و لتندمنّ إذا رأيت قفاها

وقال أمير المؤمنين عليه السلام (٧) : « الدنيا دار صدق لمن صدّقها ، و دار عافية لمن فهم

---

(١) من وصية كتبها لابنه الحسن عليهما السلام . انظر شرح النهج لعبده (٢ : ٥١) مع تقديم وتأخير فى الجمل .

(٢) هرّ - من بابى فرومد - مقت وكره .

(٣) ابتداء الخطبة ١١١ فى النهج بشرح عبده (١ : ٢٣٩) .

(٤) القلعة : من لايثبت على السرج أومن يزل قدمه عند الصراع ، اى هى من لايستقر .

(٥) النجعة - بالضم - طلب الكلاء فى موضعه .

(٦) ظاهر العبارة انه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، ولم نجده فى النهج .

(٧) الرقم ١٣١ من الحكم بتقديم وتأخير فى الالفاظ . انظر شرح النهج لعبده (٢ : ١٧٣-١٧٥) .

عنها ، ودارغناء لمن تزوّد منها . مسجد أنبياء الله ، ومصلّى ملائكته ، ومهبط وحيه ، ومتجر أوليائه ، اكتسبوا فيها الرحمة ، و ربحوا الجنّة . فمن ذا يذمّها ؟ فقد آذنت ببينها ، و نادت بفراقها ، و نعت نفسها و أهلها ، و مثّلت لهم ببلائها البلاء ، و سوّفت بسرورها إلى الشرور و زاحت بفجيعة و ابتكرت بعافية تحذيراً و ترغيباً وتحريفاً ، فذمّها رجال غداة الندامة ، وحمدها آخرون . ذكّرتهم فذكروا صدقتهم فصدقوا . أيّها الذامّ للدنيا المغترّ بغرورها ! متى استدامت لك الدنيا ؟ بل متى غرّتك من نفسها بمضاجع آبائك من البلى ، أم بمصارع أمّهاتك من الثرى ، كم قدعلّلت بكفّك وأمرضت بيدك ، تبغي له الشفاء ، وتستوصف له الأطبّاء ، لم تنفعه بشفائك ولم تسعف له بطلبتك ، وقد مثّلت لك الدنيا به نفسك وبمصرعه مصرعك ، غداة لاينفعك بكاؤك ، ولا يغني عنك أحبّاؤك» .

وقال بعضهم : سمعت الشافعيّ وقد وعظ أخاً له في الله وخوّفه بالله تعالى فقال : يا أخي ؟ إنّ الدنيا دحض مزلّة ودارمذلّة،عمرانها إلى الخراب صائر،وساكنها إلى القبور زائر شملها على الفرقة موقوف و غناؤها إلى الفقير موصوف . و الإكسار [1] فيها أعسار ، و الإعسار فيها يسار ، فافزع إلى الله ، وارض برزق الله ، لاتستسلف من دار بقائك في دارفنائك ، فإنّ عيشك في زائل،وجدار مائل . أكثر من عملك وقصّر من أملك .

و قيل : إنّه مرّ رجل براهب فناداه فأشرف عليه فقال له : ياراهب متى تخلو القلوب من حبّ الدنيا ؟ قال : فصرخ الراهب صرخة انحطّ منها مغشيّاً عليه فلم يزل الرجل يراعيه حتّى أحسّ بإفاقته فناداه : أنا منذاليوم منتظرك ، فقال : يا هذا ! ما تريد منّي ؟ والله لايخلوالقلب من حبّ الدنيا ، والعين تنظر إلى أهلها ، والأذن تسمع كلامهم هو والله ماأقول لك حتّى يأوي مريد الله في أكهاف الجبال وبطون الغيران [2] يظلّ مع الوحوش ومواردها ، ويأكل أجنبة الشحر في أظلّتها ، ولا يرى في ذلك أنّ النعمة أتمّ على أحدمنها عليه .

---

(١) كذا الاصلان والصحيح «الاكثار» بمعنى جمع المال .

(٢) الاكهاف جمع الكهف . والغيران جمع الغار .

و قال الحسن : ما يغترّ بالدنيا و يسكن إليها أو يأمن منها التغيّرات و حلول النكبات إلّا جاهل مغرور ، وهي دار لا يدوم فيها سرور ، ولا يؤمن فيها محذور ، و قرنت مع السرّاء بالضرّاء ، و الشدّة بالرخاء ، والنعيم بالبلاء ، فمع نعيمها البأساء ، ومع سرورها الترحاء[1] ، ومع صحّتها السقم ، ومع وجودها العدم ، ومع فرحاتها الترحات ، و مع سلامتها الآفات .

و لقد أشرنا في الفصل الأوّل من هذه الرسالة إلى بعض آفات الدنيا ورزاياها ، و كذلك هنا أطلنا الكلام في ذكر بلاياها بأحسن موعظة فأين أُذن واعية ، طوبى لمن يسمعها ، فهى لعمري كافيه

(١) الحزن والهم .

﴿ فصل ١١ ﴾

﴿ يشتمل على محاسن آداب النفس والمواعظ والاحاديث ﴾
﴿ النبوية واحوال والزهاد واقوالهم وفي العجب ﴾

فلنقدّم العجب[١] لأنّه من الآفات المهلكة والموت بعده. روى أبوهريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، و كان أحدهما مذنباً و الآخر يجتهد في العبادة، وكان المجتهد لايزال يرى الآخر على الذنب فيقول له: اقصر فوجده يوماً على ذنب فقال له: اقصر، فقال له: خلّني و ربّي، أبعثت عليّ رقيباً؟ فقال له: والله لايغفر الله لك ولا يدخلك الجنّة، فقبض الله أرواحهما و اجتمعا عند ربّ العالمين فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً أو كنت على ما في يدي قادراً؟ فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنّة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار.

فقال بعضهم: لقد تكلّم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته يقول: إنّ المعصية بمنزلة السمّ القاتل، والطاعة بمنزلة الترياق وهو سبب النجاة والخلاص، لكنّ العاقل لا يشرب السمّ معتمداً على الترياق.

وهذا المجتهد إنّما استحقّ النار بمعصيته لاباجتهاده. وطاعته ومعصيته ههنا نوعان أحدهما: الإعجاب بعمله، والإعجاب من المهلكات. الثاني: هو أن تألّى على الله بقوله: «والله لايغفر الله لك، ولا يدخلك الجنّة» و التألّي على الله من أعظم الذنوب و الخطايا، قال النبيّ ﷺ[٢]: «ويل للمتألّين من أُمّتي».

وعن وهب قال: كان قبلكم رجل عبدالله عزّ وجلّ سبعين سنة يفطر من سبت إلى سبت فطلب إلى الله حاجة فلم يعطه فأقبل على نفسه فقال: لوكان عندك خير لقضيت حاجتك،

---

(١) انظر فيه اصول الكافي (٢: ٣١٣).

(٢) رواه ابن الاثير في النهاية مادة (الى) قال: يعني الذين يحكمون على الله و يقولون: فلان في الجنة وفلان في النار.

وإنّما أُتيت من قِبلك ، فنزل عليه ملك من ساعته ، فقال له : يا ابن آدم ! إنّ ساعتك الّتي أزريت فيها على نفسك خير من عبادتك الّتي قد مضت .

و قال الشعبيّ : كان رجل إذا مشى أظلّه سحاب ، فقال رجل : لأمشينّ في ظلّه فأعجب الرجل بنفسه ، فقال : هذا يمشي في ظلّي فلمّا افترقا ذهب الظلّ مع ذلك الرجل .

وقال بعضهم : إنّ من صلاح توبتك أن تعرف ذنبك ، و إنّ من صلاح عملك أن ترفض عجبك ، وإنّ من صلاح شكرك أن تعرف تقصيرك .

وروي أنّ عمر بن عبدالعزيز كان إذا خطب فخاف العجب قطع ، وإذا كتب فخاف العجب مزّق ، وقال : اللّهم إنّي أعوذبك من شرّ نفسي .

وعن مطرّف بن عبدالله قال : لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحبّ إليّ من أن أبيت قائماً و أُصبح معجباً[1] .

وروي أنّ شاباً في بني إسرائيل رفض دنياه و اعتزل الناس وجعل يتعبّد في بعض النواحي فخرج إليه رجلان من قومه ليردّاه إلى منزله فقالا له : يافتى أخذت بأمر شديد لاتصبر عليه ، فقال الشابّ : قيام الناس بين يدي الله أشدّ من قيامي هذا فقالا له : إنّ لك أقرباء فعبادتك فيهم أفضل ، فقال الشابّ : إنّ ربّي إذا رضي عنّي أرضى عنّي كلّ قريب وصديق ، فقالا له : أنت شابّ لاتعلم ، وإنّا قد جرّبنا هذا الأمر و نخاف عليك العجب ، فقال الشابّ : من عرف نفسه لم يضرّه العجب ، فنظر أحدهما إلى صاحبه وقال له : قم ، فإنّ الشابّ قد وجد ريح الجنّة فلا يقبل قولنا .

وذكر في الخبر أنّ داود عليه السلام خرج إلى ساحل البحر فعبد ربّه سنة فلمّا تمّت السنة قال : يارب قد انحنى ظهري و كلّت عيناي ونفدت الدموع فلا أدري إلى ما يصير أمري فأوحى الله تعالى إلى ضفدع : أجيبي عبدي داود ، فقالت الضفدع : يانبيّ الله أتمنّ على ربّك في عبادة سنة ؟ و الّذي بعثك بالحقّ نبيّاً إنّي على ظهر بريّة منذ ستّين سنة

(١) ذكره الشعراني في طبقاته الكبرى (١ : ٢٩) .

أُسبّحه وأحمده وإنّ فرائصي [١] لترعد من مخافة ربّي . فبكى داود عليه السلام عند ذلك .

وقال مسروق : كفى بالمرء علماً أن يخشى الله و كفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله

وقال المسيح عليه السلام : « يامعشر الحواريّين ! كم من سراج أطفأه الريح ، و كم من عابد أفسده العجب » .

ويقال : أعسر العيوب إصلاحاً العجب واللّجاجة .

وقال حذيفة المرعشيّ : إن لم تخش أن يعذّبك الله على أفضل عملك فأنت هالك .

وقال أُويس القرنيّ رحمه الله : كن في أمر الله تعالى كأنّك قتلت الناس جميعاً .

وقال حفص بن حميد : قلت لابن المبارك : رجل قتل رجلاً بين يديّ فوقع في نفسي أنّي أفضل منه ، فقال : أمنك على نفسك شرّ من ذنبه .

وقال بعضهم : إذا رأيت العبد لجوجاً مماريا معجباً بنفسه فقد استكمل الخسارة .

و قال أبان بن أبي عيّاش : لايكره الرخص إلّا صاحب هوى أومعجب .

وأُثني على بعض الصحابة فقال : اللّهمّ إنّي أعوذبك من شرّ ما يقولون فاجعلني خيراً ممّا يظنّون ، ولا تؤاخذني بمالا يعلمون ، فإنّك تعلم ولا يعلمون .

وقال رجل لعائشه : متى أعلم أنّي محسن ؟ قالت : إذا علمت أنّك مسيء ، قال : و متى أعلم أنّي مسيء ؟ قالت : إذا علمت أنّك محسن .

وقال خُليدبن دعلج : شهدت بكربن عبدالله ومطرّفاً بالموقف ، فقال مطرّف : اللّهمّ لا تردّهم اليوم من أجلي خائبين . و قال بكر : ما أشرفها من موضع وأرجاها لهم لولا أنّي فيهم .

وقال يحيى بن معاذ : قد رأيت الرجل بلغ من العجب أنّه يقول : لو عرضت عليّ الحورالعين ما التفتّ إليهنّ ، ولو [٢] نظر إلى وصيفة جميلة يبلغ صياح قلبه العرش .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : «إنّما هلاك الرجل منكم إعجابه بنفسه و استكثاره لعمله و استقلاله ذنوبه» .

---

(١) جمع الفريصة : اللحمة بين الجنب والكتف أو بين الثدي و الكتف ترعد عند الفزع .

(٢) الواو مع الجملة بعدها حالية .

و قال يحيى بن معاذ : ذنب أفتقر به إليك أحبّ إليّ من طاعة أدلّ بها عليك [١].

وكان داود عليه السلام إذا أراد أن ينوح على نفسه يمسك عن الطعام و الشراب وغشيان النساء سبعة أيّام ، ثمّ يأمر بمنبر يخرج إلى البرّيّة و يأمر سليمان عليه السلام أن يرتقي عليه وينادي أيّتها الوحوش والسباع ! أيّها الرجال والنساء أيّها الزهّاد والعبّاد ويا أصحاب الصوامع والأديار ! هلمّوا إلى سماع الزبور من داود قال : فيجتمعون في تلك البرّيّة فيرتقي داود المنبر فيأخذ في قراءة الزبور حتّى إذا أتى ذكر الموت و أهوال القيامة جعلوا يبكون و يتضرّعون حتّى مات منهم خلق كثير من كلّ جنس ، فلمّا رأى سليمان ذلك قال : يابنيّ الله تقطّعت الأحشاء وتصدّعت القلوب من بكائك على ذكر الذنوب و وبالبكاء ارتفعت الأصوات و كثرت الأموات فماذا عليك لو قصّرت ؟ قال : فأخذ داود في الدعاء فناداه أحدزهّاد بني إسرائيل : ما أسرع ما أخذت في طلب الأجر ! فخرّ داود مغشيّاً عليه فقام سليمان ونادى : يامعشر الناس ! جهّزوا موتاكم ، من كان له صاحب فليقم إلى حبيبه وجهّزوهم ، فقد قتلهم ذكر الجنّة والنار .

وروي أنّه حضر مجلس داود أربعمائة من العذارى المتعبّدات اللاّبسات المسوح فلمّا أخذ داود في الوعظ وقراءة الزبور صحن جميعاً صيحة واحدة وفارقن الدنيا .

وروى شعيب بن حرب قال : كانت امرأة من حواريّ عيسى عليه السلام في متعبّد لها ، فأشرفت يوماً على ثمانية رهط من الحواريّين في صوامعهم ، فنادت بصوت جهوريّ :

ألا إنّما الدنيا كظلّ سكنته * فلابدّ يوماً أنّ ظلّك زائل

قال : فصعق الجميع فمات منهم ستّة وبقي اثنان .

و عن عبدالله بن وهب عن أبيه أنّ عابداً في بني إسرائيل كان في صومعة يتعبّد فإذا نفر من الغواة قالوا : لو استنزلناه بشيء ، فذهبوا إلى امرأة بغيّ فقالوا لها : تعرّضي له قال : فجاءته في ليلة مظلمة وهو قائم يصلّي ، ومصباحه ثابت فلم يلتفت إليها ، فقالت : ياعبدالله ! الظلمة والغيث آواني إليك فلم تزل به حتّى أدخلها إليه ، فاضطجعت وهو قائم يصلّي ، فجعلت تتقلّب وتريه محاسن خلقها ، حتّى دعته نفسه إليها فقال : لا والله حتّى ننظر

(١) أي افتخر بها عليك .

كيف صبرك على النار ، فدنا عن المصباح فوضع أصبعاً من أصابعه حتّى احترقت ، ثمّ رجع إلى مصلاّه فدعته نفسه إليها فعاد إلى المصباح فوضع أصبعه حتّى احترقت ثمّ رجع إلى الصلاة فدعته نفسه إليها فعاد إلى المصباح فوضع أصبعه حتّى احترقت فلم يزل كذلك حتّى احترقت أصابعه وهي تنظر إليه فصعقت فماتت ، فلمّا أصبحوا غدوا لينظروا إليها و ماذا صنعت فإذا بها ميّتة ، فقالوا : ياعدوّ الله يامرائي ! واقعت عليها ثمّ قتلتها؟ افذهبوا به إلى ملكهم و شهدوا عليه ، فأمر بقتله ، فقال : دعوني حتّى أُصلّي ركعتين قال : فصلّى ثمّ دعا ، فقال : أي ربّي ! إنّي أعلم أنّك لم تؤاخذني بمالم أفعل ، ولكن أسألك أن لا أكون عاراً على القرّاء بعدي .

قال : فردّ الله تعالى عليها روحها ، فقالت : انظروا إلى يده ثمّ عادت ميتة .

روي أنّ في التوراة مكتوباً «يا ابن آدم ! لاتشتهي تموت حتّى تتوب ، و أنت لا تتوب حتّى تموت» .

وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام : [1] « من أكثر ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير » .

وروي [2] أنّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه سمع إنساناً يقول : « إنّا لله وإنا إليه راجعون » فقال : قولنا : «إنّا لله» إقرار منّا لك بالملك[3] ، وقولنا : « وإنّا إليه راجعون» إقرار على أنفسنا بالهلك .

وقيل : من عجائب الدنيا أنّك تبكي على من تدفنه وتطرح التراب على وجه من تكرمه .

كأنّي برهطي يحملون جنازتي * إلى حفرة يحثى عليّ كثيبها [4]
وباكية حرّى تنوح و إنّني * على غفلة عن صوتها لا أُجيبها
أياهادم اللّذّات! مامنك مهرب * تحاذر نفسي منك ما سيصيبها

(١) من الرقم ٣٤٩ من حكمه في شرح عبده (٢:٢٢٧) .
(٢) الرقم ٩٩ من الحكم . المصدر المذكور (٢:١٦٣-١٦٤) .
(٣) في النهج : اقرار على انفسنا بالملك .
(٤) حثا التراب : صبه . الكثيب : التل من الرمل .

رأيت المنايا قسّمت بين أنفس * ونفسي سيأتي بعد ذلك نفيسها

روي [١] عن جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام عن جدّه قال : سأل النبيّ صلى الله عليه وآله الله عزّ و جلّ فقال : أي ربّ! أيّ الأعمال أفضل ؟ قال : ليس شيء عندي أفضل من التوكّل عليّ والرضا بما قسمت لهم .

يا أحمد ! وجبت محبّتي للمتحابّين فيّ ، ووجبت للمتقاطعين فيّ ، ووجبت للمتواصلين فيّ ، ووجبت كمال محبّتي للمتوكّلين عليّ . وليس لمحبّتي علّة ولا غاية ولا نهاية ، كلّما رفعت لهم علماً لم يخطر على قلوب الناس ، أُولئك الّذين نظروا إلى المخلوقين بنظري إليهم ، ولم يرفعوا الحوائج إلى الخلق . بطونهم جائعة من أكل الحلال ، نعيمهم من الدنيا ذكري ومحبّتي ورضائي عنهم .

يا أحمد إن أحببت أن تكون أورع الناس فازهد في الدنيا و ارغب في الآخرة ، فقال عليه السلام : كيف أزهد في الدنيا و أرغب في الآخرة ؟ فقال جلّ جلاله : خذمن الدنيا حظاً من الطعام والشراب واللباس ، ولا تحبس شيئاً لغد . وداوم على ذكري ، فقال : يا ربّ ! كيف أدوم على ذكرك ؟ فقال : بالخلوة من الناس ، و تركك للحلو و الحامض ، و فراغ بيتك و بطنك من الدنيا .

يا أحمد ! واحذرأن تكون مثل العبيّ إذا نظر إلى الأخضر و الأصفر أحبّه ، و إذا أُعطي شيئاً من الحلو والحامض أختزنه . قال عليه السلام : يا ربّ دلّني على شيء أتقرّب به إليك قال عزّ و جلّ : اجعل ليلك نهاراً و نهارك ليلاً ، فقال : يا ربّ كيف أكون كذلك ؟ قال تعالى : اجعل نومك صلاة واجعل طعامك جوعاً .

يا أحمد ! وعزّتي و جلالي مامن عبد ضمن لي أربع خصال إلّا أدخلته الجنّة : يطوي لسانه فلايفتحه إلّا بمايعنيه ويحفظ قلبه من الوسواس ، ويحفظ علمي ونظري إليه و يكون قرّة عينه الجوع .

يا أحمد ! لوذقت حلاوة الجوع والصمت و الخلوة و ماورث الناس منها ! قال : ما

---

(١) قد ختم الديلمي كتابه ارشاد القلوب بهذه الرواية بتفصيلها مع اختلاف . راجعه ص ٣٢٩ - ٣٤٠ .

ميراثها ؟ قال : الحكمة وحفظ القلب ، والتقرّب إلى الله والخوف الدائم و خفة المؤونة بين الناس والقول وأن لاتبالي عشت بيسر أوبعسر ، يا أحمد ! هل تعلم بأيّ وقت يتقرّب العبد إليّ ؟ قال : يارب لا ، قال : إذا كان جائعاً أوساجداً .

يا أحمد ! العجب من عبد له قوت يوم من الحشيش أوغيره وهو يهتمّ لغد ، وعجبت لعبدلا يدري أنّي راض عنه أوساخط وهو يضحك .

يا أحمد إنّ في الجنّة قصراً من لؤلؤة ودرّة فوق درّة ، ليس فيها نظم ولا وصل ، فيها الخواصّ ، أنظر إليهم في كلّ يوم سبعين مرّة و اُكلّمهم ، كلّما نظرت إليهم ازداد ملكهم سبعين ضعفاً ، و إذا تلذّذ أهل الجنّة بالطعام و الشراب تلذّذ اُولئك بذكري و بكلامي وبحديثي . قال : يارب ! ماعلامة اُولئك في الدنيا ؟ قال : هم مسجونون قدسجنوا ألسنتهم من فضول الكلام وبطونهم من فضول الطعام .

ياأحمد ! المحبّة لله المحبّة للفقراء والتقرّب إليهم ، قال : من الفقراء ؟ قال : الفقراء الّذين رضوا بالقليل و صبروا على الجوع ، وشكروا على الرخاء ، ولم يشكوا جوعهم ولا ظمأهم ، ولم يكذبوا بألسنتهم ، ولم يغضبوا على ربّهم ، ولم يغتمّوا على مافاتهم ، ولم يفرحوا بما آتاهم .

يا أحمد ! لاتزيّننّ نفسك بأنبن اللباس[1] ، وبطيب الطعام ، وبلين الوطاء[2] ، فإنّ النفس مأوى كلّ سوء ، وهي رفيق السوء لاتجرّها إلى طاعة الله إلّا وتجرّك إلى المعصية ، تخالفك في طاعة الله ، وتطيعك فيما كره الله ، تطغى إذا شبعت ، وتشكو إذا جاعت ، و تغضب إذاافتقرت ، وتتكبّر إذا استغنت ، لأنّ النفس لا تذهب إلى خير ، وهي قرينة الشيطان ، فمثل النفس كمثل النعامة إذا حمل عليها لاتطير ، وهي إذا اُطعمت أكلت كثيراً ، و كمثل الدفلى[3] لونه حسن وطعمه مرّ .

يا أحمد ! ابغض الدنيا وأهلها ، وإنّ أهل الدنيا من كثر أكله وضحكه و نومه وغضبه ، قليل الرضا لايعتذر إلى من أساء إليه ولايقبل عذر من اعتذر إليه ، كسلان عند

(١) كذا في الاصلين ، ولعل الصواب : أنبل اللباس ، اى أفضله .

(٢) بكسر الواو وفتحها : ما يفترش .

(٣) بكسر الدال وفتح اللام : نبت له ورد معجب لونه ، يقال له بالفارسية « خر زهره »

الطاعة ، شجاع عند المعصية . أمله بعيد ، وأجله قريب لايحاسب نفسه ، قليل المنفعة كثير الفرح ، قليل الخوف عند الكلام . إنّ أهل الدنيا لا يشكرون عند الرخاء ولا يصبرون على الشدّة كثير الناس عندهم قليل يحمدون أنفسهم بما لا يعلمون ، و يتكلّمون بما لا يتمّون ، ويدّعون ماليس لهم ، ويذكرون مساوي الناس ، ويخفون حسناتهم .

فقال عليه السلام : يارب كلّ هذا العيب في أهل الدنيا ؟ قال : يا أحمد ! إنّ عيب أهل الدنيا كثير ، فيهم الجهل والحمق ، لا يتواضعون لمن يتعلّمون منه ، وهم عند أنفسهم عقلاء ، وعند العارفين حمقاء ، وإنّ أهل الآخرة رقيقة وجوههم ، كثير حياؤهم ، قليل حمقهم ، كثير منفعتهم ، قليل مكرهم ، الناس منهم في راحة ، وأنفسهم منهم في تعب . كلامهم ضرورة ، محاسبون لأنفسهم متعبون لها . تنام أعينهم ولا ينام قلوبهم . أعينهم باكية ، و قلوبهم ذاكرة إذا كتب الناس من الغافلين كتب أولئك من الذاكرين ، في أوّل النعمة يحمدون ، و يشكرون في آخرها ، دعاؤهم عند الله مرفوع ، و كلامهم عند الله مقبول . تفرح الملائكة وتدأب دعوتهم تحت الحجب . ويحبّ الربّ أن يسمع كلامهم ، كما يحبّ الوالد الولد . لا يشغلهم شيء عن ذكر الله طرفة عين ولا يريدون كثرة الطعام ، ولا كثرة الناس . الناس عندهم موتى ، والله عندهم حيّ كريم . يدعو المريدين كرماً ، ويزيد المقلّين تلطّفاً . إنّ أهل الآخرة لا يهنأهم الطعام منذ عرفوا ربّهم ، ولا يشغلهم مصيبة منذ عرفوا سيّئاتهم ، يبكون على خطاياهم ، يتعبون أنفسهم ولا يريحونها ، إنّ راحة أهل الآخرة في الموت والآخرة مستراح العابدين ، تؤانسهم دموعهم التي تفيض على خدودهم ، وجلاّسهم الملائكة الذين عن أيمانهم وعن شمائلهم ، ومناجاتهم مع الجليل الذي فوق عرشه . إنّ أهل الآخرة قلوبهم في أجوافهم قد قرحت ويقولون : من يستريح من دار الدنيا إلى البقاء ؟ .

يا أحمد ! هل تعرف ماللزاهدين عندالله ؟ قال عليه السلام : يارب لاأعرف ، قال الله تعالى : يبعث الخلق و يناقشون في الحساب ، وهم من ذلك آمنون ، إنّ أدنى ما أعطي الزاهدون في الدنيا أن أعطيهم مفاتيح الجنان كلّها ، حتّى يفتحوا أيّ باب شاءوا ، ولا أحجب عنهم وجهي ، ولأنعمنّهم بألوان التلذّذ من كلامي ، و لأجلسنّهم في مقعد صدق ، فأذكرنّهم ما صنعوا وتعبوا في دار الدنيا ، وما صنع بهم ، وأفتح لهم أربعة أبواب : باب يدخل عليهم

منه الهدايا بكرة وعشيّاً من عندي ، وباب ينظرون إليّ كيف شاءوا بلا صعوبة ، وباب منه يطلعون إلى النار فينظرون إلى الظالمين كيف يعذّبون ، وباب يدخل عليهم الوصائف [و[١]] الحور العين.

قال عليه السلام : يا ربّ! ماهؤلاء الزاهدون الّذين وصفتهم؟ قال عزّ وجلّ: الزاهد الّذي ليس له بيت يخرب فيغتمّ بخرابه ، ولا له ولد يموت فيحزن لموته ، ولا له مال إذا ذهب حزن لذهابه ، ولا يعرف إنساناً يشغله عن ذكر الله طرفة عين ، ولا له فضل طعام فيسأل عنه ، ولا يرى عليه ثوباً ليّناً .

وجوه الزاهدين مصفرّة من تعب اللّيل وصوم النهار ، وألسنتهم كالال من ذكر الله تعالى ، قلوبهم في صدورهم مطعومة من كثرة مايخالفون أهواءهم ، قدضمّروا أنفسهم من كثرة صمتهم ، قداُعطوا المجهود من أنفسهم لا من خوف نار ولامن شوق جنّة ، ولكن نظروا في ملكوت السماوات والأرضين كما ينظرون إلى قومها ، قد صارت الدنيا و الآخرة عندهم واحدة سواء . تموت الناس مرّة ، و يموت أحدهم في كلّ يوم سبعين مرّة من مجاهدة أنفسهم وأهوائهم والشيطان الّذي يجري في عروقهم . لو تحرّكت ريح لزعزعته ، فإن قام بين يديّ كأنّه بنيان مرصوص . لاأرى في قلبه شغلاً لمخلوق . فوعزّتي لاُحيينّه حياة طيّبة حتّى إذا فارق روحه جسده ، لا اُسلّط عليه ملك الموت ولا يلي قبض روحه غيري، ولأفتحنّ لروحه أبواب السماء كلّها ، ولأرفعنّ الحجب كلّها دوني ولآمرنّ الجنان فلتتزيّننّ ، والعور العين فلتشرفنّ ، والملائكة فليصلّينّ ، والأشجار فلينمونّ ، وأثمار الجنّة فليبذلنّ ، و لآمرنّ ريحاً من الرياح الّتي تحت العرش فلتحمل جبالاً من الكافور فليذرينّ من جبال المسك فلينشرنّ ، وعوداً من غير نار فليدخننّ ، ولايكون بيني وبين روحه ستراً ، ويقول له عند قبض روحه : أهلاً و مرحباً بقدومك عليّ ، اصعد بالكرامة والبشرى ، و بالرحمة والرضوان ، وجنّات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها .

فلو رأيت يا أحمد الروح كيف تُرنّي [٢] بين الحجب ، ولو رأيت الملائكة كيف

(١) زيادة من ارشاد القلوب .
(٢) رفي يرني : غنّى .

يأخذها واحد ويعطيها آخر .

قال عليه السلام : يا ربّ ! هل تعطي أحداً من أُمّتي مثل هذا ؟ قال : يا أحمد ! هذه درجة الأنبياء والصدّيقين لأُمّتك ولأُمّة غيرك ولأقوام من الشهداء .

قال عليه السلام : يا ربّ ! أيّ الزهّاد أكثر، أزهّاد أُمّتي أم زهّاد بني إسرائيل ؟ قال تعالى : إنّ زهّاد بني إسرائيل في زهّاد أُمّتك كشعرة بيضاء في بقرة سوداء[1] قال عليه السلام : وكيف ذلك فإنّ عدد بني إسرائيل أكثر من أُمّتي ؟ قال تعالى : إنّ أكثر بني إسرائيل ارتدّوا إلى الكفر بعد الإيمان وشكّوا بعد اليقين وجحدوا بعد الإقرار .

قال عليه السلام : فحمدت الله كثيراً ، و شكرت الله كثيراً ، و دعوت لهم فقلت : اللّهمّ احفظهم وارحمهم واحفظ عليهم دينهم الّذي ارتضيت لهم ، اللّهمّ ارزقهم إيمان المؤمنين الّذي ليس بعده شكّ ، وورعاً ليس بعده رغبة ، وخوفاً ليس بعده حمق ، وقرباً ليس بعده بُعدٌ ، وخشوعاً ليس بعده ضجر ، وحلماً ليس بعده عجلة ، وعلماً ليس بعده جهل ، و عقلاً ليس بعده جنون . واملأ قلوبهم الحياء منك حتّى يستحيوا منك في كلّ وقت وحين ، واصرف عنهم آفات الدنيا وآفات الآخرة وآفات أنفسهم ووسواس الشيطان ، فإنّك تعلم ما في نفسي إنّك أنت علاّم الغيوب .

قال : يا أحمد ! عليك بالورع فإنّ الورع رأس الدين ووسط الدين و آخر الدين وتقرّب إلى الله تعالى بالورع فالورع كالشنوف[2] بين الحليّ ، وإنّ الورع زين المؤمنين وعماد الدين وإنّ الورع مثله كمثل السفينة ، كما أنّ من البحر لا ينجون إلّا بالسفينة ، كذلك لا يقدر الزاهدون أن ينجوا من الدنيا إلّا بالورع .

يا أحمد ! ما عرفني عبد إلّا خشع لي ، وما يخشع لي عبد إلّا خضع .

يا أحمد ! إنّ الورع يفتح على العبد أنواع العبادة كما يفتح أبواب السماء للملائكة إنّ العبادة يكرم بها العبد عند الخالق ويصل بها إلى الله .

يا أحمد ! عليك بالصمت فإنّي أعمر مجلس قلوب الصامتين و أنا أُخرّب مجلس

---

(١) في الارشاد والنسخة (ر) : كشعرة سوداء في بقرة بيضاء .

(٢) جمع الشنف ـ بالفتح ـ ماعلق في الاذن أو أعلاها من الحلي .

المتكلّمين بما لا يعنيهم .

يا أحمد ! إنّ العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في طلب الحلال فإذا طيّبت مطعمك ومشربك فأنت في حفظي و كنفي . قال عليه السلام : يا ربّ ! ما أوّل العبادة ؟ قال : أوّل العبادة الصوم ، هل تعلم يا أحمد ما ميراث الصوم ؟ قال: لا يا ربّ . قال : ميراث الصوم قلّة الأكل وقلّة الكلام ، والعبادة الثانية الصمت، ويورث من المعرفة اليقين، فإذا استيقن العبد لا يبالي كيف أصبح وأمسى بيسر أم بعسر، فهذا مقام الراضين،فمن عمل برضائي يلزمه ثلاث خصال : أُعرّفه علماً لا يخالطه الجهل ، و ذكراً لا يخالطه النسيان ، ومحبّة لا يؤثر على محبّتي محبّة المخلوقين،وإذا أحبّني حبّبته إلى خلقي وأفتح له عين قلبه إلى نور جلالي.فلا أُخفي عليه علم خاصّة خلقي ، و أُناجيه في ظلم اللّيل و ضوء النهار حتّى يقطع حديثه مع المخلوقين ، ومجالسة معهم فأُسمعه كلامي و كلام ملائكتي و أعرّفه سرّي الّذي آثرته عن خلقي،وأُلبسه الحياء حتّى يستحيي منه الخلق كلّهم ، ويمشي على الأرض مغفوراً له وأجعل قلبه وعاء ينظر بنظر قلبه إلى النار حتّى لا أُخفي عليه شيئاً من النار ، و أفتح عليه ما يمرّ على الناس في القيامة من الهول والشدّة ، وما أُحاسب به الأغنياء والفقراء ، والجهّال والعلماء ، وأُنوّمه في قبره ، و أُنزل عليه منكراً ونكيراً حتّى يسألاه ، و يرى ممرّه القبر واللّحد وهول المطّلع[1] وحسرة البلقع[2] ثمّ أنصب له ميزانه ، و أنشر ديوانه ثمّ أضع كتابه في يده يقرء مبشّراً ، ثمّ أجعل بيني وبينه ترجماناً أرفعه إليّ فينكبّ مرّة ويقوم مرّة ، ويقعد مرّة ويسير مرّة .

والله الموفق والمسدّد والمعين والمؤيّد فله الحمد على نعمائه .

هذا ما وجدته في كتاب المحاسن وليس هو محاسن البرقي[3] والّذي ذكر هنا شبيه بالمعراجيّة[4] .

---

(١) المأتى ، موضع الاطلاع من اشراف الى انحدار .

(٢) البلقع : الارض القفر .

(٣) هو أحمد بن أبي عبدالله محمد بن خالد البرقي من «برقة» من أعمال قم ، المتوفى نحو ٢٧٤ هـ .

(٤) بهامش الاصل : المعراجية هي التي روتها العامة عن علي عليه السلام سمعها عن النبي صلى الله عليه وآله لما عرج به الى السماء .

والآن نشرع في أحوال الزهّاد والعبّاد و كلامهم و أخبارهم و مواعظهم .

قال أبو عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام [١] : إنّ داود عليه السلام قال : يا ربّ ! أخبرني بقريني في الجنّة ، ونظيري في منازلي فأوحى الله تعالى : إنّ ذلك متّى أبو يونس قال : فاستأذن الله عزّ وجلّ في زيارته فأذن له ، فخرج داود وسليمان ابنه صلّى الله عليهما حتّى أتيا موضعه ، فإذا هو في بيت من سعف [٢] ، فقيل لهما : هو في السوق فسألا عنه أهل السوق فقيل لهما : اطلباه في الحطّابين فقال لهما جماعة من الناس : نحن ننتظره ، الآن يجيء فجلسا ينتظرانه إذ أقبل وعلى رأسه وقر [٣] من حطب ، فقام إليه الناس فألقى عنه الحطب و حمد الله و قال : من يشتري طيّباً بطيّب ؟ فساومه واحد وزاده آخر حتّى باعه من بعضهم ، قال : فسلّما عليه فقال لهما : انطلقا بنا إلى المنزل ،واشترى طعاماً بما كان معه ، ثمّ طحنه و عجنه في نقير [٤] له ، ثمّ أجّج ناراً و أوقدها ، ثمّ جعل العجين في تلك النار وجلس معهما يتحدّث ثمّ قام وقد نضجت خبزته ، فوضعها في النقير و فلقها [٥] ، وذرّ عليها ملحاً ووضع إلى جنبه مطهرة ملىء ماءً ، وجلس على ركبتيه ، وأخذ لقمة ، فلمّا رفعها إلى فيه قال : بسم الله ، فلمّا از دردها [٦] قال : الحمد لله ، ثمّ فعل ذلك بأخرى وأخرى ، ثمّ أخذ الماء فشرب منه فذكر اسم الله ، فلمّا وضعه قال : الحمد لله ربّ العالمين ، يارب ! من ذا الّذي أنعمت عليه فأوليته مثل ما أوليتني ؟ قد صحّحت بدني و بصري و سمعي و قوّيتني حتّى ذهبت إلى شجر لم أغرسه ولم اهتمّ لحفظه ، جعلته لي رزقاً ، و سقت له من اشتراه منّي فاشتريت بثمنه طعاماً لم أزرعه ، و سخّرت لي النار فأنضجته [٧] وجعلتني آكله بشهوة أقوى به على طاعتك فلك الحمد . قال : ثمّ بكا . قال

---

(١) الحديث مرسلا فى ارشاد القلوب ص ١٩٣ باب القناعة .

(٢) الصواب : فاذا هو بيت من سعف . كما فى الارشاد وضمير «هو» للموضع .

(٣) الوقر ـ بكسر الواو ـ الحمل الثقيل .

(٤) ما نقر وحفر من الحجر والخشب ونحوهما .

(٥) فلق الشيء : شقه وفى النسخة (ر) : فلفها .

(٦) ازدرد اللقمة : بلعها .

(٧) كذا فى النسخة (ر) وفى الاصل: انضجته ـ بالحاء ـ سهواً .

داود لسليمان : قم فانصرف بنا ، فإنّي لم أر عبداً قطّ أشكر لله عزّ وجلّ من هذا . صلّى الله عليهم أجمعين .

دخل داود عليه السلام غاراً من غيران بيت المقدس فوجد حزقيل يعبد ربّه ، و قد يبس جلده على عظمه فسلّم عليه ، فقال : أسمع صوت شبعان ناعم فمن أنت ؟ قال : أنا داود قال : الّذي له كذا و كذا امرأة و كذا و كذا أمة ؟ قال : نعم ، و أنت في هذه الشدّة ؟ قال : ما أنا في شدّة ولا أنت في نعمة حتّى تدخل الجنّة .

جعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «من عرف الله تعالى منع فاه من الكلام ، وبطنه من الطعام ، وعنّى نفسه [١] بالصيام والقيام» .

رابعة القيسيّة : ما سمعت الأذان إلّا ذكرت منادي يوم القيامة ، ولا رأيت الثلج إلّا ذكرت تطاير الصحف ، ولا رأيت الجراد إلّا ذكرت الحشر [٢] .

بعض الحكماء [٣] الّذين وقفوا على تابوت الإسكندر : انظر إلى حلم النائم كيف انقضى ، وإلى سحاب الصيف كيف انجلى .

وقال نبيّ الله صلى الله عليه وآله لجبرئيل : مالي [لا [٤]] أرى ميكائيل ضاحكاً قطّ ؟ قال : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار .

و قيل : إنّ جهنّم تزفر زفرة لا يبقى ملك ولا نبيّ إلّا خرّ ترعد فرائصه ، حتّى أنّ إبرهيم عليه السلام ليحثو على ركبتيه فيقول : ربّ لا أسألك إلّا نفسي .

الخدريّ يرفعه : لو ضرب بمقمع من مقامع الحديد الجبل لتفتّت فعاد غباراً .

وقال الحسن البصريّ : إنّ الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار أنّهم أعجزوا الربّ ولكن إذا طغى بهم اللّهب أرستهم [٥] في النار . ثمّ خرّ الحسن مغشيّاً عليه ثمّ قال : و

---

(١) عنى نفسه : حبسها .

(٢) سبق كلامهم ص ٩٦ - ٩٧ . راجعه .

(٣) مأخوذ من الاية « يخرجون من الاجداث كأنهم جراد منتشر » القمر : ٧ .

(٤) زيادة منا ، ليست في الاصلين

(٥) أرسى الوتد في الارض : ضربه فيها .

دموعه تحادر [١]: يا ابن آدم ! نفسك، فإنّما هي نفس واحدة إن نجت نجوت ، وإن هلكت هلكت ولم ينفعك من نجا ، كلّ نعيم دون الجنّة حقير ، و كلّ بلاء دون النار يسير .

آخر : يامن الكلمة تقلقه و البعوضة تسهره ! أمثلك يقوى على و هج [٢] السعير أو تطيق صفحة خدّه على نفخ سمومها ، ورقّة أمعائه على خشونة ضريعها ، و رطوبة كبده على تجرّع غسّاقها .

أمير المؤمنين عليه السلام [٣] : « اعلموا أنّه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار ؛ فارحموا أنفسكم ، فإنّكم قد جرّبتموها في مصائب الدنيا ، فرأيتم جزع أحدكم من الشوكة تضنيه [٤] ، والعثرة تدميه ، و الرمضاء [٥] تحرقه ، فكيف إذا كان بين طابقين [٦] من نار ، ضجيع حجر وقرين شيطان . أعلمتم أنّ مالكاً إذا غضب على النار حطم بعضها بعضاً لغضبه ، وإذا زجرها وثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته ، أيّها اليفن [٧] الكبير الّذي قد لهزه القتير ! كيف أنت إذا التحمت أطواق النار بعظام الأعناق ، وتشبّثت [٨] الجوامع حتّى أكلت لحوم السواعد » .

وقال عليه السلام [٩] : « فلو رميت قلبك نحو ما يوصف لك من الجنّة لعزفت نفسك [١٠]

---

(١) تحادر الدمع : نزل . وفي الاصلين : تجادر - بالجيم - غلطاً .

(٢) وهجت النار - من باب وعد - : اتقدت .

(٣) من الرقم ١٨١ من خطبه . انظر شرح عبده (١ : ٣٦٩) .

(٤) أضنى المرض فلاناً : أثقله وألزمه الفراش . وفي ما حضرنا من نسخ النهج وشروحه « تصيبه » وما في الاصلين أوفق مع ما بعده .

(٥) الرمضاء : شدة الحر ، الارض الحامية من شدة حر الشمس .

(٦) في الاصلين « طابقتين » قال ابن أبي الحديد (٢ : ٨٣٣) : « الطابق - بالفتح الآجرة الكبيرة ، وهو فارسي معرب ، وضجيع حجر يؤمي فيه الى قوله تعالى ، وقودها الناس والحجارة » .

(٧) في الاصلين « اليهن » وهو سهو . واليفن - بالتحريك - الشيخ المسن . ولهزه : خالطه . والقتير : الشيب .

(٨) في النهج : « نشبت » وهو أحسن والجوامع جمع الجامعة . ومنها الغل الجامعة .

(٩) من الخطبة ١٦٣ بشرح عبده (١ : ٣٣٠) .

(١٠) عزف - بالعين و الزاى من بابي ضرب و نصر - عن الشيء : زهد فيه و كرهه ، وهي رواية ابن أبي الحديد (٢ : ٧٢٩) وفي شرح عبده « لغرفت » بالغين والراء ، وقد أتعب نفسه في ←

عن بدائع ما أُخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذّاتها ، وزخارف مناظرها بالفكر في اصطفاف[١] أشجار غيّبت عروقها في كثبان[٢] المسك على سواحل أنهارها ، و في تعليق كبائس[٣] اللؤلؤ الرطب في عساليجها وأفنانها[٤]، وطلوع تلك الثمار المختلفة في علوّ أكمامها تجنى من غير تكلّف فتأتي على مُنية مجتنيها ، و يطاف على نزّالها في أفنية قصورها ، بالأعسال المصفّية[٥] والخمور المروّقة . قوم لم تزل الكرامة تتمادى بهم حتّى حلّوا دار القرار ، و أمنوا نقلة الأسفار .

و قال الرشيد لابن السّماك : عظني ، فقال : له احذر أن تصير إلى جنّة عرضها السماوات والأرض ولا يكون لك فيها موضع قدم .

أبوهريرة يرفعه : ما من أحد إلّاوعلى بابه رايتان : راية بيدملك وراية بيدشيطان، فإن خرج في طاعة الله تعالى تبعه الملك برايته حتّي يعود إلى بيته ، وإن خرج فيمايكره الله تبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشيطان حتّى يرجع .

وبعضهم: مثّلت نفسي في النار ، أُعالج أغلالها وسعيرها وزقّومها وزمهريرها ، فقلت: يانفس ! أيشَ تشتهين ؟ قالت : أن أرجع إلى الدنيا فأعمل صالحاً أنجو به من هذا العذاب، ومثّلتها في الجنّة مع حورها ألبس من سندسها و حريرها . فقلت : أيشَ تشتهين ؟ قالت : أن أرجع فأعمل عملاً أزداد به في الثواب ، فقلت لها : فأنت في الدنيا ، وفي الأمنة فاعملي .

و قال عيسى عليه السلام لعابد[٦]: ما تصنع ؟ قال : أتعبّد ، قال عليه السلام : فمن يعود عليك؟

← تفسيره فقال : « غرفت الابل - كفرح - اشتكت بطونها من أكل الغرف وهو الثمام ، اى لكرهت بدائع الدنيا كما تكره الابل الثمام . أو لتألمت نفسك من النظر والتناول لما تراه من بدائع الدنيا كما تألم بطون الابل من أكل الثمام » ولا يخفى ما فيه من التعسف والتكلف .

(١) افتعال من الصف . وفى شرح عبده « اصطفاق » من اصطفق العود : تحركت أوتاره .

(٢) جمع الكثيب : التل من الرمل و غيره .

(٣) فى الاصلين « كنائس » والكبائس جمع الكباسة - بالكسر - العذق من النخل وغيره .

(٤) العساليج جمع العسلوج - بالضم - مالان من قضبان الشجر . والافنان جمع فنن - بالتحريك - الغصن .

(٥) فى شرح عبده « المصفقة » وهما بمعنى .

(٦) فى النسخة (د) : لرجل .

قال : أخي ، قال عليه السلام : أخوك أعبد منك .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام [١] : « كونوا بقبول العمل أشدّ اهتماماً بالعمل ، فإنّه لايقبل عمل إلّا بالتقوى و كيف يقلّ عمل يتقبّل ؟ » .

وقال بعضهم : صفّ عملك من الآفات وإن قلّ ، تسعد به في الدارين ، ومن لم يتّق الآفات في عمله فإنّه لايكاد يفلح وإن أكثر اجتهاده ، وإنّما ارتفع القوم لاعتنائهم بإصلاح سرائرهم فعند ذلك أيّدهم بالنصر على الشيطان و بصّرهم مكائده .

وقال بعضهم : لأن أدخل النار وقد أطعت الله أحبّ إليّ من أن أدخل الجنّة وقد عصيت الله .

وقيل ليعقوب عليه السلام : إنّ بمصر رجلاً يطعم المسكين ويملأ حجر اليتيم ، فقال : ينبغي أن يكون منّا أهل البيت ، فنظروا فإذا هو يوسف عليه السلام .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : [٢] : « من تردّد في الريب [٣] وطئته سنابك الشياطين، أوصيكم بتقوى الله وإدامة التفكّر ، فإنّ التفكّر أبو كلّ خير وأُمّه» .

وعنه عليه السلام : «من عرف الله أحبّه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لايلهو حتّى يغفل ، فإذا تفكّر حزن» .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أوّل مايحاسب العبد به يوم القيامة أن يقال له : ألم أصحّ بدنك وأروك من الماء البارد ؟ ».

و قال أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى [٤] « لتسألنّ يومئذ عن النعيم » قال :

---

(١) سبق جزء منه ص١٨٢ وهو الرقم ٩٥ من حكمه عليه السلام .

(٢) الى قوله « الشياطين » من الرقم ٣١ من حكمه في شرح عبده (٢ : ١٥٠ - ١٥١)

(٣) في الاصلين « من تردد في الذنب » وهو سهو ، والكلام صدر في النهج بعين صحة « الريب » . قال العلامة عبده : « الريب : الظن ، اى الذى يتردد في ظنه ولا يعقد العزيمة في أمره تطؤه سنابك الشياطين ، جمع سنبك - بالضم - طرف الحافر ، اى تستزله شياطين الهوى فتطرحه في الهلكة » .

(٤) سورة التكاثر : ٨ ، والرواية في تفسير البرهان (٤ : ٥٠٤) عن ورام .

«الأمن والصحّة والعافية» .

و قال فيدخة بن ذؤيب : كنّا سمع نداء عبد الملك من وراء الحجرة في مرضه : يا أهل النعم ! لا تستقلّوا شيئاً من النعم مع العافية .

و روي : أنّه لمّا حضرته الوفاة أمر و صعد به إلى أرفع سطح في داره ، فقال : يا دينا ! ما أطيب ريحك! يا أهل العافية لاتستقلّوا شيئاً منها .

وقال بعضهم : إذا كان السرب [١] آمناً لم يكن الشرب آجناً [٢] .

وقال النبيّ ﷺ : «من فتح على نفسه باب مسألة من غير فاقة نزلت به ، أوعيال لايطيقهم ، فتح الله تعالى عليه باب فاقة من حيث لايحتسب» .

ثوبان : قال : قال رسول الله ﷺ : «من تقبّل لي واحدة أتقبّل له الجنّة» فقلت: أنا فقال : «لا تسأل الناس» فكان ثوبان إذا سقط ثوبه لم يأمر أحداً أن يناوله ، و ينزل هو فيأخذه .

وقال ذو النون المصريّ : خرجت حاجّاً إلى بيت الله الحرام، بينا أطوف إذا أنا بشخص متعلّق بأستار الكعبة يبكي و يصيح ويقول : بلائي من غيرك ، وشوقي إليك إلهي عجباً لمن عرفك كيف يسلوك [٣] ، ولمن ذاق حبّك كيف يجفوك ، ثمّ سجد فسمعت يعاتب نفسه ويبكي ويقول : أمهلك فما ارعويت [٤] ، وسترعليك فما استحييت ، وسألك حلاوة المناجاة فما باليت . ثمّ رمى بطرفه إلى السّماء فقال :

روّعت قلبي بالفراق ولا أرى * شيئاً أمرّ من الفراق فأوجعا
حسب الفراق بأن يفرّق بيننا * قد كان ما قد كنت فيه مروّعا

وقال المزني [٥] : دخلت على الشافعيّ في مرضه الّذي مات فيه فقلت له : كيف أصبحت

---

(١) بالفتح : الطريق ، وبالتحريك : القناة يدخل منها الماء .
(٢) أجن الماء ـ من باب علم وضرب ونصر ـ : تغير لونه وطعمه .
(٣) سلا الشيء وسلا عنه : نسيه .
(٤) ارعوى عنه : كف .
(٥) هو أبو ابراهيم اسماعيل بن يحيى . ذكره مع الخبر و الابيات ياقوت في معجم الادباء (١٧ : ٣٠٣) . و الغزالي في الاحياء (٤ : ٤٨٣ - ٤٨٤) .

قال : أصبحت من الدنيا راحلاً ، ولإخواني مفارقاً ، ولسوء فعالي ملاقياً ، و بكأس المنيّة شارباً ، وعلى الله وارداً . فوالله ماأدري أروحي إلى الجنّة تصير فأهنّئها، أو إلى النار فأعزّيها ثمّ بكى وأنشأ يقول :

فلمّا قسا قلبي وضاقت مذاهبي * جعلت رجائي نحو عفوك[سُلّما
تعاظمني ذنبي فلمّا قرنته * بعفوك ربّي[كان عفوك] أعظما[1]
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل * تجود و تعفو منّة و تكرّماً

وقال المزنيّ : سمعت الشافعيّ يقول : لو أنّ الدنيا علّقت تباع في السوق لما اشتريتها برغيف ، لما أرى فيها من الآفات .

وقال الربيع : سمعت الشافعيّ يقول : يحتاج طالب العلم إلى ثلاثة أشياء :أحدها طول العمر ،والثاني سعة اليد ، والثالث الذكاء .

وكان الشافعيّ يقول : لاتشغل قلبك بمن لا يشغل قلبه بك .

و ذكر أهل التاريخ[2] أنّ محمّد بن إدريس الشافعيّ ولد سنة خمسين[ومائة][3] في السنة[4] الّتي مات فيها أبوحنيفة[5] و كان من المغالين في محبّة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام حتّى نسبه كثير من جهّال العامّة إلى الرفض . فيدلّ على ذلك قوله :

إذا نحن فضّلنا عليّاً فإنّنا * روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل
وفضل أبي بكر إذا ما ذكرته * رميت بنصب عند ذكري للفضل
ولازلت ذا رفض ونصب كلاهما * بحبّيهما حتّى أُوسّد في الرمل

وقال أيضاً :

قالوا : ترفّضت ، قلت : كلاّ * ما الرفض ديني ، ولا اعتقادي

---

(١) بين المعقوفين من النسخة (ر) .

(٢) انظر معجم الادباء (١٧ : ٢٨٢) ووفيات الاعيان (٣ : ٣٠٥ ، برقم ٥٣٠)وغيرهما.

(٣) زيادة صحيحة من النسخة (ر) .

(٤) وقال ياقوت : في اليوم الذى مات فيه أبو حنيفة .

(٥) بهامش الاصل : ومن جملة خرافات العامة أنهم قالوا:ان الشافعى لبث فى بطن امه اربع سنين لم يخرج رعاية للادب مع ابى حنيفة فلما مات ولد بعد موت ابى حنيفة فى ذلك اليوم .

لكن تواليت غير شكّ * خير إمام و خير هادي
إن كان حبّ الوليّ رفضاً * فإنّني أرفض العباد

حكى أبو بكر البيهقي[١] في الكتاب الّذي صنّفه في مناقب الشافعيّ أنّ الشافعيّ قيل له : إنّ اُناساً لا يصبرون على سماع منقبة أو فضيلة لأهل البيت عليهم السلام و إذا أحد يذكر شيئاً من ذلك قالوا : تجاوز عن هذا فإنّ هذا رفض ، فأنشأ الشافعيّ يقول :

إذا في مجلس ذكروا عليّاً * و سبطيه و فاطمة الزكيّه
فأجرى بعضهم ذكرى سواهم * فأيقن أنّه لسلفلقيّه[٢]
إذا ذكروا عليّاً أو بنيه * تشاغل بالروايات العليّه
و قال : تجاوزوا يا قوم ! هذا * فهذا من حديث الرافضيّه
برئت إلى المهيمن من اُناس * يرون الرفض حبّ الفاطميّه
على آل الرسول صلاة ربّي * و لعنته لتلك الجاهليّه[٣]

و ذكر هذا صاحب كتاب « الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة » و هو كتاب ألّفه بعض[٤] علماء العامّة في فضائل أهل البيت عليهم السلام .

حكي أنّ عبد الله بن خالد اُكره على قضاء إصبهان ، وكان من المتعبّدين الورعين

---

(١) الابيات وخبر البيهقى فى الفصول المهمة : ٣ - ٤ وفيه ثلاثة أبيات اخر لم يذكر ها المؤلف وهى هذه :

يا راكباً قف بالمحصب من منى * واهتف بقاعد خيفها والناهض
سحراً اذا فاض الحجيج الى منى * فيضاً كملتطم الفرات الفائض
ان كان رفضاً حب آل محمد * فليشهد الثقلان أنى رافضى

وذكرها ياقوت (١٧ : ٣١٠)عن الربيع بن سليمان عن الشافعى .

(٢) بهامش الاصل : السلفلقية المرأة التى تحيض من دبرها .

(٣) وبعض هذه الابيات فى مناقب ابن شهر آشوب (١ : ٣) .

(٤) هو نور الدين على بن محمد بن أحمد بن عبدالله الصفاقسى المشهور بابن الصباغ المالكى المكى ، أصله من مدينة غزة ، ولد فى ذى الحجة سنة ٧٨٤ و توفى ٨٥٥ هـ انظر مقدمة كتابه المذكور .

قال يحيى بن مطرّف : مرّ عبد الله بن خالد يوماً يريد مجلس الحكم وجونته [١] على عنق غلام له، فوقع لرجل حمله عن حماره فقال : أعينوني على حمل هذا ، فقال عبد الله لغلامه : ضع الجونة ووضع عبد الله كساءه عن عاتقه ، فحمل مع غلامه على حمار الرجل ، ثمّ لبس كساءه وتوجّه إلى المجلس . وجلس يوماً بالمدينة للقضاء فحكم بشيء فقال المحكوم عليه : أيّها القاضي **ازخدا بترس** فوضع يده على رأسه وجعل يضرب بيده على رأسه و يقول: **قاضى خاكش بسر قاضى خاكش بسر** فختم جونته وديوانه وهرب ولم يربعده إلّا يوماً في الثغر حارساً .

وقال الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام [٢]: « مادخل قلب امرئ مشيء من الكبر إلّا نقص من عقله مثل ما دخله من ذلك ، قلّ ذلك أو كثر » .

وقال عليه السلام [٣] « الغنى والعزّ يجولان في قلب المؤمن : فإذا وصلا إلى مكان التوكّل أو طناه » .

وقال عليه السلام [٤]: « عالم ينتفع بعلمه أفضل من ألف عابد » .

وقال عليه السلام [٥]: « أوصاني أبي فقال : لاتصحبنّ فاسقاً فإنّه بائعك بأكلة فمادونها قلت : ياأبت ! وما دونها ؟ قال: يطمع فيها ثمّ لا ينالها . ولا تصحبنّ البخيل فإنّه يقطعك في ماله أحوج ما كنت إليه . ولاتصحبنّ كذّاباً فإنّه بمنزلة السراب يبعّد منك القريب ويقرّب منك البعيد . ولا تصحبنّ أحمق فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك. ولا تصحبنّ قاطع رحم فإنّي وجدته ملعوناً في كتاب الله في ثلاثة مواضع [٦] » .

وقال عليه السلام : « سلاح اللّئام قبيح الكلام » .

وقال لابنه عليه السلام : « إيّاك و الكسل والضجر ، فإنّهما مفتاح كل شرّ . إنّك إن

---

(١) بالضم : سلة مغشاة بالادم ، تكون عند العطارين .

(٢) وانظر في الكبر اصول الكافي (٢ : ٣٠٩ و٣٢٨) وجامع السعادات (١: ٣٤٦) .

(٣) رواه الكليني عن الصادق عليه السلام ، انظر اصول الكافي (٢ : ٦٥) باب التوكل .

(٤) رواه عن الباقر عليه السلام في جامع السعادات (١ : ١٠٤) فصل شرف العلم والحكمة .

(٥) من وصية أوصى بها الامام زين العابدين ابنه الباقر عليهما السلام ينهاه عن مجالسة خمسة رواها الكليني بطولها في اصول الكافي (٢ : ٦٤١) باب من تكره مجالسته ومرافقته .

(٦) البقرة : ٢٧ ، الرعد : ٢٥ ومحمد : ٢٣ .

كسلت لم تودّ حقّاً ، وإن ضجرت لم تصبر على حقّ » .

و قال :[١] « إيّاكم و الخصومة فإنّها تفسد القلب و تورث النفاق [و تكسب الضغائن]» .

وقال عليه السلام في قوله تعالى [٢] «وإذا رأيت الّذين يخوضون في آياتنا » : هم أصحاب الخصومات» .

وقال عليه السلام : « ما من عبادة أفضل من عفّة بطن و فرج ، وما من شيء أحبّ إلى الله تعالى من أن يسأل ، وما يدفع القضاء إلّا الدعاء . و كفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه . و أن يأمر الناس بما لا يستطيع التحوّل عنه ، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه » .

كرز بن و برة العابد سكن جرجان و بهامات ، و قال صاحب تاريخ جرجان : دخل كرز جرجان غازياً مع يزيد بن المهلّب سنة ثمان و تسعين ، ثمّ سكن جرجان ، و اتّخذ بها مسجداً وهو باق إلى اليوم بقرب قبره ، وكان معروفاً بالزهد و العبادة . روى عن أنس بن مالك و الربيع بن خيثم .

روي عن ابن فضيل عن أبيه قال : لم يرفع كرز رأسه إلى السماء أربعين سنة حياء من ربّه تعالى .

و عن ابن فضيل عن أبيه أنّ كرز بن و برة كان يصلّي حتّى و رم قدماه ، فيحفر الحفيرة ثمّ يقوم فيها من تورّم قدميه .

و عن ابن شبرمة قال : صحبنا كرزاً وكان لا ينزل منزلاً إلّا ابتنى مسجداً فقام يصلّي فيه و قال :

لو شئت كنت ككرز في تعبّده * أو كابن طارق حول البيت والحرم
قد حال دون لذيذ العيش خوفهما * وسارعا في طلاب الفوز والكرم

قال ابن شبرمة : سأل كرز ربّه[٣] عزّ و جلّ أن يعطيه الاسم الأعظم على أن لا

---

(١) رواه الكليني (٢ : ٣٠١) عن الصادق عليه السلام مع زيادة جعلناها بين المعقوفين .
(٢) سورة الانعام : ٦٨ .
(٣) الخبر مضطرب ، والمقصود واضح .

يسأل به شيئاً إلّا إعطاه الله ذلك فسأل أن يقوى أن يختم القرآن في اليوم و اللّيلة ثلاث مرّات .

وعن أبي بشر قال : كان كرز من أعبد الناس في زمانه : وكان قد امتنع من الطعام حتّى لم يوجد عليه من اللّحم إلّا قدر مايوجد على العصفور ! وكان يطوي أيّاماً كثيرة، و كان إذا دخل في الصلاة لا يرفع طرفه يميناً ولا شمالاً وكان من المحبّين لله (١) .

قال مالك بن دينار : خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها ، قالوا : وما هي يا با يحيى ؟ قال : معرفة الله عزّ وجلّ .

وقال مالك : ما تنعّم المتنعّمون بمثل ذكر الله عزّ وجلّ .

وقال : قرأت في التوراة : « أيّها الصدّيقون ! تنعّموا بذكري في الدنيا فإنّه لكم في الدنيا نعيم وفي الآخرة جزاء » .

وقال مالك : إنّ الصدّيقين إذا قرىء عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة .

وقال : وجدت في بعض الكتب سبّحوا الله أيّها الصدّيقون بأصوات حزينة .

وقال مالك : لايبلغ الرجل منازل الصدّيقين حتّى يترك زوجته كأنّها أرملة (٢) ويأوي إلى منازل الكلاب .

وقيل لمالك : ألا تتزوّج ؟ قال : لو استطعت لطلّقت نفسي .

وقال مالك : إنّ البدن إذا سقم لم ينجع فيه طعام ولا شراب ولا نوم ولا راحة ، و كذلك القلب إذا علقه حبّ الدّنيا لم تنجع فيه الموعظة .

وقال مالك : في بعض الكتب : إنّ الله تعالى قال : « إنّ أهون ماأنا صانع بالعالم إذا أُحبّ الدنيا أن أُخرج حلاوة ذكري من قلبه .

وقال محمّد بن عمر : ماكان لمالك إلّا درهمان درهم لورقة كاغذ ، ودرهم يشتري به خوصاً يعمل به ، وكان أُدمه كلّ سنة ملحاً بفلسين ، و كان يكتب المصاحف ولايأخذ عليها من الأجر أكثر من عمل يده ، وكان يكتب المصحف أربعة أشهر .

---

(١) بهامش الاصل : « المحبتين . ظ » .

(٢) المرءة التي مات زوجها .

و قال : أُعطي البقّال كلّ شهر درهماً و دانقين فآخذ منه ستّين رغيفاً لكلّ ليلة رغيفين .

وقال ابن المبارك : وقع حريق بالبصرة فأخذ مالك المصحف و أخذ بطرف كسائه يجرّه ، وقال : هلك أصحاب الأثقال .

وقال مالك : قال عيسى عليه السلام : «خشية الله وحبّ الفردوس يتباعدان من زهرة الدنيا و يورثان الصبر على المشقّة ، وإنّ أكل الشعير و النوم على المزابل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس».

وقال مالك : لولا أن يقول الناس :«جُنّ مالك» للبست المسوح ووضعت الرماد على رأسي أُنادي في الناس : من رآني فلا يعص ربّه .

وقال مالك : كلّ جليس لاتستفيد منه خيراً فأجتنبه .

وقال : كان الأبرار يتواصون بثلاث: بسجن اللسان ، و كثرة الاستغفار ، و العزلة .

وقال مالك : مثل قرّاء هذا الزمان مثل مرقة الطبّاخين ، ريحها طيّبة و ليس لها طعم .

وقال : لئن يردّ الرجل درهماً من حرام خير له أن يتصدّق بمائة ألف .

وقال مالك : إذا رأيت قسوة في قلبك و وهناً في بدنك ، و حرماناً في رزقك فاعلم أنّك تكلّمت فيما لايعنيك .

وقال : ما ضرب العبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب .

وقال مالك [1] :

أتيت القبور فناديتها : * أين المعظّم و المحتقر ؟

و أين الملبّي إذا ماردعا * وأين العزيز إذاما افتخر ؟

و أين المدلّ بسلطانه * و أين القويّ إذا ماقدر ؟

فأجابه هاتف :

تفانوا جميعاً فما مخبر * وماتوا جميعاً ومات الخبر

(١) انظر احياء العلوم (٤ : ٤٨٧) .

تروح و تغدو بنات الثرى * فتمحو محاسن تلك الصور
فياسائلي عن أُناس مضوا * أمالك فيما مضى معتبر ؟

وجعل يقول : أُفّ لدنيا و طالبها .

وفي بعض الكتب من ادّعى محبّتي وهو يجد لذّة الطعام و الشراب فقد كذب .

يا نائماً و الجليل يحرسه * من كلّ سوء يدين في الظلم
كيف تنام العيون عن ملك * تأتيك منه فوائد النعم

وقال ذو النون المصريّ : رأيت غلاماً نحيفاً مصفرّ اللّون يمشي في البرّيّة بلا زاد ولا نعل فسلّمت عليه و قلت له : أراك على هذه الحالة ! فبكى ثمّ قال :

ذاب ممّا في فؤادى بدني * و فؤادي ذاب ممّا في البدن
اقطعوا حبلي وإن شئتم صِلوا * كلّ شيء منكم عندي حسن

ثمّ غاب فلم أره .

وقال الحلاّج : ماذكرناك إلّا عن غفلة ؛ لأنّ العبد إذا كان حاضراً لاينطق بذكرك، لأنّ مشاهدتك تحجب عن ذكرك فذكرك للغافلين لاللعارفين .

كتب زرّ بن حُبيش [1] إلى عبد الملك بن مروان كتاباً يعظه فيه،وكان في آخره لايطغيك لافي طول الحياة ما يظهرمن صحّة بدنك ، فأنت أعلم بنفسك ، واذكر ما تكلّم به الأوّلون :

إذا الرجال ولدت أولادها * و بليت من كبر أجسادها
و جعلت أسقامها تعتادها * تلك زروع قد دنا حصادها

فلمّا قرأ عبدالملك الكتاب بكى حتّى بلّ طرف ثوبه ثمّ قال : صدق زر لو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق .

وقال بقيّة عن إبراهيم بن أدهم أنّه قال : أقمت بمكّة سنة من السنين فأتت عليّ

---

(١) زربن حبيش بن حباشه بن أوس الاسدى ، تابعى من جلتهم ، أدرك الجاهلية والاسلام ولم ير النبى صلى الله عليه وآله وكان فاضلا عالماً بالقرآن ، كان ابن مسعود يسأله عن العربية ، سكن الكوفة . وعاش مائة وعشرين سنة وتوفى سنة٨٣ بوقعة بدير الجماجم . الاعلام : ٣٣٣ .

ليلة شديدة الظلمة ، شديدة المطر فقلت : خلا لي الطواف فلم أزل أطوف إلى وقت السحر الأعلى ورفعت يدي إلى السماء فقلت : اللّهم إنّي أسألك أن تعصمني عن كلّ ما تكره ، وإذا بقائل يقول : من الهوى أنت تسألني العصمة ، و كلّ عبادي يسألوني العصمة ، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضّل ؟ شاعرٌ :

تربت يد سألت سواك ،وأجدبت * أرض بغير سحاب جودك توسم[1]

فالعزّ إلّا من لديك محرّم * و المال إلّا من يديك محرّم

احتضر عابد[2] فقال : ما تأسّفي على دار الأحزان و الغموم والبلايا و الخطاياو الذنوب ، وإنّماتأسّفي على ليلة نمتها ، ويوم أفطرته ، وساعة غفلت فيها عن ذكر الله .

هذه الدنياوإن سرّت قليل من قليل * إنّما العيش جوار الله في ظلّ ظليل

حيث لا تسمع من يؤذيك من قال و قيل

كان عليّ عليه السلام يتمثّل :

ومن يصحب الدنيايكن مثل قابض * على الماء خانته فروج الأصابع

و قال[3] عليّ عليه السلام : قال لي يهوديّ : مادفنتم نبيّكم حتّى اختلفتم فيه فقال له : إنّما اختلفناعنه لافيه.ولكنّكم ماجفّت أرجلكم من البحر حتّى قلتم :[4]«ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة» .

رفع[5] رجل رجلاً إلى عليّ عليه السلام وقال : إنّ هذا زعم أنّه احتلم على اُمّي فقال : أقمه في الشمس فأضرب ظلّه .

قال رجل لصاحب منزل:اصلح خشب هذا السقف فإنّه يتفرقع[6] قال:لاتخف إنّما هو تسبيح قال : أخاف أن تدركه رقّة فيسجد .

---

(١) ترب الرجل : افتقر . وسم الوسمى الارض : أصابها ، والوسمى أول مطرالربيع .

(٢) أورده الديلمى فى الارشاد : ٣٠٩ .

(٣) الرقم ٣١٧ من الحكم فى شرح عبده (٢ : ٢٢٠) قال العلامة عبده فى تفسيره : اى اختلفنا فى اخبار وردت عنه لافى صدقه واصول الاعتقاد بدينه .

(٤) سورة الاعراف : ١٣٧ .

(٥) رواه ابن شهر آشوب فى المناقب (١ : ٤٨٩) باب قضاياه فى عهد أبى بكر .

(٦) فرقع الاصابع : أنقضها فخرج منها صوت .

دخلت أُمّ أفعيّ العبديّة على عائشة فقالت : يا أُمّ المؤمنين ما امرأة قتلت ابنًا لها صغيراً ؟ قالت : وجبت لها النار ، قالت: فما تقولين في امرأة قتلت من أولادها الكبار عشرين ألفاً ؟ قالت : خذوا بيد عدوّة الله .

قال عبد الله بن المبارك :

يا ربّة الهودج ! يا أُمّنا * قتلت أولادك ، ما ذنبنا ؟

هبي جعلناك إماماً لنا * فمن إذا حضت يصلّي بنا ؟

خطب معاوية فقال : إنّ الله يقول [1] : « و إنْ من شيء إلّا عندنا خزائنة وما تنزّله إلّا بقدر معلوم » فعلامَ تلوموننى إذا قصّرت في إعطائكم ؟ فقال الأحنف : إنّا والله لانلومك على ما في خزائن الله ، ولكن على ما أنزله لنا من خزائنه فجعلته أنت في خزائنك وحُلت بينا وبينه .

وقال داود : إلهي كن لابني سليمان من بعدي كما كنت لي فأوحى إليه يا داود قل لابنك سليمان : يكون لي كما كنتَ لي حتّى أكون له كما كنت لك .

قال جميع بن عمير [2] : دخلت على عائشة فقلت: من كان أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ ؟ قالت : فاطمة ، قلت : إنّما أسالك عن الرجال ، قالت : زوجها ، وما يمنعه ؟ إنّه كان لصوّاماً قوّاماً ولقد سالت نفس رسول الله ﷺ في يده ، فردّها إلى فيه [3] ، قلت : فما حملك على ماكان؟ فأرسلت خمارها على وجهها وبكت وقالت : أمرٌ قضي عليّ .

---

(١) سورة الحجر : ٣١ .

(٢) رواه الى قولها « الى فيه » السيد ابن طاوس فى الطرائف ٣٨ وعنه البحار ط تبريز (٩٨ : ٣٩٠) وروى بعضه فى المناقب (١ : ٣٩٢) وعنه البحار تبريز (٩ : ٣٨٦) .

(٣) سالت نفسه اى روحه . ولم أجد تفسيراً لقولها: فردها الى فيه .

﴿فصل ١٢﴾

✡(في الموت وما يتصل به من ذكر القبر و النعش والتعزية)✡
✡(والمرثية و النعي وغير ذلك)✡

روي ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : إذا مات لأحدكم ميّت فحسّنوا كفنه، وعجّلوا إنجاز وصيّته ، واعملوا له في قبره، وجنّبوه جار السوء قيل : يا رسول الله ! و هل ينفع الجار الصالح في الآخرة ؟ قال : و هل ينفع في الدنيا ؟ قالوا : نعم ، قال : و كذلك ينفع في الآخرة .

وفي وصيّته ﷺ لأبي ذرّ رضي الله عنه[1]: « زُر القبور تذكّر بها الآخرة ، ولا تردها باللّيل واغسل الموتى يتحرّك قلبك فإنّ الجسد الحاوي عظة بليغة ، وصلّ على الجنائز لعلّ ذلك يحزّنك فإنّ الحزين في ظلّ الله» .

محمّد بن سعيد المدني : مرّ رسول الله ﷺ بمقبرة فقال : «يا أهل القبور ! ألا أُحدّثكم بما حدث بعدكم ؟ تزوّج نساؤكم ، وبيعت مساكنكم ، واُقسمت أموالكم ، فهل أنتم مخبرون بما عاينتم ؟ » ثمّ قال : « أما إنّهم لو اُذن لهم في الجواب لقالوا : وجدنا خير الزاد التقوى » .

لمّا مات الحسن ﷺ بلغ موته معاوية سجد و سجد من حوله ، فدخل عليه ابن عبّاس فقال : له : يا ابن عبّاس ! أمات أبو محمّد ؟ قال : نعم يرحمه الله ، بلغني أنّك سجدت. و الله يا ابن آكلة الأكباد ! لا يسدّ حسدك إيّاه حفرتك ، ولا يزيد انقضاء أجله في عمرك.

لمّا مات عثمان بن مظعون كشف النبيّ ﷺ الثوب عن وجهه فقبّل ما بين عينيه وبكا طويلاً فلمّا رفع على السرير فقال: طوباك يا عثمان لم تلبسك الدنيا ولم تلبسها[2]

بينا حسّان جالس وفي حجره صبيّ له يطعمه الزبد و العسل إذ شرق الصبيّ بهما فمات فقال :

---

(١) رواه الغزالي (٤ : ٤٩٠) باب زيارة القبور

(٢) قريباً منها في الاستيعاب (٣ : ٨٧).

اعمل و أنت صحيح مطلق مرح * مادمت ـ ويحك يامغرور! ـ في مهل
يرجو الحياة صحيح ربّما كمنت * له المنيّة بين الزبد و العسل

أفلاطون : و كثير ما يعدّ الناس مصيبة الموت نقمة ويكرهونه ، ولو تدبّروا أمر الموت لعلموا أنّه محمود غير مذموم ؛ لأنّ الموت تمام طبعنا فلو لم يكن موت لم يكن إنسان لأنّ حدّ الإنسان وصفته هو «الحيّ الناطق الميّت» فإن لم يكن بميّت فليس بإنسان ، ومع هذا فهو البريد إلى دار الآخرة ، وإن كانوا يكرهون ذلك . و مثل ذلك في الحقيقة لو أنّ إنساناً وهو نطفة ممازج القوّة ثمّ خيّر نقله من نفس الطبع الممازج له لم يكن يختار غير ماهو فيه . ثمّ إذا سبقت المشيّة من بارئه و الإرادة من خالقه نقله إلى أن صار في الأنثيين ، فلو خيّر الانتقال لم يختر ذلك . ثمّ ينقل إلى الرحم ، وهو أوسع محلاً من الأنثيين ، ولوخيّر لاختار الثبات . ثمّ ينقل كرهاً بعد كره إلى الأحشاء و المشيمة[1] لتمام الكمال و الكون ، فلو خيّر نقله إلى نسمة العالم لاختار مقامه . ثمّ إنّه لوسئم الرجوع إلى ماكان عليه من ضيق الرحم ومن قبل اختياره ما سواه هل كان يؤثر العود إليه؟ ثمّ إذا قصدت الإرادة إزعاجه من جوف أمّه وخروجه إلى نعيم هذا العالم إنّما ذلك على الكره منه ، ولو قيل له بعد مشاهدته فسحة العالم: ترجع إلى جوف أمّك وما كنت عليه شحيحاً ؟ لكره ذلك وأباه ، و كذلك إن نقل إلى عالم البقاء و فسحته و إن كرهه لكلفة النقلة و كلفة المعرفة لما هو إليه صائر من الاغتباط بدوام البقاء الروحانيّ ، ثمّ لو خيّر بعد مشاهدته عالم البقاء الرجوع إلى الدنيا و تكون له بجميعها إلى انقضائها كان كمن قيل له : ارجع إلى جوف أمّك من بعد مشاهدته هذا العالم ، وليس الموت مكروهاً لمن قدّم وعقل و تدبّر إذ نحن في عالم محدود وملك محصور ، و دار زوال و سكنى انتقال .

أبو نواس :

غرّ جهولاً أمله * يموت من جا أجله
ومن دنا من يومه * لم تغن عنه حيله
و كيف يبقى آخر * قد مات عنه أوّله ؟

(١) في الاصلين « البشيمة » سهواً . والمشيمة غشاء يخرج مع الولد حين الولادة .

لا يصحب الإنسانَ من * دنياه إلّا عمله

وفي الحديث المرفوع : « الموت راحة » .

قال بعض السلف : ما من مؤمن إلّا والموت خير له من الحياة [لأنّه إن كان محسناً فالله يقول[١] : « والآخرة خير] وأبقى »[٢] وإن كان مسيئاً فإنّ الله تعالى يقول[٣] : « إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً » .

وقال بعض الفلاسفة : لا يستكمل الإنسان حدّ الإنسانيّة إلّا بالموت ؛ لأنّ الإنسان حيّ ناطق ميّت .

وقال آخر : الصالح إذا مات استراح و الطالح إذا مات أُستريح منه .

وقال آخر : ربّ موت كالحياة . وقال الشاعر :

وما الموت إلّا رحلة غير أنّها * من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي

وفي الحديث المرفوع[٤] : « اذكروا هادم اللذّات » يعني الموت .

يا موت ما أجفاك من نازل * ينزل بالمرء على رغمه

يستقلب العذراء من خدرها * و يأخذ الواحد من أُمّه

وسئل بعض الفلاسفة عن الموت فقال : مفازة من ركبها ضلّ خبره .

وقال بعضهم[٥] : الناس في الدنيا أغراض تنتضل فيها سهام المنايا .

وقال بعض السلف : الموت [ما أصعب[٦]] ما قبله و أهون ما بعده .

و نظر الحسن إلى ميّت يدفن فقال : إنّ شيئاً هذا آخره لحقيق أن يزهد في أوّله .

وقال ابن معتزّ : كأنّ من غاب لم يشهد ، و كأنّ من مات لم يولد .

وقال : الميّت يقلّ الحسد له ويكثر الكذب عليه .

---

(١) سورة الاعلى : ١٧ .

(٢) زيادة صحيحة من النسخة (ر)

(٣) سورة النساء : ١٧٨ .

(٤) احياء العلوم (٤ : ٤٥٤) ارشاد القلوب : ٧١ .

(٥) مأخوذ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام «غرض تنتضل فيه المنايا» راجع ص١٩٧ .

(٦) زيادة منا ليست في الاصلين .

وقال المؤبذ [١] لقباد حين مات :كان الملك أمس أنطق منه اليوم ،وهو اليوم أوعظ منه أمس [٢].

و قال نادب الإسكندر -فإنّه لمّا مات بكى من بحضرته ، فقال نادبه - : حرّ كنا سكونه .

والموت غير القتل ، و الّذي يدلّ عليه قوله تعالى [٣] : « أفإن مات أوقتل»وقوله تعالى [٤] : «ولئن متّم أو قتلتم» وقوله سبحانه [٥]: « ما ماتوا وماقتلوا » وليس يجوز أن يكون التأكيد و التكرير في لفظين يرجعان إلى معنى واحد ، ويدلّ على ذلك أيضاً العلم بأنّ الله تعالى ليس بقاتل من مات حتف أنفه ، ولو قال قائل في ميّت : إنّ الله قتله لأعاب العقلاء عليه ، والموت و القتل عرضان و ليسا بجسمين .

وقد قال المفيد رحمه الله : إنّ القتل متولّد عن الأسباب ومحلّه محلّ حياة الأجسام. و الموت معنى يضادّ حياة الفاعل المخلوق ، ولا يصحّ حلوله في الأجسام . قال : و هذا مذهب يختصّ بي . و القتل عند جميع أهل العدل من مقدورات العباد ، والموت لايقدر عليه أحد إلاّ الله عزّ وجلّ .

قيل [٦] : دخل النبيّ ﷺ على شابّ وهوفي الموت فقال له : كيف تجدك؟فقال: أرجوالله يا رسول الله وأخاف ذنوبي ، فقال ﷺ : « لايجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلّا أعطاه الله تعالى مايرجو وآمنه ممّا يخاف» .

وعنه ﷺ : « إنّ الله إذا أحبّ عبداً ابتلاه ليسمع تضرّعه» .

وقال ﷺ : « لايتمنّينّ أحدكم الموت فإنّ هول المطلّع شديد ، وإنّ من سعادة

---

(١) في الاصلين « قال المؤيد » مصحفاً . والمؤبذ كبير المجوس وقاضي القضاة ، على ماقاله السعودي . و أول من أقام المؤبذان أردشير بن بابك ، و كان رتب المراتب فجعلها سبعة أفواج : أولها الوزراء ثم المؤبذان ، وكانوا يقومون بامور الدين ، ويحكمون على الهرابذة ، وهم القوام بامور الدين في سائر المملكة والقضاة والمصرفون للاحكام ، فلما ملك هرمزين انوشروان أزال أحكام المؤبذان وتحامل عليهم وقتل منهم كثيرين انظر شرح المجاني : ٤٥ - ٤٦ .

(٢) وقد سبق ص ٩٧ أنه مما قيل في موت الاسكندر .

(٣ - ٥) سورة النساء : ١٤٤ ، ١٥٦ و ١٥٨ .

(٦) رواه الغزالي (٤ : ٤٦٦) والديلمي : ٣٠٤ .

المرء أن يطول عمره و يرزقه الله عزّ وجلّ الإنابة » .

وقيل للنبيّ ﷺ : ما يقرء عند المحتضر ؟ قال : « يقرء الصافّات فإنّها لم تقرء عند مكروب إلّا عجّل الله عزّ وجلّ راحته ، وإذا قضى فقل : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، اللّهمّ اكتبه عندك من المحسنين ، وارفع درجته في عليّين ، و اخلف على عقبه في الغابرين وتحتسبه عندك يا ربّ العالمين » .

و قال سقراط : ينبغي لك أن تغتمّ بالحياة الطبيعيّة ، و تفرح بالموت الإراديّ لأنّا نحيا لنموت ونموت لنحيا .

قيل : كان بحمى نعزبه[1] عجوز من بني بكر بن كلاب يتحدّث قوم عن سرورها وعقلها ، فذكر من حضرها وقد مات ابن لها ، وكان واحدها[2] وقد طالت علّته ، وأحسنت تمريضه ، فلمّا فاض[3] قعدت بفنائه وحضرها قومها ، فأقبلت على شيخ منهم وقالت : يا فلان ! ما أحقّ من ألبس العافية ، وأُسبغت عليه النعمة و اعتدلت به الفطرة ، لا يعجز عن التوفيق لنفسه قبل حلّ عقدته ، والحلول بعقوبته والحيال بينه و بين نفسه ثمّ أنشأت تقول :

هوائي وأنسي أجره لي ، وعزّني * على نفسه ربٌّ إليه ولاؤها[4]
فإن أحتسب أوجر ، وإن أبكه أكن * كباكية لم يغن شيئاً بكاؤها

قال الشيخ : إنّا لم نزل نسمع أنّ الجزع إنّما هو للنساء فلا يتأنّثنّ رجل في مصيبة ، ولقد كرم صبرك ، وما أشبهت النساء ، فأقبلت عليه بوجهها وقالت : إنّه ما خيّر امرؤ بين جزع وصبر إلّا وجد بينهما منهجين بعيدي التفاوت في حالتيهما : إمّا الصبر فحسن العلانية ، محمود العاقبة ، و إمّا الجزع فغير معوّض عوضاً مع مآثمه ، ولو كانا في صورة رجلين لكان الصبر أولاهما بالغلبة بحسن الصورة و كرم الطبيعة في عاجله في الدين

---

(١) الحمى - بالكسر - الموضع من مواضع الكلاء التي كانوا يحمونها لدوابهم مثل « حمى ضرية » التي حماه عمرو من بعده و لم نظفر برسم الحمى الذي ذكره المولف . انظر مراصد الاطلاع (١ : ٤٢٨ - ٤٢٩) .

(٢) اى لم يكن فيهم مثله .

(٣) فاض الرجل : مات .

(٤) الرب : الزوج ، والضمير في « ولاؤها » للنفس .

وآجله في الثواب ، وكفى بما وعد الله فيه لمن ألهمه إيّاه .

قال هرمس الحكيم : الموت سهم مرسل وعمرك بقدر مسيره .

قيل : لمّا مات المهلّب[١] بن أبي صفرة وووري[٢] في حفرته ندبته أُخته عجيبة فقالت : الحمد لله هذا ما وعدنا الله و رسوله ، كلّ من عليها فان ، و يبقى وجه ربّك ذي الجلال والإكرام ، هذا والله سبيل الأوّلين والآخرين ، طوبى للمتّقين ، و ويل للظالمين ، وإنّا لله و عليك يا يوسف (كذا) راجعون ، رحم الله وحدتك ، وآنس وحشتك في حفرتك ، ولقّنك حجّتك في وقت حاجتك ، وحشرك مع أئمّتك ، و ألهمك معرفة أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله ، يامهلّب ! وإن كان الله أعلم بك ، لنعم السيّد كنت لجيرانك ، لقد كنت عند الغضب حليماً ، وعند الظفر كريماً ، وعند المسألة رحيماً ، قريب من الحقّ ، بعيد عن الباطل ، لا تأخذك في الله لومة لائم . فتقبّل الله منك أحسن ما قدّمت وتجاوز لك عن سيّىء ما أسلفت ، و ألحقك بنبيّ الرحمة و سراج الأُمّة ، و أحسن إلينا بعدك الخلافة ، وأستغفر الله لي ولك ولجميع المسلمين وأنشدت :

أُعزّي ، وتأبى النفس أن تقبل العزى * وتحت الحشايا نار جمر تلهّب
و حقّ لنفس شقّ منها شقيقها * تموت فتطفأ أو تموت فتذهب
وكم قد تمنّيت المنيّة قبله * ولكنّ نفسي بالحياة تعذّب
تعجّب منّي إن عميت من البكا ؟ * فإن لم أمت من حسرة فهو أعجب
فكيف وقد واريت في الترب من أخ * أخا طيبة من طيّب المسك أطيب[٣]
فتى كان للجارات كهفاً و معقلاً * و حصناً يصان الجار فيه و يحجب
فتى كان كالطود المنيف ، تخاله * على رأسه تاج يلوح و مرقب
تغيّرت الدنيا علينا بفقده * و مات بنوها يوم مات المهلّب

---

(١) أمير جواد عظيم البطش ، كان يعاب بالكذب . ولد عام الفتح سنة ٨ هـ في دبا ونشا بالبصرة ، وتولى امارتها من قبل مصعب بن الزبير . أكثر أخباره مع الخوارج ، استقصى اكثرها المبرد في الكامل ، وكان بنوه في أيام بني امية كما كانت البرامكة في العباسية . توفي ٨٣ هـ انظر الاصابة (٣ : ٥٠٦ ، برقم ٨٦٣٥) والوفيات (٤ : ٤٣٢) والكامل .

(٢) في الاصلين < ووادى > سهواً .

(٣) الترب - بضم التاء وبفتحها - : التراب .

و توفّي لعبدالله بن العبّاس ولد فعزّاه أمير المؤمنين عليه السلام فقال له : « يا ابن عمّ مصيبة في غيرك لك أجرها خير من مصيبة بك لغيرك ثوابها ، فكان لك العزاء ولا عنك ولك[١] الأجر ولا بك ، وعوّضك الله منه مثل الّذي عوّضه منك . والسلام » .

وسمع بعضهم صراخاً على ميّت فقال : العجب من قوم مسافرين يبكون مسافراً قد بلغ منزله .

وعزّى أمير المؤمنين صلوات الله عليه الأشعث بن قيس عن ابن له فقال[٢] : « يا أشعث ! إن تحزن على ابنك فقد استحقّت ذلك منك الرحم ، وإن تصبر ففي الله من كلّ مصيبة خلف ، يا أشعث ! إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور ، و إن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور[٣] ، سرّك وهو بلاء وفتنة ، وحزنك وهو ثواب و رحمة » .

وقال أبو تمّام[٤] يعزّي مالك بن طوق :

وقال عليّ في التعازي لأشعث * و خاف عليه بعض تلك المآثم:
أتصبر للبلوى عزاء و حسبة * فتوجر ، أم تسلو سلوّ البهائم
خلقنا رجالاً للتجلّد والأسى * و تلك الغواني للبكا والمآتم

وقال أمير المؤمنين صلوات الله عليه على قبر النبيّ صلى الله عليه وآله ساعة دفن[٥] : « إنّ الصبر جميل إلّا عنك ، وإنّ الجزع لقبيح إلّا عليك ، وإنّ المصاب بك لجليل ، وإنّه قبلك وبعدك لجلل » .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « ينزل الصبر على قدر المصيبة ، ومن ضرب يده على فخذه عند مصيبة حبط أجره » .

قرىء على قبر بعض الملوك :

لقد كان لا يلقى الثرى بيمينه * ولا يمسح المسك الذكيّ ببرده

---

(١) في الاصلين « ولا الاجر » .
(٢) الرقم ٣٩١ من الحكم في شرح عبده (٢ : ٢١٦) .
(٣) اى مقترف للوزر وهو الذنب . كذا فسره الشيخ عبده .
(٤) من كلمة في ديوانه ٢٤١ - ٢٤٢ في ٢٠ بيتاً يعزي مالكا عن أخيه القاسم بن طوق .
(٥) الرقم ٢٩٢ من حكمه في شرح عبده (٢ : ٢١٦) . وقوله « لجلل » اى عظيم .

لعزّته ، حتّى إذا حان يومه　　*　　تدانى إلى مسّ التراب بخدّه

ووجد على قبر مكتوب :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة　　*　　مكنونة صاغها الباري من النطف

جاءت فلم تعرف الأيّام قيمتها　　*　　فردّها غيرة منه إلى الصدف

قال قسّ بن ساعدة [1] :

في الذاهبين الأوّلين من　　*　　القرون لنا بصائر

لمّا رأيت موارد　　*　　للموت ليس لها مصادر

و رأيت قومي نحوها　　*　　يمضي الأكابر و الأصاغر

لا يرجع الماضي إليّ　　*　　ولا من الباقين غابر

أيقنت أنّي لا محالة　　*　　حيث صار القوم صائر

وله أيضاً :

---

(١) قس بن ساعدة بن عمرو بن عدى بن مالك الايادى ، أحد حكماء العرب فى الجاهلية ، و اسقف نجران ، وأول عربى خطب متوكئاً على سيف أو عصا ، وكتب « من فلان الى فلان » و أول من قال فى كلامه « اما بعد » و كان يفد على قيصر الروم زائراً فيكرمه و يعظمه ، وهو معدود فى المعمرين ، طالت حياته وأدركه النبى قبل النبوة ، وسئل عنه فقال : يحشر امة واحدة. توفى نحو ٢٣ ق هـ . الاعلام : ٧٩٥ . والابيات الرائية فى الاغانى (١٤ : ٤٠) ولها خبر نذكره لما فيه من الموعظة الحسنة ، قال أبوالفرج : لما قدم وفد اياد على النبى صلى الله عليه وآله قال : ما فعل قس بن ساعدة ؟ قالوا : مات يا رسول الله ، قال : كأنى أنظر اليه بسوق عكاظ على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ماأجدنى أحفظه ، فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا رسول الله ، قال : كيف سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : أيها الناس ، اسمعوا و عوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . ليل داج ، و سماء ذات أبراج . بحار تزخر ، ونجوم تزهر . وضوء وظلام ، وبرّ و آثام . ومطعم ومشرب ، وملبس و مركب . مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ ! أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟ واله قسّ بن ساعدة ، ما على وجه الارض دين أفضل من دين قد أظلتكم زمانه ، وأدرككم أوانه : فطوبى لمن أدركه فأتبعه ، وويل لمن خالفه ، ثم أنشأ الابيات . فقال النبى صلى الله عليه وآله يرحم الله قساً انى لارجوان يبعث يوم القيامة امة واحدة . **أقول :** قوله « عوا » أمر من وعى . و « آثام » جمع الاثم بمعنى الذنب . وقوله « واله قس بن ساعدة » قسم .

يا ناعي الموت والأموال في جدث * عليهم من بقايا برّهم خرق
دعهم فإنّ لهم يوماً يصاح بهم * كما تنبّه من نومانه الصعق
منهم عراة و منهم في ثيابهم * منها الجديد ومنها الأورق الخلق

قيل : إنّ عمرو بن عبيد عزّى رجلاً عن ابن له فقال : إنّ أباك كان أصلك ، و إنّ ابنك كان فرعك ، وإنّ امرءاً ذهب أصله وفرعه لحريّ أن يقلّ بقاؤه .

وقال عمر بن عبد العزيز :

من كان حين تصيب الشمس جبهته * أو الغبار يخاف الشين والشعثا
و يألف الظلّ كي تبقى بشاشته * فسوف يسكن يوماً راغماً جدثا
في قعر مقبرة غبراء مظلمة * يطيل تحت الثرى في غمّها اللّبثا
تجهّزي بجهاز تبلغين به * يا نفس قبل الردى، لم تخلقي عبثاً

و كان بعض السلف إذا رأى جنازة لا يحدّث نفسه بشيء سوى ما هو به مفعول مشغول ، وما هو صائر إليه ، ونحن لا ننظر الآن إلى جماعة يحضرون الجنائز إلّا وأكثرهم يضحكون ويلهون ، ولا يتكلّمون إلّا في تراثه وما خلّفه لورثته ، ولا يتفكّر واحد منهم - إلّا ما شاء عزّ وجلّ - في جنازة نفسه وفي حاله إذا صار إليها ، ولا سبب لهذه العلّة إلّا قسوة القلب بكثرة المعاصي والذنوب ، حتّى نسينا الله تعالى و اليوم الآخر و الأهوال الّتي بين أيدينا ، فصرنا نلهو و نغفل و نشتغل بما لا يعنينا ، فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة .

وإنّ أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميّت ، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميّت كما قال بعض العقلاء :

و يبكي على الموت و يترك نفسه * و يزعم أن قد قلّ عنهم عزاؤه
فلو كان ذا عقل و رأي وفطنة * لكان عليه لا عليهم بكاؤه

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله [1] : « ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه » .

---

(١) أحياء العلوم (٤:٤٨٥) وكان في الاصلين «ما رأيت مبطراً الا والقبر أقطع منه» ثم فسر البطر بهامشهما ؛ والاصلاح من الاحياء .

وقيل [١] : أوّل ما يكلّم ابن آدم حفرته فيقول لها : يا بيت الدود و بيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة ! [فتجيبه[٢]] : هذا ما أعددت لك فما أعددت لي ؟

و كان [٣] جعفر بن محمد عليهما السلام ربّما يأتي القبور ليلاً و يقول : يا أهل القبور ! ما لي إذا دعوتكم لا تجيبوني ؟ ثمّ يقول : حيل والله بينهم و بين الجواب وكأنّي أكون مثلهم . ثمّ يستقبل القبلة إلى طلوع الشمس .

و كان بعض السلف [٤] يقول : أيّتها المقبور في قبره ، والمتخلّي في القبر بوحدته ، والمستأنس في بطن الأرض بأعماله ! ليت شعري بأيّ أعمالك استبشرت ، و بأيّ إخوانك اغتبطت ؟ ثمّ يبكي حتّى يبلّ عمامته ، ثمّ يقول : استبشر والله بأعماله الصالحة ، واغتبط بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى. وكان إذا نظر إلى القبور خار [٥] كما يخور الثور .

وجد على القبر مكتوباً [٦] :

تناجيك أجداث و هنّ سكوت * و سكّانها تحت التراب خفوت :

أيا جامع الدنيا لغير بلاغة * لمن تجمع الدنيا و أنت تموت ؟

وكان بعضهم [٧] يقول: يا أمّاه ! ليتك كنت عقيماً ، إنّ لابنك في القبر حبساً طويلاً ومن بعد ذلك منه رحيلاً .

وقال آخر [٨] : يا ابن آدم ! دعاك ربّك إلى دار السلام . فانظر من أين تجيبه، إن أجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها ، وإن أجبته من قبرك منعتها .

وجد على قبر طبيب مكتوباً [٩] :

---

(١) قاله مجاهد . ذكره عنه الغزالي (٤ : ٤٨٤) .

(٢) زيادة صحيحة في الاصل ولا توجد في النسخة (ر) .

(٣) ذكره عنه الغزالي أيضا .

(٤) هو يزيد الرقاشي على ماذكره الغزالي .

(٥) خار الثور : صوت .

(٦) البيتان عند الغزالي (٤ : ٤٨٧-٤٨٨) .

(٧) هو بكر العابد . انظر الاحياء .

(٨) هو يحيى بن معاذ . ذكره الغزالي .

(٩) انظر الاحياء (٤ : ٤٨) .

قد قلت لمّا قال لي قائل : * قد صار نعمان إلى رمسه:
فأين ما يوصف من طبّه * و حذقه في الماء مع حسّه؟
هيهات ! لا يدفع عن غيره * من كان لا يدفع عن نفسه

وليس هذا الشعر ممّا يدلّ على منع صناعة الطبّ ، ولا إيرادنا له ممّا ينقض علينا ما ذكرناه من تجويز علم الطبّ أيضاً ، فالمراد بهذا الشعر أنّه إذا انقضت المدّة و حضر الأجل لا يبقى للطبّ فائدة ، ولا للطبيب حيلة ، لا في نفسه ولا في غيره ، وهذا فما خالف فيه أحد من العقلاء ولا غيرهم .

ووجد على قبر مكتوباً [١] :

يا أيّها الناس كان لي أمل * قصّر بي عن بلوغه الأجل
ما أنا وحدي الّذي خصصت به * كلّ إلى مثل ذا سينتقل
فليتّق الله ربّه رجل * أمكنه في حياته العمل

وحقّ [٢] لمن مات ولده أو قريب من أقاربه أن يتذكّر في نفسه في تقدّمه عليه في الموت ، و يعلم أنّهما كانا في سفر فسبقه ولده إلى البلد الّذي كان فيه مستقرّه و وطنه ، فإنّه لا يعظم عليه تأسّفه ويعلم أنّه لاحق به على القرب ، وليس بينهما إلّا تقدّم وتأخّر وهكذا الموت ؛ فإن معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق به المتأخّر ، و إذا اعتقد هذا قلّ جزعه ، ولا سيّما قد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزّى به كلّ مصاب .

وقال رسول الله ﷺ : « لأن أقدّم سقطاً أحبّ إليّ من أن أخلّف مائة فارس كلّهم يقتلون في سبيل الله عزّ وجلّ » وإنّما ذكر السقط تنبيهاً بالأدنى على الأعلى و إلّا فالثواب على قدر محلّ الولد .

قيل [٣] توفّي لداود عليه السلام ولد فحزن عليه حزناً شديداً فقيل له : ما كان عدله عندك ؟ [قال] ملء الدنيا ذهباً [قيل له :] إنّ لك في [الآخرة من] الأجر مثل ذلك . [٤]

---

(١) الابيات فى الاحياء (٤ : ٤٨٨) .
(٢) من هنا الى رثاء الخلساء مأخوذ من الغزالى (٤ : ٤٨٩) بأدنى تغيير .
(٣) قاله زيدبن أسلم . ذكره الغزالى .
(٤) بين المعقوفين اصلاح من الاحياء .

وقالت الخنساء [١] ترثي أخاها صخراً .

إنّي أرقت فبتّ اللّيل ساهرة * كأنّما كحلت عيني بعوّار [٢]

أرعى النجوم وما كلّفت رعيتها * و تارة أتغشّى فضل أطماري [٣]

اذهب فلا أبعدنك الله من رجل * درّاك ضيم و طلّاب لأوتار [٤]

لمّا سمعت فلم أنهج به خبراً * و مخبراً قام ينبو رجع أخبار

قالوا: ابن أمّك أمسى في الضريح وقد * سدّوا عليه بأعوار و أحجار

أشمّ أزهر مثل البدر صورته * جلد المريرة، حرّ وابن أحرار [٥]

فسوف أبكيك ما ناحت مطوّقة * وما أضاءت نجوم اللّيل للساري [٦]

ولن أسالم قوماً كنتَ حربهم * حتّى يعود بياضاً حُلكة القاري [٧]

وقالت أيضاً [٨] :

---

(١) لقب تماضر - وزان مضارع - بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، الرياحية السلمية ، من مضر ، أشهر شواعر العرب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يستنشدها ويعجب بشعرها . عاشت أكثر عمرها في الجاهلية ، وأدركت الاسلام فاسلمت ، اكثر شعرها وأجوده رثاؤها لاخويها صخر ومعاوية لاسيما صخراً ، وكانا قد قتلا في الجاهلية ، وكان لها اربعة بنين شهدوا حرب القادسية سنة ١٦ هـ و قتلوا جميعاً بها فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم . توفيت سنة ٢٤ هـ . انظر الاستيعاب (٤ : ٢٨٧) و الاصابة (٤ : ٢٧٩) و الاغاني (١٣ : ١٢٩) و خزانة الادب (١ : ٢٠٩) و صخر هذا كان أخوها لابيها ، وكان حليماً جواداً محبوباً في العشيرة ، شريفاً في قومه وخبر قتله في الاغاني والخزانة . وبعض الابيات الرائية في زهر الاداب (٤ : ٦٩) .

(٢) العوار - بضم العين - : القذى .

(٣) تغشى : تغطى . الاطمار جمع الطمر - بالكسر - : الثوب البالى .

(٤) الضيم : الظلم . الاوتار جمع الوتر - بالكسر والفتح - وهو هنا . الانتقام .

(٥) الاشم : المرتفع العالى . المريرة : العزم .

(٦) المطوقة : الحمامة ذات الطوق .

(٧) الحلكة : السواد . القار : القير : والياء تولدت من اشباع الكسرة .

(٨) من كلمة لها في امالى القالى (٢ : ١٥٩) في ١١ بيتاً و ثلاثة منها في زهر الاداب (٤ : ٧٠) وهذه الثلاثة في المستطرف (٢ : ٢٨٧) .

ألا يا صخر لا أنساك حتّى * أُفارق عيشتي و يذوب رمسي [١]
ولا كثرة الباكين حولي * على أحبابهم لقتلت نفسي [٢]
ولو لا يبكون مثل أخي و لكن * إذا عظم الأسى حسن التأسّي

قال رسول الله ﷺ [٣] : « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلّا كانوا جُنّةً من النار » فقالت امرأة عنده : أو اثنان ؟ قال : أو اثنان .

وليخلص الوالد الدعاء لولده فإنّه أرجى دعاء وأقربه [٤] إجابة .

وقف بعضهم [٥] على قبر ولده فقال : اللّهمّ إنّي أصبحت أرجوك وأخافك عليه ، اللّهمّ فحقّق رجائي وآمن خوفي .

ووقف آخر [٦] على قبر ولده فقال : اللّهمّ إنّي قد وهبت له ما قصّر فيه من برّي فهب لي ما قصّر فيه من طاعتك .

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى * ولاقيت بعد اليوم من قد تزوّدا
ندمت على أن لا تكون كمثله * و أنّك لم ترصد لما كان أرصدا

قال الجاحظ [٧] استأذن عبدالملك بن صالح الهاشميّ على الرشيد فقال له الآذن : عزّه [و هنّأه [٨]] فقد أُصيب بولد وقد وُلد له ولد ، فلمّا دخل عليه قال : سرّك الله يا أميرالمؤمنين فيما ساءك ، و لا ساءك فيما سرّك ، و جمع لك بين الحسنين : حسن الأجر في الماضي و حسن الخلف في الباقي ، وأنشد في عقب كلامه وكان زاهداً :

إنّي أُعزّيك لا أنّي على ثقة * من البقاء ، و لكن سنّة الدين [٩]

---

(١) الرمس : القبر . ولا يناسبه « يذوب » والصواب اما رواية الامالى « يشق » او رواية المستطرف « أزور » .
(٢) فى الاصلين « كثرة الباكون » وهو عجيب ! .
(٣) ذكره الغزالى (٤ : ٤٨٩) .
(٤) فى الاصلين « وأوفر به » والتصحيح من الاحياء .
(٥) هو محمد بن سليمان . ذكره الغزالى .
(٦) تراه فى الاحياء .
(٧) لم نجده عند الجاحظ نعم ذكره الابشيهى فى المستطرف (٢ : ٢٨٧) بدون البيتين .
(٨) زيادة يحتاج اليها الكلام .
(٩) البيتان فى المستطرف (٢ : ٢٨٥) للشافعى يعزى بهما صديقاً له .

ليس المعزّي بباق بعد صاحبه * ولا المعزّى ، وإن عاشا إلى حين

شاعر :

مضى ابن سعيد بعد ما شاع ذكره * و شرّق في أقصى البلاد و غرّبا (١)

و ما كان إلّا كالسحابة أُقلعت * وقد تركت في الناس مرعى ومشربا

وقال مسلم بن الوليد (٢) :

كم رأينا من أُناس هلكوا * و بكوا أحبابهم ثمّ بكو

كم رأينا من ملوك سوقة * و رأينا سوقة قد ملكوا

قلّب الدهر عليهم وركاً * فاستداروا حيث دار الفلك (٣)

آخر (٤) :

و إنّي رأيت الدهر منذ صحبته * محاسنه مقرونة بمعائبه

إذا سرّني في أوّل الأمر لم أزل * على حذر من غمّه في عواقبه

قال أبو العيناء (٥) قال : حدّثنا الأصمعيّ قال : لمّا مات محمّد بن سليمان بن عليّ الهاشميّ دخلت على أخيه جعفر بن إسماعيل وقد حزن عليه حزناً شديداً ولم يطعم ثلاثاً فأنشدته لابن أراكة الثقفيّ :

لعمري لئن اتبعت عينك ما مضى * به الدهر أوساق الحمام إلى القبر (٦)

---

(١) أظن ان ابن سعيد هذا هو سفيان الثورى . قال الغزالى (٤ : ٥٠٩) : روى أبوحاتم الرازى عن قبيصة بن عقبة قال : رأيت سفيان الثورى - فى المنام - فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال :

نظرت الى ربى كفاحا فقال لى : * هنيئا رضائى عنك يا ابن سعيد

الى آخر ما ذكره من الابيات .

(٢) هو صريع الغوانى . والابيات له فى الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢ : ٨١٨) .

(٣) الورك - بالفتح ثم الكسر - مافوق الفخذ . وفى الشعراء : فلكا .

(٤) هو اسحاق بن ابراهيم الموصلى . البيتان له فى المستطرف (٢ : ٦٠) .

(٥) ترى الخبر و الابيات فى امالى الشريف المرتضى (١ : ٤٦١) و ترجمة الشاعر فى تعليقاتنا على شرح شواهد مجمع البيان (١ : ٢٨٧) وهناك تخريج الابيات من الكامل (٢ : ٢٦٥) وامالى ابن الشجرى ١٣٨ و الزجاجى ٧ و أبى على القالى (٢ : ٢) و شرح النهج (١ : ١٤٠) وديوان الحطيئة : ١٧٦ .

(٦) الحمام - بالكسر - الموت .

لتستنفدن ماء الشؤون بأسره * ولو كنت تمريهنّ من ثبج البحر (١)
فقلت لعبد الله إذ حنّ باكياً: * تعزّ ، و ماء العين منهمر يجري (٢)
تبيّن ، فإن كان البكا ردّها لكا * على أحد ، فاجهد بكاك على عمرو
ولا تبك ميتاً بعد ميت أجنّه * عليّ و عبّاس وآل أبي بكر (٣)

قال : فأمر جعفر بن سليمان فجيء بالطعام فأكل من ساعته .

و قال أفنون التغلبيّ (٤) يرثي نفسه وهو يجود بها :

ألا لست في شيء فروحاً معاويا * ولا المشفقات إذ تبعن الحوازيا (٥)
ولا خير فيما يكذب المرء نفسه * وتسقواله للشيء : ياليت ذاليا (٦)
فطأ معرضاً إنّ الحتوف كثيرة * و إنّك لا تبقي بمالك باقيا
لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتّقي * إذا هولم يجعل له الله واقيا
كفى حزناً أن يرحل الركب غدوة * و أصبح في أعلى إلاهة ثاوياً (٧)

---

(١) تستنفدن من النفاد بمعنى الافناء وفي الاصل « لتستفدن » وفي النسخة (ر) : لتستفدن . الشؤون : مجتمع قطع الرأس ومنها يجرى الدمع الى العين. تمريهن من المرى بمعنى مسح ضرع الناقة للحلب . الثبج : وسط الشيء ومعظمه ، و في الاصلين « نتج » سهواً .

(٢) حنّ : رفع صوته : بالبكاء . وقال السيد المرتضى : قال قوم : الخنين ـ بالخاء المعجمة ـ من الانف ، والحنين ـ بالحاء ـ من الصدر .

(٣) في الاصلين « أحبه » وهو سهو . والمراد بالذى أجنوه ووارووه في التراب هو رسول الله صلى الله عليه وآله .

(٤) هو صريم بن معشر بن ذهل ، من بني تغلب ، شاعر جاهلي مشهور يلقبه افنون ، ترجم له صاحب الخزانة (٤ : ٤٦٠) وغيره ، والابيات الخمسة ذكرها المفضل في مفضلياته ص ٢٦١ . وفي الاصلين « الثعلبي » وهوسهو .

(٥) الفروح ـ بالفتح ـ كثير الفرح . و «معاوية» اسم أخ له يخاطبه ، و « الحوازى» بالحاء والزاى ، جمع «حاز» بمعنى الكاهن وفي الاصلين « الجواريا» .

(٦) التقوال مصدر بمعنى القول ، وقياسها بالفتح لانه لم يسمع على هذا الوزن بالكسر الا لفظتان وهما « تبيان » و«تلقاء» الاان الاصمعي رواها بكسر التاء . انظر شرح الشافية للرضي (١ : ١٦٧) و شرح المفضليات .

(٧) الالهة جبل صغير بالسماوة من دار كلب . معجم ما استعجم (١ : ١٨٦) . ثاوياً اى مقيماً

عزّى رجل الرشيد فقال : آجرك الله على الباقي ، ومتّعك بالفاني ، فظنّ أنّه غلط وقال : ويلك ما تقول ؟ فتلا [١] : « ماعندكم ينفد وماعندالله باق » .

إبراهيم بن المهديّ في ولده :

وإنّي وإن قدّمت قبلي لعالم * بأنّي وإنْ أُخّرت عنك قريب
و إنّ صباحاً نلتقي في مسائه * صباح إلى قلب العداة حبيب [٢]

وقال عمرو بن معدي كرب [٣] :

كم من أخ لي حازم * بوّأته بيدي لحدا
أعرضت عن تذكاره * وخُلقت يوم خلقت جلدا

وعزّى رجل رجلاً عن ابنه فقال له : أكان يغيب عنك فقال : كانت غيبته أكثر من حضوره ، قال: فأنزله غائباً عنك فإنّه إن لم يقدم عليك قدمت عليه .

قالت فاطمة عليها السلام [٤] لمّا زارت قبر أبيها صلوات الله عليه وآله فأخذت حفنة من تراب القبر تشمّها و أنشأت :

ماذا على المشتمّ تربة أحمد * أن لا يشمّ مدى الزمان غواليا
صبّت عليّ مصائب لو أنّها * صبّت على الأيّام صرن لياليا

---

(١) سورة النحل : ٩٦ .

(٢) في الاصلين « في قلبي الغداة » ولا معنى له . والعداة جمع العادي وهو العدو .

(٣) أبوثور عمرو بن معديكرب الزبيدي من فرسان الشعراء والشجعان ، وفد على النبي (ص) صلى الله عليه وآله سنة ٩ واسلم ثم ارتد بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله و حارب عماله ثم رجع الى الاسلام وشهد الفتوح ، وابلى فيها بلاء حسناً ، اصيبت عينه في اليرموك . قتل بالقادسية اومات بالفالج سنة ٢١ . ترجم له في الاصابة (٣ : ١٨ برقم ٥٩٧٢) وغيره من كتب الصحابة ، والاغاني (١٤ : ٢٤) و الشعراء (١ : ٣٣٢) و معجم الشعراء للمرزباني : ٢٠٨ و المزهر للسيوطي (٢ : ٤٢٥) وخزانة الادب للبغدادي (١ : ٤٢٥) والموتلف للامدي : ١٥٦ و الاشتقاق لابن دريد : ٤١٠ . وهذان البيتان من قصيدة ذكرها أبوتمام في حماسته تراها في شرح الحماسة للمرزوقي (١ : ١٧٤-١٨١ ، برقم ٣٤) في ١٦ بيتاً و ستة منها في شرح شواهد مجمع البيان (٢ : ٢٦٠) ومعظمها في البجاني (٤ : ١٩٤-١٩٥) .

(٤) الابيات من ابيات سبعة في المناقب لابن شهر آشوب (١ : ١٦٨-١٦٩) .

وقالت أروى [١] بنت الحارث بن عبدالمطّلب ترثي عليّاً عليه السلام :

ألا يا عين و يحك ! أسعدينا * ألا فـابكي أميرالمؤمنينا
رزينا خير من ركب المطايا * و فارسها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها * و من قرأ المثاني و المئينا [٢]
فـلا والله لا أنسى عليّاً * وحسن صلاته في الراكعينا
إذ استقبلت وجه أبي حسين * رأيت البدر راع الناظرينا [٣]
و في شهر الصيام فجعتمونا * بخير الناس طرّاً أجمعينا
فلا تشمت معاوية بن حرب ! * فلا قرّت عيون الشامتينا
مضى بعد النبيّ فدته نفسي * أبو حسن و خير الصالحينا
كأنّ الناس إذ فقدوا عليّاً * نعام ظلّ في بلد سنينا
لقد علمت قريش حين كانت * بأنّك خيرها حسباً و دينا

وقالت البراء ابنة صفوان ترثي عليّاً صلوات عليه وسلامه :

ياللرجال لعظم هول مصيبة * فدحت ، فليس مصابها بالباطل [٤]
الشمس كاسفة لفقد إمامنا * خيرالخلائق والإمام العادل
ياخيرمن ركب المطيّ ومن مشى * فوق التراب بحافر أو ناعل
حاشا النبيّ ! لقدهدت قواءناً * فالحقّ أصبح خاضعاً للباطل

---

(١) بل الابيات مماقاله أبوالاسود الدولى ولها خبر ذكره المسعودى وأبوالفرج فى الاغانى (١١ : ١١٧) و ترى الابيات معزواً لابى الاسود فى المناقب لابن شهر آشوب (٢ : ٨٣) و الاستيعاب (٣ : ٦٦) أيضاً .

(٢) اشارة الى مارواه العياشى عن سعدالاسكاف عن الباقر عليه السلام قال قال: رسول الله صلى الله عليه وآله : اعطيت الطوال مكان التوراة واعطيت المائين مكان الانجيل واعطيت المثانى مكان الزبور وفضلت بالمفصل سبع وستين سورة (تفسير البرهان ١ : ٥٢) والطوال سبع سور من القرآن اولها البقرة وآخرها الانفال والمائين اولها التوبة وآخرها سورة محمد، وباقى القرآن المفصل لكثرة تفصيلها بالبسملة ، وسمى فاتحة الكتاب بالمثانى لانها تثنى فى الركعتين .

(٣) راعه : افزعه .

(٤) يقال : نزل به امرفادح ومصيبة فادحة ، اى صعب مثقل .

وقالت أُمّ سنان بنت خيثمة ترثي عليّاً صلوات الله عليه وسلامه :

أمّاهلكت أبا الحسين فلم تزل * بالحقّ تعرف هادياً مهديّاً
فلأبكينّك ماحييت، ومادعت * فوق الغصون حمامة قمريّا
قد كنت بعد محمّد خلفاً لنا * أوصى إليك بنا فكنت حفيّاً
فاليوم لاخلف يؤمّل بعده * هيهات يمدح بعده إنسيّا

وقالت دارميّة الجحونيّة ترثي عليّاً صلوات وسلامه عليه :

صلّى الإله على جسم تضمّنه * قبر فأصبح فيه العدل مدفوناً
قدحالف الحقّ لايبغي به بدلاً * فصار بالحقّ والإيمان مقروناً

المنصور الخليفة [١] ويسمّى الطويل أُمّه أُمّ ولد تدعى سلاّمة بربريّة ، مولده في ذي الحجّة سنة خمس وتسعين ، بويع [٢] له بالخلافة يوم توفّي أخوه السفّاح في ذي الحجّة ، وكانت خلافته اثنين وعشرين سنة إلّا ثلاثة أيّام ، و توفّي في ذي الحجّة ، قبره ببئر ميمون [٣] بمكّة ، وعمره ثلاثة وستّون سنة ، و كان يخضب بالسواد ، قيل : إنّه كان يخضب لمّته [٤] في كلّ شهر بألف مثقال مسك وكان ذا دهاء ورأي ، قدعركته [٥] الأيّام. أمر بتوسعة المسجد الحرام من ناحية باب الندوة ، و بنى مسجد الخيف ، و في أيّامه خرج محمّد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن عليهم السلام بالمدينة ، فوجّه إليه عيسى بن موسى فقتله

---

(١) اسمه ترى ترجمته فى التواريخ حوادث السنين الاتية .

(٢) فى الاصلين « توقع له » .

(٣) ومن عجيب أمر وفاته ما ذكره الشريشى عن الفضل بن الربيع أنه قال : كنت مع المنصور فى السفر الذى مات فيه ، فنزلنا بعض المنازل فدعانى وهو فى قبته الى حائط وقال : ألم أنهكم أن تدعوا العامة تدخل هذه المنازل فيكتبون فيها مالاخير فيه ؟ قلت : وماهو ؟ قال : ألاترى ماعلى الحائط مكتوباً :

أباجعفر بحانت وفاتك وانقضت * سنوك ، و أمرالله لابد نازل
أبا جعفر ! هل كاهن أو منجم * يرد قضاء الله ، أم أنت جاهل

فقلت : والله ما على الحائط شىء وانه لنقى أبيض ، قال : انها والله نفسى نعيت الى الرحيل . الى آخر ماذكره . انظر المجانى (١٢٩:١-١٣٠) .

(٤) بكسر اللام : الشعر المجاوز شحمة الاذن ، الشعر الذى دخل بعضه فى بعض .

(٥) اى دلكته وحنكته فصار ذاتجربة .

في رمضان ، و خرج إبراهيم بن عبد الله أخوه متوجّهاً إلى البصرة أو إلى الكوفة فلقيه عيسى فقتله في ساعته ، وفي إبّامه توفّي الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام سنة ثمان و أربعين .

ومن أحسن ماسمعت له من الحكايات أنّه طلب أبا العيناء في بعض الليالي و كان موالياً لأهل البيت عليهم السلام ، فلمّا سمع بذلك تأهّب للموت ، لأنّ المنصور كان معانداً ، فلمّا حضر بين يديه قال : يا أباالعيناء ما تحفظ عن أهل البيت من الأخبار ؟ فقال : أحفظ لهم مائة ألف خبر ، فقال : إلّا ما أُخبرك به فلست تحفظه ، اعلم أنّه لمّا كنت هارباً في دولة مروان بن الحكم[1] ، وكان قدعزم أن لايخلّي من ولد عليّ وعبّاس أحداً فكنت ألتجيء إلى المقابر في الليل والنهار ، أختبي[2] في السراديب ، فبينما أنا بعض الليالي في المقبرة وإذا بمشاعيل عظيمة ورهج وغُلبة[3] يأتون نحوالمقبرة ، فلم أشكّ أن قد علموا خبري وقد أتوا نحوي فخفت خوفاً عظيماً وأتيت إلى سرداب فدخلت إليه فما كان إلّا ساعة و أتت الغلبة إلى باب السرداب فأيقنت أن يأخذوني ففتحوا باب السرداب و أدخلوا تابوتاً فيه ميّت ، فلمّا رأيت الميّت ـ وأناقد اضطجعت بين الموتى لكن لايروني ـ أمن خاطري ، فوضعوه على جنب دكّة ومضوا ، وسرّجوا باب السرداب ، فبينما أنا مفكّر في أمري و إذا برجل قد أقبل ، لاأعلم من أين أتى ، ومعه رجلان آخران فجلس عند رأسه و جلسا عند رجليه ، فقال لهما : اعتبروا الرجل فقالا : بل أنت أولى بالاعتبار فقال : بل اعتبراه و احكوا لي حاله ، فاعتبروا بصره فقالوا : لا حول ولا قوّة إلّا بالله ! ما بصر يوماً فيما يرضي الله تعالى ، فقال : اعتبروا شمّه فاعتبروه فقالوا : لاحول ولا قوّة إلّا بالله ! ماشمّ رائحة ترضي الله تعالى ، فقال : اعتبروا سمعه فقالوا : لاحول ولا قوّة إلّا بالله ! ماسمع يوماً ما فيه رضى الله تعالى ، قال : اعتبروا ذوقه فقالوا : لاحول ولا قوّة إلّا بالله ! ما ذاق طعاماً يرضي الله تعالى ، فقال : اعتبروا يداه فقالوا : لاحول ولا قوّة إلّا بالله ؟ مابطش بهما في رضى الله تعالى ، فقال : اعتبروا رجليه فقالوا : لاحول ولا قوّة إلّا بالله ! ماسعت يوماً في

(١) كذا في الاصلين ، والصواب : مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، آخر ملوك بنى امية ، المعروف بالحمار .

(٢) افتعال من الغيب بمعنى الاختفاء .

(٣) جمع الغالب .

رضي‌الله ، فقال : اعتبروا قلبه فقالوا : لاحول ولا قوّة إلّا بالله ؟ ماخشع لله تعالى ، فقال : انظروا وسطقلبه فنظروا فإذاهم مستبشرون فرحون[١] فقال : مالكم ؟ فقالوا : إنّ فيه ذرّة من حبّ عليّ بن أبي‌طالب عليه السلام ، فقال : اكتبوه من أهل الجنّة ، يا أباالعيناء ! قم وارو ذلك عنّي .

ومات الحجّاج بن يوسف ـ لارحمه‌الله ـ بواسط في رمضان سنة خمس و تسعين و عمره ثلاثة وخمسون سنة ، وكانت له ولاية العراق عشرين سنة ، و رأيت في بعض التواريخ أنّ عدّة من‌قتله الحجّاج صبراً [٢] مائة ألف‌وعشرون ألفاً ، وأنّه مات في حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف‌امرأة .

رجعنا إلى بقيّة مانذكره من‌المراثي.

قال أبوذؤيب وهو خويلدبن خالدبن محرّث [٣] :

قالت أُميمة : مالجسمك‌شاحباً * منذ ابتذلت ، ومثل‌مالك‌ينفع [٤]

أم مالجسمك لايلائم مضجعاً * إلّا أفضّ عليك ذاك المضجع [٥]

فأجبتها : أمّا لجسمي أنّه * أودى بنيّ من‌البلاد فودّعوا [٦]

---

(١) فى الاصل < مستبشرين فرحين > وفى النسخة (ر) مستبشرون فرحين .

(٢) لم يتضح لى ماحداه الى‌ذكر خبر الحجاج فى هذا المقام .

(٣) أحد المخضرمين ، أدرك الاسلام فأسلم وحسن‌اسلامه ، عاش‌الى زمن عثمان وشهد الفتوح ومات مرجعه من غزوالروم فى الطريق ولموته قصة طريفة فى الاغانى (٦١:٦) وترى ترجمته‌فى الاصابة لابن حجر (٤ : ٦٩) والاستيعاب لابن عبد البر (٤ : ٦٨) واللالى للبكرى (١ : ٩٨) والخزانة (١ : ٢٠٣). و الابيات من قصيدة يرثى بهابنين له خمسة ، أصابهم الطاعون فهلكوا فى عام واحد ، وكانوا رجالاذوى‌بأس ونجدة ، وهى فى‌المرتبة العليا من‌الشعر ، وفيها أبرع بيت قالته العرب : والنفس راغبة اذا رغبتها * و اذا ترد فبالقليل تقنع

وهى فى ٦٧ بيتاً فى ديوان الهذليين (٢١:١) وختم بهاالمفضل كتابه المفضليات .

(٤) الشاحب : المهزول أو المتغير اللون . اى مالك هزلت و تغير لونك منذ مات من كان يكفيك ؟ والحال ان عوض مالك ـ بان تشترى منه عبداً ـ يكفيك وينفعك .

(٥) فى الاصلين < اما لجسمك > سهواً . أفض عليك ، أى صار مثل قضيض الحجارة ، يعنى الحجارة الصغيرة .

(٦) امالجسمى اصلها < أن ما > و < ما > موصولة . أودى : هلك .

أودى بنيّ و اعقبوني حسرة * بعد الرقاد ، و عبرة لا تقلع
سبقوا هويّ و أعنقوا لهواهم * فتخرّموا ولكلّ جنب مصرع(١)
فغبرت بعدهم بعيش ناصب * و أخال أنّي لاحق مستتبع(٢)
ولقد حرصت بأن أُدافع عنهم * فإذا المنيّة أقبلت لا تدفع
و إذا المنيّة أنشبت أظفارها * ألفيت كلّ تميمة لا تنفع(٣)
فالعين بعدهم كأنّ حداقها * سملت بشوك ، فهي عور تدمع(٤)
حتّى كأنّي للحوادث مروة * بصفا المشرّق كلّ يوم تقرع(٥)
و تجلّدي للشامتين أُريهم * أنّي لريب الدهر لا أتضعضع

وقال ابن الديدبان المدائنيّ يرثي الحسين بن محمّد الحسينيّ نقيب العلويّين بالمدائن:

يعطي الجزيل إذا استمیح وينثني * لا بالمدلّ به ولا بالتائه(٦)
يستكتم الماء النوال كأنّه * عيبٌ يخاف عليه من إفشائه(٧)
قد قلت للرجل المولّي غسله * إلّا أطاع ، و كنت من نصحائه:(٨)
جنبّه ماءك ثمّ غسّله بما * أجرت عيون المجد عند بكائه(٩)

---

(١) هويّ ، هوای بلغة هذيل ، ای ماتوا قبلی . أعنقوا : أسرعوا . تخرموا : اخذوا واحداً واحداً .

(٢) فی الاصلين : فعبرت - بالمهملة - سهواً ، وغبرت : بقيت ، و الغابر : الباقی و الماضی (ضد) . ناصب : ذو نصب ، وتعب وشدة .

(٣) التميمة خرزة أوما يشبهها كانوا يضعونها على أولادهم وقاية للعين .

(٤) فی الاصلين «شملت» سهواً . تقول : سمل عينه ، فقأها .

(٥) المروة : حجارة بيض يقدح منها النار . المشرق : المصلى . يقول : أنا من كثرة المصائب كمروة يقرعها مرور الناس بها ، وانما خص المشرق لكثرة مرور الناس بها . واستفدنا فی تفسير الابيات من شرح المفضليات كثيراً .

(٦) اثنى : انعطف . المدل : الذی يفتخر . التائه : المتكبر ، يقول : يعطی و يتواضع حين الاعطاء لايفتخر باعطائه ولايتكبر .

(٧) ای يكتم الرطوبة الحاصلة من العطاء على اليد .

(٨) المولی من التولية . و« الا » هنا بمعنى الواو .

(٩) فی الاصلين «ماء آل» ولا يستقيم عليه الوزن ولا له معنى يناسب المقام .

و أزل أفاويه الحنوط وطيبه * عنه ، و حنّطه بطيب ثنائه(١)
لأتوه أعناق الرجال بحمله * يكفيك ما فيهنّ من نعمائه (٢)

شاعر : فلاوالّذي لوشاءلم يخلق الردى * لئن غبت عن عيني لماغبت عن قلبي
يذكّرنيك الشوق حتّى كأنّني * أُناجيك من قرب ولست بذي قرب

و قال ابن اللبانة المغربيّ :

بِنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا * شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا(٣)
نكادحين تناجيكم ضمائرنا * يقضي علينا الأسى لولا تآسينا
حالت لفقدكمُ إيّامنا فغدت * سوداً ، وكانت بكم بيضاً لياليناً(٤)
إذجانب العيش طلق من تألّفنا * ومورد اللهوصاف من تصافينا(٥)
و إذهصرنا غصون الأُنس دانية * قطوفها ، فجنينا منه ما شينا(٦)
ليسق عهدكم عهد السرور، فما * كنتم لأرواحنا إلّا رياحينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم * ثوباً من الحزن لايبلى ويبلينا
إنّ الزمان الّذي مازال يضحكنا * أُنساً بقربكم ، مازال يبكينا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا * بأن نغصّ ، فقال الدهر: آمينا
فانحلّ ما كان معقوداً بأنفسنا * وانبتّ ماكان موصولاً بأيدينا(٧)
وقد نكون ولا يخشى تفرّقنا * واليوم نحن ولا يرجى تلاقينا
لم نعتقد بعدكم إلّا الوفاء لكم * رأياً ، ولم نتقلّد غيره ديناً

---

(١) الافاويه جمع الافواه نوافج الطيب ، والنافجة الجلدة التى يجتمع فيها المسك .
(٢) كذا فى الاصلين ، ولعل الصحيح « لاتوه » بان يكون «لا» حرف نفى ، و «توه» امراً من توهه : أهلكه ، الا ان فيه اشكال السكتة فى البيت .
(٣) بنّ - من باب فر - بالمكان : أقام . المآقى : مجارى الدمع من العين .
(٤) حالت : تغيرت . غدت : اصبحت .
(٥) الطلق - بتثليث الطاء - : غير المقيد . التصافى : اخلاص الود .
(٦) هصر - من باب ضرب - الغصن : عطفه وكسره من غير بينونة ماشينا : ماشتنا .
(٧) انبت من البت بمعنى القطع .

لاتحسبوا نأيكم عنّا يغيّرنا * أن طال ما غيّر النأي المحبّينا[١]
والله ما طلبت أرواحنا بدلاً * منكم ولاانصرفت عنكم أمانينا
ولااستفدنا خليلاً عنك يشغلنا * ولا اتّخذنا بديلاً منك يسلينا[٢]
ياساري البرق غادا القصر فاسق به * من كان صرف الهوى والودّ يسقينا[٣]
و يانسيم الصبا ! بلّغ تحيّتنا * من لو على البعد حيّا كان يحيينا

وقيل : إنّ عمر بن عبد العزيز لمّا مات ابنه عبدالملك خطب الناس فقال : الحمدلله الّذي جعل الموت حتماً على عباده ، سوّى به بين ضعيفهم وقويّهم ، و رفيعهم و دنيّهم ، فقال تبارك[٤] : « كلّ نفس ذائقة الموت » فعلم ذوي النهى منهم أنّهم صائرون إلى قبورهم ، مجازون بأعمالهم . واعلمو أنّ لله مسألة فاحصة ، قال تبارك وتعالى[٥] : «فوربّك لنسألنّهم أجمعين عمّا كانوا يعملون» وقال القائل :[٦]

عجبت لصبري بعده وهو ميّت * وقد كنت أبكيه دماً وهو غائب
على أنّها الأيّام قد صرن كلّها * عجائب حتّى ليس فيها عجائب

وقال رجل من قريش وهو العتبيّ[٧] يرثي ابنه :

بأبي وأمّي من عبأت خيوطه * بيدي ، وودّعني بماء شبابه[٨]
كيف السلوّ و كيف صبري بعده * وإذا دعيت فإنّما أُكنى به[٩]

---

(١) النأى : البعد . «أن طال» اى من أجل ان طال ، علة للنفى لاللنفى .
(٢) اسلاه الشيء : انساه اياه ، وقد سبق معناه .
(٣) كذا فى الاصلين .
(٤) سورة آل عمران : ١٨٥ .
(٥) سورة الحجر : ٩٢ .
(٦) اول البيتين فى المستطرف (٢:٢٩٠) .
(٧) أبوعبدالرحمن محمدبن عبدالله البصرى ، من ولد عتبة بن أبى سفيان ، شاعر مجيد أديب فاضل ، استوفينا ترجمته فى ماعلقناه على شرح شواهد مجمع البيان (٢:٣٢٧-٣٢٨) راجعه .
(٨) عباه : هيأه .
(٩) السلو مصدر سلايسلو .

آخر :

وليس صرير النعش ما تسمعونه * و لكنّه أصلاب قوم تقصّف[١]

وليس نسيم المسك ريّا حنوطه * و لكنّه ذاك الثناء المخلّف[٢]

وأحسن ماقيل في هذا قول بعض الأعراب[٣] :

أرادوا ليخفوا قبره عن وليّه * وطيب تراب القبر دلّ على القبر

وقال القرشيّ :

قد كنت أبكي على مافات من سلفي * و أهل ودّي جميعاً غير أشتات

فاليوم إذ فرّقت بيني و بينهم * نوى ، بكيت على أهل المودّات[٤]

و ما بقاء امرىء صارت مدامعه * مقسومة بين أحياء و أموات ؟!

و قيل : قدم أعرابيّ من البادية فلمّا صار بجبل سنام[٥] مات له بنون فدفنهم هناك و قال :

دفنت الدافعين الضيم عنّي * برابية مجاورة سناما[٦]

أقول إذا ذكرت العهد منهم : * بنفسي تلك أصداء وهاما[٧]

فلم أر مثلهم ماتوا جميعاً * ولم أر مثل هذا العام عاما

---

(١) تقصف : تتكسر . واصله : تتقصف .

(٢) الريا : الريح الطيبة .

(٣) أنشده على بن الجهم البرمكي بحضرة المأمون في خبر طريف ذكره أبو الفرج في الاغاني (١٣ : ١٥) . وبهامش النسخة (د) ان قائله المجنون .

(٤) النوى هنا : بعد المكان .

(٥) جبل مشرف على البصرة ، الى جانبه ماء يقال : انه يسير مع الدجال ، وانه اول ماء يرده الدجال من مياه العرب . معجم ما استعجم (٣:٧٥٨) مراصد الاطلاع (٢:٧٤٢) .

(٦) الرابية : ماارتفع من الارض .

(٧) الاصداء جمع الصدى - بالفتح مقصوراً - نوع من البوم عظيم الرأس ، وكان عرب الجاهلية يزعمون أنه يخلق من رأس المقتول ، ولا يزال يصيح في رأسه اذا لم يؤخذ بثاره : « اسقوني اسقوني » حتى يقتل قاتله . والهام جمع الهامة بمعنى الصدى .

ومن أحسن القول في هذا المعنى قول زين العابدين عليه السلام حيث مات ابنه فلم يرمنه جزع فسئل عن ذلك فقال : « أمر كنّا نتوقّعه فلمّا وقع لم ننكره » .

وفي هذا الكلام زيادة نظر وفضل تسليم لقضاء الله عزّ وجلّ. والعرب تقول: الحذر أشدّ من الوقيعة .

و قال بعض الحكماء : إنّما الجزع و الإشفاق قبل وقوع الأمر فإذا وقع فالرضا والتسليم .

وقال أحمد الورّاق : وجدت [١] على قبر مكتوباً :

الموت أخرجني من دار مملكتي * والترب مضطجعي من بعد تنزيف [٢]

هذا مصير بني الدنيا و إن نعموا * فيها ، و غرّهم طول التشاويف [٣]

وعزّى أعرابيّ رجلاً عن أبيه فقال : مامات من خلّفك ، ولاخاب من أمّلك ، ولا توحّد من أهّلك ، إنّ من كنت بقيّته لموفور ، ومن كنت ثماله لمحبور [٤] ، ومن كنت وليّه لمنصور .

عن أنس : يقول الله : إنّي إذا وجّهت على عبد من عبادي مصيبة في أهله أو ولده أو بدنه فاستقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنشرله ديواناً ، وأنصب [٥] له ميزاناً .

وقيل : أُصيب امرءة بابن لها فأحسنت العزاء ، فقيل لها : ما رأيناك جزعت على ابنك ، فقالت : بلى ، ولكنّي آثرت طاعة الرحمن على طاعة الشيطان .

وعزّى عبدالله بن داود رجلاً فقال له : اعلم أنّ حرمان الأجر على المصيبة أعظم من المصيبة، وقد فاتك ما أُعطيت فلا يفوتك ماعوّضت .

---

(١) في النسخة (ر) : وجد على .

(٢) أنزف الرجل : لم يبق له شيء . ولم أظفر على باب التفعيل منه .

(٣) جمع التشويف : التزيين .

(٤) ثمال القوم : غياثهم الذى يقوم بامرهم . المحبور : المسرور .

(٥) في النسخة (ر) : أو أنصب .

وقال حاتم الأصمّ: إذا رأيت صاحب المصيبة فمزّق ثوبه، وأظهر جزعه فعزّيته فقد شركته في إثمه، إنّما هو منكر تحتاج أن تنهاه.

وقال أبوسعيد البلخيّ: من أُصيب بمصيبة فمزّق ثوبه أوضرب صدره فكأنّما أخذ رمحه يريد أن يقاتل [به] (١) ربّه.

وقيل: أُصيب ابن المبارك بمصيبة فمرّ به رجل من المجوس فعزّاه فقال له: ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم مايفعله الجاهل بعد خمسة أيّام. فقال ابن المبارك: اكتبوا هذا.

اصبر لدهر نال منك　　*　　فهكذا مضت الدهور
فرحاً و حزناً تارة　　*　　لاالحزن دام ولاالسرور

قيل: حدّث صالح الناجي عن عليّ بن يقطين أنّه قال: أصبح المهديّ يوماً فقال: أصبحت جائعاً، ائتوني بلحم قدطبخ وأرغفة، قال: فأتوه فأكل ثمّ قال: إنّي داخل هذا اليوم فنائم فيه فلا تنبّهوني حتّى أُنبّه فدخل فنام ونمنا خارجاً، فاستيقظنا على بكائه، قال: فدخلنا فسألناه عن حاله فقال: أمارأيتم الشيخ؟ قلنا: مارأيناه، قال: بلى شيخ وقف على باب النهو(؟) لورأيته في مائة ألف ماخفي عليّ فقال:

كأنّي بهذا القصر قدباد أهله　　*　　وأوحش منه ركنه و منازله
وصار عميد القصرمن بعد هجعة　　*　　وملك إلى قبر عليه جنادله
فلم يبق إلّا ذكره وحديثه　　*　　تنادي بليل معولات حلائله

قال: فوالله ما مضت عشرة حتّى دفنّاه.

وقالت ليلى الأخيليّة (٢):

---

(١) زيادة من النسخة (ر).

(٢) بنت عبدالله بن الرحال، شاعرة فصيحة، غلبت النابغة الجعدى فى الهجاء، اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير - بضم الحاء وتشديد الياء - الذى ذكرته فى البيت الاخير. كانت تفد على الحجاج فيكرمها. عدها الاصمعى أشعر من الخنساء توفيت نحو ٧٥ه ترى ترجمتها فى الاغانى (٤: ١٢٩، ١٠: ٦٣) واللالى (١: ٢٨٣) وزهرالاداب للحصرى القيروانى (٤: ٧٢) و الاشتقاق: ٢٥ و ٢٩٩ والموشح: ٨١ والابيات التسعة من ١٢ بيتا فى الاغانى (١٠: ٧٣).

لعمرك ما بالموت عار على الفتى * إذا لم تصبه في الحياة المعايرُ
وما أحد حيٌّ و إن كان سالماً * بأخلد ممّا غيّبته المقابرُ
ومن كان ممّا يحدث الدهر جازعاً * فلابدّ يوماً أن يرى وهو صابرُ
وليس لذي عيش على الموت مذهب * وليس على الأيّام والدهر غابرُ
فلا الحيّ ممّا يحدث الدهر معتب * ولا الميت إن لم يصبر الحيّ ناشرُ
و كلّ شباب أو جديد إلى بلى * فكلّ امرئ يوماً إلى الله صائرُ
و كلّ قرينَي إلفة لتفرّق * شتاتاً ، وإن ضنّا وطال التعاشرُ
فأقسمت لا أنفكّ أبكيك ما دعت * على فنن ورقاء أو طار طائرُ (١)
فلا يبعدنك الله يا ثَوب (٢) هالكاً * أخا الحرب إن دارت عليه الدوائرُ

الخنساء ترثي أخاها صخراً (٣) :

ألا ! ما لعينك أم مالها * لقد أخضل الدمع سربالها
و أقسمت آسي على هالك * و أسأل نائحة مالها (٤)
أبعد ابن عمرو من آل الشريـ * ـد حلّت به الأرض أثقالها
فتعلم أنّ منايا الرجا * ل بالغة حيث يملى لها
و كلّ جميع إلى فرقة * ولن تسبق النفس آجالها
فزال الكواكب من فقده * و جلّلت الشمس إجلالها
هممت بنفسي بعضّ الهموم * فأولى لنفسي أولى لها
لأحمل نفسي على آلة * فإمّا عليها و إمّا لها

اعلم يا أخي أنّ ماهيّة الموت والحياة نوعان ، إمّا جسداني و إمّا نفساني ، فالحياة الجسداني ليست شيئاً سوى تركها استعماله . فأمّا النفس فحياتها ذاتيّة لها ، وذلك أنّ جوهرها حيّة بالعقل علّامة بالقوّة فعّالة بالطبع في الأجسام والأشكال والنقوش

(١) الفنن : الغصن .
(٢) في الاصلين « ثوب » وهو سهو ، وقد ذكرنا انه توبة بن الحمير .
(٣) تراها في الاغاني (١٣ : ١٣٦) من ٢٠ بيتاً .
(٤) في الاصلين « فائحة » والاصلاح من الاغاني .

والصور طبعاً ، وأنّ موتها هو جهالتها بجوهرها وغفلتها عن معرفة ذاتها ، وإنّ ذلك عارض له من شدّة استغراقها في بحر الهيولى لبعد ذهابها في هاوية الأجسام ، و لشدّة غرورها في الشهوات الجسمانيّة فإنّ أكثرهم لجهالتهم بجوهر نفوسهم و غفلتهم عن حياتها الأبديّة ليس يعرفون إلّا هذه الحياة الدنيا الجسدانيّة الدنيّة المنقطعة و صاروا يريدون البقاء في الدنيا ، ويتمنّون الخلود فيها كما ذكر الله سبحانه بقوله [١] « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا و هم عن الآخرة هم غافلون » و قال عزّ من قائل [٢] « و رضوا بالحياة الدنيا واطمأنّوا بها والّذينهم عن آياتنا غافلون » وقال تعالى : [٣] « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » وقال : [٤] « والآخرة خير وأبقى » وقال : [٥] « إنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لوكانوا يعلمون » وآيات كثيرة في ذمّ الّذين يريدون الحياة الدنيا الّتي هي حياة الجسد ويغفلون عن الحياة الآخرة الّتي هي حياة النفس .

واعلم أنّ النفس لاتحسّ بتلك الحال الّتي تنتقل إليها إلّا بعد مفارقة الجسد ، كما أنّ الجنين لايحسّ بهذه الدنيا إلّا بعد الولادة ، فمن أجل هذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » [٦] وإنّما نومهم غفلتهم عمّا بعد سكرة الموت فإذا جاءت سكرة الموت الّتي هي مفارقه النفس الجسد عاينت حقيقة ماكانوا يوعدون كما قال تعالى [٧] « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » و قال سبحانه لنبيّه عليه السلام : [٨] « و اعبد ربّك حتّى يأتيك اليقين » يعني الموت بمفارقة النفس الجسد ، و قال تعالى [٩] : « كلّ

---

(١) سورة الروم : ٧ .
(٢) » يونس : ٧ .
(٣) » الانفال : ٦٨ .
(٤) » الاعلى : ١٧ .
(٥) » العنكبوت : ٦٤ .
(٦) انظر ما ذكر حول الرواية فى التقدمه .
(٧) سورة ق : ٢٢ .
(٨) سورة الحجر : ٩٩ .
(٩) سورة العنكبوت : ٥٧ .

نفس ذائقة الموت ثمّ إلينا ترجعون» فإذاً الموت حكمة ؛ إذ لارجوع لنا إلى ربّنا الرحيم الغفور إلّا بعد الموت ولا وصول للنفس إلى ما وعدالله إلّا بعد مفارقتها الجسد كما ذكر الله سبحانه :[1] « يا أيّتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة » إلى آخر السورة . فإذاً الموت حكمة .

و اعلم يا أخي أنّ في الموت حكمة أيضاً إنّ كلّ نشو و كون فله أوّل وابتداء ، وغاية وانتهاء إليها يرتقى ، ولغايته ثمرة تجتنى ،فمسقط النطفة كون قد ابتدأ ، و غايته الولادة الّتي إليها المنتهى ، والولادة أيضاً كون ابتداء والموت غايته الّتي إليها المنتهى. و كما أنّ ثمرة مسقط النطفة بعد الولادة تكون لأنّ الطفل لايتمتّع إلّا بعد الولادة فهكذا النفس لا تتمتّع إلّا بعد مفارقة الجسد ؛ لأنّ موت الجسد ولادة النفس وهي الروح وذلك أنّ موت الجسد ليس شيئاً سوى مفارقة النفس له كما أنّ ولادة الجنين ليست شيئاً سوى مفارقة الرحم فإذاً الموت حكمة ، كما أنّ الولادة حكمة . و كما أنّ الجنين إذا تمّت في الرحم صورته و كملت هناك خلقته انتفع بالولادة في الحياة الدنيا كذلك النفس إن اُكملت صورتها وتمّت فضائلها بكونها مع الجسد انتفعت بعد مفارقتها الجسد في الحياة الآخرة ، كما انتفعت في الحياة الدنيا فإذاً الموت حكمة .

و اعلم يا أخي أنّ مثل النفس من الجسد كمثل الصبيّ في المكتب ، ليتعلّم و يتأدّب ويرتاش ، فإذا أحكم ذلك فليس له إلّا الخروج من المكتب لأنّه قدتمّ ما يراد منه وبقي الإكرام والمجازاة . وهكذا حكم النفس مع الجسد إذا أحكمت مايراد منها بكونها معه فليس إلّا المفارقة كما ، وأنّ الصبيّ إذا أحكم ما يراد منه في المكتب استغنى عن حمل اللّوح والقلم ونقلهما والمداد ،لأنّه كان يكتب ويقرأ ويمحو ليحصّل العلم في نفسه محفوظاً من القرآن و الشعر والنحو واللغة و ما شاكلها ممّا يحفظ صبيان المكاتيب فهكذا حكم النفس مع الجسد إذا هي أحكمت أمر المحسوسات بطريق الحواسّ و أمر المعقولات بطريق الفكر والرويّة ، و عرفت اُمور حقائق هذا العالم من الكون والفساد ، و ارتفعت بعد ذلك بطريق الرياضات الّتي هي البراهين إلى معرفة الاُمور الفائتة عن

(١) سورة الفجر : ٢٧ .

الحواسّ وارتاضت فيها وعرفتها حقّ معرفتها ، واستبان لها أمر عالمها ومبدئها و معادها و عاينت بعين البصيرة أحوال أبناء جنسها من السابقين الّذين مضوا على سنن الهدى وارتقوا إلى السماء وفسحة الأفلاك وسعة السماوات اشتاقت هي عند ذلك إلى الصعود هناك واللحوق إلى أبناء جنسها ولا يمكنها ذلك بهذا الجسد الثقيل إلاّ بتركها له ، ومفارقتها إيّاه وهو بالموت ، ولولم يكن الموت لكانت ممنوعة عن الوصول إلى هناك . فإذاً الموت حكمة ورحمة ونعمة من الله سبحانه للنفوس الخيرة المستبصرة .

و اعلم يا أخي أنّ في الموت حكمة أُخرى وهو أنّ الجسد كالسفينة و النفس كالملاّح والأعمال الصالحة كالبضاعة والأمتعة للتجّار ، والدنيا كالبحر ، و أيّام الحياة كالمعبر والموت كالساحل ، والدار الآخرة كمدينة التجّار ، والجنّة هي الربح ، والله الملك المجازي . و كما أنّ التاجر إذا عبر البحر ، و سلمت أمتعته و بضاعته إن لم يخرج من السفينة لا يمكنه الدخول في المدينة للتجارة ، ويفوته ربح بضاعته فهكذا حكم النفس مع الجسد أيضاً ، وذلك أنّها إذا قطعت أيّام الحياة الدنيا بالأعمال الصالحة و سارت سيرة عادلة وتخلّقت بأخلاق جميلة ، و اعتقدت آراء صحيحة ، ونظرت في الأُمور المحسوسة ، و عرفتها معرفة صحيحة وبحثت عن حقائق المعقولات وأحكمتها ، و بلغت آخر العمر ، وهرم الجسد فليس إلاّ الفراق الّذي هو موت الجسد ، فلولم يكن الموت لما أمكنها الصعود إلى الملكوت ولا الدخول في زمرة الملائكة ، ولا الوصول إلى الجنّة و كان يفوتها لقاء الله و نعيم الدار الآخرة فإذاً الموت حكمة ونعمة ورحمة ، إذلا وصول إلى ربّنا إلاّ بعد الموت الّذي هو مفارقة الجسد كما ذكر سبحانه [1] : « كلّ نفس ذائقة الموت ثمّ إلينا ترجعون »

واعلم يا أخي أنّ في الموت حكمه أُخرى وهو أنّ الدنيا كالميدان ، و الأجساد خيل عتاق ، والنفوس السابقة إلى الخيرات فرس فره ، و الله الملك الجواد المجازي ، وكان الفارس السابق إذا بلغ باب الملك إن لم ينزل عن فرسه لا يمكنه الدخول إلى حضرة الملك ، ويفوته الجائزة والخلع والكرامة . فهكذا حكم نفوس السابقين في الخيرات والأعمال

(١) سورة العنكبوت : ٥٧ .

الصالحة؛ إذا قطعوا أيّام الحياة الدنيا سبقت إلى الخيرات كما مدحهم الله سبحانه بقوله[١] «إنّهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين» فإذا فنى العمر وهرم الجسد وشاخ، و شابت النفس و كملت، إن لم تفارقه لايمكنها الصعود إلى ملكوت السماء، لأنّ هذا الجسد المتغيّر الفاسد لايليق بذلك المكان العليّ الشريف، بل النفس هي الّتي يمكنها الصعود إلى هناك، لتجازى بما عملت من خير، فإذاً الموت حكمة و رحمة و نعمة.

واعلم يا أخي أنّ في الموت حكمةً اُخرى وهي أنّ الدنيا كالمزرعة وأرحام النساء الحرث، قال الله سبحانه[٢]: «نساؤكم حرث لكم» والنطفة كالبذر و الولادة كالنبت و أيّام الشباب كالنشوء وأيّام الكهولة كالنضج، وأيّام الشيخوخة كاليبس والجفاف، والموت كالصرّام[٣] والحصّاد، و الآخرة كالبيدر[٤] فكما أنّ على البيدر يُجمع الذرع من كلّ جنس ويداس وينقّى ويتميّز القشور و الورق و التبن من الحبّ و الثمر و يجعل علفاً للدوابّ وحطباً للنيران، فهكذا يجتمع في الآخرة الأُمم من كلّ دين، وتنكشف الأسرار ويميز الله الخبيث من الطيّب، و يجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنّم كقوله[٥]: «وينجّي الله الّذين اتّقوا بمفازتهم لايمسّهم السّوء ولاهم يحزنون» وهذا كلّه بعد الموت، فإذاً الموت حكمة ورحمة لأوليائه، فمن أجل هذا يتمنّى اُولئك الموت كما عاتب من ظنّ أنّه منهم بقوله[٦]: «قل يا أيّها الّذين هادوا إن زعمتم أنّكم أولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين» فدلّ بهذه على علامة أولياء الله الّذين يتمنّون الموت إن علموا أنّهم يرجعون إلى ربّهم بعد الموت. فإذاً الموت حكمة.

و اعلم يا أخي أنّ في الموت حكمة اُخرى و هي أنّ النفوس كالصنّاع، والأجساد

---

(١) سورة الانبياء: ٩٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٣.

(٣) الصرام مبالغة الصارم بمعنى القاطع.

(٤) البيدر: الموضع الذى يجتمع الزرع المحصود ليداس.

(٥) سورة الزمر: ٦١.

(٦) سورة الجمعة: ٦.

كالدكاكين ، وأعضاء الجسد كالأدوات . واعلم أنّ الصنّاع يجتهدون في الصنائع، ويتحمّلون مشقّة العمل لكسب المال وطلب الغنى ، فإذا استغنى واحد منهم ترك الدكّان والأدوات واستراح من العمل ، فهذا حكم النفوس إذا هي أحكمت مايراد منها مع الجسد من الزاد للآخرة ، واستغنت عن الجسد ، و استقلّت بذاتها ، فلو لم يؤخذ منها الجسد لكان وبالاً عليها ومانعاً لها عن الصعود إلى ملكوت السماء ، والدخول في زمرة الملائكة والسيحان في عالم الأفلاك ، والسريان في فسحة فضاء السماوات ، و التنسّم من ذلك الروح والريحان المذكور في القرآن. فإذاً الموت حكمة ونعمة من الله سبحانه لعباده المؤمنين .

وقال يوسف على نبيّنا و عليه السلام [١] : « ربّ قد آتيتني من الملك و علّمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليّي في الدنيا و الآخرة توفّني مسلماً و ألحقني بالصالحين » أما ترى أنّه تمنّى الموت بقوله : « توفّني » لمّا علم أنّ اللحوق بالصالحين لايكون إلّا بعد الموت فإذاً الموت حكمة .

وقال إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام [٢] : « الّذي يميتني ثمّ يحيين * و الّذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدّين * ربّ هب لي حكماً و ألحقني بالصالحين * واجعل لي لسان صدق في الآخرين * واجعلني من ورثة جنّة النعيم » فإذاً الموت حكمة ، إذ كانت وراثة الجنّة لا تكون إلّا بعد الموت .

و اعلم أنّ هذه الكرامة للنفس لا للجسد ؛ لأنّ جسدهما قد بلي في التراب وإنّما ألحقت بالصالحين نفساهما [٣].

إذا تقرّر ذلك فلنبيّن لك يا أخي معنى الصراط . اعلم أنّ أجسام الأركان الأربعة تستحيل إلى أجسام النبات ، وأجسام النبات تستحيل إلى أجسام الحيوانات ، و أشرف الحيوان الإنسان ، فصورة النبات صراط منكوس إلى العمق وقد جازتها النفس الحيوانيّة ونجت منها ، وصورة الحيوان صراط ممدود على السطح وقد جازتها النفس الإنسانيّة و نجت منها ، وصورة الإنسان صراط مستقيم كالخطّ قائماً منتصباً بين الجنّة و النار ، و هي

(١) سورة يوسف : ١٠١ .
(٢) سورة الشعراء : ٨١-٨٤ .
(٣) في الاصلين « نفسيهما » .

آخر باب في جهنّم ، فأيّ نفس جازتها نجت من جهنّم و دخلت الجنّة الّتي هي صورة الملائكة ، و إلّا ردّت إلى أسفل السافلين إلّا الّذين آمنوا و عملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون .

فانظر يا أخي في هذا الباب وتفكّر فيه فإنّك على خطر ، قدبلغت قريباً من باب الجنّة.فإن بادرت قبل مفارقة النفس الجسد ، فاستعددت و تزوّدت بالأعمال الصالحة ،و الآراء الصحيحة ، و الأخلاق الجميلة ، والعلوم الحقيقيّة رجوت لك أن تنجو من نيران الّتي في عالم الكون و الفساد ، و تصل إلى الجنّة بالصعود إلى عالم الأفلاك و فسحة السماوات وعالم الدوام و البقاء و الخلود في النعيم مع النبيّين و الصدّيقين و الشهداء و الصالحين وحسن أُولئك رفيقاً .

و اعلم يا أخي أنّ الجسد مسوّس والنفس ساوس ، فأيّ نفس ارتاضت في سياسة جسدها كما يجب ، أمكنها سياسة الأهل والخدم والغلمان ، ومن ساس أهله بسيرة عادلة أمكنه أن يسوس قبيلته ، ومن ساس قبيلته أمكنه أن يسوس أهل المدينة كلّهم، ومن ساس الناموس الإلهيّ أمكنه الصعود إلى عالم الأفلاك وفسحة السماوات ، ليجازى هناك بما عمل من خير ، فإذاً الموت حكمة . وإن لم يسبق لك ياأخي سياسة الناموس الإلهيّ فكن خادماً فيه لعلّك تنجو من نارجهنّم بشفاعة أهله وتصعد إلى ملكوت السماوات بمعاونتهم وتدخل الجنّة برحمة الله وفّقك الله أيّتها الأخ للصواب ، وهداك إلى الرشاد وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد .

و اعلم يا أخي أنّ عيوب الجسد و مثالبه كثيرة غير أنّ فيه محاسن ممّا يستفيد من النفس بكونها معه من الحكمة والعلم والفوائد ، وما يرتاض في اتّخاذ الصنائع والسياسات والمداومة على الطاعات بحسب الطاقة البشريّة ، إذا أخذت النفس الطريق ذات اليمين ؛ لأنّ هذا الجسد لهذه النفس كصراط ممدود بين الدنيا والآخرة ، فإذا عبرت النفس على هذا الصراط وسلمت من آفاته سهل عليها سائر ما بعد ذلك ، فمن عيوب هذا الجسد أن يكون النفس معه في كنيف لأنّ الكنيف بالحقيقة هو هذا الجسد ، لأنّه ينبوع لكلّ

قاذورة من وسخ وبول وغائط ومخاط [١] وبزاق ودم وصديد ولعاب وعرق وبخر وصنان [٢] وإنّ كلّ ما في الكنيف فمنه يخرج ، وفيه يتكون ، فأوّله نطفة مذرة [٣] و آخره جيفة قذرة ، وفيما بين الحالين مملوء عذرة ، والنفس على دوام الأوقات في تنظيفه وغسله وتنقيته ومداواته و ستر عوراته ، وحفظ من آفات الحرّ و البرد و الجوع و العطش و الصدمة و الضربة والآفات العارضة الّتي لا يحصى عددها و بالجملة فليس للعالم نتن ولا نجاسة ولا قاذورة إلّا منه .

ومن وجه آخر مثل النفس مع الجسد كعابد صنم يعبده ليلاً ونهاراً ، و ذلك أنّ النفس إذا تركت تعلّم العلم و عبادة الله و النظر في أمور معادها بعد فراق الجسد و الاستعداد له و التزوّد للرحلة من الدنيا إلى الآخرة ، واشتغلت بما يكون به صلاح الجسد من الأكل و الشرب و اللباس و المسكن و المركب وما شاكلها ، فتصير كأنّها هو ذا تعبد صنماً كما ذكر الله سبحانه [٤] : « أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه » .

ووجه آخر كأنّه كافر محجوب عن الله ، لا يعرف ولا يدري من خلقه ورزقه .

ووجه آخر كأنّه صاحب بدعة يدعو إلى هواه ، ويريد أن يكون الأمر بمراده .

ووجه آخر كأنّه جاهل عجول لا ينظر في العواقب .

ووجه آخر كأنّه عدوّ للنفس يظهر الصداقة ويكتم العداوة .

ووجه آخر كأنّه الشيطان من كثرة الوسواس .

ووجه آخر كأنّه إبليس يدعو إلى الغيّ .

ووجه آخر كأنّه ميّت على جنازة حملتها النفس على كتفها لا تستريح منه إلّا إذا دفنته في التراب .

ووجه آخر كأنّه غيم بين أبصار الناظرين ونور الشمس ؛ لأنّ ظلمات أخلاط الجسد

---

(١) المخاط : ما يسيل من الانف .

(٢) البخر - بالتحريك - : نتن الفم . والصنان - بالضم - نتن الابط .

(٣) الفاسدة الخبيثة .

(٤) سورة الجاثية : ٢٢ .

تمنع عن النظر إلى نور العقل ، وتنظر الآمال وتنسى الآجال .

ووجه آخر مثل هذه النفس الجزئيّة مع شرف جوهرها وما هي عليه من غوايتها في هذا العالم الّذي تحت الكون والفساد وما ابتليت به من آفات الجسد و فساد هيولاه كمثل رجل حكيم خيّر في بلد غربة قد ابتلي بعشق امرءة رعناء فاجرة جاهلة سيّئة الأخلاق رديئة الطبع ، فهي دائماً يطالبه بالمأكولات الطيّبة والمشروبات اللّذيذة واللباس الفاخر والمسكن المزخرف والشهوات المردية ، وإنّ ذلك الحكيم من شدة محنته بمحبّتها وعظيم بلائه بصحبتها قد صرف كلّ همّته إلى إصلاح أمرها ، وأكثر عنايته بتزيين شأنها حتّى قد نسي أمر نفسه ، وصلاح شأنه و بلدته الّتي خرج منها و أقربائه الّذين نشأ معهم ونعمته الّتي كان فيها بدءاً .

واعلم يا أخي أنّ جوهر النفس جوهر سماويّ ، وعالمها روحانيّ وهي حيّة بذاتها غير محتاجة إلى الأكل و الشرب واللباس وما شاكل هذه الأمور ممّا يحتاج إليه الجسد في قيام وجوده المستحيل الفاني ، البالي الفاسد ، ولإصلاح شأنه وقوام وجوده وجرّ المنفعة إليه ودفع المضرّة عنه ، وهو لا يثبت على حال واحد طرفة عين .

واعلم أنّ النفس مادامت مع هذا الجسد إلى الوقت المعلوم متعوبة بكثرة همومها لإصلاح أمر هذا الجسد ، شقيّة بشدّة عنائها فيما تتكلّف من الأعمال الشاقّة والصنائع المتعبة لاكتساب المال و المتاع والأثاث وما يحتاج إليها الإنسان في طول الحياة الدنيا .

واعلم أنّ النفس لاراحة لها دون مفارقتها هذا الجسد ، كما أنّ ذلك الرجل الحكيم المبتلى بعشق تلك المرءة الفاجرة الرعناء ، لاراحة له ممّا قد ابتلي به إلّا بمفارقتها ، و التسلّي عن عشقها وحبّها ، فإذاً الموت حكمة ورحمة لنفوس الأخيار وبوار للأجساد .

وقد قيل : إنّ بعض ملوك الهند لمّا دنت وفاته وكان مؤمناً أحضر ولداً كان له قد أهّله للملك بعده ، ولم يكن له ولد سواه ، وكان قد درسه نبذة من العلم ، ومرّنه شيئاً من سياسة المملكة فقال له : يا بنيّ ! أوصيك بتقوى الله وطاعته و الخوف منه ، و عليك في أمر دينك **بعشر خصال** تنتفع بها في الآخرة .

أوّلها الإقرار بالله و بتوحيده ، و الابتهال إليه ، و بالدعاء والتضرّع إليه بالليل و النهار .

والثاني الإقرار برسله وتصديقهم و القبول منهم .

والثالث التصديق بالكتب المنزلة عليهم من عنده .

والرابع حفظ الناموس وسياسة الناس .

والخامس التواضع لله وترك التجبّر .

والسادس ترك الظلم والجور، فإنّ من ظلم عباد الله كان الله خصمه ، و من كان الله خصمه فهو مخذول لامحالة .

و السابع ترك كثرة مخالطة النساء و الاجتماع معهنّ والإصغاء إليهنّ لحديثهنّ والإقبال على قولهنّ ؛ فإنّهن يفسدن عقول الرجال [المائلين . ظ] إليهنّ .

والثامن ترك الشراب المسكر فإنّه عدوّ العقل ، وهوخليفة الله معك،فمن سلّط على خليفة الله عدوّه دمّره الله ونزع عقله بإدخاله عدوّه عليه، فإذا ذهب العقل فلا دين ولا مروءة ولا حياء ولا مراقبة ، ومن عدم هذه الخصال كان موته صلاحاً عامّاً .

والتاسع الكرم و السخاء و سماحة النفس و التفضّل على سائر الناس صديقاً كان أوعدوّاً فإنّه خلق يشرّف صاحبه .

و العاشر صدق العقول وأداء الأمانة إلى البرّ و الفاجر .

وعليك بعشر خصال تنفعك في دينك و ترى بها الخير والبركة والزيادة والرزق :

أوّلها حسن الخلق .

وثانيها حسن الأدب .

وثالثها صدق الوعد والوفاء بالعهد .

ورابعها العفو عند القدرة .

والخامس اصطناع المعروف للرجال وترك الحسد .

والسادس تحرص أن لايكون لك عدوّ ، وإن كان لك عدوّ فيكون إحسانك إليه عقوبتك له ، فإنّ الله يكفيك مؤونته ويمكّنك من ناصيته .

والسابع ترك التفريط فيما لديك من وديعة الله وأن لاتفعل فيه إلّا مايقرّبك إليه.

والثامن مروءتك غالبة على شهواتك .

والتاسع أن لاتؤثر دنياك على آخرتك ، فإنّ الله سبحانه إذا علم ذلك منك أعطاك الدنيا فإنّه تعالى أوحى إلى الدنيا : « من خدمك فاستخدميه ومن خدمني فاخدميه » .

والعاشر ترك النظر فيما لا يعنيك وإن لا تشتغل إلّا بما شغلك الله فيه .

وعليك بعشرة خصال يصلح الله بها ملكك ويديم بها سلطانك :

أوّلها أن تكون متفقّداً لأهل مملكتك حتّى لايغيب عليك شيء من أمور صغيرهم و كبيرهم ، ولتكون محيطاً بجميع أعمالهم .

والثاني أن تقابل كلّ أحد من رعيّتك على قدر عمله .

والثالث أن يكون عدلك شاملاً لهم .

والرابع أن لاتجور عليهم .

والخامس أن لاتساوي بين علمائهم وجهّالهم في العطيّة و المنزلة .

والسادس أن تولّي على الناس من قِبلك الأخيار والأحرار، وإيّاك أن تولّي عليهم العبيد و المماليك و أولاد الزنا . واعلم أنّ أعمال ولاتك[1] منسوبة إليك ، إن عدلوا فيك قالوا : عدل السلطان وإن جاروا فيك قالوا : جار السلطان .

و السابع أن لاتستعمل من أصحاب الرأي و المشورة من هو مخالف لك في دينك فإنّه لاينصحك و إن نصحك في أوّل أمره غدرك في آخره .

والثامن أن يكون وزيرك أرفع أهل زمانك درجة في الدين و الدنيا جميعاً ، ويكون هو من الأخيار فقد قيل « من لا أصل له لا فرع له ، ومن لا فرع له لاثمرة له و شجرة لا تثمر فالنار أولى بها » .

و التاسع إنصاف المظلوم من الظالم و منع القويّ عن التعدّي على الضعيف .

و العاشر ردّ الحقّ إلى أهله و الانتصار لهم .

فإذا كملت هذه الثلاثون خصلة فيك رجوت لك كمال الأمور في الدين و الدنيا جميعاً و الملك أيضاً ، واستوجبت أن تكون ملكاً عادلاً فتنال بذلك الدرجة عند الله وحسن

(١) كذا في النسخة (ر) وفي الاصل « ولايتك » .

العاقبة في المعاد و المنقلب .

فتأمّل يا أخي هذه الوصيّة و تدبّرها و انظر شفقة هذا الملك العادل على ولده ، و كيف رضي له مارضي لنفسه كذلك يجب على الحكيم أن يوصي تلاميذه ، و على كلّ رئيس أن يوصي رعيّته ومن يخلفه ويقيم مقامه من بعده .

وكان ممّا وصّى به رعيّته ماسنذكره في هذا الموضع :

و يقال : إنّه لمّا فرغ من وصيّته ولده الّذي أهّله للملك بعده جمع علماء مملكته و أهل الفضل و الشرف وهم من أهل المنازل و الرتب الّذين هم أصحابه وأربابه فقال :

أيّها العلماء الّذين كانوا ولاة أمري و أهل نصيحتي قد كنتم لي نصحاء و عبيداً حسب طاعتكم لي بنيّة صادقة فكانت ألسنتكم بشكري و الدعاء لي و حسن الثناء عليّ ناطقة ، و كنت لكم مكرماً ، وبحقّكم عارفاً ، و عليكم مشفقاً ، و إلى جماعتكم محسناً ، فكونوا لهذا الغلام كما كنتم لي يكون لكم مثل ما كنت لكم .

ثمّ قال لجميع الناس : اتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، واجمعوا على التقوى كلمتكم وتودّدوا بينكم ، وليرحم كباركم صغاركم ، وأطيعوا ولاتكم. وإيّاكم والنفاق والخلاف والعداوة و المنازعة والمجادلة في أديانكم ومذاهبكم ، فإن في ذلك صلاحاً لأنفسكم ، و اجتماعاً لشملكم ، ودعة لقلوبكم ، و دفاعاً عن بلادكم ولايطمع فيكم عدوّكم ، ويخرّب بلادكم ولا تفاوتوا في المذاهب ، ولا تلاعنوا فتهلكوا عن بكرة [أبيكم . ظ] [١].

واعلموا أنّ في اجتماع الكلمة و ترك الخلاف بركة لمن أقبل عليه وحسناً لمن التجأ إليه ، فإنّ القضبان إذا جمعت ضعافاً و ضمّ إليها من جنسها الضعاف حتّى يكون قبضة عسر كسرها فإذا فرّقت كسرت في أهون سعي . وقد علمتم الّذي عاهدتموني عليه وما وصّيتكم به من أمر هذا الغلام الّذي ربّي بينكم ، وإيّاكم والتغيير عليه ونقض العهد فإنّه ليس المنكوث عليه بأسوء حالاً [٢] من الناكث ، فعليكم بالسمع والطاعة ، وتمّموا

---

(١) اى فى صباح اليوم الذى مات فى ليله أبوكم .

(٢) كذا فى النسخة (د) وفى الاصل « بأسوء حال » .

له ما بدأتم به يتمّم الله لكم أفضل الأُمور ويحسن حالكم على يديه وهذا ملككم وأخذ بعضده ودعاله و أشهد بعضهم على بعض و أشهد الله عليهم ، ولحقته سكرة الموت ، واعتقل لسانه ، وضعفت حياته ، و عرق جبينه ، واعتنقه ولده ، و فاضت روحه في يده ، و حزنوا عليه أهل مملكته ، ثمّ قضى الله سبحانه فيمن بعده بما أحبّ وتصرّفت بهم الأحوال.

اعلم يا أخي أنّ النفوس الشريرة بعد مفارقة الأجساد تكون عن جنود إبليس و حزب الشياطين فإن الإنسان العاقل إذا سمع بأوامر الشارع ونواهيه و وعده و وعيده وزواجره ، ثمّ لم يأتمر بحدوده ولم ينفذ لأحكامه ، ثمّ أهمل أمر نفسه وأعرض عن النظر في مصالحها بعد مفارقتها الجسد ، بل جعل أكثر عنايته في إصلاح شأن هذا الجسد ، وأكبر اهتمامه في تربيته ، واشتغل الليل والنهار بما يصلح الجسد من المأكولات والملبوسات والمراكب والمساكن وجمع الأثاث والمال وزينة الدنيا واستغرق في الشهوات الجسمانيّة ، وغاص في اللذّات الجرمانيّة لا يفكّر في غيرها ، ولا يهمّه سواها ، و تمنّى الخلود في الدنيا مع علمه بأنّه لا يترك هناك ، وأفنى عمره كلّه ساهياً لاهياً إلى الممات ، ثمّ جاءت سكرة الموت الّتي هي مفارقة النفس الجسد على كره منها وبقيت عند ذلك نفسه بلا حسد فسلبت إلّا الحواسّ الّتي كانت تنال بها اللذّات الجسمانيّة وقد اعتادتها بطول المدة[1] فيها و انطبع في وهمها وهمّتها النزوع إليها ، ولا وصول لها إليها إلّا بهذا الجسد وأعضائه . وقد منعت ذلك فيكون مثلها عند ذلك كمثل من سملت عيناه[2]، وصمّت أُذناه، وخرس لسانه وسدّت منخراه ، وشلّت يداه ، وقطعت رجلاه ، وعمي قلبه ، وفارقه أحبّاؤه ، وجفاه أصدقاه ، وتركه إخوانه ، وهجره جيرانه ، وظفر به أعداؤه ، وشمت به حسّاده ، وما بقي معه إلّا الروح بلا جسد معذّباً، فلا هو حيّ يلتذّ بالعيش ، ولا ميّت فيستريح من العذاب ، كما ذكر الله سبحانه[3] « لا يموت فيها ولا يحيا » فتبقى كلّ النفوس عند ذلك تائهة بوهمها ، هائمة بهمومها في طلب ما قدفاتها ممّا قد اعتادته من لذّات هذه المحسوسات وقد منعت الوصول إليها و العود ، تتمنّى وتقول بهمّتها[4] : « يا ليتنا نردّ و لا نكذّب

(١) الدربة : الخبرة والتجربة .
(٢) في الاصلين « سلمت عيناه » سهواً .
(٣) سورة الاعلى : ١٣
(٤) سورة الانعام : ٢٧ .

بآيات ربّنا» وقال:[١] «وهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردّ فنعمل غير الّذي كنّا نعمل» وقال الله سبحانه :[٢] «ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه» فعند ذلك تبقى بحسرتها وندامتها مؤتلمة بذاتها معذّبة من سوء عاداتها عمياء في جهالتها دون فلك القمر سابحة في قعر الأجسام المدلهمّة ، غريقة في بحر الهيولى هائمة في هاوية عالم الكون والفساد ، مع أبناء جنسها من الأمم الخالية إخوان الشياطين وجنود إبليس أجمعين ، ملعونين كما ذكر الله سبحانه[٣]: «كلّما دخلت أمّة لعنت أختها» إلى آخر الآية، وهم متعلّقون بأبناء جنسهم من النفوس المتجسّدة بالوسوسة لها إلى طلب شهوات هذه اللذّات المحسوسات ضالّين مضلّين في جهنّم خالدين ، كما ذكر الله سبحانه[٤] فقال : «فكبكبوا فيها هم والغاوون * وجنود إبليس أجمعون» وأمّا اللذّات الروحانيّة فهي بضدّ تلك الشهوات .

وإذ قد فرغنا من ذكر الآلام الّتي تصل الى النفوس الشريرة بعد مفارقتها أجسادها الّتي هي سجون لها فاعلم[٥] يا أخي أنّ اللذّة والراحة والسرور والنعيم الّتي تجدها النفوس الخيرة الفاضلة الملكيّة بعد مفارقتها أجسادها يقصر الوصف عنها بحقائقها ، ولا يبلغ فهم البشر كنه معرفتها ، لأنّها روحانيّة أبديّة سرمديّة كما ذكر سبحانه :[٦] «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين» ولكن نذكر منها طرفاً ، ونشير إليها إشارة وهميّة حسب ما يمكن ، ونضرب لذلك مثلاً يشبه الرمز و الإشارة كما يقرب من فهم المتفكّرين ويتصوّر في أفهام المبتدئين .

ذكر أنّه كان فتى من أولاد الملوك شاباً أحسن الوجه ، كامل الصورة تامّ البنية ، جميل الأخلاق ، كريم الأفعال ، عادل السيرة . عشق جارية حسناء من أقاربه من بنات الملوك ، فتزوّجها وزفّت إليه كما يليق بأبناء الملوك من الكرامات ، وعاش معها زماناً طويلاً في عزّ سلطانه ونعمة مملكته ولذّة شبابه وسرور نعمته ، آمنين بلا تنغيص عيش من عوارض الحدثان .

(١) سورة الاعراف : ٥٢ .
(٢) » الانعام : ٢٨ .
(٣) » الاعراف : ٣٧ .
(٤) » الشعراء : ٩٤ .
(٥) كان في الاصلين « واعلم » وعليه لم تكن جملة « اذ قد فرغنا » تماما .
(٦) سورة السجدة : ١٧ .

ثمّ فرّق الدهر بينهما بموتها ، و زال الفتى عن ملكه بغلبة عدوّ ظهر عليه ، و اغترب عن بلاده ، و ساح في أرض الغربة ، وافتقر ، وأصابه الذلّ والمرض ، وأدركه الهرم ، وضعفت بنيته ، و ذهبت قوّته ، و كلّ بصره ، وثقل سمعه ، وأصابه العرى والجوع ، وتمنّى الموت ممّا كان فيه من المحن والبلوى والجهد والشدّة ، فدخل خربة ، فنام فيها على مزبلة ورماد ، يستريح بلين وطاءتها ، فوجد راحة فنام ، فرأى في منامه كأنّه شابّ طريّ كما كان في صباه ، و قد رجعت إليه قوّة بدنه ، ونشاط نفسه ، وأيّام شبابه ، كأنّه هو في ملكه و عزّ سلطانه ، ونعيم آبائه وسرور أُمّهاته ، وإذا هو بتلك الجارية كهيئتها يوم عشقها و تزوّج بها ، من حسنها وجمالها ، فعانقها و التزمها ونال منها بغيته وشهوته كما يدرك بدءاً وهما على سرير الملك ، يحملهما الريح حيث أراد من اللذّة والفرح والسرور ، اضطرب في نومه وتحرّك وانتبه فإذا هو في الخربة على تلك المزبلة والكلاب حوله تنبح عليه .

فإذا ترى يا أخي كم بين حال نفسه في ذلك المنام وما وجد من اللذّة و السرور و الفرح ، وبين حالته لمّا استيقظ من النوم من الهموم والغموم والأحزان والجهد و البلوى والشدائد . فهكذا القياس بين أحوال النفوس الخيرة و كونها مع الأجساد ، و بين كونها مفارقة للأجساد من اللذّة والفرح و السرور بالإضافة إلى حال كونها مع الأجساد وما يلحقها من الغموم والهموم والأحزان والمصائب والشدائد . نجّانا الله وإيّاك أيّتها الأخ من آلام نيران جهنّم ، عالم الكون والفساد ، وأوصلك وإيّانا إلى نعيم جنّات عالم الأفلاك وملكوت السماوات ، وجوار الملائكة المقرّبين ، مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً ، ذلك الفضل من الله و كفى بالله عليما .

واعلم يا أخي أنّ العلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان ، فالأنبياء عليهم السلام أطبّاء النفوس وأولياؤهم ، وهذا مذهب إخواننا الكرام ، و إليه ندعو إخواننا الباقين ، فكن أيّتها الأخ البارّ الرحيم معيناً لإخوانك ومساعداً لهم توفّق إن شاء الله ، فلنشرع الآن في معالجة الأبدان ملخّصاً ، و إن كان علم الأديان في اللفظ و الرتبة مقدّماً على علم الأبدان ، لكن إذا كان البدن معلولاً لا يمكنه الإتيان بما أُمر به من أُمور الدين ، بل مداواة علل النفس وأمراضها أولى بالعلاج ، بل علل النفس لانهاية لها .

فينبغي للإخوان أن يساعدوا بعضهم بعضاً كما ذكروا أنّه كان رجل من الحكماء رفيقاً بالطبّ ، دخل مدينة من المدن فرأى عامّة أهلها بهم مرض خفيّ وهم لا يشعرون بعلّتهم ، ولا يحسّون بدائهم الّذي بهم ، ففكّر ذلك الحكيم في أمرهم ، و كيف يداويهم ليبرئهم من دائهم ، ويشفيهم من علّتهم الّتي استمرّت بهم، وعلم أنّه إن أخبرهم بما هم فيه لا يسمعون قوله ولا يقبلون نصيحته ، بل ناصبوه العداوة واستعجزوا رأيه واستقصروا عقله واسترزلوا علمه ، فاحتال في ذلك لشدّة شفقته عليهم وتحنّنه لهم و حرصه على مداواتهم طلباً لمرضاة الله ، بأن طلب في تلك المدينة رجلاً من أفاضلهم كان به من ذلك الداء شيء يسير فخلابه وداواه ورفق به ، حتّى سقاه من شربة كانت معه قد أعدّها لمداواتهم، وسعّطه[1] بدخنة كانت معه لمعالجتهم ، فعطس ذلك الرجل من ساعته ، و وجد خفّة في بدنه و راحة في حواسّه وقوّة في قلبه ، فشكر له وجزاه خيراً ، وقال له : هل لك من حاجة أقضيها لك مكافاة لما اصطنعته إليّ من الإحسان في مداواتك لي ؟ قال: نعم ، تعينني على مداواة أخ من إخوانك ، فقال : سمعاً وطاعة فتوافقا على ذلك وأتيا رجلاً آخر ممّن رأيا أنّه أقرب إلى الصلاح فخلوا به ورفقا وداواه بذلك الدواء فبرىء من ساعته ، فلمّا أفاق من دائه شكرهما خيراً وبارك فيهما ، وقال : هل لكما من حاجة أقضيها لكما مكافاة لما صنعتما إليّ من الإحسان والمعروف ؟ فقالا : نعم تعيننا على مداواة أخ من إخوانك فقال : سمعاً وطاعة فتوافقوا على ذلك ولقوا رجلاً آخر فعالجوه وداووه مثل الأوّل فبرىء و قال لهم مثل قول الأوّلين ، ثمّ تفرّقوا في المدينة يداوون الناس واحداً بعد واحد في السرّ ، حتّى برّؤوا ناساً كثيراً و كثر أنصارهم وأعوانهم ومعارفهم، ثمّ ظهروا للناس وكاشفوهم بالمعالجة وكابروهم بالمداواة قهراً ، وكانوا يلقون واحداً بعد واحد من الناس فيأخذ منهم جماعة بيديه وجماعة برجليه و يسعّطه الآخرون كرهاً و يسقونه جبراً ، حتّى برّؤوا أهل المدينة كلّهم .

واعلم أيّها الأخ أيّدك الله وإيّانا أنّ هذا مثل الأنبياء عليهم السلام في مبدء دعوتهم

(١) سعط الرجل : أدخل الدواء في أنفه .

للناس من ادّكارهم ماقدنسوه من أمر الآخرة والمعاد،وتنبّههم من نوم الغفلة ورقدة الجهالة الّتي هي مرض النفوس .

وذلك أنّ النبيّ ﷺ في أوّل مبعثه ومبدء دعوته ابتدأ أوّلاً بزوجته خديجة ثمّ بابن عمّه عليّ عليه السلام ثمّ بمملوكه بلال وسلمان وأبي ذرّ وصهيب وغيرهم حتّى التأموا تسعة وثلاثين رجلاً وامرأة .

ثمّ دعا رسول الله ﷺ أن يعزّ الله الإسلام وأهله فاستجيبت دعوته ، فأسلموا و التأموا أربعين نفساً أظهروا الدعوة . والقصّة طويلة معروفة كيف كانت .

وهكذا فعل موسى عليه السلام لمّا دخل في مصر أوّل مبعثه فابتدأ أوّلاً بأخيه هارون و غيره من علماء بني إسرائيل أولاد يعقوب حتّى التأم معه سبعون رجلاً سرّاً ثمّ أظهروا وقصدوا دعوة فرعون وقصّته تطول .

و كذلك فعل المسيح عليه السلام في بيت المقدس في أوّل مبعثه .

وحيث انتهينا إلى هذا الموضع فلنذكر شيئاً من أمر المعاد :

واعلم أنّ أكثر الناس المقرّين بالمعاد شاكّون فيه متحيّرون لايدرون حقيقته ، ولايعرفون طريقته ، وهذا من أكبر الأمراض ، وقد نشأ من التقليد ، يروي الآخر عن الأوّل ، ويحكي التابع عن المتبوع وما مثلهم في ذلك إلّا كجماعة عميان يضع أحدهم يده على كتف الآخر ويسيرون كقطار الجمال ويمشون،فإن لم يكن لهم قائد بصير وإلّاتاهوا كلّهم[1] ، وأُعيذك بالله أيّتها الأخ أن تكون منهم بل كن قائداً بصيراً تهدي الضلّال وطبيباً رفيقاً تبرىء الأكمه والأبرص ، ولاتكن سقيماً محتاجاً إلى مداو .

واعلم أنّ الأطبّاء إذا اجتمع رأيهم على مداواة عليل ، و اتّفقت كلمتهم على دواء واحد ، وكانوا مستبصرين بتلك العلّة وتعاونوا على علاجه مشفقين متناصحين غيرمتنازعين أبرأ الله ذلك العليل على أيديهم في أقرب مدّة ، وشفاه بأسهل سعي . و أمّا إذا اختلفوا و تنازعوا و تناقض بعضهم بعضاً خذل العليل من بينهم و هلك ، ولا ينفعه الله بهم ، ولا ينتفعون هم بعلمهم .

(١) كذا في الاصلين ، والصواب اما زيادة « لم » أو زيادة « والا » .

فكن أيّها الأخ الرفيق مساعداً لإخوانك وموافقاً ومناصحاً ينفع الله بك العباد و يصلح بك شأنهم كما وعد فقال: [١] «فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفّق الله بينهما».

و قد سمعت خبر الحكمين يوم صفّين لم يريدا إصلاحاً [٢] بل خدع كلّ واحد صاحبه ومكربه، وأضمر الغيلة فلم يوفّقوا في الصلح على طريق الرشاد، وقد غضب عليهما ربّ العباد. ورجع أمير المؤمنين عليه السلام غير راض بهذا الفعل القبيح.

واعلم أيّها الأخ البارّ الرحيم أنّه لا يصدقك في المودّة ولا يخلص لك السريرة ولا يمحّضك النصيحة من لا ترى أنّه يجازي على مودّتك، و يكافي على محبّتك بعد مفارقة النفس الجسد، ولا يذكرك بخير ولا يدعو لك بدعاء صالح، ولا يرى أنّك أخلصت له المودّة مع أنّك قد بذلت له العمر النفيس في طاعته ومنفعته فإذاً لا تغترّ بمن لا يريد لك مثل ما تريد له، و كذلك لا تهتمّ ولا تغترّ بمن لا يريد في معاونته لك - إن وقع منه في حقّك نادراً - إلاّ جرّ المنفعة إلى جسده أو دفع المعرّة عنه.

واعلم أنّ كلّ متعاونين في طلب منفعة ممّا يكون فيه خوف التلف على جسد أحدهما وسلامة الآخر، فإنّه يودّ كلّ واحد منهما إن يسلم جسده و إن تلف جسد صاحبه، ليفوز هو بتلك المنفعة ويكون هو المغبوط و صاحبه المغبون الهالك، فالفرار الفرار من مثل هذا، فإنّه يريد هلاكك لمنفعة يسيرة يجرّها لنفسه الشريرة.

واعلم أيّها الأخ أنّه ليس هكذا كان رأي إخواننا في معاونة بعضهم بعضاً في طلب صلاح الدين والدنيا، بل بالعكس من ذلك، وذلك أنّ من كرم أخلاقهم وحسن اعتقادهم يرون رأي الرجل الموافي والمؤالف و المحبّ المناصح، بل يفديك بنفسه تقرّباً إلى الله سبحانه لأجل بقائك.

كما فعل الرجل الحكيم الّذي كان وزيراً لخيشوان ملك الهياطلة [١] على ما يحكى

(١) سورة النساء ٣٤.

(٢) بهامش النسخة (ر): «هذا القول معادل على تشيع اخوان الصفاء رحمهم الله» **أقول**: وهذا يؤيد ما ذكره العلامة القاضي في المقدمة من أن المؤلف استفاد كثيراً من رسائل اخوان الصفاء.

(٣) الهياطلة جمع الهيطل: اسم لبلاد ما وراء النهر، جنس من الترك او الهند.

عنه في التواريخ أنّه لمّا قصد فيروز ملك الفرس لقتاله بجموعه ، وبلغه الخبر و علم أنّه لايطيق مقاومته جمع وزراءه و استشارهم في ذلك ، فمنهم من أشار عليه بالقتال . ومنهم من أشار عليه بالحيلة ، فقال أحد من أشار عليه بالحيلة و كان رجلاً حكيماً : أيّها الملك عندي حيلة لطيفة إن قبلتها وعملت بها نجوت أنت وجيشك و رعيّتك وسلم بلادك و هلك عدوّك ، فقال الملك : هلمّ أشر عليّ برأيك وحكمتك ، فقال الحكيم للملك : اُخل لي المجلس ففعل ، فقال : الرأي عندي أن تجمع خزائنك و تتوجّه إلى موضع كذا فإنّه موضع حريز ، وتقوم أنت وجيشك وتمرّ إلى موضع كذا و كذا ، و تتركني في مكاني هذا بعد أن تقطع يدي ورجلي وتسمل عيني وتظهر الغضب عليّ ، وتقول لمن حولك إنّك ظهرت منّي على خيانة و قلّة نصيحة وهذا عقوبة ذلك ، ثمّ ترحل إذا عملت ذلك بي وعلمت أن قد قرب منك ملك الفرس ، وتتركني بمكاني وتنتظر إلى أن تتمّ حيلتي . فقال الملك: مارأيت بالله ولا ظننت أنّ أحداً من الناس تسمح نفسه بماسمحت به نفسك فقال الحكيم : قد سمح قبلي بمثل هذا ذلك الرجل الخبّ [1] العاقل ، فقال الملك : حدّثني كيف كان حديثه ، قال الحكيم :

ذكروا أنّه كان قوم من الغوّاصين ذهبوا إلى جزيرة ليخرجوا اللؤلؤ فصحبهم رجل خبّ ليحتال عليهم فيفوز ببعض مايستخرجونه ، فلمّا بلغوا ما أرادوا انصرفوا راجعين ولم يظفر الرجل بشيء ممّا أراد غير ماوهبوا له من صغار اللؤلؤ لخدمته لهم فخرج عليهم القطّاع في طريقهم ، فلمّا رآهم الغواصّون بلع كلّ واحد منهم ماكان معه من ذلك الجوهر الثمين شفقة من أخذه ، ولم يكن مع الخبّ شيء يشفق عليه فلم يبلع شيئاً ، فلمّا أخذهم القطّاع فتّشوهم فلم يجدوا معهم شيئاً سوى صغار اللؤلؤ فقالوا لهم : أين خبأتم الكبار ؟ فقالوا : لم نجد شيئاً غير هذا قالوا : بل بلعمتوها فلنفتّش أجوافكم فحبسوهم تلك الليلة وعزموا على شقّ أجوافهم ، فجعل الغوّاصون يقولون [2] طول الليل ، ففكّر الرجل الخبّ في نفسه وكان رجلاً عاقلاً فخلابهم وقال لهم : اُخبركم أنّي ماصحبتكم إلاّ لكذا

(١) رجل خب : خداع .

(٢) بهامش الاصل : مشتق من النال والقيل الذى لاأصل له .

و كذا فلم أظفر بشيء ممّا أردت ، وقد علمت بأنّه ماعندكم إلاّ وقد بلغ شيئاً غيري و لئن شقّ جوف أحدكم فوجد فيه شيء لنهلكنّ بأجمعنا وقد رأيت من الرأي أن أفديكم بنفسي فلعلّكم تسلمون ، وهو أن نقول لهم غداً : إن كان ولا بدّ شقّوا بطن واحد منّا فإن وجدتم شيئاً فرأيكم في الباقين ، وإن لم تجدوا شيئاً فاعلموا أنّنا صادقون ، ولكن أمهلونا لنقترع بيننا فمن خرجت قرعته فدونكم ماتريدون ، فإن أجابوا إلى ذلك احتلت أنا حتّى تخرج قرعتي فإن تلفت نفسي و سلمتم أسألكم أن تحسنوا إلى ذرّيّتي و تواسوهم ممّا معكم إذا سلمتم إن شاء الله تعالى ، ففعل به ذلك فلم يوجد في جوفه شيء وسلم القوم .

ويا أيّها الملك ! اعلم أنّه إن ظفر بناعدوّنا فأنا هالك لا محالة مع غيري ، و أنا أرجو إذ تمّت حيلتي أن يسلم الملك و حاشيته ورعيّته وذرّيّتي معهم وهلك عدوّنا ، و تلف جسدي . ومع هذا أرى أنّ ذلك الرجل أسمح منّي ؛ لأنّه كان شاباً و أنا رجل شيخ وقد سئمت الحياة ، ومع هذا فإنّي أعلم أنّ الملك إذا سلم يحسن إلى ذرّيّتي أكثر ممّا كان يأمل هذا الرجل منهم ويكون في من حسن الأحدوثة بعدي مثل مالذلك الرجل ومع هذا فإنّ الّذين أفديهم بنفسي أكثر عدداً من الّذين فداهم هو بنفسه ، ثمّ أمر الملك فصنع به ماأشار إليه ، فلمّا قرب فيروز ملك الفرس رحل هو مع جنده و تركه مكانه فلمّا رآه أصحاب فيروز ملك الفرس على تلك الحالة سألوه عن خبره و من فعل به ما هو فيه ، فزعم أنّه كان أحد وزراء خيشوان ملك الهياطلة ، و أنّه استغشّه لمّا أشار إليه بالصلح و أداء الخراج إلى فيروز ملك الفرس و كره منه ذلك و فعل به ماترون ، فرجع [1] خبره إلى فيروز وأحضره وسأله عن ذلك فأخبره بمثل ذلك ، و صدّقه فيروز و قال : أصبت بما أشرت به عليه ، فقال له : أيّها الملك فأدركني برحمتك واحملني معك لئلاّ تفترسني السباع فإنّي أدلّك على طريق هو أقرب من هذا الّذي تسلكه و أخفى فقبل منه نصيحته و قال : تزوّدوا ليومين وسلك بهم مسافة بعيدة فلمّا ساروا يومين فنى الزاد و الماء فقالوا له : كم بقي فقال : قليل فساروا سيراً عنيفاً فساروا يومين ، فلمّا كان من الغد

(١) الصواب : فرفع .

قالوا له : كم بقي قال : لاأدري إنّي سلكت هذه المفازة و أنا بصير و الآن ترون حالي اطلبوا لأنفسكم النجاة فتفرّقوا في البرّيّة وهلك أكثرهم ونجا فيروز مع نفر يسير من خاصّته ورجع سالماً إلى بلده هو وبعض جيشه ، وصالحه خيشوان وصارت ذرّيّة ذلك الشيخ أعزّ من في مملكته وأغناهم وبقي حسن الأُحدوثة عن الشيخ في إخوانه و أصدقائه و أبناء جنسه ، فكذا كان رأي الفضلاء الكرام في معاونة بعضهم بعضاً لنصرة الدين وطلب المعاش إذا علموا أنّ في تلف أجسادهم صلاحاً لإخوانهم في أمر الدين و الدنيا سمحت نفوسهم بتلف أجسادهم لأنّهم يؤمّلون مثل ما أمّل ذلك الشيخ الحكيم وذلك الشابّ العاقل و زيادة عليها ، وذلك أنّهم يرون و يعتقدون أنّ من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله و نصرةً للدين وصلاحاً للإخوان يصلون إلى المراتب العالية في الآجلة لايفنى نعيمها ، و لهذا يقدمون على ألم ساعة لراحة أبديّة لاتزول .

وهكذا يوم أُحد لمّا اشتدّ الأمر وانهزم الناس وبقي رسول الله ﷺ و نفر يسير معه فقال رسول الله ﷺ : من ينصرني اليوم ويفديني بنفسه وله الجنّة ؟ فقام ثلاثة نفر من الأنصار في وجهه كلّما رماه المشركون حجزوا عنه بأجسادهم وجعلوها وقاية لسلامة رسول الله ﷺ حتّى استشهدوا جميعاً ، لأنّهم علموا أنّ في بقائه عليه السلام نصرة للدين و صلاحاً لإخوانهم المؤمنين ، وأنّ رسول الله ﷺ لم يستفزّهم [1] مخافة من الموت ولا حرصاً على الحياة ولكن من أجل أنّ الدين بعد لم يتمّ ، والشريعة لم تكمل ، فلمّا نزلت [2] : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي » تمنّى رسول الله ﷺ الموت و نزلت : « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً » إلى آخر السورة ، فقال رسول الله ﷺ : « نعيت إليّ نفسي » فقالوا : يا رسول الله لو سألت الله أن يبقيك في أُمّتك إلى يوم القيامة ينتفعون بك ، فقال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، أبى الله أن يجعل لأوليائه الخلود في دار الدنيا ، ثمّ قال : « و اشوقاه إلى أخواني الأنبياء » ثمّ

(١) استفزه : اخرجه من بيته .

(٢) سورة المائدة : ٤ .

[ما] (١) مكث إلّا قليلاً حتّى توفّي ومضى إلى الله فأكرم مثواه، عليه أفضل الصلوات و أزكى التحيّات.

وهكذا أصحاب الحسين عليه السلام فدته بأنفسهم، وسارعوا إلى جنّة عرضها السماوات والأرض أُعدّت للمتّقين.

وروى أبوهريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «مارأيت مثل الجنّة نام طالبها، وما رأيت مثل النار نام هاربها».

وكتب رجل إلى صالح بن عبدالقدّوس (٢).

الموت باب وكلّ الناس داخله * فليت شعري بعدالباب ماالدار؟

فأجابه صالح:

الدار جنّة عدن إن عملت بما * يرضي الإله وإن فرّطت فالنار

هما محلّان ماللناس غيرهما * فانظر لنفسك ماذا أنت مختار

وقال (٣) رجل من الأنصار للنبيّ صلى الله عليه وآله: من أكيس الناس؟ قال: «أكثرهم ذكراً للموت وأشدّهم استعداداً له، أُولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة».

وقيل: عزّى صوفيّ رجلاً عن ابن له صغير مات فقال: الحمد لله الّذي نجّاه ممّا ههنا من الكدر، وخلّصه ممّا بين يديه من الخطر.

وقال الشيخ الجليل ناصر البويهيّ رحمه الله:

إذا رمقت عيناك ما قد كتبتُه * وقد غيّبتني يوم ذاك المقابر

فخذ عظة ممّا رأيت فإنّه * إلى منزل صرنا به أنت صائر

والحاصل ممّا ذكرنا في هذا الفصل أن يعتبر الناظر أنّه لابدّ من الموت فإذا تيقّن ذلك فينبغي أن يحلّي نفسه بالتواضع ويخلّيها من التكبّر.

---

(١) زيادة من النسخة (د).

(٢) كان حكيماً أديباً فاضلا شاعراً مجيدا يجلس للوعظ في مسجد البصرة، اتهم بالزندقة فقتله المهدي بيده نحو سنة ١٦٠ هـ، وفي شعره حكم وأمثال كثيرة. انظر معجم الادباء (١٢: ٦-١٠) و الاغاني (١٣: ١٤) وطبقات الشعراء لابن المعتز: ٩٠-٩٢ والاعلام: ٤٢٥.

(٣) رواه بابسط من هذا الدليمي في الارشاد: ٧٢ باب ذكر الموت ومواعظه.

﴿ فصل١٢ ﴾

✡(في التواضع و التكبر)✡

فلنتكلّم أوّلاً في ماهيّة التواضع والتكبرّ ، ثمّ في الترغيب في التواضع و التحذير عن التكبّر . والتواضع أن لا يذهب المرء بنفسه عمّا ليس له أن يذهب بها عنه ، أو هو مجانبة الترفّع عمّا لاضعة فيه على الإنسان عقلاً ولا شرعاً . و التواضع والتكبّر ضدّان ينتفي أحدهما بالآخر ؛ إذلا يجتمع التواضع و التكبّر في وقت واحد من وجه واحد ، والتواضع رسم مأخوذ من معنى لفظ التواضع ، فإنّه يقال : « تواضع » كما يقال «تساكر» أي أرى من نفسه السكر وليس بسكران ، كما قال زيد الخيل [١] :

ونبّئت أنّ ابناً لسيماء ههنا * تغنّى بناسكران أومتساكر

وتبعه الفرزدق في هذا المعنى فقال [٢] :

أسكران كان ابن المراغة إذهجا * تميماً بظهر الشام أو متساكر

و كذلك يقال تباله و تحامق ، فالمتواضع [٣] الّذي يري من نفسه في حسن العشرة و المقاربة أنّ منزلته متّضعة وليست كذلك . كما أنّ المتساكر من يتشبّه بالسكران وليس كذلك ، و المتغابي من يتغابى وليس بغبيّ كما قيل [٤]:

ليس الغبيّ بسيّد في قومه * لكنّ سيّد قومه المتغابي

---

(١) في الاصلين « زيدا الخليل » هو زيد بن مهلهل الطائي ، من أبطال الجاهلية ، خطيب لسن وشاعر محسن ، لقب « زيد الخيل » لكثرة خيله ، و كان موصوفاً بالكرم ، وفد على النبي صلى الله عليه وآله سنة ٩ ﻫ في وفد طي، فأسلم وسرّ به النبي وسماه زيد الخير وقال له : «ماوصف لي أحد في الجاهلية فرأيته في في الاسلام الارأيته دون الصفة غيرك» (نقلناه عن الاستيعاب) مات منصرفه من المدينة و قيل : في آخر خلافة عمر . انظر الاغاني (١٦:٤٦) الاصابة (١:٥٥٥) الاستيعاب (١:٥٤٣) اللالي(١:٦٠) الاشتقاق : ٣٩٥ الخزانة (٢:٤٤٨) شواهد الالفية للعيني (١ : ٣٤٦) الوشح :٨١ .

(٢) أنشده للفرزدق سيبويه في كتابه (١:٢٣) وعنه في ديوانه (٢: ٤٨١) و اللسان واساس البلاغة مادة (سكر) .

(٣) في الاصلين « فالتواضع الذي » .

(٤) قاله ابو تمام . انظر ديوانه : ١٨ .

وعلى هذا كان المتكبّر الّذي يتكلّف التشبّه بمن هو أعظم منزلة منه ، ولمّا كان التكبّر على مضادّة التواضع كان في تحديد التواضع تحديد التكبّر فيقال :

التكبّر تكلّف [١] بالمتكلّف للارتقاء إلى رتبة لم ينلها الاستحقاق ، أوهو الترفّع بشرائط حسن العشرة و قصد التفرّد ببعض الرتب في غير موافقة الدين ، أو طلب التعزيز بمجانبة مايكسب ودّاً أو أجراً أو حمداً ، وذلك مثل أن يتعزّز الجاهل بأن لايعود جاره الضعيف ، ولا يسمع لصديقه اللهيف ، ولا يقف على الفقير إذا سلّم عليه و ساءله ، و يحتقر نفسه ودّ الناس وحمدهم ، ولا يغتنم أجر الله و ثوابه ، أويطلب الامتياز من الناس بمجرّد ميل النفس إلى التفرّد على طريق العدل في الشرع والعقل ، وهو أن يعتقد المعتقد نقيصة فيما هو فضيلة ، ويعامل صاحبها معاملة المعتقد فيه ذلك ، وذلك أن يعتقد الإنسان أنّ كثرة بشره و تألّفه نقيصة وهو في الحقيقة فضيلة ، ويعامل الناس فيه معاملة من يعتقد ذلك أوهو أن يغلب على الإنسان في المعاشرات الاستخفاف بالناس ويعاملهم معاملة من يرى لنفسه من الفضل أكثر ممّا هو لهم أوهو سرف وإفراط في استكبار الحال يدع معه المرء طريق الرأي في ماله وعليه .

وقدقيل : إنّ التكبّر هو ترفّع الإنسان عمّا لاضعة فيه [ولكنّ الترفّع عمّا لاضعة فيه [٢]] لا يسمّى كبراً حتّى يقع متقرّغاً عن فرط الأعمال بالحال ، و الرجل قد يغلب على ظنّه في شيء أنّه ضعة مع استقلاله لأمره وتحقّقه لضعفه ومقته التيه [٣] وأهله فلايعدّ متكبّراً ، وترفّع الإنسان عمّا لاضعة فيه قديكون مشتركاً بين المتكبّر و المتواضع و يستحيل أن يقع الشركة بين المتضادّين في الخلّة الخاصّة .

وقيل : إنّ التكبّر هو شدّة الإعجاب وإفراطه ، ولكن شدّة الإعجاب و إفراطه يلائم التواضع ولا يضادّه ، ألا ترى أنّ المتواضع وإن أفرط إعجابه بالتواضع لايسمّى متكبّراً ، والعاشق وإن أفرط إعجابه بمعشوقه كان ذلك أدعى له إلى التواضع له وأسرع لحدّه ، و كذلك قولهم هو إفراط الإعجاب بنفسه وحاله غير مستقيم ، لأنّ الإعجاب

(١) وانظر في حقيقة التكبر جامع السعادات (١: ٣٢٣ و ٣٥٣) واحياء العلوم (٣: ٣٤٣ و ٣٥٠)

(٢) زيادة من النسخة (ر) .

(٣) التيه ـ بالكسر ـ هنا : التكبر .

بالنفس وإن أفرط إذا لم يتشعّب منه استخفاف بغيره لم يسمّ تكبّراً ، وقد يكون نفس المرء مستحقّة فرط الإعجاب بها لفائق من الجمال ، و تكامل من محامد الخصال ، فهي يستحقّ أن يعجب بها من حبّ فضلها ، ولكنّه إنّما يحصل التكبّر إذا قلّل عند ذلك استكباره لحالة كلّ حال ، فتردّى بالكبرياء ورمى الناس عن قوس الازدراء ، و إنّما دخلت هذه الشبهة من حيث لايفرط إعجاب رجل إلّا و يجري الاستخفاف معه بالناس ، فلمّا كانا في الأغلب رضيعي لبان ، فرسي رهان ، شريكي عنان ، ظنّ حصول التكبّر بالإعجاب ، وهو صحيح في اللفظ المتعارف غير صحيح في المعنى المحصّل .

و قيل بأنّ الإفراط مذموم في الجملة كالتفريط و التوسّط معتمد الفضائل ، فمن أفرط إعجابه بنفسه فقداستذمّ ولكنّ الإعجاب متى أفرط بإفراط الأمر المتعجّب به لم يكن ، ألا يرى أنّ لكلّ جزء يزداد من الحالة الّتي وقع الإعجاب بها يزداد جزءاً من الإعجاب بلا إفراط فيه إذ كلّ جزء بإزاء جزء ، ومتى أثمر استخفافاً بالغير سمّي حينئذ تكبّراً وتيهاً فيكون الرجل على حيرة من أمره ، كمن ركب مفازة أفرط طولها وعرضها فيدركه حيرة .

وللتكبّر خصال كلّ واحدة منها شعبة من شعبه ، و كلّ جزء من كلّه ، لأنّ من تكلّف الارتقاء إلى منزلة لم ينلها استحقاقه فقد تكبّر ، ومن ترفّع لإفراط الإعجاب عمّا لاضعة فيه كعيادة الضعيف والوقوف على ذي البذاذة و الرثاثة و نحو ركوب الحمار و حلب الشاة .

كما يروى عن جبير بن مطعم أنّه قال : يقولون في التيه ، وقد ركبت الحمار و لبست الشملة و حلبت الشاة وقد قال رسول الله ﷺ : من فعل هذا فليس من الكبر فيه شيء .

فقد بان بهذا أنّ الجملة جامعة لأمور ولها تفصيل ، و الجملة معلوم بالعقل قبحها لقضاء العقل بقبح تكلّف الارتقاء إلى منزلة لم تستحقّ ، فهو طلب ماليس له فيكون ظلماً والظلم قبيح بنفسه عقلاً وشرعاً ، إذ يجوز أن يعلم قبحه في الجملة عقلاً فإذا فصّلت[1] و

(١) كذا في النسخة (د) وفي الاصل « فضلت » سهواً .

حصّلت فروعه وشعبه كان منها مايعرف قبحه سمعاً ، ومنها مايعرف قبحه عقلاً ، وقديشكل شيء أنّه ظلم أولا وإن عرف أنّ الظلم قبيح ، كذلك يشكل أنّه تكبّر أولا و إن كان الكبر قبيحاً فنقول في تفصيل هذه الجملة :

إنّ ممّا ذمّه الله وأنبأ عن قبحه أن يؤمر الإنسان باتّقاء الله على وجه النصح له فيتعزّز ويترّفع في نفسه عن تأمّل حظّه في هذه النصيحة و اكتسابه هذه السعادة فقال عزّ من قائل :[1] « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافي قلبه وهو ألدّ الخصام * وإذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة بالإثم فحسبه جهنّم و لبئس المهاد » فهذا النوع من التعزيز قبيح عقلاً ، إذ لايخفى أنّ اتّقاء الّذي خلقه ورزقه بيع رابح ، والأمر به ناصح ، و الشكر و القبول مستوجب ، و أنّ مقابلة مستوجبه الشكر بضدّه و التلقّي للنصح بردّه من أقبح القبائح ، فكيف يسعد أن يظهر الاستكبار والاستنكاف منه ، ومعاملته معه هذه المعاملة .

وممّا يقضي العقل بقبحه من أبواب التكبّر أن يؤمر الإنسان بأن يتعلّم و يدلّ على أنّ في علمه قصوراً ، ويتكبّر عن التعلّم ويظنّ أن إصاخته[2] لأمره ضعة ، وخفضه جناحه ونصته سمعه وفؤاده لقول من دعاه إلى الأمر الحسن نقيصة ، و هذا من الجهل و الجهل قبيح لنفسه ، فإن كان لايجهل ذلك ولكن يغضب من نصح ناصحه وينكر أن يكون مثله يبصّره ويذكّره فهو الجهل أيضاً بعينه لأنّه جهل حاجة الآدميّ الناقص المذكّر ، وأنّ كون الناس في الدرجة السفلى والرتبة [الدنيا [3]] لايحسّن إباء الانتفاع بإرشاده ونصيحته كما لايحسّن كون الجمادات دون الإنسان ترك الانتفاع بها لأجل أنّها دون الثاني [النبات . ظ] فضلاً عن الإنسان الّذي هو أشرف حيّ خلق في هذا العالم فعلم أنّ هذا النوع من الكبر قبيح عقلاً .

ومن ذلك أن يترفّع عن حسن عشرة الجار والصديق والزائر لفرط الإعجاب بما

---

(١) سورة البقرة : ٢٠٤ .

(٢) أصاخ له واليه : اصغى اليه واستمع .

(٣) زيادة من النسخة (د) .

أُوتي من حطامٍ هو بيت المنون، وميراث القرون، وهذا هوالقبيح في العقل لدلالة العقل أنّ الشرف لا يحصل للإنسان بأن يكون كثير الحطام ولا الدناءة بأن يكون قليله وإنّه لايوجب استخفافاً لمن حرمه بل المساواة له والبرّ به.

وأمّا ترفّعه أن يكلّم الضعيف و يعود الفقير فإن كان ترفّع لأجل أنّ ذلك ينقّصه وهوضعة عليه فهو قبيح عقلاً لأنّه اعتقد الضعة فيما هو شرف، وإن كان ترك ذلك تناسياً له و تشاغلاً عنه لأنّه ضعيف ولوكان مكانه قويّ [ما] [١] تشاغل عنه، فإنّ هذا يسمّى تكبّراً لمخالفته فيه بين الفقر والغنيّ والضعيف والقويّ، و هو قبيح سمعاً؛ لأنّ التشاغل عمّا رغب فيه السمع مكروه بالسمع.

وبالجملة ماكان من الأفعال المسمّاة تكبّراً لمعاملة بين الناس ولاحقاً بباب العشرة المستحسنة، فإن عظم ذلك يقبح بالسمع، وماكان منها جهلاً فهو قبيح بدلالة العقل على قبحه كاعتقاد التكبّر فيما هو شرف من حسن العشرة أنّه ضعة ولسنا نطلق هذه القضيّة إلّا على معظم الباب.

ومن التكبّر العمليّ القبيح سمعاً مايجري في السلام فإنّ [٢] حقّ كلّ مسلم سلّم على مسلم ردّ السلام بقول مسموع إمّا مثله أوزائد عليه وقديجري فيه من المتكبّرين فيه كلّ عجب من ترك ردّه مرّة وهمس به ونبس [٣] أُخرى، و تعاظم عن إسماع المسلّم الجواب، و ربّما كان الردّ إيماء باللحظ أو إشارة بالسبّابة، و ربّما كان بإنغاض [٤] الرأس، و كلّ ذلك منهيّ عنه، قال ﷺ [٥]: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، و اضربوا الهام وصلّوا والناس نيام تدخلوا الجنّة بسلام».

---

(١) زيادة منا يحتاج اليها الكلام.

(٢) تلفيق من الاصلين، ففي كل منهما نقيصة.

(٣) الهمس: اخفاء الصوت. النبس: الكتمان، التحرك والاسراع.

(٤) أنغض رأسه: حركه كالمتعجب أوالمستهزىء.

(٥) روى قريبا منه الكليني (٢: ٦٤٥) عن علي عليه السلام.

وسلّم أبو العتاهية على عليّ بن يقطين ورأى ردّه ضعيفاً فأنشأ يقول بعد أن استوقفه على الطائف :

مالك لا ترجع السلام على * مثلك إلّا بطرفة البصر ؟
تفعل هذا و أنت من بشر * فكيف لو كنت من سوى البشر ؟
ما أنت إلّا من العباد و إن * أصبحت في إمرة و في خطر (١)
ما أقدر الله أن يغيّر ما * أصبحت فيه ! فكن على حذر (٢)
واعلم بأنّ الأيام يلعبن بالنا * س و أنّ الزمان ذو غير

اعلم بأنّ عليّ بن يقطين رحمه الله قد أتى بما وجب عليه من ردّ السلام ، وإن كان ردّاً ضعيفاً لكن نحمله على وجهين : الأوّل أنّ أبا العتاهية من أهل المذاهب الواهية (٣) ، و الثاني أنّه كان شاعراً فلا ينبغي لمثل هذا الرجل الجليل القدر أن يزيد في إكرام شاعر طمّاع لم يزل يمدح المعطي ويذمّ المنّاع .

وسلّم رجل آخر على بطرف سوطه فلم يردّ عليه ، فقيل له في ذلك فقال : سلّم عليّ بالإيماء فرددت عليه بالضمير .

ومن السلام ماهو قول يسمع ولكنّه ممضوغ (٤) يحمحم على اللسان عليه مجمول (٥) وذلك أيضاً مذموم . والبخل بلفظ السلام والتسخّط لردّه جهل بقدر معناه فإنّها تحيّة تفضل كلّ تحيّة عرفت لأهل الأرض منذ أسكنها الله الناس ، فإنّ معناها السلامة الّتي

---

(١) الامرة - بكسر الهمزة - الامارة والرياسة . الخطر : الشرف وارتفاع القدر .

(٢) « ما أقدر الله » صيغة تعجب .

(٣) وقد سبق منه رحمه الله في ص ٢٤٥ ان أبا العتاهية كان مواليا لاهل البيت عليهم السلام ، مضافاً الى وجوب رد سلام المسلم من أي مذهب كان ، بل غير المسلم أيضا مع شرائط ذكرها الكليني رحمه الله في باب التسليم من الكافي (٢:٦٤٨) وما لنا أن لانفرض هنا وجها ثالثا وهو أن على بن يقطين كان مشغولا فكره ولم يلتفت ، ووجها رابعا وهو أنه تكبر ونبهه أبو العتاهية على خطائه .

(٤) مضغ الطعام : لاكه بلسانه . وفي الاصل : ممصوغ ، وفي النسخة (ر) ممضوع .

(٥) جمله : جمعه .

هي أقصى المنى و أو فى الحظوظ ، ثمّ هي لفظة عامّة بكلّ سلامة من النفس و العرض و الدين و من كلّ ماساء .

وأين عن هذه[1] تحيّة الجاهليّة للملوك « أبيت اللعن » وقد يلعن الرجل بحقوق باطلة ، فإباؤه اللعن ليس بمدح صريح خالص لأنّه لو أراد به : « أبيت ماتلعن به باطلاً » فكان قد ذمّه ولو صحّ له معنى وانعقد به دعاء لكان ذلك من بعض ما يتناوله لفظ السلام ، فمن يرغب عنها إلّا من خفي عليه الميامن والمحاسن منها ، والتبس دونه بركتها و يمنها ، أويكون ضنيناً بالخير والدعامة للناس .

و أين عنه سلام العجم **روزگار نيك باد** و قولهم **شادى باد** فإنّه دعاء باللذّة و المسرّة وصفاء العيش فقط ، والعيش قد يصفو لسالم الدين وغير سالمه وصحيح العرض وغير صحيحه وربّ ملتذّ ماله دين ولا عرض ، وأيّ التذاذ كالتذاذ دود اللحم فإنّه في موضعه و مظانّه ينمو على اغتذاء مامنه تكوّن بغير فتور وانقطاع .

وأمّا سلام الإسلام فهو دعاء بالسلامة من كلّ مكروه ، فالدين سالم والعرض وافر .

وأمّا بخل من يبخل بالملاقاة توقّفه أو توقّف دابّة فإنّ ذلك ممّا يجب النظر فيه ، فإن كان لشغل أوعذر فلا كبر فيه وعلى العكس ، وينبغي أن تكون الوقفات معدّلة مرتّبة موزونة على قدر المسائل و المسلّم ، فمنها الأخفّ و منها الأمدّ و الوقوف في المساءلة نعم السفير في ودّ يحصّله ، وعتب يغسله ، و قلب يصيده ، و أخ يستفيده . وقد عدلت وقفة في الطريق نصفه الزيارة قال ابن المعتزّ : [2]

يا هلالاً يدور في فلك المنى * و ردّو و قفا بأعين النظاره
قف لنا في الطريق إن لم تزرنا * وقفة في الطريق نصف الزياره

فأمّا الإيثار بصدر المجلس فهو من حقّ صاحبه وله أن يتصرّف فيه على إيثاره واختياره كما جاء في الحديث الصحيح : « لايؤمّ الرجل الرجل في سلطانه ولا يقعد على

---

(١) فى الاصلين « أبر عن هذه » والصحيح ما أثبتناه ، كما قاله فى تحية العجم .

(٢) لم أظفر على البيتين ، واولهما لايستقيم وزنا .

تكرمته إلّا بإذنه ، و صدر مجلسه تكرمته يكرم بها من شاء من زوّاره و إن شاء استاثر به لنفسه » .

وكان محمّد بن الأشعث بن قيس الكنديّ يقول : لا أتحوّل عن صدر مجلسي لأحد إلى أن قدم المهلّب الكوفة ، فدخل على محمّد بن الأشعث تحوّل عن صدر مجلسه،فقيل له : إنّما كنت تقول، فقال : ألم تسمعوني أقول : إلّا لرجل واحد ، فهذا ذاك الرجل .

فأمّا القيام إلى الزائر فالنبيّ ﷺ قام إلى جرير بن عبد الله وبسط رداءه ، وقام إلى جعفر لمّا قدم من الحبشة و عانقه [١] : و في الحديث [٢] : « إن أتاكم كريم قوم فأكرموه » والقيام الى الزائر من الإكرام .

ثمّ القيام للأبوين والعلماء أحسن القيام و أبعده من الآثام وغير داخل في جملة ما تناوله الحديث [٣] : « من أحبّ أن تمثّل له الناس قياماً فليتبوّء مقعده من النار » بل ينبغي أن يكون في الصالحات الباقيات المنجيات على حسب النيّة و صفائها ، إلّا أنّه قد يجري من المزور المقصود ما يدخل في التكبّر إذا ثلمها و كسر منها .

وكان الحسن لايحلّ حبوته [٤] إلّا لختنه فكان إذا زاره نهض إليه وقال : أهلاً بمن كفى المؤونة وستر العورة .

وكان المبرّد لايحلّ حبوته لأحد من الشعراء و الفضلاء إلّا للبحتريّ [٥] . و كان

---

(١) وألقى وسادته لعدى بن حاتم – و هو كافر – وجلس هو بالارض . انظر سيرة ابن هشام (٢ : ٥٨٠) واصول الكافى (٢ : ٦٥٩) .

(٢) رواه الكلينى (٢ : ٦٥٩) باب اكرام الكريم . ومثله فيه (٨ : ٢١٩) ،

(٣) روى حديثاً فى معناه الغزالى (٣ : ٣٥٤) .

(٤) الحبوة – بالفتح والضم – ما يحتبى به ، اى يشتمل له من ثوب ونحوه .

(٥) أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى ، من طيء : قال البكرى فى اللالى (١ : ٤٢٧) : شاعر متقدم لايعدل به أحد و قال ياقوت (١٩ : ٢٤٨) : « كان فاضلا أديباً فصيحاً بليغاً شاعراً مجيداً ، كان بعض أهل عصره يقدمونه على أبى تمام بادى الرأى و يختمون به الشعراء » وله أخبار ومحاسن كثيرة . ولد ٢٠٥ وتوفى ٢٨٤ هـ وانظر الاغانى (١٨ : ١٦٧) ووفيات الاعيان (٥ : ٧٤ ، برقم ٧٤١) .وفى النسخة (ز) البخترى – بالخاء وهو سهو .

إذا دخل عليه نهض إليه وأكرمه وأنشد :

ولمّا بصرنا به طالعاً * مثلنا له و وثبنا قياما
فلا تعجبوا من حفوفي له * فإنّ الكريم يجلّ الكريما

وقال أشجع السلميّ [١]:

أعليّ قوم في مديح معاشر * خطبوا المديح إليّ بالأموال
متزحزحين ـ إذا رأوني مقبلاً ـ * من كلّ متّكأ من الإجلال

و أمّا التكبّر في المشية والاختيال المذموم فأكثر المنع عنه والكراهة له سمعاً ،و كذلك جرّ الذيول الضافية وإسبالها [٢] على الثرى .

وقد قال الله تعالى [٣]«إنّ الله لا يحبّ كلّ مختال فخور » وقال جلّ ذكره [٤]: « واقصد في مشيك» ولا خلاف أنّ المتبختر المختال الميّاس الخطّار [٥] غير قاصد في مشيته .

وروت ميمونة بنت سعد [٦] ـ وكانت تخدم النبيّ صلى الله عليه وآله ـ قال : « مثل المرءة الرافلة بزينتها في غير أهلها مثل الظلمة يوم القيامة ، لا نور لها » فيكون ذلك أشدّ حرمة على الرجال إذا كان أُبيح للمرأة من الخيلاء والتزيّن مالا يبيح للرجل .

ورأى ملك بن دينار [٧] المهلّب أوبعض ولده يختال في مشيته فقال : أما علمت بأنّ هذه مشية يبغضها الله إلّا بين الصفّين [٨]؟ فقال : أوما تعرفني ؟ فقال : بلى أعرفك : أوّلك

---

(١) هو أشجع بن عمرو ، كان متصلا بالبرامكة وأخباره معهم كثيرة . انظر الاغانى (١٧:٣٠) والشعراء (٢ : ٨٥٧) والموشح ٢٩٥ وفى الاصلين « أسجع » بالسين ، سهواً .

(٢) ضاف الثوب : أطال على الارض . أسبله : أرخاه .

(٣ – ٤) سورة لقمان : ١٨ و ١٩ .

(٥) الميّاس والخطّار : المتبختر .

(٦) الرواية وترجمة ميمونة فى الاصابة (٤ : ٣٩٩ ، برقم ١٠٢٧) .

(٧) فى الاحياء : مطرف بن عبدالله .

(٨) اى فى الحرب . واصله من قول الرسول صلى الله عليه وآله لابى دجانة حين يمشى متبختراً بين الصفين فى احد .انظر السيرة (٢ : ٦٧) والاختصاص : ١٤٩ .

نطفة عذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك حامل عذرة .

و كفى عن مثل هذا رداعاً قوله عزّ وجلّ [١] : كلاّ إنّا خلقناهم ممّا يعلمون» ومتى فكّر في هذه الكناية العاقل فساور [٢] فكره واتّسع مجاله في قلبه هجم على عجائب من بدء خلقه و آخر أمره .

و نظر الحسن إلى ابن الأهتم [٣] خرج من المقصورة عليه ثياب خزّ قد نضّدها [٤] لوناً فوق لون فانفرج عنه القبا وهو يمشي يتبختر ، فقال الحسن : أفّ أفّ شامخ بأنفه ثاني عطفه مصعّر خدّه [٥] ينظر في عطفيه ، ياأحمق ! أين تنظر في عطفيك في نعم غير مشكورة وآلاء غير مذكورة ، غير المأخوذ فيها بأمر الله ولا المؤدّى منها حقّ الله ، يمشي أحدكم يتخلّج [٦] في مشيه تخلّج المجنون ، لله في كلّ عضو منه نعمة و للشيطان لعنة . اللّهمّ لا تجعلنا ممّن استعان بنعمتك على معصيتك [٧] . فبلغ ذلك ابن الأهتم فدخل عليه يعتذر فقال : لا تعتذر إليّ ولكن تب إلى ربّك ، ألم تسمع الله يقول : [٨] «ولا تمش في الأرض مرحاً» .

ولو لم يكن في الاختيال إلّا أنّه إذا شبّه بمشية الغراب الأشأم الأنكد المستقذر

---

(١) سورة المعارج : ٣٩ .

(٢) ساوره : واثبه أووثب عليه .

(٣) ذكره الغزالي (٣ : ٣٣٩) . وعمدة ماذكره في هذا الباب بعد من خبر أو أثر مأخوذ من الاحياء فلا نطيل بتخريجها .

(٤) نضد المتاع : ضم بعضه الى بعض متسقاً .

(٥) ثنى عطفه : لوى عنقه معرضاً متكبراً . صعر خده : أماله عن النظر الى الناس تهاوناً و كبراً ، ومنه الاية الشريفة « ولا تصعر خدك للناس » . وفي الاصلين « مصغر » بالغين .

(٦) تخلج في مشيه : اضطرب وتحرك ، وفي الاصلين « يتجلج في مشيه تجلج المجنون » و هو غلط لم يستعمل في اللغة ، والاصلاح من الاحياء .

(٧) وقال على عليه السلام « اقل ما يلزمكم الله أن لا تستعينوا بنعمه على معاصيه» الرقم ٣٣٠ من الحكم .

(٨) سورة لقمان : ١٨ .

الناعي بلغته لكلّ شمل منتظم وشعب ملتئم لكان في ذلك ما يدعو إلى مقته و التبرّي من صاحبه .

قال خلف الأحمر [١]:

لنا صاحب مولع بالخلاف * كثير الخطاء قليل الصواب
أشدّ لحاحاً من الخنفساء * و أزهى إذا مامشى من غراب [٢]
و إن ذكروا عنده عالماً * ربا حسداً و رموه بعاب [٣]
و ليس من العلم في كفّه * إذا حصّل العلم غير التراب

و مشية أُخرى لبعض المتقرّبة أو المتماوتين [٤] من طالبي التعديل وهو مقاربة الخُطى [٥] من غير اختيال وهي مكروهة أيضاً . و في الحديث أنّه ﷺ كان يسرع إذا مشى ، وفي آخر : كان إذا مشي فكأنّما يمشي في صبب [٦] .

وفي خطبة علي عليه السلام [٧] « أيّها الناس إنّما أصبحنا في دهر عنود وزمن نكود ، يعدّ فيه المحسن مسيئاً ويزداد الظالم فيه عتوّاً ، لانسأل عمّا جهلنا ولاننتفع بما عملنا ، ولانخشى قارعة حتّى تحلّ بنا فالناس ثلاثة » : ذكر منهم رجلاً طامن من شخصه ، وقارب من خطوه وشمّر من ثوبه يطلب الدنيا بآلة الدين .

---

(١) أبو محرز خلف بن حيان كان عالماً بالغريب والنحو والنسب والإخبار ، صدوقاً ، شاعراً ، كثير الشعر ، وهو مولى أبي بردة بن أبي موسى الاشعري توفي نحو ١٨٠ هـ . انظر الشعراء (٢ : ٧٦٣) و معجم الادباء (١١ : ٦٦) و امالي القالي (١ : ١٥٤ - ١٥٥) واللالي (١ : ٤١٢ - ٤١٣) .

(٢) الخنفساء : دويبة سوداء أصغر من الجعل لها ريح كريهة .

(٣) ربا : انتفخ ، أخذه الربو - بالفتح - و هو علة تحدث في الرية يصعب التنفس معها . العاب : العيب .

(٤) تماوت : تظاهر بالضعف والتخافت .

(٥) بضم الخاء مقصوراً : جمع الخطوة .

(٦) بالتحريك ما انحدر من الارض أو الطريق .

(٧) انظر شرح النهج لعبده (١ : ٨٥ - ٨٦) وهي الخطبة ٣٢ . والاصناف فيها أربعة .

و جملة الأمر في اللباس أنّ السرف منه مخطور و المعتبر في السرف حال الإنسان فقد يكون سرفاً من المتوسّط ما يكون وسطاً من غيره [١] ثمّ التجمّل باب و التقشّف باب . والتقشّف أن يظهر البذاذة وأن لا يعوّد النفس الأمّارة بالسوء الملحة إذا طالبت ، المتبائنة للرضا إلّا بماسألت لين الملابس ودثارة المضاجع ولذاذة المطاعم . والتقشّف حسن ورأي قوم .

وفي الحديث [٢] البذاذة من الإيمان .

و عوتب عليّ عليه السلام في إزار مرقوع فقال : «يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب» .

وقال سعيد بن سويد صلّى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثمّ جلس و عليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه ، فقيل له في ذلك ، فنكس مليّاً ثمّ رفع رأسه فقال : إنّ أفضل القصد عند الجدة ، وأفضل العفو عند القدرة . و على هذا فالتجمّل من غير سرف أفضل لمن كثرت نعم الله عنده .

وفي الحديث «إنّ الله يحبّ إذا أنعم نعمة على العبد أن يرى أثرها عليه» .

وفي الحديث أنّ عيسى عليه السلام قال: «مالكم تأتوني و عليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ؟ البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بالخشية» .

---

(١) و قد فسر السرف في الكافي (٦ : ٤٤١) باب اللباس من كتاب الزي والتجمل بما تستروح به النفس ويطمئن اليه القلب ولا يبقى ريب أنه من عين صافية ، قال اسحاق بن عمار : « قلت لابي عبدالله عليه السلام : يكون للمؤمن عشرة أقمصة ؟ قال : نعم ، قلت : عشرون ؟ قال : نعم ، قلت : ثلاثون ؟ قال : نعم ليس هذا من السرف ، انما السرف أن تجعل ثوب صونك ثوب بذلتك» و أمثاله من الروايات كثيرة ، فاختبره ايها الاخ بذوقك السليم وزنه مع مافسره منه الصوفية في قسطاس مستقيم ، ثم اعطف برأسك الى فناء بيت الطهارة وخاطب أهله بماقال فيهم ايمن بن خريم ابن فاتك الاسدي (الاغاني ٢١ : ٦) :

أجلكم وأقواماً سواء • وبينكم وبينهم الهواء
وهم أرض لارجلكم وأنتم • لارؤسهم وأعينهم سماء

(٢) في الاحياء بعد ذكر الحديث : فقال هارون : سألت معناً عن البذاذة فقال : هو الدون من اللباس . وبهامش الاصل : البذاذة : الهيئة الرثة .

وهذا التجمّل الّذي قلناه هو إظهار الجمال في الهيئة ، والتأنّق في الشارة [١] وهو يجري على العادة وإيثار النظافة من غير أن يجحف [٢] بالزهادة و العبادة ، فأمّا التجمّل الّذي هو ستر الخصاصة ومواراة الخلّة [٣] فكم فيه من كرم ومن نبل ، وعليه من ثواب وأجر . وما أحسن قول أبي الجهم :

ولا عار إن زالت عن الحرّ نعمة * ولكن عاراً أن يزول التجمّل

وقال ابن الرومي :

أصبحت بين خصاصة و تجمّل * و الحرّ بينهما يموت هزيلا

آخر :

حال ترشّفت اللّيالي ماءها * و تحمّل لم يبق فيه تجمّل

وقد طال القول وانبسط في أصول التكبّر ، فلنرجع إلى المقصود من فضل التواضع وذمّ التكبّر ، والأسوة في التواضع والقدوة في التبذّل سيّد الأوّلين والآخرين ، كان صلوات الله عليه وآله يعود المريض ، ويشيّع الجنائز ، ويجيب دعوة المملوك ، وكان يركب الحمار الموكف [٤] ، ويعلف البعير ، ويقمّ [٥] البيت ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويحلب الشاة ويأكل مع الخادم ، ويطحن معه ، و يحمل بضاعته من السوق إلى أهله ، و كان يكلّم المستضعف ، ويجالس الفقير ، ويجيب إلى الكراع ، ويقبل الذراع ، و يلبس الخلق ، و يجلس على التراب ، ويقف على السائل العجوز فيطيل مساءلتها ويتحفّى بها ، وإذا صافح إنساناً لم ينزع يده حتّى يكون هو النازع ، وإذا كلّمه أحد لم يعرض عنه حتّى يسكت فمن كره خلّة من خلاله فكأنّما رغب عن سنّته وعدل عن شيمته .

وفي حديث آخر : يخطف تكفيّاً [٦] ويمشي هوناً . خافض الطرف ، نظره في الأرض

---

(١) الحسن والجمال ، الهيئة ، اللباس والزينة ، متاع البيت المستحسن .

(٢) جحف : مال . جحف اللحم : دقه . جحف برجله : ضربه الى صدره .

(٣) بفتح الخاء : الحاجة والفقر .

(٤) سبق معناه ص ٩٤ راجعة .

(٥) قم البيت : كنسه .

(٦) خطف : مشى سريعاً . تكفى : طال .

دون السماء ، يقفو أصحابه ويمشي و راءهم ، يبدء من لقى بالسلام ، دمث[١] ليس بالجافي ولا المهين ، يعظّم النعمة وإن دقّت ، لا يذمّ منها شيئاً ولم يكن يذمّ ذواقاً ولا يمدحه ، وإذا غضب أعرض وأشاح .[٢] جلّ ضحكه التنسّم ويفترّ[٣] عن مثل حبّ الغمام .

وفي حديث : أُهدي إليه هديّة فلم يجد شيئاً يضعه عليه فقال : ضعه بالحضيض فإنّما أنا عبد آكل كما يأكل العبيد .

ودخل ابن السمّاك على الرشيد فأدناه فقال : يا أمير المؤمنين ! إنّ عبداً آتاه الله جمالاً في خلقته و جلالاً في قدره[٤] و فضلاً في ماله ، فعفّ في جماله و واسى في ماله و تواضع في جلاله يكتب في ديوان الله من خالص عباد الله ، فذكر أنّ الرشيد كتب هذه الكلمات بيده .

وأراد المأمون الوضوء للصلاة فتبادر الغلمان إلى خدمته وعنده عليّ بن موسى الرضا عليهما السلام فقال : يا أمير المؤمنين ! إنّ الله خلقك ولم يشرك في خلقك أحداً ، فإن استطعت أن لاتشرك في عبادته أحداً ، فكان المأمون بعد ذلك لايستعين باحد في وضوء ولا صلاة ، وكان يستقي للوضوء بيده ويفرش المصلّى بيده .

ورئي عليّ عليه السلام يحمل طعاماً إلى داره في خلافته فسألوه عنه فقال[٥] :

ما ضرّ للكامل في كماله * ما جرّ من نفع إلى عياله

وركب زيد بن ثابت فجاء ابن عبّاس ليأخذ ركابه ، فقال : مه يا ابن عمّ رسول الله ! فقال : هكذا أُمرنا أن تفعل بكبرائنا ، فقال زيد : أرني يدك فأخرجها إليه فقبّلها زيد وقال : هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت رسولنا .

وفي كلام بعض أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله : « البخيل المتواضع أحبّ إلى الناس من

---

(١) رجل دمث الاخلاق : سهلها .

(٢) بمعنى الاعراض . من شيح .

(٣) افتر البرق : تلالا . الرجل : ضحك ضحكاً حسناً .

(٤) كذا في النسخة (ر) وفي الاصل « قدرة » .

(٥) في الاحياء : لاينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء الى عياله .

الجواد المتكبّر ، وأشرف بخلة بأسوء حراج البخل وينفي إشراقها ظلمة الشحّ ، و يغسل وصمته وهجنته [١].

وعلى هذا قول الله عزّ وجلّ [٢]: «إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً» فإنّه إن كان هذا الودّ الّذي [٣] في قلوب الناس فما أحد أحظى به من المتواضع ، إلّا أن يكون الود هو أن يودّه الله تعالى بأن يصيطفه و يتولّاه ويرضى أفعاله ، ويفعل به من الإكرام ما يفعل أحد منّا بموددوه ، إلّا أنّه لمّا نقل من وجوه كثيرة أنّه هو الّذي يودّه الله ويودّه إلى خلقه [٤] فكان المتواضع في نهاية وفور الحظّ من مودّات الناس كان [٥] في ذلك دليل على أنّ ذلك من أشرف الأعمال الصالحة .

وأيضاً فلا محبّة أثبت من المحبّة الّتي يغزرها التواضع لصاحبه في النفوس ، ولا أهنأ ثمراً ممّا يغرسه في القلوب .

وفي الجملة المحبّات أربع : محبّة على الدين كمحبّة الأئمّة المعصومين عليهم السلام . ومحبّةٌ للاصطناع وهي ما قال النبيّ صلى الله عليه وآله [٦] «جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها» والثالثة المحبّة للتواضع وسائرها . والمحبّة على الأسباب المتعلّقة بالأمور الدنياويّة، وهي لا حقائق لها و إنّما هي خدع في الوجوه و ملق على الألسنة و مخاتلة ومداهنة ومصانعة متعلّقة بالرغبة و الرهبة ، وجارية على حسب الحاجة ، و هي زائلة بزوال الحال و منتقلة بانتقال الزمان .

قدم دهمان الأعرابيّ على سعيدبن سالم بالرملية فأطال حجابه ، ثمّ أذن للناس عامّاً فدخل في غمارهم فقال له : إنّي لأعرف قوماً لو علموا أنّ سفّ التراب يقيم أود [٧]

---

(١) كذا في الاصلين ولم يظهر لى معناه . والوصمة والهجنة ، العيب .

(٢) سورة مريم : ٩٧ .

(٣) < الذى > خبر < كان > .

(٤) كذا فى الاصلين ، و ظنى ان المراد < يوده الى خلقه > اى يحببه الى خلقه ، الا انه لم يستعمل باب التفعيل من الود . (٥) انظر تحف العقول : ٥٣ .

(٦) جواب < لما > .

(٧) السف : مالم يدق جيدا ، الاود : الاعوجاج .

أصلابهم لجعلوه مسكة لأرماقهم [١] ، إيثاراً للتنزّه عن عيش رقيق الحواشي ، ووالله إنّي لبعيد الوثبة بطيء العطفة ، ولا يعطفني عليك إلّا مثل مايصرفني عنك ولأن أكون مقلاً مقرّباً أحبّ إليّ من أكون مكثراً مبعّداً ، والله لايسأل عملاً لا يضبطه[٢] ولا مالاً إلّا و نحن أكثر منه ، وإنّ هذا الّذي صار في يدك فقد كان في يدغيرك ، والله لقد أمسوا حديثاً إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً ، فتحبّب إلى عباد الله بحسن البشر ولين الجواب وخفض الجناح،فإنّ حبّهم موصول بحبّ الله ، وهم شهداءالله وأُمناؤه ، فإن تواضعت لهم أحبّوك فأحبّك الله ، وإن تطاولت عليهم مقتوك فمقتك الله .

وقال بكر بن عبدالله:إذا رأيت أكبر منك فقل : هوخيرمنّي سبقني بالإسلام والعمل الصالح ، وإذا رأيت أصغر منك فقل : هو خير منّي عصيت الله قبله وإذا رأيت مثلك فقل : هو خير منّي أعرف من نفسي ما لاأعرف منه ، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك فقل : نعمة الله أحدثوها ، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل : ذنب أحدثته .

وكان عبدالملك بن مروان يقول : أفضل الناس من تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة وأنصف عن قوّة . ولهذه الثلاثة شرح ذكرناه في «الاثنا عشريّة» مفصّلاً [٣] .

وقيل : ثلاثة من أحسن شيء : جود بغير ثواب ونصب لغير دنيا وتواضع لغير ذلّ .

وكان يقال : التواضع مع السخافة والبخل أجمل من السخاء والأدب مع الكبر،فيالك من نعمة عفت عن صاحبها سيّئتين ، ومن سيّئة حرمت صاحبها حسنتين .

وفي حكم العجم : عامّة الأحرار أن يلقوا بما يحبّون و يحرموا أحبّ إليهم من أن يلقوا بما يكرهون ويعطوا ، فانظر إلى علّة عفت مثل البخل فالزمها .

وسئل الفضيل عن التواضع فقال : يخضع للحقّ وينقاد له ويقبله من كلّ من يسمعه.

وقال محمود بن محفوظ : لاتزن الخلق بميزانك وزن نفسك بميزان المؤمنين لتعلم فضلهم وإفلاسك .

---

(١) جمع الرمق : بقية الحياة .

(٢) كذافي النسخة (ر) وفي الاصل « لانضبطه » .

(٣) راجعه ص١٣٩-١٤٠ في الفصل الثاني عشر من الباب الثالث ، ولم ينسبها هناك الى عبدالملك نعم ذكرها له الغزالي .

وقال : من أبصر محاسن نفسه ابتلي بمساوي الناس فتكبّر عليهم ، ومن أبصر عيوب نفسه سلم من رؤية مساوي الناس فتواضع لهم .

وسئل الجنيد عن التواضع فقال : خفض الجناح ولين الجانب . وعن الخشوع فقال: تذلّل القلوب لعلاّم الغيوب .

وقال إبراهيم بن شيبان : الشرف في التواضع و العزّ في التقوى والحرّيّة في القناعة.

وكان بعض العارفين يقول : أعزّ الخلق عالم زاهد و فقيه صوفيّ و غنيّ متواضع و فقير شاكر وشريف سنيّ .

وكان محمّد بن عليّ يقول : من شرائط الخدّام التواضع والاستسلام .

وقال عبيدالله الرازيّ : التواضع ترك التمييز في الخدمة .

وقال أحمد الحواريّ : من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة .

وكان بعضهم [١] يقول : ذلّي عطّل [ذلّ] اليهود .

وقال أبوسليمان الدارنيّ : لو اجتمع الناس أن يضعوني كاتّضاعي عند نفسي لما قدروا عليه .

وقال شعيب بن حرب : بينا أنا أطوف إذ لكزني إنسان بمرفقه ، فإذا هو الفضيل فقال : يا أبا صالح ! إن كنت تظنّ أن شهد الموسم شرّ منّي ومنك فبئس ماظننت .

وقال حمدون القصّار : التواضع أن لاترى لأحد إلى نفسك حاجة لافي الدين ولا في الدنيا .

و قيل : التواضع هو الاستسلام للحقّ و ترك الاعتراض على الحكم و الخشوع و الانقياد للحقّ .

وقيل : الخشوع قيام القلب بين يدي الحقّ بهمّ مجموع .

وقال محمّد بن عليّ الترمذيّ الحكيم : الخاشع من خمد نيران شهوته ، وسكّن دخان صدره ، و أشرق نور التعظيم في قلبه ، فماتت شهواته في قلبه فخشعت جوارحه .

---

(١) في النسخة (د) : « كان الشبلي يقول » وكذا في الاحياء ، وكذا كان في الاصل أيضاً الا ان المؤلف خط عليه وكتب « بعضهم » وبين المعقوفين من الاحياء .

وقيل : الخشوع إطراق القلب عند اطّلاع الربّ . و على هذا رأى بعضهم رجلاً منقبض الظاهر منكسر الشاهد وقد زوى منكبيه فقال : يا أبافلان ! الخشوع ههنا - و أشار إلى صدره - لا ههنا ، وأشار إلى منكبيه .

وفي الحديث[١] أنّه ﷺ قال لرجل يعبث بلحيته في صلاته : «لو خشع قلبه لخشعت جوارحه» .

والخاشع إذا قام بين يدي الله تعالى فكلّما انتصب لله جسده في الظاهر انتصب قلبه في الباطن ، و كما رمى ببصره في الظاهر حيث يقع من الخلقة على حدّ الخشوع فكذلك رمى ببصر قلبه إلى المقام الّذي رتّبه إن كان من أهل المرتبة ، وإلّا فإلى متعبّده .

وأمّا نظر الظاهر في مواقع الخلقة فهو من القائم بمكان لو خرّ ساجداً لوقعت جبهته على تلك البقعة ، ومن الراكع إنّما يقع ذلك موضع القدمين ، و من الساجد على موضع الصدر منه ، ومن المتشهّد على رأس ركبتيه وطرف فخذيه .

وأمّا المراتب لذوي المراتب فالصدّيقون أبصارهم قلوبهم[٢] حول العرش ودون العرش وفي الملكوت وعند الله على اختلاف درجاتهم ، و أمّا المتعبّد ليس من أهل الدرجات ، فالمتعبّد بيت العزّة حيث استقرّ القرآن في وقت نزوله جملة في شهر رمضان في سماء الدنيا ثمّ من هناك قبلوه بما فيه من العبوديّة ، علموه أولم يعلموه كما دخلوا في الميثاق يوم استخرجهم من الأصلاب علموا أوجهلوا ، فعلى هذه المنازل تخشع الجوارح في الصلاة .

وأمّا خشوع العارفين فهو قشعريرة ترد على القلب بغتة عند مفاجأة كشف الحقيقة، وقريب منه الوجل الّذي ذكر الله تعالى في قوله[٣] : « الّذين إذا ذكروا الله وجلت قلوبهم » ثمّ قال : « أُولئك هم المؤمنون حقّاً لهم درجات عند ربّهم و مغفرة » ولكنّ الوجل في القلب كاحتراق السعفة أي لايكاد يلبث طويلاً .

وقال محمّد بن الحنفيّة : الإيمان ثابت واليقين خطرات .

و في بعض الآثار : إنّي أعلم متى يستجاب لي و ذلك إذا اقشعرّ جلدي

---

(١) ارشاد القلوب : ١٨٦ . باب الخشوع له سبحانه .
(٢) كذا في الاصلين .
(٣) سورة الانفال : ٢ .

و وجل قلبي وفاضت عيناي ، وإنّما هذه القشعريرة لنفوس لاتحتمل مايرد على القلب ، فتقشعرّ منه الجلود،ومثله مثل جرّة [١] لم يصبها الماء فإذا وضعتها في الماء أنشفت وسمعت لها نشيشاً ، وإذا تكرّر ذلك عليها لم يسمع لأنّها شربت وارتوت من الماء ، فكذلك قلب العارف ارتوى من سقيا الله فلزمها الخشوع والإخبات من غير إقلاع و انقطاع .

وقال أبوعليّ الجوزجانيّ [٢] : النفس معجونة بالكبر والحرص و الحسد ، فمن أراد الله هلاكه منع منه التواضع و النصيحة و القناعة ، و إذا أراد الله به خيراً فإذا هاجت رياح الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله ، و إذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع مع نصرة الله ، وإذا هاجت نار الحرص في نفسه أدركتها القناعة مع عون الله .

وعن عمر بن شيبة [٣] قال: كنت بمكّة بين الصفا والمروة فرأيت رجلاً راكباً بغلة وبين يديه غلمان فإذاهم يعنفون بالناس ، ثمّ عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر فإذا أنا برجل حاف حاسر ، طويل الشعر ، فجعلت أنظر إليه و أتأمّله ، فقال لي : مالك تنظر إليّ ؟ فقلت : شبّهتك برجل رأيته بمكّة و وصفت له الصفة فقال : أنا ذاك الرجل ، فقلت : مافعل الله بك ؟ فقال : إنّي رفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفّع منه الناس .

وعن الثوريّ قال : كنت نزلت مشرعة العمّامين ببغداد لأتطهّر للصلاة ، فرأيت زورقاً فيها دنان [٤] عليها مكتوب بالقار « لطيف» ولم نكن نعرف شيئاً من التجارة يسمّى لطيفاً ، فقلت للملّاح : يا ملّاح أيش هذا ؟ فقال : أنت صوفيّ فضوليّ هو خمر للمعتضد فقلت له: أعطني ذلك المذرى [٥] فقال لغلامه: أعطه حتّى نبصر أيش يعمل ، فصعدت الزورق واندفعت في كسر الدنان، أكسر دنّاً والملّاح يصيح، حتّى بقي واحد فأمسكت فجاء صاحب

(١) اناء من خزف له بطن كبير وعروتان .
(٢) فى الاحياء : الجوزانى .
(٣) فى الاحياء : عمران بن شيبة .
(٤) بالكسر جمع الدن وعاء كبير من خزف يحفر له فى الارض ، ويجعل فيه الخل والخمر .
(٥) بكسر الميم مقصوراً : خشبة ذات أطراف كالاصابع تذرى بها الحنطة .

الربيع (؟) فأخذني وحملني إلى المعتضد وكان سيفه قبل كلامه ، فلمّا وقعت عينه عليّ قال: من أنت ؟ قلت : أنا المحتسب ، قال : ومن ولّاك الاحتساب ؟ قلت : الّذي ولّاك الخلافة ، قال : لمَ كسرت هذه الدنان ؟ قلت : شفقة عليك إذ لا تصل يدي إلى دفع مكروه عنك ، قال: فكيف تخلّص هذا الواحد من بين الدنان ؟ قلت : فيه علّة أُخبر بها أمير المؤمنين ، إنّي لمّا تقدّمت إلى كسر الدنان قمت بمطالبة الحقّ فلمّا وصلت إلى هذا أعجبت بنفسي فأمسكت عند ذلك ولو بقيت على الحال الّتي تقدّمت وكانت الدنيا كلّها دناناً لكسرتها عن آخرها فقال : ياشيخ اخرج فقد ولّيناك الاحتساب ، فقلت : [٢] إنّي كنت أحتسب عن الله فالساعة أكون شرطيّاً ؟ فقال : سل حاجتك فقلت : أخرجني من ههنا سالماً ، فأمر بذلك .

ومشى عبد الله بن محمّد بن واسع مشية لاتحمد ، فقال له أبوه : تدري بكم اشتريت أمّك ؟ بثلاثمائة درهم، وأبوك هذا الّذي لا كثّر الله من أمثاله في المسلمين، وأنت تمشي هذه المشية ؟ و أُنشد :

أيّها الشامخ الّذي لايرام * نحن من طينة عليك السلام
إنّما هذه الحياة متاع * و مع الموت تستوي الأقدام

وهذا الشعر ممّا ينفي العجب و يمنع الكبر و ينقص من النخوة ، من حيث معرفة الإنسان طينته ابتداءً وفسادها بالموت انتهاء ، و الإنسان متى عرف نفسه من الحالين علم أنّه أذلّ من كلّ ذليل وأقلّ من كلّ قليل والله سبحانه وتعالى في قوله الحقّ [٢]: «قتل الإنسان ما أكفره * من أيّ شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدّره * ثمّ السبيل يسّره * ثمّ أماته فأقبره * ثمّ إذا شاء أنشره » وأشار سبحانه إلى خلق الإنسان في أوّل حاله وآخر أمره و إلى ما هو الوسط بينهما من حياته فليمعن في جميع ذلك النظر فيفهم به حقيقة قوله جلّ و عزّ .

أمّا أوّل الإنسان فهو أنّه لم يكن شيئاً بل كان عدماً بحتاً و محواً صرفاً ثمّ خلقه الله من التراب أذلّ الأشياء ، ثمّ من المنيّ أقذرها ، ثمّ خلقه أطواراً ماهو في شيء منها

(١) في الاصلين « فقال » .
(٢) سورة عبس : ١٧ - ٢٢ .

إلّا وهو متردّد فيما بين أخسّ الأوصاف من علقة ومضغة وعظام ضاحية ثمّ مكسوة لحماً في غاية الضعف و التزاوّل حتّى صار شيئاً مذكوراً بعد أن لم يكن كذلك إذ كان في أوّل كونه على هذه الصورة لا يسمع ولا يبصر ولا يحسّ ولا يتحرّك ولا ينطق ولا يدرك ثمّ على اختلاف هذه الأحوال و ابتلائه بهذه الأطوار منّ عليه بالإدراك عن عدم ، وبالحياة عن موت ، و بالقوّة عن ضعف ، و بالهدى عن ضلالة ، وبالقدرة عن عجز ، كما قال : «ثمّ السبيل يسّره » و ذلك هو جميع ما تيسّر له في مدّة حياته من لدن خروجه من رحم الأُمّ إلى بطن الأرض فانظر إلى قدرة الله ورحمته كيف دبّره وصوّره وإلى السبيل كيف يسّره، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره ! وإلى جهل الإنسان كيف أظهره ، كما قال الله عزّ وجل: « أولم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين [١] ومن آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون [٢] هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً [٣] » .

فانظر إلى رحمة الله كيف نقله من تلك الذلّة و القلّة و الخساسة و القذارة إلى هذه الرفعة و الكرامة فصار موجوداً بعد العدم ، حيّاً بعد الموت ، ناطقاً بعد البكم ، بصيراً بعد العمى ، قويّاً بعد الضعف ، عالماً بعد الجهل ، هادياً بعد الضلالة ، قادراً بعد العجز، غنيّاً بعد الفقر ، فخلقه أوّلاً من العدم المحض ، ثمّ عن التراب الذابل [٤] ثمّ من الماء المهين ليعرف نفسه من حيث هو .

وإكمال هذه الخصائص العالية و المعاني الشريفة عليه ليعرف به ربّه من حيث هو، ويتبيّن جلالة عظمته وقدرته ورحمته كما قال عزّ وجلّ في ذكر ما أنعم الله عليه من الأحوال الثواني بعد تلك المبادي [٥] : « ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين * وهديناه النجدين»

---

(١) سورة يس : ٧٧ .

(٢) سورة الروم : ٢٠.

(٣) سورة الدهر : ١ – ٢ .

(٤) الذابل : الدقيق.

(٥) سورة البلد : ٨ – ١٠.

وقال في الأحوال الأولى التي هي له مبادىء الوجود:[١] « ألم يك نطفة من منيّ يمنى * ثمّ كان علقة فخلق فسوّى » فنبّه بهذا على ماكان من نعمته عليه .

ثمّ قال : «فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » ليدوم وجوده بالنوع إذ لم يمكن أن يدوم وجوده بالشخص ، فأبقاه بالتناسل وآنسه بالتزاوج والتواصل .

ثمّ لم يتركه وما تمّ به واستوى منه حتّى يميل به إلى الطغيان ، ويهلكه العدوان بل أطاف به الأمراض و الآلام ، و الأوجاع و الأسقام ، وجعله في أيدي الحدثان و على معترك الأشجان و الأحزان ، و بمدرجة الآفات المختلفة و طوع الطبائع المتضادّة . إذا أخذته العزّة بالإثم قهرته الحاجة على الكظم ، وإن ازدهاه[٢] الغنى من جانب صاح به الفقر من جانب ،وإن جمح به السرور بشيء جنح إلى الهموم في مثله ، وإن خلق بالاستطالة في أمر أسف بالضعة إلى ضدّه ، أسير الجوع و الشبع ، سريع السخط و الرضا ، حبيب الخوف و الرجاء، كاره الثواء[٣] مكروه الرحيل ، مطلق الظاهر محصور التقدير ،لايملك لنفسه نفعاً ولاضرّاً ولاحياة ولا موتاً ولا خيراً ولا شرّاً ، قلبه متقلّب في غير مايريد جوانحه جانحة إلى غير مايحبّ ،لاقلبه يملك ولا نفسه يضبط ، نفسه تكون فلا يريد ، ويريد فلا تكون ، يكره ما ينفعه ولا يدريه و يؤثر ما يهلكه ولا يبقيه ، عبد مملوك لايقدر على شيء من نفسه ومن غيره ، ولا يمتنع عن شيء ممّا يعيره[٤] على معيره .

إلى أن يسلب جميع ما وهب و يؤخذ منه كلّ ما أُعطي ، كما قال عز من قائل: « ثمّ أماته فأقبره » مسلوب الروح ، محروب السمع و البصر ، منهوب القوى و القدرة ، جماداً لايحسّ ولا ينسّ[٥] ، جيفة قذرة كما كان في ابتداء أمره نطفة مذرة ، و يتقاعد على مشافير وجهه نبات الأرض حتّى يستحيل رجيعاً في بطون الديدان ، ثمّ الآكل والمأكول يصير آخر الأمر تراباً يعمل منه الكيزان[٦] و يداس تحت أرجل الحيوان .

---

(١) سورة القيامة : ٣٧ - ٣٨ .
(٢) حمله على العجب والفخر .
(٣) الثواء : الإقامة بالمكان .
(٤) في النسخة (د) : اعيره .
(٥) نسّ فلان : كان ماضياً سريع العمل في كل أمر .
(٦) جمع الكوز .

خلقت من التراب فصرت شخصاً * تنادي بالفصيح من الخطاب
وعدت إلى التراب فصرت فيه * كأنّك ما برحت من التراب

ثمّ من بعد ذلك كلّه تجمع أجزاؤه المتفرّقة وتؤلّف أشلاؤه[١] المستهلكة وتعاد إليه روحه المحفوظ عنه في يوم سماؤه مشقّقة ، وأرضه مبدّلة[١] وينشر له صحيفة أعماله فيقرء ما نسيه وأحصاه الله فيقول[٢] : «ياويلنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها» و ذلك بدء أمره و هذا آخر حاله و المراد بقوله تعالى : «فإذا شاء أنشره» .

فإذا كان هو المبدء وإلى هذا هو المنتهى فمن أين يعجب الإنسان ويزهي ؟ وممّا ذا يغرّ ويستهوي ؟ أسكره كأس ما مزجت إلّا للعنا ولا اُدبرت[٣] إلّا على الفنا ؟ أيبطره لباس ما نسج إلّا للبلى .

ما بال من أوّله نطفة * و جيفة آخره يفخر[٣]
أصبح لا يملك تقديم ما * يرجو ولا تأخير ما يحذر
و أصبح الأمر إلى غيره * في كلّ مايقضي وما يقدر

للموت أبناء لهم * ما شئت من سلف و تيه[٤]
فكأنّني بالموت قد * دارت رحاه على بنيه

يا مستحيلاً كمعانيه * و مستطيلاً كمساويه
اقصر من التيه على الناس * يرم بك التيه إلى التيه

آخر :

إذا المرء لم يرض ما أمكنه * ولم يأت من فعله أحسنه
و أعجبه العجب فاعتاده * وتاه به التيه فاستحسنه
فدعه فقد ساء تدبيره * سيضحك يوماً ويبكي سنه

---

(١) قال تعالى «اذا السماء انشقت» وقال (ابراهيم : ٤٨) «يوم تبدل الارض غير الارض» .
(٢) سورة الكهف : ٥٠ .
(٣) في الاصلين «ادبرت» .
(٤) قد سبق أنها لابى العتاهية .
(٥) لابى العتاهية في الاغانى (٣ : ١٦٧) .

إيّاك من نخوة حقيقتها * حمق ، وبالكبر قد تلقّبها
سها بناالثرو والسيادة عن * نخوتها مجدها و منصبها

وقول هذا القائل : إنّ حقيقة النخوة حمق صحيح معقول، ومنه قول بعض الحكماء: ما تكبّر إلّا مائق[1] ، ولذلك قال بعضهم حين سئل : ما الكبر ؟ فقال : فضل حمق لم يدر صاحبه أين يضعه فجعله كبراً .

وأيضاً فإنّ من رسوم التيه أنّه يضادّ حكم العقل من الأمور الدينيّة والعقليّة أن يسمّى بالجهل ولكن اسم الحمق أغلب على مايضادّ حكم العقل في أسباب العشرة و أبواب المعاملة ، فوجب أن يكون الكبر جهلاً من وجه وحمقاً من وجه ؛جهلاً لدخوله في الظلم و الجهل بحال النفس ابتداء وانتهاء ، وحمقاًمن حيث إنّه غبن حظّه من المودّات بما زيّن له الشيطان عند التسليم عليه مثلاً من ليّ شدق وتعبيس[2] وجه وتحديق عين ، ونحو ذلك ممّا يضنّ به المتكبّر في اللقاء ، ويتعرّض للمقت والبغضاء ،نحو ما وصفه أبو العتاهية من حال من زاره :

إنّي أتيتك للسلام * تكلّفاً منّي و حمقاً
فصددت عنّي نخوة * و تجبّراً،ولويت شدقاً
فلو أنّ رزقي في يديك * لما طلبت الدهر رزقاً

وقال :

خليل لي أكاتمه * أراني لا ألائمه
أراه مضيّعاً حقّي * و أنّ الحقّ لازمه
أحبّ التيه حتّى تاه * فضلاً عنه خادمه
كذا من نال سلطاناً * ومن كثرت دراهمه
فلم أحمل له تيهاً * ولكنّي مصارمه

---

(١) المائق : الاحمق ، الهالك ، من « موق » .

(٢) لوى شدقه ، أماله وأعرض (يائى اللام) . التعبيس من عبوس الوجه .

وقال :

ربّ مختال عظيم التـ * ـيه في قدر العلامه
إنّ بين الخير و الشـ * ـرّ لفصلاً و علامه

وقال :

ما أنا إلّا لمن بغاني * أرى خليلي كما يراني
لست أرى ماملكت طرفي * في (؟) مكان من لا يراني

وقيل : إنّ معنى قول جرير [١] .

و إنّي لاستحيي أخي أن أرى له * عليّ من الفضل الّذي لا يرى ليا

معنى بيت أبي العتاهية [٢] و أنّه لا يحمل تيه أخيه ، و هذا البيت يأبى أن يرى له فضلاً لا يرى هو لهذا مثله ولكن هذا هو الظلم بعينه،لأنّ الفضل يجب أن يرى لوجوده حيث وجد ولا يجري فيه المجازاة ، فالمعنى الصحيح أنّي أستحيي أن لا أجازي أخي عن فضله وإحسانه فيكون له عندي إحسان ليس لي عنده مثل ذلك .

وممّا أنشد في التواضع وحسن الخلق مع الإخوان وخفض الجناح لهم قول عبد الله ابن طاهر [٣] :

أميل مع الذمام على ابن عمّي * و أحمل للصديق على الشفيق
و إن ألفيتني ملكاً مطاعاً * فأبلى واحدي عبد الصديق

آخر :

وإنّي لعبد الضعيف مادام ثاوياً * وما فيّ إلّا تلك من شيمة العبد

---

(١) جرير بن عطية بن حذيفة الكلبي ، أشعر اهل عصره ، ولد سنة ٢٨ هـ باليمامة ، وعاش عمره كله يناضل الشعراء ويساجلهم ، فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والاخطل ، وله أخبار كثيرة مع الخلفاء الامويّ ، توفي سنة ١١٠ هـ . انظر الاغاني (٧ : ٣٥) واللالي (١ : ٢٩٢) . والبيت له في اللالي (١ : ٢٨٩) مع بيتين تراهما في قصيدة في ديوانه (٢ : ١٦٧ – ١٦٨) والبيت لسيار بن هبيرة بن نبطى في ذيل امالي القالي ص ٧٥ .

(٢) الاولى أن يعكس فيقال «قول أبي العتاهية معنى قول جرير» لتقدم موت جرير على ولادة ابي العتاهية بأكثر من عشرين سنة .

(٣) سبق البيتان ص ٨٥ برواية : فانك واجدي عبد الصديق .

أبو تمّام [١] :

جمّ التواضع و الدنيا بسؤدده * يكاد يهتزّ من أطرافها سلفا [٢]

البحتري [٣] :

دنوت تواضعاً و علوت قدراً * فشأنك انحدار و ارتفاع

كذاك الشمس تبعد أن تسامي * و يدنو الضوء منها و الشعاع

وقد فرشت لك الدنيا مراراً * مراتب كلّها نجد يفاع [٤]

فما رفع التصفّح منك طرفاً * ولا مالت بأخدعك الضياع

وقال :

أُسوة للصديق يدنو إليه * عن محلّ في النبل عال رفيع

وإذا ما الكريم لم يتواضع * للأخلاّء فهو عين الوضيع

وقال :

جرى بالتواضع في حلّة * له نسجت من قلوب الورى

نعم ، حلّة قد أحلّت هواه * لعمرك من كلّ قلب حمى

هوى كلّ قلب لها لحمة * وما هو مسديه فيها سدى

فيا كسوة من و داد النفوس * عليها طراز جميل الثنا

ويا كسوة صان ربّ السماء * حواشيها عن دبيب البلى

يجدّدها حسن أُحدوثة * ولا بسها طعمة للثرى

و قال يوصف المهديّ [٥] بغاية الكرم في التواضع عن خلّة و أنّ الخلافة و عزّها لم يغيّر ما كان يعتاده من ذلك ، والخلق الأصيل هو الّذي لا يتغيّر بتغيّر الأحوال ، و

---

(١) انظر ديوانه ص ١٥١ من قصدة يمدح بها أبا دلف العجلى .

(٢) فى الاصلين « سلفاً » وما أثبتناه من الديوان .

(٣) بيتان منها فى اللالى (١ : ١٦٢) وفى النسخة (ر) البخترى بالخاء سهواً .

(٤) اليفاع : التل المشرف ، او كل ما ارتفع من الارض .

(٥) الصواب « المهتدى » وهو محمد بن هارون الواثق بالله العباسى ، وله خصال حميدة ، وشبه بعمر بن عبدالعزيز . ولد ٢٢٢ و توفى ٢٥٦ هـ .

يستوي مع الإقبال وتنسّم الكمال ، فقال :

سرت تبعاً فيه الخلافة رغبة * أتته بأوفى قصدها و اعتمادها
فما علقته خبط غاشية الدجى * ولكنّها اجتازته بعدارتيادها [١]
وما نقلت منه الخلافة شيمة * وقد مكّنته قبوة من قيادها
ولا مالت الدنيا به حين أشرقت * لهفي تناهي حسنها واحتشادها

وقد ذكر البحتريّ أيضاً التواضع مع المهابة و الجمع بينهما من شرف الخلائق فقال :

أغرّ لنا من جوده و سماحه * ظهير علينا ما يحبّ و شافع
يبجّل إجلالاً ويكبر هيبته * أصيل الحجى فيه تقىً وتواضع

ومثله :

مهيب لعمري في الصدور محبّب * ومن لك يوماً بالمهيب المحبّب

ومن جيّد التكبّر قول الشاعر :

وأعرض عن ذي المال حتّى يقال لي * قد أحدث هذا نخوة و تعظّماً
ومابي كبر عن صديق ولا أخ * و لكنّه فعلي إذا كنت مُعدماً

وممّا يحكى في زهو العرب وغيرهم وتيه المشهورين و كبرهم ماحدّث إبراهيم بن مسلم أنّ رجلاً قال للحجّاج ، لمّا ابتنى خضراء واسط[٢] : أصلح الله الأمير! كيف وجدت منزلك ؟ قال : خير منزل أقربه من روح الجبل وموافقته ، وأبعده من حزونته مع توسّطه المصرين ، وقربه من النهرين دجلة والفرات ، ولكنّي لو أدركت أربعة من أهل العراق وتقرّبت إلى الله بدمائهم لم يبق في نفسي حريج .

أمّا أحدهم فأبوسماك لأم الأسدي فإنّ ناقة له ندت[٣] فطلبها بكلّ حيلة فأعيته ، فقال : أما وعظمتك لئن لم تحبسها عليّ لا عبدتك طرفة عين أبداً فمرّت الناقة بشجرة

(١) خبط الليل - من باب علم - : سار فيه من غير هدى .
(٢) مدينه بناها الحجاج بين البصرة والكوفة . انظر معجم ما استعجم (١٣٦٢:٣)
(٣) اى تفرقت .

فتناولت منها فتعلّق خطامها بالشجرة فأدركها ، فلمّا انصرف قال : أما إنّ ربّي علم أنّ عيني كانت صبراً [١] . أما والله لو أدركته لما استبقيته .

وأمّا الآخر فعوف بن قعقاع بن سعيد بن زرارة التميميّ فإنّه مرّت به امرءة فقالت مسترشدة له : يا عبد الله ! الطريق ، فقال : ما أنا بعبد وزبرها . أنف الخبيث أن يكون عبداً لله ، أما و الله لو أدركته ما استبقيته .

وأمّا الثالث فمقاتل بن مسمع فإنّه ولي إصبهان ، فانتهب مال الله يميناً و شمالاً فلمّا انصرف جعل لا يمرّ في طريق من طرقها إلّا فرش له بالرياحين و قال الناس يثنون عليه ويدعون له. فالتفت إلى رجل بسائره فقال له : بمثل هذا فليعمل العاملون . فبذّر مال الله وتشبّه بالجنّة ، أما والله لو أدركته ما استبقيته .

وأمّا الرابع فعبيد الله بن [زياد بن] ظبيان [٢] مشى إليه قومه في بعض أمورهم فأجاب جميعهم إلى حوائجهم فقال رجل : كثّر الله فينا أمثالك ، فقال : والله لقد كلّفت ربّك شططاً . أ ظنّ عدوّ الله أنّ الله الّذي خلقه لم يخلق مثله؟ لو أدركته ما استبقيته . فقال القوم : هم لما رأى الأمير أهل !!

وذكر معاوية قال : قدم علقمة بن وائل الحضرميّ على النبيّ ﷺ فأمرني أن أنطلق به إلى منزل رجل من الأنصار أنزله عليه ، وكان منزله في أقصى المدينة فانطلقت معه وهو على ناقة له وأنا أمشي معه في وقدة الهجير [٣] وليس عليّ حذاء فقلت له : احملني ياعمّ من هذا الحرّ الّذي قد شواني قال : لست من أرداف الملوك قلت : إنّي ابن أبي سفيان قال : قد سمعت رسول الله ﷺ يذكر ذلك ، قلت : فألق عليّ نعلك قال : لا ، تقلّها قد ماك ولكن إمش في ظلّ ناقتي وإنّه لك كثير و كفاك بذلك شرفاً ، قال معاوية: فما مرّ بي يوم مثل ذلك اليوم ، ثمّ أدرك سلطاني فلم أؤاخذه بل أجلسته معي على سريري . و هذا وجه من وجوه الكبر المستحسن حيث إنّه وقع في حقّ معاوية [٤] ، و الّذي صنعه - كما ترى -

(١) لعله من الصبر بالتحريك وهو الجمد .

(٢) في الاصلين «عبيدالله بن طسان» وما أثبتناه من الاغاني (١٦٣:١٧) .

(٣) الهجير : شدة الحر .

(٤) ولا أظن أحداً يستحسنه - غير المؤلف - بهذه العلة .

إنّما هودهاء ليمدح به عند الناس .

وذكروا أنّ عبيدالله بن ظبيان الّذي ذكرناه في حديث الحجّاج من مشهوري أهل الكبر وهو قاتل مصعب ، ولمّا قتله وحمل رأسه إلى عبدالملك سجد عبدالملك شكراً لله فكان عبيدالله يقول : [يا[1]] ليتني قتلته حين سجد فأكون قد قتلت ملكي العرب في ساعة [2].

وله كبر مستحسن و مستقبح فمن المستقبح ما ذكرناه و ما يحكى أنّه لمّا قتل مصعباً خوّف بالنار فقال لمخوّفه : فهل هو إلّا أن يأمر بي إلى النار فما بعدها ؟

ومستحسن كبره ماكان من كلامه وقد دخل على عبدالملك وكان الناس يقولون في عبيدالله : « لايشبه أباه » فذكر ذلك عبدالملك في قولهم ، فقال عبيدالله : « لايشبه أباه من لم تنضجه الأرحام ، ولم يولد لتمام ، ولم يشبه الأخوال والأعمام » يعرّض بعبد الملك و كان قد ولد لستّة أشهر ، فقال عبدالملك : ومن ذلك ؟ فقال : سويد ، وكان حاضراً ، فقال عبدالملك: أكذلك[3] ياسويدبن منجوف ؟ فقال : إنّ الناس ليقولون ذاك ، فلمّا خرجاقال عبيدالله : مايسرّني باحتمالك حمر النعم ! فقال سويد : ومايسرّني أنّك لم تقلها ولي سودها!

ومن مستحسن كبره أنّ أباه لمّا أشفى[4] قال له : يابنيّ إنّ الأمير زياداً يروح إليّ عائداً فأوصيه بك ؟ فقال : ياأبت إن لم يكن للحيّ إلّا وصيّة الميّت فالحيّ هوالميّت .

ورأس المتكبّرين في الإسلام أبومسلم تكبّر على المنصور لمّا قدم عليه نيشابور و استخفّ به في أشياء وعرّض بالخلافة و تمثّل :

وأعزّ من ولد الأراقم ماجد * صلب الجبين معاود الاقدام

خلع الملوك وصار تحت لوائه * شجر العدا وعراعر الأقوام

فما زال به تكبّره حتّى أورطه .

وما زالت خلفاء بني اُميّة و بني العبّاس موصوفين بالكبر و التجبّر إلّا عمربن عبدالعزيز فإنّه سار من بينهم بالسيرة الحميدة ، وكذلك المهديّ بن الواثق [5].

(١) زيادة من الاصل .

(٢) ذكره أبوالفرج في الاغاني (١٦٤:١٧) في خبر مقتل مصعب .

(٣) في النسخة (ر) : اكذاك .

(٤) أشفى المريض الموت : قاربه .

(٥) قد ذكرنا ص ٣٠٠ أن الصواب « المهتدي » .

وتواضع الملوك ليس من جنس تواضع العامّة ولا تواضع العلماء .

وكذلك الملك إذا زاد على السيرة المعروفة للملوك في رفعته وتجبّره سمّي تيّاهاً وقد اشتهر بهذه السمة من خلفاء بني أُميّة عبدالملك و ابنه الوليد وقد ذكره المنصور بذلك لمّا ذكر خلفاءهم وقال : « أخرق تيّاه[١] » كما عاب سليمان بأنّه « بطنة وفرجة[٢] » وعاب يزيد بأنّه « شاطر ملعون » [٣] ثمّ فضّل هشاماً على القوم بالحزم وكان أبعد الجبابرة من الكبر ، والوليد ابنه[٤] كان معروفاً بالتيه و لذلك ندر منه التواضع حتّى دخل مسجد المدينة بعد نعقائه (؟) العظيمة ينظر إليه ومعه عمر بن عبدالعزيز فأُخلي له المسجد إلّا عن سعيد بن المسيّب فإنّ المُخلي هابه فذكر عمر أنّه كان يميل الوليد عن جانبه خوفاً أن يقع بصره عليه فبصر به فقال : من ذلك الشيخ ؟ فقال : هو سعيد بن المسيّب ، ولو علم بأمير المؤمنين لقام إليه ، فقال : ولكنّا نمشي إليه ونسلّم عليه فما زال يمشي حتّى قام على رأس سعيد فسلّم عليه و سأله فلم يقم له ، فكان عمر بن عبد العزيز يولي جاهداً فيقول : لا والّذي سخر الوليد لسعيد حتّى مشى إليه ماكان كذا و كذا .

وفعل سعيد هذا من الكبر المستحسن بل لم يكن كبراً في التحقيق وإنّما كان تقرّباً إلى الله وذهاباً بالدين عن الدنيا .

وكان يحيى بن معاذ يقول : التكبّر بمن تكبّر عليك بدنياه تواضع .

وقال بشر بن الحارث : سلّموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم .

وأمّا تيّاه بني العباس فموسى الهادي [٥] ، وقد وسم الرشيد بذلك أيضاً . أُعدّت للمنصور في التيه كبائر ، ولولم يكن من تيهه وتكبّره عن الحقّ إلّا ماكان من فعله بالرجل

---

(١) الاخرق : الاحمق ، الذى لا يحسن عمله . التياه : المتكبر .

(٢) صيغتان مبالغتان من البطن والفرج .

(٣) الشاطر المتصف بالدهاء والخباثة .

(٤) الضمير راجع الى عبدالملك .

(٥) في الاصلين « موسى والهادى » وهما اسم ولقب لواحد .

الّذي قام إليه وهو يخطب فأنشده :

نزلت بأقوام خماص بطونهم * و أنت بطين والرعيّة جوّع
تقوم إذا ماقمت تُسمع خطبة * ترجّع فيها و المدامع تدمع
كأنّك صيّاد تفيض دموعه * من الصرّ، والصيّاد يفري ويقطع (١)
يحزّ رقاب الطير من غير رحمة * وعيناه من برد العشيّات تهمع (٢)

وقد وسم الرشيد بذلك أيضاً . و المعتضد من متأخّريهم . و حلم المأمون غطى على تكبّره

وأخبار المشهورين من وزرائهم بالتيه كثيرة ، و الاشتغال بذكرها إطالة .

وبالجملة فيجب على العاقل أن يتأمّل ما في الكبر والعجب من الذلّ و الهلاك ، وما في التواضع و الخشوع من الخير و الصلاح و الفوز و النجاح ، و في قوله تعالى (٣) « فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها » دلالة ظاهرة على أنّ الانحطاط عن رفيع الدرجات إنّما يكون بالتكبّر. ومن أنّه واجب على كلّ ذي منزلة رفيعة أن يشفق عليها لايسقط عنها ، وذلك باستعمال التواضع واعتياد الرفق، وهذا ممّا اجتمع على قبوله العقل و الشرع ، واتّفق الاعتبار و الاختبار ، فكم من أُناس لهم منازل رفيعة عال الخطو عنها بعد الخلق المذموم ، و كم غنيّ افتقر بسبب عدم التواضع . وما من أحد سحب رداء الكبرياء إلّا أذلّه الله ومقته الناس ولعنوه ، وإمامهم إبليس لعنه الله فما استحقّ لعنة الله آباد الأبد و حمل خطايا جميع الأُمم إلّا بالكبر ، و كذلك في قصّة صالح وما أنبأنا الله من قول قومه الكافرين للمؤمنين في قوله (٤) : « قال الملأ الّذين استكبروا من قومه للّذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أنّ صالحاً مرسل من ربّه قالوا إنّا بالّذي أُرسل به مؤمنون * قال الّذين استكبروا إنّا بالّذي آمنتم به كافرون » إلى آخر القصّة ، دلالة ظاهرة على ذمّ الاستكبار في كلّ شيء من الأحوال و أنّ العبد لايتقرّب إلى الله بشيء هو أحبّ

(١) فرى الشيء: قطعه ، ومنه فرى الاوداج . وفي النسخة (ر) من القبر والصياد .
(٢) همعت العين ـ من بابي منع و نصر ـ أسالت الدمع .
(٣) سورة الاعراف : ١٢ .
(٤) سورة الاعراف : ٦٤ ـ ٧٥ .

إليه من التواضع لقبول الحقّ، وأنّه لايتبغّض إليه بشيء هو أبغض وأمقت من الاستكبار، وينبغي أن يعتقد أنّ من أتمّ الأدب وأوفى الخير أن يتواضع الإنسان لربّه الّذي خلقه وقسم عمره ورزقه، ثمّ لوالديه اللّذين ربّياه صغيراً، ثمّ لأستاده الّذي يعلّمه وهداه كبيراً، ثمّ لجميع الناس على العموم وخاصّة في قبول الحقّ، وفي استشعار أنّهم خير منه على الإطلاق فإنّ الإنسان إذا وقف على هذا الحدّ في معرفة نفسه و استصغاره قدره استحقّ الإعظام و الإكرام من غيره، و الارتضاء بجميع أفعاله و أحواله، وأقبلت القلوب إليه بالمحبّة، والوجوه بالخلطة والصحبة.

وقد قيل: إنّ لك عندنا قدراً مالم يكن لنفسك عندك قدراً.

وفي بعض الخطب: التقوى حصن حصين، والهوى مهاد مكين، والخير معقل منيع و الصدق مرعى مريع، والعلم من أحمد المقاصد والحلم من أوضح المراشد، والتواضع لايصدر إلّا عن سماوة الفضائل، و التكبّر لا يحضر إلّا عن دناءة الشمائل.

سأل سائل: من أذلّ الناس؟ فقال: الفقير الهاوع [1] والضيف النزيل على اللئيم المنوع، والمحبّ لحبيبه، والمريض لطبيبه.

ثمّ قال: هذا لسان التهزّل، وأمّا لسان الجدّ فمن أذلّ ممّن أوّله نطفة مذرة و آخره جيفة قذرة، ألزمت عليه الحجّة، ولم تقبل منه المعذرة، سلّط عليه الذباب والقمّل في حياته، وأكلته الدود بعد وفاته، لايدري متى يرحل وإلى أين ينقل وما به يفعل.

ووصّى بعض الصالحين فقال: كن من الشيطان كالغريب يقصده كلب راعي فيقصد [2] إلى الراعي، فإنّ الشيطان يرفع لك تسعاً وتسعين باباً من الخير حتّى يصطادك عند تمام المائة فقابله بالأضداد؛ فإن دعاك إلى الدنيا فقل: هي فانية وإن دعاك إلى الشهوات فقل: هي ندامة، وإن دعاك إلى الكبر فقابله بمعرفة أصلك وفرعك، تراب صلصال وحمأ مسنون وماء مهين، وإن دعاك إلى العجب فقل: كيف أعجب بما ليس منّي، إنّما هو توفيق و عصمة. والعجب ممّن يعجب بعلمه ولايدري بما يختم له. لارجاء لمن يذلّه الطمع ولا طمع

(١) الذى يحرص ويشح على المال.
(٢) فيفزع. خ ل.

لمن يستخفّه هلع ، ولاغنى لمن يخالطه طغيان ولا فقر لمن لم يعارضه أحزان ، و لا جدة لمن لم يغالبها بطر ، ولا بغية لمن لم يعادلها خطر ، ولا راحة لمن لم يمزجها أذى ، ولا صفوة لمن لم يشبها قذى ، و كيف تنعّم نفس في مسرّتها ولا مسرّة لم تحفف بأحزان ؟

و كيف تخلص حال من أذى وقذى * وقد أحاط بسعد الأفق نحسان

إنّ من عرف مقداره لم يعد أطواره ، و من وقف دون قدره يرفع الله من أمره ، و من أراد الانتفاع فلينخفض الجناح ، و من أحبّ الاعتزال فليرفع الجناح ، و من أراد الكرامة من الله والمحبّة من الناس فليوقّر كلّ كبير ، ولا يحقّر الصغير ، ولا يختال على البائس الفقير ، ولا يزدري المضطرّ الأسير ، ولا يغتبط بما عنده فرحاً ، ولا يمش على الأرض مرحاً :

ولا تمش فوق الأرض إلّا تواضعاً * فكم تحتها قوم هم منك أرفع

فإن كنت في عزّ و حرز و منعة * فكم تحتها قوم هم منك أمنع

فالتواضع ينتج منه الحياء والتكبّر يلجئ صاحبه إلى عدم الوفاء .

﴿فصل ١٤﴾

(يتضمن التنبيه على ما في الانفس من الحياء و الوفاء (١))

قال بعض العلماء : إنّ الحياء على أربعة أوجه :

حياء الجناية كآدم عليه السلام نودي : أفرارمنّا ؟ قال : بل حياء منك .

ورئي بعض الصالحين يصلّي بخارج المسجد فقيل له : لمَ لا تدخل المسجد فتصلّي فيه ؟ فقال : أستحيي أن أدخل بيته وقد عصيته .

وحياء التقصير كالملائكة يقولون : سبحانك ماعبدناك حقّ عبادتك .

و قال بعضهم : ربّما أُصلّي فأنصرف عنها و أنا بمنزلة من ينصرف عن السرقة من الحياء .

و كان بعضهم (٢) يقول : عند رؤية الآلاء و التقصير يتولّد بينهما حال للعبد تسمّى الحياء . و أُنشد :

لولا الحياء وأنّ الستر من سمتي * إذا قعدت عليك الدهر لم أقم

أليس عندك شكر للّتي جعلت * ماابيضّ من قادمثل الرأس كالجمم

وحياء الاجلال وذلك كحياء إسرافيل يتغطّى بجناحه حياء ، وحتّى يصير من الحياء كالوصع (٣) وهو طائر كأصغر مايكون ، ولهذا يقال : إنّ الحياء يوجب التذويب ، و يقال : الحياء ذوبان الحشا لاطّلاع المولى :

وقد كنت قبل الذنب أحسب أنّني * ذلول لأيّام الزمان حبيب

فأشرفت يوماً في البقاع فشافني * وذوالشوف من أعلى البقاع طروب

---

(١) و انظر في الحياء اصول الكافي (٢:١٠٦) و ارشاد القلوب : ١٨٠ و في الوفاء احياء العلوم (٢:١٨٧) .

(٢) في النسخة (ر) : وكان الجنيد .

(٣) في النسختين « الوضع » بالضاد المعجمة والاصلاح من حياة الحيوان (٢ : ٤٠٢) وهو الصعوة، وقيل : هو طائر أصغر من العصفور .

فما برحت نفسي تساقط أنفساً * و تخمد روحي للحيا و تذوب
وأبلست في حال الرجاء و باعدت * إلى النفس حاجات وهنّ قريب

وحياء الكرم و ذلك كما استحيا النبيّ ﷺ من صحابته أن يقول : اخرجوا ، وقدكانوا يؤذونه بطول حديثهم فقال الله تعالى[١] : «ولا مستأنسين لحديث» ومن ذلك قوله تعالى[٢] : «تمشي على استحياء» فإنّما استحيت لأنّها دعته إلى الضيافة ، وصفة المضيف إذا كان كريماً الاستحياء . ومنه قوله تعالى فيما أخبر عنه رسول الله ﷺ : «الشيب نور من أنواري وأنا أستحيي أن أحرق نوري بناري» .

و كان يحيى بن معاذ يأخذ بلحيته البيضاء و يناجي : سبحان الله ! يذنب العبد و يستحيي هو !

وقيل : إنّ الحياء مقسوم بين أربعة أشياء :

النفس وحياؤها من العصيان إذا كان ذلك بمرءى من الرحمن ، قال الله تعالى[٣] : «مايكون من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم» .

ويروى أنّ شاباً على عهد عمر دعته امرءة إلى نفسها فلمّا قدر عليها استحيا من الله فغشي عليه فحملوه إلى منزله فبقي أيّاماً بأسوء حال ثمّ مات وجاء عمر إلى قبره فقال «ولمن خاف مقام ربّه جنّتان» فسمع : أعطاهما الله .

وحكي أن بدوياً خلا بامرءة فلمّا جلس معها مجلس الرجال من النساء فرّ هارباً فقالت له : لمَ فررت؟ فقال : إنّ رجلاً باع جنّة عرضها السماوات و الأرض بإصبعين من بين فخذيك لقليل العلم بالمساحة !

وقيل : أشدّ الحياء حياء النفس من قلّة الحياء يوم كشف الغطاء .

اليوم ينكشف القناع المسبل * ليس التجمّل كلّ حين يجمل[٤]

---

(١) سورة الاحزاب : ٥٣ .
(٢) سورة القصص : ٢٥ .
(٣) سورة المجادلة : ٧ .
(٤) أسبل القناع أرسله وارخاه .

اليوم لا يرفع غير ذيلي * ليلي نهاري و نهاري ليلي

ليلي نهاري سُهادا * و نهاري ليلي سوادا

والثاني حياء الروح وذلك من كثرة الإحسان قال الله تعالى[١] : « وأحسن كما أحسن الله إليك » وقالوا في تفسير قوله تعالى عزّ وجلّ : [٢] « والمستغفرين بالأسحار » إنّ ذلك للحياء من عيوب الطاعات وما كان من القيام بالليل .

ويروى أنّ الله تعالى يعاتب عبداً من عباده فيقول العبد : يا ربّ مربي إلى عذابك، فإنّ عذابك أهون من عتابك .

وسئل بعض العارفين[٣] : أيّ الأعمال أفضل ؟ فقال :

إذا محاسني اللاّتي أدلّ بها * كانت ذنوبي، فقل لي: كيف أعتذر

ارض للسائل الخضوع ، وللـ * ـقارف ذنباً غضاضة الاعتذار

واستعذ منهما فبئس المقاما * ن لأهل الحياء و الأخطار

و الثالث حياء العقل وهو من النسيان وذلك كما حكى الله عن قوم قولهم [٣] : « قال ربّ لمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال أتتك آياتنا فنسيتها » .

تناسيت عهدي واطّرحت حقوقي * وخالفت أمري واصطفيت عقوقي

وما ذاك إلّا أنّني سهم نصرة * فنحو العُدى نصلي، ونحوك فوقي [٤]

ولاحت بروق منك أخلف ودقها * على أنّني ما أخلفتك بروقي

و الرابع حياء السر من الالتفات إلى كلّ من على وجه الأرض خاطب الله تعالى الخاصّ فقال [٥] : « ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظلّ » ثمّ قال : [٦] « فليعبدوا ربّ هذا

---

(١) سورة القصص : ٧٧ .

(٢) » آل عمران : ١٧ .

(٣) في النسخة (ر) سئل الشبلي .

(٣) سورة طه : ١٢٥ .

(٤) النصل : حديدة الرمح ، الفوق - بالضم موضع الوتر من السهم ، والمراد هنا آخر الرمح

(٥) سورة الفرقان : ٤٥ .

(٦) » قريش : ٣ .

البيت » وخاطب العامّ فقال [١] : « و حيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره » و قال [٢] : «أفلا تنظرون إلى الإبل كيف خلقت » فكم بين من ينظر إلى ربّه وبين من ينظر إلى غيره وقال في حال الحربين [٣] : «قل الله ثمّ ذرهم » .

وقال رسول الله ﷺ لأبي بكر [٤] : « لاتحزن إنّ الله معنا » حيث إنّ هذا الرفيق لم يكن على يقين من أنّ الباري جلّ وعلامع نبيّه ﷺ فكأنّه قال له : استحي من الله وانته عن هذا الجزع والفزع .

وقال موسى عليه السلام [٥] : « كلاّ إنّ معي ربّي سيهدين » .

وحكى بعضهم قال: خرجنا ليلة فمررنا بأجمة فإذا رجل نائم وفرسه عند رأسه يرعى فحرّكناه وقلنا له : يافتى ! ألا تخاف تنام في مسبعة [٦] ؟ فرفع رأسه و قال : أنا أستحي منه أن أخاف غيره .

همممت بطرفي يمنة ثمّ يسرة * فلم أر غير الله يأمله قلبي
وإني لأستحيي و كل الذي أرى * لربي أن أرجو وأخشى سوى ربي

و قال بعض شعراء الجاهليّة :

وإنّي لأستحيي من الله أن أرى * أطوف بحبل ليس فيه بعير
و أن أسأل المرء اللئيم بعيره * و بُعران ربّي في البلاد كثير [٧]
فللّيل أن آوي الليل حكمة * و للشمس إن غابت علي تدور
عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى * وصوّت إنسان فكدت أطير
رأى الله أنّي للأنيس لشأني * و تبغضهم لي مقلة و ضمير

وربّما زاد حياء السرّ على الالتفات إلى الغير ، و أوجب الحياء من الإقبال على

(١) سورة البقرة : ١٤٤ و ١٥٠ .
(٢) » الغاشية : ١٧ .
(٣) » الانعام : ٩١ و لعل الصحيح « الحزبين » .
(٤) حيث كانا في الغار ، وذكره الله تعالى في سورة التوبة : ٤٠
(٥) سورة الشعراء : ٦٣ .
(٦) الارض فيها السباع .
(٧) بضم الباء : جمع البعير

الحبيب والنظر إليه . كما قال مضرّس بن قرطة الهلالي[١] .

أردّ سوام الطرف عنك و ماله * على أحد إلّا إليك طريق
يهيّجني للوصل أيّامنا الأُولى * مررن علينا و الزمان وريق[٢]
تتوق إليك النفس ثمّ أردّها * حياء ، و مثلي بالحياء حقيق[٣]
على كلّ حال أستحيك وأتّقي * وإن طار من قلبي إليك فريق

وقد جاء في الحياء من الأخبار و الآثار حديث بان عليه النور و أُيّد بالحقّ و استخلص من التقوى، يجمع لك الأدب والتأديب ، ويدلّك على الصلاح والتسديد وهو لك إن وفّقت للعمل به مادّة في الباطن وجمال في الظاهر ، وعمدة في الخيرات وعُدّة في النائبات وهو قوله ﷺ[٤]: « لا إيمان كالحياء ، ولا حسب كالتواضع ، ولا شرف كالعلم ، ولا مال أعود من العقل ، ولا وحدة أوحش من العجب ، ولا عيش كالتدبير ، ولا كرم كالتقوى ، ولا قرين كحسن الخلق ، ولا ميراث كالأدب ، ولا فائدة كالتوفيق ، ولا تجارة كالعمل الصالح ، ولا ربح كثواب الله ، ولا ورع كالوقوف عند الشبهة ، ولا زهد كالزهد في الحرام ، ولا علم كالتفكّر ، ولا عبادة كأداء الفرائض ، ولا مظاهرة أوفق من المشورة ، واحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى ، واذكر الموت وطول البلى » .

وذكر بعض الصالحين القرون الماضية والأسلاف الخالية و قال : « تعامل القرن الأوّل فيما بينهم بالدين حتّى رقّ ثوب الدين ، ثمّ تعامل القرن الثاني بالوفاء حتّى ذهب الوفاء ، ثمّ تعامل القرن الثالث بالمروءة حتّى ذهب المروءة ، ثمّ تعامل القرن الرابع بالحياء حتّى ذهب الحياء ، ثمّ صار التعامل بالرغبة و الرهبة .

---

(١) احدبنى صبح بن عوف المزنى ، شاعر محسن مقل . ذكره الامدى فى المؤتلف : ١٩١ و الابيات من قصيدة له فى أمالى القالى (٢ : ٢٥٦) ومن القصيدة ابيات فى الاغانى (١٩:٥) و اللالى (٢ : ٨٩٤) .

(٢) الوريق : ذوالورق .

(٣) تاق اليه : اشتاق . وفى النسخة (ر) تتوق .

(٤) انظر تحف العقول ٦ و ١٠ .

و كتب عمر بن عبدالعزيز إلى الحسن[١] أعنّي أصحابك ، فكتب إليه الحسن : أمّا بعد فإنّه من كان من أصحابي يريد الدنيا فلا حاجة لك فيه ، ومن يريد الآخرة فلا حاجة له فيما قِبلك ، ولكن عليك بذوي الأحساب ، فإنّهم إن لم يتّقوا استحيوا ، و إن لم يستحيوا يكرموا .

وقال صاحب المنطق[٢] : من لم يستحي من نفسه واستحيا من الناس فلا قدر لنفسه عند نفسه .

و قال : من الحياء ترك التجنّي والبحث عن باطن القلوب .

و قال : الحياء فرع من التخلّف عن الجميل وهو بالأحداث حسن ، و أحسن منه أن لا يفعل ما يستحيا منه و افتقاده عند وجوبه في غاية القبح .

وقال : الصبر صبران فأعلاهما أن تصبر عمّا ترجو فيه الغنم في العاقبة . والحلم حلمان فأشرفهما حلمك عمّن دونك و الصدق صدقان فأعظمهما صدقك فيما تضرّك . و الوفاء وفاءان فأسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه . والحياء حياءان فأولاهما أن لا تفعل ما تستحيي منه .

وقال بعضهم : معنى الحياء من الله حصر القلب عن الانبساط ، والامتناع من ظنون لا يرضاها الله ، وعلامة المستحيي أن لا يرى في مكان يستحيا من مثله .

وقال : حقيقه الحياء من الله حسن المراقبة في السرّ والعلانية .

وقال : الحياء ينهى عن كلّ ما يحتاج أن يعتذر منه ، و عن كلّ ما إذا غاب علمه عن غيرك أحشمك ذكره في نفسك .

---

(١) بهامش الاصل بخط المصنف : « الظاهر أنه ليس هو الحسن البصرى الاول الذى كان فى زمن أمير المؤمنين على عليه السلام ، و يمكن أن يكون حسن البصرى الثانى كما نقل أهل السير انهما كانا اثنين » **أقول** : هذا الحسن هو البصرى المشهور و نقل استمداد عمر بن عبد العزيز منه الزركلى فى الاعلام ٢٣٤ عن تهذيب التهذيب . و كان له فى أيام أمير المؤمنين عليه السلام تسع عشر سنة .

(٢) هو أرسطو ، المعلم الاول .

وقيل له : بماذا يأمر الحياء ؟ فقال : يأمر بكلّ ما يحمد في الذرى [١] أثره ، و يطيب عند الكشف خبره .

وكان يقول : لاأزال الحياءَ عن قلوب الأولياء سرورُ الخدمة ، وسلب الحياء عن لسان المذبذبين عذر الخطيئة .

و قال أبو عثمان الخازنيّ : من تكلّم في الحياء ولا يستحي من الله فيما تكلّم منه فهو مستدرج [٢] .

ودخل الحسن الحدّاد على عبدالله بن المبارك فقال عبدالله : من أين ؟ فقال : من مجلس أبي القاسم ، قال : فيماذا كان يتكلّم ؟ قال : في الحياء ، قال عبدالله : و اعجباه لمن لم يستحي من الله كيف يتكلّم في الحياء !

وقال : الحبّ ينطق ، والحياء يسكت ، و الخوف يغلق .

وأنشد :

و مغض عن معاتبتي حياء * و إنّ لسانه السيف الصقيل
أطلت عتابه عنتاً و ظلماً * فدمّع ثمّ قال : كما تقول

ينوي العتاب له من قبل رؤيته * فإن رآه فدمع العين منسكب
لايستطيع كلاماً حين تبصره * كلّ اللسان ونار القلب تلتهب

وحدّث أبو القاسم الدمشقيّ قال : كنت واقفاً يوماً على حلقة الشبليّ فجعل يبكي ولا يتكلّم ، فلمّا طال قال رجل : ياأبابكر ماهذا البكاء كلّه ؟ فأنشأ يقول :

إذا عاتبته أو عاتبوه * شكا فعلي و عدّد سيّئاتي
أنا من دهره غضب و سخط * أما أحسنت يوماً في حياتي ؟

ثمّ قال : لا وعزّتك ما أحسنت يوماً في حياتي .

فقال بعضهم : أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيا منه .

---

(١) الذرى بالفتح مقصوراً : الملجأ وكل ما استترت به .

(٢) استدرجه : خدعه . والمستدرج : الخادع .

وقال محمد بن معاذ : دم على الصفاء إن كنت تطمع في الوفاء ، والزم الحياء إن كنت ترغب في العطاء .

وكان عمرو المكّي يقول : واحزناه من عهد لم تقم له بوفاء . ومن خلوة لم تصحب بحياء ، ومن مسألة ما الجواب فيها غداً ، ومن أيّام تفنى ويبقى ما كان فيها أبداً .

و كان معروف الكرخي يقول : حقيقه الوفاء إفاقة السرّ عن رقدة الغفلات ، و حقيقة الحياء فراغ الهمّ عن فضول الآفات .

وقال محمد بن الفضل : الحياء يتولّد من النظر إلى إحسان المحسن ، ثمّ من النظر إلى جفائك مع المحسن .

تسيء بنا ليلى و نحسن جهدنا * فحتّى متى ليلى تسيء و نحسن؟

وإنّي لأستحيي لها من فعالها * كأنّي في ليلى المسيء المخوّن [1]

ويحكى أنّ معروف الكرخيّ كان خاله والي البلد فدخل معروف يوماً خربة ومعه رغيف وفي الخربة كلب وكان يأكل لقمة و يلقي إلى الكلب لقمة ، فمرّ خاله بباب الخربة مع رجله [2] وخيله ، فأخبر بحال معروف فدخل عليه فقال : أما تستحي تؤاكل الكلاب ؟ فالتفت معروف إلى طائر فأتاه الطائر فسقط على يده و غطّى عينيه بجناحيه ، فعجب خاله من حاله وقال : هذا خير ممّا نحن فيه ، ثمّ قال : هبك دعوته فأجابك فما باله غطّى عينيه بجناحيه ؟ فقال معروف : استحييت من الله فاستحيا منّي كلّ شيء .

وهذا من الحياء الّذي يدعو إلى الصدود والإعراض ويحمل على الغضّ والإغماض وقد ذكره الأعرابيّ النميريّ في شعره فقال :

وقد زعم الواشون أن لا أحبّكم * بلى و ستور الله ذات المحارم [3]

أصدّ و ما الصدّ الّذي تعلمينه * عن أنباء إلّا اجتراع العلاقم [4]

---

(١) المخون : الخائن .

(٢) بكسر الجيم : الراجل ، من يمشي على رجليه .

(٣) الستور : جمع الستر ، والواو للقسم .

(٤) العلاقم جمع العلقم : الحنظل ، كل شي مر .

حياء و تقياً ، أن تشيع نميمة * بناوبكم ، اُفّاً لأهل النمائم[١]
و إنّ دماً او تعلمين جنيتُه * على الحيّ ، جاني مثله غير نائم
أما إنّه لولا الهوى لاعشت له * صدور القنا بالراغبات اللهازم[٢]
و لكنّه و الله ماطل مسلماً * كبيض الثنايا واضحات المباسم[٣]
إذاهنّ ساقطن الأحاديث للفتى * سقوط حصى المرجان من كفّ ناظم
رمين فأقصدن القلوب فلاترى * ذماماً يرى إلّا جرى في الحيازم[٤]

ومن الحكايات في الغدر والوفاء و القحة[٥] لمّا دخل المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل قالت : أماعسى ؟[٦] فغنّت :

جعلتك مشتكى حزني * و معتضدي على الزمن
وجدتك خائناً غدراً * فيا أسفا على بدني

تريد ما كان من غدر المأمون بالفضل بن سهل ، فقال المأمون : قد كنت عن هذا غنياً لولا شقائي .

ويحكى أنّ جعفر بن يحيى ابتاع غلاماً روميّاً فاستخفّ خدمته و تأمّله فرأى فيه خصائل أعجبته فخلا به يوماً فسأله عن كورته من الروم ، وعن اسم أبيه و اُمّه وما كان من قصّتهم ، فأخبره الغلام ، فأخبره أنّ اُمّه أخبرته أنّها كانت للملك ، فوهبها البعض بطارقته[٧] فلمّا هم أن يواقعها أعلمته أنّها حامل من الملك فرفع إلى الملك ذلك فقال له : و يحك إنّ ردّها عليّ ليهوّن لولا قالته الناس إنّ هذا الولد عنك ، ولأن يكون عبدك منسوباً إليّ أحبّ من أن يكون عبدي منسوباً إليك .

فوقف جعفر على صحّة خبره و توسّم فيه فراسة الملوك فاتّخذ له مؤدّبين فبرع

---

(١) التقيا : التقوى .
(٢) القنا : الرمح . اللهازم جمع اللهزمة : العظم الناتىء تحت الاذن في اللحى .
(٣) المباسم جمع المبسم : الثغر .
(٤) الحيازم جمع الحيزوم : وسط الصدر .
(٥) كذا في الاصلين ، ولعل الصواب : أما تغنيني ؟ .
(٦) بكسر القاف مصدر وقح يقح .
(٧) جمع البطريق : القائد من قواد الروم .

حتّى جعله جعفر على خاصّة اُموره وجعله أقرب الخلق من خدمته ، فلم يزل عنده بهذا الرسم إلى أن حلّ بهم ماحلّ .

وقد بلغ الرشيد خبر هذا الغلام و دعا به ورضيه واصطفاه لنفسه ووعده أن يجعله نديماً بدلاً من جعفر وتمكّن منه الغلام تمكّناً شديداً .

وبينا الغلام ذات يوم يسيرفي موكبه إذ بصرمن بعيد بابن الفضل بن يحيى ، وعليه قميص و رداء خلقين ونعل رقيقة ، فلمّا عاينه ابن الفضل حاد عن الطريق ليدخل سكّة ليتوارى فيها إلى أن يجوز الغلام ، و رآه الغلام على تلك الحال متحيّراً ، و فهم أمره ، فرمى بنفسه عن دابّته وعدا مسرعاً إليه و انكبّ عليه يقبّله و يقبّل رأسه و حمله بيده على دابّته الّتي كان عليها ، وأمر غلاماًمن غلمانه أن يعدو خلفه فلايرتجع الدابّةففعل، ورجع إليه فأخبره أنّه وجده في حجرة ضيّقة مع والدة له وهمافي خلّة و ضرّ شديد وسوء حال ، فبكى بكاءً شديداً وأمر بحمل مال كثيرإليه مع ذلك الغلام .

فبلغ الخبر الرشيد فدعا الغلام و هو مغضب فقال : نزلت عن دابّتك لبعض ولد أعدائي وفعلت كيت و كيت ؟ فقال : يا أميرالمؤمنين أينفعني الصدق ؟ قال: بلى قال: فأقول؟ قال : قل ماشئت ، قال : قد علم أميرالمؤمنين بأنّ جعفر ملكني وأنا عبد جليب،لا قدر لي إلّا لمثلي من العبيد ، وكان من نعمه عليّ أن صيّرني من الفهم و المعرفة و الآداب بحالة بلغت بهاخدمتك وأحرزت جميل رأيك ، فلاتلومني[1] على الوفاء لرجل قدأحلّني هذا المحلّ منك أن أنزل له عن بعض دوابّ هو مخوّلنيها .

فقال له الرشيد : كلّا و اغرورقت عيناه ثمّ قال : والله لولا أنّا جاوزنا الحدّ في أعقاب هولاء القوم لرجعنالهم إلى مايحييهم الله به ، فسمّ لي من بقي منهم فسمّى لهم فأمر بحمل مال عظيم إلى كلّ واحد منهم مابين العشرة آلاف إلى مائتي ألف ، وقال له : أبلغ هؤلاء القوم أنّهم آمنون على أنفسهم وأشعارهم وأبشارهم فينتشروا في أرض الله و يسألوا من فضله .

وبلغ الرشيد أنّ يحيى بن معاذ وجّه إلى منزل يحيى بن خالد بمال سرّاً و أنّه

(١) في النسخة (د) : فتلومني .

كان يتعهّد أُمور منزله بعد النكبة ويبعث إلى عياله بما احتاجوا إليه من الدقيق و النفقة والكسوة فبعث إليه فأتاه فقال : يايحيى كيف أنا لك ؟ قال : كالماء البارد العذب للظمآن المورود ، وكالوالد الحدب[٢] على الولد المطيع . قال : فوالله ماشكرت ما أبديت على لسانك قال : وماذاك يا سيّدي ؟ قال : لمَ وجّهتَ إلى آل برمك بأموال ينفقونها و كسوة يتجمّلون بها وقد قلّمتُ أظفارهم وحذفت أُصولهم وأعريت جلودهم ؟

فقال : ياأميرالمؤمنين ! إنّ هؤلاء قوم كانوا إليّ محسنين ولي بارّين ولي مكرمين وإنّما أعدّوني ليوم حاجتهم، فأحببت أن أشكر كثيرماكان منهم بقليل ماكان عندي فوجّهت إلى عيالاتهم بثمن الدقيق وماأشبهه ممّالوعدموا ماتوا ، فقال : و كيف شكرتُهم ياأميرالمؤمنين وما منزلي علق ولادابّة ولا مملوك إلّا وهم أوّله وهو لهم دوني ، وحتّى والله إنّ إسحاق ابني من جارية أهداها إليّ الفضل ، وإنّ دابّتي الّتي هي بباب أميرالمؤمنين الساعة لمن دوّاب الفضل . والله يا أميرالمؤمنين ! لقد بلغ خوفك و إيثار طاعتك أنّي لم أوجّه إلى أحد من رجالهم بالسلام ولا بعرض حاجة ولا بغيرها ، وما عدوت بيريّ إيّاهم نساءهم وأطفالهم ومن لاذنب له ولا حجّة عليه ، رأبي والله يا أميرالمؤمنين من الوفاء لعهدهم على هذا بحيث ما من شيء أصبحت أملكه إلّا وبودّي أُوثرهم به ، ومالا أفعله من ذلك لغضب أمير المؤمنين إيثار الغدر على الوفاء و الفعل الخسيس على الفعل الجميل ، فقال الرشيد : جزاك عن الوفاء خيراً فقد فعلت ما سررتني به وما كنت أولى به ، فكم صار إليهم من مالك في هذه المدّة ؟ فقال : والله ما أحصيت ذلك ، وما القوم عندي ممّن أُوجب الإحصاء عليهم وإنّ أكثر ماوجّهت إليهم لأموال استفلتّها من التجّار .

فقال الرشيد: هذا أعجب أمر بك أحسن الله إليك وأمتع أميرالمؤمنين بك .

ولنذكر طرفاً من أحد أمرين[٣] في سبب هلاكهم وإدبار الدنيا عنهم على ماذكره الأديب

---

(١) حدب ـ من باب علم ـ عليه : تعطف .

(٢) والامر الاخر دعاء الامام أبي الحسن موسى بن جعفر عليهم ، فأنهم كانوا من مبغضي أهل البيت ، والمظهرين لهم العداوة . انظر ما ذكره في الاغاني (٢٠ : ٦٧) من انهم لم يعطوا أبان بن عبد الحميد لعدم هجائه آل أبي طالب ، و انظر أيضاً باب حبس الامام الكاظم من البحار ط تبريز (١٢ : ٢٢٤) وسيذكر امر آخر في الجزء الثاني الباب السادس .

الكاتب في شرح البسّامة[٤] قال ما معناه أنّ الرشيد لمّا استوزر يحيى بن خالد عظمت مكانته عنده حتّى جعله على حرمه ، وظهر أبناء جعفر والفضل فأحبّهما الرشيد حبّاً شديداً بحيث كان لا يستطيع مفارقة جعفر لذكائه وفطنته وحسن درايته وعقله ، وكانت أُخت الرشيد العبّاسة من الذكاء و الفطنة بمكان ، فكان أيضاً لا يستطيع مفارقتها ، فقال لجعفر : إنّي لا أستطيع مفارقتك ومفارقة العبّاسة وإنّي أُريد أن أُنكحكها ليحلّ نظر كلّ منكما إلى صاحبه إذا اجتمعتما عندي ، ولا تعلق نفسك بها ، والحذر الحذر . فقال جعفر : العبد طوع أمر مولاه ، فعقد به عليها فكانا يحضران عنده فيستريح بحضورهما ، لفصاحتهما وذكائهما. فكان جعفر لا يستطيع النظر إلى العبّاسة هيبة من الخليفة ، فلم تحقّق صورتها وهي كانت تنظر إلى محاسنه سرّاً حتّى عشقته ، وكانت أمّ جعفر تصلح له في كلّ أُسبوع بكراً ، فأرسلت العبّاسة إلى جعفر تراوده عن نفسه لأنّه صار زوجاً ، فامتنع و قال لرسولها : لاسبيل إلى ذلك لما قاله الخليفة .

فأرسلت العبّاسة إلى أُمّ جعفر وقالت : والله إن لم تدخليني على جعفر لأُخبرنّ أخي بأنّ جعفراً يراودني عن نفسي و يكون ذلك سبب هلاككم ، فأدخلتها عليه وهو يظنّها غيرها من الأزواج اللاّتي كنّ يدخلن عليه على العادة فوطئها ، ولمّا فرغ من حاجته قالت له العبّاسة : كيف ترى كيد بنات الملوك ؟ فبهت وقال : والله هلكت . ثمّ إنّها حملت ووضعت ولداً وأرسل به مع حاضنته إلى مكّة لئلاّ يطّلع الرشيد .

و كان يحيى يشدّد على حرم الرشيد فاشتكت به زبيدة إلى الرشيد فلم يجبها الرشيد ، فقالت له : يحيى يشدّد علينا وابنه جعفر قد أحبل العبّاسة و أولدها و أنت في غفلتك ، ففزع الرشيد و قال : أصحيح ذلك ؟ قالت : نعم والولد في مكّة ، هو وحاضنته ، قال : وقد علم ذلك أحد؟ قالت : جميع من في الدار فكتم الرشيد أمره و آذن بالرحيل إلى

(٤) البسامة هي قصيدة رائية لابن عبدون المصري المتوفى ٥٢٩ هـ رثى بها بني الافطس ملوك المغرب ، وذكر فيها الملوك الماضية وأكثر وقائع العالم . شرحها الفاضل ابن بدرون الحضرمي وعدة اخر . واولها :

الدهر يضحك بعد العين بالاثر ● فما البكاء على الاشباح والصور

انظر كشف الظنون (٢ : ١٣٢٩) . و جمع أخبارهم محمد دياب الاتليدي في كتاب أسماه « اعلام الناس بما وقع على البرامكة من بني العباس » راجع اكتفاء القنوع : ٢٩١ .

مكّة ليكشف الأمر حقيقة ولم يغيّر من خلفه شيئاً على البرامكة ، فلمّا وصل خبره بالوصول إلى مكّة خرجت حاضنة الولد به إلى اليمن فراراً من الرشيد ، فلمّا وصل الرشيد مكّة تيقّن الخبر وهو كاتم أمره ، رجع إلى بعض الطريق .

فطلب ليلة من الليالي بعض خدمه الخواصّ فقال له : إنّي آمرك بأمر فهل أنت منفذ أمري على أيّ وجهه كان ؟ قال : نعم ولو أمرتني بقتل نفسي ، قال : فامض الساعة فأتني برأس جعفر ، والحذر الحذر أن تأتيني به حيّاً ، فغصّ الخادم بريقه وبهت ، لما يعلم من مكانة جعفر ، فقال : امض ويلك ! وقد استولى عليه غضب الملوك ، فمضى وهو يقدّم رجلاً ويؤخّر اُخرى ، فهجم على جعفر في ساعة مخالفة ففزع جعفر ، فأخبره الخادم فتضرّع جعفر إليه بما أمكنه أن يوصله إليه حيّاً ، فلمّا أحسّ الرشيد بمشي اثنين صاح بالخادم صيحة كادت تتلفه : لئن جئتني به حيّاً لأفعلنّ بك وأفعلنّ ، فضرب رأسه حيث هو وجاء به فلمّا نظر إليه أطرق ساعة ثمّ قال : اطلب لي فلاناً و فلاناً ، فلمّا حضرا أمرهما بضرب رأس الخادم وقال : لا أستطيع النظر إلى قاتل جعفر فضربا رأسه .

ثمّ أرسل إلى بغداد للقبض على يحيى و بقيّة البرامكة و أخذ أموالهم و تخريب دورهم ، فما دارت ثانيةٌ إلّا وقد صاروا نسياً منسيّاً . فسبحان مزيل النعم ؟

فمن تأمّل حالهم وحسن سيرتهم و كرمهم وأخلاقهم الشريفة علم أنّ الدنيا لا شيء وإنّما هي متاع الغرور أعاذنا الله وإيّاكم من صروفها والله سبحانه أعلم .

وممّا يضاهي ما سبق من الحكايات في حسن الوفاء ما رواه خادم المأمون[1] قال : طلبني المأمون ليلة وقد مضى ثلث الليل ، فقال : اطلب عليّ بن محمّد وديناراً الخادم وامضوا إلى آثار خرابات البرامكة فإنّي سمعت أنّ شيخاً يحضر هناك ليلاً فيبكي على البرامكة ويندبهم بشعر كثير ، فاستتروا ببعض جدرانها حتّى تسمعوا منه فاقبضوه وائتوني به ، قال : فمضينا واستترنا كما قال : وإذا شيخ وسيم عليه مهابة قد أقبل فجعل يبكي و ينتحب و يقول شعراً :

(١) رواه في ثمرات الاوراق (٢ : ٢٥٣) وقصص العرب (١ : ٤٨) عن العقد الفريد للملك السعيد : ٨٩ والمحاسن والمساوى : ١٢٢ .

ولمّا رأيت السيف جلّل جعفراً * ونادى مناد للخليفة: يا يحيى!
بكيت على الدنيا وأيقنت أنّه * قصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا
أجعفر! إن تهلك فربّ عظيمة * كشفت ونعمى قد وصلت بها نعمى (١)
فقل للّذي أبدى ليحيى وجعفر * شماتته: إذهب لشانيكما العقبى
لئن زال غصن الملك عن آل جعفر * لما زال حتّى أثمر الغصن واستعلى
وما هي إلّا دولة بعد دولة * تبدّل ذا ملكاً وتعقب ذا بلوى
على أنّها ليست تدوم لأهلها * ولو أنّها دامت لكنتم بها أولى

قال الخادم: فظهر ناله وقبضنا عليه فجزع وفزع وقال من أنتم وما تريدون منّي؟ فأخبرناه بقول المأمون، فقال: دعوني أوصي فإنّي لا آمن العطب (٢)، فتقدّم إلى بعض الدكاكين فاستفتح و كتب وصيّته ودفعها إلى غلامه ثمّ مضينا به إلى المأمون، فلمّا دخل عليه زجره وقال: من أنت وبما استوجب البرامكة منك أن تفعل ما فعلت؟ فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين للبرامكة عندي أيادي خضرة، أفتأذن لي أن أحدّثك حالي معهم؟ قال: قل، فقال: أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، زالت عنّي نعمتي وركبني ديون احتجت معها إلى بيع مسقط رأسي فأشير عليّ بالخروج إلى البرامكة.

فخرجت من دمشق و معي نيّف و ثلاثون امرأة و صبي (٣) و صبية فنزلنا ببعض مساجد بغداد فاستخرجت ثوبيات كانت معي قد أعددتها لأستمنح بها الناس، فلبستها و خرجت عنهم وهم جياع لاشيء عندهم، أسأل عن دور البرامكة.

فإذا أنا بمسجد مزخرف فيه مائة شيخ بأحسن زينة، فطمعت فيهم ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم، وأنا أقدّم وأؤخّر، والعرق يسيل منّي لأنّها لم تكن صناعتي.

وإذا بخادم يطلب القوم فسرت معهم فدخلنا دار يحيى بن خالد، وإذا يحيى جالس على دكّة في بستان فسلّمنا وهو يعدّنا مائة وواحداً وبين يدي يحيى عشرة من ولده و إذا

(١) النعمى - بضم النون - : اليد الصالحة.
(٢) العطب بالتحريك: الهلاك.
(٣) في الاصلين « وصبياً » والاصلاح من النثرات.

غلام أمرد قد أقبل من بعض المقاصير[١] وبين يديه خدم مع كلّ خادم مجمرة فيها كهيئة الفهر[٢] من العود مقروناً بمثله من العنبر السلطانيّ ، فوضعوه بين يدي الغلام وجلس إلى جنب يحيى، فقال يحيى للقاضي : تكلّم وزوّج بنتي عائشة من ابن أختي هذا ففعل ، فنثروا علينا المسك والعنبر وعددنا مائة و اثنا عشر فخرج خدم على عددنا مع كلّ خادم صينيّة[٣] فضّة فيها ألف دينار شاميّة فوضع بين يدي كلّ منّا صينيّة ، فصبّ القاضي وأصحابه الدنانير في أكمامهم وجعلوا الصواني تحت آباطهم وقاموا .

فبقيت وحدي بين يدي يحيى لم أجسر على أخذ الصينيّة فأوثق الخادم فأخذتها وقمت وكنت ألتفت خشية أن أُمنع من الذهاب ، فأمر يحيى بردّي وسألني ، فقصصت عليه قصّتي فقال لابنه موسى : خذ هذا واحفظه بنفسك ونعمتك ، فأكرمني موسى يومي وليلتي ثمّ العبّاس كذلك ثمّ أحمد كذلك .

فلم أزل في أيديهم عشرة أيّام على أتمّ الأحوال ولم أدر ماحال العيال، في الأموات هم أم في الأحياء ، فلمّا كان اليوم الحادي عشر جاءني الخادم وقال : قم إلى عيالك بسلام فقلت : واويلاه سلبت الدنانير و الصينيّة وأُخرج إلى عيالي هكذا ! فقال الخادم : امش فالّذي ذكرته باق مع غيره فلم يزل يرفع لي الستور حتّى رأيت حجرة كالشمس واستقبلني منها رائحة العود والندّ[٤] وإذا الصبيان يتقلّبون في الحرير[٥] ، وقد حمل إليّ ألف ألف درهم مبدّرة[٦] وعشرة آلاف دينار وقبالتين بضيعتين[٧] ، وتلك الصينيّة و دنانيرها ، فبقيت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشر سنة كأنّي منهم .

---

(١) المقصورة : الحجرة من حجر الدار .

(٢) حجر رقيق تسحق به الادوية .

(٣) الصينية : طبق يتخذ لتقديم الشيء عليه . وفي الاصل « الصبنية » .

(٤) بفتح النون وكسرها : عود يتبخر به .

(٥) في الثمرات : واذا بصبياني وعيالي يتقلبون .

(٦) أي في البدرة ، وهي وعاء يجعل فيها النقود . وفي الاصل « مبذرة » بالذال .

(٧) بفتح الضاد : العقار ، الارض المغلة .

فلمّا نزل بهم ما نزل قصدني عمرو بن مسعدة وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج مالا يفي دخلهما به ، فلمّا تحامل عليّ الدهر فعلت مافعلت مكافاة لهم على إحسانهم ، فقال المأمون : عليّ بعمرو بن مسعدة ، فلمّا حضر قال له المأمون : كم ألزمت هذا في ضيعتيه ؟ قال : كذا و كذا ، فقال : ردّ عليه كلّ ما أخذته منه و الضيعتان له و لعقبه . فعلا نحيب الرجل فطال بكاؤه ، فقال له المأمون : أحسنّا إليك فلمَ تبكي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! و هذه أيضاً من صنائع البرامكة ، ولولا بكائي في خراباتهم لما اتّصلت بك ، فدمعت عينا المأمون ، وظهر حزنه على القوم وقال : هذا لعمري من صنائعهم فعليهم فابك ، و أيّامهم فاشكر ، ولهم فأوف ، وإحسانهم فاذكر .

ايضاح كان كافور الإخشيديّ [١] والي مصر والشام نائماً في بعض الأيّام فانتبه وطلب جماعة من أصحابه مسرعاً وقال : امضوا إلى عقبة النجّارين واسألوا عن شيخ منجّم أعور كان يقعد هناك فإن كان حيّاً فاحضروه وإلّا فاسألوا عن أولاده ، فمضوا فوجدوه قد مات وترك بنتين ، إحداهما مزوّجة و الأخرى عاتق [٢] ، فرجعوا و أخبروه فاشترى في الحال لكلّ واحدة داراً ، وأعطى كلاً منهما كسوة وذهباً كثيراً ، وزوّج العاتق و أجرى لكلّ منهما رزقاً ، و أظهر أنّهما من الحاشية .

فلمّا فرغ من ذلك ضحك ، قال : أتعلمون سبب ذلك ؟ فقالوا : لا . فقال : مررت بوالدهما المنجّم وأنا في ملك ابن عبّاس الكاتب بحالة رثّة فنظر إليّ و استجلسني وقال : ستصير إلى رجل جليل القدر ، و تبلغ منه أمراً كبيراً ، وتنال خيراً كثيراً ، و طلب منّي شيئاً فأعطيته درهمين لم يكن معي غيرهما ، فرمى بهما وقال : أبشّرك بعظيم وتعطيني درهمين ثمّ قال : وأزيدك : والله تملك هذا البلد و أكثر منه ، فاذكرني حينئذ ولا يشغلك الملك عنّي ، فعاهدته على ذلك ولم يقبل منّي الدرهمين .

ثمّ إنّي شغلت عنه بما تجدّد لي من الولاية ونسيت ذلك ، فلمّا كان اليوم رأيته

---

(١) كان كافور عبداً اشتراه الاخشيد ملك مصر سنة ٣١٢ هـ فنسب اليه وأعتقه، وما زالت همته تصعد به حتى ملك مصر سنة ٣٥٥ ، وتوفي بالقاهرة سنة ٣٥٧ . و الحكاية له في المستطرف (١ : ٢٠٠-٢٠١) و العقد الفريد للملك السعيد ص ٨٥ وعنه في قصص العرب (١ ٣٢٧) .

(٢) الجارية التي لم تتزوج .

في النوم وهو يقول : أين الوفاء [لا] تغدر[١] فيغدر بك واستيقظت ، وفعلت مارأيتم .

فاشتهر هذا بمصر فتضاعف الدعاء لوفائه .

تنبيه : في حسن الوفاء حديث السموأل[٢] وذلك أنّ امرء القيس الكنديّ لمّا قصد قيصر إلى الروم أودع عندالسموأل أدراعاً [٣] و سلاحاً ، فلمّا مات امرؤ القيس سيّر ملك بني كندة[٤] من يطلب ذلك من السموأل ، فامتنع السموأل وقال : لا أدفعه إلّا إلى مستحقّه ولا أغدر بذمّتي ، ولا أخون أمانتي ، فقصده الملك بعسكره فتحصّن السموأل بحصن كان له فأطاف الملك بالحصن وظفر بولد للسموأل كان خارج الحصن ، ثمّ قال للسموأل : إمّا أن تطلق عليّ السلاح وإمّا قتلت ولدك ، فقال السموأل : اصنع ما شئت فما أنا بغادر ، فذبح ولده وارتحل عن الحصن خائباً ، فلمّا جاء الموسم وحضر ورثة امرىء القيس دفع إليهم أمانتهم . فرأى أنّ رعاية وفائه أحبّ إليه من ولده وبقائه ، فصار يضرب به الأمثال في الوفاء .

أقول : هذا السموأل كان يهوديّاً وهو مع ذلك كان أميناً وفيّاً غير غادر كماسمعت من خبره ، و كونه استأثر قتل ولده لأجل الوفاء بعهده وإيصال الحقّ لأهله ، و نرى في زماننا هذا من أهله الغدر وعدم الوفاء ، وقتل بعضهم بعضاً ، و حسدهم ، و بغض كلّ منهم لآخر ، وحرصهم على هذه الجيفة ، مالو ن كرت معشار عشره لطال المقال وحصل الملال ، و نرجو من البارىء إصلاح الأحوال إنّه هو الكريم المتعال ، بمحمّد و آله خير آل ولكنّ الغدر وعدم الوفاء من أهل زماننا ليس بعجيب بل الوفاء منهم عجيب .

---

(١) زيادة من النسخة (ر) والمستطرف و قصص العرب .

(٢) هو السموأل بن عريض بن عادياء ، من يهود تيماء ، شاعر جاهلي حكيم ، أشهر شعره لاميته التي مطلعها :

اذاالمرء لميدنس من اللؤم عرضه ٭ فكل رداء يرتديه جميل

توفي سنة ٦٥ ق‌ه وترى ترجمته في الاصمعيات ٨٠ . والخبر في مجمع الامثال (٢:٣٣٦) في أوفى من السموأل ، والمحاسن والاضداد ٥٨ و المستطرف (١:٢٠١) وعنه في قصص العرب (١:١٦٨) .

(٣) الصواب اما أدرعاً أو دروعاً كما في المستطرف ، فالادراع جمع للدرع المرة ، وهو قميصها أوثوبها الذي يلبسها في بيتها .

(٤) في الاصلين « ملك بن كندة » .

وأعجب من ذلك ما اتّفق في الصدر الأوّل من شؤم عدم الوفاء قصّة ثعلبة بن حاطب[١] وذلك أنّه جاء يوماً إلى النبيّ ﷺ فقال : يارسول الله ! ادع الله تعالى أن يرزقني مالاً فقال له النبيّ ﷺ : أمالك في رسول الله أُسوة حسنة ، والّذي نفسي بيده لو أردت الجبال أن تسير معي ذهباً و فضّة لسارت .

فعاود ثالثة وقال : والّذي بعثك بالحقّ نبيّاً لئن رزقني الله مالاً لأُعطينّ كلّ ذي حقّ حقّه وعاهد الله على ذلك ، فقال النبيّ ﷺ : « اللّهم ارزق ثعبة مالاً »

فاتّخذ غنماً فنمت كالدود ، فكان يصلّي مع النبيّ ﷺ الظهر و العصر فضاقت عليه المدينة فنزل وادياً من أوديتها ونمت غنمه فكان يصلّي مع النبيّ ﷺ الظهر والعصر وباقي الصلوات في غنمه ، فكثرت غنمه فبعد وكان لايصلّي مع النبيّ ﷺ إلّا الجمعة ، ثمّ كثرت فتباعد حتّى كان لايشهد جمعة ولاجماعة .

فقال النبيّ ﷺ ذات يوم : مافعل ثعلبة ؟ فقالوا : يارسول الله ! اتّخذ غنماً ما يسعها واد ، فقال عليه السلام : ياويح ثعلبة !

فنزلت آية الزكاة فبعث النبيّ ﷺ رجلين لقبض الزكاة منه ومن غيره فأتياه و قرءا عليه كتاب النبيّ ﷺ فلمّا سمعه قال : ماهذه إلّا جزية ، ماهذه إلّا أُخت الجزية ، اذهبا إلى غيري ثمّ عودا إليّ ، فذهبا ثمّ رجعا فقال كقوله الأوّل ، ثمّ قال : اذهبا حتّى أرى رأيي ، فلمّا قدما على النبيّ ﷺ قال لهما قبل أن يتكلّما : ياويح ثعلبة !

فأنزل الله عزّ و جلّ[٢] « و منهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصّدّقنّ » الآيات ، فسمع ثعلبة بذلك فأتى النبيّ ﷺ وسأله أن يقبل منه الصدقة فقال : إنّ الله منعني أن أقبل منك صدقتك ، فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه ، فقال عليه السلام : هذا عملك بنفسك ، قدأمرتك فلم تطعني .

فلمّا قبض ﷺ وجلس أبوبكر مجلسه جاء ثعلبة وعرض عليه صدقته فلم يقبلها

---

(١) تفصيل الخبر في المستطرف (١ : ٢٠٩) وترى ترجمته و الخبر باختصار في الاصابة (١ : ١٩٩ ، برقم ٩٢٨) والاستيعاب (١ : ٣٠٣) وانظر التفاسير ذيل الاية « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين » سورة التوبة : ٧٦ .

ثمّ أتى عمر في خلافته وعرض عليه قبولها فلم يقبلها . وكذلك عثمان لم يقبلها، كلّ منهم يقول : لم يقبلها منك رسول الله ﷺ فلا نقبلها،حتّى مات ثعلبة في خلافة عثمان . فهذه عاقبة من لم يف بالميثاق وكيف وسم إلى يوم القيامة بسمة النفاق .

استبصار : فيه من حسن الوفاء مايروق الأسماع و يحرّك الطباع ، و ذلك أنّ العبّاس صاحب شرطة المأمون قال :[١] دخلت يوماً مجلس المأمون ببغداد ، وإذا بين يديه رجل مكبّل بالحديد ، فقال لي : ياعبّاس خذ هذا إليك واستوثق به واحفظه ولايفُتك ، وبكّر به[٢] إليّ ، و احذر عليه كلّ الحذر .

قال العبّاس فدعوت جماعة حملوه ولم يقدر أن يتحرّك فتركته في مجلس أنا فيه ، لما رأيت من تغليظ الوصيّة . فلمّا خلوت به سألته عن قصّته ومن أين هو ، فقال : من دمشق فقلت : جزى الله دمشق وأهلها خيراً فمن أنت من أهلها ؟ فقال : لا ينبغي أن تسألني[٣] فقلت له : أتعرف فلاناً ؟ فقال : ومن أين تعرف ذلك الرجل ؟ فقلت :[٤] كانت لي معه قصّة فقال : ما أنا ممّن يعرّفك خبره [حتّى تعرّفني قضيّتك معه[٥]] فقلت :

كنت مع بعض الولاة بدمشق فبغى أهله علينا ، وخرجوا عن الطاعة فهرب الوالي وهربت مع جملة أصحابه فمررت بهذا الرجل وهو جالس على باب داره وجماعة يعدون خلفي فقلت له : أغثني أغاثك الله ، فقال : ادخل الدار فدخلت ، فقالت امرأته : ادخل الحجلة فدخلتها ، فدخل القوم يفتّشون الدار حتّى جاءوا الحجلة فصاحت عليهم المرة ونهرتهم[٦] فلم ألبث أن جاء الرجل فقال : لاتخف وقد صرف الله شرّهم ، ثمّ مازال يعاشرني أحسن

---

(١) الخبر في المستطرف (١ : ٢٤٠) وثمرات الاوراق (٢ ٢٦١) وقصص العرب (١ : ٣٠٤) عن المستطرف وعقد الفريد للملك السعيد : ٨١ .

(٢) أي أدخله على بكرة .

(٣) في المراجع مكان هذه الجملة « وعمن تسأل ؟ » .

(٤) في الاصلين « فقال » سهواً .

(٥) زيادة من المراجع ليست في الاصلين .

(٦) نهره : زجره ومنعه .

معاشره ، ويطعمني معه ، وأفرد لي مكاناً من داره ، ولم يحوجني إلي شيء ولم يفتر [١] عن تفقّد حالي .

فدمت عنده أربعة أشهر في أتمّ عيش لا أظهر إلى أن سكنت الفتنة ، فقلت له : أتأذن لي في الخروج حتّى أتعرّف حال غلماني فلعلّي أن أقف منهم على خبر ؟ فحلفني لأرجعنّ إليه ، فخرجت فلم أجدهم فعرّفته و قلت له : أُريد الشخوص إلى بغداد فإنّ القافلة بعد ثلاثة أيّام تخرج ، وقد تفضّلت ولك عليّ عهد الله إن لاأنسى هذه اليد عليّ و لأكافينّك بها مهما استطعت ، وأسألك تتميمه بنفقة و كسوة إلى بغداد ، فقال : خيراً ، ثمّ قال لغلام له أسود : انعل الفرس الفلانيّ ، وتقدّم إليّ من في داره بإعداد السفر ، فقلت : لعلّه يريد ناحية من النواحي ، فمكثوا يومهم إلى الغد في كدّ و تعب ، فلمّا كان يوم خروج القافلة جاءني في السحر و قال : يا فلان ! قم فإنّ القافلة تخرج الساعة و أكره انفرادك عنها ، فقلت في نفسي : كأنّه ما وثق بي فلم يعطني شيئاً ، ثمّ قمت فإذا هو و امرءته يحملان ليخفّين جديدين ورايات معمولة ، وآلة السفر ، ثمّ جاءني بسيف ومنطقة فشدّدها في وسطي ثمّ قدم بغلاً وحمل عليه صندوقين وفوقهما مفرش ودفع إليّ نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم ، وقدّم إليّ الفرس الّذي أنعله و الغلام الأسود ، و أقبل هو وامرءته يعتذران من التقصير في أمري ، وأنا أتوقّع خبره لأكافيه ولم يقدر لي ذلك لكثرة شغلي بالخليفة و بالتنقّل معه .

فلمّا سمع كلامي قال : قد أمكنك الله من مجازاته بلا كلفة ، فقلت : كيف؟ قال: أنا ذلك الرجل ، وإنّما غيّر حالي الّذي تعرفه ما أصابني من المحنة ، ولم يزل يذكر تفاصيل الأسباب حتّى تيقّنت معرفته فلم أتمالك [٢] أن قبّلت رأسه ، ثمّ قلت: فما الّذي صيّرك إلى ما أرى ؟ فقال : هاجت بدمشق فتنة مثل تلك الفتنة ، فنسبت إليّ وبعث الخليفة بجيوش أصلحت البلد ، فأُخذت وضربت إلي أن أُشرفت على الموت وبُعث بي إلى الخليفة وأمري عنده غليظ وهو قاتلي لامحالة ، وقد أُخرجت من أهلي بلا وصيّة وقد تبعني من غلماني

(١) من الفتور بمعنى التساهل .

(٢) أى سلب منى الاختيار .

من ينصرف إلى أهلي بخبري وهو نازل عند فلان ، فإن رأيت أن تجعل من مكافاتك لي أن تبعث من يحضره حتّى اُوصيه بما اُريده وأتقدّم إليه بما يكون وصيّة منّي لأهلي ، فإن فعلت ذلك فقد جاوزت حدّ المكافاة .

فقال العبّاس : يصنع الله خيراً ثمّ أحضر حدّاداً فحلّ قيوده وأنكاله وأدخله الحمّام في داره وخلع عليه ، وأحضر غلامه فلمّا رآه بكا وجعل يوصيه ، ثمّ استدعى العبّاس نائبه وقال : عليّ بالفرس الفلانيّ و البغل الفلانيّ و البغلة الفلانيّة حتّى عدّ عشرة ثمّ من الصناديق و الكسوة كذا و كذا ، ومن الطعام كذا و كذا وعشرة آلاف دينار وخمسة آلاف درهم ، ثمّ قال لنائبه في الشرطة : خذ هذا و اعبر به في حدّ الأنبار .

فقال الرجل : أمري عظيم عند الخليفة و إن احتججت بأنّي هربت بعث في طلبي كلّ من على بابه فأرادوا قتلي .

فقال : انج بنفسك و دعني اُدبّر أمري .

فقال [1]: والله لا أبرح من بغداد حتّى أعلم مايكون من خبرك فإن احتجت إلى حضوري حضرت ، فقال لصاحبه : أن يكن الأمر كذا فليكن في موضع كذا فإن أنا سلمت إلى غداة غدفأعلمه،وإن أنا قتلت كنت قد وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه واُنشدك الله لا تذهب من ماله ما قيمته درهم ، وتجتهد في إخراجه من بغداد ، قال الرجل:فأخذني صاحب الشرطة وصيّرني في مكان أثق به .

وتفرّغ العبّاس لنفسه فاغتسل و تحنّط وتكفّن .

قال العبّاس : فلم أفرغ من صلاة الصبح إلّا و رسول الخليفة يقول : هات الرجل فقمت إليه ، فقال : أين الرجل ؟ فسكتّ ، فقال : ويحك ! الرجل ؟ فقلت : لاوالله ماهرب ولكن اسمع منّي حديثه وقصصت عليه القصّة ، وعرّفته أنّي اُريد مكافاته وقلت : أنا ـ و ومولائي أميرالمؤمنين ـ بين أمرين : إمّا أن يصفح عنّي فأكون قد وفيت و كافيت و وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه ، و إمّا أن يقتلني وقدتحنّطت وهذا كفني .

---

(١) في الاصلين: فقلت .

فلمّا سمع المأمون كلامي قال : لاجزاك الله خيراً إنّه أحسن إليك بلا معرفة و تكافيه بعد المعرفة بهذا لاغير ،هلاّ كنت عرّفتنا خبره فكنّا نكافيه عنك ، ولانقصّر في وفائك له فقلت : يا أمير المؤمنين ! إنّه ههنا وقد حلف أن لايبرح حتّى يعرف بسلامتي ، فإن احتيج إليه حضر .

فقال المأمون : هذه منّة أعظم من الأولى ، اذهب إليه وطيّب نفسه و أت به إليّ لأتولّى مكافاته عنك ، فصرت إليه و خبّرته بذلك ، فقال : الحمد لله الّذي لايحمد على السرّاء والضرّاء سواه ، ثمّ قام وصلّى ركعتين ثمّ ركب فلمّا مثّل بين يدي المأمون أقبل عليه و أدناه من مجلسه وحدّثه حتّى حضر الغداء ، فأكل معه وخلع عليه و عرض عليه أعمال دمشق فأبى ، فأمر له المأمون بعشرة أفراس مكمّلة و عشرة بغال بآلاتها و عشر بدر[١] وعشرة تخوت[٢] وعشرة مماليك بدوابّهم ، ووصّى به عامل دمشق وأطلق خراجه وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق ، فكانت كتبه تصل إلى المأمون فيقول : ياعبّاس هذا كتاب صديقك . انتهى .

و من عجيب ما اتّفق في الوفاء من الوقائع و الغرائب و البدائع أنّ الملك النعمان بن المنذر كان جعل له يومين[٣] يوم بؤس من صادفه فيه قتله و أرداه ، و يوم نعيم من لقيه فيه أحسن إليه و أغناه . و اتّفق أن رجلاً من طيّء[٤] خرج

---

(١) بكسر الباء : جمع البدرة .

(٢) جمع التخت ، وهو هنا : خزانة الثياب . وفي النسخة (ر) «بخوت» اى الجمال البختية .

(٣) و من خبر اليومين أن النعمان بن المنذر أو المنذرين ماء السماء ـ على اختلاف ـ كان له نديمان من بني أسد فأغضباه في بعض المنطق فأمر أن يحفر لكل منهما حفيرة بظهر الحيرة ، ثم يجعلا في تابوتين ويدفنا في الحفرتين ففعل ذلك بهما ، ثم ندم على فعله وأمر ببناء الغريين عليهما ، و جعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عند الغريين يسمى أحدهما يوم نعيم والاخر يوم بؤس ، فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الابل سوداً ، وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان أسود ثم يأمر به فيذبح ويغذى بدمه الغربان . وانظر للخبر و اليومين الاغاني (١٩ : ٨٦ – ٨٨) والمحاسن والاضداد للجاحظ : ٦٠ والمستطرف (١ : ١٩٩) وقصص العرب (١ : ١٦٧) وفي الخبر اختلاف كثير .

(٤) هو حنظلة بن أبي عفر النعمان أحد المتعبدين في الجاهلية ، ترجمنا له في طرتنا على شرح شواهد مجمع البيان (١ : ١١٨) وانظر بعض خبره في معجم ما استعجم (رسم دير حنظلة) .

لأطفال معه محاويج ما يسدّ به حاجتهم ، فحصل له بعض مطلوبه فصادف الملك المذكور في يوم بؤسه فلمّا رآه الطائيّ أيقن بالهلاك فقال . حيّا الله الملك ! إنّ لي صبية صغاراً و أهلاً جياعاً ، وقد أرقت ماء وجهي في هذه البلغة الحقيرة لهم وقد أقدمني سوء حظّي هذا اليوم العبوس ، وقد قربت من مقرّ الصبية والأهل وهم على شفا [1] ، أتأذن لي في إيصال هذه البلغة و أوصي بهم أهل الحسنى من الحيّ لئلاّ يضيّعوا ، و عليّ عهد الله أن أرجع إلى الملك مساء وأسلّم نفسي بين يديه ، فلمّا سمع النعمان كلامه فتحقّق صدقه رقّ له وقال: لا آذن لك إلّا أن يضمنك رجل معنا ، فإن لم ترجع قتلناه . وشريك بن عديّ نديم النعمان معه، فالتفت الطائيّ إلى شريك وقال له شعراً :

ياشريك بن عديّ	*	ما من الموت انهزامي
بل لأطفال صغار	*	عدموا طعم الطعام
بين جوع و انتظار	*	و افتقار و سقام
يا أخا كلّ كريم	*	أنت من قوم كرام
ياأخا النعمان جدلي	*	بضمان و التزام
و لك الله بأنّي	*	راجع قبل الظلام

فقال شريك للملك : عليّ ضمانه ، فمرّ الطائي مسرعاً فلمّا قرب المساء قال النعمان لشريك : جاء وقتك فتأهّب للقتل ، فقال شريك : هذا شخص قد لاح مقبلاً و أرجو أن يكون الطائيّ فإن لم يكن فأمر الملك ممتثل ، فإذا الطائيّ يشتدّ في عدوه و يقول : خشيت أن ينقضي النهار قبل وصولي فعدوت ثمّ قال : أيّها الملك ! مُر بأمرك فأطرق النعمان ثمّ رفع رأسه وقال : والله مارأيت أعجب منكما ، أمّا أنت يا طائيّ فما تركت لأحد في الوفاء مقاماً ، وأمّا أنت يا شريك فما تركت لأحد سماحة، فلا أكون أنا الألأم الثلاثة، ألا فإنّي قد رفعت يوم بؤسي عن الناس ونقضت عادتي كرامة لوفاء الطائيّ و كرم شريك فقال الطائيّ :

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي	*	فعدوت قولهمُ من الإضلال

(١) في المستطرف : على شفا تلف من الطوى .

إنّي امرؤ منّي الوفاء خليقة * و فعال كلّ مهذّب مفضال

فقال له النعمان : ما حملك على الوفاء وفيه إتلاف نفسك ؟ فقال : ديني،فمن لا وفاء له لا دين له . فأحسن إليه النعمان ووصله بما أغناه وأعاده إلى أهله .

أقول : قصّةهؤلاء الثلاثة نظيرقصّة الدمشقيّ مع العبّاس و الخليفة ، وهؤلاءأيضاً ثلاثة فإنّ الدمشقيّ تفضّل على العبّاس منغير معروف سبق ولاإحسان ، وشربك تفضّل على الطائيّ بالضمان . و كذلك العبّاس كافى صاحبه ببذل روحه وليس فوق الروح من يد ولا إحسان والطائيّ كذلك . فكما أنّ النّعمان أحسن إلى الطائيّ ووصله فكذلك المأمون أحسن إلى الدمشقيّ ونوّله .

واعلم بأنّ النعمان المذكور أمر ببناء الخورنق [١] وهو قصر بناه سنمّار البنّاء و تنو ق في بنائه ، فلمّا أتمّه سأله النعمان : هل بنيت لغيري مثله ؟ فقال : لا فألقاه من أعلى القصر فوقع قتيلاً ، وكان ذلك حسداً منه لئلاّ يبنى لغيره مثله . فهذا وما أشبهه من أقبح ما يكون من سوء الوفاء حتّى صار مثلاً يضرب به كما قال الشاعر [٢] :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر * وحسن فعل كما يجزى سنمّار

والآيات الكريمة الّتي وردت في القرآن العزيز دالّة على شرف الوفاء ، قال الله تبارك وتعالى [٣] : « يا أيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال جلّ من قائل [٤] : «الّذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » وقال تعالى [٥] : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً » وقال سبحانه [٦] : «وأوفوا بالعهد إنّ العهدكان مسؤولاً » فالآيات والروايات متّفقة على وجوب الوفاء بالعهود ولو لم يكن في الوفاء فضيلة إلّا أنّ المتّصف به يعدّ في زمرة الصادقين و ينزّه نفسه عن سمة

(١) وقد ذكرنا نبذاً من خبره ص١٠٣ وانظر خبر هلاك سنمار فى الاغانى (٢:٣٦) .

(٢) هو سليط بن سعيد . ذكره أبو الفرج فى الاغانى .

(٣) سورة المائدة : ١ .

(٤) سورة الرعد : ٢٢ .

(٥) سورة النحل : ٩١ .

(٦) سورة الاسراء : ٣٤ .

المنافقين فقد سئل النبيّ ﷺ عن صفات المنافق فقال : [1] « وإذا عاهد غدر » فالوفاء من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة، كما أنّ الغدر من شيم النفوس اللئيمة والأخلاق الذميمة. جعلنا الله ممّن تخلّق بهذا الخلق السنيّ وجنّبنا ضدّه وهو الغدر الشنيء، بمحمّد وآله ، ومن نسبح على منواله صلوات الله عليهم أجمعين .

ولنشرع الآن في تتمّة هذا الفصل من ذكر الحياء والوفاء من كلام يحيى البرمكيّ قال : كان الناس يتعيّشون في بسيط الشمس فغربت عنهم ، يعني الدين ، فعاشوا بضوء القمر أعني الوفاء ، ثمّ هاموا في ظلمات البرّ و البحر ، يعني الجهل وقلّة الحياء فلا جرم أعضل الدواء ، واُشكل الداء ، وغلبت الحيرة ، و فقد المرشد ، وقلّ المسترشد ، والله المستعان .

وقال بعض الخطباء : استحيوا من الله عن مقارفة الذنوب، ومن المسلمين عمّا تنكره القلوب، فثمرة الاستحياء من الله النجاة من النار، وبركة الاستحياء من الناس النجاة من العار و إنّ من قلّ حياؤه صنع ماشاء وذهبت محامده في الهباء ، وطارت مروءته مع العنقاء ، ومقته الناس لهوانه عليهم ، و دام حزنه من احتقاره لديهم ، و كم من محارم صار الحياء حماها ، و كم من حرم أعفّها الحياء دون هواها .

قال رسول الله ﷺ : « إنّ زيادة شهوة النساء على الرجال زيادة العشرات على الآحاد ولكنّ الله صانهنّ بزيادة حيائهنّ » .

وقيل للشعبيّ : ما أحسن براعة الإماء ! فقال : تردّد ماء الحياء في وجه الحرّة أحسن من ذلك . واُنشد في مرثية امرءة .

يا نار صدري على ثلاثة درجوا * امرأة في التراب و المدر [2]
و يا شباب و نعمة مزجا * بماء ذلك الحياء و الخفر

وقال آخر :

يا بدر تمّ بنيشابور مطلعه * وبحر جود لأهل الفضل مشرعه
سقيت باغي ماء فيه أربعة * من المياه ، و خير الماء أنفعه :
ماء الحياء و ماء الوجه يتبعه * ماء الشباب وماء الورد يشفعه

(١) رواه الغزالي (٤ : ١٧٢) .
(٢) في الاصلين « امرأة اربقت في التراب والمدر » ولا يستقيم عليه الوزن .

ومما أنشد في قلّة الحياء :

إذا قلّ ماء الوجه قلّ بهاؤه * ولا خير في وجه إذا قلّ ماؤه

حياء فاحفظه عليك فإنّما * يدلّ على فضل الكريم حياؤه

وقال في بعض الخطب : التقوى هي الإمام العادل سيرته والعلم الهادي دلالته . و الطاعة ظلّها مديد ، والعبادة ركنها شديد،والشكر جهد كلّ مستبصر ، والصبر مفزع كلّ مستنصر،والعدل حكم لايجور،والحقّ بضاعة لاتبور،وليس شرب الإحسان بوبيل ، ولاعلى المحسنين من سبيل ، والإيمان لايسع في العدول عن الحياء ، والمروءة لا تفسح في الإخلال بالوفاء ، والغادر خاسر لدينه غبين ، والخائن ظالم لنفسه مبين . وما بعد الغدر سوى الوبال وما بعد الحق إلّا الضلال ، وحسب الوفاء فضلاً إجماع الناس على استحسانه،وكفى بالغدر عيباً إطلاقهم على استهجانه . شعر :

إذا اقستمت أقاليم المعالي * و فضّت بين أخلاق وضاء [1]

فخطّ الأستواء وما يليه * لحسن العهد منها و الوفاء

ومن خطبة أخرى : أما تزدادون على الأيّام إلّا إصراراً على الآثام ؟ أماتنبهون [2] عن المنام اغتراراً بآجال كالأحلام ، تميلون إلى دار المحن [3] مثل الأذن إلى السامر ، و تعطفون على مناخ العين عطف الجفن على الناظر ، فلاحياء من سوء الصنيع ولو لمحة طرف، ولاروغاً عن عقوق الدين ولو بحرف . ولااعتدال في باطن امرىء وظاهره ، ولااستواء في غائب أمره وحاضره . وكانّ الوفاء مقطع حبله ، إن لم يكن الإنصاف محدوداً ظلّه كأنّ العهد لم يحمل إلّا بالأخلاق ، إن لم تكن الطباع مجبولة إلّا على الاختلاف . كأنّ الصدق طاربه العقاب ، والعهد دون وجوده شبيب الغراب، كأنّ المعروف أرصد عليه الباب والوفاء أرخى دونه الحجاب .

ذهب التكرّم والوفاء من الورى * و تصرّما إلّا من الأشعار

لم يبق إلّا حاسد أو شامت * أو راغب لا يتّقي من عار

فتعالوا نقف على أطلال الواقفين في ودّهم فهي عافية ، و ندمع على ربوع الموفين بعهدهم فهي خواء خالية، وهلمّوا نناغي حمام الأيك، [4] شجواً على انقراض الأحرار الأكرمين

(١) فض : تفرق . الوضاء - بكسر الواو - جمع الوضيء . (٢) في الاصلين « تنهون » .
(٣) في الاصلين « دار المحن » . (٤) الايك : الشجر الكثير الملتف .

ونعمل على لحن الأغاني شذوا في مرثية الأفاضل المحسنين فنبكهم معولين ، ونندبهم مولولين

تعالين فاندبن الوفا فهو هالك * وساعدن أمّ العهد فهو نكول
فخلّ عن العلياء فهو تملّل * ودع عنك ذكر الفضل فهو فضول

وكان أبو القاسم الدمشقيّ ينشد في علوان جدّه :

قالت قبيل الصبح ليلى : عرّجوا * زمّوا المطيّ ورحّلوا الأجمالا
وقفوا على شرف العذيب بجمعنا * نبكي الحبيب ونندب الأطلالا
وصلوا المسير بسكب فيض دموعنا * وخذوا الفلاة وجنّبوا الأميالا
إنّ الطريق سوى الطريق سلكتم * فدعوا الهوينا واركبوا الأهوالا

وكتب عبد الملك بن صالح الهاشميّ رقعة من الحبس ، وسأل الحسين الخادم إيصالها إلى الرشيد وفيها :[1] .

أخلاّي ! بي شجو وليس بكم شجو * وكلّ امرىء عن شجو صاحبه خلو
من أيّ نواحي الأرض نرعى عهودكم * وأنتم أناس ما لمرضاتكم نحو
تزالون ما عشتم علينا بجفوة * فحبل الوفا بيني وبينكم رخو
فلا حسن نأتي به تقبلونه * ولا إن أسأنا كان عندكم عفو

وفي دعاء بعضهم : اللّهمّ نفّق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت . ولا تمتني حتّى يبور الجهل كما بار العقل ، ويموت النقص كما مات العلم . لكن عباد الله المخلصين شعارهم الحياء ، ودثارهم الوفاء ، يستحيون من الله على صالح الأعمال ويؤدّبون المسيئين حثّاً بالأفعال دون الأقوال . يأخذون أنفسهم بأدوم الأدب لتأديب الناس ، ولا يستأنسون بأحد سوى الله مع كثرة الإيناس ، لا يؤذون أحداً و يحتملون الأذى ، ويشوفون كلّ أحد على القذى . يرجعون إلى الله وقت الامتحان ، ولا ينزلون عند المصائب في مرتع الأحزان ، أولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أولئك الّذين هداهم الله و أولئك هم المفلحون

(١) والابيات لابى العتاهية فى الاغانى (٣ : ١٤١) وتمثل بها عبد الملك .

الاستدراك

ص ١٣٥ـ ١٣٦ خبر الأصمعيّ

ثم وقفت على الخبر تماماً في المستطرف (١٢٩:١) وانظر البحار ط تبريز(١٨.١٢)

ذيل ص ١٦٣ زرغيّاً تزدّد حبّاً .

لم أظفر به حديثاً ، نعم هو من الأمثال السائره انظر مجمع الأمثال(١ : ٣٣٤)

ص ٢٢٦ خبر جميع بن عمير عن عائشة

رواه بعينه الأبشيهيّ في المستطرف (١ : ١٣٧) .

ص ٢٦٤ س١٦ عن بَكرة أبيكم . . .

قال ابن منظور في اللسان مادّة (بكر) : وفي الحديث : « جاءت هوازن على بَكرة أبيها » هذه كلمة للعرب تريد بها الكثرة و توفير العدد ، وأنّهم جاءوا جميعاً لم يتخلّف منهم أحد .

فهرس مافى هذا الجزء

٤ ـ ٢٩ المقدّمة في النفس وقواها و الفضائل وأقسامها .

٣٠ ـ ٤٠ الفصل الأوّل في الترغيب في الطاعات والزهد في الدنيا .

٤١ ـ ٦٣ الفصل الثاني في العزلة والخلوة .

٦٤ ـ ٨٩ الفصل الثالث في صحبة الأنفس الطاهرة والأُنس بالأخلاق الباهرة .

٩٠ ـ ١٣٢ الفصل الرابع في آداب النفس بالعفّة والتقوى والزهد والورع .

١٣٣ ـ ١٣٧ الفصل الخامس في أشياء متفرّقة .

١٣٨ ـ ١٤١ الفصل السادس في الشكر .

١٤٢ ـ ١٥١ الفصل السابع في المعارف والسعادات النفسيّة .

١٥٢ ـ ١٦٢ الفصل الثامن في آداب النفس .

١٦٣ ـ ١٧١ الفصل التاسع نذكر فيه نبذة من آداب السفر .

١٧٢ ـ ٢٠٠ الفصل العاشر يشتمل على مواعظ .

٢٠١ ـ ٢٢٦ الفصل الحادي عشر في العجب وأحوال الزهّاد .

٢٢٧ ـ ٢٧٤ الفصل الثاني عشر في الموت و ما يتّصل به .

٢٧٥ ـ ٣٠٧ الفصل الثالث عشر في التواضع والتكبّر .

٣٠٨ ـ ٣٣٠ الفصل الرابع عشر في الحياء والوفاء .

آداب النفس

للعالم العارف الحكيم الكامل السيد محمد العينائي

من اعلام القرن الحادي عشر

حققه وصححه

السيد كاظم الموسوي المياموي

عنيت بنشره

المكتبة المرتضوية

الجزء الثاني

طهران - بين الحرمين

رقم التليفون - ٥٧١٣٥

حقوق الطبع محفوظة للناشر

چاپخانه حيدري

كلمة الناشر

الحمد لله على نواله ، وله المنّة على إفضاله ، وقد جعل مما امتنّ به عليّ أن وفّقني لإتمام هذا السفر القيّم ، الّذي لامندوحة عنه لأيّ حرّ حاول إصلاح نفسه في هذه الضوضاء المدلهمّة الّتي ألقى شبحها على الثرى والثريّا ، وضاقت الأرض على من فيها بما رحبت ، و ظهر الفساد في البرّ و البحر بما كسبت أيدي النّاس ، وبما نبذوا كتاب الله و راء ظهورهم ، اللّهم اجعل محيانا محيا محمّد و آل محمّد ومماتنا مماتهم ، آمين !

عبدالكريم

بقية المصادر

٩٦ ـ الأصمعيّات للأصمعيّ ط مصر دار المعارف

٩٧ ـ الأماليّ للشيخ الصدوق ط ايران ١٣٠٠ هـ

٩٨ ـ تفسير القميّ لعليّ بن ابراهيم ط ايران ١٣١٣ هـ

٩٩ ـ سفينة البحار للمحدّث القميّ ط النجف ١٣٥٥ هـ

١٠٠ ـ شرح ديوان أمير المؤمنين عليه السلام للميبدي ط ايران

١٠١ ـ الصناعتين لأبي هلال العسكريّ ط مصر ١٣٧١ هـ

١٠٢ ـ العمدة لابن رشيق القيروانيّ ط مصر ١٣٧٤ هـ

١٠٣ ـ الكامل للمبرّد ط مصر دار العهد الجديد

١٠٤ ـ مصباح الشريعة المنسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام ط إيران ١٣٧٩

١٠٥ ـ المفردات للراغب الإصبهانيّ ط مصر ١٣٢٤ هـ

هذا هو الجزء الثاني من الكتاب

حسب تجزئتنا ، و به ختامه .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فصل ١ ﴾

✡(في بيان ماخلقه الله عز وجل في الانفس من الخوف والرجاء(١))✡

الاتّقاء على أربع مراتب :

خوف وهو سوط الله ، يقوّم به الشاردين عن بابه ويسيّرهم على صراط حتّى يستقيم به أمر من كان مغلوباً على رشده بتسكين الهوى ، مصروفاً عن عمله باستعمال الهوينا (٢) ومن علامته : طول البكاء وقصر الأمل .

وخشية وهو سراج القلب ، به يبصر مافيه من الخير والشرّ ، ولجام العلم يكبح (٣) النفس عن الجور والإثم . وعلامتها : دوام المراقبة في السرّ والعلانية ، ولا يكون صدورها إلّا عن حلم وافر ومعرفة وافية ، كما قال الله تعالى (٤) « إنّما يخشى الله من عباده العلماء » .

وهيبة وسلطانها ملك لايسكن إلّا في كلّ قلب منيب أوّاب ، ولا يلمّ إلّا بساحة كلّ مصلح توّاب حتّى قيل : ما فارقت الهيبة قلباً إلّا خرب . ومن علاماتها : التهجير على باب الغيب وطول الصدى تحت سحاب اللطف واحتراق مواضع الشهوات من النفس .

و رهبة وهي انصباب إلى وجهة الهرب ؛ بل هي الهرب (رهب وهرب مثل جبذ و

---

(١) انظر في الخوف والرجاء اصول الكافي (٢ : ٦٧-٧١) ومصباح الشريعة : ٦٠ - ٦١ و احياء العلوم (٤ : ١٤٢-١٨٩) وارشاد القلوب : ١٦٧-١٧٩ وجامع الاخبار : ١١٠-١١٢ و جامع السعادات (١ : ٢٠٨-٢٦٠) .

(٢) التؤدة والرفق .

(٣) كبح الدابة - من باب منع - جذبه باللجام لتقف .

(٤) سورة فاطر : ٢٨ .

جذب) صاحبه يهرب أبداً لتوقّع العقوبة مع مخازي[1] أوصافه ومن أوصافها وعلاماتها : حركة القلب إلى الانقباض من داخل، وهربه وانزعاجه عن انبساطه حتّى أنّه يكاد أن يبلغ الرهابة في الباطن مع ظهور الكمود والكآبة على الظاهر .

و سئل الشبليّ : لمَ تصفرّ الشمس عند الغروب ؟ فقال : لأنّها عزلت عن الوصال فاصفرّت من رهبة الزوال و أنشد :

لمّا أجدّوا للرحيل و قرّبوا * أجمالهم وجفون عيني تدمع
كتبت إليّ على شقائق خدّها * سطراً من العبرات : ماذا تصنع؟
فأجبتها بلسان دمع ناطق : * ما في الحياة مع التفرّق مطمع

ثمّ المشائخ تكلّموا في الخوف على مقدار مقاماتهم :

قال ابن حضرويه : الخائف الّذي تخوفه المخوّفات .

وقال ابن جلا : الخائف الّذي تأمنه المخوّفات . والقولان صحيحان ؛ لأنّ الّذي تخافه المخوّفات هو الّذي غلب عليه الخوف فصار خوفاً كلّه فيخافه كلّ شيء ، كما قيل: « من خاف الله خافه كلّ شيء » والّذي يأمنه المخوّفات من إذا طرقه المخاوف لم يخف منها ، لغيبته عنها بمشاهدة الله ، و من غاب عن الأشياء غابت الأشياء عنه ، و نظيره حال رسول الله ﷺ في تعرّض الشيطان له في صلاته حتّى أحرقته النار .

وقال أبو القاسم الحليم : كلّ خائف إذا خاف من شيء من الأشياء هرب منه .

وقال الثوريّ : الخائف يهرب من ربّه إلى ربّه .

وقال أبو سليمان الدارانيّ : إذا سكن الخوف القلب أحرق الشهوة ، و طرد عنه الغفلة .

وسئل حمدون القصّار[2] عن طريقة الملامة ـ وهو الّذي انتشر منه مذهب الملامة ـ فقال : خوف القدريّة ورجاء المرجئة .

---

(١) في النسخة (ر) مجاري .

(٢) هو أبو صالح حمدون بن احمد بن عمارة النيسابوري، صحب أبو تراب النخشبي ، توفي ٢٧١هـ . انظر الطبقات الكبرى (١:٧٢) والاعلام : ٢٧٢ .

وقال عبدالله الأنكاكيّ : خلق الله القلوب مساكن لذكره ، فصارت مساكن الشهوات. فلا يمحو الشهوات منها إلّا خوف مزعج أو شوق مقلق .

وقال الواسطيّ : إذا ظهر الحقّ على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف ، و معناه أنّ الخوف والرجاء من بقايا الإحساس بأحكام البشريّة وأوصاف الإنسانيّة ولا يبقى شيء من الآثار إذا ملكت شواهد الحقّ الأسرار .

وقال مرّة أُخرى : الخوف والرجاء حجاب بين الحقّ والعبد . ومعناه أنّ الخائف متطلّع لوقت ثان إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة ، وأبناء الوقت لا يطلع لهم المستقبل ، وحسنات الأبرار سيّئات المقرّبين ، وأنوار الصادقين ظلم في حقّ الصدّيقين .

وقال عمر بن عثمان المكّيّ : العلم قائد والخوف سائق ، و النفس حرون [١] بعد ذلك جموح ، خدّاعة روّاغه ، واحذرها وراعها بسياسة العلم ، وسقها بتهديد الخوف لتقطع [٢] مفازة الآفات وتصل إلى دار الكرامات .

و قال أبوعليّ الجورجانيّ [٣] : ثلاثة أشياء من عقد التوحيد : الخوف و الرجاء والمحبّة ، فزيادة الخوف من ترك الذنوب لرؤية الوعيد ، و زيادة الرجاء من اكتساب الخير لرؤية الوعد ، وزيادة المحبّة من كثرة الذكر لرؤية المنّة . فالخائف لا يستريح عن الهرب ، والراجي لا يهدي من الطلب ، والمحبّ لا يفتر من ذكر من أحبّ ؛ فالخوف نار ، والرجاء نور ، والمحبّة نور من الأنوار .

وقال ابن سمّاك : خف الله كأنّك لم تطعه و ارج الله كأنّك لم تعصه .

[وقال أبوسليمان : إذا سكن القلب الخوف أحرق الشهوة وطرد عنه الغفلة [٤]] .

وقال محمّد بن الفضل : العلم ثلاثة : علم بالله وعلم من الله وعلم مع الله ، العلم بالله هو

---

(١) أي غير منقادة .

(٢) في الاصلين « لقطع » .

(٣) في النسخة (ر) الغورجاني ، وقد سبق في الجزء الاول ص ٢٩٣ « الجوزجاني » وذكرنا أن في الاحياء « الجوزاني » .

(٤) زيادة في الاصل وقد سبق قبيل ذاك .

المعرفة به وبصفاته وما يلمّ به العبد من الشرك و التشبيه ، و العلم من الله علم الشرائع و الأحكام والحلال والحرام،وسائرماتضمّنه الكتب السماويّة ، والعلم مع الله هو علم الخوف والرجاء والتوكّل [والرضاء][1] والمحبّة والشوق .

وقال محمدبن عليّ الحكيم : ملاك القلوب بكمال الخشية ، و ملاك النفوس بكمال التقوى .

و سئل هل يخاف المحدّثون [2] سوء العاقبة ؟ قال : يخافون خوف ذهول و قلق يكون كالخطرات ثمّ ينجلي ، فإنّ الله لايحبّ أن يكدّر عليهم منّته ويغيّر فيهم نعمته .

وقال ذوالنون : قلت لعُليم : لمَ سمّيت مجنوناً ؟ فقال : لمّا طال حبسي عنه صرت مجنوناً لخوف فراقه وأنشد عقيب ذلك :

قالوا : جننت ، بمن تهوى ؟ فقلت لهم: * مالذّة العيش إلّا للمجانين
لو أنّ ما بي على الصخر لأنخلها * فكيف يحمله خلق من الطين؟[3]

وقيل لزيدبن عليّ : ياابن رسول الله ! أما ترى فقيراً يستغني ، و غنيّاً يفتقر ، و شيخاً يحبى ، وطفلاً يخترم ، وأحوالاً هذه سبيلها خارجة عن العادة فكيف ذلك ؟ فقال : يأخذ في كلّ حال لئلّا يؤمن على حال .

وكان بعض المشائخ يقول : كلّ أحد يخاف من الخاتمة وأنا أخاف من السابقة ، إنّ الحكم الأزليّ باختيارك لايتغيّر ، وما كتب عليك فباختيالك لايتأخّر، كم من ربيع سالت أنهاره ، وتوردت أشجاره ، وتفتّحت أنواره ، وظهرت ثماره ، فلم يشعر أهله حتّى فاجأته الآفة وأصابته الجائحة،[4] فأصبحوا على حسرة وأمسوا على قلّة ، قال تعالى[5] : « أتاها أمرنا

---

(١) بين المعقوفين ليس فى النسخة (ر) .

(٢) المحدث - بفتح الدال المشددة - من يسمع صوت الملك وينكت فى قلبه ، ولايعاينه ولا يراه فى نومه ، وهودون النبى والرسول بمرتبة . انظر تفسير البرهان (٣:٩٩) ذيل الاية «وما أرسلنا من رسول ولانبى الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته » سورة الحج : ٥٢ .

(٣) الصخر : الحجر العظيم الصلب . وأنخلها من نخل الدقيق : غربله وأزال نخالته .

(٤) الجائحة : الافة المهلكة .

(٥) سورة يونس : ٢٤ .

ليلاً أونهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » و هكذا كم من إنسان ظهرت عليه آثار السعادة وأينعت له ثمار الإرادة لم يبرح حتّى خالطت الكدورة صفاه ، واختلط الكسوف بضياه ، قال الله تعالى : [1] « و بدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون » و قال تبارك و تعالى:[2] « قل هل أُنبّئكم بالأخسرين أعمالاً الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً » .

أحسنت ظنّك بالأيّام إذ حسنت * ولم تخف غبّ ما يأتي به القدر[3]
و سالمتك الليالي فاغتررت بها * وعند صفو الليالي يحدث الكدر

آخر :

ودّع جيراننا ولم يقفوا * ولا على ذي صبابة عطفوا
كم كبد قطّعوا ببينهمُ * وكم دموع عليهم تكف
كأنّهم لم يجاوروك ، و لم * تغن بهم ، و الوصال مؤتلف
و الدهر إلف والدار جامعة * والعيش غضّ والرسل تختلف

ومن حكايات الخائفين ماروى عطا ، قال لفاطمة بنت عبدالملك بن مروان زوجة عمر ابن عبدالعزيز : أخبرني عن عمر ، قالت : أفعل ولوكان حيّاً مافعلت ، إنّ عمر كان فرّغ للمسلمين نفسه و لأُمورهم ذهنه . وكان إذا أمسى مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه دعا سراجه الّذي كان يسرج له من ماله ، ثمّ صلّى ركعتين ، ثمّ أقعى واضعاً رأسه على يديه يشهق الشهقة يكاد يتصدّع لها قلبه ، وتخرج[4] لها نفسه حتّى يرى الصبح فيصبح صائماً ، فدنوت منه [يوماً][5] فقلت له : ياأمير المؤمنين! أيّ شيء كان منك ماكان ؟ قال: أجل فعليك شأنك وخلّيني وشأني ، فقلت : إنّي أرجو أن أتّعظ ، فقال : إذاً أُخبرك ، إنّي نظرت فوجدتني قد ولّيت أمر هذه الأُمّة أحمرها وأسودها ، ثمّ ذكرت الفقير الجائع ، و الضعيف الضائع والأسير المقهور ، وذا المال القليل و العيال الكثير . والقرناء تنال من الجفاء ، وأشياء من

(١) سورة الزمر : ٤٧ .
(٢) سورة الكهف : ١٠٥ .
(٣) البيتان عندالغزالى (٤:١٧٦) .
(٤) فى النسخة (ر) وتحرج .
(٥) زيادة من النسخة (ر) .

ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض ، فعلمت أنّ الله سائلي عنهم و أنّ رسول الله ﷺ خصيمي فيهم ، لا يقبل الله منّي فيهم معذرة ، ولا تقوم مع رسول الله حجّة ، فرحمت و الله بنفسي رحمة دمعت لها عيني ، و وجع لها قلبي ، وحال بين جفني الرقاد فأنا كلّما ازددت ذكراً ازددت خوفاً . اتّعظي أوفدعي .

و عن ابن عبّاس أنّه كان رجل فيمن كان قبلكم عبد الله ثمانين سنة ، فأخطأ خطيئة فخاف على نفسه فجاء إلى الغياض فقال : أيّتها الغياض فيك الرمال الكثيرة و الأشجار الملتفّة ، فهل فيك مكان يواريني من ربّي ؟ فأجابته الغياض : والله مافيّ من نبت ولا شجر إلّا وله تعالى ملك موكّل به ، فكيف أُو اريك ياهذا عن الله ؟ ثمّ أتى البحر الغزير ماؤه ، الكثير حيتانه ، قال : هل فيك مكان يواريني عن الله ؟ فأجابه مافيّ شيء إلّا وملك موكّل به فكيف أُواريك عن الله ؟ فأتى الجبال وقال مثل ذلك ، فأُجيب بجوابه ، فأقام يتعبّد حتّى حضره الموت فبكى و قال : يارب اقبض روحي في الأرواح ، و جسدي في الأجساد ، ولا تبعثني يوم القيامة .

وأُنشد :

فلو أنّا إذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كلّ حيّ
و لكنّا إذا متنا بعثنا * ونسأل بعده عن كلّ شيء

وحدّث ابن السمّاك قال : أتيت البصرة أسأل عن عبّادها الخائفين ، فقيل : ههنا أخوان كما تسأل ، فمضينا وانتهينا إلى باب دارأحدهما ، فخرجت عجوز فقال لها من معي: هذا محمّد بن السمّاك و هو متكلّم أهل الكوفة [و هو يحبّ أن يلقاك ، ففتحت الباب فدخلنا على شابّ ناحل الجسم ، غائر العين في موضع مصلّاه ، عليه إزار و خرقة على كتفه ، فسلّمنا عليه فردّ السلام فقال : إنّ صاحبي هذا ابن السمّاك [1] وهو متكلّم أهل الكوفة [2]] فتكلّم بكلمة يسمعها منك فجثا على ركبتيه وقال : إنّ لهذا الخلق غداً مقاماً،فقال ابن السمّاك : بين يدي من ؟ فصاح صيحة وسقط على الأرض و ذهب عقله ،

(١) كذا في الاصل ، والصواب : فقال صاحبي ، ان هذا ابن السماك .
(٢) بين المعقوفين زيادة بهامش الاصل بخط المؤلف .

فانتظرناه إلى العصر فلم يفق ، فقال صاحبي : قم بنا إلى أخيه فذهبنا إليه فدخلنا على شابّ في مثل حالته إزار وخرقة ، وإذا أثر العبادة عليه أبين من صاحبه،فقال صاحبي : هذا ابن السمّاك فتكلّم بكلمة يسمعها منك ، فقال بصوت حزين : إنّ لهذا الخلق غداً مقاماً، فقال ابن السمّاك : بين يدي من ؟ فاضطربت نفسه وخرجت روحه فأقمنا حتّى غسّلناه ودفنّاه .

وحدّث مالك بن دينار قال : خرجت في بعض طرقات البصرة لأعود رجلاً فاستقبلني رجل معه حمل سعف نخيل فقال : ياشيخ ! الطريق ، قال : فألصقت نفسي بالحائط و كان على ذلك الحائط جناح فتقطّر على من الجناح قطرة بلل،فناديت : يا أهل الدار ! وهذا الماء نظيف ! فأشرفت عليّ جارية سوداء فقالت : ياشيخ ! والله ما استقيناه من بركة ولا نهر ، فقلت : ما هو ؟ قالت : دمعة امرأة منذ أربعين سنة تبكي خوفاً من الله ، جلست هذه هذه الساعة بقرب هذا الجناح فرأت الناس عادين مارّين ، ففزع قلبها لليوم المجموع و المقام المشهود ، فغلبها الخوف فبكت فأصابك من دموعها ، قلت : من هذه ؟ قالت : رابعة قلت : أريد الدخول عليها ، فأذنت لي ، فصعدت إليها جالسة باكية قد بدت [من] آثار الدموع أخاديد [١] في خدّيها .

ومثل هذا مايحكى أنّ ميزاب دارعطاء الخراساني سالت من قطرات دموعه ، و أصابت بعض المارّة فقال : أطاهر أم نجس نغسل ثوبنا منه . فناداه عطا من داخل الدار : أجدّ وأنعم [٢] غسلَ ثوبك ، فإنّه ابتلّ من دمعة عبد مرتكب لذنبه عاص لربّه ، و هذا ممّا حضر في الخوف .

و ممّا حضر في البكاء من ذلك : سأل محمّد بن صبيح عمرو بن ذرّ أيّهما أحبّ إليك : طول الكمد من الخوف أم إرسال الدمعة على الخدّ ؟ فقال ابن ذرّ : أنّه إذا أذرف فجرى شفى وسلّى ، فإذا أكمد غصّ فشجا ، فالكمد أحبّ إليّ .

و حدّث أحمد بن سليمان قال : بكيت يوماً لفرقة بعض الإلاّف بين يدي الحسن

---

(١) جمع الاخدود : الحفرة المستطيلة .

(٢) أنعم في الامر : بالغ فيه وأجاد

ابن وهب عمّي ، فنهاني بعض من حضر فقال لي عمّي:

إبك فما أنفع ما في البكاء * لأنّه للحزن تسهيل

و هو إذا أنت تأمّلته * حزن على الخدّين محلول

و أُنشد :

و تمنّيت أن أرا * ك فلمّا رأيتكا

غلبت دهشتي السرور * فلم أملك البكا

ثمّ أنشد يقول :

بخلت عيني أن تفيض سجوماً * و الحشا اعتاض بالسرور هموما[1]

ورثى لي العذول ممّا بقلبي * و قليلاً ترى العذول رحيما

فشفاني بنظرة لا أُبالي * أجناناً سكنتها أم جحيما

كيف صبري على المقام بدار * لا أرى من هويت فيها مقيما

هذا ما حضر من الخوف و البكاء .

وأمّا الرجاء فهو أيضاً على أربعة أقسام : رجاء على قبول الحسنات ، و رجاء على قبول التوبة من السيّئات ، ورجاء على توقّع التفضّل عن التوازن وخلط الأعمال لعلّ الله يكفّر سيّئاته ولا يحبط حسناته وهو رجاء المؤمنين .

كما قال مطرّف : إنّي لأستلقي بالليل على فراشي فأتدبّر القرآن كلّه فأعرض نفسي على أعمال أهل الجنّة فأرى أعمالهم شديدة : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، يبيتون لربّهم سجّداً وقياماً ، أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً و قائماً ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع [2] » فلا أرى صفتي فيهم . ثمّ أعرض نفسي على أعمال أهل النار : « ماسلككم في سقر قالوا لم نك من المصلّين ، وأمّا إن كان من المكذّبين الضالّين »[3] فلا أراني فيهم ثمّ أمرّ بهذه الآية [4]: « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » وأرجو أن أكون أنا وأنتم إخواناً منهم .

---

(١) السجوم جمع السجم - بالتحريك - الدمع وفي النسخة (ر) اعتاضت .

(٢) الذاريات : ١٧ ، الفرقان : ٦٤ ، الزمر : ٩ ، السجدة : ١٦ .

(٣) سورة المدثر : ٤٢-٤٣ سورة الواقعة : ٩٢ .

(٤) سورة التوبة : ١٠٣ .

ورجاء المغفرة على التمادي في الخطيئات ، وهو رجاء خائب وأمل كاذب . ومن عرف نفسه بالإساءة فحقّه الوجل لا الإخبات ، والخوف لا الرجاء .

وقد أكثر المشائخ في العبارة عن الرجاء فمن جوامعها قول ابن خفيف : الرجاء استبشار بفضله .

وقيل : هو النظر إلى سعة الرحمة .

وقال ابن أبي الحواريّ : الرجاء قوت الخائفين و روح الراجين ومونس الخائفين .

ومن مناجاة يحيى بن معاذ : إلهي أحلى العطايا في قلبي رجاؤك ، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك ، وأحبّ الساعات إليّ ساعة يكون فيها لقاؤك .

و في بعض مناجاته [1] يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال لأنّي أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص كيف أمحضه و أنا بالآفة معروف، وأجدني في الذنوب اعتمد على عفوك كيف لا تغفرها وأنت بالرحمة موصوف .

و قال : الوعد حقّ الخلق على الله فهو أحقّ من وفى به ، والوعيد حقّه على الخلق فهو أحقّ من عفا .

وقال أبو زيد الزبيديّ : خفت نفسي ورجوت ربّي ، فأنا أُحبّ أن أُفارق من أخاف إلى من أرجو .

وقال أبو عليّ الرودباديّ : الرجاء و الخوف كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطائر ، فبهما طيرانه ، وإذا نقص أحدهما كان جاذباً يسقط على رأسه ولا يطير ، و إذا ذهب هلك الطائر .

وقال أبو عثمان المغربيّ : من حمل نفسه على الرجاء تعطّل ، ومن حمل نفسه على الخوف قنط ، ولكنّه ينبغي أن يخاف العبد راجياً ويرجو خائفاً .

وقال الأنطاكيّ : من اشتدّ رجاؤه اشتدّ طلبه ، و من رجا وأساء فإنّما تمنّى و اجترى . و من حسن ظنّه حسن عمله . و من اشتدّ خوفه اشتدّ هربه . فجعل الرضا غير المسمّى .

---

(١) بهامش الاصل : بخط المؤلف : « هذه المناجاة الثانية اولها يكاد رجائي الخ ، هذه مناجاة لعلي بن الحسين عليهما السلام وجدتها في شرح نهج البلاغة » .

ومما فارق به أحدهما الآخر هو أنّ الرجاء ترجيح وجود المأمول و تقريب حصول المحبوب، وفي التمنّي لا يغلب وجود ما يتمنّاه على فقده، ولا يظهر قربه على بعده، والرجاء ظنّ و التمنّي شكر لا يترجّح به أحد الجائزين على الآخر، وكذلك الرجاء يوجب طلب المقصود ببذل المجهود، والتمنّي كسل وإفلاس، ويجدي عقباه أياس.

ألا ترى الشاعر عقّب التمنّي باليأس فقال:

منى النفس في الإصعاد لو تستطيعه * أجلّ، و لكن ما أقام عسيب (١)

إذا هبّ علويّ الرياح وجدتني * كما في العلوّ بايهنّ نسيب (٢)

و إن مرّ ركب مصعدين فقلبه * مع الرابحين المصعدين جنيب (٣)

وجميل (٤) جعل التمنّي مما يعنّي (٥) فقال:

قامت ترائي لنا و العين ساجمة * يوم الرحيل، وقتلٌ لي ترائيها

أكثرت ليتاً لو أنّ الليت ينفعني * ومن منى النفس ما يفني تمنّيها

وجرير جعل الرجاء لمّا خاف تعلّلاً بالمنى فقال (٦):

و إنّي لمغرور أعلّل بالمنى * ليالي أرجو أنّ مالك ماليا

فأنت أنا مالم يكن لي حاجة * فإن عرضت أيقنت أن لا أناليا (٧)

وأمّا قول سهل بن عبد الله: «الخوف ذكر و الرجاء أنثى» فإنّما يريد تولّد حقائق الإيمان منهما، وليس يريد به انحطاط الرجاء عن درجة الخوف سوى ما بينهما من الفرق في عارض الصفة، فإنّ الراجي يكون إلى السكون و التواني أميل، وهما

---

(١) عسيب: جبل في ديار سليم، يضرب مثلا فيما يطول بقاؤه. و «ما» نافية.

(٢) العلوى نسبة شاذة الى العالية. وفي الاصلين «غلوى».

(٣) الرائح: الجائي او الذاهب في الرواح اى العشى، أو مطلقا، وفي الاصلين «والرابحين» قوله «جنيب» اى مستتبع، وهو خبر لقوله «قلبه». وفي الاصلين «حبيب»

(٤) هو صاحب بثينة، أحد عشاق العرب المشهورين، توفي ٨١ هـ. استوفينا ترجمته في طرة شرح شواهد مجمع البيان (٢: ٢٢٧).

(٥) عناه تعنية: آذاه وكلفه ما يشق عليه. وهو يائي.

(٦) انظر ديوانه (٢: ١٦٨) من قصيدة سبق بيت منها في الجزء الاول ص ٢٩٩.

(٧) في الديوان: فأنت أبى. أن لا أباليا.

من طباع الإناث ، والخائف يكون في العمل أدأب والدؤوب من دأب الذكور ، وعلى هذا شاهد قول عمر بن أبي ربيعة [١]:

رأت رجلاً أمّا إذا الشمس عارضت * فيضحى ، وأمّا بالعشاء فيحضر
أخاسفر ، جوّاب قفر ، تقاذفت * به فلوات ، فهو أشعث أغبر [٢]
و أعجبها في عيشها ظلّ غرفة * و ريّان ملتفّ الحدائق أخضر
ووالٍ كفاها كلّ شيء يهمّها * وليست لشيء آخر الليل تسهر

و اجتماع الخوف والرجاء في النفس على تضادّهما في حال واحدة من قبيل توارد أسبابهما عليها وهو كما يجتمع الإخبات و الطمأنينة مع الوجل الّذي هو ضدّهما ، كما قال الله عزّ وجلّ [٣] « وبشّر المخبتين الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » وعلى هذا قول القائل :

ألا مَن لعين قد نآها حميمها * و أرّقها بعد المنام همومها ؟
فباتت لها نفسان شتّى هواهما * و نفس تعزّيها و نفس تلومها

وقال الفرزدق [٤]:

لكلّ امرىء نفسان نفس كريمة * ونفس يعاصيها الفتى أو يطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندى * إذا قلّ من أخدانهنّ وشفيعها [٥]

وممّا يحكى في الرجاء وحسن الظنّ بالله ماحدّث ابن مسعود قال : أتت امرأة من الأنصار رسول الله ﷺ بعشرة من الأولاد قالت : يا رسول الله ﷺ ! هؤلاء أولادي هم معك فاغز في سبيل الله ، فجعل رسول الله صلّى الله عليه وآله يقرّبهم ويغزو بهم ، و كانت تسأل عنهم ، حتّى استشهد تسعة منهم ، وكانت بمن مضى منهم أشدّ فرحاً بمن بقي حتّى

---

(١) انظر ديوانه ص ٨٦ – ٨٧ وخزانة الادب (٢ : ٤٢٠) .

(٢) قوله « جواب » مبالغة ، من جاب الارض : قطعها .

(٣) سورة الحج : ٣٤ .

(٤) انظر ديوانه (٢ : ٥١٤) والعمدة لابن رشيق (٢ : ٧٩) والصناعتين للعسكرى : ٤١٠

(٥) الاخدان جمع الخدن بالكسر بمعنى المصاحب ، وفى المراجع ، أحرار هن .

بقي واحد هو أصغرهم و كان فيه التواء إلى الأفعال وإشفاق إلى الذنوب ، فمرض و أمّه تمرّضه وتحرق عليه إشفاقاً قال : يا أُمّاه ! إخوتي كانوا خيراً لك منّي ما بكيتي (١) عليهم فما هذا البكاء مع ما فيّ من الزيغ و الالتواء ؟ قالت : لذلك أبكي ، قال : يا أُمّاه أرأيت لو أسأت إليك وفرّطت في حقّك ، وكانت النار بين يديك تضطرم ، أكنت تطرحيني فيها ؟ قالت : لا ، قال : أما تعلمين أنّ الّذي خلقني أرحم بي ممّن ولدني ؟ ثمّ مات فقال ﷺ : ابشري فإنّ ابنك قد غفر له بحسن ظنّه بربّه .

و عن عمران بن الحصين قال : كان في عهد النبيّ ﷺ شابّ فيه إتراف وتبطيل وكان له أب يزجره فلم ينزجر ، فلمّا فارق الدنيا لم يصدّ عليه أبوه ، ولم يصلح من تجهيزه ما ينبغي أن يفعله ، فلمّا جنّ عليه الليل رأى ابنه في المنام في قصر على سرير يجلّ حسنها عن الوصف ، و عليه حلل خضر ، ووجهه يتهلّل إشراقاً ، فسأله عن حاله فقال : لمّا بلغت روحي التراقي ندمت على ما سلف منّي ولم أرمنك إلّا خيراً ورحمة ، فقدمت على ربّي نادماً مهجوراً مجفوّاً ، تبرّأ منّي ولم يرحمني أقرب الناس منّي سبباً ، وأمسّهم بي نسباً ، فرحمني ربّي ولم يقنطني من رحمته ، فأدخلني هذه الروضة كما ترى .

و عن إبراهيم بن أدهم (٢) : قال كنت أنتظر مدّة من الزمان أن يخلو لي المطاف فكانت ليلة ظلماء قد أرخت عز اليها (٣) السماء فدخلت في الطواف خالياً و كنت أقول : اللّهمّ اعصمني فسمعت هاتفاً يقول : يا بن آدم كلّكم تسألوني [العصمة](٤) فإذا عصمتكم جميعاً فعلى من أرحم ومن أغفر ؟

و دخل المزنيّ (٥) على الشافعيّ في مرض و فاته فقال له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلاً وللشباب مودّعاً و للإخوان مفارقاً وبجزاء عملي ملاقياً و لكأس المنيّة شارباً وعلى الله وارداً ، فلا أدري يصار بي إلى الجنّة فأهنّأ به أو إلى النار فأعزّى ثمّ أنشأ يقول :

---

(١) الياء من اشباع كسرة التاء .
(٢) سبق في الجزء الاول بالفاظ قريبة مما هنا .
(٣) جمع العزلاء : مصب الماء من القربة ونحوها ، إشارة الى شدة المطر .
(٤) زيادة في الاصل .
(٥) سبق الخبر في الجزء الاول ص ٢١٧ - ٢١٨ ، وهناك ذكرنا اسم المزني .

و لمّا قسا قلبي و ضاقت مذاهبي * جعلت رجائي نحو عفوك سلّما
تعاظمني ذنبي فلمّا قرنته * بعفوك ربّي كان عفوك أعظما

آخر :

لاشيء أعظم من جرمي سوى أملي * بحسن عفوك عن جرمي ومن زللي
وإن يكن ذا وذا في القدر قد عظما * فأنت أعظم من جرمي ومن زللي

آخر :

إلهي لك الحمد الّذي أنت أهله * على نعمة ما كنتُ قطّ لها أهلا
أزيدك تقصيراً تزيد تفضّلاً * كأنّي بالتقصير أستوجب الفضلا

واعلم أنّ المتولّد من الرجاء و الخوف الفقر إلى الله و قمع النفس عن الشهوات و التلذّذات

﴿ فصل ٢ ﴾

✡(يشتمل على ما في الانفس من أحوال الفقر والجوع(١))✡

اعلم أنّ الفقر شعار الأنبياء ، وحلية الأولياء . ولكلّ من المشائخ فيه عبارة و إليه إشارة :

قال يحيى بن معاذ : الفقر أن لا تستغني إلّا بالله ، ورسمه رفض الأسباب .

وقال إبراهيم القصّار : الفقر لباس الرضاء .

وقال رويم : الفقر إرسال النفس في أحكام الله .

وقال بشر بن الحارث : أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر إلى الفقر .

وقال النوريّ : نعت الفقير السكون عند العدم و الإيثار عند الوجود .

و قال أبو سهل الخشّاب لمنصور المغربيّ : فقر و ذلّ ؟ فقال : لا ، فقر وعزّ .

وقال ابن خفيف : الفقر عدم الأملاك والخروج من أحكام الصفات .

و سئل سهل بن عبد الله : متى يستريح الفقير ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه غير الوقت الّذي هو فيه .

و قال المرتعش : حقّ الفقير أن لا يجوز رغبته كفايته ، ولا يسبق همّته خطوته ، ولا يصحب حاجته قنيته .

و وقف سائل على الكنانيّ بمكّة ، و كان قد طوى أيّاماً وهو يتلوّى على حصى المسجد فوقف عليه فقال الكنانيّ : ليس العجب منك ، العجب ممّن يعلم أنّي قد طويت ثلاثاً ثمّ يرسلك إليّ .

وقال بعضهم لسائل وقف عليه : يا هذا ! الصناعة واحدة ، والفرق بيننا وبينكم أنّكم قيام ونحن قعود .

---

(١) وانظر في الفقر والزهد اصول الكافي (٢ : ١٢٨ - ١٤١) و جامع السعادات (٢ : ٥٦ - ٩٩) و احياء العلوم (٤ : ١٨٩ - ٢٤٣) و ارشاد القلوب : ٢١ - ٢٩ و ٢٥٧ - ٢٦٦ وجامع الاخبار : ١٢٤ - ١٢٥ ومصباح الشريعة : ٢٢ - ٢٣ .

ووقف سائل على أبي عبد الله القرشيّ، فقال له أبو عبد الله : باطننا مثل ظاهركم فلا تغترّوا .

ويحكى أنّه وقف رجل على نصر بن أحمد ملك خراسان ، فسأل فقال نصر:الصناعة واحدة ، ولكنّكم تطلبون باللين و حسن المسّ، ونحن نطلب بالضرب و الحبس .

و سئل أبوبكر المصريّ من الفقير الصادق فقال : الّذي لايملك ولا يُملك .

وقال ذوالنون : دوام الفقير إلى الله معالتخليطأعجب من دوام الوفاء مع العجب .

وكان الجنيد يقول : إذا لقيت الفقيرفالقه بالرفقولا تلقه بالعلم ، فإنّ الرفق يؤنسه و العلم يوحشه ، فقيل : و هل يكون فقير يوحشه العلم ؟ فقال : نعم إذا كان صادقاًفي فقره فطرحت عليه علماً ذاب كما يذوب الرصاص في النار .

وحكى الدرّاج قال : فتّشت كنف[1] أُستاذي أُريد مكحلة فوجدت فيه قطعة و وتحيّرت ، فلمّا جاء قلت : إنّي وجدت في كنفك قطعة قال : قد رأيتها ردّها ، ثمّ قال : خذها واشتر بها شيئاً ، فقلت : ماكان من أمر هذه القطعة بحقّ معبودك ؟ فقال : ما رزقني الله من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها ، فأردت أن أُوصي بأن تشدّ في كفني ، فأردّها إلى الله تعالى .

وقيل : الفقراء على طبقات :

فقراء الأغنياء وهم السؤّال عندالفاقات،القانعون بالكفايات ، وهمطُهرة الأغنياء ، والّذين جعلهم الله في أموال الأغنياء سبباً .

والطبقة الثانية فقراء الفقراء ، وهم المتحقّقون بالفقر ، المختارون له ، المؤثرون على الغنى لا يبتذلون في السؤال ، ولايتعرّضون بالمقال ، يرجون العمر بالميسور من القوت « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف [2] » وهم من بين محروم حرم السعي في الدنيا ، و محارف انحرفت عنه الأسباب ، وقانع قنع بما يصل إليه ، ومعترّ[3] رضي بما يعترّ به .

(١) بكسر الكاف وعاء يجعل فيه متاع التاجر أو الراعي .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٣ .

(٣) المعتر : الفقير ، المعترض للمعروف من غير أن يسأل .

و الطبقة الثالثة أغنياء الفقراء وهم الأجواد الأسخياء أهل البذل و العطاء ، لايستكثرون ولايدّخرون ، إن منعوا شكروا المانع فصار منعه عطاء ، وإن ضيّق عليهم حمدوا الواسع ، لأنّه هو المحمود فصار ضيقه رجاءً ، وإن أُعطوا بذلوا وآثروا .

و كان بشر يقول : الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل و إن أُعطي لم يأخذ ، فهذا مع الروحانيّين في عليّين . وفقير لايسأل وإن أُعطي أخذ فهذا مع المقرّبين في جنّات النعيم (١) وفقير يسأل عند الحاجة ، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين .

ودفع إلى إبراهيم التميميّ (٢) ستّون ألفاً وكان عليه دين وبه حاجات إليها فردّها فعاتبوه في ذلك فقال : كرهت أن أمحوا سمي من ديوان الفقراء بستّين ألفاً .

وقال بعض العارفين : إذا مال الفقير إلى الأغنياء انحلّت عروته ، و إذا طمع فيهم انقطعت عصمته ، وإذا سكن إليهم ضلّ وأضلّ .

وقال بعض العارفين : كنت ذاضيعة (٣) جليلة ، فأُريد منّي تركها فجال في صدري : من أين المعاش ؟ فإذا قائل : لاأراك تنقطع إليّ أن أُخدمك وليّاً من أوليائي أو أُسخّر لك منافقاً من أعدائي .

وقال بعض المجاورين بمكّة : كانت عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله تعالى فرأيت ذات ليلة فقيراً يطوف بالكعبة ، حسن الهدي و السمت ، فكنت أتتبع آثار قدميه وأمشي خلفه من حيث لا يشعر ، فلمّا قضى أُسبوعه وقف في الملتزم بين الباب و الحجر فسمعت دعاءً خفيفاً ، فأصغيت إليه فإذا هو يقول : جائع كما ترى ، عريان كما ترى ، فما ترى فيما ترى يامن يرى ولايُرى ، فنظرت فإذا عليه خلقان رثّان لايكادان يواريانه ، فقلت: ماأجد لتلك الدراهم مصرفاً خيراً من هذا فذهبت إلى رحلي و جئت بها وهو يصلّي بقبّة زمزم فوضعت الدارهم بين يديه على الأرض وقلت : لوأخذتها تنفقها ، فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة دراهم فقال : أربعة ثمن مئزرين ودرهم قوت ثلاثة أيّام ولا حاجة في سائرها ، قال : فرأيته في الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان ، فهجس في نفسي منه شيء فأخذ

(١) في الاحياء : في جنات الفردوس .
(٢) في الاحياء « ابراهيم بن أدهم » وذكر فيه عشرة آلاف درهم .
(٣) في الاصل « ضيقة » .

بيدي وأطافني معه أسبوعاً كلّ شوط منها في جوهر من معادن الأرض تتخشخش تحت أقدامنا ذهب وفضّة وياقوت ولؤلؤ وجواهر غيرها ، كلّما نطويها يطوى ذلك عنها فقال : هذا كلّه لنا ونزهد فيها .

وقالوا في الّذي يرزق الفقراء من العطاء أنّه على أربعة أنواع : رفق و معونة و اختبار وبلاء .

والابتلاء ماجاء الفقير من الأسباب قبل الحاجة إليه ، أوجاءه وله غنية عنه بمثله ، فهو ابتلاء من الله تعالى لينظر عمله عند ذلك ، وردّه في هذه الحالة ليحكم الله فيه بمايشاء ويحكم صاحبه كيف يشاء من الزهد والنصيحة للخلق فإن أخذه ثمّ أخرجه إلى محتاج فهذا هو زهدالزهد ، وله فيه معاملات من الإيثار ومتابعة السنّة فيما ندبه إليه من أخذه ودفعه إلى من هو أحوج إليه ، ومن أخذه في العلانية مع انكسار النفس عنده وردّه في السرّ إلى الله مع اتّباع النفس الرياء، والسمعة كبيرة إلّا على الخاشعين ، فلايقوم بذلك إلّا أغنياء الفقراء و علماء الزهّاد وهو أقصى غاية الاختبار في مثله .

وأمّا الرفق فهو مايأتي من الرزق عند الحاجة والضرورة فلا يسع العبد ردّ مثله ، ويخاف عليه من ردّه إمّا زوال العقل أوغلبة الطبع أو احتياج إلى مسألة أودخول مكسب دنيء ، ومن قولهم : « من أُعطي ولم يأخذ سأل ولم يعط » وفي الحديث [1] : « ما المعطي من شبعة بأعظم أجراً من الآخذ عن حاجة » .

و أمّا النوع الرابع منه وهو أن يكون الفقير ذاخلق عظيم يحبّ البذل و إطعام الفقراء ولا يتسّع لذلك حاله ولا يقوم به ذات يده ، فيبعث الله إليه بالعطاء معونة له على أخلاقه ليبلغ به ما أراده ويستمرّ في البذل على ما اعتاده ، وربّما لايبالي أن يدان مثل هذا على الله لحسن ظنّه به ، وإذا رزقه قضاه ، وإن توفّاه قبل ذلك قدّر لمن أدّاه عنه .

و في الحديث : « لله عباد ينفقون على قدر بضائعهم ، وله عباد ينفقون على قدر حسن ظنّهم » .

و مات بعض السلف فأوصى ماله أن يفرّق على ثلاث طوائف : الأقوياء و الأسخياء والأغنياء ، فقيل : من هؤلاء ؟ فقال : أمّا الأقوياء فهم أهل التوكّل على الله ، و

(١) رواه في الاحياء (٤ : ٢٠٨) وجامع السعادات (٢:٩٤) برواية : ما العطى من سعة .

وأمّا الأسخياء فهم أهل حسن الظنّ بالله ، وأمّا الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله .

وقال بعض الزهّاد : ما أكثر من يظنّ أنّ الفقير هو الّذي لا يملك شيئاً كثيراً ، وهذا فقير من جهة العرف . وأمّا الفقير الحقيقيّ فهو الّذي شهواته كثيرة و إن كان كثير المال ، كما أنّ الغنيّ الحقيقيّ هو الّذي لا يحتاج إلى شيء و إن كان قليل المال ، أي الّذي ذلّل نفسه ، وجمع شهوته[١] ، وأخمد لهب إرادته .

وقد ظنّ قوم أنّ الّذين منعوا[٢] من الشهوات ووصّوا بالزهد في اللّذّات خانوا الناس وخانوا بينهم وبين حظوظهم وحرموهم ماهولهم وصدّوهم عن محبوباتهم .

وهذا ظنّ خطأ وأيّ مراد ومدّعى في هذا للواصفين و المزهّدين و الّذين وصّوا و أشفقوا وردعوا عن الخوض في اللّذات ؟ والله ماكان ذلك منهم إلّا على طريق النصيحة و الشفقة والإنذار والإعذار وأرادوا لعباد الله الراحة فإنّا وجدنا أنفسنا - فضلاً عن الغير - إذا أكثرنا من الشهوات و الملاذّ حصل لنا منها غاية التعب و نهاية النصب ، قطع النظر عن الحساب الشديد في الآخرة ، وارتكاب المحرّمات في الدنيا وأذى المخلوقات .

حتّى أنّي إذا ذكرت شيئاً من هذه البديهيّات الّتي لا ينكرها عاقل سوى من تشبّه بالحيوانات ، وادّعى المعرفة ببعض ما في نفسه من الوساوس والتمويهات ، ولم يقهر طبعه المجبل على هذه العادات ، تسبني إلى العجز عمّا ينالونه من هذه المزخرفات ، و ربّما ظنّ فيما ذكرته أنّه من جملة مالا تتحمّله الطاقة البشريّة .

وإذا علم السامع من حال هذا الناصح وحسن سلوكه في معاشه و عدم طمعه في أموال الناس وقناعته بأقلّ المجزي[٣] ممّا لابدّ منه ، وانقطاعه عن أهل الدنيا ، ونظر بعين بصيرة إلى حسن نيّته وإلى ظاهر علانيته ، وترك الحقد والحسد و وسوسة نفسه ، ورؤيتها بعين الكمال علم أنّ ما قلته حقّاً وما تفوّهت به صدقاً .

اللّهمّ إلّا أن يكون الّذين ظنّوا هذا الظنّ القبيح - من كون الزهّاد خانوا الناس

---

(١) في النسخة (د) وجمع اخوانه . و كذا كان في الاصل ثم خط عليه المؤلف .

(٢) » » » : متعوا ، بتشديد التاء .

(٣) » » » : باقل المجرى .

إنّما ظنّوا لأنّهم رأوا بعض المتزهّدين راغباً وبعض الناصحين غاشّاً ، وليس العمل على القول المحتال ، ولا على من آثر الغشّ في المقال ، ولكنّ المرجع إلى ما يدلّ على الحقّ و يشهد له العقل ويصحّ فيه البرهان . أترى الحكيم المتّقي غشّ في قوله لأصحابه «اقنعوا بالقوت ، وانفوا عن أنفسكم الحاجة ليكون لكم قربة إلى الله ، لأنّ الله تعالى غير محتاج فكلّما احتجتم أكثر كنتم منه أبعد ،واهربوا من الشرّ و الإثم ، و اطلبوا من الخير أعمّه وأعظمه وأبقاه و أدومه ، و اعرفوا الأبد و اطلبوا السرمد ، فإنّ من طلب الأبد ثمّ وجد بقي على الأبد ، ومن طلب الأمد ثمّ وجدفني عن الأمد و حرم الأبد ، وإنّ الحاجة ذلّ و الغنى عزّ ، والعزّ ضدّ الذلّ ، فمن طلب العزّ في العاجلة فقدطلب الذلّ وهو لايدري، ومن طلب العزّ في الآجلة فقد وجد العزّ وهو لايدري» .

وفي الحكمة كان يقال : اصبر على الذلّ لتنال العزّ واصبر على الفقر لتنال الغنى. وليس في الحكمة : اصبر على العزّ لتنال الذلّ وعلى الغنى لتصيب الفقر .

وذكر بعضهم أنّ متيّم فارق الغالة[1] بسبب قلّة ذات اليد و رزاءة الحال فكان إذا غنّي له :

استودع الله في بغداد لي قمرا * بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
ودّعته ، و بودّي أن تودّعني * صفو الحياة و أنّي لا أودّعه
و كم تشفّع بي أن لا أفارقه * و للضرورة حال لا تشفّعه

ضرب بنفسه الأرض وتمرّغ في التراب ، وهاج و أزبد ونعر وسعر[2]، و خرق المرقّعة قطعة قطعة ،ولطم وجهه ألف لطمة ، وهاب رجال من ضبطه ومسكه ، ومن يجسر على الدنوّ منه حتّى يسقط صريعاً،فيجاء بالكافوروماء الورد،ومن يقرء في أذنه آية الكرسيّ وبرقي[3] شراهيا براهيا .

---

(١) كذا في الاصلين ؛ ولعل الصواب « القالة » بمعنى القول .

(٢) من سعر الفرس ـ من باب علم ـ : عدا عدواً شديداً .

(٣) رقاه وعليه : استعمل الرقية نفعاً له أو ضرراً عليه . وفي الاصلين « يرقو » .

قلت : العجب من هذا كيف لم يمت من سماع هذه الأبيات فإنّها من قصيدة ابن زريق البغدادي[١] و هي قصيدة بليغة في الرقّة إلى الغاية ، وأخبرني جماعة من الشعراء أنّها ماقرئت على عاشق بعد العصر بصوت حسن إلّا مات . ومطلع القصيدة :

لا تعذليه فإنّ العذل يولعه * قد قلت حقّاً ولكن ليس يسمعه
تأبى المطامع إلّا أن تجشّمه * للرزق كدّاً ، و كم ممّن يودّعه
وما مجاهدة الإنسان واصلة * رزقاً ، ولا دعة الإنسان تقطعه
و الله قسّم بين الناس رزقهم * لم يخلق الله مخلوقاً يضيّعه
لكنّهم ملئوا حرصاً فلست ترى * مسترزقاً وسوى الغايات تقنعه
والحرص في الرزق والارزاق قد قسمت * بغيٌ ، ألا إنّ بغي المرء يصرعه

ويذكر بعد هذه الأبيات : «استودع الله في بغداد لي قمراً» إلى آخر القصيدة ، و لعمري إنّها فريدة . وأمّا إذا غنّى هذا الرجل المذكور سابقاً بهذه الأبيات :

أقول لها و الصبح قد لاح نوره * كما لاح ضوء البارق المتألّق
شبيهك قد وافى وحان افتراقنا * فهل لك في صوت ورطل مروّق؟
فقالت حياتي في الّذي قد ذكرته * و إن كنت قد نغّصته بالتفرّق

فهنا ترى فواراً رقى إلى اللّهاة[٢] ، وأسفاً قد نقّب القلب ، وفتّت الكبد ، وفتّت الصخر ، و أذاب الحديد ، و هناك ترى أحداق الحاضرين هامية ، و دموعهم منحدرة ، و شهيقهم قد علا رحمة لتوجّده عليه ، ومساعدة لحاله .

وذكر الشيخ جمال الدين [ابن][٣] المطهّر الحلّي[٤] ـ رحمه الله ـ في كشكوله قال :

---

(١) هو أبوالحسن على بن زريق الكاتب ، وقصيدته هذه فى احدى واربعين بيتاً تراها فى ثمرات الاوراق (٢ : ٢١٠ - ٢١٣) وانظر كشف الظنون (٢ : ١٣٢٩) .

(٢) اللهاة بفتح اللام : اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم .

(٣) الزيادة ليست فى الاصلين .

(٤) هو الحسن بن يوسف بن على المطهر ، الشهير بالعلامة الحلى رحمه الله . أحد كبار العلماء فى الاسلام . ولد ٦٤٨ وتوفى ٧٢٦ هـ .

أمّا المتقشّف عند الجهلة المتصنّع بتطويل اللحية و العذبة [١] ، و المتخشّع في أطماره [٢] ، المتقارب في خطوه ، يرى الغوغا من أهل بدعته ، الآكلة للمشاهرة . [٣] إنّه يصرع عند ذكر الله خشية وشوقاً ، وذكر النار و عذابها خوفاً ، فيرمي نفسه مجنوناً تمرّداً وعيارة وعتوّاً ، يصفع [٤] هذا بيمينه ويلطم هذا بشماله ، ويكسر أنف هذا بكتفه . ويدقّ ضلع هذا بجملة جسده ، ويبصق على هذا من فضل مايرغي [٥] ، ويزبد من ريقه و يأكل مال هذا سخراً بحمقه ، و يشرب المسكر مع غلمانه ومرده [٦] و تلامذته في ربقته [٧] ورقصه و غنائه ، و أشياء لو تقصّيناها في التهتّك لقبح بنا سطرها ، ويقول : إذا ذكر الاختلاف في مجلس أو محفل: نحن نتّبع ولا نبتدع ، وليس لنا إلّا التسليم و الرضا بكلّ أفعال السلف في جميع أحوالهم .

و ممّا يحكى عنهم في الجوع : قيل لبعضهم وقد رئي عليه أثر الجوع و الضرّ : لم لا تسأل الناس يطعموك ؟ فقال : عساهم يمنعون فلا يفلحون . وقد بلغني الحديث :«لو صدق السائل ما أفلح من منعه» .

وذكر يحيى بن معاذ الفقر والجوع فقال : لو كانا يباعان لما كان لطلّاب الآخرة أن يشتروا غيرهما .

وقال : لو تشفّعت إلى نفسك الملائكة المقرّبين و الأنبياء المرسلين على ترك الهوى لردّتهم أجمعين ، ولو تشفّعت إليها بالجوع لانقادت لك وطاوعتك وأنشد :

إذا اجتمع الجوع المبرّح والهوى * على عاشق لم يلبث الحبّ يذهب

وقال : الجوع نور والشبع نار والشهوة مثل الحطب تلهب النار .

---

(١) بالتحريك : ماتدل بين الكتفين من العمامة .

(٢) المشاهرة : مايؤخذ من الامراء شهراً شهراً .

(٣) جمع الطمر ـ بالكسر ـ : الثوب البالى .

(٤) صفعه ـ من باب منع ـ ضربه بكفه مبسوطة .

(٥) أرغى البعير : صوت وضجّ غضباً .

(٦) بضم الميم جمع الامرد .

(٧) بفتح الراء وكسرها : عروة الحبل .

وقال : الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين[١] تجربة ، وللزهّاد سياسة ، و للعارفين مكرمة .

و قال : إنّ الشبع يكنّى « أبا الكفر » و الجوع يكنّى «أبا الرحمة » وهومأخوذ من قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام[٢] حين سئل : لم أوجب الله الصوم على عباده ؟ فقال : « ليجد الغنيّ ألم الجوع فيعود بالرحمة على الفقير » .

وقيل لحاتم الأصمّ : بمارزقت الحكمة ؟ فقال : بخلاء البطن،وسخاء النفس،ومكابدة اللّيل .

وقال شقيق : العبادة حرفة ، وحانوتها الخلوة ، و آلتها الجوع .

وقال بعض الحكماء[٣] : إذاامتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ،وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وقيل : الجوع إدام المريدين ، ومدرجة الصدّيقين .

وقيل : البطن بمنزلة الكلب ، فارم إليه مايقطع كلبه[٤] وأهنه بكرمك .

وقال أبوسليمان : لأن أترك من عشائي لقمة أحبّ إليّ من أن أقوم الليل إلى آخره .

و قال أبوعلى الرودباديّ : إذا قال الصوفيّ بعد خمسة أيّام : «أنا جائع» فألزموه السوق ، وأمروه بالكسب .

و ذكر أبوتراب النخشبيّ قال:تمنّيت خبزاً وبيضاً وأنا في سفر ، فعدلت عن الطريق إلى قرية فتعلّق بي واحد وقال :كان هذا مع اللصوص فبطحوني[٥] وضربوني سبعين درّة ثمّ عرفني رجل منهم قال : هذا أبوتراب فاعتذروا إليّ و استحلّوا منّي ، وحملني الرجل إلى منزله فقدّم إليّ خبزاً و بيضاً فقلت لنفسي : كل بعد سبعين درّة .

و دخل أبوتراب هذا مسجد القلزم فلم يعرفوه ، وأقام أيّاماً لا يخرج منه فتقدّم

---

(١) في النسخة (ر) البائسين .
(٢) انظر كتاب وسائل الشيعة اول باب الصوم .
(٣) هو لقمان عليه السلام رواه عنه في جامع السعادات (٢ : ٥) وقد مر .
(٤) اى أذاه وشره .
(٥) بطحه - من باب منع - : القاه على وجهه .

إليه قيّم المسجد وقال : أكلت اليوم شيئاً ؟ قال : لا ، قال : أمس ؟ قال : لا ، قال : أوّل من أمس ؟ قال : لا ، قال: مذ كم يوم لم تأكل ؟ قال : منذ سبعة أيّام ، قال : فخرجت إلى السوق فقلت : الحقوا رجلاً في المسجد لم يأكل منذ سبعة أيّام فجاءوا بطعام كثير حتّى استوفى وأخذ كوزماء فشرب ، ثمّ أخذ ركوته [١] وخرج من المسجد وما كلّم أحداً فظننّا أنّه يتطهّر ويرجع فأخذ طريق الخروج من البلد على طريق مكّة ، فتعبته و قلت له : سألتك بالله من أنت ؟ فقال : أبوتراب .

و قال بعضهم :كان أبو إسحاق الشيرازيّ الصوفيّ الفقيه على عهدنا مع عظم قدره في الناس يلبس الأطمار و يغبّ [٢] في الأكل ، وكان إذا أراد الأكل اشترى طعاماً كثيراً ودخل به في بعض مساجد بغداد وأطلال أبنيتها ، ويستوفي منه حاجته ، ويترك الباقي على من أراده هذا كان دأبه في طعامه إلى انقضاء أكله و انتهاء أجله .

وحدّث الجنيد قال : جاءني بعض الناس في يوم جمعة فقال لي : ابعث معي فقيراً يدخل عليّ سروراً ويأكل معي شيئاً ، فالتفتّ فإذا أنا بفقير شهدت فيه الفاقة فدعوته و قلت له : امض مع هذا الشيخ وأدخل عليه سروراً ، فمضى ولم ألبث أن جاء الرجل وقال: يا أبا القاسم لم يأكل ذلك الفقير إلّا لقمة حتّى خرج فقال : لعلّك قلت كلمة جفاء ، قال : لم أقل ، فالتفتّ فإذا انا بالفقير جالس فقلت : لمَ لم تتمّ له سروره ؟ فقال : ياسيّدي خرجت من الكوفة و قدمت بغداد ولم آكل شيئاً و كرهت أن يبدو سوء أدب منّي من جهة الفاقة في حضرتك ، فلمّا دعوتني سررت إذ جرى ذلك ابتداء منك فمضيت و أنا لا أرضى له الجنان ، فلمّا جلست على مائدته ولم آكل سوى لقمة و قال : كل هذا أحبّ إليّ من عشرة آلاف درهم ، فعلمت أنّه دنيء الهمّة ، فقال الجنيد : ألم أقل إنّك أسأت الأدب ؟

قال بعضهم : وحدّثني الفقيه نعمة الله من أصحابنا المختلفة للفقه في مدرسة الشيخ ريحان البربريّ قال : كان في بعض أبناء البلد من القوم الماورديّة الّذين يسكنون بعض

(١) بالفتح ، اناء من جلد يشرب فيه الماء .

(٢) اى يأكل يوماً ويوماًلا .

مجالس طاهر آباد وليمة ، وكان بعض الفقراء أصابته مخمصة فدخل الدار مع الداخلين فصوّب ربّ الدار وصعّد [١] نظره فيه ، وقال : أما ما أنت من القوم فقال : أنا الّذي لا آكل طعامك و أموت ولا آكل الخبز مقتاً لك وتذمّماً من سوء فعلي في مباسطة مثلك، و خرج من داره و جهدوا به فلم يرجع ، وعاش ما عاش سنين كثيرة من غير أن يطعم لقمة خبز وكان يتعلّل ببعض الألبان والفواكه .

قال الشاعر :

إذا لم أزر إلّا لأكل أكلته * فلا رفعت كفّي إليّ طعامي

فلا أكلة إن نلتها بغنيمة * ولا جوعة إن جعتها بغرام

وحكى أحمد بن أبي الحواريّ قال : رأيت راهباً في زيّ خزيلة [٢] فقال : إنّا نجد في كتبنا أنّ بدن ابن آدم خلق من الأرض وروحه من الملكوت ، فإذا نعّم بدنه و أطعمه وأسقاه ونوّمه أخلد إلى الّذي منه خلق ، فلم يكن إليه شيء أحبّ من الدنيا ، وإذا أجاعها و أظمأها و أسهرها و أتعبها نازعت الروح إلى الموضع الّذي خلقت منه ، ولم يكن شيء أحبّ إليها من ملكوت السماء .

قال أحمد : فحدّثت به أبا سليمان الدارانيّ فأعجبه و قال : ألهمهم الله الفهم يصفون به.

و روي الواقديّ قال : قيل لأمّ أيّوب [٣] : أيّ الطعام كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ فقد : عرفتم ذلك بمقامه عندكم ، قالت : ما رأيته أمر بطعام يصنع له يعيبه ولا رأيناه أتي بطعام فعابه قطّ وكان يجتزىء بالقلعة ، أي بالقليل .

وممّا أنشد في الفقر والإملاق قول البحتريّ :

متحيّر يغدو و يعزم قائم * في كلّ نازلة وجدّ قاعد

---

(١) صوب رأسه : خفضه . صعد فيه النظر : تأمله ناظراً الى اعلاه و أسفله .

(٢) كذا في الاصلين ، وأظن ان الصحيح « ذى خزيلة » و أنه اسم مكان ، مثل «ذو أبان» و«ذو الحليفة» .

(٣) هى زوج أبى أيوب الانصارى ، الذى نزل عليه الرسول صلى الله عليه وآله حين ورد المدينة . ترجم لها فى الاصابة (٤ : ٤١٧) و الاستيعاب (٤ : ٤١٣) . وفى الاصلين « فقال عرفتم » .

فقر كفقر الأنبياء وغربة * و صبابة ليس البلاء بواحد

إنّ العقيليّ لا يلفى له شبهاً * ولو سريت لتلقاه على العيس

بينا ترده عليه الخزّ متّكئاً * إذ مرّ يهدج في بعض الكرابيس[١]

وقد تكنّفه غرّامه زمراً * أشباه جنّ عكوف حول إبليس

إذا المفاليس يوماً حاربوا ملكاً * سار العقليّ منهم في كراديس[٢]

قد باع مقبرة لؤماً فليس له * إن مات من موضع غير النواويس[٣]

وممّا يستحسن لفظه من الكلمات البليغة من الإنشاءات في فضل الفقر فقرات ذكرتها في ديباجة الاثني عشريّة ، قد بلغت في المواعظ الغاية القصوى وهي هذه :

«الفقير خفيف الظهر من كلّ حقّ منفكّ الرقبة من كلّ رقّ . محذوف في الضيافات حذف التنوين في الإضافات ، لا يلزمه أداء الزكوات ، ولا يتوجّه عليه مواجب النائبات . ولا يستطيعه إخوانه ، ولا يطمع فيه جيرانه . ولا ينتظر في الفطر صدقته ، ولا في النحر أضحيّته ولا في شهر رمضان فائدته . ولا في الربيع باكورته[٤] ، ولا في الخريف فاكهته وبُرّه ، ولا في وقت الجباية خراجه وعشره . وإنّما هو مسجديّ يحمل إليه ولا يحمل عليه ، وعلويّ يأخذ بيديه ، ولا يؤخذ من يديه . يتجنّبه الشرط[٥] نهاراً ، و يتوقّاه العسس ليلاً . فهو إمّا غانم وإمّا سالم .

وأمّا الغنيّ فإنّما هو كالغنم السائمة ، غنيمة كلّ يد سالبه ، و صيد كلّ نفس طالبه ، وطبق موضوع على شوارع النوائب ، وعلم منصوب في مدرجة المطالب . يطمع فيه الإخوان ، و يأخذ منه السلطان ، ويتطرّقه الحدثان ، و يتحيّف ماله النقصان » .

إلى غير ذلك من الألفاظ البديعة و المواعظ المستحسنة الرفيعة . فمن أرادها فليقف عليها .

---

(١) هدج – من باب ضرب – : مشى مشية الشيخ ، مشى في ارتعاش .

(٢) المفاليس : جمع المفلس . والكراديس جمع الكراسة بتشديد الراء الجزء من الكتاب .

(٣) النواويس جمع الناووس : مقبرة النصارى .

(٤) بهامش الإصل : الباكورة أول الفاكهة . صحاح .

(٥) بضم الشين وفتح الراء جمع الشرطي – بضم الشين – رؤساء الضابطة ورجالها .

وقيل : يأمل ذا الغنى فما أدوم نصبه ، وأقل راحته ، وأخسر من ماله حظّه ، وأشدّ من الأيّام حذره ! قد بعث عليه الغنى من سلطانه العنت ، ومن أكفائه الحسد ، ومن أعدائه البغي ، ومن ذوي الحقوق الذمّ ، ومن الولد السأمة وتمنّي الفراق .

و أنشد :

دليلك أنّ الفقر خير من الغنى * و أنّ عديم المال خير من المثري
لقاؤك مخلوقاً عصى الله بالغنى * ولم تر مخلوقاً عصى الله للفقر

وممّا يسلّي عن الغنى و يؤنس محادث الفقر ما حكي [أحد] تجّار المدينة قال : كنت أختلف إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام و كنت له خليطاً ، وكان يعرفني بحسن الحال ، فتغيّرت حالي وذهب مالي فأتيته يوماً فجعلت أشكر الله فرقّ لي وأنشأ يقول :

ولا تجزع و إن أعسرت يوماً * فكم أيسرت في الدهر الطويل
ولا تيأس ، فإنّ اليأس كفر * لعلّ الله يغني عن قليل
ولا تظنن بربّك ظنّ سوء * فإنّ الله أولى بالجميل

ولمّا قبض عليّ بن يعقوب الفارسيّ بفرغانة أدخلوه في سرداب فمات فيه ، فلمّا أتى على ذلك أيّام فتحوا الباب ، ودخل إليه كاتب إسحاق بن مالك فوجدوه ميّتاً و على الحائط مكتوباً بخطّه :

ثلاثين حولاً عشت عيشة نائم * و إن ناب دهر بالّذي أنت كاره
فلا تجزعن و أصبر لها النفس جاهداً * فقد يهزل المهر الّذي كان فاره

وإذا تحلّت الأنفس بالفقر والجوع انتفى عنها الحرص و طول الأمل ، و تجلّت بالطاعات و حسن العمل .

﴿فصل ٣﴾

✡(يشتمل على مافي الانفس من دواعي الحرص و ركب فيها)✡

✡(من أسباب الامل (١))✡

روى كعب بن مالك عن النبيّ ﷺ أنّه قال: (٢) «ما ذئبان جائعان أرسلتهما في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال و السرف لدينه» إنّما كان كذلك إذا أفرط الحرص، لأنّ الحرص على الدنيا يورث سخط حكم الله، والحرص المفرط في الدين يطمس العمل ويقطع الفرض، وقد نهى الله تعالى رسوله عنه فقال: (٣) «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» وقال (٤): «إن تحرص على هداهم فإنّ الله لايهدي من يضلّ» وقال عزّ وعلا: (٥) «إنّك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء» وقال تعالى: (٦) «ولو شاء لجمعهم على الهدى فلا تكوننّ من الجاهلين» أي لاتشاء غير مايشاء الله.

فلم تزل هذه الآية تزجر النبيّ ﷺ عن التحارص في الدين إلّا أن يكون بمقدار مراقبة أمر الله ومشيّاته في كلّ شيء حتّى استقام على أقصى نهايات القربة فأثنى الله تعالى عليه بقوله (٧): «وإنّك لعلى خلق عظيم» فسئلت عائشة عن خلقه ﷺ فقالت: كان يرضى برضاء الله ويسخط بسخطه، أي لم يبق له مشيّة.

---

(١) وانظر في الحرص اصول الكافي (٢: ٣١٥-٣٢٠) و جامع السعادات (٢: ٩٩-١٠٣) واحياء العلوم (٣: ٢٣٧-٢٤٣) ومجموعة ورام (١: ١٦٢-١٧٠) وفي طول الامل جامع السعادات (٣: ٣٢-٤٠) و الاحياء (٤: ٤٥٢-٤٥٩) ومجموعة ورام (١: ٢٧١-٢٧٩).

(٢) بالفاظ مختلفة في الكافي عن الباقر و الصادق عليهما السلام. و انظر جامع السعادات (٢: ٤٦).

(٣) سورة يوسف: ١٠٣.

(٤) سورة النحل: ٣٧.

(٥) سورة القصص: ٥٦.

(٦) سورة الانعام: ٣٥.

(٧) سورة القلم: ٤.

حتّى بلغ من استقامته فيه أنّه لمّا أراد الله أن يتوفّاه جاء إليه جبرئيل عليه السلام فقال : إنّ ربّك يخيّرك بين لقائه وبين الخلد ، فقال : « لا أختار حتّى يختار لي ربّي » وهذا غاية رفض المشيّة لم يحمله الشوق إلى ربّه على اختيار اللقاء ، ولم يحمله الكون بين الأُمّة في خالص العبوديّة و محض الطاعة و هداية الخلق على اختيار البقاء فألقى الاختيار إلى ربّه ، فعاد جبرئيل عليه السلام فقال : يا محمّد ! إنّ ربّك يختار لك لقاءك ، فقال : تقوم يا ملك الموت ، فمازال يقول : لقاء ربّي حتّى خرجت نفسه .

فإذاً ينبغي أن يكون الحرص موثوقاً بالرضا والتفويض لا مرفوضاً في أصل الخلقة حتّى يكون الحرص على الدنيا في وثاق القناعة و الحرص على الدين في وثاق مراقبة المشيّة [والتقدير][1] ، فإذا أتى شيء من الدنيا من حلّ في غير طمع ولا إشراف نفس حقّ قبوله وحمد الله عليه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض أصحابه [2] : « ما أتاك من هذا المال من غير مسألة ولا إشراف نفس فخذه فإنّما هو رزق ساقه الله إليك » .

والحرص في الدين إذا أفرط غلب وسلب ما أعطاه التوفيق كما قال صلى الله عليه وآله : « الدين يسرٌ ، و لن يشاد الدين إلّا غلب فسدّدوا و قاربوا » فهذا الإفراط فيه مرغوب عنه . وأمّا أصل الحرص فيه من أعمال الأركان في فعل الخيرات ، والمصابرة على الطاعات ، والترقّي إلى معالي الدرجات . كما أنّ غلبته كالنّار الّتي تأكل ما تمرّ به حتّى تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله ورمى بصاحبه عن [3] حالق في الدنيا بعد أمل وفي الدين طول عجب .

وبلغ أمير المؤمنين [4] عليّاً عليه السلام أنّ شريحاً اشترى داراً بثمانين ألف درهم فدعاه

---

(١) ليس في النسخة (ر) .

(٢) رواه بلفظ قريب مما هنا في الاحياء (٤:٢٠٧ و ٢٠٨) في بيان آداب الفقير في قبول العطاء اذا جاءه بغير سؤال ، وجامع السعادات (٢:٩٤) . وبهامش الاصل بخط المصنف : « وكان الصحابي عمر » .

(٣) في الاصلين « عن خالق » .

(٤) انظر ما بمعناه في شرح ديوانه للميبدي ص ٤٤٧-٤٤٨ في شرح قصيدة كتبها عليه السلام بآخر كتابه هذا ، ومنها :

أموالنا لذوي الميراث نجمعها　　و دورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال : يا شريح بلغني أنّك اشتريت داراً و كتبت كتاباً و أشهدت عدولاً ؟ قال شريح : قدكان ذلك يا أميرالمؤمنين ، فقال عليّ عليه السلام : ياطويل الأمل ، شديد الحرص ، عظيم الغفلة ! إنّه والله يأتيك من لا يستأذن من حجّابك ، ولا ينظر في كتابك ، ولا يسأل عن عفّتك ، حتّى يخرجك منها شاخصاً ، و يسلمك على كرهك إلى قبرك خالياً ، فانظر ـ رحمك الله ـ أن لاتكون اشتريت هذه الدار من وارث ورث ، عساها تبقي لك كما بقي لغيرك ، هلاّ إذا اشتريت كتبت الكتاب على هذه النسخة :

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذاما اشترى العبدالذليل من ميّت أزعج بالرحيل ، اشترى منه داراً من دورالغرور من الجانب الفاني نحوه عسكر الهالكين ، و تجمع لهذه الدار حدود أربع : الحدّ الأوّل منها ينتهي إلى دواعي الآفات ، و الحدّ الثاني منها ينتهي إلى دواعي العاهات ، و الحدّ الثالث ينتهي إلى ضروب المصيبات ، والحدّ الرابع إلى الهوى المردي والشيطان المغوي ، ومنه يشرع باب هذه الدار . اشترى هذا المغبون المغرور بالأمل من هذا المزعج بالأجل ، جميع هذه الدار بالخروج عن عزّ القنوع ، و الدخول في في ذلّ الطمع ، فما أدرك هذا المشتري فيما اشترى من درك فعلى مبلي أجسام الملوك و سالب نفوس الجبابرة مثل كسرى وقيصر و تبّع و حمير . شهد على ذلك صدق العقل إذا أقلت من أسر الهوى ، ونظر بعين الزوال إلى الدنيا » .

و من كلام عليّ عليه السلام « تجنّبوا المنى فإنّها تذهب بهجر ما خوّلتهم ، و تصغّر مواهب الله الّتي رزقتم » .

ومن كلام بعض الخلفاء : اعملوا لله رغبة أورهبة فإنّكم نبات نعمته وحصيد نقمته ، ولا تغرس لكم الآمال إلّا ما يجتنيه الآجال . و أقلّوا الحرص فيما يورث العطب فكلّما تجرعه العاجلة تقلعه الآجلة ، واحذروا الجديدين فإنّهما يكرّان عليكم بافتسام النفوس وهدم المأسوس .

ومن كلام بعض الحكماء : لاتجاهد الطلب جهاد الغالب ، ولا تتّكل على القدر اتّكال المستسلم فإنّ ابتغاء الفضل منّة وإجمال الطلب عفّة ، وليست العفّة بدافعة رزقاً ولا الحرص بجالب فضلاً ، والرزق مقدور والأجل مرقوب ، وفي استعمال الحرص اكتساب المآثم .

وقال آخر : انتقم من الحرص بالقناعة كما تقتصّ من العدوّ بالقصاص ، ولايكون لغيرالله عبد ماوجد من العبوديّة بدّاً .

من بنده نباشم اندازدار(؟)مرا * مادر نه براى بندگى زادمرا

وفي كلام يوسف بن عمر الثقفيّ : كم من مؤمّل أملاً لايبلغه ؛ و جامع مالا يأكله ومانع ماسوف يتركه ، و لعلّه من باطل جمعه ، ومن حقّ منعه ، أصابه حراماً و ورّثه عدوّاً ، واحتمل مرّه ، وباء بوزره ، وورد على ربّه آسفاً لاهفاً،خسر الدنيا و الآخرة .

وقال قتيبة بن مسلم : إنّ الحريص ليعجّل الذلّة قبل إدراك البغية .

وقال رجل لبعض الصالحين : أنا خارج إلى بغداد فهل لك من حاجة ؟ فقال : ما أُحبّ أن أبسط أملي حتّى تذهب إلى بغداد و تجيء .

و كان البوشنجيّ في دعوة مع أصحابه فمدّ صوفيّ يده إلى جام فيه خبيص[1] نحو الصومعة من السكّر ، فقال له البوشنجيّ : ارفق قليلاً حتّى تبلغ من ناحيتك إليها فقال الصوفيّ : أيّها الشيخ ! أملي أقصر من أن أُحدّث نفسي ببلوغ ذلك المكان ، فبكى قوم من لفظه وضحك قوم من ملحه .

وممّا يشبه ذلك أنّ بدويّاً رأوه يوماً من أيّام شهر رمضان يأكل رطباً فقالوا له : لم لاتصوم ؟ فأجاب : إنّ الله تعالى يقول في كتابه العزيز[2] : « كلوا من ثمره إذا أثمر» وخفت من بلوغ الأجل قبل الغروب فأموت عاصياً والأمر هنا على الوجوب .

وقال بعض الحكماء : إذا كان القدر حقّاً فالحرص باطل ، و إذا كان القدر طباعاً فالثقة بكلّ أحد عجز ، وإذا كان الموت لكلّ أحد راصداً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق .

وقال : من قدر أن يحترس من أربع خلال لم يكن في تدبيره خلل : الحرص و العجب واتّباع الهوى والتواني .

وقال بعض البلغاء : من شبّ أمله شاب عمله ، ومن أسره رجاؤه طال عناؤه ، وعظم بلاؤه ، ومن التهب طمعه وحرصه ظهر عجزه ونقصه .

---

(١) الخبيص والخبيصة : الحلواء .

(٢) سورة الانعام : ٩٩ .

وفي الجملة من لم يكن لله متّهماً لم يمس محتاجاً إلى أحد . ولا بدّ من شيء يعين على الدهر ويغني عن كرام الناس فضلاً عن لئامهم ، ويذلّل تعوّد الصبر ، و يلجم راحلة الأمل ، لا كما توهّمه بعض الحمقاء من حسّاد زماننا فإنّهم قد استكثروا على المنقطعين قوت يوم بيوم ، وزعموا أنّ من سعى لقوت يومه ولعياله من جملة الحريصين على حبّ الدنيا ، ولو كان من حلّ ولو رغيفاً واحداً ، وتوهّموا أنّ الزاهد الّذي لا يملك ما ذكرناه ، بل يتمنّون أن لا يرزق هذا المنقطع ذلك القليل الّذي لا يرضى بأضعافه أحد مماليك هؤلاء لكن أقول :

ما ذي بأوّل مطرة * مطرت على أسد الفلا

واعلم أنّ مرّ اليأس خير من حلاوة الطمع في أموال كرام الناس ، والعزلة محمودة إلّا أنّها محتاجة إلى الكفاية ، والقناعة مرفّهة ولكنّها فقيرة إلى البلغة ، و صيانة النفس حسنة إلّا أنّها كلفة محرّجة ، إن لم يكن لها مادّة [لها أداة[1]] تمدّها ، و ترك هذه الأمور غير ممكن ولا مستطاع إلّا بدين متين ورغبة في الآخرة شديدة ، و القطام عن دار الدنيا صعب ، ونسيان الحلو والحامض عسر لكن الرمد خير من العمى ، و إن تقطّعت من الحمقاء الأحشاء حيث لم يبلغوا هذه الرتبة القصوى ، بل موّهوا على العوامّ أنّه لم يبلغ ذلك أحد من الأنام ولم يقدر الناقص على الإتمام . و الباعث على ما توهّموا و أهملوه تحصيل الحطام و لو بارتكاب الآثام وحمل الأثقال والانهماك في الوبال ، و إذا لم يكن عندهم الخير لأنفسهم جزيلاً أخذوا أخذاً وبيلاً «قل كلّ يعمل على شاكلته فربّكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً» .

وقال ابن السمّاك : لولا ثلاث لم يقع حيف ولم يسلّ سيف : لقمة أسوغ من لقمة ، ووجه أصبح من وجه ، وسلك أنعم من سلك . وليس كلّ أحد له هذه القوّة ، ولا فيه هذه المنّة ، والإنسان بشر و بنيته متهافتة وطينته منتشرة ، وله عادة طالبة و حاجة هائلة ، و نفس جموح وعين طموح ، وعقل طفيف ورأي ضعيف ، يهفو لأوّل ريح و يستحيل لأوّل بارق ، هذا إذا تخلّص من قرناء السوء وسلم من سرّاق العقل وكان له سلطان على نفسه ، و قهر لشهوته ، وقمع لهواه وقبول من نصيحة ، وتهيّؤ في سعته و تبوّء في مغاني حظّه ، و

(١) بهامش الاصل بخط المصنف : كذا وجدت .

اهتمام بسعادته ، واستبصار في طلب ماعند ربّه ، واستنصاف من هواه المضلّ لعقله المرشد هذا قليل أوصعب ، ولوفلت معدوم أومحال لما خفت عائقاً .

وكان ابن السمّاك يقول : الله المستعان على ألسن تقصف وقلوب تعرف وأعمال تخالف .

وقيل عند الحسن : أين الطالبون للآخرة و التاركون للدنيا؟فقال الحسن : اقلب كلامك وضع يدك على من شئت .

وربّما قال بعض المتكلّمين : قد قال بعض السلف : ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا من ترك الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ هذه وهذه ، وهذا كلام مقبول الظاهر موقوف الباطن [ويقال لهذا الكلام أيضاً هذا كلام منمّق لايرجع إلى معنى محقّق][1] أين هو من قول المسيح عليه السلام حين قال : « الدنيا والآخرة ضرّتان ، متى أرضيت إحداهما أسخطت الأُخرى ، ومتى أسخطت إحداهما أرضيت الأُخرى » و كيف لا يكون كذلك و هذا الإنسان صغير الحجم ضعيف الحول ، لايستطيع أن يجمع بين شهواته و أخذ حظوظ بدنه ، ونيل هواه وأمله ، و بين السعي في طلب المنزلة عند ربّه بأداء فرائضه ، و القيام بوظائفه ، والثبات على حدود أمره ونهيه فإن صفق وجهه وقال : نعمل تارة لهذه الدار وتارة لتلك فهذا متذبذب لاهوهنا ولاهوهناك . ومن يخنّث لم يكن رجلاً ولا امرءة ، فهو لايكون أباً ولا أُمّاً .

ودخل ميمون بن مهران على عمر بن عبدالعزيز قال له ـ وقدقعد في أُخريات الناس ـ عظني ، فقال ميمون : أنت لمن خير أهلك إن وفيت أربعة ، قال : ما هنّ ؟ قال : إن وفيت السلطان وقدرته ، والشباب وعزّته ، والمال وفتنته ، والأمل وسكرته ، قال : أنت أولى بمكاني منّي فارتفع إليّ ، فأجلسه على سريره .

إبراهيم بن أدهم : نظرت فلم أجد الخلق أُتوا في أحوالهم إلّا في ثلاثة أشياء : من الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمديح ، لأنّ من فرح بالموجود حرص والحريص محروم ، ومن حزن على المفقود سخط و الساخط معذّب ، ومن سرّ بالمديح أعجب و المعجب ممقوت .

---

(١) زيادة من الاصل .

وفي بعض الخطب : « كلّكم يرمى عن مرامي الأمل عرضاً ، كلّكم يطلب عن دواعي الحرص غرضاً ، كلّكم قد جعل الكسل قيداً على رجله فلا يحسن عبادته ، و الغفلة غطاء على قلبه فلا تصدق زهادته ، فإلى متى والعمر مؤذن بالانقضاء ، و الدهر مجدّ في الاقتضاء ، والشيب قد اشتعل في الشواة ، و السفينة بلغت ساحل الحياة ؟ فما هذا الأمل القويّ وقد ضعف البدن ، وما هذا الحريص الطريّ وقد عسا العود ووهن ، استشنّ أديم الوجه ، و أُهرق ماء الشباب ، و انطفىء نار الطبع ، وركد التراب . ذهب القوى فماذا تختبر ، وتناهت المدى فماذا تنتظر ؟ كلا إنّكم أُمهلتم ، ولاوربّكم فما أُهملتم . هل ذلكم إن حاستبم أنفسكم إلّاحطاماً قمشتم[1] وجمعتم ، وحراماً احتجبتم و اقتطعتم ، ستجدون ذلك كلّه حسرة و وبالاً ، وتحصدون منه غراماً ونكالاً ، تجمعون لمن يبكي عليكم قليلاً ، وبنساكم طويلاً ، وتؤخّرون لأزواج البنات والبنين ، ثمّ تحاسبون عليهما يوم الدين .

إذا انقطعت عنّي من العيش مدّتي * فإنّ بكاء الباكيات قليل
ستعرض عن ذكري ونفسي مودّتي * و يحدث بعدي للخليل خليل
أرى علل الدنيا عليك كثيرة * و صاحبها حتّى الممات عليل
و إنّي وان أصبحت بالموت موقناً * فلي أمل دون اليقين طويل

ومن خطبة أخرى : قد ران[2] على القلوب العصيان، وملك قياد النفس الشيطان ، واستولى على صدق العمل كذب الأمل ، كما يستولي الجواد على الأبد ، ثمّ الأجل يسرع إسراع السيل ينصبّ إلى الحدور، وينزل نزول الطير تنقضّ إلى الوكور . يطرقنا المنون ولا حذار، وتمحقنا السنون ولا اعتبار، يطوي عمرنا مرّ الأيّام ونطوي المراحل ساكنين و يخطفنا عقاب الحمام و نطأ المنازل آمنين .

يحكى أنّ عبدالملك بن مروان سهرذات ليلة فقال لبعض حصّان داره : سامرني فقال : ليس مثلي من مسامري الملوك ، فإنّما حديثي مع كلّ أعجم مملوك ، فقال : على كلّ حال حدّثني ، قال : سمعت في سمر أنّ ثعلباً خدم أسداً على أنّ يقوم له بطعامه و حاجته، فكان يوماً عنده وهو يأكل من فريسته فقال : يا أباالحارث أخاف أن يأخذني

(١) قمش المال - من بابي ضرب ونصر - : جمعه من هناوهنا .
(٢) ران : غلب . دهو يائي .

هذا العقاب الكاسر فقال : كن إلى جانبي ، فقال : ليس ينجيني ذلك منه قال : فكن على ظهري فجاءت العقاب واختطفته عن ظهره، فصاح يا أبا الحارث ! ليس على هذا عاهدتني أوّلاً فقال : إنّما ضمنت لك من أهل الأرض ، فأمّا أهل السماء فلا. فاتعظ عبد الملك و أجهش في البكاء وعلم أن لاموئل من الفناء .

وقال الرشيد[1] لأبي العتاهية : عظني ، فقال : آمنّي ، قال : أنت آمن، فأنشأ يقول:

لاتأمن الموت في طرف ولا نفس * وإن تستّرت بالأبواب والحرس
و اعلم بأنّ سهام الموت نافذة * في كلّ مدّرع منها ومتّرس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * إنّ السفينة لاتجري على اليبس

فبكى الرشيد حتّى سمع نشيجه[2].

وحكي أنّ الرشيد زخرف مجالسه وبالغ فيها وصنع طعاماً كثيراً ثمّ وجّه إلى أبي العتاهية فأتاه فقال له : صف لنا مانحن فيه من نعيم هذه الدنيا ، فقال له في الحال :

عش ما بدا لك سالماً * في ظلّ شاهقة القصور

فقال : أحسنت ، ثمّ ماذا ؟ فقال :

يسعى إليك بما اشتهيت * لدى الرواح وفي البكور

فقال : حسن ، ثمّ ماذا ؟ فقال :

إذا النفوس تقعقعت * في ضيق حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً * ما أنت إلّا في غرور

فبكى الرشيد، فقال له الفضل بن يحيى : بعث إليك الخليفة تسرّه فأحزنته ؟ فقال الرشيد : دعه فإنّه رآنا في غفلة وعمىً فكره أن يزيدنا .

واجتاز الرشيد يوماً في حفدته وجموعه وهو معجب بملكه في بعض طرق بغداد فنهض إليه بعض الموسوسين[3] فقال :

نعدّك قد ملكت الأرض طرّاً * وأنّ لك العباد فكان ماذا ؟

---

(١) الخبر والابيات فى الاغانى (٣:١٧٣) .
(٢) النشيج : الصوت .
(٣) الموسوس : من اصيب فى عقله .

ألست تصير في لحد ، و يحوي * تراثك كلّه هذا و هذا

وأشار إلى الأمين والمأمون وكانا وراءه ، فاغرورقت عيناه بالدموع .

وفي خطبة : ماهذا الفتور والتضجيع ، وهذا التفريط والتضييع ؟ فما حسن أن يكون العمل في الدنيا الملامة ، والزاد في الآخرة الندامة ، يعمّر الفتى وهجيراه أن يخلو به أمله يحاوره[١] ، ويجلس إليه هواه يسامره ، يبيت لهناه سامعاً ، ويظلّ في يدمناه خاتماً طائعاً :

المرء نصب أمان ليس يعصيها * يبيت ما عاش يبديها و يخفيها[٢]

و للنفوس وإن كانت على وجل * من المنيّة آمال تقوّيها

فالعمر يبسطها والدهر يقبضها * والنفس تنشرها والموت يطويها

المرء منسوب إلى فعله * و الناس أخيار و أمثال

يا أيّها المرسل آماله * من دون آمالك آجال

وفي أخرى : إنّ الأمل جانبه أجدب ، والحرص كاسبه أخيب ، وما الحرص وصاحبه أبداً محروم ، وما الطمع ولا يتغيّر به المقسوم . وما طول الأمل و العمر قصير ، وما بعد المنى والأجل قريب ، وما هذا السكون وإنّها مثوى نقلة و ارتحال ، وما هذا الركون إلى مناخ فناء وزوال؟

دعوت و قدب الكرى في عظامه * وفي رأسه حتّى جرى في المفاصل[٣]

فقلت قم له : فارتحل ليس ههنا * سوى و قفة الساري مناخ لنازل

هيهات! وجّه الرحيل عن الربع المحيل ، يدني الأجل ولا يرعى غير الحنظل . إنّها دار من لا دار له ، وبها يفرح من لا عقل له .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله[٤] : « ما سكن حبّ الدنيا قلب عبد إلّا عاد منها بثلاث : شغل لا ينفكّ عناه ، وفقر لا يدرك غناه ، وأمل لا ينال منتهاه » . و أنشد :

الزهد من أفضل خلق الفتى * فافزع إليه و تخلّق به

---

(١) في النسخة (ر) يحلو به أمله يجاوره .

(٢) الاخيران من الابيات الثلاثة الاول لامير المؤمنين عليه السلام في الديوان : ١٤٧ .

(٣) الكرى مقصوراً : النعاس .

(٤) قريب منه عن الصادق عليه السلام في الكافي (٢ : ٣٢٠) .

والتحف العفّة فهي الغنى * وهو الرضا بالقوت فاعلق به
و اجتنب الحرص فمن يعلتق * حرصاً على الاثرا تعلّق به
تصير بالحرص مهاناً ، فإن * تقنع بما يكفيك تطلق به
ولا تكن في طمع راهناً * عرضك للآمال تعلق به
فإن تحبّ تحصل على عسرة * و إن تخر جدواه تعلق به[1]

فما الإكثار من الحرص الّذي هوالسبب المتعب ، وأصل النصب ، وداعية الحاجة وعلامة اللجاجة ، ولقاح البخل ، ونتاج الجهل ، ورائد الذلّ ، وملاك الهلاك والإهلاك .

قال بعض الأُمراء لبعض العلماء : سلني حاجتك قال : أولي تقول[2] ولي عبدان هما سيّداك ؟ قال : ومن هما ؟ قال : الحرص والهوى فقد غلبتهما وغلباك .

وذمّ بعض العلماء الحرص فقال : هذا العقاب يطير في فضاء عزّه ، ولا يرتقي طرف إليه ، ولا تعرج يد عليه فيرى قطعة لحم على شبكة ، فينزّله الحرص من مطاره ، فيعلق بالشبكة جناحه ، فيصيده صبيّ ثمّ يلعب به لعب السنّور بالفارة .

قال بعض الحكماء : من لوازم الحرص الكدّ الّذي لا انتهاء له و العبوديّة الّتي لا انقضاء لها ، وأن تكون خدمته تفضل على خدمتهم له وذلك أنّ من سعى و تعب عمره با كتساب مايفضل من المال عن نفقته ومقدار حاجته ، وجمعه و كنزه فقد خسر وخدع ، و استعبد من حيث لايعلم ، لأنّه أعطى كدّاً وجهداً ولم يستعوض منه كفاية وراحه . ولا استبدل كدّاً بكدّ وخدمة بخدمة فحصّل به جهده و كدّه و كفايته للناس ، فاستمتعوا به ، وفاته من كفاية الناس له و كدّهم عليه واستمتاعه بهم قدر استحقاقه بكفايته لهم و كدّه عليهم. ثمّ إنّه لم ترَح له الأيّام أملاً ، وعاجلته في نفسه بالفناء ، فهو خاسر لسعيه غبين ، وشقيّ في أمره مبين . وما أحسن ماقال القائل[1] :

جمعت مالاً ففكّر هل جمعت له * يا جامع المال أيّاماً تفرّقه؟

---

(١) تخر : تختر .

(٢) في الاصلين « يقول » .

(٢) الابيات السبعة في الاحياء (٤:٢٠١) .

المال عندك مخزون لوارثه * ما المال مالك إلّا حين تنفقه
ارفه بعيش فتى يغدو على ثقة * إنّ الّذي قسّم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنّسه * والوجه منه جديد ليس يخلقه

وماكل من اعطى الفنى يبتغى العلى * ولايبصر المعروف أين مواضعه
ومره بخلق شيمة غير خلقه * ليحظى به تغلب عليه طبائعه
فلاتحرص كم قدوعا الحرص من فتى * إلى غاية ترديه حين تطاوعه

تعالى الله يا سلم بن عمرو * أذلّ الحرص أعناق الرجال[1]
هب الدنيا تساق إليك عفواً * أليس مصير ذاك إلى الزوال

ألا يانفس إن ترضى بقوت * فأنت عزيزة أبداً غنيّه
دعي عنك المطامع والأمانيّ * فكم أُمنيّة جلبت منيّه

أحرصاً وأطماعاً تباعا و إنّما * يقطّع أعناق الرجال المطامع

وبالجملة فالحرص من المهلكات والباعث الأقوى
عليه انهماك الأنفس في الشهوات .

---

(١) لابى العتاهية فى الاغانى (٣ ١٥٨) يخاطب بهما سلم الخاسر .

﴿فصل ٤﴾

✡(فى قمع الانفس ومخالفتها فى شهواتها)✡

سبحان من أخرج من الشجر الأخضر ناراً ، وفجّر من الحجر الصلد أنهاراً ، ووقّف على الهواء السماء ، وأودع في الجبال الماء ، تسيل من الجبال على الأرض ينابيع طافحة[١] ، وتنير من السماء على الهواء مصابيح لائحة ، تسبّح له السماء بآفاقها وأقطارها ، والأرض ببرّها و بحارها ، والروض بأنوارها وثمارها . والسحاب بضوءها وأمطارها ، والليل عند خفوق النجم وإخفاقها ، والنهار بعد شروق الشمس وإشراقها ، والطير بألحانها و هديلها[٢] و الخيل بضبحها[٣] وصهيلها ، والأقلام في يدي فرسان الكلام بصريرها ، والأسياف في أيدي شجعان الهجاء بصليلها[٤] ، والناطقات فاغرة[٥] بأصواتها أفواهها ، والصامتات موسومة بشهاداتها أجباهها ، والبهائم والسباع وحشيّها و إنسيّها . والموجودات كلّيّها وجزئيّها حتّى الذرّ في مواطنه وذوائه ، والذئب في عسلانه ، والثعلب في روغانه[٦] ، والبهم في رعائه ، والحمام في اهتدائه ، و الديك في جوده وسخائه ، والكلب في إلفه ووفائه .

ففي كلّ ماخلق حكمة باهرة تعلمها أو نجهلها ، و على وجه ما فطر حجّة ظاهرة نعقلها أولا نعقلها . يشهد كلّ ذلك بأنّه الحقّ المبين ، مالك الملك ربّ العالمين .

أرسل النبيّ الأمّيّ الهاشميّ التهاميّ محمّداً ﷺ إلى الحقّ هادياً ، وبالهدى منادياً وبلسان الصدق صادعاً ، و بنور الرشد ساطعاً ، حتّى اهتدى بهداه المهتدون ، وسرى في سناء سمته المقتدون .

---

(١) طفح الاناء - من باب منع - : امتلا وفاض .
(٢) الهديل : صوت الحمام . وقد سبق .
(٣) الضبح : صوت يسمع من الخيل فى عدوها ليس بالصهيل ولا الحمحمة .
(٤) الصليل : طنين السلاح .
(٥) فغر فاه - من بابى منع ونصر - : فتحه .
(٦) الذواء : قشر الفاكهة ونحوها . العسلان بالتحريك : الاضطراب . الروغان : الخدعة .

وأعقب بعده الأئمّة الراشدين والأولياء المهتدين الّذين أذهب الله الرجس عنهم و طهّرهم تطهيراً ، صلوات الله عليهم أجمعين .

قال الله تعالى [١] « أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً » جعل الله متّبع هواه تائهاً عن هداه ، فيكون بالحريّ أن يخرج من الإيمان، ويبعد من الأمان ويقرب من النيران منقطعاً بهواه عن مولاه ، محروماً في الدنيا و الآخرة مناه . فهي النفس الأمّارة بالسوء عن هواها ومنعها من أن تميل إلى ما يسخط مولاها ، فعلى هذا وجب على كلّ امرىء مسلم يؤمن بالله أن يطفىء جمراً يلتهب ، و أن ينفي من صدره أمراً يضطرب ، و معنى الحديث « أنّ النار تنادي يوم القيامة بالمؤمن : يا مؤمن جُز عنّي فقد أطفأ نورك لهبي » .

إنّ من عالج شهوات نفسه وهوى قلبه حتّى يدبّرها ويملكها ويخلّص أنوار الإيمان من دخان الشهوات المظلمة ، استحقّ أن يعطى يوم القيامة من النور ما يطفىء لهيب النار الّتي اتّقدت من نار الشهوة ، كما تطفىء الشعلة القويّة ناراً ضعيفة .

ومن لم يعالج ذلك من نفسه وخرج من الدنيا مع هذه النيران الّتي لا تزال سوداء مظلمة خيف عليه أن لا يقوى نوره الضعيف على أن يطفىء لهيب النيران على الصراط مع شدّة اضطرامها وقوّة احتدامها [٢] ، وأن لا يطفىء دخان شهواته الغالبة مع عظيم إظلامها وشدائد إدلهامها ، و كيف ولم يكن له في دنياه نور في القلب يطفىء نار هواه الموقدة ، و خرجت منه أعمال محترقة مسودّة ، لأنّ عامّة ما كان يعمله من الطاعات إنّما يعمله بهواه وبما ينشط له نفسه ويستحليه طبعه ، ويريد به رياء الناس ولا يريد به وجه الله ، وينظر إلى ما تأمره به نفسه ، ولا ينظر إلى ما يختاره الله ، فيكون عاملاً برأيه على التملّك والاقتدار والتشهّي و الاختيار ، حتّى ربّما حمله ذلك على ترك الواجب في جنب ما يتطوّع به .

وهذا موجود في كثير من الناس يرى الرجل يصلّي بالليل ويعقّ والديه ، و يصوم بالنهار ويسوء خلقه في شأن فطوره وسحوره ، ويرتاد لمطعمه الحلال ثمّ لا يتّقي على نصيب

---

(١) سورة الفرقان : ٤٣ .

(٢) الاحتدام : شدة الحر .

صاحبه وخادمه ، ويغتاب الناس وينفق في البرّ ، و يكتسب من الشبهات و يتصدّق على المساكين ، ويقري الضيفان أو يتصدّق من حلال ماله و يمنّ ، و يعود المريض ، و يشهد الجنائز إمّا لقضاء الحقوق أولابتغاء الثواب ، ثمّ يؤذي المؤمنين ويطوي كشحه عن المتّصلين ويقارب الأجانب ويقطع أرحام الأقارب ، ويتودّد لمن لا يبلى إليه بسبب ولايدنو بنسب ، ثمّ يقاسي منه من يضمّه كنفه قذاة عينه وغصّة صدره ، فهذا جاهل بربّه يقتاده الشيطان بخزائمه[1] ، و يصطاده الهوى بحبائله .

فأمّا العلماء بالله والمبصرون لما في أنفسهم من الخير و الشرّ ، و مالها و عليها من الحقّ فالنفس والشيطان هناك أقلّ و أذلّ من أن يطمعا فيهم ، أو ينالا منهم لأنّ النفس إنّما تشرف على القلب الّذي أسره الهوى وخدعه الشيطان .

فأمّا المؤمن الّذي انشرح صدره و اطمأنّ بالإيمان قلبه فإنّما يجاهد نفسه الأمّارة بالسوء ، الحمّالة للوزر ، الصادّة عن الحقّ الصارفة عن الخير ، ويخالف الشيطان العدوّ النازل بربع الغواة ، المالك لجوارح العصاة قال الله تعالى[2] : « إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتّبعك من الغاوين * وإنّ جهنّم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكلّ باب منهم جزء مقسوم » وإنّما هي باب الهوى وباب الشهوة وباب الغضب وباب الحرص وباب الغفله وباب الشكّ وباب الشرك . وفي الحديث : « للنار باب لا يدخل منه إلّا من شقي نفسه بسخط الله » .

و قالت الحكماء : إنّ بموضع ثبات القدم والمسكة في مداحض الهوى و استنزال شهوة الإنسان تعرف فضيلة الرجل ورذيلته ، فإنّ جسد الإنسان لمّا كان مملوّاً بالمزاجات المختلفة والأعضاء المفتّتة و كلّها معرضة للأعراض الطارية عليها والآفات الملمّة بها إمّا من جنس الأحزان والآلام ، وإمّا من جنس المسرّات والملاذّ بحسب دواعي النفس وصفة الطبع إلّا أنّ مع هذا الجسد معنى آخر لطيفاً سالماً عن العوارض ذا طبيعة واحدة جعل مدبّراً له ومهيمناً عليه ، وهو العقل المضادّ للهوى ، لأنّ الهوى يختار أبداً و يوثر دائماً ما يدفع به الشيء الموذي المولم المماسّ الملازق به في وقته ، وإن كان يعقّب مضرّة

(١) جمع الخزامة - بالكسر - : قطعة رقيقة يشد بها بين الشراكين .
(٢) سورة الحجر : ٤٢ - ٤٤ .

من غير نظر فيما يأتي من بعد ، ولا رؤية فيما يتعاطى في الحال ، والعقل يرى ويختار الشيء الأفضل الأرجح و ما هو الأصحّ والأصلح عند العواقب ، وإن كان على النفس منه في أوائله مؤونة و كلفة و صعوبة ، ولهذا نرى كلّ واحد منهما معادياً للآخر منكراً عليه ما يشير به ويدعو إليه ، كما قال الشاعر عن لسان هواه :

طرحوا اللحم للبزاة * على ذروتي عدن[1]
لمَ لاموا البزاة * لمَ خلعوا الرسن
لو أرادوا صلاحنا * ستروا وجهه الحسن

وقال آخر عن لسان عقله في جواب ماقاله الهوى :

يامن يسرّ بلذّة الدنيا * ويظنّها خلقت لما يهوى
لاتكذبنّ فإنّما خلقت * لينال زاهدها بها الأُخرى

إلّا أنّ العقل في معاداته الهوى مسالم للإنسان ، والهوى في معاداته العقل معادٍ له ، وصائر به إلى فساد الدين والدنيا ، والعقل صادق في رأيه ، و الهوى كاذب مستولى عليه و مغالط له و مسابق إلى موضعه من النفس .

قال العبّاس بن الأحنف :

كيف احتراسي من عدوّي إذا * كان عدوّي بين أضلاعي

وقال ابن المعتزّ :

و يارب ّ ألسنة كالسيوف * تقطّع أعناق أصحابها
و كم قد دهى المرء من نفسه * فلا يؤكلنّ بأنيابها

وقال الخطّابيّ :

ولولا الهوى أبصرت رأيي ومن بثق * بأوّل رؤيته فليس بعاقل
وذو النصح أهدى منكم لي نصيحة * و لكنّه أهدى إلى غير قابل

وإذا عرفت هذا فأيّتها نفس عصت على مدبّرها الّتي رؤيت بنوره وشرّفت بمكانه ، فلم تطع أمره و هامت في شهواتها وأجابت دواعي غيظه وغضبه ، فهي أخسّ و أطرح من

(١) البزاة - بضم الباء - جمع البازى . الذروة - بالضم - المكان المرتفع .

الخنزير الهائج والسبع الثائر [١] لأربعة معان :

أحدها أنّهما يفضلانها بسرعة المواتاة للتأديب والتعليم والإصلاح والتقويم ، فأمّا النفس إذا ضربت و فسدت بالإذعان للشهوات والإمعان في اللذّات ، و استحكم عليها بسلطان الشيطان ، وران فيها حران الطغيان ، لم يطاوع الارعواء والانثناء ، وانقطع حبال الحبل في قمعها و رفعها حتّى يصير الأمر في حال الأمراض البدنيّة الّتي لا مطمع في دوائها إلّا استعجال شرّها واستحكام دائها .

والثاني أنّها لا تقتصر على حدّها الأوّل المركوز في الطباع كما تقتصر عليه نفوس البهائم والسباع ، بل إذا أفرط الهوى في الإنسان استرسل في الخلاعة [٢] و انهمك في المجانة [٣] ، و تراكم عليه الفضائح المخزية والأعراض المردية ، حتّى يعشق الإنسان وجوه الصباح الحسان ، وتحرّى الخذلان،طلق العنان في الاستهزاء . ومن جملة المنهمكين في الجماع إلى وقت الزنا و خزي اللواط ، وما بعد ذلك من السوءة الّتي لا سوى لها . والله المعيذ منها .

والثالث أنّ بنية الإنسان صنعت على هيئة يقصر عنها في الشهوات فإنّ بهيمة واحدة تصيب من لذّة المأكل والمنكح مالا يصيبه ولا يقدر عليه عدد من الناس ، و إنّما يلتذّ بملتذّاتها فوق التذاذ الإنسان ، لأنّ لها الغاية في اللذّات ، لأنّ كمال اللذّة ليست بإضافة بعضها إلى بعض ، بل بالإضافة إلى مقدار الحاجة إليها و حاجة الإنسان لاتنتهي وحرصه لاغاية له ، بخلاف حاجاتها .

تموت مع المرء حاجاته　　*　　وحاجة من عاش لاتنتهي

وقال عبيدة بن الطبيب [٤] .

والمرء ساع لأمر ليس يدركه　　*　　و العيش شحّ وإشفاق وتأميل

---

(١) الثائر : الهائج .

(٢) الخلاعة - بالضم - : الانقياد للهوى .

(٣) المجانة : قلة الحياء . وصاحبها ماجن .

(٤) البيت فى المفضليات : ١٤٢ من قصيدة له فى ٨١ بيتا . قال الجاحظ فى الحيوان (٣ : ٤٦) : وكان عمر بن الخطاب يردد البيت ويعجب به من جودة ما قسم .

متى تنقضي حاجات من ليس بالغاً * إلى حاجة حتى يكون له اخرى

ولذلك لا تخلص حال عن أذى ولاصفو ها عن قذى ، شعر :

أنا والله أشتهي سحر عينيك * و أخشى مصارع العشّاق

كفى حزناً أنّ الجواد مقتّر * عليه ولا معروف عند بخيل

آخر :

و كيف يخلص حال عن أذى وقذى * وقد أحاط بسعد الأُفق نحسان

عُني الفتى بخلاف كلّ معاند * يؤذيه حتّى بالقذى في مائه

يهوى إذا أصفى الإناء لشربه * و يروغ عنه عند صبّ إنائه

يحكى [١] أنّ يزيد بن عبدالملك بن مروان عشق حبّابته عشقاً مبرّحاً [٢] وكانت حبّابة إذا غنّت و طرب يزيد قال لها : أطير ؟ فتقول : فعلى من تدع المسلمين وأُمورهم فيقول : عليك ، فقال لها ذات يوم : ياحبّابة ! إنّه لم يصفُ عيش يوماً قطّ إلى آخره لأحد ، كذا يقولون، فاشربي واسقيني ولا يكون معنا ثالث ، ولايدخل علينا أحد ، فلعلّنا نخالف رسم الزمان ونلبث يوماً بلا أحزان . وتقدّم إلى حجّابه و خواصّ أصحابه أن لا يخبروه يومه ولا يرفعوا إليه أمراً . و خلابها في روض كأخضر الديباج على حوض ماء كأزرق الزجاج ، واندفعا في الشرب و الغناء ، والسرور قدفضّ ختامه ، والأُنس قد رفع أعلامه ، حتّى أخذت حبّابة حبّة رمّان و متنقّلة بها على الشراب ، فغصّت بها و ماتت من ساعتها . فتحيّر يزيد ودهش وعزم أن لايدفنها تهالكاً عليها حتّى مشى إليه شيوخ بني أُميّة وقالوا : هذا عارنا لايدحضه الاعتذار ، ولا يمحوه الليل و النهار ، و مازالوا لوابه حتّى دفنها، وأنشأ على قبرها يقول :

فإن تسل عنك النفس أوتدع الهوى * فباليأس تسلو عنك لا بالتجلّد

و كلّ خليل زارني فهو قائل * من أجلك : هذا هامة اليوم أوغد

---

(١) الخبر والبيتان في الاغاني (١٣ ١٥٧-١٥٨) . و حبابة ـ بفتح الحاء و تشديد الباء ـ جارية ليزيد كان يهواها شديداً وله معها وجاريته الاخرى « سلامة القس » أخبار كثيرة .

(٢) برح به الامر : أتعبه وأذاه .

وكان كما قال ، فلم يلبث إلّا قليلاً بعدها حتّى لحق بها .

والوجه الرابع من فضل سائر الحيوان في اللذّات و الشهوات على الإنسان بين سقوط الهمّ والفكر عنها ، وهناة عيشها وطيبها بشهواتها ، فإنّا نرى البهيمة قد حضر وقت ذبحها وهي لاهية راعية وإذا راعها شيء فكلّما زال عادت سليمة راتعة كما قيل :

نراع إذا الجنائر قابلتنا * و تبكينا بكاء الباكيات
كروعة ثلّة لمكان ليث * فلمّا غاب عادت راتعات

آخر :

قضى الخطوب وأنت منتبه لها * فإذا مضت فكأنّها أحلام

ولعمرك ما المنافسة في شيء كانت البهائم تضارع الإنسان فيه ، بل كانت أقوى منه و كان الإنسان أعجز وأقلّ فيه منها ، فقد ظهر الإنسان المغلوب عقله الغالب هواه و شهوته في حال البهائم ، بل أخسّ وأنقص ، كما قال الله تعالى : (١) « أُولئك كالأنعام بل هم أضلّ » وأنّه إذا أحسن طاعة العقل ولم تستعبده شهوته ، مع أنّه ضيّع على استيثارها و الاستهتار بها صار حاله في المرتبة فوق الملائكة المقرّبين ، و أنّ المبتلى بدواعي الشرّ إذا أحسن ارتياد الخير على صعوبة محاولته و شدّة الأمر عليه في مزاولته كان أولى بالحمد و المجد ممّن لم يعرف سهولة الشرّ وحلاوته ولا مسّه صعوبة الخير و مرارته .

وقد ظهر أنّ الأوساخ البدنيّة والأفعال الدنيّة ، مهما انتفت عن الأخلاق الإنسانيّة بتغلّب العقل على الهوى و مرابطة الشهوة في ثغر النهى ، أوجبت الفوز بالكرامات الإلهيّة المتّصلة الدائمة الباقية ، و الاغتباط بإشراق نور الحقّ عليه على الدوام من غير فتور و انقطاع ، إلى أن يرى من نور عقله مالم يخطر بباله ، ولا يقدر عليه أحد ولا على مثله ، من غير تعليم وتفهيم وتوطين وتمرين ، كما كان عليه أمر بعض الزهّاد ، فكان أحدهم كأنّه أُلهم الحكمة ورزق العلم دفعة وأُوتي البيان جملة ، يتكلّم عن القلوب ويصيب سهمه في العلوم ، وربّما كان عاميّاً لم يتفقه ، أو أعجميّاً لم يتأدّب .

وعلى هذا قول الحسن البصريّ من أحسن طاعة الله في شبيبته ، لقّاه الله الحكمة

(١) سورة الاعراف : ١٧٨ .

في اكتهاله كما قال تعالى : في قصّة النبيّ المعانى المنصور على شهوته الموقّى المعصوم في حال صبوته [١] : «ولمّا بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً و كذلك نجزي المحسنين»

وممّا يعين على قمع الهوى وردعه أنّه وإن كان صاحبه يتجرّع في صدر أمره مرارة وبشاعة فيستعقب أعجازه حلاوة و لذاذة ، ينشىء لها سلافة[٢] فنيت بماء يغبّ في يوم ذي وديقة ترمض فيه الأرجل ، مع أنّ المؤونة في احتمال مغالبة الهوى يستخفّ بالاعتياد . ولاسيّما إذا كان ذلك على تدريج بمنع اليسير أوّلاً ، وترك البعض قليلاً قليلاً ، ثمّ يزداد ذلك ويتأكّد عند السرور بالعواقب العائدة ، وحسن انتظام الأمور ومدح الناس واشتياقهم إلى تلك الحال الشريفة والمنافسة في تلك المرتبة المنيفة .

ومن الأسباب المعينة على قمع الهوى وردع النفس عن الطغوى [٣] تصقيل القلب عن خبث الشهوات ، وتصفيته عن كدورة الأخلاق ، حتّى تعتدل عند ذلك حركات الجوارح وخطرات الجوانح ، على القانون العدل والقسطاس المستقيم ، فاليد لاتصل إلى القلب حتّى تسوّى زيغه واعوجاجه ، و تعدل سمته ومنهاجه تعديل المحسوسات ، وإنّما الوصول إلى تعديل القلب و تسويته تعديل الجوارح في حركاتها ، وتسوية الجوانح في خطراتها و لهذا تعظم حسرة من مات قبل التعديل ، لانسداد طريق التعديل بانقطاع علاقة مابين القلب و الجوارح ؛ فمنها كانت حركات الجوارح و خطرات الجوانح موزونة بميزان العدل ، و مستمرّة على الخطّ المستقيم الّذي لاعوج في ممرّه ، ولاسناد في صعاده ، حدث في القلب هيئة عادلة مستقيمة ، تستعدّ لقبوله الحقّ اعتقاداً وفعل الخير عملاً ، وذكر الصدق قولاً ويكون ذلك هيئة راسخة لاتبرح ، وصورة قائمة لاتتزحزح ، ألا ترى إلى من تعوّد الصدق كيف تصدق رؤياه ، لحصول الصدق في قلبه هيئة لازمة يتلقّى لوائح الغيب في النوم على الصحّة ، بخلاف رؤيا الكذّاب و رؤيا الشاعر الّذي تعوّد التخيّلات الكاذبة الشعريّة ، الجاذبة إلى التصوّرات الشيطانيّة فاعوجّ بها صورة قلبه على الاستقامة الّتي في الشعر الموزون .

(١) سورة القصص : ١٤. والاية في موسى عليه السلام .
(٢) بضم السين : اول ما يخرج مما تعصره .
(٣) الطغوى ـ مقصوراً ـ الاسم من طغا يطغو .

فإن كنت تريد أن تلمح ما في جنّات القدس من اللوائح العجيبة والأسرار الشريفة فاترك ظاهر الإثم وباطنه، وذر الفواحش ماظهر منها وما بطن، والهوى حتّى فيما ينفعك، و الشهوة ولو فيما لا يضرّك، و الكذب ولو في حديث النفس، و البغي ولو على الباغي. واجتهد ماستطعت في التشبّه بالملأ الأعلى في النزوع عن الشهوات، و ردع النفس عن السيّئات، وتجنّب مقارنة البهائم المهملة والشياطين المرسلة في اتّباع الهوى بحسب مقتضى الطباع من غير احتجاب عنه و ارتداع.

والنفس مهما تعوّدت الانهماك فيما أرادت ألفت اتّباع شهواتها، وغلبت عليها من البهائم عامّة صفاتها فالرأي أن تلجم بلجام يكبحها دون جماحها، وتشكّل بشكال يمنعها عن رماحها، فلا تفعل شيئاً بحسب طباعها، بل بحسب أمر الآمر لها فلا تجني على نفسها ولا على غيرها وقال النبيّ ﷺ: «أعدى عدوّك نفسك الّتي بين جنبيك».

فينبغي أن لا تغفل عنها، وأوثقها بقيد التقوى، واكسرها بثلاثة أشياء: الأوّل منع الشهوات، فإنّ الدابّة الحرون تلين إذا نقصت من علوفتها، الثاني: تحمّل أثقال العبادات فإنّ الدابّة إذا ثقل حملها وقلّ علفها ذلّت وانقادت. والثالث: الاستعانة بالله تعالى والتضرّع إليه بأن يعينك عليها. أولا ترى إلى قول الصدّيق عليه السلام[1]: «إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلّا ما رحم ربّي».

فإذا واظبت على هذه الأمور الثلاثة انقادت لك بإذن الله تعالى فحينئذ بادر إلى أن تملّكها وتلجمها، وتأمن من شرّها، و كيف تأمن و تسلم من إهمالها مع ما تشاهد من سوء اختيارها ورداءة أحوالها. ألست تراها وهي في حال الشهوة بهيمة، و في حال الغضب سبع، وفي حال المعصية طفل، وفي حالة النعمة فرعون، في حال الشبع تراها مختالة، و في حال الجوع تراها مجنونة. فإن أشبعتها بطرت، وإن جوّعتها صاخت و جزعت. فهي كحمار السوء إن أشبعته رمح[2] الناس، وإن جاع نهق.

وقال بعض العارفين: إنّ هذا النفس في نهاية الخساسة والدناءة، ونهاية الجهل و

---

(١) سورة يوسف: ٥٣.

(٢) رمحته الدابة: ضربته في صدره.

الغباوة . وينبّهك على ذلك أنّها إذا همّت بمعصية أوانبعثت لشهوة لو تشفّعت إليها بالله سبحانه ثمّ برسوله وبجميع أنبيائه ، ثمّ بكتبه والسلف الصالح من عباده ، وعرضت عليها الموت و القبروالقيامة والجنّة والنار ، لانكاد تعطي القياد ، ولاتترك الشهوة . ثمّ إن منعتها رغيفاً سكنت و ذلّت ولانت بعد الصعوبة والجماح ، وتركت الشهوة . ولله درّ من قال :

بنان سازند مردم رام هرسك را ولى باتو * اگرخواهى كه گردد رام نفس سك مده نانش

وممّا يعين على قمع الهوى و كسر الشهوة خلاء البطن ، فإنّه ينبوع الشهوات ، و نهمة النا كح والمنكوح أبداً من وفور شهوة المطعوم ، ومهما غلب شهوتا المطعوم والمنكوح تولّد منهما شره المال إذ لا اقتضاء للشهوات إلّا بالمال . و تتبع شهوة المال شهوة الجاه ، فالجاه من الأسباب المعينة على اكتساب المال ، وعند اطّراد أمر المال و الجاه تزدحم الآفات ، وتزداد الخطيئات من التنافس والتفاخر ، واستعمال الكبر والرياء ، و التزيّد في القول ، والتمادي في المكر ، والتيهان في أودية الحقد والعداوة والبغي والعدوان ، وامتطاء[1] المنكر و الفحشاء ، فإذاً منبع اجتماع جميع الشرور ومتشعّب طريق جميع السيّئات من شهوة البطن ، ولهذا قال رسول الله ﷺ [2] : « أفضلكم عندالله أطولكم جوعاً و تفكّراً ، و أبغضكم عندالله كلّ أكول نؤوم شروب » .

وقال ﷺ [3] : « ماملأ ابن آدم وعاءً شرّاً من بطنه . حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وإن كان لامحالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » .

و قال عليه السلام [4] : « إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيّقوا مجاريه بالجوع والعطش » .

وقال ﷺ [5] : « كلوا واشربوا في أنصاف البطون فإنّه جزء من النبوّة » .

ولولم يكن في قمع هذه الشهوة إلّا صفاء القلب ، ونفاذ البصيرة ، والبعد عن البلادة والقسوة ، والقرب من رقّة الفؤاد ، وتذليل النفس ، وإزالة البطر ، و مداواة الغفلة ، و

---

(١) الامتطاء : ركوب الدابة .

(٢-٣) رواهما فى جامع السعادات (٢:٥) والغزالى (٣ : ٨٠ - ٨١) .

(٤) رواه الغزالى (٣ : ٨٢) .

(٥) جامع السعادات (٢:٧) والغزالى (٣ : ٨٠) وقدسبق .

تعذيب الشيطان ، وتوهين أسباب المعصية ، وتخفيف المؤونة ، و تقليل النوم لكان في ذلك أعظم المنفعة وأتمّ الجدوى . ولولم يكن في البطنة إلّا ذهابها بالفطنة لكان أحقّ مايجب على المتعنّي بمصالحه ، المعتني بمراشده ومناصحه ، التوفّر على اجتنابها و أخذ النفس بالاحتجاز عنها .

وقال ذوالنون : ما شبعت إلّا عصيت أو هممت .

ولمّا عرضت الدنيا عليه ﷺ قال[1] : «أجوع يوماً وأشبع يوماً فإذاجعتصبرت وتضرّعت ، وإذا شبعت شكرت» .

وقيل : من يرفض الشهوة لم يفتقر ، ومتى أراد أن يستقرض لقضاء شهوته فليستقرض من نفسه بتركه شهوته .

وقال بعضهم في هذا المعنى :

إذا شئت أن تستقرض المال منفقاً * على شهوات النفس في زمن العسر
فسل نفسك الإنفاقمن كنز صبرها * عليك و إمهالاً إلى زمن اليسر

قيل لابن أدهم : قد غلا اللحم ، فقال : أرخصوه ، أي اتركوه ولا تشتروه .

و إذا غلا شيء عليّ تركته * فيكون أرخص مايكون إذاغلا

وقال بعض الصوفيّة : إنّي لأدخل السوق فيعرض عليّ كلّ شيء نفسه ،وأنا عن جميعها معرض ، لا ألتفت إلى شيء منها لشدّة قمعي شهوات نفسي دونها .

ومن هذا قيل : غناؤك عن الشيء خير من غناك به .

غنيّ بلا مال عن الناس كلّهم * وليس الغنى إلّا عن المال لابه

قالوا : ومن آفات الشهوة أنّ الإنسان إذا لم يملكها ملكته ، و إذا لم يعبدها استعبدته .

وقد قالت الحكماء : إنّ العبيد أربعة :

عبدرقّ وهو حكم من الربّ لاذنب من العبد ، وربّما يوفي في الآداب هذا العبد على الحرب بغربك[2] السادة وعصى الزمان .

(١) ذكره الغزالي (٣ : ٨٥) .
(٢) الغرب هنا : النشاط والحدة وفي الاصلين « بعربك » بالمهملة .

و عبد طبع وهو الّذي له بدن يقوى على الكدّ ، و ليس له في نفسه تمييز ولا معه من العقل إلّا ما ينقاد به لغيره ، ومثله في طبيعته قريب من البهائم الّتي يصرفها الناس في اُمورهم وحاجاتهم كيف شاءوا وأحبّوا .

وعبد طمع و هو الّذي أذلّه حرصه على ما في يدغيره لطاعته وخدمته ، ولا يزال ضارع الخدّ ناكس الطرف خفيض الذكر وضيع القدر .

أطعت مطامعي فاستعبدتني * فلو أنّي قنعت لكنت حرّاً

وعبد شهوة و هو الّذي لا يملك نفسه لغلبة شهواته عليه ، و من كان كذلك فهو عبد سوء لا يصلح لشيء .

قال بقراط : لأن يكون الحرّ عبداً لعبيده خير له من أن يكون عبدالشهواته .

وممّا قاله من ذلك عبيد الهوى :

يا ظالماً لي بغير جرم * إليك من ظلمك المفرّ
قد كنت حرّاً و أنت عبد * فصرت عبداً و أنت حرّ
برّح بي حبّك المعنّي * و غرّني فيك ما يغرّ

آخر[1] :

خذوا بدمي هذا الغلام فإنّه * رماني بسهمي مقلتيه على عمد
ولا تقتلوه إنّني أنا عبده * ولم أرحرّاً قطّ يقتل بالعبد

وفي ضدّ هذا قول القائل :

ملكت نفسي و ذاك ملك * ما مثله للملوك ملك
فصرت حرّاً لملك نفسي * فما لخلق عليّ ملك

و قيل لبعض الحكماء : ما الفضل بينك وبين الملك ؟ قال: هو عبد الشهوات وأنا مولاها .

وقيل لآخر : إنّ الملك لايحبّك ، قال : إنّ الملك لايحبّ من هوأكبرمنه .

---

(١) البتيان للشافعي .

و قيل لديوجانس : أملك الروم أفضل أم ملك الفرس ؟ قال : من كان منهما أملك لهواه .

و ذكر لبعض العلويّة أنّ الفرس كانت تقول : من قدر على أن يحترس من أربع خصال لم يكن في تدبيره خلل : الحرص و العجب و اتّباع الهوى والتواني . فقال : صدقت الفرس في هذا . و الأمم كلّها شركاء في العقول وإن اختلفوا في اللغات ، فلا أجد أحداً قدتقصّح الكلام وتطاول على الفضل إلّا وهويعلمأنّ الحرص يسلب الحياء ، والعجب يجلب المقت ، واتّباع الهوى يورث الفضيحة ، والتواني يكسب الندامة . نسأل الله هدايةً تقي وعصمة تكفي .

قالوا : ومن آفات الهوى ما يكتنفها من المخابث والمقاذر .

حدّث أبو نوح السيرافيّ قال : ذممنا الدنيا عند أبي أحمد ابن أبي بكر الساماني الوزير فقال : إنّ الدنيا بأسرها قذرة ، ألا ترى أنّ لذّاتها كلّها قذرة ؛ فأفخر ملبوسها الابريسم وهو لعاب أخسّ الحيوان وأنتنها،وألذّ ملموسها النكاح وهو مباشرة الأخبثين في مجاري الحيض والبول ، وأحلى مطعومها العسل وهو رجيع أخسّ الطيور . و أطيب مشمومها المسك وهودم قذ رحقين، وأشجى مسموعها الأوتار وهي أوعية الخرى[1] وأشرف المنظور إليهم الوجه الحسن ، و أحسن الوجوه ما ظهر فيه حمرة الدم النجس و آثاره ، فإنّ الوجه الدمويّ أحسن .

وقال أبوالحسن الموسوّي : أطائب الدنيا من أخابثها ، و نفائسها من خسائسها : الذهب والفضّة من حجارة ، والمسك من فأرة[2] ، والعنبر من روث دابّة ، و العسل من ذبابة ، والسكّر من قصبة و القصبة من حشيشة ، والخزّ من كلبة ، و الديباج من دودة ، والإنسان من نطفة قذرة .

و من آفاتها الّتي هي أقوى الصوارف عنها أنّها إنّما يتوفّر عليها للالتذاذ بها ، ثمّ الإمعان فيها و الإدمان[3] لها يذهب بالالتذاذ منها لأنّها تصير عند المواظبة

(١) الخرى مقصوراً جمع الخرء وهو الروث .
(٢) الفارة : نافجة المسك ووعاؤه .
(٣) أدمن الشيء : أدامه .

عليها بمنزلة حالة كلّ ذي حالة مألوفة معتادة ، و مع ذلك لا يتهيّأ الإقلاع عنها ولو أضرّت وأزرت بصاحبها أيضاً للعادة ، إذ صارت عنده بمنزلة الشيء الاضطراريّ في العيش لا بمنزلة ماهو نشرة ومتعة ، ويدخل من الإكباب عليها والانصباب إليها النقص في الدنيا والدين ، و احتمال صنوف الاحتيال لاكتساب الأسباب و ركوب المهالك و الأخطار ، فإذاهم أشقياء كادحون من حيث ظنّوا أنّهم سعداء ناعمون ، بل هم آيسون محزونون ، من حيث قدّروا أنّهم فرحون مسرورون ، ومتألّمون فوق ماهم ملتذّون ، مكدوحون في تأثيل مايتركون ، ويركنون إلى ماعنه يزعجون .

وفي كلام بعض البلغاء أنّ حال الإنسان في نفسه حال بيت فيه إنسان و خنزير و سبع ، فالإنسان العقل ، والخنزير الشهوة ، والسبع الغضب ، فأيّ الثلاثة غلبت ، فالمسكن له وذلك يوجد قياساً وعياناً فإنّ الرجل اللبيب الضابط لنفسه هو الحقيق بأن يسمّى إنساناً ، والرجل الّذي قد استعبدته شهوته بالخنزير أشبه ، والثائر الغضبان بالسّبع أشبه .

ويحتاج هذا الموضع إلى فضل إيضاح وهو أنّ الشهوة والغضب إن كان قهرهما و حصرهما واجباً على الإطلاق سقطا من أصل التركيب كسقوط ما يستغنى عنه ، بل يتحرّز منه . ولكن ههنا ضرورة إلى الشهوة لاجتذاب المطاعم الّتي بها قوام البدن ، ولإمكان المناكح الّتي بها بقاء النسل ، وضرورة أُخرى إلى الغضب لدفع الظلم و إماتة الضيم و الأنفة من العار و الذبّ عن الحريم ، إلّا أنّه يجب أن تكون هاتان القوّتان تحت قوّة العقل وسلطانه ، ليجريهما مجرى المركوب الّذي يركب عند الحاجة بسرج يذلّله ، و شكيمة تكبحه ، وعنان يثنيه ، وسوط يخيفه ، فإذا نزل عنه راكبه ألزمه الرباط والشكال[1] لأن لايجد على حال من الأحوال سبيلاً إلى أن يشرد[2] فيهلك نفسه ويجني على غيره .

وممّا ينبغي للإنسان أن يعلمه أنّ هذين العدوّين من شهوته وغضبه ربّما اختدعاه وتشبّها له بالصديق الّذي هو العقل ، فظنّ أنّه في طاعته إيّاهما مطيع له ، و استعمل

(١) بكسر الشين : حبل تشد به قوائم الدابة .

(٢) شردت الدابة : خرجت عن الانقياد .

الشرّ على أنّه خير ، وجار على أنّه عادل ، وأخطأ على أنّه مصيب و سبيل الحازم أن يستعمل خصلة هي من معالم الخير لينجو من مصائدهما ومكائدهما ،و يفلت من أشراكهما وحبائلهما ، فيعرض على عقله ماتدعوه إليه نفسه على أنّ الفعل واقع عنده بعدأن يكون غيره فاضلاً ، فإذا حسن عنده وقوعه منه [فليعلم أنّه خيرخالص أو ليمتنع منه] إذا كان [ذلك] (١) شرّاً من جاهل .

ثمّ ليتأمّل المستحسنات الّتي قد أُمرت بها أهل الشرع ، فإنّه سيجدها ممّا يختصّ الإنسان به ولا تشركه البهائم فيه ، بل هي أقوم منه ممّا هو أضدادها كشره البطن، وشهوة الفرج ، ومحبّة الانتقام ، و كفاه بذلك وازعاً ممّا ضارعها فيه(٢)، وباعثاً على ما استأثر عليها به ، وليس كلّ من قاده عقله إلى العلم بمراشد الأُمور انقادت له نفسه إلى العمل بها ، فقد رأينا كثيراً من أهل المعرفة يأمرون ولا يأتمرون ، ويزجرون ولا ينزجرون . ونعرف من المتطيّبين من كان ينهى عن يسير من التخليط ، و ينهمك في كثير من المآكل الضارّة ، ومن المتفلسفين الّذين هم أطبّاؤ النفوس من كان يذمّ مقابح الأخلاق و مفاحش الأفعال و يرتكبها في خلواته ، وتارك العمل مع الجهل أعذر من تاركه مع العلم .

وذلك كما قال أبوالأسود الدئليّ (٣) :

يا أيّها الرّجل المعلّم غيره * هلاّ لنفسك كان ذا التعليم ؟
ابدء بنفسك فانهها عن غيّها * فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك تعلم ما تقول و تشتفي * بالقول منك ، و ينفع التعليم
ونراك تلقح بالرشاد عقولنا * كيما تصحّ به و أنت عقيم!
لاتنه عن خلق و تأتي مثله * عار عليك إذا فعلت عظيم

---

(١) بين المعقوفين من النسخة (ر) .

(٢) وزعه : منعه و ردعه ، ضارعه : شابهه .

(٣) الابيات من قصيدة لابى الاسود عند العينى فى شواهد الالفية (٤:٣٩٣) والسيوطى فى شواهد المغنى ١٩٤ وفى قائل آخر الابيات اختلاف كثير. انظر شواهد المغنى ٢٦٤ وشرح شواهد مجمع البيان (١:٢٥٢ و ٢٥٥) .

والحازم من الناس من سدّ ثغور الهوى ، و رابط فيه جيوش الحجى أمّا الإباء المرّ والعزم الفحل إن وثق من نفسه بالقوّة والاستقلال ، وإمّا بالتفويض إلى النصحاء إن أحسّ من نفسه بالضعف والانحراف ، لأنّه إنّما يجاهد عدوّاً نازلاً بين جنبيه مالكاً لجميع حوارحه مسلّطاً عليه ، فإن أطاقه على الانفراد وإلّا فليشاوره بالأعوان والأعضاد .

وفي كلام بعض الخطباء : أيّها الإنسان ؟ حسبك علمك بك خصماً ، و كفى بالسكوت عنك ذمّاً أنّك لم تغادر من موردالعقل حمى لم تصمه ، ولم تدع من هوى النفس بارقاً لم تشمه ، فما الّذي فتح عليك هذا الباب حتّى بوّأت ساحته ، وسكنت باحته ، و ماذا وجدت من هذا الحساب حتّى غلقت أسبابه ، ولبست جلبابه . أما تحذر خطّة الاغترار أما تتّقي و رطة سوء الاختيار ، أما تعلم أنّ الهوى رتاج دون باب التوفيق ، و أنّ هذه الأمّارة بالسوء ضلّ بكلّ طريق ؟ إن سعت للخير فخفيفها يرسن[١] ، وسريعها يقطف[٢] وإن نهضت بالشرّ سبق الطرف مهلها ، وفات الوهم عجلها . يحارب باطلها الحقّ بسلاح كليل إلّا أنّه يقطع ، ويقرّب هواها المرّ بعضدٍ واهٍ إلّا أنّه يرجع . يصدّ عن العدل و الإحسان ويأمر بالشرّ لكلّ لسان . هذا يوسف صدّيق الله ابن إسرائيل الله ابن ذبيح الله لم يأمنها حتّى استعصم من شريّتها وتبرّأ إلى الله من تبرّيها فقال : [٣] « وما أبرّئ نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسوء » فكيف بأنفسنا الغريقة في بحور الشهوات ، الغريقة في شرور السيّئات والخطيئات ؟

روى سعيد بن أبي هلال عن أبي هريرة قال : كان النبيّ ﷺ إذا مرّ بهذه الآية [٤] : « فألهمها فجورها وتقواها » قال : اللهمّ ألهم نفسي تقواها ، أنت وليّها ومولاها وخير من زكّاها .

و في كلام بعضهم : اقدعوا [٥] هذه الأنفس فإنّها أسأل شيء إذا أعطيت ،

---

(١) رسن الدابة - من باب ضرب - : جعل على رأسها الرسن .

(٢) قطف الشيء - من باب ضرب - : أخذه بسرعة .

(٣) سورة يوسف ٥٣ .

(٤) » الشمس : ٨ .

(٥) قدع الدابة - باللجام من باب منع - : كبحه .

وأعطى شيء إذا سئلت، فرحم الله امرءاً جعل لنفسه خطاماً وزماماً ، فقادها بخطامها إلى الله ، وتعطّفها بزمامها عن معصية الله ، فإنّي رأيت الصبر عن محارمه أيسر من الصبر على عذابه .

وقال بعضهم : امرؤ زوّد عمله ، امرؤ حاسب نفسه ، امرؤ فكّر فيما يقرؤه في صحيفته ويراه في ميزانه ، امرؤ كان عند قلبه راحة وعند همّه فسحة ، امرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جمله فإن قاده إلى طاعة الله تبعه وإن قاده إلى معصية الله كفّه وردعه .

و قيل لبعض الصالحين : كيف أصبحت ؟ فقال : كيف يصبح من صحبته مع نفس معجونة بالشهوات في دار مملوءة من الآفات ، تعدّ عليه الأيّام والساعات ، ويحاسبه في جميعه علاّم الخفيّات ؟ و أنشد :

أصبحت في دار بليّات * أرفع آفات بآفات

أصبحت والله في مضيق * هل من دليل على طريق

وفي بعض الخطب : تنبهكم الآيات عن رقدة الأغفال وتهجعون ، وتجليكم المثلات عن مشرع الإهمال و تسرعون . ما للبصائر في الاختبار عليلة ؟ ما للأبصار في الاعتبار كليلة ؟ ما للنفوس على الهوى عاكفة ؟ ما للقلوب إلى المنى عاطفة ؟ إنّ الهوى مزمن القلوب واجتنابه شفاؤها ، والشهوة صيد النفوس ورفضها جلاؤها .

حدّث بعض الصالحين قال : أرقت ليلي فقمت إلى وردي فلم أجد ما كنت أجد من الحلاوة فأردت أن أنام فأقضّ المضجع ، فخرجت من الباب فإذا رجل على الطريق في عباءة فسمّاني ، فقلت : نداء من غير معرفة ، وطريق من غير موعدة ! فقال : سألت مالك القلوب أن يحضر لي قلبك، قلت : قد فعل فما أربك[1] ؟ فقال : متى يصير داء النفوس دواؤها؟ فقلت : إذا خالف النفس هواها صار داؤها دواؤها ، فأقبل على نفسه فقال : اسمعي قد أجبتك بهذا سبع مرّات فأبيت أن تسمعه[2] منّي ، قد سمعت فانصرفي .

و ممّا يحكي في قمع الهواء قال أرسطاطا ليس للإسكندر : احفظ عنّي ثلاث خصال فيها صلاحك وصلاح رعيّتك ، قال : وما هنّ ؟ قال : صل عجلتك بتأنّيك ، و

(١) الارب بالتحريك : الحاجة .

(٢) في الاصلين « الا ان تسمعه » .

سطوتك برفقك ، وضرّك بنفعك . قال : زدني ، قال : انصر الحقّ على الهوى تملك الأرض ملك استعباد .

وقال ابن المقنّع : عمل الرجل بما يعلم أنّه خطأ هوى ، والهوى آفة العفاف ، و تر كه العمل بما يعلم أنّه صواب تهاون والتهاون آفة الدين والدنيا ، وإقدامه على مالا يعلم أصواب هو أم خطاء لجاج واللجاج آفة الرأي .

ولمّا صارت نوبة ملك الأعاجم إلى كسرى أنوشيروان عطف على الصّبوح والغبوق[1] فكتب إليه وزيره رقعة يقول فيها : إنّ في إكباب الملك على هواه وشهوته و إدمانه الشرب في صباحه وعشيّه ضرراً على الرعيّة ، و الوجه تخفيف ذلك ، و النظر في أمر المملكة . فوقّع على ظهر الرقعة : إذا كانت سبلنا آمنة ، و سيرتنا عادلة ، و الدنيا باستقامة أُمور أهلها عامرة ، وعمّا لنا بالحقّ عاملة فلمَ تمنع فرحة عاجلة ؟

فقالوا : إنّ هذا الكلام و إن راق ظاهره و أعجب مسموعه فحقيقته خطأ محض من وجوه :

أحدها أنّ الإدمان إفراط والإفراط مذموم ولو في الخير .

والآخر أنّه جهل أنّ أمر السبل وعدل السيرة و عمارة الدنيا و العمل بالحقّ متى لم يوكّل بها الطرف الساهر ، ولم يحط بالعناية التامّة ، ولم تحفظ بالاهتمام الجالب لدوام الانتصار دبّ إليها النقص ، و النقص باب الانتقاص ، و الانتقاص مزيل للأصل مزعزع للدعامة .

وأيضاً فإنّ العمر أعزّ من أن يدال كلّه للأكل و الشرب و التلذّذ و التمتّع ، فإنّ في تكميل النفس باكتساب الرشد لها وإبعاد الغيّ عنها ما يستوعب أضعاف العمر ، فكيف إذا كان العمر قصيراً وكان مايدعو إليه الهوى كثيراً وكان متاعها بائداً وما يصدّ عنه ويدعو إلى خلافه خالداً .

وأيضاً فإنّه ذهب عليه أنّ العامّة والخاصّة إذا وقفت على استهتار الملك باللذّات وانهماكه في طلب الشهوات ازدرته واستهانت به ، وحدّثت عنه بأخلاق الخنازير و عادات

(١) الصبوح : مايشرب في الغداة ، والغبوق : مايشرب في العشي . وفي الاصل «والعبوق» سهواً .

الحمر ، واستهانت الخاصّة والعامّة بالناظر في أمرها و القيّم لشأنها متى تكرّرت على القلوب نطق بها اللسان ، واشتهرت في المحافل ، و انتشرت بين الأكابر و الأصاغر . و نادى من بعضهم إلى بعض . وهذه مكسرة للمهابة ، و قلّة الهيبة رافعة للحشمة ، وارتفاع الحشمة باعث على الوثبة ، والوثبة غير مأمونة من الهلكة ، وماخلا الملك من طامع راصد وكاشح قاصد ، وليس ينبغي للملك الحازم أن يظنّ أنّه لاضدّ له ينازعه ولا خصيم يعارضه ، فقد ينجم الضدّ والمنازع من حيث لا يحتسب ، وما أكثر خجل الواثق وما أقلّ حزم الراتق ، وما أشدّ يقظة الفائق ! ومتى كان السائس ذا تحفّظ وبحث و تتبّع و حزم وإكباب على لمّ الشعث وتقويم الأود وقمع الهوى ورفض الهوينا احترست عنه الخاصّة والعامّة ، واستشعرت الهيبة والتزمت بينها النصفة ، و كفته كثيراً من معاناتها[1] ومراعاتها و إن كان للدولة راصد للعثرة يئس من تعوّد الخبلة فيها ، لأنّ اللصّ إذا رأى مكاناً حصيناً وعهد عليه حرّاساً لم يحدّث نفسه بالتعرّض له وإنّما يقصد قصراً فيه ثلمة و باباً إليه طريق . والأغراض بالأسباب ، وإذا ضعف السبب ضعف الغرض ولا سبب كالجدّ و التشمير ولا ثلمة كإضاعة الحزم ورکوب الهوى ، فإذا كان اتّباع الهوى وحبّ الشهوات مفسدة لهذه الدول التي هي بحسب الدنيا ونظام الملك الزائل فكيف حال من هو قدوة المسلمين وإمام المؤمنين العالم العارف بأحكام الدين المتّبع لهواه و المحبّ لشهواته المبيع آخرته بدنياه .

ولعمري إنّ صبوح كسرى وغبوقه أقلّ ضرراً من لحس [2] قصاع الشرط وأهل المناصب ، لأنّ سكر السلطان يضرّ بنفسه وملكه الزائل ، وأمّا تناول العالم لقمة الظالم سمّ قاتل ليس له دواء إلّا اجتنابه . ومن أنكر ذلك تابع للشهوات محبّ للشبهات بل المحرّمات ، لأنّ المتناول للسمّ الممزوج بالماء من غير علم بسمّيّته قاتل[3] لامحالة ، فمن كابر في هذا وردّه بوساوس صدره وموزون شعره و معوجّ طبعه و معراج طعمه فقد جعل الحسن قبيحاً والقبيح حسناً ، وهي الأضداد ، فيكون بزعمه الصدق قبيحاً والظلم[4] حسناً ،

(١) المعاناة : المقاساة وتحمل التعب .
(٢) لحس الاناء - من باب علم - : اخذ ما علق بجانبه بلسانه أواصبعه .
(٣) كذا ، والصواب : مقتول لا محالة .　　(٤) كذا ، والصواب : الكذب .

والعلم قبيحاً والجهل حسناً ، والعفّة قبيحة والشره حسناً ، والعدل قبيحاً والظلم حسناً ، والكرم قبيحاً والبخل حسناً ، والطاعة قبيحة والمعصية حسنة ، والزهد قبيحاً و الرغبة في الدنيا حسنة ، والحلال قبيحاً والحرام حسناً ، كماهو مذهب جلّ أهل زماننا بل الكلّ ، حتّى حملهم الشره وحبّ الأطعمة على التطفيل من غير دعوة سابقة ، ولا وعدة صادقة ، فيكون من هذا حاله قد أكل حرامين ، و ارتكب خطيئتين ، و أكبّ على الخصلتين الموبقتين السابقتين : الصبوح والغبوق ؛ لأنّه يتغدّى من بيت و يتعشّى من آخر ، فمرتكب هذه الطريقة زائغ عن العفاف ، متجنّب الكفاف لأنّه لم يرض لنفسه بالقناعة وإنّما هي عنده مجاعة بل صرّاعة ، فإن أردت أن تمرّن نفسك على التطفيل فاستمع لهذا التمثيل وما تلوته على مسامعك :

أيّها الشره سابقاً كالخلّ فأتبعه بدستور عندك كالخلّ ، فنقول : ينبغي أن تقف على غلوة [١] من الأبواب وتتأمّل من يدعى إلى الولائم من الأصحاب ، فإذا وجدت بعض من يحتشم وحواليه الخول والخدم تلقّيته من بعيد ، وصقعت [٢] له صقوع العبيد ، وتقول : إنّ فلاناً - يعني صاحب الدعوة - شديدالانتظار لقدومك ، متبرّك جدّاً بموطىء قدمك ، وهو والجماعة إليك متشوّقون ، وبمكانك متشرّفون ، فما أنت والله إلّا أبّهة المجالس ، وزينة المواكب ، وما أنت فيها إلّا كالشمس بين الكواكب ، فتحدّثه بمثل هذه الأحاديث حتّى إذا دنا من الدار سبقت القوم إلى استفتاح الباب ، و تتواضع مع البوّاب ، وتتطرّق له تطرّق الحجّاب ، فإذا أنت وسط المجلس حاضر وعود السعادة منك ناضر ، فيظنّ صاحب الدعوة في نفسه أنّك من حشم ذاك المحتشم ، و المحتشم يقدّر أنّك من بطانة المضيف المطعم ، فتتمكّن حينئذ من بلوغ المراد وترتع في الخصيب من الزاد ، وتكون من القوم الّذين وصفهم الله في كتابه : [٣] « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » .

---

(١) الغلوة بفتح الغين : رمية سهم .

(٢) اى وقفت على ناحية منه .

(٣) سورة النساء : ١٤٢ .

وإذا أعياك ما أشرنا إليه وما تقدر عليه من سائر الحيل ، أوقعدت بك النجعة [١] عند أرباب الدول أو ألجأك الزمان إلى معاناة السفل ، فاختر عند ذلك دار الغربة : فإنّ ذلك أجلى للكربة ، وقد وقعت بمعزل من الأنفة والاستنكاف ، ولو صرت عسيفاً على الحمار و الآكاف ، و إن اضطررت فيها إلى الكدية فعليك بتغيير الحلية وليكن أكثر تصرّفك في اللحية .

ولا يتمّ لك ماذكرته إلّا بشرطين : الأوّل أن تكون غير معروف والثاني أن لاتكون بالتقوى موصوفاً [٢] و قلّة الحياء تجعلها بضاعة ، فهي الّتي تشبعك عند المجاعة . فتصير لحلوائهم هاضم ، ولدينك حاطم ، وخير مالك أن تدّعي النسك و السلوك ، خصوصاً عند الأمراء والملوك ، فإذا جلست في مجلس الحمقاء من الناس تناعس وإن لم يكن بك نعاس ، وقل : أوهنت جسدي بالصوم ، وأذهبت عن مقلتي النوم وسهرت ليلي بالطاعات ، و دئبت بالقيام بوظائف الصلوات المسنونات ، فلك في مثل هذه الأسباب نيقة [٣] وإن لم يكن وراءها حقيقة ، ولا تمون على ذلك من مال إلّا مرقّعة تؤلّف من أسمال أو خرقة كُحليّة و عمامة مليّة فخالطهم و باسطهم وعاشرهم وعاصرهم ، و كن لهم في استجلاب المرافق رائداً ، وإلى حيث ترجو قبول أقوالهم عائداً ، و تخلّق بأخلاقهم ، ولا تخالف في شيء ممّا يعود بوفاقهم ، وتعرّف سيرهم وطرائقهم في الخلوات من مطاوعة الشهوات واللهوات ، و الاشتغال بالصلوات في بعض الأوقات ، فإذا جربت في جميع ذلك مجراهم و استمريت [٤] على دأبهم ومسعاهم فتصل إلى كثير من المنافع بوُكدك و كدّك ، وترفع في المجالس بمكرك و كيدك ، فتارة يسوقون المنافع إليك بمساعيهم و يستثيرون الرزق من الحفائر بمساحيهم [٥] ، فترى أبواب الوسائل عليك مفتوحة ، ولك فيها دون سائر الحرف والمكاسب مندوحة .

وقد قال النبيّ ﷺ : « المؤمنون كالبنيان يشدّ بعضهم بعضاً » و أستغفر الله لي ولك ممّا تفوّه به القلم وإنّما هي نفثة مصدر ومصدرها الألم .

---

(١) بضم النون طلب الكلاء في مواضعه .
(٢) في الاصلين « لاتكن بالتقوى موصوف » .
(٣) النيقة اسم من التنوق ، وهو التجود في الشيء .
(٤) استمرى اللبن : استخرجه ، والانسب : استمررت .
(٥) جمع المسحاة .

وليس اعتقاد المرء ماخطّ كفّه * كما أنّ حاكي الكفر ليس بكافر

يا إخوان الوفاء وخلّان الصفاء ! لايفوتنّكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي ، إنّ بين حيزومي [١] لبحراً من الكلم لا أجد له مواقع غير أسماعكم ، ولا مقارّ إلّا قلوبكم فتلقّوها بأسماع صاغية ، وقلوب واعية تحمدوا عواقبها ، إنّ الهوى يقظان والعقل راقد والشهوات مطلقة والحزم معقول ، والنفس مهملة والرؤية مقيّدة، ومن اتّبع الهوى أبطل رأيه ومن أحبّ التواني أتلف الحزم ولن يعدم المشاور مرشداً إن كسر نفسه و علم أنّ فوقه من هو أعلم منه بآفات النفس . وأيضاً إنّ المستبدّ موقوف على مداحض الزلل ومن سمّع سمع به، ومصارع الألباب تحت ظلال الطمع ، وعلى الاعتبار طريق الرشاد ، و من سلك الجدد أمن العثار، ولن يقدم الحسود أن يتعب قلبه و يشغل فكره ولا يتجاوز ضرّه نفسه . والصبر على جزع الكظم أحلى من جني ثمر الندم ، و من جعل عرضه دون ماله استهدف الذمّ ، و كلم اللسان أنكى [٢] من كلم الحسام ، والكلمة مزمومة مالم تنجم من الفم فإذا نجمت فهي سبع محرب ، أونار تلتهب ، ورأي الناصح اللبيب دليل لايجور ونفاد الرأي في الحرب أنفذ من الطعن والضرب .

وممّا جاء في أخبار المنصور حكاية تدعو إلى ترك الهوى ومجانبة اللذّات و رفض المعاصي والشبهات .

حدّث الربيع عن عبدالصمد بن عليّ أنّ المنصور سمر ليلة و عنده عيسى بن موسى وعيسى بن عليّ وصالح بن عليّ ومحمّد بن إبراهيم بن محمّد وغيرهم من رؤساء عشيرته ، فذكروا خلفاء بني اُميّة وسيرتهم و رجالهم و أفعالهم ، و السبب الّذي سلبوا بذلك ملكهم مع كثرة العدد والعدد ، فقال المنصور : مازال آل مروان ضابطين ماتمهّد لهم في الأرض من السلطان يحوطونه ويحفظونه بتسنّمهم لمعالي الاُمور ، و لخطمهم أنفسهم عن هواها حتّى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين ، فكان اللذّات جهلاً منهم باستدراج الله و أمناً منهم لمكر الله ، مع إطراحهم صيانة الخلافة ، و استخفافهم بحقّ الرئاسة ، و ضعفهم عن

(١) الحيزوم : ما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر .
(٢) اى أشد وقعاً .

السياسة ، فهذه الأعمال المردية الدنيّة أدّاهم إلى أن سلبهم الله العزّ . وألبسهم الذلّ ونقل عنهم النعم وحوّل عنهم الكرامة وأذاقهم وبال أمرهم .

فقال صالح بن عليّ : ياأميرالمؤمنين ! إنّ عبدالله بن مروان بن محمد لمّا دخل أرض النوبة هارباً ممّن اتّبعه سأل ملك النوبة عن حالهم ونكبتهم فأخبر بأمرهم والسبب الّذي زال عنهم به النعمة ، فحصره و كلّمه في ذلك بكلام عجيب سقط عنّي حفظه ثمّ أشخصه عن بلده ، فإن رأى أميرالمؤمنين أن يدعو به من الحبس ليحضرنا في هذه الليلة و نسأله عنه فعل ، فأمر المنصور بإحضاره فلمّا مثّل بين يديه ، قال : ياعبدالله ! قصّ علي قصّتك وقصّة ملك النوبة ، فقال :

ياأميرالمؤمنين ! قدمت أرض النوبة بأثاث سلّم لي ففرشته بها وأقمت ثلاثاً فجاءني ملك النوبة ، وقدشهر أمرنا فدخل عليّ فرأيت رجلاً طوالاً أقنى آدم[1] حسن الوجه فقعد على الأرض ولم يقرب الثياب ، فقلت : ما منعك أن تقعدعلى ثيابنا ؟ فقال : إنّي ملك وحقّ لمن ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله ، ثمّ قال : لم تشربون الخمور وهو محرّم عليكم في كتابكم ؟ فقلت : اجتراءً على فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا ، لأنّ الملك زال عنّا ، فقال : ولم تطؤون الزرع بدوابّكم والفساد محرّم عليكم في كتابكم ؟ فقلت : فعل ذلك عبيدنا و أتباعنا بجهلهم . قال : فلمَ تلبسون الديباج والحرير وحلية الذهب والفضّة وهي محرّمة عليكم في كتابكم ؟ فقلت : ذهب منّا الملك فقلّت أنصارنا فاستنصرنا بقوم من الأعاجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منّا ، فأطرق إلى الأرض وجعل يقلّب يده مرّة و مرّة ينكت في الأرض ويقول : «عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا فزال عنّا الملك و ذهب منّا» جعل يردّد ذلك ثمّ رفع إليّ رأسه فقال : ليس ذلك كما ذكرت بل أنتم قوم أطعتم هواكم واتّبعتم شهواتكم ، فاستحللتم ماحرّم الله عليكم وركبتم ما عنه نهيتم فسلبكم الله العزّ وألبسكم الذلّ بذنوبكم ، وإنّ لله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم وأنا أخاف أن يحلّ بكم العذاب وأنتم ببلدي فيصيبني معكم ، وإنّما الضيافة ثلاثة أيّام وتزوّد ما أردت وارتحل. ففعلت ذلك .

---

(١) الانف الاقنى : ما ارتفع وسط قصبته وضاق منخراه . آدم : أسمر اللون .

فعجب المنصور من حديثه وأطرق مفكّراً ورقّ له وهمّ بإطلاقه، فأعلمه صالح بن عليّ أنّ له في رقبته تبعة، فأمر بإعادته إلى الحبس، و نهض من المجلس إلى دار النساء وقيّد.

وممّا أنشد في آفة الهوى واتّباعه وضرر الشهوات وركوبها عمرو بن العاص:

إذا المرء لم يترك طعاماً يحبّه * ولم يعص قلباً غاوياً حيث يمّما
قضى وطراً منه يسيراً وأصبحت * إذا ذكرت أخلاقه تملأ الفما

آخر:

كنت في نعمة و ظلّ رخاء * و نسيم من النعيم رخاء
فاتّبعت الهوى وخلّفت رأيي * و اتّباع الهوى وبيء الهواء

آخر:

إنّ الهوان هو الهوى، جزء اسمه * فإذا هويت فقد لقيت هوانا

العتبيّ:

أتظنّني أنسى أياديك الّتي * أهدت إليّ مع الزمان أمانا
يا ذا الّذي جعل المحبّة محنة * وهوى القلوب مذلّة وهوانا

أبو العتاهية:

فاعص هوى النفس ولا ترضها * إنّك إن أسخطتها زانكا
حتّى متى تطلب مرضاتها * و إنّها تطلب عدوانكا

آخر:

أطع الحكيم إذا الحكيم نهاكا * إنّ الحكيم إذا نهاك هداكا
واعلم بانّك لا تسود ولا ترى * سبل الرشاد إذا أطعت هواكا

حاتم:

و إنّك إن أعطيت بطنك سؤله * وفرجك نالا منتهى الذمّ أجمعا

عديّ بن زيد:

فنفسك فاحفظها عن الغيّ والهوى * متى تغوها يغوي الّذي بك يقتدي

آخر :

نهاية أهواء القلوب بعيدة　　*　　و من دونها للحادثات مصائد
فنحن كظبي يتبغي الجبّ مسرعا　　*　　و دون الدلى يبغيه فخّ وصائد

آخر :

أمرحت نفسك في هواك ولمتني　　*　　لو كنت تنصف لمت نفسك دوني
مابال عينك لا ترى أقذاءها　　*　　وترى الخفيّ من القذى بجفوني

آخر :

يجدّ بنا الزمان و نحن نلهو　　*　　ولا ندري متى يرد الحمام
و يخدعنا الهوى في ظلّ عيش　　*　　يمرّ بنا كما مرّ الغمام
كركب سفينة في لجّ بحر　　*　　تسير بهم و هم فيها نيام

والأهمّ للإنسان في أدب النفس أن يغضب عليها لالها ، وأن لا ينالها آمالها لعلّه يستريح من شرّها وسوء أفعالها .

﴿ فصل ٥ ﴾

✡(في غضب الانفس والحكمة في وضعه فيها والسعي في توهينه)✡
✡(واستعمال الحلم مكانه)✡

والغضب لا يجب إبطاله من الأصل ، بل ربّما يحسن تحصيله و تهييجه لمكانه من حفظ الذمار وجهاد الكفّار والتنكّر للمنكرات والأخذ على يدالشهوات ، وهو بمنزلة كلب الصيد يراض ويعلّم و يؤدّب ويقوّم ليهيج باشارة المكلّب و إشلائه إلى القنص [٢] الحلال،فكذلك أمر الغضب فانّما رياضته في تأديبه حتّى ينقاد للعقل ، فلا يستعصي على الشرع ، بل يهيج باشارتهما ويسكن على إرادتهما .

فالواجب في الغضب هو كسر سورته وإطفاء جمرته ، وذلك باعتياد العلم و تكلّف الكظم ويعين عليه علم وعمل .

أمّا العلم فهو أن يعلم أنّه لاسبب لغضبه إلّا إنكاره أن يجري الشيء على مرادالله لاعلى مراده ، وأن يتذكّر أنّ غضب الله عليه أعظم من غضبه ، وعذابه أشدّ وجنايته على حقّ الله أكثر،ولطال ماعصاه وخالف أمره وتعدّاه ، فلم يعاجله بالمؤاخذة ولم يمنعه عن الكفّ والمراجعة .

وأمّا العمل فأن يتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم و ينتقل عن هيئته و نصبته إلى هيئة أخرى ، كما جاء في الحديث [٣] « إنّه يجلس إن كان قائماً و يضطجع إن كان قاعداً » وفي سير العجم أنّها كانت إذا غضبت استلقت و إذا أعيت رفعت رجلها فإن سكن غضبه وحدّته بذلك وإلّا توضّأ أو تبرّد بالماء ، كما جاء في الحديث [٤] : « إنّ الشيطان خلق من النار وإنّما يطفىء النار الماء » وفي بعض أشعار ظرفاء العرب :

---

(١) وانظر في الغضب وكظم الغيظ والحلم واصول الكافي (٢:١٠٩و١١١و٣٠٢) وجامع السعادات (١:٢٨٦-٣٠٠) ومصباح الشريعة : ٣٧-٣٨ وجامع الاخبار : ١٣٣و١٨٣ واحياء العلوم (٣:١٦٤-١٨٦)ومجموعة ورام (١:١٢٢-١٢٦) .

(٢) أشلى الكلب : أغراه ؛ قنص الطير ـ من باب ضرب ـ : صاده ، والقنص بالتحريك المصيد

(٣) مأخوذ من حديث نبوي خوطب به أبوذر . رواه في الاحياء وانظر الكافي .

(٤) رواه في مجموعة ورام .

إذا وجدت أوراً نُحت في كبدي * أقبلت نحو سقاء القوم أبترد
هبني بردت ببرد الماء ظاهره * فمن لحرّ على الأحشاء تتّقد

و في حديث آخر[1] « ألا إنّ الغضب جمرة في قلب ابن آدم ألا ترون في حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليلصق خدّه بالأرض » فيكون في توهين أعزّ الأشياء في أذلّ الأشياء وضعاً من الكبر الّذي هو السبب الأعظم في ثوران الغضب.

وفي حديث آخر[2] « ما من جرعة يجرعها العبد أحبّ إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظمها عبد إلّا ملأ جوفه أمناً وإيماناً ».

وقال بعض الخطباء: من اعتذر الى الله قبل الله اعتذاره، ومن أطفأ نار الغضب وقاه الله ناره، ومن حفظ لسانه حفظ الله عليه نعمته، و من اقتصد في معيشته أحسن الله معونته، و من رزق العلم فقد نال نعيماً وملكاً كبيراً، ومن وهب العلم فقد أُوتي خيراً كثيراً، ومن ملك غيظه كان ملكاً زاكياً، ومن ثار غضبه كان سبعاً عادياً فإن أردتم تحلية أنفسكم برأس الفضائل وتخليتها من أمّ الرذائل فتصوّروا قبح صورة الثائر الغضبان و حسن وجه الحليم الجنان، وتبيّنوا ما يأخذه الغضب من أنفسكم بادئاً ثمّ متى غضبتم عليه ثانياً.

رأى سقراط رجلاً يضرب غلاماً له وهو يرتعد غضباً، فقال: ما الّذي بلغ بك هذا الّذي أرى؟ فقال: إساءة هذا الغلام، فقال: إن كان كلّما جنى عليك جناية سلّطته على نفسك تفعل بها ما أرى فما أسرع ما تذهب نفسك مبدّدة من هذا الفعل.

و كان المأمون يقول: إن كان كلّما أساء غلام من غلماننا فعلاً فساءت به أخلاقنا أوشك ذلك في أخلاقنا حتّى لا يبقى لنا حسنة كما لا يبقى لهم سيّئة.

ويقال: إنّ بعض ملوك الإسلام بمدينة السلام ممّن كمل في عقله وخصاله وتناهى في عزّه وحاله خلا يوماً بذات قلبه و عرض حال أموره على لبّه فقال: مالي أرضى عن نفسي بأن يكون لبدني أطبّاء يحفظون صحّته موجودة، و يطبّون في ردّها مفقودة و ليس لأخلاقي من طبيب يداويها ويصونها عمّا يدنّسها ويؤذيها. ثمّ استحضر كلّ موثوق به في العلم و الديانة، مستوثق منه بالنصيحة والأمانة، فقال يوماً لأمثلهم طريقة و

(١) الكافي عن الباقر عليه السلام، والاحياء ومجموعة ورام عن الخدري.
(٢) في الكافي عن السجاد والصادق عليهما السلام، و في الاحياء ومجموعة ورام عن ابن عمر.

وأعدلهم خليقة : إنّي مع ماأفردت به من ملك تفتّحت له عيون الزمان ، و استوعب من ممالك الإسلام كلّ مكان ، شديد الوجوم [١] كثيرالغموم ، من غلبة سلطان هذا الغضب الّذي أوّله سفه وقباحة وآخره تأسّف و ندامة ، فأسألك أن تعالجني أبداً من بوادره و توكل على أفعالي من رأيك بصيرة من بصائره . فقال الرجل : أما فاسمع منّي جملة علاج ما أنكرته من نفسك عاجلاً إلى أن يتّصل تفصيلها عند ما أُنكره منها آجلاً .

اعلم أيّها الملك أنّك أصبحت وليس فوق يدك للمخلوق يدٌ يدفعك عمّا أردته ، و يجليك عن مورد وردته ، وإنّك بالغ ماتريد من أيّ إنسان ، وفي أيّ وقت وأوان .

ثمّ اعلم أنّ الغضب يحدث في المرء من السكر فوق ما يحدثه صرف الخمر، وأنّ حال الغضبان بعد الرضا حال السكران إذا صحا ، فيجب كما يبتدىء بك الغضب و تحسّ من نفسك بالغلب ، أن تضع في نفسك تأخير العقوبة لتعب ليلة و نجم عشيّة فإنّك في مثلها تصحو عن سكرها وتسكن عن بوادي فورها ، ثمّ تدبّر في الأمر فإن كان ممّا يسعه العفو ويكفي فيه العتاب والعذل فالعفو أحسن وأولى ، وأقرب لك من التقوى ، وإن لم تسمح السياسة بالتجافي عنه والتجاوز منه وقفت بالعقوبة عند قدرالذنب ولم تتعدّه ولم تتجاوز حدّه إلى مايقبّح ذكرك ، ويوبق دينك ، ويمقّت عليك نفسك . و إنّما يصعب هذا التدبير في أوّل الأمر بادئاً ، ثمّ يصير عادة وملكة ثانياً ، فلايزال توهين هذه القوّة العادية وتمرين سورتها الطاغية يتبيّن لك البركة في الأُمور ، والفسحة في التعمير والثناء من الخلق في العاجلة ، والرحمة من الله في الآجلة .

وقد جاء في تفسير قول الله عزّ و جلّ [٢] « إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذاهم مبصرون» أنّ الطيف من الشيطان هو الغضب ، فإذا غضبوا تذكّروا أنّهم ليسوا بأرباب بل هم أنفس فانية ، وأبدان باليه يوشك أن تفيض فيضاً ، و يأكل بعضها بعضاً ،فيكون هذا الإبصار الّذي نبّهنا عليه بقوله تعالى [٣] : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وإلاّ فمن أين يصل غيره غضباً من لا يبقى بنفسه أبداً .

(١) وجم - من باب وعد - وجوماً : سكت وعجز عن التكلم من شدة الغيظ أوالخوف .
(٢) سورة الاعراف : ٢٠٠ .
(٣) » الذاريات : ٢١ .

إن كان ذا لحم فلحمك لحمه * أو كان ذا عظم فعظمك عظمه
أو إن عداك أب وأمّ قبله * فكذلك انماه أبوه و أمّه

وحدّث بعضهم قال : كنت على الحبس بمدينة السلام وقد ضاق المرّ لجمال من من خراسان وافته ، فنظر بعض أولئك الخراسانيّين إلى ابن بقيّة مصلوباً فسألني عنه فقلت : وزير غضب عليه ملك منذ زمان ، فقال : وما فعل ذلك الملك ؟ فقلت : مات ، فقال : ما أعجب ! الملك المغضوب تحت الأرض وهذا المصلوب المغضوب عليه فوق الأرض ! ثمّ تلا قوله تعالى : (١) « فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين » .

وعن سفيان بن عيينة قال : حجّ الرشيد فلقيني جعفر بن يحيى في الطواف فقال لي : مامنعك من الدخول على أمير المؤمنين ؟ قلت : لم يرسل إليّ ، قال : فأنا رسوله إليك فإذا كان بالغداة فادخل عليه ، قال : فأتيت الباب فلم أحجب ، فلمّا نظر إليّ جعفر تلقّاني فقال : إنّك وافقت أمير المؤمنين في ساعة اشتدّ فيها غضبه ، فلا تكلّمه بحلو ولا مرّ ، قال: فسلّمت فإذا برجل مكبّل في الحديد قائم بين يديه وهو يقول : قتلني الله إن لم أقتلك ! والرجل يقول : ياأمير المؤمنين ! الله الله في دمي ، فإنّي مكذوب عليّ ، قال : وبين يديه النطع والسيف فقلت في نفسي : رجل يقتل ولا أدري فيم يقتل ، فقلت : يا أمير المؤمنين ألا أدلّك على أدب الله وأدب رسوله عليه السلام فالتفت إليّ مغضباً فقال : وما أدب الله ؟ فقلت : قال الله عزّ وجلّ (٢) : « يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » قال : وما أدب رسوله ؟ قلت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لاتصدّق قتّاتاً » و كلّ من جاءك بخبر تصيب من مؤمن مكروهاً فهو قتّات نمّام . قال: فأمر بإطلاقه و قال : عليّ بكرّاسة سفيان ، فقرأ عليّ ثلاثين حديثاً و أمر لي بثلاثين ألف درهم .

وعن الحسن في قول الله تعالى : (٣) « و عباد الرحمن الّذين يمشون على الأرض

---

(١) سورة الواقعة : ٨٦-٨٧ .
(٢) » الحجرات : ٦ .
(٣) » الفرقان : ٦٣ ورواه عن الحسن الغزالي مع تغيير .

هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » قالوا : صبراً ثبت علماً و حلماً ، إن ظلموا لم يظلموا ، وإن بغي عليهم لم يبغوا ، قد براهم الخوف كأنّهم القدح[١] .

وفسّر عكرمة قوله عزّ وجلّ :[٢] « وسيّداً وحصوراً » أنّ السيّد هو الّذي يغلب غضبه حلمه وجهله علمه .

ولمّا نزل قوله تعالى[٣] : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » قال جبرئيل : يا محمّد هو أن تحلم عمّن شتمك ، وتعفو عمّن ظلمك ، وتعطي من حرمك .

فابسطوا عنه حلمكم و أطلقوها ، و احبسوا تواري غضبكم و أو ثقوها ، و أحسنوا معاشرة من يجاملكم ويواصلكم ، واتركوا معاشرة من يداخلكم ويعاملكم ، ولا تمرّوا في الغيظ على غلوائكم ولا تظهروا على أحد صولة جوركم واعتدائكم ، واثبتوا على الكظم إن وجدتم قدماً ، وأقصدوا في المشي إن كان طريقكم أمماً ، وتجافوا عن ذنوب الأصدقاء ، و تصاموا عن الكلمة العوراء .

ومّما أُنشد في هذا المعنى[٤] :

وعوراء جاءت من أخ فرددتها * بسالمة العينين طالبة عذرا
ولو أنّها إذ قالها قلت مثلها * ولم أعف عنه أورثت بيننا غمراً
فأغضيت عنه ، وانتظرت بها غداً * لعلّ غداً يبدي لمنتظر أمرا
ولا ترع ضغناً كامناً في فؤاده * وأقلم أظفاراً أطال بها حفرا

آخر :

لقد أسمع القول الّذي كاد كلّما * تذكّرنيه النفس قلبي يصدّع

---

(١) براالناقة - واوى اللام من باب نصر - : جعل فى أنفها حلقة السوار . و القدح : اناء يشرب فيه ولا يقال له القدح الا اذا كان فارغاً . والمراد به هنا قدح الراكب فان الراكب يعلق قدحه فى آخرة الرحل فيكثر حركته . والمعنى انهم مضطربون - كالقدح - من شدة الخوف .

(٢) سورة آل عمران : ٣٩ ورواه عن عكرمة الغزالى .

(٣) » الاعراف : ١٩٨ .

(٤) وانظر فى أشعار وحكايات تناسب الباب المستطرف (١ : ١٨٧-١٩٧) .

فأُبدي لمن أبداه منّي بشاشة * كأنّي مسرور بما منه أسمع
وماذاك من عجب به غير أنّني * أرى أنّ تركَ الشرّ للشرّ أقطع

آخر :

لن يدرك المجد أقوام وإن كرموا * حتّى يذلّوا وإن عزّوا لأقوام
ويُشتموا فترى الألوان مسفرة * لاصفح ذلّ ولكن صفح أحلام

آخر :

وإنّي لأسقي الشهد صاحبي الّذي * يكلّفني أن أشرب السمّ منقعا(١)
وعندي لصلح الجار إن شاء موضعاً * وإن جار أولم يبق للصلح موضعاً

آخر :

أصمّ عن الكلم المفحظات * وأحلم ، و الحلم بي أشبه
و إنّي لأترك جلّ الكلام * لئلّا أُجاب بما أُكره
إذا ما احترزت سفاه السفيه * عليّ فإنّي أنا الأسفه
فلا تغترر برواة الرجال * وما زخرفوا لك أو موّهوا
فكم من فتى يعجب الناظرين * له ألسن وله أوجه
ينام إذا حضر المكرمات * و عند الدناءات يستنبه

ومن الكلام الفصيح العالي الطبقة في هذا الباب قول القائل :

يا أيّها الرجل المزجي أذيّته * هل أنت عن قولك العوراء تزدجر(٢)
إنّي إذا مدّ، مبطاء إلى أمد، * لا يستطيع حذاري المعزق النظر(٣)
لاق فيأتي مصدار عسورته * لا قادح يتعنّاها ولا حور(٤)
إنّي لأصفح عن قومي وأُلبسهم * على الضغائن حتّى تبرء المير

---

(١) المنقع : السم البالغ القاتل المريّ .
(٢) زجى وأزجى شره : دفعه . والانسب « المرخى ازمته ».
(٣) المعزق في الشي : المسرع فيه . ولعل الصواب : المغرق البطر .
(٤) لم اتفهم معناه ، وما اكثر التصحيف في هذه الابيات ! !

المير الضغائن الّتي ذكرها في حشو البيت ، أي ألبسهم على الضغائن حتّى تبرأ الضغائن .

ودخل جاثليق النصارى على مصعب بن الزبير فكلّمه بكلام أغضبه فعلاه بقضيب فتركه حتّى سكن غضبه ثمّ قال : إن أذن الأمير أخبرته بما أنزل الله على المسيح عليه السلام فأصغى إليه فقال : إنّ الله أنزل على المسيح عليه السلام أنّه لاينبغي للسلطان أن يغضب فإنّه إنّما يأمر فيطاع ، ولاينبغي أن يعجل فليس يفوته شيء ، ولاينبغي أن يظلم فإنّما به يدفع الظلم : فاستحيا مصعب وترضّاه .

وممّا يكفّ عن الغضب ويحثّ على الحلم قصّة ذي الكفل [١] ، فإنّ اليسع قال: ذات يوم لقومه : إنّه قد وهن العظم وضعف الجسم ، وتخاذلت القوى و تقاصرت الخطى ، وها أنا واقف على ثنيّة الوداع من الدنيا ومتوجّه عنها إلى الدار الأخرى ، فلو استخلفت عليكم من أرتضي عمله ، فحمدوا رأيه ورضوا قوله ، فجمع أصحابه وقال : من تكفل لي بأن يظلّ نهاره صائماً ويبيت ليله قائماً ولايغضب على الناس إذا لحوّا عليه مخاصمين ، و يحلم عنهم إذا ضجروه محاكمين ، حتّى أولّيه عليهم ؟ فقام إليه رجل ينبو عنه البصر ويغمض عنه النظر وقال : أنا ذاك ، ثمّ أعاد القول ثانياً و ثالثاً فقام القائم أوّلاً فقال : أتكفل لي بذلك ؟ فكفل له .

فكان يدأب النهار في الصيام والليل في القيام ، و يقضي بين الناس من مطلع الفلق إلى مغرب الشفق ، سوى ساعة يقيلها عند قيام الهواجر [٢] والتهاب وقدة الظهائر [٣] .

فجاء الشيطان في صورة شيخ ضعيف وقت قائلته ، و فاوضه في ذكر ظلامته ، وطوّل حتّى فاتته القائلة ، فقام ذوالكفل وقال : إنّي متوضّ لصلاتي وعائد إلى مجلسي فاحضر خصمك لأعديك عليه ، وآخذ بحقّك منه ، فلم يريومه ، فبات واجماً [٤] لهليله ،وأصبح من غده قاضياً بين الناس ،حتّى انتصف النهار ،وبلغت الشمس كبد السماء ، فعاد إلى منزله ليجمّ

(١) رواه مع تغيير في المجلد الخامس من البحار في احوال ذي الكفل .

(٢) جمع الهاجرة : شدة الحر ، نصف النهار في القيظ .

(٣) جمع الظهيرة : حد انتصاف النهار .

(٤) اى مجهوداً بالتعب . كذا بهامش الاصل .

باستراحة إعياءه [١] ويريح بإغفائه [٢] أعضاءه ، أن دقّ عليه الشيطان الباب في يومه و أيقظه من عرار [٣] نومه ، فقال : أين كنت بالأمس وما أخّرك عن محضر الناس ؟ فقال : إنّ قومي أخبث قوم قالوا : نعطيك حقّك اليوم ، ثمّ اعتلّوا عليّ ومطلوني ولووا ديني [٤] وجحدوني ، وطوّل القول حتّى فاتته القائلة ، فقام وتطهّر وجلس للناس ينتظر الشيخ فلم يحضره وانصرف من غده إلى منزله ليقيل على رسمه ، وقال لبوّابه : لم تلتق أجفاني منذ ثلاثة أيّام ، و لابدّ للتعب المكدود من جمام ، فلا تأذن أحداً عليّ ولا تدعه يدخل إليّ ريثما [٥] أقيل ساعة واحدة ، وأجد ممّا عراني استراحة ، فجاء الشيطان فحجبه البوّاب فلم يمتنع ، ودخل الدار وأيقظه فحين همّ أن يغضب ثبّته الله وعصمه فصبر عليه كاظماً ، ونكص الشيطان على عقبيه راغماً ، فذلك قول الله عزّ وجلّ : [٦] «واذكر إسماعيل واليسع و ذا الكفل و كلّ من الأخيار » و قوله [٧] : « إسماعيل و إدريس و ذا الكفل كلّ من الصابرين » .

قالوا : ولعزّة الحلم وقلّته ما نعت الله أحداً من الأنبياء نعتاً أقلّ ممّا نعتهم به من الحلم فإنّه قال في إبراهيم عليه السلام وحده : « إنّه لحليم أوّاه منيب » [٨] .

وقالوا : ليس الحليم من ظلم فحلم حتّى إذا قدر انتقم ، ولكن من ظلم فحلم حتّى إذا قدر عفا .

وشتم رجل المهلّب فلم يردّ عليه فقيل له فقال: لم أعرف مساويه و كرهت أن أتّهمه بما ليس فيه .

---

(١) جم : استراح . والاعياء : التعب والكل .

(٢) الاغفاء : النوم .

(٣) بفتح العين : نعومة الشيء وطيبه .

(٤) لواه دينه وبدينه - وادى العين واللام - : مطله .

(٥) « ريثما » مركب من الريث و« ما» و الريث هو مقدار المهلة من الزمن .

(٦) سورة ص : ٤٨ .

(٧) سورة الانبياء : ٨٥ .

(٨) انظر سورة التوبة : ١١٥ و سورة هود : ٧٥ و قال تعالى فى اسحاق ابنه فى سورة الصافات ١٠١ : فبشرناه بغلام حليم .

وقال [١] رجل من أهل الشام : قدمت المدينة بعد الحرب التي كانت بين أهل الشام و العراق فرأيت رجلاً عليه بزّة جميلة ورداء حسن قد مرّ بي، فسألت عنه فقيل لي: هذا الحسن ابن عليّ، فحسدت عليّاً أن يكون له ابن مثله ، فعرضت دابّتي في وجهه و قلت : بك و بأبيك أنت ابن أبي طالب ؟ فقال : أنا ابن ابنه ، قلت : بك وبأبيك - وشتمته و شتمت أباه - فأرم [٢] لا يردّ عليّ حرفاً ، فلمّا فرغت أقبل عليّ و قال : أظنّك غريباً وقد سفهت ، فلو استغثت بنا أغنيناك ، ولو سألتنا أعطيناك ، ولو استرشدتنا أرشدناك ، ولو استحملتنا حملناك قال الشاميّ : فولّيت عنه وما على وجه الأرض خلق أحبّ إليّ منه ، وما فكّرت فيما صنع وصنعت إلّا كثر حزني على نفسي .

أقول : ولعمري كم من حاسد شاميّ تعدّى على سيّد هاشميّ ، ولو أطلقت عنان القلم في توصيف ما نالني منهم لطال المقال بالذميمة و انهماكهم في الغيبة و النميمة ، ولم أُشاركهم في شيء من حطام هذه الفانية ، ولا مدّت يدي لما حوته أيديهم الجانية ، و في المثل : « عدوّ المرء من يعمل بعلمه أو ينازعه في شرهه و مأكله » لكن :

ماذي بأوّل مطرة * مطرت على أسد الفلا

ولقد أحسن القائل منّا حيث قال :

نحن بنو المصطفى ذوو غصص * يجرعها في القديم قائمنا
قديمة في الزمان محنتنا * أوّلنا مبتلى و آخرنا
يفرح كلّ الورى بعيدهم * و نحن أعيادنا مآتمنا
والناس في الأمن والسرور ولا * يأمن طول الزمان خائفنا

يا من يسرّ لي العداوة ؟ أبدها * واعمد لمكروهي بجدّك أو ذر
لله عندي عادة مشكورة * فيمن يعاديني ، فلا تتحيّر
أنا واثق بدعاء جدّي المصطفى * لأبي غداة غدير خمّ فاعذر
و الله أسعدنا بإرث دعائه * فيمن يعادي أو يوالي فاصبر

---

(١) انظر الكامل للمبرد (١: ٢٣٥) والبحار ومنتهى الآمال . و رواه المحدث القمي لاخيه الحسين عليه السلام أيضاً عن بعض الكتب .

(٢) أرم : سكت .

واعلم أنّه يجب على كلّ مسلم محبّة من فضّله الله على سائر خلقه و يرغم بذلك أنف كلّ حاسد ليس له نصيب في مثل هذا الثواب ، فكما أنّه لا ينبغي لأحد من المسلمين أن يبغض مؤمناً لأجل إيمانه ، ومن بغض مؤمناً لأجل إيمانه صار كافراً ، فكذلك لا يجوز لمؤمن أن يبغض من قد خصّه الله بالطهارة ممّن ينتسب إلى العترة النبويّة .

وقد روي[1] في الخبر عن سيّد البشر أنّ «بغض الأنصار كفر» يعني إن كان بغضهم لأجل نصرتهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فكذلك ههنا لا يجوز لمسلم أن يعادي من ينتسب إلى هذه السلالة الطاهرة فإنّا رأينا كلّ من نصب العداوة لهؤلاء الأطهار أهلكهم الله تعالى ، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحداً ، مصداق ذلك ماروي عن الإمام الصادق جعفر بن محمّد عليهما السلام أنّه قال : «ماعادانا بيت إلّا خرب ، وما نبحنا كلب إلّا جرب» و ربّما يتمنّى الحسود لأهل الشرف والحسب والدين أن يكونوا مثله في الدناءة والرذالة . فإذا خالفوه إلى ما يناسب شرفهم وعلوّ قدرهم مقتهم وحسدهم لأنّهم لم يوافقوه على قصده لأنّه نوى الفضيحة لهم ، فلهذا يهيج الغضب وينتج للحاسد العطب ، و إنّما صرفت لمحة من أوقاتي و كتبت صفحة من و رقاتي لئلاّ يقتدى بفعل أمثال هؤلاء الحمقى الّذين غضبوا على من لا ذنب له عندهم .

و الحمد لله الّذي شرّفنا على كثير من عباده المؤمنين ، ورزقنا الصبر و الحلم على هؤلاء الحاسدين ، وجعلنا ممّن ينتسب إلى الأئمّة المعصومين الراشدين صلوات الله عليهم أجمعين . فينبغي لنا ولأبناء جنسنا أن نقطع النظر عن مودّة أمثال هؤلاء لأنّهم الأقلّون الأزدلون ، فاليأس عن مودّتهم أولى ، فإنّ الراحة مقرونة بترك الطمع .

وقال الحسين بن الحجّاج في اليأس بعد الطمع :

يا يأسي الصادق فيه لقد * أرحتني من طمعي الكاذب
ركبت فيكم أملاً لم أكن * أخاف أن يغترّ بالراكب
فحكمكم لا رافضيّ إذا * نظرتم فيه ولا ناصبيّ
لا ابن أبي سفيان يرضى به * ولا عليّ بن أبي طالب

ولقد أطلنا المقال في هذا الباب في رسالتي «الاثنا عشريّة» فمن أراده فليقف عليه[2].

(١) انظر صحيح البخاري (٢ : ١٩٢) . (٢) راجعه ص ٤٢٣ الباب الثانيعشر .

ودخل جعفر بن محمد عليهما السلام على الرشيد[١] وقد استخفّه الغضب على رجل فقال له : ياأمير المؤمنين ! إنّك إنّما تغضب لله فلا تغضب له بأكثر ممّا غضب لنفسه .

وبعث إليه المنصور فأتاه فقال : إنّي أُريد أن أستشيرك في أمر : قدرأيت إطباق أهل المدينة على حربي ، وتأنّيت مرّة بعد أُخرى فلا أراهم ينتهون ، وقدرأيت أن أبعث إليها من يجمّر نخيلها ويغوّر عيونها فماترى ؟ فسكت جعفر الصادق عليه السلام فقال منصور : مالك لاتتكلّم ؟ قال : أتكلّم آمناً ؟ قال: قل ، قال : ياأميرالمؤمنين ! إنّ سليمان بن داود أُعطي فشكر ، وإنّ أيّوب ابتلي فصبر ، وإنّ يوسف قدر فغفر ، وإنّ محمّداً صلى الله عليه وآله أوذي فاحتمل وقد جعلك الله من نسل الّذين يغفرون ويصفحون فطفئ غضبه و سكت .

و يقال : أفضل رداء ارتدى به مرتد هو الحلم ، فإن لم تكن حليماً فتحلّم ، فإنّه قلّ من تشبّه بقوم إلّا أوشك أن يكون منهم .

وذكر خالدبن صفوان قال : شهدت عمرو بن عبيد ورجل يشتمه ، و ماترك شيئاً إلّا ذكره به ، فلمّا فرغ قال له عمرو : آجرك الله على ماذكرت من صواب ، وغفر لك ما ذكرت من خطأ ، قال : فما حسدت أحداً حسدي عمرواً على هاتين الكلمتين .

ومن كلام المأمون المستحسن في هذا الباب : قليل السفه يمحو كثير الحلم ، وأدنى الانتصار يخرج من فضل الاغتفار ، وعلى طالب المعروف المعذرة عند الامتناع والشكرعند الاصطناع ، وعلى المطلوب إليه تعجيل الموعود والإسعاف بالموجود . وكان يقول : لايوجد العجول محموداً ، ولا الغضوب مسروراً ، ولا الحرّ حريصاً ، ولا الكريم حسوداً ، ولاالشره غنيّاً ، ولا المملوك[٢] ذا إخوان .

والمأمون من الخلفاء من المشتهرين بالحلم ، المنتشر ذكره بالعفو و كظم الغيظ ، ولولم يكن من ذلك إلّا ماعامل به إبراهيم بن المهدي[٣] وقد سلبه الخلافة وقام بها مدّة

(١) توفي الصادق عليه السلام في زمن المنصور ولم يدرك زمن الرشيد .

(٢) في النسخة (ر) ولا الملوك .

(٣) هوعم المامون ، ولد ونشأ ببغداد ، ولاه الرشيد امرة دمشق ، ادعى الخلافة زمن المأمون في بغداد وتغلب على الكوفة والسواد ، ومأمون بخراسان ، وبقي على خلافته سنتين ، فطلبه مأمون وهدردمه ، فاستتر ست سنين . وكان فصيح اللسان ، جواد الشعر ، وافرالفضل . ولد ١٦٢ وتوفي ٢٢٤ هـ . الاعلام .

سنة ، وماكان منه مع الفضل بن الربيع [١] وقد تصدّى لإيقاع كلّ مكروه به في أيّام أبيه وأخيه . لكان في ذلك الحلم العظيم والأمر البديع .

و قد حدّث يزيد بن الحسين العلويّ قال : بينا المأمون في يوم عيد ببغداد على مائدته طاهر بن الحسين و سعيدبن سالم و حميدبن عبدالحميد و غيرهم من الأماثل وعلى رأسه سعيدبن الخطيب يقرظه ويصف محاسنه ، إذا انهملت عيناه ورفع يده عن الطعام فأمسك القوم حتّى إذا كفّ عن البكاء قال لهم : كلوا ، قالوا : وهل نستلذّ شيئاً و سيّدنا بهذه الحال ؟ قال : أما والله ماذاك لمكروه جرت ولكنّه نوع من أنواع الشكر لله تعالى ، أما ترون ذلك الّذي في صحن الدار - يعني الفضل بن الربيع ، وكانت الستور رفعت و وضعت الموائد على المراتب وكان مجلس الفضل مع أصحاب الحرس - كان في طول أيّام الرشيد يراني بوجه أعرف فيه البغضاء ، وعندي له مثل ذلك و كنت أداريه خوفاً من سعايته ، وإذا سلّمت عليه وردّ عليّ أظلّ لذلك فرحاً مبتجّحاً ، وكان أغوى المخلوع [٢] ودعاه إلى قتلي فتحرّك فيه عاطفة القرابة الماسّة ، فقال : أمّا القتل فلا ، ولكن أجعله بحيث إذا قال لم يطع، وإذا دعا لم يجب. وكان أحسن حالاً بي عنده أن وجّه مع عليّ بن عيسى قيد فضّة بعد ما تنازعا في الفضّة ليقيّدني به ، وذهب عنه قوله عزّ وجلّ : [٣] « ومن [عاقب بمثل ما عوقب به ثمّ] بغي عليه لينصرنّه الله » ذلك موضعه من الدار بأخسّ مجالسها . وهذا الخطيب على رأسي كان يقف بالأمس على المنبر العربيّ ويزعم أنّني المأبون ولست بالمأمون ، ثمّ هو الساعة يقرّظني تقريظه المسيح أو محمّد عليهما السلام ، فقال طاهر : قد أباحك الله يا أمير المؤمنين دمهما فحصّنهما بالحلم ، قال : قد فعلت ذلك لموضع العفو من الله. مدّوا أيديكم إلى طعامكم .

---

(١) وزير أديب حازم ، كان ابوه الربيع بن يونس وزيراً للمنصور فلما آل الامر الى الرشيد واستوزر البرامكة كان الفضل من كبار خصومهم ، حتى أبادهم الرشيد فولاه الوزارة الى أن مات الرشيد وأقره الامين في وزارته فعمل على مقاومة المأمون ، ولما ظفر المامون استتر سنة ١٩٦ ثم عفا عنه . توفي بطوس ٢٠٨ انظر الاعلام ٧٧٣ .

(٢) يريد به أخاه محمد الامين .

(٣) سورة الحج : ٦٠ .

ويقال : إنّ المأمون لمّا حبس إبراهيم بن المهديّ بعث رسولاً يطلع عليه ويخبره بما يعمل من حيث لايعلم فوجده يبكي ويقول :

فلوأنّ خدّآمن و كوف مدامعي * يرى معشباًلاخضرّ خدّي وأعشبا
على أنّني لم أبك إلّا مودّعاً * بقيّة نفس ودّعتني لتذهبا
وقد قلت لمّا لم أجدلي حيلة * من الموت لمّاحلّ : أهلاً ومرحبا

فأخرجه المأمون ، فلمّا مثّل بين يديه فقال : يا أميرالمؤمنين ! ذنبي أعظم من أن يحيط به العذر ، وعفوأميرالمؤمنين أجلّ من أن يتعاظمه ذنب .

وحكى أحمدبن أبي داود قال : سمعت المأمون يقول لرجل : إنّما هو غدر أويمين وقد وهبتهما لك ، فلا تزال تسيء و نحسن ، و تذنب وأعفو حتّى يكون العفو هو الّذي يصلحك .

ومنهم الواثق ،كان[1] المسدود المغنّي هجاه ببيتين كانا معه في رقعة ، و في رقعة أُخرى حاجة له يريد أن يرفعها إليه ، فناوله رقعة الشعر وهو يرى أنّها رقعة الحاجة فقرأها الواثق فإذا فيها :

من المسدود في الأنف * إلى المسدود في العين
أنا طبل له شقّ * فيا طبلاً بشقّين

وكان في عين الواثق نقطة بيضاء فلمّا قرأ الرقعة قال للمسدود : قد غلطت بين الرقعتين فاحذر أن يقع مثل هذا ، وما زاده على هذا القول شيئاً ، ولا تغيّر له ممّا كان عليه .

وعن أبي جعفر [2] قال : لمّا دعا نوح عليه السلام ربّه عزّوجلّ على قومه أتاه إبليس فقال : يانوح إنّ لك عندي يداً أريد أن أُكافئك عليها فقال نوح : والله إنّي لبغيض إلى أن يكون لك عندي يد فما هي؟قال : بلى دعوت الله على قومك فأغرقهم فلم يبق أحداً غويه فأنا مستريح حتّى ينشو قرن آخر فأُغويهم قال له : فما الّذي يريد أن تكافيني به ؟ قال

(١) الخبر في الاغاني (٢١:١٦٥) .
(٢) رواه الصدوق في الخصال (١:٦٥) .

له : اذكرني في ثلاث مواطن فإنّي أقرب ما أكون من العبد إذا كان في إحدا هنّ : اذكرني عند غضبك ، و اذكرني إذا حكمت بين اثنين ، و اذكرني إذا كنت مع امرأة جالساً ليس معكما أحد .

وكان أنوشيروان [١] يدفع ثلاث رقاع إلى خادم يقوم على رأسه ، و أمره أن يدفع إليه واحدة بعد واحدة إذا اشتدّ غضبه . قال : فاشتدّ غضبة يوماً فدفع إليه واحدة فإذا فيها : «أمسك غضبك فإنّك لست بإله» ثمّ دفع إليه الثانية فإذا فيها : «ارحم عباد الله يرحمك الله» ثمّ دفع إليه الثالثة فإذا فيها : «احمل عباد الله على حقّ الله فإنّك لاتسعد إلّا بذلك» .

وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : «أصعب الأعمال أربعة : العفو عند الغضب ، و الحلم عند الإساءة ، والجود من اليسير ، والعفّة في الخلوة» .

وعن طاوس اليمانيّ [٢] قال : سمعت عليّ بن الحسين عليهما السلام يقول : علامات المؤمن خمس ، قلت : وماهنّ يا ابن رسول الله ؟ قال : «الورع في الخلوة ، والصدقة في القلّة ، والصبر عند المصيبة ، والحلم عند الغضب ، والصدق عند الخوف» فكما أنّ الإنسان ينزّه نفسه عن الغضب ، و يزيّنها بالحلم كي تستصلح النفس البشريّة و يتوحّد بالفضائل الملكيّة .

(١) الخبر في الاحياء عن سليمان بن المعتمر الا أنه قال : كان بعض الملوك .
(٢) تراه في الخصال (١ : ١٢٩) .

﴿فصل ٦﴾

✡(يتضمن استصلاح نفس الانسان البشرية الملكية والتوحد)✡

✡(بفضائلها واستحقاق طاعة الناس لاجلها)✡

المعاني الّتي يتفطّن إليها شرف الإنسان لاتخرج عن أربعة أقسام: إمّا أن تكون نظريّة أوفكريّة أوخلقيّة أوصناعيّة . أمّا النظريّة فهي التردّد في رياض الألباب و الاجتناء من ثمار الآداب . والفكريّة فهي مطاوعة القريحة لاستنباط مايرام تفهّمه على البصيرة والحقيقة . و الخلقيّة هي الارتياض على تمهين القوى في توفية الأعمال الّتي يصل بها إلى سوالف الخيرات ، ويقرع ذوائب الحسنات ، وهي تأدية ما توجبه المعرفة شرعاً أو عرفاً من الأعمال بأحسن جهاتها و بمقدار تمامها .

ثمّ الإنسان في خاصّ أخلاقه لا يخلو عن الأخلاق الملكيّة والبشريّة أوالبهيميّة أوالسبعيّة. فهذه الأربعة الأخلاق المتقلّبة عليها طباع الناس، ومعلوم أنّ الإنسان لم يكن ليبلغ الرضا في طاعة الله عزّ وجلّ إلّا إذا صرف سعيه ، وشغل فكره و كدّه في استصلاح مايمكنه في أرض الله ثانياً ، ولا خلاف أنّ مستصلح الشيء لا يستأكله بل بيّن عليه ، و يوفي و يسبق ويجلى كحال الراعي في مرعيّه ، و المؤدّب مع صبيّه . فالمجرور بحبال شهواته مرّة صريع الهوى ، ومرّة نصب الأمل ، تعصف عليه رياح الهموم والأحزان ، و ترشقه سهائم العلائق و العوائق ، لا يستقلّ بضبط النفس و إصلاح الأخلاق كالمهر [1] المشدود بأرسانه ، المربوط بمحكمات شكاله ، لايسبق الحلبة [2] ولا يلحق الغاية . كيف والمستصلح لأخلاق البريّة [3] ، المستحفظ لمصالح الخلقيّة ، لا يجوز أن يكون ذا طبيعة إنسانيّة فضلاً عن الطبيعة البهيميّة والسبعيّة ، بل يجب أن يكون سائراً بالسيرة الملكيّة

---

(١) المهر بضم الميم : ولد الفرس .

(٢) بفتح الحاء وسكون اللام : الدفعة من الخيل في البرهان .

(٣) البشرية . خل من الاصل .

فيأثم الرعاء ما هو اقتداء بفعله ، وينتهون عمّا سبق إلى الانتهاء عن مثله . و المتابعة في الأعمال أسرع منها إلى الالتزام للأقوال ، والموعظة عن نفس غير زكيّة لا يوجد لها فضل تأثير في الأنفس المستمعة . و كلّ ما صعد من القلب إلى الشفاه نزل من الصماخ إلى الفؤاد ، وما انبعث من طرف اللسان لم يتجاوز خرق الآذان .

فإذاً لن يكمل الإنسان في التنسّك والتزهّد مالم يزد علمه بعمله ، ومالم يتّخذ الفضائل الأربعة بجوهره ، ومالم يصن نفسه ويثق بربّه قلبه عن الاعتماد على غيره ، ومالم يتصوّر أن يسأل ربّه الخيرات الجزئيّة الخاصّة دون الكلّيّة العامّة ، ومالم يجلّ قدره عن السكون إلى المال الكثير والمجد الأثيل ، دون واهب المال و مؤثّل المجد ، وما لم يخالف طباع العوامّ في إيثاره الحقّ وإقباله على الخير ، ومحبّته للبرّ ، وشدّة عنايته في التفقّد عن أمر النفس ، والتفحّص عن الأخلاق والبحث عن جملة المتّصلين من ولد وقريب وجار ومعرفة ، ليعالج ما يجد من محاسن الأخلاق سقيمة ، ويرفض من مساويها قديمة ، غير متطلّب لجاه أو ثروة ، ولا مستشعر لعزّ أو نخوة ، فإنّه خلق عبداً و العبد لا ينبغي له أن يتخطّأ إقامة العبوديّة إلى مجاذبة رداء الحرّيّة ، وغير متكثّر بعدد و عدد ، فإنّه دخل في الدنيا فرداً ويخرج منها كذلك أيضاً ، ولا سيّما وارتباط الكثرة مصيرها أبداً إلى الوحدة فيكون على هذا بعض ذلّه أدعى لكلّ عزّه ، وآخر وحدته أوّل كثرة صلاح الآخرين به ، و مبدء كلّ خير من تلقائه ، و بركة كلّ شيء في زمانه بدعائه و سرور كلّ أحد من الناس بلقائه .

فيستغني بولاية الحقّ عن الاستمداد من الخلق . ولا ينظر إلى طبقات الموكوبين بعضهم إلى بعض ، إلّا بعين الشفقة والرأفة والرحمة ، و إن كانوا مشغولين بالباطل معرضين عن الحقّ ، إلّا من خلّفه صاحب الشرع في الإمامة أوورّثه علم الديانة ، فإنّ هذا العالم المتنسّك وذلك الإمام المعصوم القائم بأمر الشريعة والعالم الوارث من نبيّ أو إمام معصوم و كرامة أحدهما على الآخر بمنزلة الصدر والفؤاد والعين والسواد ، ويكون هذا المذهب الظاهر من ذلك الإمام الخائف المخفي ، وإن لم تحتف به الدهماء ولم تستقر علمه الآراء ، كما أنّ الطبيب الحاذق [طبيب] وإن لم يقصده المرضى ، والفقيه الحافظ للروايات مفت وإن لم

يحضره الفتيا ، و كذلك الناسك العالم الحفيظ الضابطمالك الأمروسائسه وأهله ومستحقّه وإن لم ينتصب له ، ويكون هو بالحقيقة أميرالدين ، وصاحب الحكم المبين ، والقائم بالعلم والعمل ، والمزيل للخطاء و الخطل ، وإن لم يكن له كمّ طويل ، ولم يرتش بالبرطيل[١]

ومن سلك هذه المسالك و رأته العقلاء أهلاً لذلك فهو الداعي للدين القويم والسالك للطريق المستقيم ، فهذا وأمثاله هو الفاضل الكامل وإن لم يشار إليه بالأنامل ، ويكون من تكلّف شيئاً من ذلك بغير أمر الشارع مرائياً لايجب أن يسمع منه أو يؤخذ عنه ، كما قال رسول الله ﷺ : « لا تعص إلاّ أميراً أو مأموراً أومرائياً » .

وسأل بعضهم زاهداً بأيّ نيّة أكلّم النّاس ؟ قال : لاأعرف للمعصية نيّة غير الترك

وقال آخر لمثله : إذا فهم العبد عن الله صلح أن يفهّم عباد الله ، وإذا لم يفهم عن الله كان بلاؤه عامّاً في بلاده وعباده ، وعلى هذا يكون نسبة المتغلّب الغير الكامل هذا الكمال الغير الغالب كنسبة الغاصب إلى صاحب المال ، و كما أنّ الغاصب لايقنعه من ربّ المال عن رضا وطاعة كذلك المتملّك الفضول لا يبيع هذا الرجل الكامل فنسبة هذا الكامل الغير الغالب كنسبة الغاصب إلى صاحب المال . و كما أنّ [٢] الغاصب لا يقنعه من ربّ المال إلاّ بقتله قهراً أوحبسه نفياً أوالذهاب والانزواء عنه جانباً، أوشهادته بأنّه أهل ماناله استحقاقاً. كماكانت تفعله المروانيّة والعبّاسيّة بالعلويّة وسائر من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويستحقّ القيام بالأمر .

ولم يزل أهل بيت رسول الله ﷺ من أولاده و أكباده و ذرّيّته و ثمرة فؤاده من لدن صولة بني حرب ومروان إلى دولة بني العبّاس جزر[٣] السيوف ومقرّ الحتوف كما ذكره دعبل الخزاعيّ[٤] :

وليس حيّ من الأحياء نعلمه * من ذي يمان ولا بكر ولامضر

---

(١) بكسر الباء : الرشوة .

(٢) أغفل جوابه ولم يذكره .

(٣) بالتحريك كل شي مباح للذبح .

(٤) الابيات في الاغاني (١٨:٥٧) .

إلاّ وهم شركاء في دمائهم * كما تشارك أيسار على جزر (١)
قتل و أسر و تحريق و منهبة * فعل الغزاة بأهل الروم والخزر
أرى أُميّة معذورين إن قتلوا * ولا أرى لبني العبّاس من عذر
قبران في طوس خير الناس كلّهم * و قبر شرّهم هذا من العبر (٢)

وذلك أنّ قبر عليّ بن موسى الرضا عليهما السلام في طوس وقد من الله عليّ بالمجاورة في مشهده الشريف، والزيارة لمرقده المنيف، وقبر الرشيد الظالم العنيد وراء الإمام في الجهة الشماليّة لأنّه من أصحاب الشمال، وإن كان بجنب المعصوم لا ينفعه ذلك لأنّه ظالم غشوم.

وكان الرشيد وأخوه الهادي من ألهج الخلفاء بقتل العلويّة حتّى كان آخر كلام الرشيد عند الموت: وا حيائي من رسول الله!

وعلى عهده فُقد محمّد بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ عليهم السلام.

قال عبيدالله بن عبدالله بن طاهر: حدّثني أبو محمّد الرباطي - رباط خاوة من عمل جرجان - قال: كنت قبّاراً، فبينا أنا في منزلي أن طرقني ليلاً ركب مستعجلين، فخرجت فإذا بشموع وخدم فأمروني بالحفر فحفرت قبراً و أودعوه تابوتاً و عفيت عليه بالتراب و أجالوا خيلهم عليه تغويراً للموضع وانصرفوا، فظننت أنّه كنز فأسرعت فانتبشته و كشفت عن التابوت فإذا فيه رجل فوضعت يدي على أنفه فإذا هو قريب من التلف فاستخرجته و أعدت التراب إلى ما كان عليه، واحتملته إلى منزلي، و أعاد القوم حذراً من أن يكون ينتبه على ما في التابوت ونفضوا الصحراء الّتي كان فيها فلم يجدوا أثراً ولا حسّاً لأحد، وأنا مشرف من منزلي أرى ما يصنعون، فلمّا أمنوا ممّا توهّموا انصرفوا وتراوى نفس الرجل فسألته عن حاله فقال: أنا محمّد بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين عليهم السلام فأقام عندي إلى أن قويت نفسه و ترجّعت، ثمّ شخص إلى العراق ثمّ إلى الحجاز و ظهر باليمن و بويع له بأمير المؤمنين و دخل مكّة ثمّ خرج على عهد المأمون و بايع المأمون لابن أخيه عليّ بن موسى الرضا عليهما السلام بالعهد، فخرج إلى المأمون بخراسان وأدركته منيّته بجرجان فاحتفرت له ودفنته، وكان بين الدفنتين عشر سنين.

(١) أيسار جمع ياسر: من يتولى قسمة جزور الميسر. وفي الاصلين: آسار.
(٢) بعد هذا البيت في الاغاني:
لا ينفع الرجس من قرب الزكي ولا * على الزكي بقرب الرجس من ضرر

و كان السبب[١] في استيصال البرامكة أنّ الرشيد دفع يحيى بن عبدالله بن الحسن إلى جعفر بن يحيى و حبسه عنده ليقتله وكان جعفر يرى ولوع الرشيد بقتل العلويّة و سروره بموت من يموت في حبسه منهم ، فشرب يوماً عنده وسرّ و زيد في إكرام جعفر فأعلمه جعفر أنّ يحيى بن عبدالله قدمات فسرّ بذلك وقال : الحمد لله الّذي قد كفاني أمره ، وإن قتلناه فالنار لنا، فقال يحيى لجعفر : يابنيّ قد انفتح لي في أمره باب : أُريد أن أكتب إلى عليّ ابن عيسى بن ماهان وأُعرّفه ماجرى وأفرغ إليه في أن يكون يحيى بن عبدالله عنده موسّعاً عليه إلى أن يقضي الله فيه قضاءه ، فكتب في هذا المعنى كتاباً بخطّه ، ووجّه بيحيى بن عبدالله إليه وكان عليّ بن عيسى يلي خراسان والريّ ، وكانت تحته بنت يحيى بن خالد البرمكيّ وكان بينه و بين الفضل وجعفر عداوة ولم [يكن][٢] يشعر به يحيى، وأجاب يحيى بأنّه يفعل ما أمر به في أمر يحيى بن عبدالله ، وأنفذ كتاب يحيى بن خالد الّذي كان إليه إلى الرشيد ، وأعلمه أنّ يحيى بن عبدالله عنده ، فكتب إليه الرشيد بخطّه يعرّفه حسن موقع مافعل عنده و يعلمه فساد أمر البرامكة لديه بمافعلوا من استخيانه ، ويأمره بالبعث إليه من غير أن يعلم أحد بذلك .

و حجّ الرشيد ثمّ صدر فوافى الحيرة فأقام بها أيّاماً ، ثمّ صار إلى الأنبار في السفر ووصل يحيى بن عبدالله إليه بالأنبار ، فركب مع جعفر بن يحيى يوم الجمعة سلخ محرّم سنة سبع وثمانين ومائة إلى الصيد ، ثمّ رجع فقال لجعفر : امض فتفرّح برمك[٣] فإنّي مع الحرم اليوم .

فمضى[٤] جعفر وأخذ بيد بختيشوع الطبيب وجلس يشرب وأبوزكار الأعمى يغنّيه و نجو الرشيد و خلعه يحيى ساعة بعد ساعة[٥] ، فدعا الرشيد مسرور الخادم [و قال : اذهب][٦] فجئني برأس جعفر ولا تراجعني فيه ، فهجم مسرور على جعفر بلا إذن و أبو زكار يغنّيه :

---

(١) وقد سبق سببان آخران في الجزء الاول : ١٣٨.

(٢ و٦) زيادة من النسخة (ر) .

(٣) الرم – بضم الراء – الجماعة .

(٤) الخبر من هنا مع اختلافات في الاغاني (١١: ٥٢ و٦: ٢٠٥) .

(٥) في النسخة (ر) < ونحو الرشيد وخلعه يجيء ساعة بعد ساعة > وعلى اى لم يتضح لى معناه

فلا تبعد فكلّ فتى سيأتي　　*　　عليه الموت يطرق أو يغادي
و كلّ ذخيرة لابدّ يوماً　　*　　وإن بقيت تصير إلى نفاد
ولو فوديت من حدث المنايا　　*　　فديتك بالطريف و بالتلاد (١)

فقال جعفر لمسرور : سررتني بمجيئك وسؤتني بدخولك بلا إذن،قال : الّذي جئت له أمر عظيم ، أجب أميرالمؤمنين ، فوقع جعفر على رجله يقبّلها و يقول : دعني حتّى أدخل فأُوصي ، قال : الدخول فلا سبيل إليه ، ولكن أوص بماشئت ، فأعتق غلمانه وأوصى بما له إلى من حضره ، ثمّ حمله مسرور على دابّة من دوابّ الجند و أدخله إلى قبّة من قباب الحرس،فنا شده جعفر أن يراجع فيه وقال : إنّه حمله على هذا النبيذ . فقال مسرور : إنّ أميرالمؤمنين ماطعم اليوم شيئاً ولا شرب ، ولاُراجعه [فرجع] مسرور (٢) فلمّا سمع الرشيد حسّه قال : مسرور ؟ قال : نعم ، قال : و ما وراءك ؟ فعرّفه ماقال جعفر ، فقال : يا عاص لئن راجعتني لأُقدّ منك قبله ، فرجع إليه وقتله وجاء برأسه حتّى وضعه بين يديه على ترس وجاء ببدنه في نطع فصلب عند جسر الأنبار ، ثمّ وجّه به إلى بغداد فصلب بها .

فجرى عليهم مع نفاسة موقعهم بسبب أهل البيت . و ذكرت سابقاً سبباً اُخرى في استيصال البرامكة وهو دخوله (٣) بالعبّاسة بعد أن سبق النهي من الرشيدعن الدخول بها والله أعلم بحقائق الاُمور .

وأمّا أخوه الهادي فإنّه لمّا اُدخل عليه القاسم بن محمّد بن عبدالله الحسينيّ مع ما تفرّد به من العلم و الزهادة و الإقبال على الصلاة والعبادة واُوقف بين يديه فقال له : من أنت ؟ فانتسب له فقال الهادي : يا ابن الفاعلة لأقتلنّك قتلة ماسبقني إليها أحد ، فقال القاسم : الفاعلة أمّك الصنّاجة الّتي اشتريت بفيء المسلمين ، إيّاي تهدّد بالقتل يا ابن الصنّاجة ! فوالله لأصبرنّ لك صبراً ماصبره أحد ، قال : ثمّ أقام على كلّ عضومنشاراً فنشر عضواً عضواً حتّى أتى على آخره ، فما تأوّه ولا تحرّك حتّى مات !

---

(١) الطريف والطارف : المال المستحدث ، والتلاد والتليد والتالد خلافه .
(٢) بين المعقوفين زيادة يحتاج اليها الكلام .
(٣) بهامش الاصل : أى دخول جعفر البرمكى بالعباسة وقد سبق ذكره .

فهذا سبيل القوم الظالمين في قتل السادات الصالحين ، و أرباب الأمر و النهي و أصحاب الأمانة ، و قطعهم آثار أهل الخير ، و تعفيتهم رسوم الأمر بالمعروف .

وكان عبد الملك بن مروان أوّل من قطع ألسنة الناس عن المعروف . صعد المنبر عند ماصار الأمر إليه فقال : ما أنا والله بالخليفة المستضعف ـ يعني عثمان ـ ولا الخليفة المصانع ـ يعني معاوية ـ وإنّكم لتأمروننا بأشياء تنسونها من أنفسكم ، والله ما يأمرني أحد بعد مقامي بالمعروف إلّا رويت ذبابة سيفي من عنقه .

ولقد تصدّى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جماعة من العلماء الأخيار والفضلاء الأبرار و أُوذوا بسبب ذلك أذى عظيماً و منهم من قتل و منهم من طرد ومنهم من أُيّد من الله بالنصر .

فالّذين أُيّدوا بالنصر فقهاؤنا الإماميّة رضوان الله عليهم مثل الشيخ الفاضل نصير الدين الطوسي والشيخ الأجلّ الشيخ محمّد بن الحسن الطوسي والسيّد الجليل السيّد المرتضى علم الهدى وغيرهم من الفضلاء الأعلام .

وأمّا علماء العامّة فقد خرج منهم أبو حنيفة[1] ومذهبه مشهور في قتال الظلمة والخروج على حكّام الجور مذكور في التواريخ حتّى قال الأوزاعيّ : احتملنا أبا حنيفة في كلّ شيء حتّى جاءنا بالسيف فلم نحتمله .

وجاء إبراهيم الصائغ وكان من فقهاء خراسان ونسّاكها فسأله عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فحدّثه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : « أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطّلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتل » فرجع إبراهيم إلى مرو وقام إلى أبي مسلم صاحب الدولة وأمره ونهاه، وأنكر ظلمه وسفكه الدّماء ، فاحتمله مراراً ثمّ قتله .

ولعمري إنّ أبا حنيفة قد شارك أبا مسلم في قتل إبراهيم ، و كم من قتيل قتل بفتواه وأمره كما أمر النّاس بالحجّ من دون استطاعة ونفقه ، حتّى أنّه أهلك كلّ عام جمّاً غفيراً في طريق مكّة بالجوع والعطش ، ولم ينظر إلى قوله تعالى[2] : « ولا تلقوا

(١) انظر الوفيات (٥ : ٣٩) وتاريخ الخطيب . (٢) سورة البقرة : ١٩٥ .

بأيديكم إلى التهلكة » .

وإنّما يجوز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند عدم الضرر على النفس والمال إذا غلب على ظنّه السلامة ، و أمّا إذا غلب على ظنّه العطب وعدم القبول فلايجوز شرعاً ولا عرفاً ، لأنّ حفظ النفس واجب . والإنكار على ثلاثة أقسام : إمّا باليد وإمّا باللسان و إمّا بالقلب . والإنكار القلبيّ أن يكرهه في قلبه ويقول : « اللّهم إنّ هذا منكر لاأستطيع ردّه » وهذا أضعف الإيمان .

وإنّما جعلت بنو العبّاس أبا حنيفة إماماً لكي يطفئوا أنوار النبوّة ، ويستأصلوا آثار بيت الرسالة ، ومعدن الوحي وخزّان العلم ، والأئمّة المعصومين عليهم السلام . لأنّ أبا حنيفة كان معاصراً للإمام الهمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام ، ولم يكن تقديمهم له والأمر باتّباعه محبّة منهم له ، وإنّما هو بغضاً وعداوة للصادق عليه السلام .

و الدليل على عدم محبّتهم لأبي حنيفة و بغضهم له أنّ المنصور كان يتجسّس على عثراته ، ويلتمس اغتياله ، لما كان من أمره وإنكاره سيرته ، فدعا إليه رجلاً خاصّة من خواصّه وقال لأصحابه : الساعة أشفيكم من هذا الشيخ فدنا منه ، فقال : ماتقول أيّها الإمام فيمن يأمرنا بسفك الدماء وبإباحة الحرم أنطيعه في ذلك أم نعصيه ؟ فأطرق أبوحنيفة ثمّ أقبل عليه فقال : هذا الّذي يأمركم أيأمركم بما فيه طاعة الله أو بما فيه معصية الله ؟ فأطرق الرجل ثمّ أقبل عليه فقال : بلى بما فيه طاعة الله فقال أبو حنيفة : فأطع من أطاع الله فانصرف الرجل ، ثمّ قال أبوحنيفة لأصحابه : إنّ هذا أراد أن يوثقنا فأوثقناه ، إذا وردت عليكم معضلة فاجعلوا جوابها منها .

و دسّ المنصور جارية بربريّة فقالت : عندي مال في سبيل الله فأضعه فيمن ؟ فأشار [1] عليها بابني [الحسن بن][2] الحسن عليه السلام محمّد وعبدالله فكان ذلك سبب حبسه .

وقصّته في زيد بن عليّ عليه السلام مشهورة في حمله المال إليه وفتياه الناس سراً في وجوب نصرته والقتال معه هذا ماروته العامّة .

---

(١) أى أشار أبوحنيفة .

(٢) زيادة منا ليست فى الاصلين .

وأمّا ماروته الخاصّة من هذا القبيل عن أبي حنيفة فمشهور لاحاجة لذكره ، غير أنّه اخترع مذهباً و دعا الناس إليه ، وأحبّ أن يكون من المشار إليهم ، والمطاع أمرهم وقد كان أدرك ما أحبّه بمعونة العباسيّين له . وعلى هذا جرى الأمر في إماتة الحقّ و إبعاده ، وإظهار الباطل بفساده إلى أنّ تأخّر الزمان بأهله ، وماتت سنّة المعروف والأمر به ، وأكبّت الديانة على أُمّ رأسها ، وقلعت من أصلها وأساسها .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا * أنيس ، ولم يسمر بمكّة سامر

ولقد انعكست الأُمور عن جهة صوابها ، واصطفّت أقدام الفضلاء على أبواب الملوك ومالت أنفس النسّاك و أهل السلوك إلى محبّة الجاه والشهوات ، واصطنعوا على المداهنة والملاينة بالألسن ، وأصغوا آذانهم للمداجاة[1] والمداراة ، ولم يمكنهم سوى ذلك وإظهار الحقّ في زمن الجور يورد فاعله المهالك .

فثبت بما ذكرنا أنّ المتغلّب على الأمر ليس من الأمر في شيء و أنّ المستحقّ له بحسن سيرته و صلاح سريرته ونسكه وفضيلته وورعه وزهادته وعفّته هو الواجب على الناس أن تعطيه صفقة أيمانهم بالمبايعة وخالصة قلوبهم بالمحبّة والمتابعة وأن يأخذوا عنه دينهم بل دنيا هم مع حظوظها ، وآخرتهم وفروضها .

و الّذي يبيّن ذلك أيضاً هو أنّ الشرير يضادّ الناسك بالذات ويضادّ المالك بالمعاصي وقبح الصفات ، فإنّ غرض الشرير في ذاته استفساد أمر الخليقة بأقصى طاقته الحيوانيّة ، وغرض الناسك الحكيم والفاضل العليم استصلاح الخليقة بأقصى طاقته الملكيّة ، والمتغلّب بالباطل يضادّ الناسك العاقل ، فإنّ غرض المتغلّب بالباطل تحصيل الخيرات العاجلة لخاصّة نفسه نحو المال واللذّة والصيت والكرامة ، وغرض الناسك تحصيل الخيرات العاجلة والآجلة لأهل دينه وملّته ، والناسك إذا لم يكن صادقاً في نسكه شديد الميل إلى خال الشرير الفاتك في الاستعلاء وحبّ الجاه والكبرياء في الأرض ، والتسلّط باللّسان ، والتجبّر على العوامّ ، والتكبّر على الأنام ، و الانقياد للطمع ، و الانهماك في الهلع ، مائلاً بوجهه إلى خبث الدّنيا ، لاهياً عن موته وبلاه ، ناسياً مبتداه و منتهاه كما

(١) داجاه : داراه وساره العداوة . وقد سبق .

روي عن النبيّ ﷺ انّه قال «بئس العبد عبد تجرّأ و اعتدى ، و نسي الجبّار الأعلى بئس العبد سها ولها ، ونسي المبتدء والمنتهى ، بئس العبد عبد بغي و عتا ، ونسى المقابر و البلى ، بئس العبد عبد ينزله الرغب عن الحقّ ، بئس العبد عبد طمع يقوده ، بئس العبد عبد هوى يضلّه » .

قال محمّد بن عليّ الحكيم : إنّ البغي طلب العلوّ ، فهو باغ للمنازل الرفيعة يحبّ أن ينفرد بها ، و لهذا أنشفت حرارة شهوته رطوبة قلبه ، وما ركّب فيه من الرأفة والبرّ والرفق والسخاء و محاسن الأخلاق ، فهذا قلب عاس [1] عات قد انتزع منه ماء الرحمة ، و صاحبه متكبّر متجبّر ، و من ذلك طلب العتوّ و من عتا ونسي الموت و البلى يختلس الدنيا بالدين ، فيتضّع ويداهن ولا يبالي بما يعرض له في العاجل من النهمة ، متى ينالها لبعد قلبه عن الآخرة ، ولذلك صيّر معالم الإيمان شبكة لحطام الدنيا ، يظهر الخشوع بالتماوت كي يحظى عند أهل الدنيا و ينال مناه و شهوته ، و يتحازن عند لقاء الخلق ، ويتنفّس الصعداء كأنّه يهتمّ لدينه ، ويتحسّر على إدبار أمره وتضييع وقته ، وإنّما هو أسف منه على ما يفوته من الدنيا . يمتنع من قبول الشيء اليسير ليكون في هيئة الزاهدين ، ولا يقبل ما آتاه من مال الله على يد السلاطين ، يخاف إن قبله أن ينكسر جاهه ورياسته ، لتقبل عليه الوجوه و يميل إليه أهل الدنيا ، و يظهر العبادة ليكرم ، و الزهادة ليؤتمن والانقباض ليهاب ، و الشدّة على أهل الريبة ليشار إليه بالأصابع ، وليحكم في الناس بحكم الملوك ، وإذا وجد غرّة في مال استلبها ، وفرصة في وديعة ينتهزها ، وقع [2] في فريسته منها بأقوى حرص وأشدّ أخذ . كلّ ذلك لاغتنام الدنيا و افتراصها . و نصب الحبائل لاقتناصها ، فيفسد و يُفسد ويهلك و يُهلك ، عبد الدنيا و طوع الشيطان .

أظهروا للناس ديناً * و على الدينار داروا
و له صلّوا وصاموا * و له حجّوا و زاروا
إن يكن فوق الثريّا * و لهم ريش أطاروا

وذكر المسيّب بن واضح قال : كنت مع عبد الله بن المبارك في طريق الروم فقال لي:

(١) العاسي : الغليظ الصلب من عسا يعسو . (٢) جواب « اذا » .

يا مسبّب ! ماجاء فساد العامّة إلّا من قبل الخاصّة ، قلت : ولمَ يا عبد الرحمن ؟ قال : لأنّ خاصّ محمد ﷺ خمس طبقات : العلماء والزّهاد و التجّار و الغزاة و الولاة ، فأمّا العلماء فهم ورثة الأنبياء ، وأمّا الزهّاد فأوتاد الأرض ، وأمّا الغزاة فجندالله في أرضه ،و أمّا التجّار فأُمناء الله في خلقه ، وأمّا الولاة فهم الرعاة الحماة . فإذا كان العالم للدين واضعاً وللمال رافعاً فمن يقتدي الخليل ؟ و إذا كان الزاهد في الدنيا راغباً و للراحة طالباً فبمن يقتدي التائب ؟ وإذاكان الغازي طامعاً في الغنيمة مرائياً في الجهاد فمتى يتمّ الظفر ؟ وإذا كان التاجر خائناً كاذباً فعلى من يعتمد المؤتمن ، و إذا كان الراعي ذئباً فمن للرعيّة ؟ والله المستعان .

وحدّث الصاحب عن عبدالله بن محمد عن عبدالله بن الحسن عن سهل بن محمد عن عبد الرحمن بن المثنّى قال : خطب عبدالملك فلمّا بلغ العظة قام إليه رجل من آل صوحان فقال : مهلاً مهلاً ! تأمرون ولا تأتمرون ، و تعظون ولا تتّعظون ، أفنقتدي بسيرتكم في أنفسكم أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فإن قلتم : اقتدوا بسيرتنا فأنّى و كيف ؟ وماالحجّة وما النصير من الله بالاقتداء بسيرة الظلمة الفسقة الجورة الّذين اتّخذوا مال الله دولاً وعبيداً الله خولاً ؟ فإن قلتم : اقبلوا نصيحتنا وأطيعوا أمرنا ، فكيف ينصح لغيره من يغشّ نفسه ؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عندالله عدالته ؟ و إن قلتم : خذوا الحكمة من حيث وجدتموها واقبلوا العظة ممّن سمعتموها ، فعلامَ ولّيناكم أمرنا و حكّمناكم في دمائنا و أموالنا ؟ أما علمتم أنّ فينا من هو أنطق منكم باللغات و أفصح بالعظات ؟ فتخلّوا عنها أوّلاً ، فأطلقوا عقالها وخلّوا سبيلها يتبدر إليها آل رسول الله (ﷺ) الّذين شرّدتموهم في البلاد وفرّقتموهم في كلّ واد ، بل ثبت في أيديكم لا نقضاء المدّة و بلوغ المهلة وعظم المحنة ، إنّ لكلّ قائم قدماً لايعدوه ، ويوماً لايخطوه ،و كتاباً بعده يتلوه ، لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها ، وسيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون .

قال : ثمّ أملس[1] الرجل فطلب فلم يوجد .

ومن كلام بعض الأكابر : ظهر الجفاء وقلّت العلماء ، وعفت السنّة و شاعت البدعة

(١) اى اختلط مع الناس .

لقد صحبت أقواماً صحبتهم قرّة العين وجلاء الصدور ، ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أن تردّ عليهم أشفق منكم من سيّئاتكم أن تعذّبوا عليها ، وكانوا فيما أحلّ الله لهم ومن الدنيا أزهد منكم فيما حرّم عليكم منها ، أسمع حسيساً ولا أرى أنيساً ، ذهب الناس و بقيت في النسناس [١] ، لوتكاشفتم ماتدافنتم ، تهاديتم الإطباق ولم تتهادوا النصائح ، إنّ هذا الحقّ قد أجهد أهله وما يصبر عليه إلّا من عرف فضله .

ويحكى [٢] أنّ عبدالله بن الأهتمّ دخل على عمر بن عبدالعزيز مع العامّة فلم يشعر عمر إلّا وهو ماثل بين يديه ، فتكلّم فحمدالله وأثنى عليه ، قال :

أمّا بعد فإنّ الله خلق الخلق غنيّاً عن إطاعتهم آمناً لمعصيتهم ، والناس يومئذ في المنازل والرأي مختلفون ، فالعرب بشرّ تلك المنازل ، يختار [٣] دونهم طيّبات الدنيا ورفاهة عيشها ، ميّتهم في النار وحيّهم في العنا . فلمّا أراد الله أن ينشر عليهم رحمة بعث إليهم رسولاً من أنفسهم عزيزاً عليه ما عنتوا حريصاً عليهم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فلم يمنعهم ذلك أن جرحوه في جسمه ولقّبوه في اسمه ، ومعه كتاب من الله ناطق ، لايرحل إلّا بأمره ولا يأذن إلّا بإذنه ، فاضطرّوه إلى بطن غار فلمّا أُمر بالغربة انبسط لأمر الله لونه فأفلج الله حجّته وأعلى كلمته [٤] ثمّ إنّا والله بعده ما اجتمعنا إلّا على ظلّع [٥] ثمّ إنّك يا عمر ابن الدنيا ولدتك ملوكها وألقمتك ثديها ، فلمّا وليتها ألفيتها حيث ألقاها الله فالحمدلله الّذي جلابك حوبتنا [٦] وكشف بك كربتنا . إمض فلا تلتفت فإنّه لايعزّ على الخلق شيء .

فانظر أيّها المتأمّل إلى هذين الخليفتين و إلى الفرق بينهما مع أنّ كلاًّ منهما متأصّل من هذه الشجرة الخبيثة ، فالسابق ذكره وهو عبدالملك لم تكن سيرته مرضيّة

---

(١) بفتح النون دابة وهمية يزعمون أنها على شكل الانسان .

(٢) الحكاية فى البيان والتبيين (٢:١١٧-١٢٠) وفيه : عبدالله بن عبدالله بن الاهتم، وهو الصواب

(٣) فى الاصلين « يختار أدونهم » وصوب مصحح البيان والتبيين « يحتاز ددنهم » .

(٤) سقط هنا مقاله فى أبى بكر وعمر واطرائه لهما .

(٥) جمع الظالع ، وهو من الظلع بمعنى الغمز فى المشى و العرج . أراد بهم الخلفاء الذين كانوا قبل ابن عبد العزيز ، قال الجاحظ : « ولما أن قال : ثم انا والله ما أجتمعنا بعد هما الاعلى ظلع ، سكت الناس كلهم الاهشاماً فانه قال له : كذبت » .

(٦) بفتح الحاء وضمها الحزن والوحشة .

ولاسريرته على التقوى مبنيّة ، و الدليل عليه ماخاطبه به الرجل المنسوب إلى آل صوحان.

وأمّا عمر بن عبدالعزيز فإنّه سلك مع الناس بضدّ ماسلكه غيره من بني اُميّة ، ولهذا حسن ذكره ومالت القلوب إليه ، وإن كان مغضوباً عليه حيث إنّه منهم . والحقّ أنّ أفعاله أكثرها كانت حسنة ، ولولم يكن منه إلاّ نهيه أقاربه وأتباعه عن بغض أمير المؤمنين والوقع فيه لكفى ذلك منقبة له .

وفي كلام بعض الأكابر من قول بعض الحكماء المتأخّرين في أفاضل عصره : نسأل الله التوفيق لصيانة النفس عمّا انهمك فيه ظرفاء زماننا ، فإنّا نجدهم قد تعلّموا شيئاً من العربيّة و اجتهدوا قليلاً في تجويد الخطّ ، وحفظوا طرفاً من مهاجي الأخطل و جرير وشيئاً من خمريّات الحسن بن هانىء [١] ثمّ اعتكفوا على كتاب كليلة و كتاب سندباد و هزار أفسان و كتاب شاناق الهنديّ ، ثمّ اتّخذوا لأشباههم دراريع [٢] عريضة ، و نصبوا على رؤوسهم عمائم برّاقة ووسّعوا أكمامهم ، وعرّضوا زنانيرهم [٣] واتّخذوا للخنصرين جميعاً خواتيم حسنة ، و ركّبوا فيها فصوصاً مؤنقة ، ثمّ خالطوا السلاطين و الطغاة و جعلوا اللمز دينهم والهمز مذهبهم بالاستخفاف بأحكام الشريعة شعارهم ، وحصروا قصار هممهم في الإصابة من المال والاختطاف من السحت الحرام ، فتراه يجلس ولعلّه في بقيّة خماره ، مدهوش رأسه بسكره ، ووزّع خاطره في برده ، و يبسط الدعوى بسطاً فيما لم يعلمه رأساً ، ولم يصرفه الفهم إليه أصلاً ، ويتحكّم على الديانة بالتناقض ويسمها بسمة التدافع ، و يقضي بأنّ العقل ينافي هذا و الحكمة لا تقتضي هذا ، كاف جهله بالشيء عيار العقل و ميزان الحكمة ، ولا والله بل كأنّ الله قدخذل عقله ومسخ روحه . ولوأنّ واحداً من عرض الدنيا من معرفة كتاب من الهندسة أو طرفاً من علم الأوائل أو أصلاً من اُصول النحو لاحتاج فيه إلى مدّة مديدة وجهد صادق وقلب فارغ واُستاد حاذق ، و كتاب الله الّذي هو خزانة العلم و كهف كلّ بيان ومعدن كلّ حكمة ومستودع كلّ فائدة أبعد من أن يتأتّى له كلّ

(١) هوأبونواس الشاعر ، المعروفة خمرياته .

(٢) جمع الدراعة بضم الدال وتشديد الراء : جبة مشقوقة المقدم .

(٣) جمع الزنار : ما يشد على الوسط .

بيان عفواً ، وينقاد له مافي ضمنه سمحاً ، فمتى كلّمته في ذلك هزىء و سخر متمادياً في العمه ، صاحب الذيل والعيّ ، لادين له يزجره ، ولاحياء يمنعه ، ولا نفس تعظه ، ولا مروءة تصونه ، يغوي ويستغوي ، ضالاً مضلاً ، فما الذئاب الضارية والسائمة المهملة بأجفى من غفلة المدخول على نفسه الجاهلة . نسأل الله العصمة ونعوذ من الخذلان .

أقول : نعتصم بالله سبحانه ونلجأ إليه بأن يوفّقنا لفعل الخيرات ، و أن يكفّ أكفّنا وأنفسنا عن الشرور والسيّئات ، ونحمده حمداً تهبّ رياح الثناء جنوباً و شمالاً ، و يطلع رايات القبول والجزاء يميناً وشمالاً ، حمداً يشفع الشكر بالثناء

ويجمع بيننا و بين النعماء ، ويختم لنا بعمل الخير

ويجنّبنا فعل الشرّ وارتكاب الضير .

﴿ فصل ٧ ﴾

✡(يشتمل على ما فى الانفس من الخير و الشر ، و سبب قضائهما)✡
✡(فى العالم مع التمكين من تحلية النفس بالخيرات و تخليتها)✡
✡(عن الشرور والسيئات)✡

فلنذكر الآن من المعالم الواضحة بين الخير والشرّ :

اعلم أنّ ماتفرّدباستحسانه العقل الراجح من غيره فهوالخير ، وما تفرّد باستقباحه من غيره فهو الشرّ ، والتقييد بالغير لما أنّ الإنسان يعمى عن العيب في نفسه وإن بالغ في الإبصار والتفكر ، وجدّ في البحث و التفتيش ، بسبب الشهوة والغضب و مغالطتهاالمرء في أفعاله ، حتّى قال بعض الحكماء : ما من إنسان إلاّ ومعه مخلاتان [١]ففي المعلّقة أمامه عيوب غيره ، فهي نصب عينه ، وفي المعلّقة خلفه عيوبه فهي غائبة عن بصره . و قيل : المرء أعمى عن عيب نفسه أحول في عيب غيره [٢] ، ولا يبصر الجذع المعترض في عينه ، وهو كالعين ترى غيرها ولا ترى نفسها . ألا ترى أنّ عين المحبّ عمياء عن عيب محبوبه ، وأُذن العاشق صمّاء عن مذمّة معشوقه فأولى لها أن تعمى وتصمّ عن عيوبها ، إذ لن [٣] يحبّ الإنسان أبداً أحداً فوق حبّه نفسه . ومحبّة النفس لازمة إيّاه غير زائلة عنه ، خصوصاً أمثالنا من أبناء زماننا ، فلورأى أفعالنا غيرنا من العقلاء الّذين انقرضوا لأعلمنا بأنّا قد جعلنا الخير شرّاً والشرّ خيراً ، والحسن قبيحاً و القبيح حسناً ، و لهذا خرجنا عن نوع الإنسانيّة ودخلنا في الطبيعة الحيوانيّة من غير جبر [٤] كما هومذهب العامّة .

ولا حاجة لنا إلى الإطالة و أنفسنا مجبولة على حبّها لها لامحالة .

---

(١) مايجعل فيه العلف ويعلق فى عنق الدابه .
(٢) أى يرى العيب الواحد عيبين .
(٣) فى الاصلين « إذاً لايحب » .
(٤) فى النسخة (ر) من غير خبر .

وأمّا حبّها لغيرها فهو لأسباب تحول ولا تثبت بل تزول ، و ينبغي للعالم بطرق الخير و الشرّ في هذا الباب أن لا يعامل غيره من الناس إلاّ بما يرضى أن يعامل به من فعل أوترك .

ولقد وجدت اُناساً من الحمقاء يفعلون الشرّ المحض بغيرهم ، و يرجون الخير الخالص من المظلومين ، فإذا ضربوا من هودونهم في الفقر والمسكنة رجوا منه الصبر على ذلك الضرب والأذى ، بل يتوقّعون من ذلك المسكين الّذي قد أغناه الله عنهم وعن أكبر منهم تقبيل أيديهم والشفقة عليهم ، فإذا صبر جعلوه صوفيّاً خارجيّاً ، وإن لم يصبرو كلّمهم بكلمة تسؤهم صار بزعمهم ناصبيّاً ، و كذلك إذا هجوا من لا يستحقّ الهجو رجوامنه المدح والثناء ، وهذا دليل على الحمق المفرط .

بل ينبغي أن يعرض على نفسه ما يصدر منه في حقّ غيره صادراً عن غيره في حقّه ، فعند ذلك يرتدع عن الشرّ و إرادته ويقبل على الخير وإفاضته ، ولا شكّ أنّ كلّ أحد إنّما يعامَل بمثل ما يعامل ، قال الله تعالى : [1] « هل تجزون إلاّ بما كنتم تعملون » فإذا خطر هذا بباله اقتنى الخير ويجتنب الشرّ . ولو أنّه همّ بالإقدام على القتل فإذا عرض له القصاص أمسك عنه فيكون ذلك بقاء له ولمن قصد قتله ، فيكون القصاص حياة كما قال تعالى [2] : «ولكم في القصاص حياة » وفي الحديث : « بالمكيال الّذي تكيلون يكال لكم وتزادون » .

وحضر الحسن البصريّ بعض الاُمراء فرآه يتجاوز حدّ المبلغ المحدود فيها فنهاه فلم ينته ، فقال : أمّا أنت فلا تضرب إلّا نفسك ، فإن شئت فقلّل و إن شئت فكثّر .

وفي أمثال الفرس : ضع يدك على قلبك فما لم ترضه لنفسك فلا تفعله بغيرك . وفيه يقول أبوسليم الخطّابيّ :

إرض للناس جميعاً　　*　　منك ماترضى لنفسك
إنّما الناس جميعاً　　*　　كلّهم أبناء جنسك

---

(١) سورة يونس : ٥٢ .
(٢) سورة البقرة : ١٧٩

عير عدل أن ترجّى * وحشة الناس لأُنسك
و لهم نفس كنفسك * ولهم حسّ كحسّك

وفي منظوم الفرس :

چنان دار ز آزار دلرا نگاه * كه موری نيازارد از تو براه
ميين آنكه موراست وناول كش است * بدان بين كه جان دارد وجان خوشست
ز دل بانگ همداستاني كني * كه جان داری و جان ستاني كني
مبر دل بجان دادن اين و آن * كه هريك چوتو دوست دارند جان

وقيل في معرفة الخير : إنّه المطلوب المرغوب فيه لذاته لالغيره ، وعلى العكس منه الشرّ ، فإنّه ربّما كان عرضاً يتبع الخير غيرمقصود إليه ، وإن وقع ذلك بالتقدير الإلهيّ والحكم السماويّ ، فيكون وجود الشرّ ضرورة حصول الخير ، فإنّ الأشياء لو لم تكن بحيث تتضادّ لم يمكن أن يكون عنها هذه الأنواع الشريفة ، و ذلك مثلاً كإحراق النار ثوب فقير لايملك غيره ، إذ كان لا يمكن في مصادمة الأجسام من تأثير بعضها في بعض ، ولا تتمّ المنافع الّتي أودعها الله في النار إلّا بإحراقها ثوب هذا البائس الفقير ، فتكون الإضاءة و الإنضاج و الإصلاء و التمييز بين الجواهر ، هذه المنافع الأربعة من خصائص النار خيرات في العالم مقصودة من النار ، ومثل الحريق بها في دار و التدخين في بيت لمتاع من الشرّيّة العارضة الغيرالمقصودة . والغيث الّذي هو رحمةالله و بركته وحياة الأرض ومن عليها لايخلو عن [ضرر ، فـ]الغيث[1] قد يتأذّى به في السفر ، ويتداعى له البنيان و يحبس الناس في منازلهم عن حوائجهم ، و كذلك الرياح يرسله الله بشراً بين رحمته و هي الراحة ويسمّيها مادّة الحياة وفي الحديث[2] : «إنّها نفس الله» أي تحيي النفوس وتنفّس عن المكروب .

أيا جبلي نعمان بالله خلّيا * نسيم الصبا يخلص إليّ هبوبها[3]
فإنّ الصبا ريح إذا ماتنفّست * على كبدي يوماً تجلّت كروبها

(١) بين المعقوفين من الاصل . (٢) انظر اللسان مادة (روح) .
(٣) البيتان لمجنون بنى عامر فى شرح شواهد المغنى : ٢٢ وهما من قصيدة ميمية ، و صواب آخر البيت الاول « نسيمها » والثانى « همومها » .

وقد تضرّ في بعض الأحوال برّاً وبحراً و يقع على بعض الوجوه شرّاً .

وجبلّة هذا العالم على امتزاج الخير والشرّ والنفع والضرّ والغنى والفقر وايتلاف أحوال أهلها باختلافها في السرّاء و الضرّاء والشدّة والرخاء والآلاء والآواء ، وأمّا الخير الصرف غير الممزوج والنفع الخالص المطلق غير المحصور في غير هذه الدار ، جمع الله بيننا وبين إخواننا في تلك الدار دار كرامته ، كما جمع بيننا على أصفى المحبّة في دار محنته ، من أخلاّء الآخرة المتّقين الدائمين على الخلّة الباقين .

قال بعض الخطباء في امتزاج الخير والشرّ في هذه الدار : إنّ نعيم الدّنيا مشوب بالبأساء و نفعها ممزوج بالضرّاء ، و سرورها موصول الحبال بالأحزان وحبورها مقرون العقال بالأشجان ، ولذّتها مكنوفة بالآلام وصحّتها محفوفة بالأسقام ، وراحتها منوطة بالتعب ودعتها مخلوطة بالتعب وبالنصب ، وغناها رهين بالفقر والقلّة وعزّها ضمين للهوان والذلّة ، وأهلها لا أشقياء ولا ناعمون ولا أعلاّء ولا سالمون ، دائبون وإن سكنوا وجلون و إن أمنوا ، راحلون وإن نزلوا ظاعنون وإن سكنوا :

جمعوا وما أكلوا الّذي جمعوا * وبنوا مساكنهم فما سكنوا
و كأنّهم كانوا بها ظعناً * لمّا استراحوا ساعة ظعنوا

ولعمرو بن بحر[1] فصل مفيد في الخير والشرّ ، قال أحد العلماء وأوحد البلغاء : إنّ المصلحة في ابتداء أمر الدنيا الى انتهاء مدّتها امتزاج الخير والشرّ ، والضارّ بالنافع ، والمكروه بالمحبوب ، و الضعة بالرفعة ، والكثرة بالقلّة ، والغنى بالفقر والفاقة ، والحسن بالقبيح ولو كان الشرّ صرفاً هلك الخلق ، و لو كان الخير محضاً سقطت المحنة وتقطّعت أسباب الفكرة ، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة ، ومتى بطل التخيير وذهب التمييز ولم يكن للعلم ثبت وتوقّف وتعلّم لم يكن علم ولم يعرف باب النبيّين ، ولا دفع مضرّة ، ولا اجتلاب منفعة ، ولا صبر على المكروه ، ولا شكر ولا محبوب ، ولا تفاضل في بيان ولا تنافس في درجة ، وبطلت فرحة الظفر وعزّ الغلبة ، ولم يكن على ظهرها محقّ يجد عزّ الحقّ ومبطل يجد ذلّ الباطل ، ومؤمن يجد برد النفس وشاكر يجد نقض الحيرة و كرب

(١) هو أبو عثمان الجاحظ . وذكر هذا الفصل بتفصيل في كتابه الحيوان (١ : ٢٠٤-٢١١) .

الوجوه ، ولم يكن للنفس آمال ولم تتشعّثها الأطماع ، ومن لم يعرف كيف الطمع لم يعرف اليأس ومن جهل اليأس جهل الأمن وعادت الحال من الملائكة الّذين [هم][1] صفوة الخلق و من الإنس الّذين فيهم الأنبياء والأولياء إلى حال السبع والبهم في الغباوة والبلادة ، وإلى حال النجوم[2] في السحرة [3] ، فإنّما أنقص من حال البهائم في الرفعة ، و من ذا الّذي يسرّه أن يكون الشمس أو القمر أو النار أو الثلج أو برجاً من البروج أو قطعة من الغيم ، أو يكون المجرّة [4] بأسرها أو مكيالاً من الماء أو مقداراً من الهواء ؟

ولو كان الأمر على ما يشتهيه الغرّ والجاهل بعواقب الأمور لبطل النظر ، ولتعطّلت الأرواح من معانيها ، والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياء حقوقها .

فسبحان من جعل منافعها هنيئة ومضارّها ترجع إلى أعظم المنافع و قسماً بين ملذّ ومؤلم ، وبين مونس وموحش ، وبين صغير حقير وجليل كبير ، ومن عدوّ يرصدك ، ومن عقل يحرسك ومن مسالم يمنعك ، ومن معين يعضدك ، وجعل في الجميع تمام المصلحة وباجتماعها تتمّ النعمة وفي نقصان واحد منها بطلان الجميع قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً لأنّ الجميع إنّما هو واحد وواحد ضمّ إليهما أشباههما ، ولأنّ الكلّ أبعاض ، و كلّ جملة فمن أجزاء فإذا جوّزت رفع واحد و الآخر مثله في الوزن وله مثل علّته وحظّه ونصيبه فقد جوّزت رفع الجميع ؛ لأنّه ليس الأوّل بأحقّ من الثاني في الوقت الّذي جوّزت فيه إبطال الأوّل ، و كذلك الثالث والرابع حتّى يأتي على الكلّ ويستفرغ الجميع .

ألا ترى أنّه ليس الجبل بأذلّ على الله من الحصاة وليس الطاوس المستحسن بأذلّ على الله من الخنزير المستقبح ، وأظنّك ممّن يرى أنّ الطاوس أكرم على الله من الغراب وأنّ الدرّاج أعزّ عليه من الحدأة [5] ، و أنّ الغزال أحبّ إليه من الذئب ، وإنّما هذه

---

(١) زيادة من النسخة (ر) .

(٢) جمع النجم : النبات الذى لاساق له .

(٣) اى الصحراء . هامش الاصلين .

(٤) منطقة فى السماء قوامها نجوم كثيرة لا يميزها البصر فيراها كبقعة بيضاء . وهى بالفارسية « كهكشان » .

(٥) بكسر الحاء وفتح الدال ، طائر من الجوارح .

أُمور فرقها في عيون الناس ، وميزها في طبائع العباد ، فلاتذهب إلى ماتريك العين وإذهب إلى ما يريك القلب ، ولا تنظر بعين الاستحسان في وجه الإنسان المخصوص بحسنه و هيئة شكله هذا النوع من الخلق ،من الجهة الّتي ينظر بها إلى استقباح سوءاته ، والجمع في الحاجة إليه والانتفاع به ، وخلق البعض لإدخال الغذاء حياة للشخص،والبعض لإخراج الفضلات دفعاً للأذى وطلباً للبقاء ،على حدّ واحد وفي نصاب غير مختلف . وللأُمور حكمان: حكم ظاهر للحواسّ وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجّة . قد علمنا أنّ خزنة النار من الملائكة ليسوا بدون خزنة الجنّة ، وأنّ ملك الموت ليس بدون ملك السحاب ، و إن أتانا بالغيث وجلب الحياء[1] وإنّما الاختلاف في المطيع والعاصي في طبقات ذلك ومواضعه لا في الخير و الشرّ من حيث تقديره والتمكين منه ، وقد قال الله عزّ و جلّ [2] : « ولو أنّ مافي الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله » .

والكلمة في هذه الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلّف من الحروف، وإنّما يريد النعم و الأعاجيب والصفات وما أشبه ذلك،فإنّ كلاً من هذه الفنون لو وقف عليه رجل رقيق اللسان صافي الذهن صحيح الفكر تامّ الإرادة لما برح أن تحسره[3] المعاني ويغمره الفكر[4] .

وإلى هذه المعاني يرجع تأويل جوابه سبحانه و تعالى للملائكة عند ذكرهم بني آدم بما أبصروه في اللوح من الشرور و الفساد في الأرض وسفك الدماء ، وأنّهم سالمون مبرّءون منها منقلبون على تسبيح الله و تقديسه يقول [5]: « إنّي أعلم مالا تعلمون » من أنّ فيهم الأنبياء مع ذلك و العلماء والصالحون[6] الأتقياء . وأنّ صلاح الجميع واستقامة

---

(١) الحياء : الخصب والمطر . وفي الاصلين : « الحياة » .

(٢) سورة لقمان : ٢٧ .

(٣) حسره : ساقه حتى أعياه . و في الاصلين « أن يحسن المعاني ويعمر الفكر » وما اثبتناه من الحيوان .

(٤) هنا ينتهي ما نقله عن الجاحظ بتغيير وتصحيف .

(٥) سورة البقرة : ٣٠.

(٦) الصواب : والصالحين .

تدبير العالم في أن يكون فيهم الأشقياء الكفّار والمفسدون الأشرار على ماذكرناه .

وكان [١] المأمون قد حمل الحكيم النصراني المرتدّ من خراسان إلى العراق فدعا به فقال : لأن أستجيبك بحقّ أحب إليّ أن أقتلك بحقّ ، و لأن أقتلك بالبراءة أحبّ إليّ من أن أدفعك بالتهمة ، وقد كنت مسلماً بعد أن كنت نصرانياً فاستوحشت ممّا كنت به آنساً ، ثمّ لم تلبث أن رجعت عنّا نافراً ، فخبّرنا عن الشيء الّذي أوحشك [٢] [فإن وجدت عندنا دواء دائك كنت قد أعذرت ، ولم ترجع على نفسك بلائمة ، و إن قتلناك فبحكم الشريعة وترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار و الثقة ، و تعلم أنّك لم تقصّر في اجتهاد ولم تفرّط في الدخول في باب الحزم .

فقال المرتدّ : أوحشني مارأيت من كثرة الخلاف في دينكم ، فكيف أهتدي بكم في تضليل بعضكم لبعض ؟

قال المأمون : لنا اختلافان :

أحدهما كالاختلاف في الأذان و تكبير الجنائز و الاختلاف في التشهّد و صلاة الأعياد و تكبير التشريق ووجوه القراءات ووجوه الأحكام في الفتاوي وما أشبه ذلك ، و هذا ليس اختلافاً ؛ إنّما هو تخيير و توسعة و تخفيف من المحنة ، فمن أذّن مثنىً و أقام مثنى لم يؤثم ، ومن أقام فرادى لم نتبرّء منه ، و الفرق المختلفة في الأحكام باجتهادهم لا يتعايرون ولا يتعاقبون ، يُرى ذلك عياناً ويشهد عليه بياناً .

والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا ، و تأويل الأحاديث عن نبيّنا مع إجماعنا على أصل التنزيل و اتّفاقنا على عين الخبر ، فإن كان الّذي أوحشك هذا حتّى أنكرت كتابنا فقد ينبغي أن يكون اللّفظ بجميع التوراة و الإنجيل متّفقاً على تأويله كالاتّفاق على تنزيله ، و ينبغي أن لا يكون في ملّة ممّا اختلاف في شيء من التأويلات ، وينبغي ألّا يرجع إلّا إلى لغة لااختلاف في تأويلات ألفاظها ، فلو شاء الله أن يترك كتبه و يجعل كلام أنبيائه و رسله بحيث لايحتاج إلى تبيين وتفسير لفعل ، ولكنّا لم نر شيئاً من الدين و الدنيا دفع إلينا على الكفاية ، ولو كان كذلك لسقطت المحنة و

(١) الخبر فى البيان والتبيين (٣ : ٢٧٥-٢٧٧) .

(٢) من هنا الى ص ١٠٧ سقط من الاصل واختصت به النسخة (د) .

والبلوى ، و ذهبت المسابقة والمنافسة ، ولم يكن تفاضل ولا ظهورولا سرور ، ولكن الله بنى الدنيا على امتزاج خيرها بالشرّ و اختلاط علمها بالجهل ، و صوابها بالخطاء ، و توفيقها بالخذلان ،ليبيّن الشيء بضدّه ، وينتظم مصلحة الجميع ، وينتهي السعيد إلى مادعي عليه وخلق له ، ولو كان العلم كلّه ظاهراً و العلم وجهاً واحداً ، والخلاف مرتفعاً زائلاً لما صحّ تكليف ، ولا تمّ سعي ، ولا استحقّ حمد ولا ذمّ ولاثواب ولاعقاب .

فقال المرتدّ : أشهد أنّ الله واحد لا ندّ له ولا ولد ، وأنّ المسيح عبده ، و أنّ محمّداً صادق ، وأنت أمير المؤمنين حقّاً .

فأقبل المأمون على أصحابه و قال : قرّوا[1] عليه عرضه ، ولاتبرّوه في يومه هذا[2] ريثما يعتق إسلامه كيلا يقول عدوّه : أسلم رغبة ، ولا تنسوا نصيبكم من برّه .

فائدة اُخرى من كلامه مفيد جدّاً امتزاج الشرّ بالخير وايتلاف الناس باختلاف أحوالهم قال :

لولا أنّ الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سبباً للايتلاف لما جعل واحداً طويلاً وآخر قصيراً ، وواحداً حسناً وآخر قبيحاً ، وواحداً غنيّاً وآخر فقيراً ، وواحداً ذكيّاً و آخر غبيّاً . فخالف بينهم ليختبرهم ، وبالاختبار يطيعون ،وبالطاعة يسعدون . ففرّق بينهم ليجمعهم ، وأحبّ أن يجمعهم على المثوبة والطاعة جميعاً .

فسبحانه و تعالى ما أحسن ما أبلى وأولى ! وأحكم ما صنع وأتقن مادبّر ! لأنّ الناس كلّهم لو رغبوا عن عار الحياكة لبقينا عُراةً ، ولو رغبوا كلّهم عن كدّ البناء لبقينا على العَراء[3] ولورغبوا عن الفلاحة لذهب الأقوات ولبطل المعاش ، فسخّرهم على غير إكراه ورغّبهم على غير دعاء .

ولولا اختلاف الطبائع من الناس وعللهم لما اختاروا من الأسماء إلّا أحسنها ، ومن البلاد إلّا أعدلها ، ومن الأوساط إلّا أوسطها ، ولو كان كذلك لتزاحموا على طلب الوساطة

---

(١) في البيان والتبيين : « فروا » من الوفر .

(٢) اى لاتصنعوا به اليوم خيراً كيلا يتهمه عدوه بأنه أسلم طمعاً .

(٣) العراء الفضاء الذى لم يستتر بشيء .

وتشاجروا على بلاد الغنى ، ولما وسعهم بلد ، ولاتم بينهم صلح ، وقد صار بهم التسخير إلى غاية القناعة ، وكيف لايكونوا كذلك وأنت لوحولت ساكني الآجام إلى الفيافي وساكني السهل إلى الجبل ، وساكني الجبال إلى البحار ، وساكني الخيم إلى المدن لأذاب قلوبهم الهم ، ولأتى عليهم فرط النزاع ، وليس على ظهرها إنسان إلا وهو معجب بصوته وكلامه ، ولولا ذاك لماتوا كداً ولذابوا ، ولكن كل إنسان وإن كان يرى أن له حساداً فغيرهم يأنفون عن صناعته وعمله ، وكل من يرى أنه حاسد فهو يرى أنه محسود في شيء آخر .

ولولا اختلاف الناس في الأسباب وارتهانهم بالعلل لما زين لكل أحد عمله ، ولما سهل عليه شغله ، فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء حذق أو خرقاً قال له : يا حجام ! والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال له : يا حائك .

ولولا اختلاف الأسباب في الخير والشر لتنازعوا بلدة واحدة واسماً واحداً وكنية واحدة ، فقد صاروا كما ترى مع اختيار الأسماء القبيحة والألقاب السمجة . والأسماء مبذولة والصناعات مباحة ، والمتاجر مطلقة و وجوه الطرق مخلاة ، لكنها مطلقة في الظاهر مقسمة في الباطن ، وإن كانوا لايشعرون بالذي دبر الحكيم في ذلك من المصلحة .

فسبحان من حبب إلى واحد أن يسمي ابنه محمداً وإلى آخر أن يسمي ابنه شيطاناً وحبب إلى الآخر أن يسمي ابنه سعيداً وإلى الآخر أن يسميه حماراً و كلباً ، وإلى قوم أن يسموا أولادهم فضلاً وطاهراً وبشيراً ، ويسمي قوم آخرون أبناءهم عكيرشة وجندلة وحنظلة وبغيضاً وعجلان وغضبان و حجراً و كليباً وذيباً ! لأن الناس لو لم يخالفوا في الأسماء و الكنى لجاز أن يجمعوا على شيء واحد ، وكان في ذلك بطلان المعاملات وفساد العدالات ، وأنت إذا رأيت ألوانهم و شمائلهم و اختلاف صورهم ، وسمعت لغاتهم ونغماتهم علمت أن طبائعهم المحجوبة الباطنة على حسب أمورهم الظاهرة .

وبعض الناس و إن كانوا مسخرين للحياكة فليس فيهم الكمال ، وقد يسخر الله الملك لقوم بأسباب حديثة وقديمة فلا يزال ذلك مقصوراً عليهم مادامت تلك الأسباب قائمة فليس إذا كانوا مسخرين للملك و كان الناس لهم مسخرين ، فلا بد من أن يكونوا في كل حال مسخرين للجبرية والنخوة والفظاظة و القسوة ، ولطول الحجاب و الاستبشار

و سوء اللقاء و التصنّع ، وقد يكون الإنسان مسخّراً لأمر و مخيّراً في آخر ، ولولا الأمر والنهي لجاز التسخير في دقيق الأمر و جليله و خفيّه و ظاهره ؛ لأنّ الناس إنّما سخّروا إرادة العائدة عليهم والنظر لهم وأن تتمّ النعمة عليهم ، ولم يسخّروا للعصمية كما لم يسخّروا للمفسدة ، وقد تستوي الأسباب في مواضع وتتفاوت في مواضع ، كلّ ذلك ليجمع الله بهم مصالح الدنيا ومراتب الدّين .

ألا ترى أنّه لم يبع أحد قطّ سلعة بدرهم إلّا وهو يرى أنّ ذلك الدرهم خير له من سلعته وعلى العكس ، ولو كان صاحب السلعة يرى في سلعته ما يرى فيها صاحب الدرهم وعلى العكس لما اتّفق بينهما شرى و لا بيع أبداً .

فسبحان من حبّب إلينا ما في أيدي غيرنا وحبّب إلى غيرنا ما في أيدينا ليقع التبايع فيقع الترابح فيتمّ التعايش ومثل هذا كثير والعلم به قليل .

وقال بعض البلغاء في نحو هذا القول : إنّ أكثر نعم الله على الناس و إن كانت مرتّبة بين نظر من عين ، وتدبّر من قلب يستسرّ عن سوادهم الأعظم الّذي فيه الكثير و الغرر، إمّا لغلط حسّ أو غلط اعتقاد أو منازعة أنفس من شأنها أن تستوطىء أباطيل الأهواء فتركبها ، وتستصعب حقائق الأشياء فتنبو عنها ، فلا يتبيّن حينئذ إلّا لمن ثبتت معرفته و تهذّبت قريحته ، وكان راجعاً إلى عقل ومسكة وتدبير وحنكة . وذلك أنّ أحدهم لا يعتدّ من مواهب الله له إلّا بما خصّه في نفسه دون ما أعطاه مع غيره ، فإن بلغ من الحظّ إرادته ابتهج واغتبط و إن قصر به عنها قنط و غمط [1] و هو لا ينتفع بما ينفرد به من بحبوحة السعة إلّا بأن يطمئنّ به وبغيره ، وقدّم الأمن والدعة ، و تكون الأيدي من اعتصابه مقبوضة ، والأعين عن منافسته مغضوضة . ولو أوصل هذا إلى أمله كلّه لاطّرد الحكم لغيره في مثله . فعاد التكافي في اتّساع الأحوال بضدّ المراد بها ، والمستفاد منها من ضنك المعيشة و عدم الرفاهة و شمول البؤس و حلول الضرّ ، ولم يحمل بعض الناس كلّ بعض ، ولم يجتمعوا على نظام ، فمن حيث خولف بينهم ذلك الخلاف ائتلفوا منه الايتلاف ، فصارت لكلّ طبقة من طبقاتهم منزلة تقف عندها و صناعة تنتحلها ، فسدّوا الخلل ، وعدّلوا

(١) غمط - من بابي ضرب وعلم - احتقر .

الميل ، وترافدت أيديهم ، وتعاونوا على مساعيهم ، ونشؤوا مع تباين تلك المنازل بهم في منزلة القصور والفاقة ، ولجؤوا إلى ظلّ المسالمة و الموادعة ، وذلّ الأخفض للأعلى طلباً لما في يده ، وحبّ [١] الأعلى على الأخفض ضرورة إلى خدمته ، واقتضى ذلك أن يكون فيهم ملوك تحمى الذمار ، وسوقة يلتئم بهم الشمل ، فاستقرّت كلّ حرفة بمكانها ، فالملوك في الأمر والنهي والحماية والذبّ ، والوزراء في التدبير وجمع الفيء ، والكتّاب في حفظ الدواوين وتسديد المكاتبات ، والعمّال في عمارة البلاد واستدار الارتفاع ، والجند في سدّ الثغور وجهاد العدوّ والقضاة في إقامة ميزان القسط و تنفيذ أحكام الدين ، والتجّار في التجهيز والجلب ، والعوامّ في المهن والحرف ، ولا يزال كلّ منهم مستعيناً بغيره ، وفقيراً إلى من سواه . صعوداً من أدناهم إلى أعلاهم ، و انحطاطاً من أعلاهم إلى أدناهم حتّى اطّرد هذا العالم ما هو عليه من ارتباط أبعاضه وأجزائه وإحكام وضعه وبيانه .

و هنالك بيان أنّ رحمة الله في هذا التقدير الحكيم والتدبير المستقيم نزلت على سبيل العموم ، و وصلت إلى الجمهور ، فأخذ الناس منها بأقساطهم ، وصارت تامّة من حيث نظر الجاهل المفضول في الحظّ أنّها ناقصة، وما نقصانها إلّا فيما كان اشتهاه ونازعه إليه هواه .

وقال بعض الحكماء قولاً مفيداً في علّة وجود الشرّ في هذا العالم فإنّه لمَ لم يكن الأمر كلّه خيراً محضاً ؟ بأنّ الشرّ بالذات العدم ، ولا كلّ عدم مقتضي طباع الشيء من الكمالات الثابتة لنوعه و طبيعته ، والشرّ بالعرض هو المعدم والحابس الكمال عن مستحقّه . و كلّ شيء وجوده على كماله الأقصى ، وليس فيه ما بالقوّة ، فلا يلحقه شرّ وإنّما يلحق الشرّ ما في طباعه بالقوّة ، وذلك لأجل المادّة ، والشرّ يلحق المادّة لأمر أوّل يعرض لها في نفسه ولأمر طارىء ،وجميع سبب الشرّ إنّما توجد فيما تحت فلك القمر طفيف [٢] بالقياس إلى سائر الوجود . ثمّ الشرّ إنّما يصيب أشخاصاً وفي أوقات والأنواع محفوظة .

---

(١) بهامش النسخة : « جن ظ » و اظن ان صوابه « حن » بالمهملة بمعنى الميل .

(٢) الطفيف : القليل .

ومع هذا فإنّ وجود الشرّ في الأشياء، ضرورة أن يكون الخير الممكن في هذه الأشياء إنّما يكون خيراً بعد أن يمكن وقوع مثل هذا الشرّ منه، ومفيض الخير لا ينبغي له أن يترك الخير الغالب لشرّ منه فيكون تركه شرّاً من ذلك الشرّ، ولهذا ما يؤثر العاقل لاحتراق النار بشرط أن يسلم منها حيّاً على الموت بلا ألم.

والشرّ يقال على وجوه: يقال شرّ للأفعال المذمومة، ويقال شرّ لمباديها من الأخلاق، ويقال شرّ للآلام والغموم وما يشبهها، ويقال شرّ لنقصان كلّ شيء عن كماله، وفقدانه ما من شأنه أن يكون له، فهذه أقسام الشرّ الأربعة الّتي لا يخرج شيء منه عنها.

ولن تجد شيئاً ممّا يقال له «شرّ» من الأفعال إلّا وهو كمال لسببه الفاعل له، وعسى إنّما هو شرّ بالقياس إلى السبب القابل له أو بالقياس إلى فاعل آخر يمنع عن فعله في تلك المادّة الّتي هو أولى بها من هذا الفعل، فالظلم يصدر مثلاً عن قوّة طلّابة للغلبة وهي الغضبيّة، والغلبة هي كمالها، ولذلك خلقت من حيث هي غضبيّة، أعني خلقت لتكون متوجّهة إلى الغلبة يطلبها ويفرح بها، فهذا الفعل بالقياس إليها خيرلها، وإن ضعفت عنه فهو بالقياس إليها شرّ لها، فإنّما هي شرّ للمظلوم، أو للنفس النطقيّة الّتي كمالها كسر هذه القوّة والاستيلاء عليها، وعلى هذا الإحراق كمال للنار.

فأُريدت الخيرات الكائنة عن هذه الأشياء إرادة أوّليّة على الوجه الّذي يصلح أن يقال: إنّ الله يريد الأشياء ويريد الشرّ أيضاً على الوجه الّذي بالعرض، إذا علم أنّه يكون ضرورة فلم يعبأ به. فالخير مقتض بالذات والشرّ مقتض بالعرض، وكلّ بقدره[1].

وكذلك لو لم يكن هموم لم يكن أحديهتمّ بأمر ويحتال بخطب ويسعى في شأن، ولو لا الألم لكان بعض الأسباب المفسدة المهلكة مثلاً كالنار في إحراقها تصيب عضواً من أعضاء الحيوان وهو في غفلة أو نوم، فلا يشعر به حتّى يأتي على عامّة أعضائه.

يبيّن ذلك أنّ الأُمور في الوهم إمّا أُمور إذا توهّمت موجودة يمنع وجودها أن تكون إلّا شرّاً على الإطلاق، وإمّا أُمور وجودها يوجب أن يكون خيراً ويمنع أن تكون شروراً أو ناقصة، وإمّا أُمور تغلب فيه الخيريّة، وإمّا أُمور تغلب فيها الشرّيّة.

(١) في النسخة: كل يقدّره.

هذه هي أقسام الأمور الأربعة الصحيحة ، وأمّا مالاشرّ فيه فقد وجد في العالم بلا خلاف ، وأمّا ما كان كلّه شرّاً أو الغالب شرّاً فلم يوجد البتّة ، وأمّا الّذي الغالب في وجوده الخير فالأحرى به أن يوجد إذا كان الغالب فيه أنّه خير . فإن اعترض هذه الشبهة أنّه لمَ لم يمنع الشرّيّة عنه أصلاً حتّى يكون كلّه خيراً ؟ فحلّها أنّها حينئذ لم تكن هي هي إذ قلنا : إنّ وجودها الموجود الّذي يستحيل أن يكون بحيث لايعرض عنها شرّ ، فلا يكون وجودها الوجود الّذي لها بل يكون وجودأشياء اُخرى غيرها وهي حاصلة ، أعني ماخلق بحيث لايلزمه الشرّ .

و مثال ذلك ما ذكرنا فيما تقدّم أنّ النار إذا كان وجودها أن تكون محرقة وجود المحرق هو أنّه إذا مسّ رداء رجل شريف أحرقه ، إذ كان وجود رداء الشريف أنّه قابل للإحراق ، و كان وجود كلّ واحد منهما أن يعرض له حركات شتّى ، و كان وجود الحركات المختلفة في الأشياء على هذه الصفة مايعرض له الالتقاء ، و كان وجود الالتقاء بين الفاعل والمنفعل بالطبع وجوداً يلزمه الفعل و الانفعال ، فإن لم تكن الثواني لم تكن الأوائل ، فالأشياء إنّما رتّبت فيها القوى الفعّالة و المنفعلة السماويّة والأرضيّة بحيث تؤدّي إلى النظام الكلّيّ مع استحالة أن يكون هي على ما هي عليه ، ولا تؤدّي إلى شرور ، فيلزم من أحوال العالم بعضها بالقياس إلى بعض أن يحدث في نفس صورة اعتقاد رديء أو كفر أو شرّ آخر في نفس أو بدن ، بحيث لو لم يكن كذلك لم يكن النظام الكلّيّ ، فلم يعبأ باللوازم الفاسدة الّتي تعرض بالضرورة .

وقال الله تعالى : خلقت هؤلاء للنار ولا اُبالي ، و خلقت هؤلاء ، للجنّة ولا اُبالي .

وروى عبد الله بن العبّاس قال : سألت رسول الله ﷺ وأنا رديفه في بعض ركباته : أعمل على أمر قد فرغ منه ، أو أن أستأنف العمل ؟ فقال : على أمر قدفرغ منه ، فإنّ كلاًّ ميسّر لما خلق له ، من خلق للجنّة يسرّ بعمل أهل الجنّة ، ومن خلق للنار يسرّ بعمل أهل النار .

وروي أنّه ﷺ قال لعبد الله في مثل تلك الحال : ياغلام ! اتّق الله تجده أمامك ، ياغلام ! اتّق الله تجده وراءك ، ياغلام ! اتّق الله ولا تخش غيره ولا ترج سواه . فلواجتمع

لك أهل الأرض أن ينالوك بغير ما كتب لك من خير أو شرّ لم يقدروا عليه .

وقد لخّص بعض العلماء هذه المعاني تلخيصاً بيّناً يغني من طول تخاليط المتكلّمين قال : لا أحد يطلق القول بأنّ الله يفعل الشرّ المطلق و الفساد البحت ، ولكنّ القائلين إنّ في العالم ما هو شرّ و فساد على الإطلاق قد افترقوا فرقتين : قالت إحداهما بأنّ وجود عامّة ما يظهر فيها من الشرّ هو من فعل الظلمة أو من فعل أهرمن كما ذهبت إليه المجوس و الثنويّة . و قالت الأُخرى : إنّها من أفعال الثقلين : الجنّ و الإنس ، كما قالت القدريّة .

فأمّا ماعدا هؤلاء من فرق الإسلام فإنّهم مع قولهم بأنّ في العالم ما هو خير مطلق وصلاح مطلق وهو السعادة العظمى والمنزلة الرفيعة عند الله تعالى فإنّهم معتقدون بأنّ عامّة ما يوصف بالشرّ والفساد فإنّها ليست شروراً مطلقة بل بالإضافة لا بالذات، و بالمناسبة لا على الإطلاق فيكون شرّاً وفساداً مهما استعمل لا في موضعه ولا في جنبه ولا على هيئته ولا للغرض المطلوب منه ، فيكون شرّاً على هذه الأوجة الأربعة ، فأمّا أن يوجد شيء هو ندامة شرّ فكلاّ .

فتكون الأشياء الموجودة إمّا خيراً محضاً لا يشوبه شرّ أصلاً نحو طاعة الله و شكر نعمه وطلب الزلفى إليه والرفعة لديه ، وإمّا أن يكون مهما استعمل على جهة ما وافق مراداً ما كان خيراً ثمّ هو بعينه شرّ مهما استعمل على غير تلك الجهة والمقصود نحو الملك والشجاعة والنظر والقوّة وسائر الأعمال الصناعيّة .

فعند ذلك قالت المجوس والثنويّة وأصناف القدريّة : إنّ الكفر والفساد و الضلال شرّ مطلق تعالى الله عن أن يفعله أو يريده أو يقضي به . حتّى قالت القدريّة في قوله تعالى[1] : « يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء » : إمّا أن يكون يسمّيه ضالاً أو يخلّي بينه و بين ما يؤثره من الضلال أو يضلّه في الآخرة عن طريق الجنّة .

وأمّا الطوائف الباقون أن يكون في موجودات العالم شرّ محض أو فساد بحت فإنّهم يطلقون القول بإضلال الله بعض الخلق ، و يذهبون في ذلك أنّ الله عزّ اسمه لو لم

(١) سورة النحل : ٩٣ . و مواضع اخر .

يضلّ عبده في بعض مايتعاطاه من مكاسبه ومطالبه لما انتبه العبد على نقصان جبلّته ، و لما وقف على ضعف طباعه ، وأنّه مكوّن على ما تيسّر له وموفّق فيما توفّق عليه ، فهو إذاً قد يضلّه في بعض المصارف و يهديه في بعضها ، ليعلم باليقين أنّه عبد مدبّر ناقص ضعيف ، فيتبرّء من حول نفسه وقوّتها ،ويعتصم بحول مولاه وقوّته،فيصير الاعتصام به ذريعة له إلى الهداية المطلقة الّتي لايرد عليها التبدّل أصلاً كماقال جلّ وعزّ[٢] : « و من يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم » .

وبمثل هذه الحال أيضاً أحواله في الإفقار والإغناء والتقوية والإعجاز و التوفيق و الخذلان والتصحيح والإمراض . بل في جميع مايعرض له في التدابير من الإصابة و الخطأ فيهجّن عباده بكلّ واحد من المتضادّين منها لمصير تعاقبها عليه بعد استطاعة منبهة لعقله على أنّه لاحول ولا قوّة إلّا بالأحد الفرد الصمد الحقّ الّذي له الخلق و الأمر ، فكلّما تمادى العبد على الإصرار لادّعاء الحول والقوّة لنفسه فترك الاعتصام فيها بخالقه فإنّه يزداد في شؤونه ضلال ، ومن مولاه بعداً وحجاباً .

فإذاً الإضلال الموجود عين الخير والحقّ في هذا العالم ، من تمام شرائط الامتحان للخلق ، و ليس هو بشرّ محض ، والإضلال في الدار الآخرة المذكور بقوله تعالى[٢] : « كذلك يضلّ الله الكافرين » فهو من تمام حكم السياسة والحمل على الاستقامة ، وليس بمعدود من إرادة الشرارة ونعوذبالله من عذابه ، وصائرة إلى عقابه ، إنّه أرحم الراحمين .

وعلى هذا الحكم المفرد في صحّة الابتلاء والتكليف في امتزاج الشرّ بالخير اتّصال النفع بالضرّ لم يسفرّ صبح الخير على الخلوص لعامّة الناس على الحقيقة ، فترى أحوالهم فيه مختلفة غاية الاختلاف ، فمنهم من يفعل الخير وعنده أنّه يفعل الشرّ و على العكس ، ومنهم من يفعل فعلاً يكون منه خيراً ، ولو فعله غيره كان منه شرّاً ، ومنهم من يرى الخير ماعاد بصلاح أمره وإن عاد بالضرر على غيره وهم الأكثرون ، وعلى العكس وإن قلّوا و فازوا بأشرف الأخلاق وأكرم الأعلاق ، وبعدوا عن الحسد أشدّ بعد وضادّوه فوق كلّ ضداد ،لأنّ الحسد هو مطالبة النفس بانتقال الواصل إلى غيره إليه،وشهوة النفس للفوز به

(١) سورة آل‌عمران : ١٠١ .
(٢) سورة المؤمن : ٧٣ .

دون غيره حتّى أنّ الحاسد لا يرضى إلّا بسلب المحسود عن نعمه، والمؤثر على نفسه بإدخال[١] المشقّة عليها لنفع غيره، قد سلب نفسه نفعها وأوصله إلى غيره. وفيه أيضاً مع ذلك مخالفة العادة والنفس الأمّارة بالسوء المزيّنة للغيّ، التوّاقة إلى الشرّ، المحرّضة على البغي، وأنّ كلّ أحد يحبّ من الخير لنفسه ما هو لغيره، فإذا جعل لغيره ما لنفسه فقد رفض العادة ونقضها، وخفض أعلام النفس وقرضها.

وقد تحدّث عن عهد الجاهليّة الجهلاء إلى اليوم حديث كعب بن مامة[٢] ويضرب بكرمه وجوده المثل، وكان كعب في جماعة في فلاة فعزّ الماء، فكانوا يقتسمون الماء بقعب[٣] ليتساووا في شربه، فلمّا وصل القعب إليه تشوّف[٤] نحوه واحد منهم فقال كعب للساقي: أعط أخاك النميريّ يصطبح، فأعطاه فلمّا كان من الغد بلغ الكعب[٥] إليه فتشوّف النميريّ فقال كعب للساقي: أعط النميريّ وبات على غاية العطش، فلمّا كان في اليوم الثالث حملوه إلى الشريعة فنادوه: ردِيا كعب[٦]! فحرّكوه فإذا هو مات.

ويحكى أنّ رجلين أنكر بهما السفينة فتعلّقا بساجة[٧] لا تسعهما فقال أحدهما للآخر: ألك أهل! فقال: نعم ولد وأُمّ ولد وزوجة، فقال: أنت أحقّ بالسلامة منّي، وخلّى عن الخشبة وغرق.

ولمّا سعى غلام الخليل بالصوفيّة إلى الخليفة أمر بضرب أعناقهم فبسط النطع فتقدّم الثوريّ، فقال رجلٌ: ما تدري إلى ما تبادر؟ فقال: نعم، فقال: وما أعجلك؟ قال: أُوثر أصحابي بحياة ساعة، فأُنهي الخبر إلى الخليفة وخرج الأمر بردّهم إلى القاضي على عهده ليظاهر في التعرّف، فسرد الثوريّ على القاضي من رائع كلامه ما أبكاه وأشجاه، فقال: إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم.

---

(١) اى ولا يرضى المؤثر الاباد خال المشقة على نفسه لايصال النفع الى غيره.
(٢) ترى خبره فى مجمع الامثال (١: ١٩١ - ١٩٢) وفى الاصلين «كعب بن تمامة».
(٣) القعب: القدح الضخم الغليظ.
(٤) تشوف: حد اليه النظر بطرفه.
(٥) كذا، والصحيح: القعب.
(٦) «رد» امر من ورد الماء.
(٧) قطعة من الخشب.

وحكى بعض الفقراء قال : كنت سنة الهبير[١] مع الناس ، و كنت أطوف بين الجرحى فرأيت أبا محمد الحريري وكان قد نيف على المائة فقلت : ياشيخ ! ألا تدعو فيكشف ماترى؟ قال : قدقلت فقال : إنّي أفعل ما أشاء ، فأعدت فقال : يا أخي ! ليس هذا وقت الدعاء ، هذا وقت الرضاء فقلت : بك حاجة ؟ فقال : أنا عطشان فجئته بماء فأخذ وأراد أن يشرب فنظر إليّ و قال : هؤلاء عطاش وأنا أشرب ؟ فرمى بالماء ومات من ساعته .

وحدّث حذيفة العدوي[٢] قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمّ لي ، ومعي شيء من ماء ، فإذا رجل يقول : آوه ! فأشار ابن عمّي أن انطلق به إليه [واسقه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك ؟ فأشار إليّ أن نعم ، فسمع آخر يقول : آه ! فأشار إليّ أن انطلق إليه] [٣] فجئته فإذا هو ميّت ثمّ رجعت إلى هشام قدمات فرجعت بالماء إلى ابن عمّي فإذا هو قدمات .

ومن كرائم الأفعال في هذا الباب ماحدّث الواقديّ قال : أظلّني شهر رمضان ولا نفقة ، فكتبت إلى بعض العلويّة أقترضه ألف درهم فأنفذ كيساً مختوماً ، فإذا هو بخاتمه حتّى كتب إليّ صديق يسألني نفقة لشهر رمضان ، فأنفذت إليه الكيس بختمه ، فلمّا مضت ساعة فإذا أنا بالصديق مع العلويّ قدطلعا عليّ ، فسألني العلويّ عن حالي و عن الكيس فقلت : صرفته في بعض المهمّات ، فضحك وأخرج الكيس فقال : لمّا أنفذته إليك[٤]] لم يكن بقي معنى شيء فاستسعفت صديقي هذا فسألك إسعافه فحمله إليّ فعجبنا كلّنا من ذلك فقال العلويّ الوجه أن نقسّمه بيننا فإنّ الله يأتي بالفرج قبل إنفاقها و إنفاذها .

قال الواقديّ : فأنفقت ما خصّني وبقيت مهموماً فاستدعى خالد بن برمك وقال لي : رأيتك في النوم على حال تفكّر واهتمام فاشرح لي أمرك ، فشرحت القصّة وماكان منّا في أمر الكيس فقال : لا أدري أيّكم أكرم ، وأمر لي بثلاثين ألف درهم و ولاّني القضاء و أمر للعلويّ و للصديق بعشرين ألف درهم .

---

(١) الهبير موضع ، وفيه هجم ابن ابى سعيد سنة ٣١٢ على الحاج وقتلهم وأخذ أموالهم .
(٢) ذكره الابشيهى فى المستطرف (١ : ١٥٦ - ١٥٧) .
(٣) الزيادة من المستطرف .
(٤) هنا ينتهى الكراسة الساقطة من الاصل .

ويحكى[١] أنّ عبدالله بن جعفر خرج إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم مجتازاً وفيها غلام أسود يعمل فيها إذ أُتي الغلام بقوته ودخل كلب الحائط ، ودنا من الغلام على رائحة الطعام فرمى إليه بقرص فأكله، ثمّ رمى إليه الثاني والثالث ، وعبدالله ينظر فقال للغلام : كم قوتك كلّ يوم؟ قال : مارأيت، قال : فلم آثرت هذا الكلب ؟ قال : ماهي بأرض كلاب إنّه جاء من مسافة جائعاً فكرهت ردّه وأحببت قراه ، قال : فما أنت صانع ؟ قال : أطوي يومي ، قال عبدالله : ألام على السخاء ! إنّ هذا لأسخى منّي ؛ آثر كلباً على نفسه ! و جاء قومه ، ثمّ اشترى النخيل والغلام وما فيها من الآلات فأعتق الغلام ووهبها منه .

وحكى الفضيل بن عياض أنّ رجلاً خرج بغزل فباعه بدرهم اشترى به دقيقاً فمرّ على رجلين كلّ واحد منهما أخذ برأس صاحبه فقال ما هؤلاء ؟ فقيل : يختصمون على درهم فأعطاهم ذلك و ليس له شيء غيره ، فرجع إلى امرءة فأخبرها الخبر فقامت فجمعت شيئاً آخر فذهب يبيعه فكسد عليه ، فمرّ على رجل معه سمكة قد أراحت[٢] فقال له : إنّ معك شيئاً قد كسد ومعي شيئاً قد كسد فهل لك أن تبيعني هذا بهذا؟ فقال : نعم ، فأخذ سمكته وذهب بها إلى البيت ، فقامت المرءة تصلحها فوجدت في جوفها لؤلؤة ، فقالت : أتعرف اللؤلؤة ؟ قال : لا ، ولكنّي أعرف من يعرفه فانطلق بها إلى صاحب اللؤلؤ فقال : مرحباً يا فلان ، من أين لك هذه ؟ فأخبره بقصّتها من أوّلها إلى آخرها ، فقال : لك بها أربعون ألفاً ، وإن شئت فاذهب بها إلى فلان فإنّي أراه أثمن لك بها منّي ، فذهب بها إليه فسأله عن اللؤلؤ فأخبره بالقصّة كما فعل الأوّل ، فقال : لك بها ثمانون ألفاً وإن شئت فاذهب بها إلى فلان فإنّي أراه أثمن لك منّي فذهب بها إليه ، فقال : لك بها مائة و عشرون ألفاً ، ولاأرى أحداً يزيد عليّ ، وقال : فاحمل مالك فجاء فحمل اثني عشرة بدرة و ذهب بالمال إلى منزله ليضعه فإذا هو برجل على الباب فقال : مسكين فقير أنلني ممّا أنعم الله به عليك وقصّ عليه قصّته ، فقال : هذه قصّتي الّتي كنت عليها ، ادخل فخذ نصف ما معي فأعطاه ستّ بدر ، فحملها ثمّ تباعد قليلاً و رجع إليه فقال : ما أنا بمسكين ولا

(١) حكاه في المستطرف (١ : ١٥٩) .
(٢) اراح اللحم : أنتن .

فقير أرسلني إليك ربّك الّذي أعطاك بالدرهم عشرين قيراطاً جزاء لك على ماكان منك في فعل الخير و إيثار البرّ .

وجاء في بعض الأحاديث حديث عجيب في مثل ما نحن فيه ، كان النبيّ ﷺ يوماً من الأيّام في أصحابه فقال عبد الله بن سلام : يا نبيّ الله بأبي أنت و اُمّي ألا اُحدّثك بحديث كان في بني إسرائيل عجيب من العجائب فقال ﷺ : حدّثني فقال : خرج حمير بن عبد الله متصيّداً فلمّا أقفرت به الأرض ، فإذا هو بحيّة قد أنسابت بين قوائم دابّته حتّى قامت على ذنبها ثمّ أنطقها الله الّذي أنطق كلّ شيء فقالت : يا حمير أعذني أظلّك الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه،فقال لها حمير : ممّن ؟ قالت:من عدوّ يريد يقطعني إرباً إرباً بسيفه ، فقال : لها حمير :أين أجعلك ؟ قالت : في فيك،ففتح لها حمير فاه فانسابت في فيه حتّى وصلت إلى جوفه .

وأقبل رجل شاهراً سيفه بيمينه فقال : ياحمير ! مافعلت الحيّة الّتي أناخت بكنفك قال : ما أرى شيئاً ، قال كبرت كلمة خرجت من فيك الّتي تقول هذا ، فقال حمير : اللّهم غفراً ، ما جاء منك أعظم ، و الله لو كانت تحت قدمي ما نحّيتها عنها ، فامض لشأنك ، فولّى الرجل .

وناديته الحيّة من جوفه : ياحمير ! ما فعل الرجل، أيقع طرفك عليه ؟ قال : لا، قد مضى فرأيك ، قالت:والله لقد جعلت جوفك لي وعاء وأمنتني من عدوّي،فاختر منّي خصلة من اثنين : إمّا أن أنكت قلبك فأتركك رميماً ، وإمّا إن أفرث كبدك فألقيها قطعاً قطعاً من أسفلك ، فقال : بئس والله ما جازيتني به أن جعلت جوفي لك وعاءً وأمنتك من عدوّك قالت : يا جاهل ! لقد علمت عداوتي لأبيك آدم (عليه السلام) حين أخرجته من الجنّة ، فقال لها حمير : أردت بذلك وجه الأجلّ الأعزّ ، قالت : اختر إحدى المنزلتين اُنزلها بك لا بدّ لك منها .

قال : أمّا إن عزمت على هذا فدعيني حتّى أنتهي إلى هذا الجبل فأستظلّ بظلّه فهو أسترلي قالت : ذاك لك ، فولّى حمير فلمّا انتهى إلى الجبل إذا هو برجل كأنّ وجهه دارالقمر ليلة البدر قال له : ياحمير ! مالي أداك مذعوراً قليل الحيلة ؟ قال : من عدوّ جعلت

جوفي له وعاء وأمنته من عدوّه حتّى إذا أمن زعم أنّه يعاقبني بأن ينكت قلبي أويفرث كبدي ليس لي به حيلة ولا طاقة ، فقال له الفتى : يا حمير ! أتاك الغوث من خالقك الّذي يقضي في ملكه و ناوله قطعة فأكلها فوجد مغساً [1] في جوفه ثمّ أعطاه أخرى فرمى بالحيّة قطعاً قطعاً ، فقال له حمير : لله أبوك من أنت ؟ قال : أما تعرفني ؟ قال : لا ، قال : ملك في الدنيا اسمي معروف ، هكذا أفعل بمن يفعل الخير إلى أقصى درجاتها ، ومانالت بها من أوفى مثوباتها .

ولقد ذكرت هذا الحديث في الاثني عشريّة إلّا أنّ سنده مخالف لسنده هنا وأيضاً اسمه محمّد بن حمير و فيه ألفاظ تزيد عمّا ذكر في هذا الخبر لكن المعنى متّحد .

فلنرجع الآن إلى ما كنّا فيه من خصائص الخير وأوصافها و آفاتها وإعزازوجودها فمن خصائص الخير أنّه فضيلة ووسط وحقّ وشاقّ فكان واحد ، والشرّ باطل وطرف فكان أكثر من واحد ، من الصعب إصابة الشيء الواحد الوسط الّذي يكتنفه طرفان معروفان لا يتناهيان و يعترض دون طريق جهات من جوانبه صادّة عنه لاينقطع وقد صدق من قال :

الخير أمنع قلّة * من قلّة الجبل المنيعه
و الشرّ أسرع جرية * من سرعة الما للشريعة

وقال آخر :

تولّت بهجة الدّنيا * فما أدري بمن أثق
كأنّ معالم الخيرات * سدّت دونها الطرق
و أمر الشرّ يتّسق * و أمر الخير ينمحق

وقال آخر :

وما الدهر إلّا شرّه قبل خيره * ولذّات عيش غالبتها الفجائع
فثغر بأيّام المسرّة ضاحك * و طرف بأيّام الحوادث دامع

---

(١) وجع وتقطيع في الامعاء .

ومن آفة الخير إفضاؤه كثيراً إلى الشرّ كما قيل :

لا تأمنوا من بعد خير شرّاً * كم غصن اخضرّ فصار جمرا

آخر : (١)

أحسنت ظنّك بالأيّام تلبسها * ولم تخف غبّ ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها * وعند صفو الليالي يحدث الكدر

بل من آفات الخير إحداق الآفات بعامّة الخيرات ، فلا يكاد يخلو خير من شرّ يطيف به ويلمّ بجوانبه كما قال عليّ عليه السلام (٢) : « ما أعجب أمر الإنسان! إن سنح له الرجاء أذلّه الطمع ، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص ، و إن ملكه اليأس قتله الأسف ، و إن سعد نسي التحفّظ ، وإن ناله خوف حيّره الحذر ، و إن اتّسع له الأمن أسلمته الغرّة و إن حدّدت له النعمة أخذته العزّة ، و إن أصابته مصيبة فضحه الجزع ، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى ، و إن عضّته فاقة شمله البلاء ، و إن أجهده الجوع قعد به الضعف ، و إن أفرط في الشبع كظّته (٣) البطنة . فكلّ تقصير به مضرّ ، و كلّ إفراط به مفسد ، و كلّ خير معه شرّ ، و كلّ شيء له آفة » .

وقال بعض العلماء : من آفة العلم خيانة الورّاقين (٤) وتخلّف المتعلّمين .

كما أنّ من آفات الدين فسق المتكلّمين وجهل المتعبّدين .

و كما أنّ من آفات الدنيا كثرة العامّة وقلّة الخاصّة .

و كما أنّ من آفات الكرم أنّ الجود ضدّ المنع ، و أنّ البخل سبب للجمع ، و أنّ المال في أيدي البخلاء دون أيدي الأسخياء .

و كما أنّ من آفات الحلم أنّ الحليم مبتوك الخيبة ، وأنّ السفيه منبع الحوزة (٥) .

---

(١) سبق البيتان ، ولهما و أبيات اخرقصة طريفة في استخلاص شيخ همداني من حبس المنصور انظر قصص العرب (٣ : ٦٩) .

(٢) شرح النهج لعبده (٢ : ١٦٧) الرقم ١٠٨ من الحكم مع اختلاف .

(٣) كظّه الطعام : ملاه حتى لايطيق النفس .

(٤) الوراق هنا : الكاتب .

(٥) مبتوك الخيبة : مقطوع الامل ، والحوزة من الحيازة .

و كما أنّ من آفات المال أنّك إذا صنته عرضته للفساد ، و إذا أبرزته عرضته للنفاد .

و كما أنّ من آفات الشكر أنّك إن قصّرت عن غايته غششت من اصطنعك ، و إن بلغتها أو أبلغت فيه أوهمت من سمعك .

و كما أنّ من آفات المماليك أنّك إذا بسطتهم فسدت آدابهم و آذانهم، وإذا قبضتهم أفسدت وجوههم وألوانهم .

و كما أنّ من آفات الأصدقاء أنّك إذا استقللت منهم لم يصبك حاجتك منهم ، و إن استكثرت منهم لزمتك مواجبهم . وثقلت عليك نوائبهم ، و كسبت الأعداء من الأصدقاء كما يكسب الداء من الغذاء .

و كما أنّ من آفات المغنيّين أنّ الوسط منهم يميت الطرب ، وأنّ الحاذق يسيء الأدب .

فهذا ونحوه يدلّ على غلبة الشرّ و عموم الضرّ و كثرة الآفات في هذه الدنيا ، و يدعو إلى الصدوف عنها وعن شرورها ، و الإقبال على الآخرة و طلب نعيمها الّذي لا يشوبه كدر ولا يلمّ به غير .

و قيل : دع الشرّ وغنّى له ، فيجاب : لا أُغنّي له ولا يغنّى له (؟) .

ومن نكد الشرّ أنّك ما نازعته إلّا زاد ، ولا تركته إلّا اضمحلّ و باد .

واعلم أنّ الناس مختلفون في فعل الخير و الشرّ على أربع فرق :

فمنهم من ينطوي باطنه وظاهره على الخير ، وهذه حال أصحاب رسول الله ﷺ مثل سلمان الفارسيّ وأباذرّ و المقداد و عمّار و أمثالهم الّذين بايعوه تحت الشجرة ، كما أخبر الله تعالى عن حالهم قال [1] : « فعلم ما في قلوبهم وأنزل السكينة عليهم » .

و منهم من ينطوي باطنه و ظاهره على الشرّ ، و هذه كانت صفة طائفة من أهل الكتاب كما حكى الله تعالى عنهم بقوله [2] : « فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

---

(١) سورة الفتح : ١٨ .
(٢) سورة البقرة : ٨٩ .

ومنهم من أبدى ظاهره الخير وأضمر باطنه الشرّ، فيكون صاحبه مجتمع فرق الشرور وملتقى طرق الفساد، وهذه كانت حال المنافقين. وهو إنّما يكون من متابعة الدخلة الخبيثة الصّادرة عن الدهاء المذموم، المصاحبة للغضب المفرط والحسد المسرف، وفي الحديث: «أشدّ الناس عذاباً يوم القيمة من يرى أنّ فيه خيراً ولا خير فيه».

و منهم من يشاكل ظاهره ظاهر الشرير في الحدّة والاستطالة والتسخّط بالكلام و يرجع في باطنه إلى قلب سليم منطو على الخير، وذلك من غلبة الصفراء على مزاجه وهذا مزاجي الّذي قد أعيا الأطبّاء علاجه، غير أنّي أعالجه بالصبر و كظم الغيظ، وفي الحديث الثناء على أهل الحدّة قال النبيّ ﷺ (١) «خيارا أمّتي أحدّاؤها» وقال ﷺ: «الحدّة تعتري خيار أمّتي».

و نحن مع طول معاشرتنا طبقات الأفاضل ومعايشتنا مع كلّ قوم من الأماثل لم ينصرف بهم جميع الخصال الّتي في الفريق الأوّل من الفرق الأربعة كإخواننا الكرام، ممّن نذكره بصفته لا بتسميته، لاختصاص كلّ واحد منهم ببعض هذه الأوصاف الّتي قد اشتهر بها، و انتشرت منه و لكراهية منّا أن نذكره على التعيين في هذا الوصف الكريم، الّذي يجلّ عن القياس غير هؤلاء، فإنّ الّذين قصرت الصفة في كلّ خير من أنواع الخيرات عن واجبهم، وزاد العيان على خبرهم وخبرهم كان علماً يجلى على علوّ شرفهم وفضلهم، وفصاحة أقوالهم، وملاحة أفعالهم، و تقدّم أقدامهم على مراتب نظرائهم من أهل زمانهم، قد ذهبوا عن العيان و أقاموا في سويداء الجنان، و ورثوا على مراتب الجنان فآثارهم مدى الزمان باقية، وأعيننا لفقدانهم باكية.

ولقد قال واحدهم بل أوحدهم خاتم المجتهدين الفاضل الكامل الشيخ بهاء الدين قدّس الله نفسه الزكيّة وأفاض على تربته المراحم الربّانيّة:

لا تبك معاشر نأوا وإلفا * القوم مضوا، ونحن نأتي خلفاً
بالمهلة أو تعاقب نلحقهم * كالعطف بثمّ أو كعطف بالفاء

فكنّا نرتوي بعذوبة أخلاقهم الّتي تسلب الماء سلاسته، ونتغذّى بطيب منطقهم الّذي يكسو

(١) رواهما ابن الاثير في النهاية مادة (حدد) قال: و الحدة هنا: المضاء في الدين والصلابة.

الهواء لطافته إلى غير ذلك من تمام الوفاء و كرم الحياء وشرف المروّة وصدق الفتوّة ، وحسن السلوك مع الأصحاب والنجابة المقرونة بوفور الآداب ، والتحلّي من كلّ فضيلة بحقيقتها والتخلّي عن كلّ رذيلة ولو بالمجاز عنها .

وإلى الله أطلب الرغبة في أن يطيل بقاء أسلافهم ، ويديم رونق العلم وتاريخ الفضل وجمال العصر بأيّامهم ، وأن يديم علينا وعلى المؤمنين ظلّهم ويقدّمني في حلول الأجل قبلهم .

ولقد طال ذيل هذا الفصل على غيره من الفصول ، وحقّ أن يطوى بساطه ، ولكنّا نختمه ببعض ما يحكى ممّا يصدّ عن الشرّ ويصدف عن عمل السوء من مكاره لحقت أهله ، و أضلّتهم بوخيم جزائه ، و وجي قصاصه كما أصاب شيرويه ابن كسرى فإنّه قتل أباه وعاش بعده ستّة أشهر ، ثمّ هلك بتناول سمّ اتّخذه أبوه له ، و كتب على الظرف الّذي جعله فيه : « هذا دواء للباه » .

و كذلك المنتصر قتل أباه المتوكّل فعاش بعده أيضاً ستّة أشهر ، وكان يقول في آخر أيّامه : « عاجلت فعوجلت » ومن النوادر في هذا الباب من وجوب الجزاء ما يحكى في سبب موته من فصد بعض الأطبّاء إيّاه بمبضع[1] مسموم وكان ذلك من دسيس الأتراك ، فلمّا كان في أيّام المعتضد احتاج ذلك الطبيب إلى الفصد فحمل إليه ذلك المبضع وهو لا يعلم ففصد به فمات .

ومن مفيد ما جاء في تبدّل الأحوال ومكافاة الأفعال ما يحكى أنّه كان بمدينة السلام رجل ذو يسار فبينا هو ذات يوم في منزله قد جلس ليأكل مع امرأته وبين يديه سكباجة[2] قد فاحت رائحتها إذ دنا سائل من الباب ، وكان ممّن امتحن بنكبة بعد نعمة ، فقال : أطعموني من فضل ما رزقكم الله ، فقامت المرأة وغرفت له من القدر وأخذت رغيفين لتناوله فلمّا رأى الزوج ذلك حلف عليها ألّا تدفع إليه شيئاً و مضى السائل خالياً حزيناً فاستوفى الرجل طعامه و صعد السطح لبعض حوائجه ، فعثر بشيء وانتكس فسقط إلى الأرض و وقص[3] ومات ، وحازت المرأة ميراثه و تصرّفت فيه و فرّقت شيئاً من أسبابه الرثّة في

(١) آلة يشق بها الجلد وماشاكله .
(٢) مرق يعمل من اللحم والخل .
(٣) وقصت العنق : انكسرت .

المساكين فكانت في جملتها مضربة [١] خلقة وقعت إلى هذا الرجل السائل ففتقها ليغسلها ويجعلها قميصاً يلبسه فوجد فيها ألف دينار فأخذها وغيّر حاله بها ، وضرب الدهر و أتت على ذلك الأيّام فطلب امرأة يتزوّجها و قالت له بعض الدلاّلات : هنا امرأة صالحة قد ورثت فما تقول في مواصلتها ؟ فأنعم [٢] لها فسعت الدلاّلة بينهما حتّى اتّفقا واجتمعا ، فلمّا دخل بها تحدّث ذات يوم فقالت المرأة : ما أشدّ ما مضى على رأسك فحدّثها بوقوفه على باب دار ، وحدّث المرأة كانت تأكل مع زوجها ، فقالت المرأة : فاعلم أنّ هذه هي الدار الّتي وقفت عليها وأنا تلك المرأة ، وإنّ زوجي صعد في ذلك اليوم السطح فسقط ومات ، وقد أورثك الله ماله ومسكنه وزوجته فسجد الرجل لله شكراً ، وحدّث إخوانه تعجّباً .

ومن نحو هذا ماكان من إحراق ابن مقلة [٣] دار سليمان بن الحسن بن وهب فاحترقت دار ابن مقلة في مثل ذلك اليوم من الشهر .

وقتل عبيدالله بن زياد لعنه الله سيّد الشهداء أباعبدالله الحسين عليه الصلاة والسلام يوم عاشوراء فقتله المختار بن أبي عبيدة في ذلك اليوم من عاشوراء القابل .

وقال الشعبيّ رأيت في هذا القصر ـ قصر الكوفة ـ رأس الحسين بن عليّ عليهما السلام بين يدي عبيدالله بن زياد ورأس عبيد [الله] بين يدي المختار بن أبي عبيدة [٤] ورأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير ، ورأس مصعب بين يدي عبد الملك بن مروان ، ورأيت عبدالملك بقي طريحاً في هذا القصر وقيل له : إنّك تبقى ما احتميت الماء فجعل لايشرب إلّا قوتاً ، فلمّا طال ذلك عليه قرم إلى الريّ من الماء وطلبه حتّى تمنّى الموت ، و قال : اسقوني ريّي و إن كان فيه نفسي ، فجيء بماء فلم يلبث إلّا يسيراً حتّى فاضت نفسه الخبيثة إلى نار جهنّم .

وحدّث [٥] أبو مهلّب الوزير قال : خرجت مع جماعة في زورق ينحدر إلى البصرة فقيّد

---

(١) كساء ذو طباقين بينهما قطن .

(٢) اى قال : نعم .

(٣) هو أبو على محمد بن على بن الحسن بن مقلة ، المشهور بخطه ونقله الخط من الكوفى الى النسخ ـ على خلاف فيه ـ ترى خبره فى الوفيات (٤ : ١٩٨) ولد ٢٧٢ وتوفى ٣٢٨ هـ .

(٤) فى الاصلين : مختار بن عبيد فى الموضعين .

(٥) تراه وأمثاله فى زينة المجالس للمجدى والفرج بعد الشدة للتنوخى .

بعض من في الزورق رجلاً منهم على طريق المداعبة ، ثمّ قصدنا فكّ القيد منه بكلّ وجه فلم يمكن ، فلمّا وصلنا إلى البصرة مضى أحدنا إلى حدّاد ليفكّ قيده فسمعه صاحب مصلحة فصار مع الحدّاد حتّى أخذ الرجل ، فصرنا معه إلى صاحب الشرطة فشهدنا بما شاهدنا من حاله ، وعرّفناه ماكان من مداعبتنا في ذلك فلم يسمع حتّى جاء رجل وأطلع في وجهه وقال : فلان ! أنت الّذي قتلت أخي وهربت وأصعدت خلفك بهذه المحاضر [١] و شهادات العدول، والآن قد وصلت، فأخرج محاضر بقتله أخاه وقرّر فأقرّ، فما برحنا حتّى قتل على المكان .

و حدّث عليّ بن يحيى بن أبي منصور عن بعض تجّار البحر قال : حملنا متاعاً إلى الصين من الأُبلّة[٢] وكان قد اجتمع كاروان فيه عشرة مراكب ، قال : ونحن معاشر التجّار إذا خرجت التجارة لحقنا الرجل الضعيف بالبضاعة اليسيرة نطلب السلامة بحمله ، ونتباع لهم تجارة يربحون فيها فمنّا من يجعل لنفسه في الربح سهماً ، و منّا من يحمل لله [٣] عزّوجلّ ، ويطلب به البركة .

فبينا أنا قد أصلحت ما أُريد إذوقف عليّ شيخ فسلّم فرددت فقال : لي حاجة قد سألتها غيرك من التجّار فلم يقضها ، قلت : فما هي ؟ قال : اضمن لي قضاءها حتّى أقول : فضمنت فأحضرني بصاخبة(؟)فيها نحو من مائة منّاً وقال لي : تأمر بحمل هذه الرصاصة معك فإذا صرتم في لجّة كذا فاطرحها في البحر ، قلت : يا هذا ليس هذا ممّا أفعله ، فقال : قد ضمنت لي ، ومازال بي حتّى قبلته و كتبت في روزنامجة لي .

فلمّا صرنا في ذلك الموضع عصفت علينا ريح فنسينا أنفسنا و ما معنا و نسيت الرصاصة ، ثمّ خرجنا من اللجّة و صرنا حتّى بلغنا موضعاً فبعت ما صحبني و حضرني رجل فقال لي : أمعك رصاص ؟ فقلت : ليس معي رصاص ، فقال لي غلام : معنا رصاص ، قلت له : أحمل رصاص معي ؟ فقال : بلى ، أمانة الشيخ الشائب فذكرت فقلت : خالفناه و بلغنا ههنا وما عليّ أن أبيعه فإنّ ذلك فيه ما أراد ، فقلت للغلام : احضرها ، وساومني

(١) جمع المحضر : السجل .
(٢) بضم الهمزة والباء ، وهي ناحية دجلة من البصرة . وفي الاصلين تصحيف .
(٣) في الاصلين « في الربح منهما ، ومنا من يجعل لله » .

الرجل بها فبعتها بمائة وثلاثين ديناراً وابتعت بها للشيخ طرائف الصين ، فخرجنا فوافينا المدينة و بعت تلك الطرائف ، فبلغت سبعمائة دينار .

فصرت إلى البصرة إلى الموضع الّذي وصفه الشيخ و وقفت باب داره و سألت عنه . فقيل : قد توفّي ، قلت : و هل خلّف أحداً يرثه ؟ قالوا : لانعلم إلّا ابن أخ له في بعض نواحي البحر فتحيّرت ، وقيل لي : إنّ داره موقوفة في يد أمين القاضي ، فرجعت إلى الأُبلّة والمال معي .

فبينا أنا ذات يوم جالس أن وقف على رأسي رجل فقال : أنت فلان ؟ قلت : نعم ، قال : أكنت خرجت إلى الصين ؟ قلت : نعم ، قال : وبعت رجلاً هناك رصاصاً ؟ قلت : نعم ، قال : أفتعرف الرجل ومامِلّته ؟ فقلت : أنت هو ؟ قال : نعم ، إنّي قطعت من تلك الرصاصة شيئاً لأستعملها فوجدتها مجوّفة و وجدت فيها اثني عشر ألف دينار ، و جئت بالمال فخذ عافاك الله ، فقلت له : ويحك ياهذا ! والله ما المال مالي ، و لكنّه كان من خبره كذا ، و حدّثته .

فتبسّم الرجل وقال : أتعرف الشيخ ؟ قلت : لا ، قال : هو عمّي وأنا ابن أخيه و ليس له وارث غيري ، وإنّما أراد أن يزوي المال عنّي وقد أبعدني من البصرة فسأل جيرانه ومعارفه عنّا فسألت عن الفتى والشيخ فوجدته كما حكى ، وأخذ المال وما كان عندي من السبعمائة دينار .

فاعلم ياأخي أنّ هذه الحكاية أتتك بأعجب العجب من أمانة الرجلين والخير المركّب فيهما ، ومن شرارة صاحب المال ، و كيف ردّ الله عليه مكره وأبطل عليه كيده و جازاه على ماصنعه بضدّ ما أراده .

ويروى أنّ بعض الأنبياء صلوات الله عليهم أشرف يوماً من أيّام الربيع عن قلّة جبل على فلاة في عين ماء ، فإذا بفارس أقبل وعلى قربوس سرجه بدرة ، فلمّا انتهى إلى عين الماء نزل وشرب وسقى دابّته وركب فرسه ونسي البدرة ومضى ، فأقبل راع ومعه غنم فسقاها وحمل البدرة ، فأقبل رجل عابر سبيل فشرب من الماء وجلس مستريحاً فأقبل الفارس راجعاً في طلب البدرة وطالب الجالس بها ، ثمّ ضربه ثمّ سلّ سيفه يحذّره ، فلمّا لم يشكّ

أنّه بجا حدة قتله ، فاشتغل فكر النبيّ بما رأى من جميع ذلك وأكبر وأنكر قتل الرجل بغير سبب ، وذهاب آخر بمال من غير حقّ ، و وجم منه كظيماً من الحزن ، فأوحى الله تعالى إليه : مالك واتّهامي والفكر في أحكامي ؟ إنّ البدرة كانت وديعة لوالد الراعي عند والد الفارس من غير علم من الفارس والراعي ، وهذا الرجل المقتول كان قد قتل أب هذا الفارس فأخذت بثاره على يد وليّه ، وأوصلت الحقّ إلى مستحقّه .

وممّا يستحسن من الشعر في الخير والحثّ عليه والشرّ والتحذير منه قول الأفوه الأودي[١] :

الخير يبقى وإن طال الزمان به * والشرّ أخبث ما أوعيت من زاد

وقال الحطيئة[٢] :

من يفعل الخير لا يعدم جوائزه * لا يذهب العرف عند الله والناس

وقال آخر :

لا يغرس الشرّ غارس أبداً * إلّا اجتنى من غصونه ندما

قال تميم بن معن صاحب مغرب :

الخير مقرون بصاحبه * فمتى فعلت الخير أعقبكا
و الشرّ مقرون بصاحبه * فمتى فعلت الشرّ أعطبكا
لا تحسبنّ الله مطّرداً * من بثّ يضحك منه حين بكا[٣]
بل تستعدّ له و تنصره * وتشوب بالتكدير مشربكا
فاحرص على أن لا تسيء عسى * أن لا يكون النحس كوكبكا

وما أبرع أبيات أبي الأسود الدئليّ :

أعدّ من الرحمن فضلاً ونعمة * عليك إذا ما جاء للخير طالب
فإنّ امرءاً لا يرتجي الخير عنده * يكن هيّناً ثقلاً على من يصاحب

---

(١) شاعر جاهلي قديم يقال : انه أدرك المسيح عليه السلام . انظر الاغاني (١١ : ٤١) واللالي (١ : ٣٦٥) .

(٢) من قصيدة يهجو بها الزبرقان بدر . في الاغاني (٢ : ٥٢) و قد سبق بيت منها .

(٣) في النسخة (ر) : مطرحا .

و للخير أبقى ماتحمّل حامل * وللشرّ أردى ما تزوّد راكب
أرى دولاً هذا الزمان بأهله * و بينهم فيه تكون النوائب
فلا تمنعا ذاحاجة جاء طالباً * فإنّك لاتدري متى أنت راغب
فإن قلت في شي : نعم ، فافعلنّه * فإنّ «نعم» حقّ على الحرّ واجب (١)
وإلّا فقل: لا، واسترح وأرح بها * لكيلا يقول الناس: إنّك كاذب

وقال آخر :

كما يدين الفتى يوماً يدان به * من يزرع الشوم لم يحصد به ريحاناً

وقلت في مقصورتي أبياتاً قريبة من هذا المعنى وهو قولي منها :

لا يعرف الشيء بغير ضدّه * هل تعرف الراحة إلّا بالعنا
واليسر لولا العسر ماامتازوهل * يعرف قدر الريّ إلّا بالصدى
و الخير لولا الشرّ ماامتاز ولا * يعرف قدر الشبع إلّا من طوى
و المرء لا يجزى بغير سعيه * إذ ليس للإنسان إلّا ماسعى

ومنها :

ياليت شعري هل لنفسي زاجر * يزجرها عن ميلها إلى الهوى
أو رادع يردعها عن غيّها * فإنّ شيطان هواها قد غوى
يارب إنّ العبد عبد مذنب * و هو فقير ماله عنك غنى
قد قطف اللذّة في شبابه * بجهله فاغفر له ماقد جنى
واغترّ بالمهلة فاختار العمى * على الهدى ، فليته كان ارعوى
يانفس هل بعد المشيب صبوة * وغاية الشيب البوار و الردى
كفى بإنذار المشيب واعظاً * و رادعاً و زاجراً لمن وعى

(١) ولنعم ماقال المثقب العبدى ، الشاعر الحكيم الجاهلى : فى قصيدة له من المفضليات ٢٩٣:

لا تقولن إذا ما لم ترد * أن تتم الوعد فى شيء : نعم
حسن قول «نعم» من بعد «لا» * و قبيح قول «لا» بعد «نعم»
ان «لا» بعد «نعم» فاحشة * فيلا فابده ، إذا خفت الندم
فاذا قلت «نعم» فاصبر لها * بنجاح القول ، ان الخلف ذم

فخالفي يا نفس أرباب التقى * وخالفي نهج الضلال والعمى
واتّبعي نهج الرشاد تسعدي * شتّان ما بين ضلال وهدى !
واحتبسي في النائبات و اقنعي * وارضي بما جرى به حكم القضا
لاتجزعي إن ناب خطب فادح * وسلّمي الأمر إلى ربّ السما
يانفس يانفس! احذري أن تفزعي * يوماً لمخلوق إذا خطبٌ عرى
أو ترتجي يوماً أخاً أو صاحباً * في شدّة، والناس إخوان الرخا
و الجأ إلى الله ولا تستيئسي * عندا كتراث الخطب من روح الرضا
و استمسكي و اعتصمي بحبله * فحسبك الله وليّاً و كفى
و انتبهي و اتّعظي و اقتصدي * واقتصري إن كنت من ذوى النهى

﴿فصل ٨﴾

✡(في بيان قول القائلين ان أسباب الشرور في العالم بالعرض)✡
✡(لا بالقصد الاول)✡

وأمّا القائلون بأنّ الشرور هي شيء عارض في العالم من قبل الهيولى الّذي هو جوهر منفعل ناقص القبول للفضائل فطبقتان :

إحداها ترى و تعتقد قدمها فيما مضى دهراً طويلاً وهي عادمة للصّور و الأشكال والكيفيّات أجمع ، ثمّ إنّ الباري سبحانه قصد يصوّر من تلك الهيولى عالم الأجساد ذا الأبعاد الثلاثة : الطول والعرض والعمق وجعلها على أشكال كرويّات مستديرات محيطات بعضها ببعض كما ذكر في كتاب المجسطي و كتاب بلياس الحكيم في تركيب الأفلاك وطبقات السماوات وجعلها مسكناً لعبيده ومأوى لجنوده ، وهي النفس السارية في العالم من أعلى الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض و هي أجناس الملائكة و قبائل الجنّ و أحزاب الشياطين وأرواح بني آدم والحيوانات أجمع ، وهم سكّان سماواته و قاطنو أرضه ، العامرون عالمه ، المدبّرون أفلاكه ، المسيرون لكواكبه ، المعيّشون حيوانات أرضه ، و المربّيون نباتها ، والمكوّنون معادنها . كلّ ذلك بإذن ربّها عزّ سلطانه لهم ، ولهم خلق السماوات ، ومن أجلهم بسط الأرض وبهم تدبير العالم وتبقيته وتتميمه كلّ ذلك ليبلغهم إلى أقصى مدى غاياتهم الّذي هو البعث والخلود في النعيم أبد الأبدين .

وقالوا : هذه كلّها حكمة وجود وإفضال وإنعام وإحسان وخيرات ، والباري سبحانه هو خالقها وفاعلها وعلّتها و منشئها .

وأمّا الشرور فهي عدم هذه الخيرات عن الهيولى و نقصانها عنها ، و ذلك أنّها لو خلّيت وطبيعتها لرجعت إلى حالتها الأولى ، وخلعت الصور عن ذاتها ، وبطل نظام العالم واضمحلّ وجود الخلائق ، وكان من ذلك بوار الكلّ وفساد العالم وهو الشرّ المحض ولكن حكمة الباري سبحانه لاتقتضي تركها لأنّ تصويره للهيولى إيجاد وتركيبه للعالم صنعة

محكمة و إنشاء الخلائق جود منه و تفضّل عليهم ورحمة لهم ، والعدم بعد الوجود شرّ ، و نقض الحكمة سفه ، واسترجاع الفضل لؤم ، وترك الرحمة قساوة ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

واعلم يا أخي أنّه ليس شيء ممّا حكى هؤلاء من أحوال الهيولى ووصفوا من أسباب الشرور و نسبوها إلى الهيولى بمنكر عند خصمائهم منها فهذا قول صحيح ، و إن أرادوا أنّها ليست مبدعة ولا مخترعة فالمنازعة في هذه الحكومة وقعت وقد بيّنوا العلماء في المبادىء العقليّة حقيقتها ، و كيف هي مبدعة مخترعة .

و اعلم يا أخي أنّ كثيراً من أهل العلم ومن يتكلّم في حقائق الأشياء لا يعرفون الفرق بين الشيء المخلوق المصنوع ، وبين الشيء المبدع المخترع ، وهذا أحد أسباب الخلاف بين العلماء في آرائهم ومذاهبهم في قدم العالم وحدوثه .

و اعلم يا أخي بأنّ الخلق هو تقدير شيء من شيء آخر ، والمصنوع ليس هو شيء غير كون الصورة في الهيولى ، و أمّا الإبداع و الاختراع فهو إيجاد شيء لا من شيء آخر وهذه المعرفة وتصوّر هذه الحكمة تبعد على كثير من المرتاضين بالرياضيّات الفلسفيّة فكيف على غيرهم .

واعلم يا أخي أنّ الّذين قالوا بقدم الهيولى فإنّ الّذي دعاهم إلى هذا الرأي هو نظرهم إلى الموجودات الجزئيّة[1] الّتي دون فلك القمر واعتبارهم حال الكائنات الفاسدات من المعادن و الحيوان والنبات ، وذلك أنّهم وجدوا كلّ مصنوع بشريّ أو طبيعيّ مركّباً من هيولى ساذج لا شكل فيه قبل تصوير الصانع له بذلك الشكل وإذا خلّي ذلك المصنوع زماناً طويلاً اندرس و اضمحلّ و انخلعت الصورة عنه ، ورجع إلى حاله الأولى . مثال ذلك البنيانات المتّخذة في المدن و القرى إنّهم رأوا صنّاعها أوّلاً جمعوا التراب و الخشب و الحجارة وغيرها ثمّ بنوها ، ثمّ يحفظونها بالمرمّات لتدوم زماناً ، فإذا خلّيت زماناً طويلاً انهدمت واندرست واضمحلّت وصارت تراباً وحجارة كما كانت بدءاً ، وهكذا وجدوا حكم لباسهم وأمتعتهم جميعاً وهكذا حكم الحيوان و النبات والمعادن الّتي هي مصنوعات طبيعيّة فإنّها تصير كلّها يوماً تراباً وإن طال الزمان بها فعلى هذا القياس .

---

(١) في النسخة (ر) : الجزئيات .

وبهذا الاعتبار حكموا على أنّ الهيولى وضعه الباري عزّ شأنه ، و جعل منها العالم وحفظه على ما هو عليه الآن من النفس و التصاوير و الأشكال و الهيئات المختصّة بفلك فلك و كوكب كوكب ور كن ركن ، و أجناس الحيوانات أجمع و النبات و المعادن واحداً واحداً وأمّا الهيولى الأولى الّتي لا كيفيّة فيها فليست محتاجة في وجودها إلى صانع بزعمهم ، فهذا كان اعتبارهم و إلى هذا الموضع كان مبلغ علمهم و إلى ههنا أدّاهم اجتهادهم .

فأمّا الّذين قالوا بحدوث الهيولى فإنّهم نظروا أدقّ من نظر هؤلاء و تأمّلوا تأمّلاً أجود من تأمّلهم ، و بحثوا أشدّ من بحثهم ، كما بيّنّا فيما تقدّم ذكره .

﴿ فصل ٩ ﴾

✡(في بيان كمية أنواع الخيرات والشرور في العالم)✡

اعلم يا أخي أنّ الخير و الشرّ يقالان على أربعة أنواع فمنها ماينسب إلى سعود الفلك و نحوسه ، و منها ما ينسب إلى الأمور الطبيعيّة من الكون و الفساد وما يلحق الحيوان من الآلام و الأوجاع ، و منها ماينسب إلى مافي جبلّة الحيوانات من التآلف و التنافر و التوادد و التباغض وما في طباعها من التنازع والتغالب ، و منها ماينتسب إلى ما يلحق النفوس الّتي تحت الأمر والنهي في أحكام الناموس ، من السعادة والمحنة في الدنيا والآخرة جميعاً .

و اعلم يا أخي أنّ لهذه الأنواع من الخيرات و الشرور الّتي ذكرناها أسباب و علل يطول شرحها ، قد ذكرت في العلل و المعلولات ، و لكن نذكر في هذا الفصل منها مالا بدّ منه فنقول :

إنّ الخيرات الّتي تنسب إلى سعود الفلك فهي بعناية من البارىء جلّ شأنه و قصد منه لاشكّ فيه . وأمّا الشرور الّتي ينسب إلى نحوسة الفلك فهي عارضة لا بالقصد . مثال ذلك إشراق الشمس وطلوعها على بعض البقاع تارة و تسخينها لها مدّة مّا ومغيبها عنها تارة اُخرى كما تبرد تلك البقاع مدّة مّا ، فهو بعناية من البارىء جلّ جلاله وواجب حكمته لما فيه من الصلاح و النفع الكلّيّ كما ذكر الله سبحانه فقال [1] : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم اللّيل سرمداً إلى يوم القيامة من إله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * و من رحمته جعل لكم الليل و النهار لتسكنوا فيه و لتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون » .

و إنّما ذكر في هذه الآيات إنعامه على عباده و إحسانه إليهم وإفضاله عليهم لكي

(١) سورة القصص : ٧١ - ٧٣ .

يشكروه ، فأمّا الّذي يعرض لبعض الحيوانات و لبعض النبات من الحرّ المفرط و البرّ المفرط المتلف المهلك لها في بعض البقاع ، و في بعض الأحايين فليس ذلك بالقصد الأوّل

و هكذا أيضاً حكم الأمطار فإنّما يرسلها لكي يحيي بها البلاد و يصلح بها شأن العباد ، فإن عرض من ذلك أذيّة لبعض الحيوان أو تلف لبعض النبات فليس ذلك بالقصد الأوّل فعلى هذا القياس حكم جميع ما ينسب إلى نحوس الفلك من الأمور العارضة للحيوان و النبات و مواليد الناس ، ومايحكم في تحاويل السنين و أحكام القرانات ، وما شاكل ذلك ممّا ينسب إلى نحوسة الفلك من الشرور و الفساد جميعاً عارض لا بالقصد الأوّل .

وأمّا الخيرات الّتي تنسب إلى الأمور الطبيعيّة فهي كون الحيوان والنبات والمعادن و الأسباب المعينة لها على النشوء المبلغة لها إلى أتمّ حالاتها وأكمل نهاياتها ، فهي كلّها بقصد من الباريء سبحانه وعناية منه .

و أمّا الشرور الّتي هي الفساد و البلى الّذي يلحقها بعد الكون ، والأسباب الّتي تعوقها عن البلوغ إلى التمام و الكمال فهي عارضة لا بالقصد الأوّل ولكن بالقصد الثاني وذلك أنّ هذه الكائنات الّتي دون فلك القمر لمّا لم يمكن أن تبقى أشخاصها في الهيولى دائماً في هذا العالم تلطّف العناية الإلهيّة إن تبقيها بصورها فهي باقية بصورها ، وإن كانت الأشخاص في الذوبان و السيلان دائماً . و المثال في ذلك صور الإنسانيّة الّتي هي خليفة الله في أرضه فهي باقية منذ خلق الله سبحانه آدم أبا البشر إلى يوم القيامة ، و إن كانت الأشخاص في الذهاب والمجيء ، وهكذا حكم سائر أجناس الحيوانات و النبات وأنواعها باقية بصورها وأن كانت أشخاصها في الذوبان والسيلان ، وإنّما ذلك بواجب الحكمة لأنّ في القوّة و الغيب فضائل و خيرات بلا نهاية لا يمكن خروجها من القوّة إلى الفعل و الظهور دفعة واحدة في وقت واحد لأنّ الهيولى لا يتّسع قبولها إلّا شيئاً بعد شيء على التدريج و ممرّ الأوقات و الزمان دائماً أبداً . و المثال في ذلك أنّه لو خلق الله بني آدم كلّهم من مضى منهم ومن هو موجود الآن ومن يجيء من بعد إلى يوم القيامة في وقت واحد لم يكن تسعهم الأرض برحبها ، فكيف حيواناتهم ونبات غذائهم وأمتعتهم وما يحتاجون إليه في أيّام حياتهم فمن أجل هذا خلقهم قرناً بعد قرن وأمّة بعد أمّة ، لأنّ الأرض

لاتسعهم و الهيولى لاتحملهم دفعةواحدة ، فقد تبيّن بأنّ النقص من قبل الهيولى لامن قبل الصانع الباري عزّ شأنه .

و علّة اُخرى أيضاً لأسباب الشرور ، وذلك أنّه لمّا كانت الكائنات يبتدىء كونها من أنقص الوجود وأضعف القوى ، مترقّية إلى أتمّ الحالات وأكمل الغايات بأسباب معينة لها على النشوء و النموّ ، ومبلّغة لها إلى أكمل غاياتها بعناية البارىء سبحانه ، سمّيت تلك الأسباب خيرات في كلّ سبب عارض عوّقها عن ذلك سمّي شرّاً فهي عارضة لا بالقصد الأوّل . و المثال في ذلك ما تقدّم ذكره في أمر الشمس و المطر و الله أعلم .

ولنبيّن قول الحكماء في الفرق بين القصد الأوّل والقصد الثاني فنقول : أمّا الخيرات والشرور الّتي تنسب إلى جبلّة الحيوانات وما في طباعها و أخلاقها وأفعالها . بقصد منها و إرادة فهي بالقصد الثاني لا بالقصد الأوّل .

و اعلم أنّ معنى قولنا القصد الأوّل والقصد الثاني والفرق بينهما هو أنّ ما كان من فعل البارىء جلّ شأنه من الإبداع والإيجاد والاختراع وهو البقاء والتمام والكمال و البلوغ و ما شاكل ذلك من الأوصاف يسمّى القصد الأوّل ، والقصد الثاني هو ما كان من قبل نقص في الهيولى فإنّه لم يجىء منها إلّا هذا ولم تقبل إلّا هكذا ، ولم تتأتّ فيها إلّا هذا ولم يمكن غير هذا ، وما شاكل ذلك من الأوصاف .

واعلم أنّ أنواع الشرور المنسوبة إلى جبلّة الحيوانات و ما في طباعها فهي ثلاثة أنواع :

فمنها الآلام الّتي تعرض لها دون سائر الموجودات .

ومنها العداوات الّتي بينها في جبلّتها .

ومنها أفعالها الّتي هي بقصد منها وإرادة .

وأمّا آلامها فتكون من ثلاثة أوجه :

أحدها : الجوع والعطش عند حاجة أجسادها إلى الماء والغذاء .

والثاني ألم الضرب والصدم والسكر المضرّ بأجسادها ، المتلف لهيا كلها .

والثالث ألم الأسقام والأمراض المفسدة لمزاج أجسادها وأخلاط أبدانها .

فأمّا الآلام الّتي تعرض لنفوسها عند الجوع و العطش فإنّ ذلك بالقصد الثاني و ذلك أنّه لمّا كانت هذه الأشخاص كلّ واحد منها مركّباً من جسد جسمانيّ ونفس روحانيّة ، و كانت الأجساد مركّبة من الأخلاط المتضادّة وهي دائماً في الذوبان والسيلان ومحتاجة في بقائها إلى الماء والغذاء ، جعلت لنفوسها الآلام عند حاجة الأجساد إلى الماء والغذاء لتكون تلك الآلام باعثة لنفوسها لتنهض بأجسادها في طلب الغذاء ، فلو لم يكن تعرض لها تلك الآلام لتهاونت بها وتركتها بلا غذاء و كانت تذوب و تضمحلّ وتبطل في أقرب مدّة وأهون سعي ، وكانت تبقى تلك النفوس إمّا بلا أجساد أو بأجساد ناقصة غير تامّة ولا كاملة ، فكانت تفوتها المآرب الّتي هي مقصودة بها في البعث والقيامة ، وجعل لها أيضاً عند تناول الغذاء لذّة وشهوة أمّا الشهوة فلأن لا تتناول من الغذاء إلّا ما يصلح لها ، وأمّا اللذّة فلأن تأكل وتشرب ما دامت الطبيعة محتاجة فإذا اكتفت زالت اللذّة ، فهذه كلّها بقصد من البارىء جلّ شأنه من أجل النقص الّذي في الهيولى كيما تتمّ النفوس وتكمل .

وأمّا ألم الضرب والكسر والصدم والجرح والحرّ والبرد و الأمراض والأسقام و بالجملة كلّ أمر مضرّ بالجسد مفسد له فإنّما جعل للنفوس منه ألماً لكيما تحثّه تلك الآلام على حفظ أجسادها ، وصيانة هياكلها إذا كانت الأجسام لا حيلة لها في جرّ منفعه إليها أو دفع مضرّة عنها .

و من الدليل على صحّة ما قالوه ما تبيّن منها أنّها كيف تنتبه من حال النوم ، و كيف تستيقظ من حال الغفلة و كيف تحسّ وتشعر بالأشياء المفسدة المؤذية للجسد ، و كيف تدفع تلك الأشياء عن جسدها إمّا بالفرار عنها أو بالانقباض عنها ، وإمّا بالقوّة والدفع والجلد والمجاهدة ، وإمّا بالحيلة والمداواة ، و لو لم تفعل ذلك لهلكت الأجساد في أقرب مدّة وأهون سعي قبل التمام والكمال ، فإذا جاءتها المقادير والوقت المعلوم و الأسباب القاهرة الغالبة ، فانظر كيف تسلّمها إليها و تفارقها على غير اختيار منهما ، فأمّا مادام لها طمع في دفع تلك الآلام الواردات المؤذيات فهي في العلاج والجهاد رجاء للصلاح وحرصاً على البقاء ومحبّة للوجود على أتمّ ما يمكن ، إذ كان هذا هو الخير ، و كراهية منها للبقاء على حال النقص إذ كان هذا هو الشرّ ، لأنّ العدم المطلق ليس للأجسام

ولا للنفوس مادام العالم موجوداً ، فقد تبيّن بأنّ تلك الآلام أيضاً بقصد و عناية و اقتضاء للحكمة .

تتمة في بيان أنّ الشرور الّتي تنسب إلى جبلّة الحيوانات هي بالقصد الثاني و أمّا الخيرات و الشرور الّتي في جبلّة الحيوانات و أخلاقها الّتي هي الألفة و المحبّة و العداوة و الغلبة فهي أيضاً بالقصد الثاني،وذلك أنّه لمّا كانت الحيوانات الصور والأشكال والطباع والأخلاق و العادات لأسباب يطول شرحها قد بيّنها العلماء في العلل والمعلولات جعل بين بعضها و بعض ألفة ومودّة لكيما يكون ذلك سبباً لاجتماعها و اتّفاقها ، لما في ذلك من صلاح الكلّ والنفع للعموم ، وجعل أيضاً بين بعضها وبعض نفوراً وعداوة ليكون سبباً لتباعدها و تنافرها وتفرّقها لما في ذلك أيضاً من صلاح الكلّ ونفع العموم .

مثال ذلك إلف بعض الحيوانات للإنسان و انقيادها لطاعته كالغنم والبقر و الخيل و الحمير و البغال لما في ذلك من النفع للناس المعروف المشهور ولما لها أيضاً من النفع في مراعاة الناس لها بالعلف و السقي والكنّ من الحرّ والبرد ، ومنع السباع عنها ومداواتها من الآفات العارضة لها وما شاكل ذلك .

ومثل نفور بعض الحيوانات من الناس وتباعدها عنهم ، وعن مجاورتهم مثل السباع و الحيّات ، وبالجملة جميع الحيوانات القليلة النفع الكثيرة الضرر ؛ لما فيه من صلاح الكلّ والنفع للعموم،وعلى هذا القياس حال سائر الحيوانات بعضها مع بعض فيما بينها من الألفة والبغض و العداوة لما فيها من الصلاح والنفع .

وأمّا الشرور الّتي تنسب إلى أفعال الحيوانات بالقصد منها و الإرادة فهي أيضاً عارضة من أجل الهيولى الّتي هي مادّة لأجسادها وقوام لهيا كلها ، وذلك أنّ المنافع لمّا كانت مشتركة بين الجميع و كان في جبلّتها طلب المنافع و دفع المضارّ بالقصد الأوّل من الباريء جلّ شأنه كما تقدّم ذكره ، وقعت بينها تلك المنازعات في طلب تلك المنافع ودفع تلك المضارّ بالعرض لا بالقصد الأوّل، وأمّا علّة كون بعض الحيوانات آكلة وبعضها مأكولة فمذكورة في رسالة الحيوان والله تعالى اعلم .

تذنيب في بيان أنواع الشرور الّتي تنسب إلى أنفس الإنسانيّة من جهة أحكام

الناموس . اعلم يا أخي أيّدك الله وإيّانا بروح منه أنّ الخيرات و الشرور الّتي تنسب إلى الأنفس الجزئيّة الإنسانيّة من جهة أحكام الناموس هي نوعان : منها ماهي أعمال لها و اكتساب منها ، ومنها ماهي جزاء لأعمالها ومكافاة لها .

فأمّا الّتي هي اكتساب منها فهي خمسة أنواع : منها ماهي علوم ومعارف ، و منها ماهي أخلاق و سجايا ، ومنها ماهي آراء واعتقادات ، ومنها ماهي كلام وأقاويل ، و منها ماهي أعمال وحركات أوتركها .

وهذه الخصال الخمس تسمّى خيرات وشروراً من وجهين : إمّا عقليّة وإمّا وضعيّة .

فالوضعيّة منها هو كلّ شيء أمر بهصاحب الناموس أوحثّ عليه أو مدحه فيسمّى ذلك خيراً ، وفي كلّ شيء نهى عنه أوزجر عنه أوذمّه يسمّى ذلك شرّاً .

وأمّا العقليّة من هذه الخصال فهو كلّ شيء إذا فعل منه ماينبغي على الشرائط الّتي تنبغي في الوقت الّذي ينبغي في المكان الّذي ينبغي بالمقدار الّذي ينبغي يسمّى ذلك خيراً ومتى نقص من هذه الشرائط واحد يسمّى ذلك الأمر شرّاً . و معرفة هذه الشرائط ليس في وسع كلّ إنسان في أوّل وهلة إلّا بعد ما تتهذّب نفسه ويترقّى في العلوم و الآداب ومن أجل ذلك يحتاج كلّ إنسان إلى معلّم أو مؤدّب أو أستاذ في تعليمه و تخلّقه و أقاويله واعتقاداته وأعماله وصنائعه .

و اعلم بأنّ أصحاب النواميس هم المعلّمون المؤدّبون و الأستاذون للبشر كلّهم و معلّمو أصحاب النواميس هم الملائكة و معلّم الملائكة هي النفس الكلّيّة و معلّمها العقل الفعّال ، والباري عزّ سلطانه معلّم الكلّ . و إنّما طوّلنا الخطاب في هذا الباب من الخيرات و الشرور لأنّ هذه المسألة من إحدى المهمّات من مسائل الخلاف بين العلماء المنتشئة منها الآراء و المذاهب الكثيرة ، كلّ ذلك لقلّة معرفة من يتكلّم فيها ، ولا يدري ما الخير على الحقيقة ولا ماسبب الشرور العارضة في العالم ، فلا حاجة لذكر اختلافهم ؛

فإنّ ذلك يودّي إلى الملل ولعمري لقد أطلت المقال

و الله أعلم بحقيقة الحال .

﴿ فصل ١٠ ﴾

✡(في كيفية معاشرة اخوان الوفاء وخلان الصفاء)✡

اعلم أيّها الأخ البارّ الرحيم أيّدك الله و إيّانا بروح منه أنّه ينبغي لإخواننا - أيّدهم الله - حيث كانوا في البلاد أن يكون لهم مجلس خاصّ يجتمعون فيه في أوقات معلومة لايداخلهم فيه غيرهم ، ويتذاكرون فيه علومهم ، ويتحاورون فيه أسرارهم ،وينبغي أن يكون أكثر مذاكراتهم في علم النفس والحاسّ والمحسوس ، والعقل والمعقول ، والبحث عن أسرار الكتب الإلهيّة والتنزيلات النبويّة وما يتضمّنها من أمور الشريعة وإن حصلت لهم فرصة تذاكروا في سائر العلوم النافعة في الدنيا و الآخرة ، وينبغي أن يكون أكثر عناياتهم و قصدهم ومذاكراتهم في العلوم الإلهيّة الّتي هي الغرض الأقصى .

و بالجملة لا ينبغي لإخواننا إن يعادوا علماً من العلوم ، أو يهجروا كتاباً من كتب علماء الدين أو غيرهم من الصلحاء المدوّنين ، ولا يحملهم الحسد على القدح في أعراضهم . وينبغي النظر في جميع الموجودات بأسرها ، الحسّيّة والعمليّة من أوّلها إلى آخرها وظاهرها و باطنها وجليّها و خفيّها بعين الحقيقة من حيث هي كلّها في مبدء واحد و علّة واحدة وعالم واحد و نفس واحدة ، بجميع جواهرها المختلفة و أجناسها المتباينة و أنواعها المتفنّنة ، وجزئيّاتها المتغايرة .

واعلم أنّ هذه الحقائق مأخوذة من أربع كتب : أحدها الكتب المنزلة الّتي جاءت بها الأنبياء عليهم السلام مثل التوراة والإنجيل والقرآن وغيرها من صحف الأنبياء المأخوذ معانيها بالوحي من الملائكة .

و الثاني من الكتب المصنّفة من الرياضيّات و الطبيعيّات على ألسنة الحكماء المتألّهين .

و الثالث الكتب الطبيعيّة وهي صور أشياء الموجودات بما هي عليه الآن من تركيب الافلاك ، وأقسام البروج و حركات الكواكب و مقادير أجرامها ، وتصاريف الزمان و

استحالة الاركان وفنون الكائنات من الحيوان والمعادن و النبات ، و أصناف المصنوعات على أيدي البشر . كلّ هذه صور و كنايات دالّات على معان لطيفة و أسرار دقيقة يرى الناس ظاهرها ولا يعرفون بواطنها ومعانيها من لطيف صنعة البارىء عزّ شأنه .

والرابع ما أخبرت به الكتب من جواهر النفوس البشريّة و أجناسها و أنواعها و جزئيّاتها وتصاريفها للأجسام ، وتحريكها لها وتدبيرها و تحكّمها عليها ، وإظهار أفعالها بها ومنها حالاً بعد حال في ممرّ الزمان و أوقات القرانات والأدوار ، و انحطاط بعضها تارة إلى قعر الأجسام ، و ارتفاع بعضها تارة من ظلمات الجسمان ، و انبعاثها من نوم الغفلة و النسيان ، و حشرها إلى الحساب و الميزان ، وجوازها على الصراط ووصولها إلى الجنان ، أوحبسها في دركات الهاوية و النيران ، أو مكثها في البرزخ ، و الوقوف على على الأعراف كما ذكر سبحانه [١] : «ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون» [٢] «وعلى الأعراف رجال» ، وهم الّذين «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال * رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله» ، وهذا حال إخواننا الفضلاء الكرام فاقتدوا بهم أيّها الإخوان تكونوا مثلهم .

و اعلم أنّ مواهب الله كثيرة لايحصى عددها ، ولكن يجمعها كلّها جنسان تحت كلّ واحد منها أنواع كثيرة : أحدهما يسمّى قنية جسمانيّة ، والأخرى قنية نفسانيّة و من القنية الجسدانيّة أحدها المال ، و من القنية النفسانيّة أحدها العلم .

والناس في هاتين النعمتين العظيمتين على منازل أربع : فمنهم من قد رزق الحظّ من العلم والمال جميعاً ومنهم من حرمهما جميعاً ، ومنهم من رزق العلم ولم يرزق المال ، ومنهم من رزق المال ولم يرزق العلم .

فينبغي لإخواننا من رزق العلم والمال جميعاً أن يؤدّي شكر ما أنعم الله به عليه بأن يضمّ إليه أخاً من إخوانه ممّن قد حرمهما جميعاً ، ويواسيه من فضل ما آتاه الله من فضله من المال ليقيم به جسده في دار الدنيا ويرفده ، ويعلّمه من علمه ليحيي به نفسه في دار البقاء فإنّ ذلك من أقرب قربان إلى الله ، ومن أبلغ طلب لمرضاته . ولا ينبغي أن يمنّ عليه بما ينفق

(١) سورة المؤمنين : ١٠٠ . (٢) سورة الاعراف : ٤٥ . (٣) سورة النور: ٣٦ .

عليه من المال ولا يستحقره ، و يعلم أنّ الّذي حرم أخاه هو الّذي أعطاه ، و كما أنّه لا يمنّ على ابن له جسداني فيما يربّيه وينفق عليه من ماله ، ويورّثه ممّا جمع من المال بعده كذلك لا يجب أن يمنّ على ابنه النفساني لأنّه إن كان ذلك ابنه الجسداني ، فهذا أيضاً ابنه النفساني كما ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال لعلي عليه السلام [١] : « أنا و أنت أبوا هذه الأمّة » ولهذا المعنى قال المسيح للحواريّين : « جئت من عند أبي و أبيكم » و قال تعالى [٢] : « ملّة أبيكم إبراهيم » وسمّاكم المسلمين » وهذه الأبوّة نفسانيّة لا ينقطع نسبها كما قال ﷺ [٣] : « كلّ نسب ينقطع يوم القيامة إلّا نسبي » و قال ﷺ [٤] : « يا بني هاشم ! لا يأتيني الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم ، فإنّي لا أُغني عنكم من الله شيئاً » .

و قالوا : إنّما أراد الجسدانيّة لأنّها [تنقطع] إذا اضمحلّت الأجساد [٥] بقيت النفسانيّة ، لأنّ جواهر النفوس باقية بعد فراق الأجساد ، وإن كان عاش ابنه الجسداني يحيي ذكره بعد موته فهذا ايضاً إن عاش أحيا ذكره في مجالس العلماء و محاضر أهل الخير إذا نشر علمه ، وترحّم عليه كلّما ذكره ، كما نذكر نحن معلّمينا و أُستاذينا أكثر ممّا نذكر آباءنا الجسدانيّين ، ونترحّم عليهم أكثر ممّا نترحّم على آبائنا ، وإن كان يظنّ أنّ ذلك الابن الجسداني ربما ينفعه إذا كبر فيعينه على أمر الدنيا فهذا ربّما بلغ في العلم و الحكمة و الخير و المرتبة عند الله أن يشفع لمعلّمه فينجو بشفاعته وهو لا يدري ، كما ذكر الله سبحانه [٦] : « آباؤكم و أبناؤكم لا تدرون أيّهم أقرب لكم نفعاً » .

وأمّا من رزق المال ولم يرزق العلم من إخواننا فينبغي له أن يطلب أخاً ممّن رزق العلم ولم يرزق المال ، ويضمّه إليه ويواسيه هذا من ماله ويرفده هذا من علمه ، و يتعاونان

---

(١) انظر فيه البحار ط تبريز (٩ : ١٠١) في باب مخصوص به . ولفظ الرواية من مفردات الراغب ص ٤ مادة (أب) .

(٢) سورة الحج : ٧٨ .

(٣) مفردات الراغب ص ٤ .

(٤) تفسير البرهان (٣ : ١٢٠) ذيل الاية ١٠١ من سورة المؤمنين .

(٥) زيادة من النسخة (د) .

(٦) سورة النساء : ١٠ .

جميعاً على أصلاح أمر الدين والدنيا جميعاً . وينبغي للأخ ذي المال أن لا يمنّ على الأخ ذي العلم فيما يواسيه به من ماله ، ولا يحتقره لفقره لأنّ المال قنية جسدانيّة يقام بها حياة الجسد في دار الدنيا ، والعلم قنية نفسانيّة تقام بها حياة النفس في الدار الآخرة ، و جوهر النفس من جوهر الجسد ، وحياة النفس خير من حياة الجسد لأنّ حياة الجسد إلى مدّة ما ، ثمّ تنقطع و تضمحلّ ، وحياة النفس في الدار الآخرة تبقى مؤبّدة كما ذكره سبحانه [١] : « لا يذوقون فيها الموت إلّا الموتة الأولى » .

وينبغي للأخ ذي العلم أن لا يحسد أخاه ذا المال ، ولا يستحقره لجهله ولا يفتخر عليه بعلمه ولا يطلب منه عوضاً فيما يعلّمه ، لأنّ مثلهما في صحبتهما و تعاونهما هذا لهذا بماله و هذا لهذا بعمله ، كمثل اليد و الرجل في اتّصالهما بالجسد و خدمتهما له و تعاونهما في إصلاح الجملة ، وذلك لأنّ اليدين لا يطلبان من الرجلين إذا اتّخذتا لهما خمشكاً [٢] أو أخرجتا منهما شوكة ، جزاءً ولا شكوراً . وكذلك الرجلان لا يطلبان من اليدين إذا بلغتهما إلى المواضع الّتي تحصّنت فيها أو تسوّرت منها أو هربت بها من خوف القطع جزاء ولا عوضاً ، لأنّهما آلات لجسد واحد وقوام إحداهما بالأخرى ، وصلاح كلّ واحدة منهما صلاح الأخرى ، وهكذا أيضاً السمع لا يمنّ على البصر إذا سمّعه النداء ولا البصر يمنّ على السمع إذا أراه المنادي لأنّهما قوّتان لنفس واحدة في اتّصالهما بها و صلاح كلّ واحدة صلاح للأخرى في تعاونهما في خدمة النفس و طاعتهما في إدراكهما المحسوسات .

فهكذا ينبغي أن يكون تعاون الإخوان في طلب صلاح الدين و الدنيا ، و ذلك أنّ مثل معاونة الأخ ذي العلم للأخ ذي المال بعلمه في صلاح الدين و الدنيا ، كمثل رجلين اصطحبا في طريق في مفازة ، أحدهما ضعيف البدن بصير معه زاد ثقيل لا يطيق حمله و الآخر أعمى قويّ البدن ليس معه زاد ، فأخذ البصير بيد الأعمى يقوده خلفه ، وأخذ الأعمى ثقل البصير فحمله على كتفه ، و تواسيا بذلك الزاد و قطعا الطريق و نجيا جميعاً ، فليس

---

(١) سورة الدخان : ٥٦ .

(٢) الخش : حلب اللبن برؤوس الاصابع هامش الاصلين .

لأحدهما أن يمنّ على الآخر في نجاته من الهلكة بمعاونة كلّ منها لصاحبه ، والمعاونة لا تكون إلّا بين اثنين أو أكثر فالأخ الجاهل كالأعمى والأخ الفقير كالضعيف البدن ،والأخ الغنيّ كالقويّ والأخ العالم كالبصير ، و الطريق هي صحبة النفس مع الجسد و المفازة هي الحياة الدنيا ، و النجاة هي الآخرة ، فهذا مثل إخواننا المتعاونين في صلاح الدين و الدّنيا .

و أمّا من قد رزق العلم ولم يرزق المال ولا يجد من يواسيه بالمال من الإخوان فينبغي له أن يصبر و ينتظر الفرج ، فإنّه لابدّ من أن يؤيّده الله سبحانه بمن يخفّف عنه مايحمله من ثقل الفقر كما وعد أولياءه [١]: «ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لايحتسب » .

وينبغي له أن يعلم بأنّ الّذي رزقه من العلم خير له من الّذي رزق من المال لأنّ العلم سبب لحياة النفس في الدنيا والآخرة جميعاً ، و المال سبب لإقامة الجسد في دار الدنيا و الفضل فيما بين النفس و الجسد و شرف جوهرهما و فضل حياتهما و فضل داريهما قد تقدّم ذكره

وينبغي له أن يتفكّر في الّذي حرم المال والعلم جميعاً ليعرف نعمة الله عليه ويشكره على كلّ حال ليستوجب بها المزيد كما وعد الله فقال : [٢] « ولئن شكرتم لأزيدنّكم »

وأمّا من ليس بذي مال ولا ذي علم من إخواننا فهو الّذي له نفس زكيّة جميلة الأخلاق سليمة القلب من الآراء الفاسدة ، محبّة للخير وأهله ، صابرة راضية بما قسم الله .

وينبغي له أن يعلم أنّ الله أعطاه من حسن الأخلاق وسلامة القلب ومحبّة الخير و الرضا بما قسم الله له خيراً من الّذي منع من المال والعلم لأنّا نجد في الناس من قد أُعطي العلم والمال أو أحدهما ولم يرزق من هذه الخصال الّتي ذكرناها شيئاً وذلك أنّا نجد أقواماً علماء متفلسفين يصنّفون الكتب في تحسين الأخلاق ويأمرون الناس بها وهم أسوء الناس خلقاً ، ونجد أقواماً ليس لهم كثير علم مهذّبي الأخلاق كما وصفنا .فقد تبيّن أنّ حسن الأخلاق

(١) سورة الطلاق ٢ - ٣ .

(٢) سورة ابراهيم ، ٧

من مواهب الله العظام ، كما قال في الخبر : « قد فرغ الله من الخلق و الخلق والرزق و الأجل » وقد مدح الله نبيّه محمّداً ﷺ بحسن الخلق فقال : [١] «وإنّك لعلى خلق عظيم» وقال عزّ وجلّ [٢] : «ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك» وقد قيل [٣] «إنّ الإنسان بحسن الخلق يدرك في الجنّة درجة الصائم» لأنّ حسن الخلق من أخلاق الملائكة وشيمة أهل الجنّة كما ذكر في القرآن فقال تعالى : [٤] «حاش لله ماهذا بشراً إن هذا إلّا ملك كريم» وسوء الخلق من أخلاق الشياطين وأهل النار يحسد بعضهم بعضاً و يبغض بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً كما ذكر في القرآن العزيز [٥] : « كلّما دخلت أمّة لعنت أختها » وقال تعالى [٦] : « لامرحبا بهم إنّهم صالو النار * قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم» وقال [٧] « فإنّهم يومئذ في العذاب مشتركون » .

واعلم أيّها الأخ أنّ قوّة نفوس إخواننا المؤمنين في هذا الأمر الّذي نشير إليه ونحثّ عليه أربع مراتب :

أولها صفاء جوهر نفوسهم وجودة القبول ، و سرعة التصوّر ، وهي مرتبة أرباب ذوي الصنائع في كلّ مدينة، وهي القوّة العاقلة المميّزة لمعاني المحسوسات ، الواردة على القوّة الناطقة بعد خمس عشرة سنة من مولد الجسد .

وإلى هذا أشار بقوله تعالى : [٨] « و إذا بلغ الأطفال منكم الحلم » وهم الّذين نسمّيهم في مخاطباتنا : إخواننا الأبرار الرحماء .

وفوق هذه المرتبة الرؤساء ذوي السّياسة وهي مراعاة الإخوان بسخاء النفس

---

(١) سورة القلم : ٤ .
(٢) » آل عمران : ١٥٩ .
(٣) بل رواية نبوية تراها في الارشاد ٢١٩ .
(٤) سورة يوسف ٣١ . أقول : وهذا في حسن الخلق ، بفتح الخاء.
(٥) » الاعراف : ٣٧ .
(٦) » ص : ٥٩-٦٠ .
(٧) » الصافات : ٣٣ .
(٨) » النور : ٥٩ .

والإعطاء والرحمة والتحنّن عليهم وهي القوّة الحكميّة الواردة على القوّة العاقلة بعد ثلاثين سنة من مولد الجسد .

إليها أشار بقوله تعالى : [١] « ولمّا بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً » وهم الّذين نسمّيهم إخواننا الأخيار الفضلاء .

والمرتبة الثالثة فوق هذه وهي مرتبة الملوك ذوي السلطان و الأمر و النهي و النظر والقيام لدفع الظلم والعناد والمنع من الخلاف والفساد عند ظهور الظلمة والمخالفين لأمر الشريعة بالرفق واللطف والمداراة في إصلاحه وهي القوّة الناموسيّة الواردة بعد مولد الجسد بعد أربعين سنة .

وإليها أشار بقوله تعالى [٢] : « ولمّا بلغ أربعين سنة قال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه » إلى آخر الآية . وهم الّذين نسمّيهم إخواننا الفضلاء الكرام .

و الرابعة فوق هذه وهي الّتي ندعو إليها إخواننا كلّهم في أيّ مرتبة كانوا من مراتب الكمال . وهي التسليم وقبول التأييد، وهي القوّة الملكيّة الواردة بعد خمسين سنة من مولد الجسد وهي الممهّدة للمعاد ، المبعّدة عن الزيغ ، المدنية إلى الرشاد ، فينبغي لمن وصل إليها يستعدّ للاخرة ، ولأحوال القيامة من البعث و الحشر و النشر و الحساب والميزان والجواز على الصراط ، والنجاة من النيران ودخول الجنان .

وإلى هذه المرتبة أشار بقوله تعالى [٣] : « يا أيّتها النفس المطمئنّة * ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة * فادخلي في عبادي * وادخلي جنّتي »

وإليها أشار إبراهيم عليه السلام بقوله : « واجعلني من ورثة جنّة النعيم » .

وإليها أشار يوسف عليه السلام بقوله [٤] : « توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين »

وإليها أشار محمد صلى الله عليه وآله بقوله : « إنّكم تردون عليّ الحوض غداً » وأحاديث مرويّة .

---

(١) سورة القصص : ١٤ .
(٢) » الاحقاف : ١٥ .
(٣) » الفجر : ٢٧ - ٣٠ .
(٤) » سورة يوسف : ١٠١ .

وإليها أشار سقراط بقوله يوم سقي السمّ : إنّي وإن كنت أفارقكم إخواناً فضلاء فإنّي ذاهب إلى إخوان كرام قد تقدّموني . وحديثه طويل .

وإليها أشار فيثاغورس في الرسالة الذهبيّة إلى آخرها بقوله : إنّك إن فعلت ما أوصيك به فإنّه عند مفارقة الجسد تبقى في الجوّ محكيّاً في الهواء غير عائد إلى الإنسيّة ولا قابل للموت .

و إليها أشار بلوهر حين قال : إنّ الملك قال لوزيره : ومن أهل هذه المقالة ؟ قال : هم الّذين يعرفون ملكوت السماء . في حديث طويل .

وإليها ندعو نحن إخواننا جميعاً والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وإليها أشار بقوله [١] : « والله يدعو إلى دارالسلام » وفي آيات كثيرة في القرآن هذا المعنى ، وهي كلّ آية فيها ذكر الجنان وأهلها ونعيمها .

واعلم أنّ كلّ مقرّ بهذا القرآن وبكتب الأنبياء عليهم السلام وإخبارهم عن الغيب فهم في ذلك على منازل أربع : إمّا مقرّ بلسانه غير مصدّق بقلبه [أو مقرّ بلسانه ومصدّق بقلبه] غير عارف بمعانيه و بيانه ، أومقرّ ومصدّق ومتيقّن ولكن غير قائم بواجب حقّه [أو مقرّ ومصدّق ومتيقّن قائم بواجب حقّه] [٢] .

فالمقرّ بلسانه غير المصدّق بقلبه فهو الّذي رزق من الفهم والتمييز قليلاً ، فإذا فكّر بعقله وميّز ببصيرته ما يدلّ عليه ألفاظ الكتب النبويّة لا يقبله عقله لأنّه لا يتصوّر معانيها اللطيفة وإشاراتها الخفيّة ، فينكرها بقلبه ويشكّ فيها .

وأمّا من أقرّ بلسانه وصدّق بقلبه فهو الّذي يتفكّر و يعلم أنّ مثل هذا الأمر الجليل الّذي اتّفقت على تحقيقه الأنبياء والأئمّة المهديّون وصالحو المؤمنين لايجوز أن يكون لاحقيقة له ، ولكن فهمه وتمييزه وعقله يقصر عن إدراكه وتصوّره لها بحقائقها .

وأمّا من قد عرف بيانه ولكن قصّر في القيام بواجبه فهوالّذي وفّقه الله وأرشده و اهتدى بحقائق هذه الأسرار المذكورة في كتب الأنبياء ولكن لايجد له على القيام بنصرتها

---

(١) سورة يونس : ٢٥ .

(٢) بين المعقوفين من النسخة . (ر)

وواجب حقّها ، لأنّه وحيد وليس كلّ أمريتمّ بواحد من الناس ، بل ربّما يحتاج إلى الجمع العظيم وخاصّة أُمور الشرع ونواهيه ، فإنّه كلّما كثر أهله استقام الدين .

وينبغي لإخواننا إذا أراد أحدهم أن يتّخذ صديقاً مجدّداً أو أخاً مستأنفاً أن يعتبر أحواله ، ويتعرّف أخباره ، ويجرّب أخلاقه ويسأله عن مذهبه واعتقاده ليعلم هل يصلح للصداقة وصفو المودّة وحقيقة الأُخوّة أم لا ، لأنّ في الدنيا أقواماً طباعهم متغايرة متضادّة خارجة عن الاعتدال ، وعادتهم رديئة مفسدة إمّا للدين أو الدنيا ، و مذاهبهم مختلفة غاية الاختلاف إلّا من عصمه الله وسدّده ووفّقه للرشاد وأيّده . فمنهم شيعيّ وسنّي ، وحشويّ وقدريّ ، وزيديّ وفطحيّ ، وغال وخارجيّ ، وخيّر وشرّير ، وشكور و كفور ، و أمين و خائن ، وحليم وسفيه ، وسخيّ وبخيل ، وشجاع وجبان ، وتقيّ وشقيّ ، وودود وحسود ، وعفيف وفجور ، و صبور و جزوع ، وشره وقنوع ، وسلس و شرس ، و فظّ غليظ و لطيف رفيق ، وعاقل وأحمق ، وعالم وجاهل ، ومحبّ ومبغض ، وموافق ومخالف ، ومخلص و منافق ، وناصح وغاشّ ، ومتواضع ومتكبّر ، وصديق وعدوّ ، ومؤمن وزنديق ، وعارف ومنكر ، و مقبل ومدبر ، وما شاكل هذه من المذاهب المختلفة والأخلاق المحمودة والمذمومة مضادّات بعضها لبعض .

واعلم بأنّ أسوء هذه الطوائف كلّها حالاً من لا يؤمن بيوم الحساب ، و شرّ الأخلاق كبر إبليس و حرص آدم وحسد قابيل ، وهي أُمّهات المعاصي .

واعلم يا أخي بأنّ الناس مطبوعون على أخلاقهم بحسب اختلاف تركيب مزاج أجسادهم ، وسبب اختلاف مزاج أجسادهم بحسب اختلاف الفلك في أصل مواليدهم ، وقد بيّنوا ذلك في موضعه غير أنّي أقول : إنّما ذكرت لك أيّها الأخ هذه الأخلاق الحسنة مع أضدادها لتعلم أنّ أهل زماننا هذا قد ألفوا الأضداد بأسرها ، وباشروها بأنفسهم وأبدانهم بل صارت لهم شعاراً ودثاراً ، بل صارت كالأغذية المربّية[1] لكثرة استعمالهم لها واشتغالهم بها صارت بمنزلة الأخلاق الحسنة عندهم ، ولا يلتفتون إلى نصيحة خير ناصح ، بل يكون بزعمهم نصحه هو الجنون الواضح ، إذا قال لهم مثلاً : النصيحة خير من الغشّ والعقل خير من

(١) في الاصلين « التربة » .

الجنون وأمثال ذلك،أنكروه و سفّهوا القائل به .

واعلم بأنّ من الناس من هو مطبوع على خلق واحد أو عدّة أخلاق منها محمودة و منهامذمومة،وأنّ العادات الرديئة تقوّي الأخلاق الرديئة،والعادات الجميلة تقوي الأخلاق المحمودة ، وهذاحكم الآراء والاعتقادات ، فإنّ من الناس من يرى ويعتقد في دينه ومذهبه أنّه حلال له سفك كلّ دم مخالف له في مذهبه ، ومن الناس من يرى و يعتقد في دينه و مذهبه الشفقة والرحمة للناس كلّهم ويرثي للمذنبين ويستغفر لهم ، و يتحنّن على كلّ ذي روح من الحيوان ، ويريد الصلاح للكلّ ، وهذا مذهب الأبرار و الزهّاد و الأخيار و الصالحين من المؤمنين .

فينبغي لك أيّها الأخ البارّ الرحيم أيّدك الله وإيّانا بروح منه إذا أردت اتّخاذ صديق أوأخ شفيق أن تنقده كما تنتقد الدراهم والدنانير والأرض الطيّبة التربة للزرع و الغرس ، كما ينتقد أبناء الدنيا المرأة للتزويج ،وشراء المماليك ،والأمتعةالّتي يشترونها .

واعلم أنّ الخطب في اتّخاذ الإخوان أجلّ وأعظم خطراً من هذه كلّها ، لأنّ إخوان الصدق هم الأعوان على أمور الدين والدنيا جميعاً ، وهم أعزّ من الكبريتالأحمر فإذا وجدت منهم واحداً فتمسّك به،فإنّه قرّة العين ونعيم الدّنيا وسعادة الآخرة ، لأنّ إخوان الصدق والصفاءهم نصرة على الأعداء ، وزين عند الأخلاّء ، و أركان يعتمد عليهم عند الشدائد والبلوى ، وظهر يستند إليهم عند دفع المكاره في السرّاء و الضرّاء ، و كنز مذخور ليوم الحاجات وجناح خافض عند المهمّات وسلّم للصعود إلى المعالي ووسيلة إلى القلوب عند طلب الشفاعات ، وحصن حصين يلتجأ إليهم يوم الروع والفزعات ، فإن غبت حفظوك،وإن تضعضعت عضدوك ، وإن رأوا عدوّاً لك قمعوه ، الواحد منهم كالشجرةالمباركة تدلّت[1] أغصانها إليك بثمرها ، وأظلّتك بأوراقها وطيب رائحتها ، وسترتك بجميل أفنانها فإن ذكرت أعانك ، وإن نسيت ذكّرك،يأمرك بالبرّ ويسابق إليه ، ويرغبّك في الآخرة ويبادربك إليه ويدلّك عليه ، ويبذل ماله ونفسه دونك .

فإن أسعدكالله أيّها الأخ بأخ هذه صفتهفابذل له نفسكومالك ، وقِ عرضه بعرضك

(١) تدلى الثمر : تعلق واسترسل .

وافرش له جناحك ، وأودعه سرّك وشاوره في أمرك ، وداو برؤيته عينك ، و اشغل نفسك إذا غاب عنك بذكره ، والفكر في أمره ، وإن هفا[١] هفوة فاغفر له ، وإن زلّ زلّة صغّرها عنده ، ولاتوحشه فيخاف من حقدك ، واذكر إحسانه عند إساءته ليأنس بك و يأمن من غائلتك فإنّ ذلك أسلم لودّه وأدوم لإخائه .

واعلم ياأخي أنّ من الناس من لايصلح للصداقة والأُخوّة والمعاونة أصلاً والبتّة ، فانظر لمن تصحب ولمن تعاشر ولا تغترّ بظاهر الأُمور من غير معرفة بواطنها ، ولا بحلاوة العاجل قبل النظر في مرارة عاقبتها ، فإذا أردت اتّخاذ أخ أوصديق فاعتبر أوّلاً أحواله وجرّب أخلاقه وسائله عن مذهبه واعتقاده ، فانظر في عاداته وسجيّته وشمائله وحركاته ، فإنّه لايخفى على المتفرّس بواطن الأُمور إذا نظر ظواهرها .

واعلم أنّ من الناس من يتشكّل لك بشكل الصديق ويتدلّس عليك بشبه الموافق ويظهر لك المحبّة ويضمر خلافها فلا تغترّ أوتبيّن .

واعلم أنّ أعمال الناس في ظاهر أُمورهم تكون بحسب أخلاقهم الّتي جبلوا عليها ، وبحسب عاداتهم الّتي نشؤوا عليها ، وبحسب آرائهم الّتي اعتقدوها .

فإذا رأيت معجباً صلفاً أونكداً لجوجاً أوفظّاً غليظاً مضاحكاً مرائياً أوممارياً أوحسوداً أوحقوداً ، أومنافقاً ، أو بخيلاً شحيحاً ، أوجباناً مهيناً ، أومكّاراً غدّاراً ، أو متكبّراً جبّاراً أوحريصاً شرهاً ، أوكان محبّاً للمدح والثناء - كما هوحال أصحابنا أطال الله بقاءهم ، ولا كثّرالله من أمثالهم و لعمري إنّها رزيلة مذمومة ، و خصلة مشومة ، خصوصاً إذا أحبّ المدح والثناء أكثر ممّا يستحقّ - أوكان متّكلاً على حوله و قوّته ، فاعلم[٢] أنّه لايصلح للصداقة إذاكانت واحدة من هذه العيوب في رجل ، فكيف إذا كانت كلّها أو أكثرها ، فالفرار الفرار ممّن ارتكبها ، لأنّ هذه الأخلاق والآراء والعادات القاهرات مفسدة للاعتقاد بالإخوان ، وذلك أنّ من يستجيز المطالبة بما لايجب له لاتسمح[٣] نفسه ببذل مايجب عليه ، وهكذا الحسود واللجوج والغضوب تمنعه هذه الأخلاق عن الإذعان للحقّ ، وهكذا المرائي و

(١) هفا يهفو ذل .
(٢) جواب لقوله « فاذا رأيت الرجل » .
(٣) في الاصلين : « ولا تسمح » .

النكد يمنعان عن قطع الجدال والخلاف ، و كذلك الفظاظة والغلظة تمنعان عن العذوبة والسهولة ، والشراسة والغضب يهيجان على المكابرة .

و بالجملة كلّ هذه الأخلاق مفسدة للمودّة ، مخالفة لصفو الأُخوّة ، و مستثقلة للنفوس ، وموحشة لأُنس الأرواح ، ومنفّرة للطباع ، ومنغّصة للعيش ، و منقّصة للحياة .

واعلم أنّ الصداقة لاتتمّ بين مختلفين بالطبع لأنّ الضدّين لايجتمعان ، مثال ذلك السخيّ و البخيل فإنّهما متضادّان في الطبع ، فلا تتمّ بينهما الصداقة ، ولا تصفو لهما المودّة ، ولا يهنأهما العيش ، لأنّه إذا فعل السخيّ شيئاً ممّا يوجبه سخاؤه من بذل المال أوالمعروف رآه البخيل بصورة المضيع ، فقد فعل مالاينبغي ولا يجوز . و إذا فعل البخيل بطبعه شيئاً ممّا يوجبه بخله رآه السخيّ بصورة من قدأتى منكراً لايحسن فعله . فيصير ذلك سبباً لعيب كلّ واحد منهما على صاحبه ، حتّى يعتقد البخيل في السخيّ سخف الرأي والتضييع وترك النظر للعواقب ، ويعتقد السخيّ في البخيل النزالة و الرداءة و صغر النفس وقصور الهمّة.فإذا وقع ذلك بينهما ودام صارت وحشيّة.وتواترت حتّى تصيرعداوة وتنتهي العداوة إلى المصادمة والمنازعة .

وهكذاالقياس في كلّ خلّتين مختلفتين متضادّتين فإنّهماتوجبان المنازعةوالمنازعةتوجب المغالبة ، والمغالبة تنتج المغايظة ، و المغايظة توجب المباغضة ، والمباغضة ضدّ للصداقه.

واعلم يا أخي انّ مثل اتّخاذ الأصدقاء والإخوان كمثل اكتساب المال والذخائر وذلك أنّ من الناس من يفني عمره في طلب صديق موافق لايجده ، فمثله كالّذي يفني عمره في طلب جمع المال فلا يقدر عليه ، ومنهم من يكون مرزوقاً من كثرة المال ، و منهم من يحسن كسب المال ولكن لايحسن حفظه . وهكذا حكم اتّخاذ الإخوان و الأصدقاء ، و ذلك أنّ من الناس من يكون مرزوقاً من كثرة الإخوان و الأصدقاء ، و منهم من يحسن اتّخاذ الأصدقاء و الإخوان و لكن لا يحسن حفظهم و مراعاة أُمورهم ، فيصيرون إلى العداوة بعد الصداقة ، وإلى المباغضة بعد المودّة ، و ينبغي لك أيّها الأخ أن يكون أكثر كدّك و عنايتك بعد اتّخاذ الصديق بحفظه و مراعاة أمره وأداء حقوقه [1] حتّى

(١) بهامش النسخة (ر) بخط حديث :

سألت الناس عن خل وفيّ • فقالوا : ماإلى هذا سبيل
تمسك ان ظفرت بذيل حر • فان الحرفي الدنيا قليل

لاتصير الصداقة عداوة ، ويعود طول الصحبة بملالة أوضجر أوشكوك أوظنون في شبهة تدخل في المودّة ، أوبنميمة ووشاية من مخالف يسعى بينهما بالفساد ، فتفقّد هذا الباب لاتغفل عنه .

واعلم يا أخي أنّ الإنسان كثير التلوّن قليل الثبات على حالة واحدة ، وذلك أنّ من الناس من يحدث له حال من أُمور الدنيا من غنى إلى فقر ، أومن فقر إلى غنى ، أومن حضر إلى سفر ، أومن عزبة إلى تزويج ، أومن ذلّ إلى عزّ ، أومن عطلة إلى شغل ، أومن بؤس إلى نعمة ، أومن رفعة إلى ضعة ، أومن ضعة إلى رفعة ، أومن صناعة إلى تجارة ، أو من صحبة قوم إلى صحبة قوم آخرين ، أومن رأي و مذهب إلى رأي ومذهب ، أومن شباب إلى شيخوخة ، أومن صحّة إلى مرض ، أويحدث له خلق جديد وسجيّة أُخرى تغيّر خلقه مع إخوانه ، وتتلوّن مودّته مع أصدقائه ، إلّا إخوان الصفاء الّذين ليست مودّتهم وصداقتهم بسبب خارج من ذاتهم ، وذلك أنّ كلّ صداقة تكون بسبب ما ، فإذا انقطع ذلك السبب بطلت تلك الصداقة إلّا صداقه إخوان الصفاء ، و ذلك أنّهم يرون و يعتقدون أنّهم نفس واحدة في أجساد متفرّقة ، فكيفما تغيّرت حالات الأجساد ، فحقيقة[1] النفس بحالها لاتتغيّر ولا تتبدّل كماقيل :

وفي الجسم نفس لاتشيب بشيبه　　*　　ولو أنّ ماء الوجه منه خراب
لها ظفر إن كلّ ظفر أعدّه　　*　　و ناب إذا لم يبق في الفم ناب
يغيّر منّي الدهر ما شاء غيرها　　*　　وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب

وخصلة أُخرى أنّ أحدهم إذا أحسن إلى أخيه إحساناً فلا يمنّ عليه لأنّه يرى ويعتقد أنّ إحسانه إلى نفسه كان ، وإن أساء إليه أخوه لم يستوحش منه لأنّه يرى بأنّ ذلك كان منه إليه ، فمن اعتقد في أخيه مثل هذا واعتقد فيه أخوه مثل هذا فقد أمن كلّ واحد من أخيه غائلته أو تغيّره يوماً من الأيّام بسبب من الأسباب و وجه من الوجوه . فينبغي لك ـ أيّدك الله ، وإيّانا بروح منه ـ إذا وجدت منهم واحداً أن تختاره على جميع أصدقائك وأقربائك وعشيرتك وجيرانك وأترابك الّذين نشؤوا معك ، فإنّه خيرلك من ولدك الّذي من ظهرك ، ومن أخيك الّذي من صلب أبيك ، و زوجتك الّتي جعلت كلّ

(١) في الاصلين « وحقيقة النفس » .

كسبك لها وجميع سعيك من أجلها.فاعرف حقّه كما تعرف حقوقهم ، و ينبغي أن تؤثره عليهم كلّهم ، لأنّ هؤلاء ربّما يحبّونك من أجل منفعة تصل منك إليهم ، أو يريدونك من أجل دفع مضرّة بك عنهم ،فإذا استغنوا عنك زهدوا فيك ورغبوا إلى غيرك ، وخذلوك أحوج ماتكون إليهم ، وأمّا هذا الأخ فليس يريدك من أجل شيء خارج ، بل من أجل أنّه يرى ويعتقد أنّك إيّاه ، وهو وإيّاك نفس واحدة في جسدين متقابلين ، يسرّك ما يسرّه ويغمّك مايغمّه .

واعلم أنّ قلوب الأخيار صافية ، لأنّ نفوسهم طاهرة . ولا يخفى عليهم خفيّات الأمور ، لأنّها تتراءى فيما كما تتراءى في أعين البصير خفيّات الأمور ، فلا تضمرنّ لإخوانك الأصفياء خلاف ماتظهر لهم ، فإنّ ذلك لايخفى عليهم ولا ينكتم منهم . وفّقك الله أيّها الأخ للصواب ، وهداك للرشاد و جميع إخواننا حيث كانوا في البلاد ، و وفّق سائر المؤمنين إلى السداد إنّه رءوف جواد

﴿ فصل ١١ ﴾

✡(في ماهية الايمان والخصال الحسنة الصادرة من نفوس المؤمنين)✡
✡(وآدابهم وبعض المنامات التي تراها أنفسهم المهذبة)✡
✡(وضدها ماتعتاده الابدان المذنبة)✡

اعلم أيّها الأخ البارّ - أيّدك الله وإيّانا بروح منه - بأنّ نعم الله سبحانه كثيرة، لايحصي عددها إلّا الله، ولكن نذكر طرفاً ممّا يخصّ الإنسان وهي نوعان: أحدهما من خارج الجسد كالمال والعزّ والقرين والولد ومتاع الدنيا، والآخر في النفس، وهو نوعان: حسن الخلق، والآخر ذكاء النفس وصفاء جوهرها، وهي الأصل في جميع المعارف.

واعلم ياأخي بأنّ الناس كلّهم على أربع منازل في هذه النعم: فمنهم من قد رزق العلم ولم يرزق الإيمان، ومنهم من قدرزق الإيمان ولم يرزق العلم، و منهم من حرمهما جميعاً قد بخس حظّه منهما، و إلى هؤلاء أشار بقوله تعالى [1]: « يرفع الله الّذين آمنوا منكم والّذين اُوتوا العلم درجات » وبقوله عزّ و جلّ « و قال الّذين اُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث و لكنّكم كنتم لا تعلمون » فخبّر بهذا عن شرفهم في المعارف إذكان علم البعث والقيامة من أشرف العلوم.

فأمّا الّذين اُوتوا الإيمان ولم يرزقوا العلم فهم طائفة من الناس يقرّون بما في كتب الأنبياء من أخبار الغيب وأمر المبدء والمعاد و أحوال الملائكة و مقاماتهم، وحديث البعث والقيامة والحشر والنشر و الحساب و الميزان و الصراط و جزاء الأعمال في النشأة الآخرة و نعيم الجنان، وما شاكلها من الاُمور الغائبة عن الحواسّ، البعيدة من تصوّر الأوهام وهم مع إقرارهم ساكنة نفوسهم بما أخبرت به الأنبياء. وأشارت إليه العلماء و الحكماء، من الثواب في المعاد ونعيم الجنان، مصدّقون لهم في السرّ والإعلان، راغبون فيها، طالبون لها، عاملون من أجلها، ولكنّهم تاركون للبحث عنها و الكشف لها و

(١) سورة المجادلة: ١١

والنظر في حقائقها ، كيف وأين ومتى ولمَ ، وإليهم أشار سبحانه :[١] «فسلام لك من أصحاب اليمين » ولهم الأمن واليمن والإيمان .

وأمّا الّذين رزقوا حظّاً من العلم ولم يرزقوا الإيمان فهم طائفة من الناس نظروا في كتب الفلاسفة والحكماء وبحثوا عنها ، وارتاضوا بما فيما من الآداب مثل الهندسة و التنجيم والطبّ والمنطق والطبيعيّات وما شاكلها فأعجبوا بها و تركوا النظر في كتب النواميس والتنزيلات النبويّة والبحث عن أسرار الموضوعات الشرعيّة ، و الكشف عن خفيّات الرموز الناموسيّة ، فعميت عليهم الأنباء ، فهم شاكّون في حقائقها ، متحيّرون في معرفة معانيها ، جاهلون بلطيف أسرارها ، غافلون عن عظيم شأنها ، وإليهم أشار سبحانه[٢] « وفرحوا بما عندهم من العلم» .

وأمّا الّذين حرموا العلم والإيمان جميعاً فهم طائفة من الّذين أترفوا في هذه الحياة الدنيا ، فهم مشغولون الليل والنهار بطلب شهواتها ، مغرورون بعاجل حلاوات لذّاتها و نعيمها ، تاركون بطلب الآداب ، معرضون عن العلم وأهله ، غافلون عن أمر الديانات و وأحكام الشرائع و مفروضات السنن الّتي هي طبّ النفوس ، وطب الآخرة ، و إليه أشار بقوله تعالى : [٣] «وأترفناهم في الحياة الدنيا » وقال تعالى[٤] : « ذرهم يأكلوا ويتمتّعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » وقال سبحانه :[٥] « يأكلون كما تأكل الأنعام و النار مثوى لهم » .

وأمّا الّذين اُوتوا من العلم والإيمان حظّاً جزيلاً فهم إخواننا العلماء الكرام الفضلاء الأخيار النجباء ، وإليه أشار تبارك وتعالى بقوله : « يرفع الله الّذين آمنوا منكم و الّذين اُوتوا العلم درجات » وقد أخبرنا عن مذهبهم و آدابهم المنقولة عن أئمّتهم عليهم السلام .

---

(١) سورة الواقعة : ٩١ .
(٢) » المؤمن : ٨٣ .
(٣) » المؤمنين : ٣٣ .
(٤) » الحجر : ٣ .
(٥) » محمد : ١٢ .

فاقتدوا بها أيّها الإخوان الأبرار ! فلعلّكم توفّقون للعمل بتأييد الله لكم وبروح منه فتحيون حياة العلماء ، وتعيشون عيش السعداء ، وتموتون ميتة الشهداء ، و تدخلون الجنّة زمراً .

واعلم يا أخي أنّ خير شيء يرزق الإنسان السعادة وهي نوعان : داخل وخارج ، فالداخل نوعان : أحدهما في الجسد ، والآخر في النفس والخارج أيضاً نوعان : أحدهما ملك اليد كالمال ومتاع الدنيا والآخر القرين من أبناء الجنس كالزوجة و الصديق والولد والأخ والأستاد والمعلّم و الصاحب والسلطان والرئيس .

ومن أسعد السعادات أن يتّفق لك يا أخي معلّم رشيد عارف بحقائق الأمور مؤمن بيوم الحساب ، عالم بأحكام الدين ، بصير بأمور الآخرة ، خبير بأحوال المعاد ، مرشد لك إليها ، ومن أنحس المناحس أن يكون ضدّ ذلك .

واعلم أنّ المعلّم والأستاد أب لنفسك وسبب لنشوئها ، و علّة لحياتها ، كما أنّ والدك أعطاك صورة جسدانيّة فمعلّمك أعطاك صورة روحانيّة وذلك أنّ المعلّم يغذّي نفسك بالعلوم ، ويزيّنها بالمعارف ، ويهديها طريق الآخرة الّتي هي دار البقاء والدوام و الخلود في النعيم واللّذة والسرور الأبديّ والراحة السرمديّة ، كما أنّ أباك كان سبباً لجسدك في الدار الدنيا ، ومرشدك و مربّيك إلى طلب المعاش ، فهي الّتي هي دار الفناء و التغيّر ساعة فساعة ، فأسأل يا أخي أن يوفّق لك معلّماً رشيداً هادياً سديداً ، فإذا رزقت فاشكر الله على نعمائه .

واعلم يا أخي أنّ في الناس إخواناً يتشبّهون بأهل العلم و يتلبّسون بأهل الدين، لا الفلسفة يعرفونها ، ولا الشرعيّة يتحقّقونها ، ومع هذا يدّعون معرفة حقائق الأشياء و يتعاطون النظر في خفيّات الأمور الغامضة البعيدة ، وهم لا يعرفون أنفسهم الّتي هي أقرب الأشياء ، ولا يميّزون الأمور الجليّة ، ولا يتفكّرون في الموجودات الظاهرة المدركة بالحواسّ المشهودة بالعقول ، ثمّ ينظرون في الطفرة والتفكيك و الجزء الّذي لا يتجزّى وماشاكلها من المسائل في الأمور المتوهّمة الّتي لاحقيقة لها في الهيولى ، وهم شاكّون في الأشياء الجليّة الظاهرة ، ويدّعون فيها المحالات بالمكابرة في الكلام ، والحجاج في الجدل

مثل دعواهم أنّ قطر المربّع مساولأحد أضلاعه ، وأنّ النار لاتحرق ، و أنّ شعاع البصر جسم يبلغ في طرف عين إلى فلك الكواكب وأنّ علم النجوم باطل ، وما شاكل هذا من الزور والبهتان فاحذرهم فإنّهم الدجّالون الذلق الألسن ، العميان القلوب ، الشاكّون في الحقائق ، الضّالون عن الصواب .

واعلم أنّهم محنة على العلماء ، كذّابون على الأنبياء ، يتخيّلون مالا يتحقّقون ، ويدّعون مالا يعرفون ، و يتكلّمون بما لايحسنون وماهم إلّا كما وصفهم ربّ العالمين فقال تعالى : [1] « بل هم قوم خصمون » يهيمون في أودية ما يتوهّمون ، و يقولون مالا يفعلون أعاذك الله وإيّانا من شرّهم ، فإنّهم أعداء فاحذرهم .

واعلم يا أخي أنّ من سعادتك أيضاً أن يتّفق لك معلّم ذكيّ ، جيّد الطبع حسن الخلق ، صافي الذهن ، محبّ للعلم ، مبغض للرئاسة ، قنوع متوكّل غير شره ، ولا مداهن ولا متعصّب ، قد أخذ علمه من العلماء الأخيار ، عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام .

واعلم أنّ مثل أفكار النفوس قبل أن يحصل فيها علم من العلوم و اعتقاد من الآراء [2] كمثل رقّ أبيض نقيّ لم يكتب فيه شيء ، فإن كتب فيه شيء حقّاً أو باطلاً فقد شغل المكان ، ومن أن يكتب فيه شيء آخر ، ويصعب حكّه ومحوه . فكذا حكم أفكار النفوس إذا سبق إليها علم من العلوم واعتقاد من الآراء وعادة من العادات تمكّن فيها حقّاً كان أو باطلاً ، فيصعب قلعها ومحوها كما قال الشاعر :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى * فصادف قلبي فارغاً فتمكّنا

فإذا كانت الأمور كما وصفت فينبغي لك أيّها الأخ أن تقتدي بالراغبين ، المريدين طريق الحقّ ، الطالبين دار الآخرة ، المؤمنين بيوم الحساب ، المستعملين شرائع الأنبياء ، الباحثين في أسرار كتبهم ، التاركين للهوى والجدال .

واعلم ياأخي ! أنّ درجات المؤمنين في الإيمان متفاوتة ، كما أنّ العلماء متفاوتون في درجات العلوم ، وذلك أنّ الإنسان لايبلغ درجة إلّا يلوح له فوقها درجات لم يبلغها بعد كما ذكر الله سبحانه بقوله [3] : « وفوق كلّ ذي علم عليم » وإذ قد بان لك من فضيلة

(١) سورة الزخرف : ٥٨ .
(٢) في الاصلين «من الاء» .
(٣) » يوسف : ٧٦ .

العلم والإيمان ما تقدّم ذكره فنريد أن نذكر ماهيّة كلّ واحد منهما ونبيّن كمّيّته و كيفيّته ، فنقول :

إنّ العلم هو صورة المعلوم في نفس العالم ، واعلم أن ربّ صورة في نفس العالم ليس لها وجود في الهيولى ، فتحتاج أن تنظر في هذا الباب نظراً شافياً ، فإنّ أكثر ماتدخل الشبهة على العلماء من هذا الباب .

وأمّا الإيمان فهو التصديق للمخبر فيما قال وأخبر عنه ، ولكن ربّ مخبر بخلاف ما في نفسه فيكون كاذباً إن كان قاصداً لذلك ، و ربّ مصدّق إيضاً لكذّاب و هذا الباب يحتاج إلى نظر شاف ، لأنّ أكثر الشبهة تدخل على القابلين و المستمعين من هذا الباب .

واعلم يا أخي ! بأنّ الإيمان يورث العلم لأنّه متقدّم الوجود على العلم و من أجل هذا دعت الأنبياء الأمم إلى الإقرار أوّلاً بما خبّرت به وتصديق ماكان غائباً عنهم ، و من إدراك حواسّهم وتصوّر أوهامهم ، فإذا أقرّوا بألسنتهم سمّوهم عند ذلك المؤمنين ، ثمّ طالبوهم بتصديق القلب ، كما قال سبحانه : [١] « و من يؤمن بالله يهد قلبه » فإذا وقع التصديق بالقلب سمّوهم الصدّيقين كما قال سبحانه : [٢] « و الّذي جاء بالصدق و صدّق به أولئك هم المتّقون » .

واعلم أنّ أوّل ما يبدء به الإيمان هو التصديق من الأنبياء للملائكة بما يخبرونهم ممّا ليس في طاقة البشر تصوّره قبل إخبار الملائكة لهم ، كما قال : [٣] « آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربّه والمؤمنون » إلى آخر الآية .

واعلم يا أخي أنّ الملائكة أيضاً هم محتاجون إلى الإيمان ، لأنّهم متفاوتون في درجات العلوم كما خبّر عنهم فقال : [٤] « وما منّا إلّا له مقام معلوم » و أنّ من أشرف الملائكة حملة العرش الّذين هم في أعلى المقامات في العلوم وهم أيضاً محتاجون إلى الإيمان

---

(١) سورة التغابن : ٩ .

(٢) » الزمر : ٣٣ .

(٣) » البقرة : ٢٨٥ .

(٤) » الصافات : ١٦٤ .

كما خبّر عنهم ، فقال سبحانه [١] : « الّذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربّهم ويؤمنون به» .

واعلم ياأخي بأنّك أيضاً محتاج إلى الإيمان والتصديق بقول المخبر لك الّذي هو فوقك في العلم وأعلى منك في المعارف ، لأنّك إن لم تؤمن بما يخبرك عنه حرمت أشرف العلوم وأجلّ المعارف .

واعلم بأن ليس لك طريق إلى تصديق المخبر لك في أوّل الامر إلّا حسن الظنّ في تصديقه ، ثمّ على ممرّ الأوقات يتبيّن لك حقيقة ذلك ، فلاتطالبه بالبرهان في أوّل الامر ، ولكن اجتهد في تصوّر ما تسمع بأُذنك في فكرك ، ثمّ اطلب الدليل والبرهان بعد ذلك ، ولا ترض بالتقليد إذا توسّطت في العلم ولا تطلب البرهان في أوّله ، ولكن هلمّ يا أخي إلى مجلس إخوان لك فضلاء وأصدقاء لك أخياراً علماء ، وادّين لك نصحاء تسمع أقاويلهم وترى شمائلهم ، وتقف على أسرارهم ، وتتصوّر بصفاء جوهر نفسك ما تصوّر بصفاء جوهر نفوسهم ، وتنظر بعين قلبك كما نظروا بعيون قلوبهم ، وترى بنور عقلك ما رأوا بنور عقولهم ، فلعلّك أن تنبّه نفسك من نوم الغفلة و رقدة الجهالة ، و تحيا بروح العلم ، و تعيش عيش السعداء ، وتصل إلى ما وصلوا إليه ، وتقف على ماوقفوا عليه وتكون هناك بنفسك الطاهرة الزكيّة النقيّة الشفّافة مسروراً فرحاً منعّماً ملتذّاً أبداً ، لا يحسدك الثقيل المظلم المتغيّر المستحيل الفاسد . و فّقك الله أيّها الأخ البارّ الرحيم و هداك للدخول في هذا الباب ، وجميع الإخوان إنّه هو الكريم التوّاب .

واعلم يا أخي أنّ ماهيّة الإيمان واضحة بالدليل والبرهان وذلك أنّ الله سبحانه قد أكثر مدح المؤمنين في القرآن ، وجعل وعدهم في الآخرة وثوابهم الجنّة ، لأنّ الإيمان خصلة تجمع الخيرات البشريّة كلّها وفضائل الملائكة جميعاً ، وضدّ الإيمان هو الكفر ، وقد أكثر الله سبحانه ذمّ الكافرين و جعل وعيدهم جهنّم لأنّ الكفر خصلة تجمع الشرور كلّها ورذائل الشيطنة جميعاً ولا حاجة لذكر ماهيّته ، و الّذي نذكره الآن هو ماهيّة الإيمان :

---

(١) سورة المؤمن : ٧ .

اعلم بأنّ الإيمان يقال على نوعين : ظاهر وباطن ، فالإيمان الظاهر هو الإقرار بأنّ للعالم صانعاً واحداً حيّاً قادراً حكيماً هو خالق الخلق كلّهم و مدبّرهم لا شريك له في ذلك .

والثاني هو الإقرار بأنّ له ملائكة هم صفوته من خلقه ، نصبهم لعبادته وخدمته و جعلهم حفظة لعالمه ، وو كّل طائفة منها بضرب من تدبير خلائقه ممّا في السماوات والأرضون لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون .

والثالث الإقرار بأنّه قد اصطفى طائفة من بني آدم و جعلهم واسطة بينهم و بين الملائكة لتلقي إليهم الملائكة عن ربّها ، ويلقون هم إلى بني آدم ما يقبلونه من الملائكة بالوحي والإنباء .

والرابع الإقرار بأنّ هذه الكتب الّتي جاءت بها الأنبياء عليهم السلام باللغات المختلفة مأخوذة معانيها من الملائكة إلهاماً ووحياً .

والخامس الأقرار بأنّ القيامة كائنة لامحالة ، وهي النشأة الآخرة و أنّ الخلق كلّهم يبعثون و يحشرون فيحاسبون و يثابون بما عملوا من خير و معروف و يجازون بما عملوا من شرّ ومنكر و ذلك قول الله سبحانه [1] : « و المؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته و كتبه ورسله » .

وهذا هوالإيمان الظاهر الّذي دعت الأنبياء الأمم المنكرة لهذه الأشياء إلى الإقرار بها وهو يؤخذ منهم تلقيناً كما يتلقّن الصغار من الكبار والجهّال من العلماء .

وأمّا الإيمان الّذي هو الباطن فهو إضمار القلب باليقين على تحقيق هذه الأشياء المقرّ بها باللسان . فهذا هوحقيقة الإيمان ، فأمّا المؤمن في ظاهر الأمر فهو المقرّ بهذه الأشياء بلسانه المتميّز من اليهود والنصارى والصابئين و المجوس والّذين أشركوا و بهذا الإقرار تجري عليه أحكام المسلمين من الصلاة و الزكاة والحجّ والصوم وما شاكلها من مفروضات شرائع الإسلام وسنّة المؤمنين .

وأمّا الّذين مدحهم الله في كتبه و وعدهم الجنّة فهم الّذين يتيقّنون بضمائر

(١) سورة البقرة : ٢٨٥ .

قلوبهم حقائق هذه الاشياء المقرّ بها، والطريق إليه هو التفكّر والاعتبار والقيام بشرائطها و واجب حقّها.

وأمّا أُمراء المؤمنين وهم الّذين عرّفونا حقيقة الإيمان بما وصل إليهم عن آبائهم المعصومين عن جدّهم سيّد المرسلين الّذي لاينطق عن الهوى بل هو وحي يوحى.

فمن ذلك ما رواه الشيخ الجليل و الفاضل الأثيل خادم حديث رسول الله ﷺ محمّدبن عليّ بن بابويه رحمه الله في خصاله[1] قال: حدّثنا حمزة بن أحمدالعلوي قال: حدّثنا أبوالحسن عليّ بن محمّد البزّاز قال: حدّثنا أبوأحمد داودبن سليمان الغازي قال: حدّثني عليّ بن موسى الرضا قال: حدّثني أبي موسى بن جعفر قال: حدّثني جعفربن محمّد قال: حدّثني أبي محمّدبن عليّ قال: حدّثني أبي عليّ بن الحسين قال: حدّثني أبي الحسين بن عليّ قال: حدّثني أبي أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان إقرار باللسان ومعرفة بالقلب وعمل بالأركان».

قال أبوحاتم: لوقرئ هذا الإسناد على مجنون لبرئ.

واعلم ياأخي بأنّ العامّة إذا روت حديثاً مسلسلاً عن أئمّتنا الأطهار مثل هذا الحديث سمّوه باصطلاحهم سلسلة الذهب، بل لعمري إنّ هذه السلسلة في هذا الحديث و غيره ينبغي أن تسمّى سلسلة الإيمان لأنّ الإيمان منهم وعنهم وفيهم و إليهم مآله.

و روي ابن بابويه في أماليه[2] قال: حدّثنا محمّد بن موسى بن الريّان بن الصلت عن الرضا عليّ بن موسى عن أبيه موسى بن جعفر [عن أبيه جعفر] بن محمّد عن أبيه محمّدبن عليّ عن أبيه عليّ بن الحسين عن أبيه الحسين بن عليّ قال: رأى أميرالمؤمنين رجلاً من شيعته بعد طول عهد طويل، وقد أثّر السنّ فيه، وكان يتجلّد في مشيه فقال عليه السلام: كبر سنّك يا رجل! قال: في طاعتك ياأميرالمؤمنين، فقال: إنّك لتتجلّد؟ فقال: على أعدائك يا أميرالمؤمنين، فقال عليه السلام: أجد فيك بقيّة، قال: هي لك ياأميرالمؤمنين.

---

(١) راجعه (١: ٨٤).

(٢) انظره ص ١٠٧ والاسناد فيه هكذا: محمد بن موسى بن المتوكل قال: حدثنا على بن ابراهيم بن هاشم عن أبيه عن الريان بن الصلت. وبين المعقوفين من النسخة (ر).

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « ثمرة الإيمان ثلاثة أشياء : الحبّ في الله ، و البغض في الله ، والحياء من الله تعالى » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله[١] : « ثلاث خصال من كنّ فيه استكمل خصال الإيمان : الّذي إذا رضى لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل ، وإذا غضب لم يخرجه الغضب عن الحقّ ، و إذا قدر لم يتعاط ماليس له » .

وقال صلى الله عليه وآله : « أعلى منازل الإيمان درجة واحدة من بلغ إليها فقد فاز و ظفر ، و هو أن تنتهي سريرته في الصلاح إلى أن لايبالي بها إذا ظهرت ، ولا يخاف عقابها إذا سترت » .

وقد أمر الله المؤمنين بثلاثة فقال : « اتّقوا الله » باتّقاء معاصيه و اتّباع ما يأمركم به « وأصلحوا ذات بينكم » أي الحال الّتي بينكم بالمواساة ومساعدة بعضكم بعضاً فيمارزقكم الله وترك الخصومة والمنازعة بالصلح والمحبّة و تسليم الامر إلى الله « وأطيعوا الله ورسوله » ولا تخرجوا عمّا أمرتم به « إن كنتم مؤمنين » مصدّقين بالله ورسوله ، فإنّ الإيمان يقتضي ذلك و إن كنتم كاملي الإيمان فإنّ كماله بهذه الثلاثة أعني اجتناب المناهي الّذي هو في معنى الاتّقاء ، و اتّباع الأوامر ، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان والمساعدة على الحقّ كما دلّ عليه قوله تعالى[٢] : « و تعاونوا على البرّ و التقوى » الآية « إنّما[٣] المؤمنون الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربّهم يتوكّلون » فزعت لذكره استغظاماً له وتهيّباً لجلاله ، وقيل : هو الرجل يهمّ بالمعصية ، فيقال له : اتّق الله ، فينزع منه خوفاً من العقاب .

و المراد بالآية كاملو الإيمان لعدم اعتبار مثله في أصل الإيمان كما دلّ عليه قوله في موضع آخر : [٤] « الّذين يقيمون الصلاة ومّما رزقناهم ينفقون * أولئك هم

---

(١) رواه في الخصال (١ : ٥٢) .

(٢) سورة المائدة : ٣

(٣) » الانفال : ٢ .

(٤) » الانفال : ٤

المؤمنون حقّاً » حكم عليهم بتحقّق الإيمان فيهم . ولم يعتبروا الوجل عند الذكر ، فاقتضى أنّها صفة زائدة توجب كماله .

« وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً » لزيادة المؤمن به ، فإنّ الإيمان بالآيات يوجب ازديادها بازديادها ، ولاطمينان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلّة أو بالعمل بموجبها ، وهو قول من قال : الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية بناء على دخول العمل فيه وهو قول مرغوب عنه .

وقد تحقّق ممّا ذكرنا أنّ زيادة الإيمان تكون على ثلاثة أنحاء :

الأوّل بتقوية الدليل وبكثرته ، فإنّ كلّ دليل فهو مركّب لامحالة من مقدّمات ولا شكّ أنّ النفوس مختلفة في الإشراق والإنارة ، و الأذهان متفاوتة بالذكاء و الغباوة ، و كلّ من كان جزمه بالمقدّمات أكثر وأدوم كان علمه بالنتيجة أكمل وأتمّ .

الثاني بتعدّد التصديق وتجدّده ، فمن المعلوم أنّ من صدّق إنساناً في شيئين كان تصديقه أزيد من تصديق من صدّقه في شيء واحد .

الثالث أن يقال : الإيمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل ، و إذا كان عبارة عن مجموع الثلاثة فبسبب دخول التفاوت في العمل يظهر التفاوت في الإيمان و إن لم يكن التفاوت في الإقرار والاعتقاد متصوّراً .

« وعلى ربّهم يتوكّلون » يفوّضون إليه اُمورهم بالتوكّل عليه والإنابة إليه .

فهذه ثلاثة من علامات المؤمنين الكاملين في الإيمان ملحقة بالثلاثة الاُول المذكورة في الآية السابقة على هذه الآية ، الّتي جعل ختامها التوكّل .

واعلم ياأخي أنّ التوكّل من أحد شرائط الإيمان كما قال سبحانه [1] : وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين » وقال لنبيّه صلى الله عليه وآله [2] : «وتوكّل على الحيّ الّذي لايموت» ونريد أن نبيّن ما التوكّل ومن المتوكّل على الله بالحقيقة .

اعلم يا أخي أنّ التوكّل هو الاعتماد على الغير عند الحاجة بأن ينوب عنك فيها.

---

(١) سورة المائدة : ٢٦ .

(٢) » الفرقان : ٥٨ .

واعلم أنّه إذا كان المتوكّل عليه ثقة كان قلب المتوكّل عليه ساكناً ونفسه مطمئنّة وإذا كان غير ثقة يكون قلب المتوكّل عليه غير ساكن ونفسه غير مطمئنّة .

واعلم يا أخي بأنّ الناس كلّهم متوكّلون ولكنّ أكثرهم توكّلهم على غير الله ، من ذلك توكّل الصبيان على آبائهم فيما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس وغيرها من الحاجات ، فهم طول النهار مشغولون باللعب ، لا يفكّرون في أمر المعاش ، ولا يهمّهم طلبه لاتّكالهم على آبائهم ، وقلوبهم ساكنة ، ونفوسهم هادئة ، لثقتهم بآبائهم . وهكذا العبيد مشغولون بخدمة مواليهم لا يفتكرون في المعاش اتّكالاً على مواليهم فيما يحتاجون إليه ، وهكذا جنود السلاطين وخدمهم لا يفتكرون في أمر المعاش اتّكالاً على سلطانهم في أرزاقهم المفروضة لهم ، فهم مشغولون في خدمة سلطانهم .

وأمّا غير هؤلاء من الناس فهم طائفتان : الأغنياء و الفقراء ، فالأغنياء اتّكالهم على ذخائرهم وأموالهم ، فقلوبهم ساكنة ونفوسهم هادئة ولكنّ الحرص والرغبة في الزيادة تحثّهم على الطلب وهم في الطلب متوكّلون على رؤوس أموالهم وحرفهم و حذقهم بالبيع و الشراء في طلب الربح .

وأمّا الفقراء فمنهم الصنّاع والّذين يعملون الحرف و العمل بأبدانهم ، فاتّكالهم على صنائعهم وقوّة أبدانهم ، وأمّا المكدّيون فاتّكالهم على الناس في مواساتهم من فضل ما في أيديهم .

فبهذا الاعتبار لا تجد أحداً متوكّلاً على الله إلّا الأنبياء عليهم السلام و صالحي المؤمنين ، وذلك أنّ الأنبياء قبل أن يوحى إليهم كانوا كأحد أبناء الدنيا في طلب المعيشة ، حتّى إذا جاءهم الوحي والنبوّة تركوا طلب المعاش واشتغلوا بتبليغ الرسالة ، ويتوكّلون على الله فيما يحتاجون إليه من عروض هذه الدنيا ، ويثقون به ، وتطمئنّ نفوسهم لأنّهم يعلمون ويتيقّنون بأنّ مرسلهم يكفيهم ما يحتاجون إليه إذا اشتغلوا بخدمته ، كما أنّ الملوك يكفون جنودهم ما يحتاجون إليه في إطاعتهم لهم ، و كما أنّ الموالي يكفون عبيدهم ما يحتاجون إليه في خدمتهم لهم .

و كذلك المؤمنون المحقّون الّذين هم ورثة الأنبياء يقتدون بهم ويسلكون مسلكهم

فيما دلّهم الله عليه ، فقال عزّ وجلّ[١] «لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة» فالتوكّل إذاً إحدى الخصال الّتي يتبيّن بها المؤمن المحقّ من غيره .

واعلم يا أخي أنّ من شرائط الإيمان الإخلاص في العمل ، وهو من خصال المؤمنين وفي الدعاء كما أمر الله سبحانه فقال : [٢] « فادعوا الله مخلصين له الدين» والإخلاص في العمل أن لاتطلب بما في أوامر الشرع ونواهيه جزاء ولاشكوراً من أحد من الخلق ، مثل إخلاص الوالدين في تربيتهما الأولاد ، لايطلبان من أحد جزاءً ولا شكوراً ، لأنّهم قد علموا وجوبه في الجبلّة . ومثل إخلاص العبيد الصالحين الّذين يخدمون مواليهم من غير خوف من الضرب ، ولاطلب للعوض ، لأنّهم قد علموا بأنّ خدمتهم هي شيء يقتضيه الحكمة و السياسة كما بيّنّاه في مواضع .

واعلم يا أخي بأنّ العبد الّذي يخدم مولاه خوفاً من الضرب للعوض عبد سوء ، و كذلك من لايطيع ربّه إلّا خوفاً من النار ، أورغبة في الأكل والشرب والجماع في الجنّة فهو أيضاً عبد سوء ، والعبد السوء لايكون مخلصاً في الدعاء ولا في العمل ، و أما الإخلاص في الدعاء فلايكون إلّا عند انقطاع الحيلة والتبرّي من الحول والقوّة ، والمثال في ذلك ركّاب البحر ، وذلك أنّهم يدعون الله ويسألونه السلامة عند دخولهم السفينة ، ولكن غير مخلصين لاتّكالهم على الربّان والملّاحين ، حتّى إذا توسّطوا البحر وهاجت الأمواج ، و اضطرب المركب ، واشتدّ الأمر ، ودهش الربّان ، وفزع الملّاحون ، وأشرفوا على الهلاك فعند ذلك يدعون الله مخلصين له الدين ، لأنّهم قد علموا أنّه لايقدر أحد من الخلق على معاونتهم ، ولا قوّة لأحد على دفع ماورد عليهم إلّا الله سبحانه ، لاتتعلّق قلوبهم بسبب من الأسباب ، إلّا أن يكون فيهم إنسان يعرف أحكام النجوم ، وقد عرف العلّة الموجبة لماهم فيه من مناحس الفلك ، ويعلم أنّ النحس دافع تدبيره إلى سعد من سعود الفلك ، ويكون قلبه متعلّقاً به ، فإنّه إن كان يدعو ربّه معهم لايكون دعاؤه مخلصاً ، حتّى يتبيّن له أنّ النحس مستمرّ ، أودافع التدبير إلى نحس أشرّ منه ، فعند ذلك ينقطع رجاؤه من جهة النجوم ، فيكون دعاؤه بإخلاص .

---

(١) سورة الاحزاب : ٢١. (٢) سورة المؤمن : ١٤ .

واعلم يا أخي أنّ مثل هذه الأحوال الّتي ترد على بني آدم ، و فزع العقلاء إلى الله سبحانه ، ودعاء العارفين له بالكشف عنهم ماورد عليهم ، يكون فيها تلقيناً للجاهلين بالله ، وهداية للنفوس إلى معرفته ، فيعلمون عند ذلك بنظرهم إلى العقلاء في دعائهم ، و تضرّعهم إلى الله بالكشف عنهم ماهم فيه أنّ لهم إلهاً حيّاً قادراً عالماً يسمع دعاءهم ، و يعلم ماهم فيه ، وقادر على نجاتهم ، وهو يراهم وإن كانوا لا يرونه ، ولا يدرون أين هو إذ ليس هو بمكان ، وعلى هذا القياس كلّما يصيب الناس من الجهد والبلاء ، فيضطرّهم ذلك إلى الدعاء والتضرّع إلى الله سبحانه ، مثل الغلاء و الوباء ، وآلام الأطفال ، ومصائب الرجال الأخيار ، وماشا كلها من الأمور السماويّة الّتي لا سبيل لأحد في دفعها عنهم إلّا الله سبحانه ، فيكون ذلك دلالة لهم على الله سبحانه وهداية إليه ، كما قال عزّ و جلّ [١] : « أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ءإله مع الله » .

ومن شرائط الإيمان الصبر على البلاء ، وهو من خصال المؤمنين كما قيل : «الصبر رأس الإيمان » وقال سبحانه : [٢] « واصبر وما صبرك إلّا بالله » وقال تعالى للمؤمنين [٣] : « اصبروا وصابروا ورابطوا » .

واعلم يا أخي أنّ الصبر هو الثبات في حال الشدائد بلاجزع ، لما يرجى من محمود العاقبة معه. والصبر مشتق من مرارة الصبر ، والصبر مرّ لايتجرّعه إلّا كلّ حرّ ، وقد ذكرنا بعض فضائل الصبر في الاثني عشريّة .

واعلم أنّ النّاس أكثرهم يصبرون في الشدائد ، ولكن لايكون صبرهم بالله ولالله، لأنّهم يجزعون ويضطربون ، و يشكّون و يظنّون بالله ظنّ السوء كما قال تعالى في قصّة المنافقين [٤] : « الظانّين بالله ظنّ السوء عليهم دائرة السوء » و ذلك أنّ منهم من ظنّ أنّ هذه الشدائد الّتي أصابتهم جور منه قضاها عليهم ومنهم من ظنّ أنّه ليس من قضائه وحكمه ، ومنهم من ظنّ أنّه ليس يعلم ماهم فيه الجهد و البلوى ، و منهم من يعلم أنّه

(١) سورة النمل : ٦٢ .
(٢) » النحل : ١٢٧ .
(٣) » آل عمران ٢٠٠ .
(٤) » الفتح : ٦

يعلمه ولكن يظنّ أنّه لا يفكّر فيهم ولا يهمّه ، ومنهم من يظنّ أنّه قاسي القلب قليل الرحمة وما شاكل ذلك من ظنّ السوء ، فاستوجبوا من الله تعالى الغضب واللعنة كما هو في آخر الآية المذكورة .

وأمّا الأنبياء والمؤمنون فإنّهم يصبرون في الشدائد والبلوى ، ويكون صبرهم بالله ولله ، وذلك أنّهم يرون و يعتقدون أنّ هذه الشدائد الّتي تصيب الخلق فيها ضروب من المصلحة لهم ، وإن كانت تخفى على كثير من العقلاء ، وما تلك الحكمة في ألم نفوس الحيوان دون سائر النفوس الّتي في العالم ، فذكروا أنّ الحكمة فيها هي حثّ نفوسها على حفظ أجسادها من التلف والفساد .

واعلم ياأخي أنّ اعتقاد الأنبياء و المؤمنون أنّ في الشدائد الّتي تصيبهم مصلحةً لهم نتجت من المقدّمة الّتي أقرّوا بها ، وهي قولهم إنّ للعالم صانعاً واحداً حيّاً قادراً حكيماً ، وأنّه قد رتّب أمر عالمه على أحسن النظام والترتيب ، في إتقان الحكمة ، حتّى أنّه لا يجري أمر من الأمور صغارها و كبارها إلّا وفيها ضروب من الحكمة ، و فنون من الصلاح لايعلمها إلّا هو ، فتسليم هذا الجسم الضعيف إلى الحكيم اللطيف غاية الرضا بقضائه و قدره و نهاية الانقياد لأمره و زجره . ومن شرائط الإيمان إيضاً و خصال المؤمنين الرضا بالقضاء والقدر وهو طيبة النفس ممّا يجري عليه من المقادير ، وجريان المقادير قيل هو موجبات أحكام النجوم وهذا القول مناف للتسليم بما يفعله الصانع بخلقه .

وقد قالوا : إنّ القضاء هو علم الله السابق بما توجبه أحكام النجوم ويقال : إنّ الرضا بالقضاء هو أوّل أعمال بني آدم الّتي تصعد إلى السماء ، وهو أشرف شرائط الإيمان ، وأفضل خصال المؤمنين ، قال الله سبحانه [1] : « لقد رضي الله عن المؤمنين » و قال [2] : «رضي الله عنهم ورضوا عنه » .

واعلم ياأخي أنّه لايوجد أحد طيّب النفس بما يجري عليه من أمر المقادير المرّة إلّا العارفون بحرمة الناموس ، ولايعرف أحد حرمة الناموس كما يجب إلّا الأنبياء عليهم السلام

---

(١) سورة الفتح : ١٨ .

(٢) » المائدة : ١٢٢ .

والمؤمنون فإنّهم يعرفون ماهيّة الناموس الإلهيّ وشرائط النبوّة ، وكمّيّة خصالهم ، و مذاهب الربّانيّين، والغرض منها هو التنبيه على أسرارهم الكتب النبويّة ، ومرامي مرموزاتهم الموضوعة الشرعيّة ، والتهدّي إليها ، و كيفيّة الكشف لها، ومن الإمام المنتظر. هذا ملخّص معرفة الناموس الالهيّ .

إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ الرضا بالقضاء مرتبة عالية ، لا ينالها إلّا الصدّيقون ، فمن علامة الراضي منهم بالقضاء وما تجري به المقادير أنّه ينقاد لحكم الناموس طيّب النفس ، مثل ما انقاد سقراط حكيم اليونانيّين ، وذلك أنّ هذا الحكيم أوجب عليه القاضي القتل بشهادة العدول أنّه واجب قتله بشبهة دخلت على القوم ، فانقاد سقراط للقتل ، طيّبة به نفسه ، فقيل له : هوذا تقتل مظلوماً فهل لك أن نفديك بفدية أو تفرّ ؟ فقال لهم سقراط : أخاف أن يقول لي الناموس غداً : لمَ فررت من حكمي ؟ فقالوا له : تقول : لأنّي كنت كنت مظلوماً ، فقال لهم : إن قال لي الناموس : إن ظلمك الشهود الّذين شهدوا عليك بالزور فكان الواجب أن لا تظلمني أنت ولا تفرّ من قضائي وحكمي ، فخصمهم بهذه الحجّة وانقاد للقتل طيّبة به نفسه راضياً بحكم الناموس ، ثمّ قال : من تهاون بحكم الناموس قتله الناس .

وقد انقاد أيضاً قبل سقراط للمقادير أحد ابني آدم إذ قال له أخوه لأقتلنّك قال لهابيل[1] : «لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إنّي أخاف الله ربّ العالمين* إنّي اُريد أن تبوء بإثمي وإثمك » فرضي بقضاء الله الّذي هو علمه السابق بالكائنات [2] قبل كونها إذ لا يكون بخلاف ما علم .

ومثل ما رضيت السحرة بقضاء الله لمّا هدّدهم فرعون بالصلب فقالوا له: « اقض ما أنت قاض إنّما تقضي هذه الحياة الدنيا » وذلك أنّ القوم قد علموا بأنّه ليس له سلطان على نفوسهم ، إنّما كان سلطانه على أجسادهم فقالوا : « إنّا آمنّا بربّنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر » فانقاد القوم للمقادير وسلّموا أجسادهم إلى حكم فرعون طيّبة بها أنفسهم .

---

(١) سورة المائدة : ٣١ . (٢) في الاصلين : الكائنات .

ومثل ما رضي رسول الله ﷺ يوم أُحد لمّا قتل خيار أنصاره و فضلاء المهاجرين و و كسرت رباعيّته وجرى عليه من المقادير الفلكيّة ماجرى فقيل : يارسول الله ! لو دعوت الله على المشركين بالهلاك لما فعلوا بك ، فقال ﷺ : « رحم الله أخي نوحاً فإنّ غوغاء قومه كانوا ربّما ضربوه فكان يقول : اللّهم لاتؤاخذ قومي فإنّهم لا يعلمون ، و أنا أقول : اللّهمّ اهد قومي فإنّهم لايعلمون» .

ولمّا بلغ الخبر المدينة بما جرى على رسول الله ﷺ خرج أهل المدينة يتعرّفون خبر إخوانهم فخرجت امرءة من الأنصار تسأل عن زوجها فقيل لها : إنّه استشهد ، فسألت عن أبيها ، فقيل لها مثل ذلك ، فسألت عن أخيها فقيل لها مثل ذلك ، انّهم استشهدوا جميعاً ، فسألت : أليس قد سلم رسول الله ﷺ ؟ قالوا : نعم ، قالت : في بقائه عوض عن الكلّ .

ومثل رضاء الحسين عليه السلام يوم كربلا لمّا اشتدّ به العطش وطلب الماء فقالوا له : تنزل على حكم ابن زياد حتّى نخلّي سبيلك فقال : ولكن على حكم الله ، و علم أنّه مقتول ، فقاتل حتّى قتل راضياً بقضاء الله ، وبما جرت به المقادير طيّبة بها نفسه .

واعلم يا أخي بأنّ هذه النفوس الطاهرة الزكيّة الّتي تقدّم وصفها إنّما صارت راضية بقضاء الله الّذي هو علمه السابق في خلقه ، و صبرت لما جرى عليه المرّة الّتي هي موجبات الرضا ، والفوز بدرجات العلى ، لما كانوا يرجون من الخير في المنقلب وما ينال من السعادة والروح والراحة بعد المفارقة ، ممّا يقصر الوصف عنها ، وإليها أشار بقوله[1]: « فإنّهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالايرجون » وقال تعالى : [2] « فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرّة أعين » وقال سبحانه [3] : « إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب » ومن علامة المؤمنين المحقّين ألّا يخافون ولا يرجون إلّا الله كما أنّ الأولاد لايخافون ولايرجون إلّا الآباء والأُمّهات ، وهكذا العبيد لايخافون إلّا من المؤدّب ، و

---

(١) سورة النساء : ١٠٣ .
(٢) » فصلت : ١٧ .
(٣) » الزمر : ١٠ .

التلامذة لايخافون إلّا من الأُستاذين ، و هكذا الجند لايخافون إلّا من صاحب الجيش ، والناس كلّهم لايخافون إلّا من سلطانهم القادر عليهم وعلى نفعهم وضرّهم ، وهكذا الملائكة لايخافون إلّا من ربّهم ، و هكذا العلماء أيضاً كما حكي عن الملائكة : [١] « يخافون ربّهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون » وقال : [٢] « إنّما يخشى الله من عباده العلماء » و الّذين يشاهدونه ويرونه و كما قال تعالى [٣] : « والشهداء عند ربّهم » و كما قال رسول الله ﷺ حين سأله الأعرابيّ ما الإحسان ؟ فقال : « أن تعمل لله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك » فهذه الرؤية والمشاهدة هي بعين الحقيقة ، وهي أن لاترى في الدارين أحداً غيره .

وأعلم أنّ من شرائط الإيمان وخصال المؤمنين الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة كما رغّب الله نبيّه ﷺ فقال : [٤] « و للآخرة خير لك من الأُولى » و قال [٥] : « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » وقال تعالى [٦] : بل تؤثرون الحياة الدنيا* والآخرة خير وأبقى » وآيات كثيرة في القرآن في التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة

واعلم يا أخي أنّ الإنسان مطبوع على أن يترك النفع الحاضر العاجل و يزهد فيه ، ويطلب الغائب الآجل ويرغب فيه ، إلّا بعد مايتبيّن له فضل الآجل على العاجل .

واعلم بأنّ الأنبياء والأولياء والأوصياء والمؤمنين إنّما زهدوا في الدنيا و تركوا عاجل شهواتهم ورغبوا في الآخرة ، وطلبوا آجل نعيمها [لمّا تبيّن لهم حقيقة الآخرة ، و عرفوا فضل نعيمها] [٧] على نعيم الدنيا ، وشاهدوها بعيون قلوبهم و نور عقولهم ، كما شاهد أبناء الدنيا أُمورها بحواسّهم .

---

(١) سورة النحل : ٥٠ .
(٢) » فاطر : ٢٨ .
(٣) » الحديد : ١٩ .
(٤) » الضحى : ٤ .
(٥) » الانفال : ٦٨ .
(٦) » الاعلى : ١٧ .
(٧) زيادة من النسخة (ر) .

واعلم بأنّ الطريق إلى معرفة الآخرة ومشاهدة أحوالها هي الاعتبار و التفكّر في أُمور الدنيا و المقايسة بينها و بين أُمور الآخرة بالعقول السليمة من الآراء الفاسدة، و النفوس الصافية من الأخلاق الرديئة، وبنتائج المقدّمات الضروريّة الصحيحة.

بيان ذلك أنّ العاقل اللبيب إذا فكّر في قول الجمهور من الناس و تسميتهم هذه الدار الّتي نشؤوا فيها باسم الدنيا، و ذمّهم نعيمها يدلّ على الأُولى، لأنّهما من جنس المضاف.

ومن وجه آخر: إذا اعتبرت أحوال الناس في الدنيا وجدتهم كلّهم طائفتين: أخياراً و أشراراً:

فأمّا الأخيار فهم الّذين يعملون من الأعمال مارسم لهم في النواميس الإلهيّة أو يفعلون ما أوجبته العقول السليمة، ولا يطلبون على ذلك عوضاً من جرّ منفعة إلى أجسادهم أودفع مضرّة عنها فعند ذلك يقال: إنّهم أخيار على الإطلاق و أنّهم من أبناء الآخرة. وأمّا الّذين يطلبون العوض ممّا يعملون من الخير والشرّ لجرّ المنفعة إلى أنفسهم أودفع المضرّة عنها، ولا يفكّرون في المعاد، ولا يرجون في الآخرة الخير، ولا يخافون العقاب، ولا يهمّهم أمر النفس و النظر في حالها بعد الموت فيقال عند ذلك: إنّهم أشرار و أنّهم من أبناء الدنيا.

ووجه آخر، إذا اعتبروا أحوال هؤلاء الأخيار الّذين تقدّم ذكرهم و أنّهم قد أفنوا أعمارهم كلّها فيما وصفنا من أفعال الخير، ثمّ ماتوا ولم يحصل لهم عوض على ما عملوه قبل الموت، فتعلم العقول وتقضي بالحقّ أنّ ذلك لا يضيع عندالله سبحانه، فيصحّ بهذا الاعتبار أنّ بعد الممات الّذي هو مفارقة النفس الجسد حالة أُخرى تجازى فيها نفوس الأخيار، وهي تسمّى دارالآخرة.

وهكذا إذا اعتبرت حال الأشرار الّذين سعوا في الأرض الفساد طول أعمارهم، ثمّ ماتوا ولم يعاقبوا على مافعلوا، فتعلم العقول و تقضي بأنّ هؤلاء لم يفوزوا، و أنّ حالهم بعد الممات ليس كحال أُولئك الأخيار، وذلك قوله تعالى [1]: «أم حسب الّذين

(١) سورة الجاثية: ٢٠.

اجترحوا السيّئات أن نجعلهم كالّذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم و مماتهم ساء ما يحكمون » .

واعلم يا أخي أنّ العلوم كلّها شريفة ونيلها عزّ ، ولكن أشرفها وأعزّها و أجلّها هو معرفة الإنسان نفسه وحقيقة جوهر ما يتصرّف الإنسان به ، حالاً بعد حال إلى أن يبلغ إلى أقصى مدى غاياته ، الّتي هوقاصد نحوها ، وهو أن يتّقي ربّه ، إمّا في الدنيا قبل الممات وإمّا في الآخرة بعد الفراق .

واعلم يا أخي بأنّ هذا الباب من العلم هو لبّ الألباب ، وجذر العلوم ، و عنصر الحكمة . فاجتهد في طلبه ، فإنّك به تنال شرف الدنيا والآخرة ، ولكن تريد أن نذكر في هذا الفصل أشرف الاُمور الّتي ينالهاالإنسان ، وأعلى رتبة يبلغ إليها قبل الموت ماهي ولكن قبل ذلك نحتاج أن نبيّن أوّلاً ما الإنسان ، إذ كان من أعجب الموجودات الّتي تحت فلك القمر وأشرفها تركيباً ، وأحسنها صورة ، ثمّ نخبر بعد ذلك عن الاُمور الّتي ينالها ويبلغ إليها فنقول :

إنّ الإنسان إنّما هو جملة مجموعة من جسد جسمانيّ في أحسن الصور ، و نفس روحانيّة من أفضل النفوس .

واعلم ياأخي بأنّ لكلّ واحدمن جزءيه غاية ينتهي إليها ، ونهاية إليها يرتقي فأعلى رتبة ينالها الإنسان بجسده ، وأشرف منزلة يبلغها ببدنه هي سرير الملك و السلطان على أجسادأبناء جنسه ، والقهر والغلبة بالقوّة الغضبيّة . فأمّا أعلى رتبة ينالهاالإنسان من جهة نفسه وأشرف درجة يبلغها بصفاء جوهرها فهي قبول الوحي الّذي به يعلو الإنسان على سائر أبناء جنسه ، وبه يغلبهم بما يدركه من المعارف الحقيقيّة بالقوّة الناطقة ، ولمّا تبيّن أنّ النفس أشرف جوهراً من الجسد صارت الرتبة الّتي ينالها الإنسان بنفسه أشرف وأعلى من الّتي ينالها بجسده ، لأنّ هذه جسمانيّة دنياويّة ، وتلك روحانيّة اُخراويّة .

ولمّا تبيّن أنّ الوحي هو أشرف موهبة ينالها الإنسان في الدنيا أردنا أن نبيّن ما الوحي ، و كيفيّة قبول النفس له ، فنقول : إنّ الوحي هو الإنباء عن اُمور غائبة عن الحواسّ تنقدح في نفس الإنسان من غير قصد منه ولا تكلّف .

وأمّا قبول النفس الوحي فعلى ثلاثة أوجه: منها مايكون في المنام عند ترك النفس استعمال الحواسّ ، و منها مايكون في اليقظة عند سكون الجوارح وهدوء الحواسّ وهما نوعان : إمّا استماع صوت من غير رؤية شخص ، و إمّا رؤية شخص بإشارات و إيماء ، قال الله سبحانه [1] : « و ما كان لبشر أن يكلّمه الله إلّا وحياً أو من وراء حجاب أويرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء » و سنوضح كيفيّة كلّ واحد من هذه الوجوه الثلاثة . ونبدء أوّلاً بوصف قبول النفس الوحي في المنام كيف يكون ، إذ هذا الباب هو أعمّ وأكثر ، ثمّ نذكر الّذي في اليقظة إذ كان أخصّ و أقلّ ، فنقول أوّلاً ما النوم وما الرؤيا :

فالنوم هو ترك النفس استعمال الحواسّ ، و الرؤيا هو تصوّر النوم ، و رسوم المحسوسات في ذاتها و تخلّيها للأمور الكائنة قبل كونها بالقوّة الفكريّة في حال النوم ، وسكون الحواسّ وسنوضح هذا فيما سيأتي ، ولكن من أجل أنّ قوماً من أهل الجدل ينكرون أمر النفس أنّها جوهرة ، ويجحدون وجودها احتجنا أن نبيّن ماالنفس وما حقيقة جوهرها وما الدليل على وجودها ، فنقول أوّلاً :

إنّ النفس هي جوهرة روحانيّة حيّة علّامة فعّالة . فأمّا الدليل على ما وصفنا فهو أكثر من أن يحصى ، لكن نذكر بعضها هنا ، فنقول :

إنّ من الدليل الواضح على أنّ مع جثّة الحيوانات جوهراً آخرهو غيرجسمانيّ وهو ما يظهر من أجسادها من الحسّ والحركة والأصوات والأفعال في حال الحياة ممّا لاخفاء به ، وفقدها كلّهافي حال الممات دليل على مفارقة تلك الجواهر الشريفة لأجسادها .

ومن الدليل أيضاً على وجود النفس مع الجسد وفراقها إيّاه بعد الموت بكاء الناس على موتاهم وحزنهم على فراق تلك النفوس ، فإن كان هذاالحزن والبكاء إنّما هو على هذه الأجساد فمالهم والبكاء والأجساد عندهم برمّتها ؟ ولو أرادوا حفظها من التغيّر و الفساد لكان ممكناً بأدوية تطلى عليها كالصبر والكافور والعسل وماشا كلها ، ولكن لاينفعهم ذلك من الحزن وقد فارقتها تلك الجواهر النفيسة .

---

(١) سورة الشورى : ٥١ .

ومن الدليل أيضاً على أنّ النفس جوهرٌ أفعالها الصادرة عنها من غير أن تستعمل آلات الحواسّ وحركات الجوارح ، وذلك أنّ الإنسان إذا أراد أن ينظر في علم غامض أو يبحث عن معنى دقيق حتّى يفهمه احتاج أن يسكن حركات جوارحه ، و يترك تأمّل المحسوسات ، ويغوص في فكره حتّى يمكنه أن يتصوّر ذلك الشيء ، ويفهم ذلك المعنى، فإذا فعل ذلك على ما وصفنا فربّما اجتاز به من يسلّم عليه ، أوكان بحضرته من يكلّمه، فلا يسمع ولا يحسّ مادام غائصاً في فكره ، يعرف حقيقة ما قلنا كلّ عاقل ارتاض في علم من العلوم .

فإن قال قائل : إنّ النفس و إن كانت في مثل هذه الحالة قد تركت استعمال الحواسّ وتحريك الجوارح ، فإنّها لم تترك استعمال البدن كلّه ؛ لأنّ الفكر لا يكون إلّا بتوسّط الدماغ ، كما أنّ البصر لايكون إلّا بالعين ، والسمع لايكون إلّا بالأذن . و كذلك سائر الحواسّ .

فلعمري إنّ القول كما قال ، ولكن إنّما أردنا أن نبيّن بهذا المثال أنّ النفس جوهرة فاعلة ، وإنّما هي المستعملة للدماغ والقلب وسائر الحواسّ والجوارح ، وأنّ هذه آلات لها ، وأدوات تظهر بها بعض أفعالها ، ولكن لها أفعال أُخر لاتحتاج فيها إلى أدوات جسدانيّة ولاآلات جسمانيّة وهي رؤيتها للمنامات وعجائب تصاريفها ممّا يراه أكثر الناس من الرجال والنساء والصبيان ، والعلماء والجهّال ، والأخيار والأشرار جميعاً من الأُمور الّتي يرون في حال اليقظة مثلها .

ومن ذلك ما ذكر أنّ ابن ملك وقع في أسر عدوّ له ، فاستعبده و كلّفه من الخدمة أشدّها . ومن الأعمال أشقّها مع قلّة المطعم والمشرب والعرى والضرب والاستخفاف حتّى نحل جسمه ، و ضعفت قواه ، وهرم شبابه ، و كلّ سمعه و بصره ، و استرخت مفاصله ، و اعتقل لسانه ، ثمّ حبسه في مطمورة ضيّقة مظلمة ، فطال حبسه واشتدّ جوعه و عطشه ، و غمّه وحزنه ، حتّى غشي عليه من شدّة الجهد والبلوى والضرّ الّذي هو فيه ، فبينا هو ذات ليلة مفكّر فيما هو فيه من البلاء والشقاء والجهد إذنام ، فرأى فيما يرى النائم كأنّه

في دار مملكته على سرير عزّه ، وقد رجعت إليه أيّام شبابه وقوّة بدنه ، و طراوة جسمه ، وصحّة حواسّه ، ونشاط شهواته ، و كأنّه في بستان من بساتينه كثير الأشجار ، تجري من تحتها الأنهار ، وعلى حافاتها رياحين و أزهار ، و أنوار يسطع منها ، و يفوح منها نسيم كنسيم الجنان ، وإذا هو بفتيان شباب أتراب إخوان له من أولاد الملوك ، عليهم لباس الجمال ، وهم قعود على كراسيّ موضوعة على حافات تلك الأنهار ، بأيديهم التحف يحيّي بعضهم بعضاً بالسلام ، و كأنّهم لمّا رأوه رأوا وراءهم ، استبشروا به لطول غيبته ، وفرح بهم لبعد غربته ، وكانوا قد رفعوه في صدر المجلس ، و أقبلوا عليه بالتحيّة والسلام ، وقد داخله من الفرح والسرور واللذّة مالا يوصف ولا يقاوم .

فإذا ترى يا أخي أيّما خير لذلك الإنسان و أحبّ إليه ؟ أن يبقي طول الدهر نائماً ملتذّاً مسروراً فرحاناً بما ترى نفسه في ذلك المنام ، أوينتبه فيحسّ بدنه بما فيه من تلك الآلام ؟ وماذا يقول من يزعم أنّ الإنسان إنّما هو الجسد وأنّ النفس لاحقيقه لها ولا وجود ، والآلام واللذّات والفرح والسرور والغمّ والحركات كلّها إنّما ينالها الجسد ، فليت شعري لم لاينال الجسد في حال النوم ذلك الألم والحزن وسائر ما به من الجهد و البلوى ، وهو موجود برمّته ، وتلك الأحوال باقية عليه ، ولازمة له عند رؤيا نفسه هذا المنام ، ونيلها ذلك الفرح والسرور .

وذكروا أيضاً أنّ رجلاً بالعراق أصلح مجلساً للشراب ، ودعا إخواناً له ، فلمّا فرغوا من الأكل ، وقعدوا على شرابهم ، وارتفعت أصوات العيدان والمزامير ، ودار الشراب فيهم وطربوا تأمّل رجل منهم عند ذلك ماهم فيه من اللذّة والفرح والسرور ، فرأى داراً ، وستوراً معلّقة ، وفرشاً منضّدة ، وأواني حساناً ، وفواكه ورياحين ، وشموعاً تزهر ، ومجامر مسجورة تسطع ، قد امتلأ حول ذلك الإيوان من الضياء والروائح الزكيّة والنغم ، و رأى فتياناً عليهم زيّ الجمال و لباس الكرامة ، وسادة عظماء ، وإخواناً متقابلين ، منغمسين في تلك اللذّات ، فبقي مفكّراً متعجّباً ، ممّا يرى و يسمع و يشمّ من تلك المجالس البهجة و اللذّات المنعمة للأجساد ، السارّة للنفوس ، الممتّعة للحواسّ ، المفرّحة للأرواح ، فلم يزل باهتاً حائراً يجيل فكره وطرفه فيما يرى ويسمع ، حتّى عفت عينه ، وغرق في نومه

حتّى لم يكن يحسّ بشيء ممّا كان في ذلك المجلس من المحبوبات ، ولا بماكان فيه من تلك الأفكار

فرأى فيما يرى النائم ، كأنّه في بلاد الروم في بيعة [١] من بيعهم ، و إذا بها مشتعلة القناديل المنقوشة بأنواع التصاوير ، مملوءة من الصلبان و الرهبان ، و كأنّه بقسّيسين عليها ثياب من المسوح وعلى أوساطها مناطق من السيور [٢] ، وبأيديهما مجامر معلّقة ، يطرحونها ويبخّرون فيها بالقسط [٣] والكندر ، و كأنّهم يقرءون بكلمات لهم شبه التسبيح ويلحنونها و يكرّرونها ، فلم يزالوا كذلك حتّى حفظها من طول تكرارهم إيّاها ، وأتقنها إتقاناً محكماً وهي هذه « كسى دشحوه بليلا واثا انكد ميشين حيا انون وينشي وطلم شيحاريا افكذحين ميثا انون » معناها بالعربيّة : إنّ الأخيار الّذين يسبّحون في لياليهم هم أحياء عنده وإن كانوا قد ماتوا ، فأمّا الأشرار الظلمة فهم موتى عندالله وإن كانوا أحياء » و كأنّه بأساقية بأيديهم أقداح مملوءة خمراً ، و مناديل فيها أقراص ، و برهبان يفرّقونها على من حضر ، ويحسونهم [٤] من ذلك الخمر . و كأنّه قد تناول من تلك الأقراص واحدة بحرص ورغبة ، وتحسّى من ذلك الشراب شيئاً من شدّة مايجده من الجوع والعطش ، وهو بعد لم يستمر طعامه بالعراق .

ثمّ ما زالت تلك حالة وهو متفكّر متعجّب كيف يكون وقع بالروم ، و كيف حصل في تلك الكنيسة ، و كيف له بالرجوع إلى العراق مع طول المسافة ، و كأنّه قد تذكّر إخوانه ومجلسهم وماكانوا فيه من اللّذة والسرور ، وقد اشتدّ تشوّقه إليهم ، وضجر بمكانه ومارآه من الأشياء المخالفة لسنن شريعته ، المتضادّة لعادته وطبيعته ، فمن شدّة ضيق صدره وتضجّره ممّا هو اضطرب في منامه فانتبه ، فإذا هو بالعراق في مجلسه و مكانه بين إخوانه وتلك الشموع تزهر ، و الملاهي تخفق ، والروائح تسطع ، وسائر الأمور الّتي تأمّها قبل نومه بجملتها وعلى حالها لم يتغيّر منها شيء

(١) البيعة بالكسر : المعبد للنصارى واليهود .
(٢) جمع السير : قطعة مستطيلة غير عريضة من الاديم المدبوغ .
(٣) بضم القاف ، عود يتداوى به .
(٤) احساه الخمر : أشربه اياه شيئا بعد شيء .

فقل : يا أخي لمن يزعم أنّ النفس لاحقيقة لها : وأنّ الحسّاس الدرّاك الّذي يعلم الأشياء ويفكّر فيها و يرويّ هو هذا الجسد حسب ، ولا شيء آخر معه ، و ليت شعري من ذهب إلى الروم ، ورأى تلك الأمور في تلك الكنيسة وأكل وشرب وحفظ تلك الكلمات؟ الجسد أم النفس ، وقل لي : من كان حاضراً بالعراق في ذلك المجلس النفس أم الجسد ؟ وقل لي : لم لم يكن الجسد في حال النوم يحسّ بتلك المحسوسات الّتي كانت معه في ذلك المجلس ، من الأصوات والضياء و الروائح ، وهو موجود هناك برمّته بعينين و منخرين و أذنين .

فإن زعم أنّ المنامات لاحقيقة لها فماذا يقول ليت شعري في قول الله سبحانه[١] : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » و قوله تعالى[٢] : « وما جعلنا الرؤيا الّتي أريناك إلّا فتنة للناس » وقول يوسف الصدّيق[٣] « هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربّي حقّاً » وقول إبراهيم خليل الرحمن لابنه[٤] : « إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ماتؤمر » فلو لم يكن إبراهيم يعلم أنّ المنامات لها حقيقة وأنّ حكم الرؤيا صحيح لماكان يقدم على ذبح ابنه برؤياها في منامه ، و كذلك إسماعيل أيضاً لولم يعلم صحّة ذلك لما قال : « يا أبت افعل ماتؤمر » ولم يستسلم للذبح وقول النبيّ ﷺ[٥] : « الرؤيا الصادقة جزء من ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة » و قوله ﷺ : « إنّ الوحي قد ارتفع وإنّما بقي الرؤيا جزءاً من أجزاء النبوّة » .

فلو علم من زعم أنّ المنامات لاحقيقة لها أنّ أكثر الأنبياء كانوا يقبلون الوحي في المنام عند ترك النفس استعمال الحواسّ لما قال هذا القول ، ولما أنكر وجود النفس .

هيهات لقد جهل أشرف العلوم ،وخفي عليه أجلّ المعارف ، وبعد من الصواب ، و حرم أجلّ المواهب من يزعم أنّ المنامات لا حقيقة لها ، وأنّ النفس ليس لها وجود .

---

(١) سورة الفتح : ٢٧ .
(٢) « بنى اسرائيل : ٦٠ .
(٣) « يوسف : ١٠٠ .
(٤) « الصافات : ١٠٢ .
(٥) رواه الغزالى (٤ : ٥٠٤) .

ولكن على كلّ حال نسأل الله أن يهديهم و يشرح صدورهم ليفهموا لطائف العلوم ودقائق الأسرار فإنّه من لم يهده الله فلا هادي له ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

وذكروا أنّ رجلاً من المترفين وأصحاب النعم الجسام ، كان قد بسطت له الدنيا ، و مكّن منها أحسن تمكين ، وكان قد جعل و كده وجهده ، وصرف كلّ عنايته و همّته في ترفيه جسده ، وتلذيذ عيشه و تنعيمه و اتّباع شهواته ، حتّى لم يكن له شغل طول عمره ومدّة حياته إلّا ذاك ، ولا همّة سواه ، فهو بين دخول حمّام ، وتمريخ جسد ، وتغيير لباس ، واستعمال طيب ، وأكل لذيذ ، وشرب بارد ، وشمّ ذكيّ ، وتنقّل من مجلس إلى مجلس من مجالس لهوه ، وتجديد لذّاته ، وإصلاح شهواته ، فلم يكن يأكل إلّا أطيب الطعام ولا يلبس إلّا أنعم الثياب ، ولا يجلس إلّا على أوطىء العروش ، ولا ينام إلّا على ألين المراقد على سرير معلّق في الهواء وسط قبّة له يستظهر بذلك من دبيب يقرصه ، أو غبار يصيبه ، فعاش كذلك زماناً طويلاً حتّى اشتهر في الناس أمره وصار علماً في طيب عيشه و لذيذ شهواته ، وجعل الراغبون في شهوات الدنيا يتمنّون حاله ، ويغبطونه بما هو فيه من لذّة عيشه ، وتشبّه به المترفون من أهل زمانه ، وأرباب النعم من أهل بلده كلّ واحد منهم بحسب إمكانه واتّساع حاله حتّى صار ذلك الرجل قدوة لطالبي اللّذات في اتّباع الشهوات ولم يكن مع هذه الحالة يعرف شيئاً من تهذيب نفسه وإصلاح أخلاقه ، ولا له فقه في دين ولا عنده شيء من التزوّد لآخرته ولا تفكّر في معاده ولا رغبة في علم ولا طلب لأدب ، ولا تصوّر لزوال الدنيا وتغيّرها ، ولا ذكر للموت ، بل كان بكلّيّته موفّراً على تنعيم جسده وإصلاح أمر دنياه ، مقبلاً على اتّباع شهواته محتقراً لأمور الناس ، معجباً بنفسه و حاله ، زارياً [1] على من دونه ، معرضاً على الفقراء ، مباعداً لأهل العلم ، متهاوناً بأمر الدين منافياً للصالحين .

ثمّ إنّ الله سبحانه أحبّ إرشاده و تنبيهه من نوم غفلته ، ورقدة جهالته ، وأن يري العباد قدرته ، ويجعله عبرة لغيره و عظة لمن يراه .

---

(١) زراه : عاتبه وعاب عليه .

فبينا هو في بعض الليالي نائماً على فراشه فوق سريره معانقاً لبعض خطاياه ، في أسرّ ماكان و أهنائه ، وآمنه لحوادث الدهر والزمان ، وطوارق الحدثان ، وأبواب قصره مغلقة دونه ، والسدول مسدولة من حوله ، و الشموع تزهر بين ضبائر[١] الريحان وإطباق الفواكه ، وأواني الطيب الفاخر ، والخمور الخمرة ، وعلى أبواب قصره خدم وعبيد يحرسونه والغلمان والجواري مطيفون بسريره ، إذ رأى فيما يرى النائم أنّه في برّيّة قفر ء وحده وهو عريان جائع عطشان ، وبدنه مسودّ ، وشعره طويل ، وجسده ملوّث برجيع مافي جوفه وعلى ظهره ثقل ثقيل ، و كأنّه بأسودين منكرين مشوّهي الخلقة ، طويلي القامة ، تبرق أعينهما ، و الدخان يخرج من مناخرهما ، و لهيب النار من شدقيهما ، و بأيديهما حربتين حادّتين[٢] ، وهما يهويان نحوه و يريدانه ، و كأنّه لمّا رآهما ولّى هارباً من بين أيديهما وجعلا يتبعانه ويسيران في أثره ، حتّى إذا أمعن في هربه إذا هو بجبل شاهق وعر المسلك صعب المرتقى ، فيه طريق ضيّق ، فسلكها بمشقّة شديدة وعناء طويل ، حتّى انتهى إلى قلّة الجبل و كأنّه قد أهوى من الجانب الآخر على أمّ رأسه إلى وادسحيق عميق في بئر في قعر ذلك الوادي ، يخرج منها دخان معتكر يأخذ بالأنفاس ، ولهب يشوي الوجوه ، و الأسودان على ذلك في أثره لايفارقانه .

فمن هول ما رأى ، وعظم ما عاين وشدّة مالقي صرخ صرخة في منامه ، فانتبه وانتبه جميع من كان في قصره واضطرب اضطراباً شديداً ، حتّى وقع من سريره على الأرض مذعوراً دهشاً حائراً من عظم ما أصابه ، فبادر حشمه وجواريه وغلمانه نحوه ، و كلّ من كان في قصره ، وسائر جيرانه ، فوجدوه قدطاش لبّه وذهل ، فاختلط عقله ، و شخصت عيناه ، و اعتقل لسانه ، ترتعدفرائصه فاجتمعوا حوله يسألونه الّذي دهاه ، وماذا أصابه ، وهوصامت في غمراته لايردّ جواباً ولا يطيق حراكاً بقيّة ليلته ، فلمّا أصبح جمع له المعزّمون والراقون[٣] من كلّ مكان ، وظنّوا أنّ الّذي أصابه لمم الجنّ ، أو سحر من الأعداء و الحسدة ، أوطيف من الشيطان .

(١) جمع الضبارة : كل مجتمع .
(٢) الصحيح : حربتان حادتان .
(٣) المعزم : من يعالج بالعزائم ، والراقي من يرقو .

فلمّا رأى الراقين من حوله قال : ياقوم مهلاً فليس بي شيء ممّا تظنّون ، ولكنّي رأيت في منامي رؤيا هائلة ، هي الّتي أفزعتني وهالتني حتّى صرت إلى ماترون ، فعليّ بالمعبّرين ، فلمّا أتوه قصّ عليهم رؤياه ، فقال قائل منهم : هذه أضغاث أحلام ، و قال آخرون : بل هذا إنّما عرض من خلط سوداويّ غليظ غلب على مزاجه ، وآخر قال : لابل فكرردي، وتخيّل فاسد ، وبعضهم قال : لمم من الجنّ ، وقال آخر : هوخبط من الشيطان ، وجعلوا يرجمون الظنون بقيّة النهار حتّى جنّهم الليل .

فلمّا جنّ الليل جمع حشمه وخدمه وغلمانه وأقرباءه وأمرهم بأن يجتمعوا وياموا حول سريره وفراشه كعادته ، وجعلوا يرقونه و يعوّذونه ويقرءون عليه ، ويبخّرون حوله بأصناف الدخن حتّى غرق في نومه ، فلمّا كان ذلك الوقت من اللّيل بعينه فإذا هو بتلك الرؤيا بعينها لم تخفّ ، بل أهول وأعظم ممّا كان رآه أوّل مرّة فصرخ صرخة وسقط عن سريره وأفزع بصرخته كلّ من كان حوله وتبادر كلّ نحوه وجعلوا يسألونه ، وهو يرعد كالسعفة في يوم ريح عاصف ، لايهدأ من شدّة رعبه ، وهو على ذلك من حاله بقيّة ليلته لاينام من حوله وجعاً له .

فلمّا أصبح تسامع الناس بخبره و جمع له الأطبّاء ، فجعلوا يصفون الأدوية ، و يأمرونه بالاستفراغ و الحمية والعلاجات الّتي يظنّونها نافعة من مثل ماعرض له ، ففعل كلّ ما أشاروا به ، وأمروه باستعماله فما انتفع به شيئاً .

فلمّا كان الأسبوع الداخل في مثل تلك اللّيلة في ذلك الوقت من اللّيل بيناهو نائم إذ رأى تلك الرؤيا بعينها بل أعظم و أهول ، فانتبه مرعوباً كعادته فما زال كذلك حتّى الصباح .

وجمع له المنجّمون والعرّافون فسألهم عن موجبات أحكام النجوم فقالوا : إنّ مثل هذا إنّما يعرض لبعض الناس من أجل ما يكون في أصل مولده واستيلاء النجوم على درجة طالعه ، أو أحد الأوتاد في تحويل السنين أو الشهور ، قال : فما دواء ذلك والمنجي منه ؟ قالوا : نختار يوماً يكون فيه القمر متّصلاً بالصعود ، و طالعاً جيّداً تكون السعود في الأوتاد و النحوس سواقط عنها ، فيتحوّل حينئذ من بلد إلى بلد أو من محلّة إلى محلّة ، أو من دار

إلى دار ففعل ذلك فما أغنى عنه شيئاً ، فلمّا أعياهم الدّاء إذ لم يقفوا على دواء و شفاء ، و فشاحديثه في الناس ، و انتشرت به الأخبار في البلاد ، و صار الرجل عند الناس بموضع رحمة بعد ما كان مغبوطاً ، وعبرة بعد أن كان معافى محسوداً ، وأصبح الّذين كانوا يتمنّون مكانه بالأمس خائفين أن ينزل بهم مثل ما نزل به ، أو يصيبهم كالّذي أصابه من البلاء و المحنة ، وجعل أهل المدينة في محالّهم ومحافلهم وأسواقهم ليس لهم غير حديثه ، ولاتعجّب إلّا من قصّته وأمره ، ولاعظة إلّا ما أصابه .

فبينا يوماً جماعة من إخوانه و إخوته جلوس يتفاوضون حديثه إذ مرّ بهم رجل يعرف بالناسك ، وكان من أهل العلم و الدين ، ومن قد جمع له العلم و الإيمان ، فسلّموا عليه و قالوا له : كيف غمّك على فلان جارك ؟ قال : كغمّ أب شفيق طبيب على ولد عليل ، قالوا : و كيف ذلك ؟ قال : لأنّ عندي تأويل رؤياه ، و الشفاء من دائه ، قالوا : فلمَ لاتقصده و تعرفه ؟ قال : لأنّه لايسمع قولي ، ولا يقبل نصحي ، قالوا : ولمَ ؟ قال : لانّه من أزهد الناس في جيرانه ، ولكنّي اُخبركم وعرّفوه أنتم ولاتذكروني له ، فإنّني أخاف أن لايقبل رأيي ومشورتي احتقاراً لي و استهانة بما أقول من غير يقين فلا ينتفع به قالوا : فعرّفنا نسمع ماتقول ، قال :

أمّا مارأى من البرّيّة فهي براءته من الدنيا ، وتبرّيها منها يوم موته .

و أمّا الفقر فافتقاره بعد الموت و شدّة حاجته إلى الزاد لطريق الآخرة .

و أمّا عراه فتعرّيه من الأعمال الصالحة .

وأمّا جوعه وعطشه فهو حرصه ورغبته على شهوات الدنيا .

و أمّا سواد بدنه فهو سواد وجهه عند الله بسوء أعماله .

و أمّا طول شعره فهو شعوره بحزن طويل في الآخرة . وأمّا تلوّث جسده برجيع ما في جوفه فهو خوف واكتئاب يناله في الآخرة ، يتمنّى من أجله الرجعة إلى دار الدنيا ولا سبيل له إلى ذلك .

و أمّا الثقل الّذي على ظهره فثقل أوزاره و سوء أعماله .

و أمّا الشخصان الأسودان المنكران فمنكر أفعاله ونكير أخلاقه ، من سوء عادته

لايفارقان نفسه ، بل يتبعان نفسه حيث ما ذهبت .

وأمّا الجبل فجبلّته و عادته الّتي هو عليها ، وشهوته مشقّة وثقل يناله بعد الموت إلّا أن يتوب ويرجع إلى الله .

و أمّا المسلك الوعر فطريق الآخرة الّتي لابدّ من سلوكها بتعب وعناء .

و أمّاالوادي فهو وادي جهنّم ، والبئر المهول الهاوية الّتي إليها مصير نفوس الأشرار و أرواح الفجّار .

فعرّفوه ماسمعتم وقولوا له : إن بادر وتدارك وتداوى قبل الموت وإلّا سيكون مصير نفسه إلى هناك بعد الموت ، فإنّ الله تعالى أراد بهذه الرؤيا أن يعظه و ينذره و يذكّره ليتوب ويرجع عمّا هو فيه من الغفلة عن أمر الآخرة والحرص على هذه الدنيا الفانية قالوا: فما دواؤه ؟ قال : ينوى نيّة صادقة ، ويعزم عزماً صحيحاً ، ويرجع إلى الله ويتوب ممّا قدسلف ويتصدّق بفضول ماله على الفقراء والمساكين ، ويلبس الخشن من الثياب و يقنع منها بما يواري العورة ، ويصوم في كلّ أسبوع يوماً أويومين ، ويمشي إلى المساجد خاشعاً ويتفقّه في الدين ، ويستعمل القرابين [1] ، ويصلّي في ظلم الليل ، ويستغفر الله بالأسحار ، ويذكر الله آناء الليل و أطراف النهار ، و يدعوه ويسأله ، فلعلّه أن يكشف عنه ما به إن شاء الله .

فقام القوم من ساعتهم حتّى دخلوا عليه فعرّفوه ما أصابه ، وما هو خائف مترقّب له ، ثمّ أخبروه بما قال لهم الناسك ، قال لهم : من أين لكم هذا التأويل ، و من وصف لكم هذا الدواء ؟ قالوا : أخبرنا به العالم بأمور الدين ، الصادق النصوح الّذي لانشكّ فيما قاله .

فقبل قولهم ، وجمع جماعة من العلماء والفقهاء و أهل الدين ، وسألهم عمّا قيل له فقالوا : حقّاً ما قاله ، و صواباً ما وصف ، فسألهم عند ذلك عن التوبة النصوح كيف تكون ، وعن فقه الدين وطريق الآخرة وأمر المعاد وصفة الجنان ، وثواب الأخيار ، وإلى أين ينقلب الأشرار ، فجعلوا يصفون له من ذلك ما هو مذكور في الكتب النبويّة و العلوم

---

(١) جمع القربان : ما يتقرب به .

الإلهيّة ، فحسن قبوله لما قالوا له ، وفعل كما أمروا به ، وهو مع ذلك بين شكّ و يقين و خوف ورجاء .

فلمّا كان من الأسبوع الداخل مثل ذلك اليوم صام نهاره وتصدّق عند إفطاره ، و وأكل من الطعام يسيراً قدر ما أقام رمقه ، وقام يصلّي ليلة حتّى إذا كان ذلك الوقت بعينه فبينا هو ساجد يقدّس الله ويسبّحه ويتضرّع إليه إذ غلبه النوم فرأى في منامه كأنّه في تلك البريّة بعينها ، و كأنّها قد اخضرّت بالعشب و الكلاء ، وقد تفتّحت بين رياضها أزهار الرياحين ، وفاح منها زكيّ المسك ، و كأنّه قد أوفى على رأس شرف ، عليه عين من ماء عذب زلال ، و كأنّه قد اغتسل من مائها ، وقد تناثر عن بدنه ذلك الشعر ونقي جسده من ذلك الدرن[١] و كأنّه قد لبس أثواباً جدداً يفوح منها روائح الطيب ، و كأنّه بشخصين قائمين أمامه كأنّهما صورتان من النور تشفّ أبدانهما ، عليهما ريّ الجمال ، و محاسن الكمال ، ورونق الشباب ، وهيئة الوقار ، وهما يتبسّمان في وجهه ، وكالمشيرين إليه : أن انظر أمامك ، فتأمّل فإذا هو بفضاء فسيح يقصر الطرف دونه ، والنور المشرق قد ملأ آفاقه وأخذ بأقطاره ممتدّاً إلى عنان السماء ، و كأنّه في ذلك الفضاء والنور بأنهار مطّردة بين رياض بهجة و أزهار مفتّحة ، وأنوار ورياحين تفوح ، كروائح المسك الأذفر و الكافور و العنبر ، وإذا تلك الأنهار تجري على أرض بيضاء حصباؤها الدرّ والياقوت و المرجان ، و ترابها الزعفران ، و كثبانها الزمرّد والعقيان[٢] ، وعلى حافات تلك الأنهار أشجار كأنّ أوراقها الحرير والسندس والأرجوان ، فإذا هبّ عليها النسيم تخشخشت أوراقها بأصوات طيّبة مطربة كأنّها نغمات أوتار العيدان ، وبين تلك الأوراق أغصان ، عليها من الثمار المتدلّية المفنّنة الأشكال والطعوم والألوان ، وإذا بين تلك الأشجار قصور شاهقة كأنّها جبال الرخام مبنيّة من اللجين و العقيان و الياقوت و المرجان بأبواب مفتّحة ، و صحون واسعة ، وإيوانات متقابلة ، فيها أسرّة[٣] موضوعة على فرش مرفوعة ، وأكواب[٤]

(١) بالتحريك ، وسخ الثوب وغيره .
(٢) جمع العقيق .
(٣) الاسرة جمع السرير .
(٤) جمع الكوب : قدح لا عروة له .

موضوعة ، ونمارق[١] مصفوفة ، وزرابي[٢] مبثوثة ، بينها سادة كرام إخوان متقابلون ، على الأرائك متكئون ، يطوف عليهم الولدان والحور الحسان ، بصحاف من ذهب و أكواب ، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، من التحف الطرائف عليهن الحلي و الحلل و التيجان والأكاكيل ، وإذا هناك من الجمال والكمال مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وما تحار الأبصار من حسنه وتعجز الألسنة عن وصفه ، فلما رأى من ذلك المنظر البهيج المنيف وتلك المحاسن البهجة قال لصاحبيه : ماهذه ؟ قالا : هي الجنة التي وعد المتقون ، قال : وما الجنة ؟ قال : دار السلام و المقام و القرار و مستقر نفوس الأخيار والأبرار ، قال : فهل إليها من سبيل ؟ قالا : نعم ، قال : كيف السبيل إليها ؟ قالا: تدوم على ما أنت عليه حتى الموت ، فإن نفسك إذا رمت و صبرت ستصير بعد فراقها لجسدك إلى ما ههنا ، و يحصل لها من لذة العيش و صفو النعيم و السرور الذي لايشوبه حزن ، ولا تنقيص فيها ، ولا انقطاع له ولافناء ، أبد الآبدين فاسفر عند ذلك من الطرب و الفرح فيما رأى وسمع من طيب ما بشر به .

فانتبه من نومه دهشاً ، وجعل يفكر فيما رأى وسمع ، ويتمنى أن ينام لعله يرى تلك الرؤيا مرة أخرى ، بعدأن كان خائفاً أن ينام لئلا يرى تلك الرؤيا الأولى .

فلما أصبح تصدق بجميع ماله ، وأعتق كل عبدكان له ، وسرح نساءه ، و لبس أطماراً من المسوح ، وانفرد بنفسه ، وخلا بعبادة ربه صائماً نهاره ، ساهراً ليله في صلاة و تسبح وتقديس وأذكار ، يندب نفسه ويخاف ذنبه ، ومرة يطمع ويرجو ربه ، قد فارق الناس وانفرد عنهم متفرداً بأشجانه و أحزانه ، طول نهاره معتبراً . وليله متفكراً ، قد سئم عيشه ، و قلا حياته ، وزهد في الدنيا ، فرفضها واستحقرها ، وترك لذاتها و شهواتها ، فلم يزل على ذلك حتى فشا حديثه في الناس وانتشر خبره في الآفاق وأقطار البلاد ، وسارت بقصته الركبان ، وجعل الناس يأتونه من الآفاق ، و ينظرون إليه و يعتبرون بحاله ، و يسألونه عن رؤياه ويتعظون بقصته .

---

(١) النمارق جمع النمرق : الوسادة الصغيرة يتكأ عليها .

(٢) جمع الزربي بضم الزاي مابسط واتكىء عليه .

حتّى انتهى به الحال إلى أن صار ينطق بالحكمة ، ويجري لسانه بالموعظة الحسنة فجعل يدعو الناس إلى الله ، ويدلّهم على طريق الآخرة ، و يرغّبهم في ثواب الجنّة ، و يضرب لهم الأمثال ، و يزهّدهم في الدنيا ، و يصف لهم غرورها و أمانيّها ، و يحذّرهم الاغترار بها وينذرهم بزوالها وانقطاعها ، بأوجز لفظ وأصوب مقال .

فلمّا سمع الناس مانطق به من غرائب الحكمة وضرب من عجائب الأمثال عجبوا وقالوا : أنّى أُوتيت هذا العلم ، ومن أين لك هذه الحكمة والموعظة الحسنة ، وماعرفناك جالست العلماء ، ولا قرأت شيئاً من كتب الحكماء ؟ قال : أجد قلبي كالمرآة المجلوة تتراءى فيها حقائق الأشياء ، وأجد لساني يجري بالصواب جرياً من غير أن أُروّي فيما أقول ، أو أتكلّف ممّا تسمعون شيئاً ، وأجد نفسي كالترجمان تسمع من وراء حجاب ويعبر عنه ويؤدّي إلى أبناء جنسي مايسمع بلا تصنّع منّي ولاارتياء .

فعلم عند ذلك أنّه مؤيّد بملك من الملائكة يلهمه بإذن الله ، وصار قدوة في الدين وإماماً لأهل زمانه .

فبينا هو يوماً في محفل والناس يسألونه عن أمر الدين وهو يفتيهم ، وهو بين مستمع مصدّق ومنكر شاكّ متعجّب منه : كيف كان بالأمس أرغب الناس في الدنيا وقدوة لطالبي الشهوات ، و كيف قدصار اليوم إماماً في الدين ، وقدوة لطالبي الآخرة ! مع بعد مابين الطرفين واختلاف مابين المنزلتين ، إذ وقف عليه رجل من جيرانه من أُولئك الّذين كانوا أخبروه عن الناسك بما أخبرهم به من تأويل رؤياه ، و إذا ذلك الناسك بعينه جالس بين يديه ، يسأله عن أمر الدين ، و يسترشد منه طريق الآخرة فبهت وحار ، ثمّ دنا من الناسك فقال له كالمتعجّب . أليس هذا صاحبك بالأمس الّذي فسّرت رؤياه و وصفت دواءه ؟ قال : بلى ، قال : فأراك اليوم تسأله عن أمر الدين وتستوصفه طريق الآخرة ، فكيف هذا ؟ قال لأنّه جاءه من العلم مالم يأتني ، إنّه قبل نصيحتي بالأمس فنفعه اليوم ، وأنا أقبل منه اليوم عسى أن ينفعني غداً ، وكانت صفتي له بالأمس تعليماً بشريّاً ، و صفته اليوم لي تعليم ملكيّ .

ثمّ إنّ ذلك التائب مكث على حالته تلك مدّة من الزمان مجتهداً في عبادة ربّه

مداوماً لطريقته ملازماً لسيرته لا يني ولا يملّ ، حتّى قرب أجله فرأى في منامه كأنّ روحه قد خرجت من جسده ، و كأنّها على صورة الجسد و شكله وهيئته سواء ، إلّا أنّ شكل الجسد جسمانيّ كثيف ثقيل ، و تلك صورة روحانيّة شفّافة خفيفة ، لاينالها اللمس ولا الحسّ . وإذا بها تذهب في الهواء حيث تشاء ، كيف ما أرادت بلا كلفة ولاعناء ، و إذا بها تجدمن ذاتها خفّة وراحة وسروراً وروحاًولذّة وفرحاًلايوصف بمثله حال الأجسام ، و كأنّها لمّا نظرت إلى جسدها وهو مطروح لاحراك به حنّت إليه لطول الصحبة وإلف العادة ، فلمّا دنت منه وتأمّلته فإذاكانت قد أتت عليه ثلاثة أيّام بعدالموت ، وإذا بهمنتفخ متغيّر كريه الرائحة ، سمج المنظر ، يسيل منه القيح و الصديد والدم ، و تسعى بين لحمه وجلده الديدان ، ويخرج من فمه ومنخريه النمل و الهوام والذبّان ، فلمّا رأته بذلك المنظر الهائل استوحشت و اشمأزّت منه ، و نفرت عنه و أنفت من قربه و الدنوّ منه ، و جعلت تغتبط بحالها حين فارقته ، وخرجت منه ونجت وتخلّصت من أوساخه وأقذارهوعاره و وباله ووحشته . ثمّ التفتت فإذا هي بأبواب السماء قدفتحت ، والمعراج قدامتدّ من السماء إلى الأرض ، والملائكة قد نزلت ، والآفاق قد أشرقت و امتلأت نوراً و ضياء ، و سمعت منادياً ينادي : « ياأيّتها النفس المطمئنّة ! ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة ، فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي » .

فانتبه من ذلك النداء ثمّ أخبر الناس ، وعلم أنّه قدحان حين فراقه الدنيا فأوصى وصيّته ، ثمّ مامكث أيّاماً حتّى مضى لسبيله ولحق بربّه .

تفكّرياأخي في هذه الحكايات الّتي تقدّم ذكرها ، واعتبر حال المنامات و تصريفها وعجائب الرؤيا ، و كيف يبلغ من أمرها إلى أن تنقّلت به الأعيان ، وتتغيّر عنهاالعادات و كيف تتصرّف بالناس و تنقلهم من حال إلى حال ، وتحيلهم مرّة من الحزن و الغمّ إلى الفرح والسرور ، ومرّة من الرغبة في الدنيا والحرص على طلبها إلى الترك لها والزهد فيها والرغبة في الآخرة والاجتهاد في طلبها ، بعد استنفاذها[1] والإعراض عنها .

تأمّل تصديق جمهور الناس بأحكام المنامات و صحّة الرؤيا المشهور من ذلك بين

(١) استنفادها . خل .

الحكماء و بين أكثر العقلاء فإنّا لانشكّ أنّ من أنكر أمر المنام وجحد صحّة الرؤيا بعد ما بيّنّا معاند للحقّ الظاهر ، عدوّ لما اجهل،منكر لما لايفهم،قدجعل و كده لإفراط صلفه، وشدّة عجبه بنفسه ، ومعارضة العلماء و مجادلة الحكماء ومفاخرة الأكفاء من أبناء جنسه بقوّة لسانه ، وحسن عبارته ، وصرف همّه إلى ذلك ، وأكثر قوّته ، و جعل أقصى غرضه بغير علم ولا إيمان ولا هداية من الله .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله وهو يشير إلى أمثاله [1] « إنّ أخوف ما أخاف على أمّتي من الأئمّة المضلّين منافق عليم اللسان» .

ومن احتجاجات هؤلاء المجادلة على بطلان الرؤيا والمنامات مايقولون: إنّه إذا رأى الإنسان في منامه كأنّ رأسه قدبان من بدنه ، قال : أفترى بأيّ عين يبصر رأسه ؟ ولا يدرون أنّ النفس جوهر لاينالها الحديد ، ولو قطّع الجسد إرباً إرباً ، ومثل هذه من أدلّ الدليل على وجود النفس وشرف جوهرها إذكان يتأتّى لها أن ترى الجسد بسوء حال مقطوع الأعضاء ، ناقص البنية ، معوجّ الصورة ، وهي سليمة صحيحة من الآفات مثل أنفس المقطّعي الأيدي والأرجل والزمنى والمفلوجين في أنصاف أبدانهم ، و ذلك أنّك ترى كثيراً منهم أعقل وأذكى وأفهم وأعلم من كثير من أصحاب الأجساد الصحيحة والأبدان الخصبة ، و الجثث العظيمة .

فلوكان الإنسان هو هذا الجسد حسب بلا نفس معه لكان يجب أن يكون كلّ من كان أصحّ جسماً و أكبر جثّة وأسمن بدناً وأكثر إنسانيّة وأعقل وأفهم وأذكى و أعلم ممّن كان أصغر جثّة أو منقوصاً بعض أجزائه أو مهزولاً . وقد يوجد الأمر بخلاف ذلك في كثير من الناس ، وفي كثير من الحيوانات .

وأيضاً فإنّك تجد القرد أذكى من الخنزير ، والثعلب أخبّ من الدبّ ، و الببغاء أفصح من الكركي ، والقطاة أهدى من النعامة ، وغير ذلك ممّا وصف في كتاب الحيوان من هذا المعنى كثير جدّاً . فقد تبيّن أنّ الحيوانات لها نفوس أيضاً ، وأنّ تلك الأنفس تتفاضل لابكبر الجثّة وعظم الخلقة وحسن الصورة حسب ، بل من قبل أفعالها و جواهر

(١) انظر سفينة البحار (٢ : ٦٠٦) .

نفوسها وأخلاقها وخواصّها ومتصرّفاتها ممّا هومذكور في كتب الحيوان و كتب الخواصّ، كلّ ذلك دليل على أنّ مع جثث الحيوان جواهر أُخر هي الفاعلة المحرّكة لأجسادها إذ كان الجسم بمجرّده لافعل له ولا العرض أيضاً له فعل بالإجماع كما بيّنّا .

ويقال لمن زعم أنّ الإنسان ليس هو شيء سوى هذه الجملة المشار إليها يعني بها الجسد وما يحلّه من الأعراض كالحياة والحسّ والحركة ، وأنّ النفس لاوجود لها : لم لاتسمّي سائر الحيوانات إنساناً ؟ فإنّ كلّ واحد منها هو أيضاً جسد فيه الحياة والحسّ والحركة فإن قال : إنّما أعني بالإنسان بنية مخصوصة ، أوقال : مزاجاً معلوماً ، أو قال : تأليفاً مّا ، قلنا له : أخبرنا أيّ بنية تعني أو أيّ مزاج ؟ بيّن لنا فإنّا قدنرى أنّ بنية الزنجيّ مخالفة لبنية التركيّ ، و مزاج الطفل مخالف لمزاج الشيخ ، وتأليف بنية المفلوج الزمن مخالف لتأليف بنية السليم الصحيح ، وطبع العليل مخالف لطبع الصحيح ، و كلّ واحدمنهم إنسان لاخلاف بينهم في الإنسانيّة ، وإن كان بينهم اختلاف في هذه الأحوال ، فتبيّن لنا ذلك المعنى الّذي كلّهم فيه بالسويّة إن لم يكن للنفس وجود .

فإن قال : الروح هو الّذي نسمّيه نفساً . فإنّما خالف في العبارة ولا ضير إذقد اتّفقنا في المعنى .

فإن قال : فإنّ الجسم هو الّذي يفعل هذه الأفعال بكون الروح فيه ، ولكن الروح عرض من الاعراض ، فقدناقض وادّعى أنّ مالا فعل له يجتمع مع ماله فعل ، فيكون فاعلاً وعليه الدلالة على صحّة دعواه ، ولم يصحّ للقائلين بهذه الدعوى دليل برهانيّ يقينيّ إلى يومنا هذا بل شبهات ودعاوي فقط ، والمنازعة قائمة بحالها .

فإن قيل : فإنّه إذا حلّ في عرض من الأعراض فإنّ الله سبحانه يحدث عند ذلك فيه فعلاً ، فقد ناقض أيضاً مذهبه ، وأقرّ بخلق الأفعال بعد ماكان منكراً له ، إن كان من أهل الاجتهاد ، و إن كان ممّن يقول بطريق السمع فالأمر سهل جدّاً ،لأنّه تواترت أخبار كثيرة في تصحيح وجود النفس والروح ، وآيات كثيرة من القرآن تنطق بذلك ، و إنّما كان كلامنا مع من يورد دلائل عقليّة وحججاً جدليّة .

و إذ قد تبيّن بما ذكرنا وجود النفس و حقيقة الرؤيا ما فيه كفاية لكلّ

منصف بعقله فنريد أن نذكر الآن كمّيّة أنواع المنامات وفنون تصاريفها .

اعلم يا أخي أيّدك الله وإيّانا بروح منه أنّ رؤيا المنامات ستّة أنواع : منها واحد أضغاث أحلام من أحاديث النفس .

ونوع منها يكون من جهة غلبة مزاج أخلاط البدن .

ونوع منها يكون من جهة موجبات أحكام النجوم .

ونوع منها يكون من وساوس الشيطان .

ونوع منها يكون إلهاماً من الملائكة .

ونوع منها وحي من الله وتأييد .

تفسير ذلك أنّ رؤيا أضغاث أحلام فهو نحو مايرى كلّ إنسان ممّا يكون متصرّفاً فيه نهاره أو مفكّراً فيه ليلته من الأعمال والصنائع والتجارات ، والأقاويل والفكر والهموم وماشا كل ذلك من أحاديث النفس كالّذي يرى الحرّاث من الزرع والحصاد والدياس [1] والشجر والنبات والعوامل من الحيوانات ، وما هو متصرّف فيه يومه ، و مفكّر فيه ليلته ، وعلى هذا القياس سائرطبقات الناس فيمايرون من أحوالهم و متصرّفاتهم تسمّى أضغاث أحلام ، وأحاديث النفس .

وأما الّذي يكون من غليظ أخلاط الجسد فهو ما يرى من غلبت عليه المرّة السوداء من الظلمات والسواد والدخان و القاذورات و الأحزان وما شا كل ذلك ، و كما يرى الصفراويّ من النيران والحريق والبروق و الألوان الحمر وما شا كلها ، و كما يرى البلغميّ من الرطوبات والأنداء والأمطار والآجام والأنهار والسيول والوحول وماشا كلها و كما يرى الدمويّ من الفرح واللعب والضحك والسرور وما أشبه ذلك .

وأما الّذي يكون من موجبات أحكام النجوم فهو أصل وسائرها فروع عليه ، و ذلك أنّ النّاس مختلفون في رؤياهم للمنامات على فنون شتّى ، فمنهم من يكون كثير المنامات صحيح تأويلها ، ومنهم من هو بالضدّ من ذلك ، ومن الناس من يكون رؤياه عجيبة وتأويلاتها غرائب ، كما قد ذكروا من ذلك في كتب المنامات بشرح طويل .

(١) داسه يدوسه دياسا - بالكسر - وطئه برجله ، والمراد اخراج الحب من السنبل .

وأما المنامات التي تكون رؤيتها إلهاماً من الملائكة أووسواساً من الشياطين فبابهما واحد وإن كان الطريقان مختلفين ، فالمؤمنون يشبّهون الملائكة بالقوّة فربّما تكون مناماتهم أكثرها إلهاماً من الملائكة ، لأنّ نفوس المؤمنين لها ارتباط بالملائكة فتكون من قبيل قولهم « شبيه الشيء منجذب إليه » وهكذا الفسّاق من شياطين الإنس فإنّها تميل إلى جنسها من شياطين الجنّ ، فالمنامات مختلفة بحسب اختلاف أهلها ، وهذا باب يطول شرحه فمن أراد الوقوف عليه فليطالع رسائل إخوان الصفاء ، فلقد وقفت عليها و انتخبت من رسائلها هذا الفصل وبعض ما سيأتي ، ولنذكر منها نبذة أُخرى مفيدة في هذا الباب .

منها أنّ نفوس المؤمنين العارفين الأخيار الفضلاء الاتقياء الأبرار الّذين هم في الدنيا زاهدون ، وفي الدار الآخرة راغبون ، وإلى نعيمها مشتاقون ، وفي أفعالهم وأخلاقهم وآرائهم ومذاهبهم و علومهم بالملائكة يتشبّهون ، تكون ملائكة بالقوّة ، فإذا فارقت أجسادها صارت ملائكة بالفعل . ومن الدليل على ذلك قوله تعالى : [1] « الّذين تتوفّاهم الملائكة طيّبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنّة بما كنتم تعملون » فعلم بذلك أنّ الملائكة لا تسلّم إلّا على أبناء جنسها ، ولا تخاطب إلّا من يشاكلها ، كما أنّ الإنسان لا يسلّم على الجماد والحيوانات ، بل على أبناء جنسه من الناس ، ولا تخاطب إلّا أمثاله منهم .

وإنّما ذكر الله سبحانه سلام الملائكة على أهل الجنّة على سبيل الكرامة لأهل الجنّة لأنّهم هم القادمون على الملائكة ، والملائكة هم المقيمون هناك .

ق ت : ولعلّ سلام الملائكة على المؤمنين من حيث إنّهم أهل الجنّة لأنّها خلقت لهم ، لأنّ نفوس المؤمنين إذا فارقت أجسادها صارت ملائكة بالفعل ، و هذا اعتقاد فاسد لا يعتقده مؤمن آمن بالله وبرسوله ، وإنّما هو مذهب اخترعه مؤلّف رسائل إخوان الصفاء ، ولم يذكره أحد من العلماء . وكذلك قوله في الأنفس الشريرة « إذا فارقت أجسادها صارت شياطين بالفعل » فهذا غير صحيح بل هو غلط صريح .

ولقد اقتدت الملائكة بأمر ربّهم فسلّموا على أهل المنزل ، كما أُمرنا بالسلام على

---

(١) سورة النحل : ٣٢ .

من تدخل منزله ، و ذلك قوله تعالى [١] : « و تسلّموا على أهلها » فالملائكة و إن كانوا مقيمين في الجنّة إلّا أنّهم علموا قدر أهلها ، وأنّهم المستحقّون للسلام و الإعزاز والإكرام .

ووجه آخر أنّ السلام معناه السلامة من أهوال يوم القيامة ، ومن عذاب جهنّم .

والوجه المناسب لهذا المقام و ما جرت به السنّة الشريفة أنّ الحاجّ إذا رجعوا إلى منازلهم فإنّ المقيمين هم الّذين يقصدونهم و يدخلون عليهم ليهنّئوهم بالسلامة فكذلك الملائكة يقولون لأهل الجنّة بلسان الحال : « تقبّل الله عملكم ، وشكر سعيكم ، و آجركم الله في جهادكم لأنفسكم حيث إنّكم طهّرتموها ونزّهتموها عن المعاصي و الشهوات الجسمانيّة ، و منعتموها عن اللذّات الحيوانيّة ، ولم تركبوا ما ارتكب النفوس الشيطانيّة » فيقولون عند ذلك : « الحمد لله الّذي صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوّء من الجنّة حيث نشاء فنعم أجر العاملين » .

واعلم بأنّ النفوس الشريرة الّتي تفارق أجسادها المدمنة للتنعّم و المعاصي وحبّ الشهوات ، فإنّها تحنّ إلى أبناء جنسها من النفوس المتجسّدة الشريرة الّتي هي على سبيلها وسيرتها في شهواتها كما يحنّ الأعمى إلى سير أبناء جنسه إذا سمع أصواتهم فتستروح هذه النفوس إلى وسوسة أبناء جنسها و حثّها لهم على أفعال تلك العادات الّتي كانت لها فيما تقدّم من الشرور وطلب الشهوات لما تجد من ألم شهوتها المركوزة في ذواتها من سوء عاداتها القديمة ، كما يستروح من قويت شهوته للطعام والشراب والجماع ، و ضعفت حرارة معدته ، فهو يشتهي مالم يستمرئ أو به شبق ، ولكن آلته لاتواتيه ، فعند ذلك يستروح بالنظر إلى الآكلين والشاربين والفاعلين من ألم ما يجده في نفسه من الشهوات المذكورة ، وعاداته الجارية .

و إلى هذه النفوس ووساوسها أشار بقوله سبحانه [٢] : « شياطين الإنس والجنّ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » فشياطين الجنّ هي النفوس المفارقة الشريرة الّتي

(١) سورة النور : ٢٧ .

(٢) سورة الانعام : ١١٢ .

قد استحنّت إلى إدراك الحواسّ و شياطين الإنس هي النفوس المتجسّدة المستأنسة بالأجساد .

واعلم يا أخي بأنّ هذه النفوس المتجسّدة الشريرة إخوان لتلك النفوس المفارقة، فإذا فارقت أجسادها بعد الموت ألحقت بتلك النفوس المتقدّمة الّتي قد خلت من قبل في القرون الماضية ، وحصلت في العذاب معها كما ذكر الله سبحانه فقال [١]: «ادخلوا في أمم قدخلت من قبلكم من الجنّ والإنس في النار كلّما دخلت أمّة لعنت أختها حتّى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربّنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار * قال لكلّ ضعف ولكن لا تعلمون » وآيات أخر كثيرة في هذا المعنى ، واضحة لمن تدبّرها و تفكّر فيها .

و إذ قد فرغنا و تبيّن ما الشياطين و وسواسهم ، و كيف تنال النفوس الآلام و الأحزان بمجرّدها بما وصفنا فيما تقدّم ، فكذلك أيضاً نقول : إنّ النفوس الملكيّة و الناجية الّتي تقدّم ذكرها إذا فارقت أجسادها أيضاً وحصلت لها تلك الكلمات الّتي وصفنا حنّت هي عند ذلك إلى مخلّفيها من أولادها ، و قراباتها و تلامذتها ، وأهل دينها ومذهبها الصالحين منهم ، وعطفت عليها و تمنّت لها ماوجدت هي من الكرامات والراحة والسرور حتّى أنّها ربّما تراءت لهم في مناماتهم ووعظتهم وأذكرتهم أمر الآخرة و المعاد ووصفت لهم ماصارت إليه وأمرتهم بلزوم طريقة التقوى وعمل الخير ، و طلب النجاة ، وبشّرتهم و استبشرت بمن يقدم عليها بعدها ، كما قال الله سبحانه [٢] : ولا تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عندربّهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألّا خوف عليهم ولاهم يحزنون » و قال تعالى [٣] : «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لاتشعرون » .

ولمّا تبيّن لأهل البصائر و المعارف أنّ تلك النفوس هذه حالها من الكرامات فقالوا من أجل هذا سنّ و اضعو النواميس وأصحاب الشرائع في سنن الديانات ، الذهاب

(١) سورة الاعراف : ٣٧ .
(٢) سورة آل عمران : ١٦٩ .
(٣) سورة البقرة : ١٥٤ .

إلى قبور الأنبياء و الأئمّة المهديّين[١] والصالحين من عبادة بالصدقات والقرابين والصوم و الدعاء عند قبورهم ، و السؤال لله بشفاعتهم .

فكم يا أخي من مسجد و كم من مشهد قد بني في الأرض في مواضع عدّة بسبب رؤية نبيّ هناك أو شهيد أوعبد صالح ، فلولم تكن تلك النفوس موجودة باقية عند الله ، وتشعر بمن يستشفع بها إلى الله ، ويقتدى بها في سنن الدين لما كان لهذه النفوس فائدة[٢] ولاثبات لأنّ الباطل لاثبات له ولا دوام .

و إذ قد تبيّن بما وصفنا ما الملائكة وما الشياطين وغيرها من سائر أنواع المنامات فنقول : إنّ كلّ رؤيا فيها موعظه ، أوفي تأويلها دلالة على التقوى ، أوحثّ على عمل الخير، أو تزهيد في الدنيا ، أوترغيب في الآخرة ، أوتذكير للمعاد ، وما شاكل هذه المعاني فهو إلهام من الملائكة ، مثل ما في تلك الكلمات الّتي حفظها العراقيّ[٣] بالروم في تلك البيعة من أولئك الرهبان والقسّيسين من العظة والتذكير ، وإنّما وعظته الملائكة بتلك الكلمات بالسريانيّة ، وفي بلد غير بلده ، وفي سنّة شريعة غير شريعته ، و بلغة غير لغته ليكون أبلغ في الموعظة ، وأعجب للتذكار . لأنّ الحكماء إذا أرادوا تبليغ الموعظة جعلوها بضرب من الأمثال ، على ألسنة الحيوانات ومالا نطق له ، فتكون الموعظة أعجب وأغرب و أبلغ في الأفهام ، مثل ما هو موجود في كتاب كليلة ودمنة وأمثاله من الكتب .

و أمّا الموعظة و التذكار في رؤيا[٤] ابن الملك فهو لما فيها من الدلالة على أنّ أنفس الأشقياء في الدنيا من الفقراء والمساكين والضعفاء والزمنى و أهل البلوى إذا فارقت أجسادها وقعت في راحة وسرور وفرح ولذّة ، مثل مارأت نفس ابن الملك في منامه من اللذّة والفرح والسرور مع ما كان في جسده من الضرّ والبلوى وسوء الحال . وإذ قد تبيّن أنّ اللذّة ليست شيئاً سوى الخروج من الآلام كما بيّنّا في رسالة الحاسّ و المحسوس من رسائل إخوان الصفاء .

---

(١) في الاصلين « المهديون » .

(٢) في الاصل « فائدة » .

(٣) سبقت قصته ص ١٦٥ .

(٤) مضى خبره ص ١٦٤ .

وأمّا رؤيا ذلك الرجل المترقّب التائب [1] فلاشكّ أنّها إنّما كانت إلهاماً من الملائكة بإذن الله سبحانه ، لما كان فيها من الموعظة و الدلالة على طريق الآخرة ، والرشد في الدين لما صار إليه من التوبة و الصلاح والخير ، واتّعاظ الناس به ، حتّى صار قدوة لأهل العلم وطلّاب الآخرة في زمانه .

وأما الرؤيا الّتي تكون من وساوس الشيطان فهي مثل مايرى الراغبون في حطام الدنيا من محاسن مرغوباتهم و مشتهياتهم ، فيزدادون عند ذلك فيها شهوة مثل ما يرى الحسّاد من محاسن حال محسوداتهم فيزدادون حسداً ، و مثل ما يرى المتعادون من أسباب العدون فيزدادون عداوة ، ومثل ما يرى أصحاب الشهوة مشتهياتهم فيزدادون شرهاً وحرصاً وحسداً ، و بالجملة كل رؤياً يراها صاحبها فيزداد في الدنيا رغبة وعليها حرصاً وحسداً ومن أجلها عداوة وشرهاً ، وسائر ما شاكل ذلك ، فهي من وساوس الشيطان .

وذكروا أنّ رجلاً من المنهمكين في الشهوات الغائصين في طلب اللذّات كان أكولاً شروباً شبقاً ، فمن كثرة ما كان يأكل ويشرب ويجامع خلقت معدته وضعفت قوّته الهاضمة واسترخت آلات جماعه من كثرة الجماع ، وكان رجلاً ممكّناً من الدنيا ، متهيّئاً لشهواته منها بسهولة وقدرة ، ولكن الآن جسده لم يكن توانيه ، ولا قوّة النفس الشهوانيّة تطاوعه في ترك الطلب ، لأنّ الشهوات كانت قد صارت عادة له وجبلّة لتكرارها و كثرة دربته فيها ، فجعل يتطلّب الحيلة والدّواء الّذي تقوى به الهاضمة الّتي في معدته ، وينعظ آلته للباه ، وبسطها لشدّة شهوته وحرصه الشديد ، فكان ممّا قدّر وفكّر فيه أن احتال لتحريك آلته والإنعاظ وأمر بأن يصوّر له في بيت خلوته على حيطانه صور كثيرة لأنواع أشكال الجماع و كتب في جانبها الأخبار الموجودة في كتاب الألفيّة ، وأوصاف لها من حالات الجماع ، فكان يدخل ذلك البيت فيخلو فيه مع غلمانه وجواريه و يشرب ويلعب ويلهو ، وينظر إلى تلك الصور ليستنهض بذلك آلته ، فإذا أعياه ولم تجبه الآلة دعا غلمانه إلى نفسه ليأتوه من خلف ، فصار ذلك دأبه وعادته ، حتّى أنّه ربّما كان يهيج ويصيح ويهيم كالسنانير ، وينهق

(١) هو الملك الذى مر خبر رؤياه ص ١٦٨ .

نهيق الحمار من شدّة شهوته لأن يأتوه[١] فلمّا كثر ذلك على غلمانه وطال واتّصل امتنعوا منه لشناعته وقبح منظره، وهجروه حتّى هلك وهو على تلك العادة، وفشا حديثه في الناس وسوء الثناء عليه، فكان لا يزال يراه غلمانه في مناماتهم وهو على تلك الحالة الّتي كان عليها، من دعائه إيّاهم إلى نفسه وصياحه ونهيقه.

وأمثال هذه النفوس الّتي ذكرناها هي شياطين بالقوّة، فإذا فارقت أجسادها صارت مع الشياطين.

فاعتبر يا أخي بخبر هذا الرجل الّذي قال الله لنبيّه ﷺ:[٢] «واتل عليهم نبأ الّذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه فمثله كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الّذين كذّبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلّهم يتفكّرون * ساء مثلاً القوم الّذين كذّبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون» ويقال: إنّه كان رجلاً من أحبار قوم موسى بن عمران[٣] بعثه في سريّة[٤] فابتلي بعشق امرأة فخالف موسى لأجلها و ارتدّ، اتّباعاً لشهوة نفسه. وله قصّة طويلة مذكورة في كتب التفسير.

واعلم يا أخي أنّك إذا تأمّلت وجدت في القرآن نحواً من ثلاثمائة و ستّين مثلاً ضربها الله تعالى، بعضها في صفات المؤمنين وأهل الخير و أمر الآخرة وثواب المتّقين، و بعضها في صفات الكفّار وأنفس الأشرار وسوء منقلبها والمبالغة في ذمّها ولومها وسوء الثناء عليها، لست تجد مثلاً أشدّ توبيخاً من هذا، فإنّه شبّهه بالكلب في اتّباع شهواته، و قال تعالى: «ساء مثلاً القوم الّذين كذّبوا بآياتنا» يعني من كان مثله في اتّباع شهواته ولسنا نجد أشدّ اختصاراً في الترغيب في نعيم الجنان من قوله عزّ من قائل[٥]: «وفيها

(١) في النسخة (ر): لان يؤتى.

(٢) سورة الاعراف: ١٧٤-١٧٦.

(٣) هو بلعم بن باعورا، و من خبره على ما ذكره علي بن ابراهيم في تفسيره ص ٢٣٠ انه اعطي اسم الاعظم، فمال إلى فرعون، فلما مر فرعون في طلب موسى عليه السلام قال لبلعم: ادع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا، فركب حمارته ليسير و يدعو فامتنعت عليه فضربها حتى قتلها وانسلخ الاسم من لسانه. وقيل فيه غير ذلك، والتفصيل في الجزء الخامس من بحار الانوار في احوال موسى عليه السلام.

(٤) السرية العسكر.

(٥) سورة النازعات: ٤١-٤٢.

النفس عن الهوى * فإنّ الجنّة هي المأوى » .

واعلم بأنّ نفسك ملك بالقوّة ويمكن أن تصير ملكاً بالفعل إن أنت سلكت مسلك الأنبياء عليهم السلام وأصحاب النواميس الإلهيّة ، وعملت بوصاياهم المذكورة في كتبهم المفروضة في سنن شرائعهم ، وإنّ نفسك أيضاً شيطان بالقوّة ، و يمكن أن تصير شيطاناً بالفعل ، يوماً ما إن أنت سلكت مسلك الأشرار و الكفّار .

أقول : ليس يمكن أن تصير نفس المؤمن ملكاً بالفعل ، ولا نفس الفاسق أيضاً شيطاناً ، كما أشرنا إليه سابقاً . فانظر الآن ماذا تختار لها وترضى لنفسك ، فقد أعذر من أنذر ، و لئلاّ يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل ، و أن يقولوا ما جاءنا من رسول ولا كتاب .

نصحتك علماً بالهوى والّذي أرى * مخالفتي ، فاختر لنفسك ما يحلو

ولعلّك يا أخي لم تقف على معنى الناموس الإلهيّ .

واعلم أنّ الناموس الإلهيّ جبلّة روحانيّة تبدو من نفس جزئيّة في جسد بشريّ ، بقوّة عقليّة تفيض عليها من النفس الكلّيّة ، بإذن الله سبحانه ، من دور من أدوار القرانات في وقت من الزمان ، ليحتذب بها نفوساً جزئيّة ، ويجمعها في أجسام بشريّة ، و يخلّصها من أجساد متفرّقة ، ليفضل بينها يوم القيامة ، و يميّز الله الخبيث من الطيّب ، و يجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً ، فيجعله في جهنّم ، و ينجّي الله الّذين اتّقوا بمفازتهم ، لا يمسّهم السوء ولا هم يحزنون .

واعلم أيّتها الأخ بأنّه من تمام فضيلة الناموس أن يكون فيه اثنتا عشرة خصلة قد فطر عليها :

إحداها أن يكون تامّ الأعضاء وقواها تواتية على الأعمال الّتي من شأنها أن يكون بها ومنها ، ومتى همّ بعضو عملاً أتى عليه بسهولة .

والثانية أن يكون جيّد الفهم سريع التصوّر لكلّ ما يقال له ويلقاه بفهمه على ما يقصده القائل ، وعلى حسب الأمر في نفسه .

الثالثة أن يكون جيّد الحفظ لما يفهمه ، ولما يسمعه ، ولما يريد أن يذكره ، ولما

يدركه بالجملة لايكاد ينسى شيئاً منها .

والرابعة أن يكون فطناً ذكيّاً إذا رأى على الشيء أدنى دليل فطن له على الجهة الّتي يدلّ عليها الدليل .

والخامسة أن يكون حسن العبارة ، تواتيه لسانه على ما في قلبه و ضميره بأوجز الألفاظ .

والسادسة أن يكون محبّاً للعلوم و الاستفادة منقاداً له سهل القبول ، لايؤلمه تعب التعليم ولايؤذيه الكدّ الّذي يلصقه .

والسابعة أن يكون محبّاً للصدق وحسن المعاملة مقرّاً بالآلة .

الثامنة أن يكون غير شره في الأكل والشرب والنكاح ، مجتنباً للّعب ، مبغضاً للّذّات الكائنة عن هذه .

والتاسعة أن يكون كبير النفس ، عالي الهمّة ، محبّاً للكرامة ، تكبر نفسه بالطبع على كلّ مايشين من الأمور ويضع ، وتسمو نفسه إلى أرفع الأمور رتبة وأعلاها درجة .

و العاشرة أن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا عنده هيّنة زاهداً فيها .

والحادية عشر أن يكون محبّاً للعدل وأهله ، مبغضاً للجور والظلم و أهله ، يعطي النّصفة لأهلها ، ويرثي لمن حلّ به الجور ، ويكون مؤاتياً لكلّ ما يراه حسناً جميلاً غير صعب الانقياد ، ولا جموح ولالجوج ، إن دعي إلى الجور والقبح لايجيب .

والثانية عشر أن يكون قويّ العزيمة على الشيء الّذي يرى أنّه ينبغي أن يفعل ، جسوراً مقداماً غير خائف ولا ضعيف النفس .

واعلم يا أخي أنّ أوّل قاعدة يضعها واضع الناموس ، ثمّ يبني عليها سائر مايعمل في تتميم الناموس من القول والعمل و تكميله ، هو أن يرى و يعتقد في نفسه علماً يقينيّاً أنّ للعالم بارئاً حيّاً قديماً عالماً حكيماً قادراً مريداً هو علّة جميع الموجودات و مالكها ، يتصرّف فيها بحسب مايليق بواحد واحد منها .

والثاني أن يرى ويتصوّر وجودات عقليّة مجرّدة عن الهيولى كلّ واحد قائم بنفسه متوجّه نحو مانصب له من الأمر ، هم ملائكة الله ، وخلّص عباده ، بهم تقع المراسلة والوحي

والإنباء ، ومن جهتهم يحصل التأييد .

و الثالث يرى وجودات نفسانيّة مجرّدة من الأبدان تارة ، و متعلّقة بها تارة ، و مستعملة لها تارة ، وأنّها نازلة في جثث الحيوانات بحسب مايليق بواحد منها من إدراك بارئها و تمكّنها .

و الرابع أن يرى أنّ مفارقتها للجسد لا تبطل ذواتها و خروجها من الأجسام ، و الحسّ لايخرجها من قدرة الباري، سبحانه عليها .

و الخامس يرى أنّ كلّ واحدة من الموجودات متفرّدة بذاتها ، لا يصلحها ولا يفسدها إلّا ما يتعلّق عليها من سوء أعمالها ، أوفساد آرائها ، أورداءة أخلاقها ، أو تراكم جهالاتها .

و السادس يرى أنّ الباري، سبحانه أراد من الناس مراداً بيّنه منهم ، وأزاح عللهم فيه ، فمنهم طائع لأمره و منهم راكب نهيه .

و السابع يرى أنّه جعل لكلّ صنف من أصناف الطاعات و المعاصي حدّاً من الثواب و العقاب و يعلم المأمورين به و المنتهين عنه أن يأتونه على بصيرة توجب الأمن ، و تقطع العذر ، ليهلك من هلك عن بيّنة ، و يحيى من حيّ عن بيّنة .

و الثامن يرى أنّ لهم معاداً فيه يجازون بما أسلفوامن خير و شرّ وعرف و نكر ، وأنّه قد جعل إلى كلّ واحد منهم تمهيد مثواه و إصلاح مأواه ، فإن أحسن فلنفسه ، و إن أساء فعليها ، وما ربّك بظلّام للعبيد .

والتاسع يرى أنّ الدعاء إلى الله أولى الأعمال بالثواب ، وأرفعها درجة عند المآب .

و العاشر يرى أنّ الدعاة إلى الله أعلاهم درجة و أرفعهم منزلة وأشدّهم في الدعاء إلى الله حرصاً ، وأكثرهم فيه دأباً ، وأوسعهم علماً ، وأكثرهم اُمّة ، وأعظمهم على الناس نعمة ، و أنطفهم بالصدق ، وألزمهم لمنهاج الحقّ .

فإذا تحقّقت هذه الآراء في نفس الناموس ، و تصوّرها في فكره كأنّه يشاهدها يقيناً لاشكّ فيه ، دعا عند ذلك إليها أهل دعوته الّذين اُرسل إليهم ، ويجتهد في إفهامهم ما قد اعتقده بالتصريح عنها للخواصّ أهل دعوته في السرّ و الإعلان ، غير مرموز ولاملغوز ،

ثمّ يسير إليها ويرمز عنها عند العوامّ بالألفاظ المشتركة المعاني ، المحتملة للتأويل ممّا يعقلها الجمهور ، و تقبلها نفوسهم ، فمن فهم تلك المعاني وتصوّر حقائق تلك الأمور الّتي أشار إليها واضع الناموس ، وتيقّن بها وقام معه بنصرته مجتهداً في معاونته ، محتملاً للضيم، صابراً في السرّاء و الضرّاء طلباً لمرضاة الله سبحانه ، سمّاهم واضع الناموس : الصدّيقين و الشهداء و الصالحين ، و حسن أولئك رفيقاً ، سمّاهم الشهداء لمشاهدتهم تلك الأمور الروحانيّة المفارقة للهيولى ، يعني الجنّة ونعيمها ، وسمّاهم الصدّيقين والشّهداء لتصديقهم لها بالطلب و الاجتهاد من أنفسهم في نصرة واضع الناموس ومعاونته .

واعلم أيّها الأخ البارّ الرحيم أيّدك الله أنّ للكتب الإلهيّة تمثيلات ظاهرة وهي المعاني المفهومة المعقولة ، وهكذا لواضعي الشريعة موضوعات عليها و ضعوا نواميسهم ، و لها أحكام ظاهرة جليّة ، و أسرار باطنة خفيّة ، و في صلاح أحكامه الظاهرة صلاح للمستمعين لها في دنياهم ، وفي معرفة أسرارها الخفيّة صلاح لهم في أمر معادهم وآخرتهم .

فمن وفّق لفهم معاني تلك الكتب الإلهيّة و أرشد إلى معرفة أسرار موضوعات الناموس ، واجتهد في العمل بسنّته الحسنة والسير بسيرته العادلة . فإنّ تلك النفس هي الّتي إذا فارقت الجسد ارتقت إلى رتبة الملائكة الّتي هي جنّات لها، وهي ثمان مراتب ، و فازت و نجت من الهيولى ذي الثلاث الشعب ، الّتي هي الطول و العرض و العمق ، و ارتفعت في درجات الجنان و المراتب الثمان ، الّتي سعة كلّ واحدة كعرض السماوات و الأرض .

ومن لم يرشد لفهم تلك المعاني ولا لمعرفة تلك الأسرار ولكن وفّق للعمل بسنّته العادلة و أحكامه الظاهرة ، فإنّ تلك النفس عند مفارقة الجسد تبقى محفوظة على الصورة الإنسانيّة الّتي هي الصراط المستقيم إلى أن يتّفق لها على الصراط الجواز ، و إلى هذا أشار بقوله [1] : « وإنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون » و هذا هو الغرض الأقصى في وضع النواميس الإلهيّة .

(١) سورة الانعام : ١٥٣ .

ومن لم يرشد لفهم تلك المعاني ، ولا اجتهد في العمل بسنّة الناموس ، ولاالدخول تحت أحكامه ، ولا الانقياد لحدوده ، فإنّ تلك النفس إذا فارقت الجسد انحطّت إلى الرتبة البهيميّة الّتي هي دركات الهاوية تهوى فيها كما قال سبحانه [١] « لها سبعة أبواب لكلّ باب منها جزء مقسوم » و إلى هذا أشار بقوله [٢] « فأمّا إن كان من المقرّبين * فروح وريحان وجنّة نعيم * وأمّا إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأمّا إن كان من المكذّبين الضالّين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم » .

قال مؤلّف رسائل إخوان الصفاء : و في معرفة هذه الأسرار من الكتب الإلهيّة قلت هذه القصيدة ، وإلى أسرار موضوعاتها أشير بها وهي هذه :

تجلّت الساعة وانشقّ القمر * و انكشفت عنه أفانين العبر [٣]
و إن يروا آية آت أعرضوا * عنها وقالوا: هي سحر مستمرّ
و كذّبوا و اتّبعوا أهواءهم * و كلّ شيء فعلوه في الزبر
من بعد أن جاءهم من عجب * الأنباء ما فيه لغات مزدجر
من حكمة بالغة أقصى المدى * ينفى بها العذر ، فما تغني النذر؟
حتّى إذا حقّ الهلاك ساهموا * أشياءهم فيه، فهل من مدّكر؟
أحياه بعد موته الله و قد * قال: «ارجعوني» بعدما كان قبر
فردّه الله لقطع عذره * فكان أطغى في الرجوع و أشرّ
مثل الّذين فارقوا ديارهم * من حذر الموت فما أغنى حذر
فقال منشيهم لهم: «موتوا» معاً * ثمّ أحياهم برزق و عمر
أو كالّذي مرّ بظهر قرية * خاوية على العروش يفتقر
فقال : هل يحيي الإله هذه * بعد الممات؟ فأُميت و نشر [٤]
فكان فيه ثمّ في حماره * و في الطعام والشراب معتبر

---

(١) سورة الحجر : ٤٤ .
(٢) » الواقعة : ٨٩ - ٩٤ .
(٣) جمع الافنون - بضم الهمزة - الضرب والنوع من الشيء
(٤) في الاصلين : هل يحيى الاله هل .

يا أيّها الناس أنيبوا إنّما * أعمالكم عمّالكم كما ذكر
لا يستزلّنّكم الشيطان عن * مقعد صدق لمليك مقتدر
من قبل أن تطمس منكم أوجه * في طمسها ردّ لها على الدّبر
أو يلعن العادون في حدّهم * لعنة أهل السبت في سيف البحر (١)
إذ جعلوا فيه قروداً وخنا * زير ، وأنواعاً من الخلق اُخر
بدّل تبديلهم أمثالهم * واُنشئوا بالمسخ في شتّى الصور
منكّسين لا يردّ طرفهم * إليهم الذلّ ، و كلّا لا وذر
لا يستطيعون سجوداً إن دعوا * وطالما عافوا السجود في القدر
من بين مغلول اليدين طائر * وبين صال في جحيم يستعر
يظمأ و الماء عليه لجّة * في بعضها يغني عن الورد الصدر (٢)
و بين مسلول له سلسلة * مقدارها سبعون ذرعاً في القدر
وأوجب النقمة منه نفسه * وصار موكولاً إلى اُمّ سقر
و آخر غطى التراب رأسه * وقام منكوساً كما قام الشجر
لا يتوقّى صاحب الحتف ، ولا * يجتذب النفع ، ولا ينفي الضرر
مستسلماً للواردات حشوه * نار تلظّى ، وهو ماء ينقطر
و كائن وقود نار اُضمرت * حرّاً و برداً في حديد أو حجر
في الدرك الأسفل لا بعدّه * إلّا الّذي في أوّل الأمر فطر
و كلّهم إذ ظلموا أنفسهم * مشتركون في العذاب المستمرّ
يبدّلون بالجلود كلّما * أنضجها سوء العذاب في سقر
أعوذ بالله من الجهل الّذي * يصمّ ذا السمع ، ويعمي ذا البصر
و من خيالات شكوك شأنها * أن يبعد الله على حرف القدر
و من شياطين الغواة كلّهم * و تابعيهم في الضلال والسعر

---

(١) سيف البحر : ساحله .
(٢) في الاصلين « يظماء » .

ومن أثيم مستطيل ، كلّما * أمهله الله تمادى و أشر
آتاه آيات الإله ربّه * وانسلخ المحروم منها و انشمر
فكان من جملة غاوين رأوا * رفعتهم أفضت بهم إلى الحفر
و جاهل يخلط في إيمانه * كفراً و إن فهّمته فاه فغر (١)
و سنان لا يعلم إلّا ظاهراً * من الحياة غافلاً من الأثر (٢)
و هو على الإعراض عن آخرة * فيها لمن أدركها خير وشرّ
يستعجل الساعة و الساعة في * مساءة الجاهل أدهى و أمرّ
من معشر عذّبهم جهلهم * إذ ضرب السور بباب فانخفر
مميّز للخلق في ظاهره * من العذاب شاغل عن العبر
ضنك عن المرّ وفي باطنه * من رحمة الله غمام منتشر
تبارك الله العليم ربّنا * و عالموه فهم الحزب الأغرّ (٣)
و كلّ من عادى و والى فيه أو * آوى دعاة المؤمنين أو نصر
و كلّ من هاجر في الله ، و من * جاهد ، أوحجّ إليه و اعتمر
إلى بيوت جنّة ناطقة * مشاركات في اللباس للبشر
قد أذن الله لهم في رفعها * وإن يكون لاسمه فيها ذكر
من معشر موحّدين دينهم * كدين عبدالله مولانا الخضر
يرون في عتق النفوس مايرى * غيرهم في حبسها من الوطر (٤)
في كلّ عصر منهم ذو دعوة * يخرق من سفن البحار ماعبر
لا يقفون عند شخص واحد * تمضي الدهور وهووعدمنتظر

---

(١) فغر فاه . فتحه . وقد سبق .
(٢) وسنان صفة من السنة بمعنى النعاس .
(٣) وعالموه : الراسخون فى العلم .
(٤) اشارة الى قتل الخضر عليه السلام الغلام .

بل فيهم و منهم طوالع * تجري على ترتيب نظم مستطر
دونكموها يا بني الحقّ ، ولا * يخدعكم عنها أباطيل الفكر
فكم لها من سامع منتفع * يعلم ما يأتي بها وما يذر
و غافل عن الرموز جاهل * يقول : من يقول ذا فقد كفر
بما يكن يعلم ما نقوله * فكان يجري رأيه على النظر
بما نبيّن صدقه بشاهد * من العقول ، لا برجم من حزر
فمن يكون جذبه مشتركاً * و تستوي فيه دعاوي من نقر
فليأت بالحكمة في أخباره * بالعدد المخصوص في الآي السور
مثل مقادير الفروض كلّها * من الصلاة و الزكاة و الطهر
و كم أولوا العزم و أصحاب الرضا * طالوت ذي البسطة خيف المنتظر
في عدد نصّ عليهم واحد * على سرود مثله عن العبر
و كيف أسماء الاله كلّها * تسع وتسعون هي الحسنى الكبر
و كيف في تفريقه أمّته * على ثلاث بعد سبعين اقتصر
و كيف أجزاء النبيّ ستّة * و أربعون وهو أمر ذو خطر
لم جعل الرؤيا الصدوق واحداً * من جملة الاجزاء فيها فافتكر (١)
وحاملوا العرش ، و كم عدّتهم * عدّة أبواب الجنان في القدر
و اختصّت النيران في أبوابها * بسبعة ومن أتاها و ابتدر
منطلق منها إلى ظلّ له * ثلاث شعب هي ترمي بالشرر
وقال في الذكر: «عليها تسعة» * تملك ما فيها جميعاً و«عشر»
و أنّهم قد جمعت عدّتهم * لفتنة الكافر أو ذكر الخبر
هذا ، وما طه وما حاميم أو * أشباه ذا من السّور ؟
وما أمور أخفيت أنباؤها * عن ظاهر بين رعاع كالحمر ؟
من قصّة الجنّ الّذين أفسدوا * في الأرض فاستخرب منها ما اعتمر

(١) اشارة الى ماسبق من ان الرؤيا جزء من أجزاء النبوة .

وما هي الحيّة و الطاوس إذ * كانا معينين لإبليس الحسر ؟
وما هي الحنطة إذ حذّرها * آدم ، من بين النبات والخضر ؟
و كيف لمّا ذاقها بدت له * سوأته وكان قبل مستتر ؟
و كيف تعليم الغراب أوّلاً * قابيل دفناً لأخيه إذ حفر ؟
وما هو الطوفان إذ عمّ ، وما * سفينة الألواح فيه والدسر ؟
وما هي النار الّتي كانت على * ذي الكبش إبراهيم برداً إذ شكر ؟
وما هي الطير الّتي أنشزها * له الإله بعد موت حين صرّ ؟
وما قميص يوسف و ذئبه * والدم إذ جيء بكذب مشتهر ؟
و الجبّ إذ أُلقي في غيبته * و الحبس إذ خصّ بما منه بهر
و كيف بيع مع حسن باهر * بالثمن البخس وبالشيء النزر
وما هو البرهان إذ أبصره * قال : إلهي ! السجن خير فظفر
و شاهد منه قد استشهده * فقدّ أحوال القميص و استتر
و كيف كان بعد ذا قميصه * بشرى ليعقوب النبيّ بالبصر ؟
وما هو العجل الّذي خار، وما * الصفراء إذ أحيت قتيلاً في البقر ؟
وما دمٌ فاض فصار مشرباً * لمن عليه لا على الماء اقتصر ؟
و كيف تاهت أُمّة عظيمة * دهراً و أرض التيه كالدار صغر ؟
و الجبل المرفوع فيهم ظلّة * يشهده من غاب فيهم و حضر
وجنّ ذي الملك سليمان ، وما * خاتمه وما العصا ساعة خرّ ؟
وما هو الكرسيّ في إلقائهم * له عليه جسداً لمّا اختبر ؟
وما هو الطير ، وما منطقها ، * والريح تجري به ، وماء ينسجر ؟
و العرش إذ أحضره عالمه * قبل ارتداد طرفه لمّا ادّكر ؟
و يونس إذ بلعته حوته * فشاهد الأبحر فيها واعتبر ؟
وما المسيح الروح والمهد الّذي * كلّم فيه الناس في وقت الصغر ؟
و صلب هاروت و ماروت وما * يعلّمان السحر منّا من سحر ؟

ونوم أهل الكهف والبعث لهم * لمّا انقضى دور الرقاد وانحسر؟
وكيف أخفى المصطفى حديثهم * فقال في الظاهر منه و اختصر؟
وسدّ يأجوج و مأجوج ، وما * يلحسه من زمر بعد زمر؟
وكيف سمّاه حجاباً موثقاً * نفخ المعينين و إفراغ القطر
وكيف إذ يقرّب الوعد لهم * [تشخص أبصارهم إذا انفغر]؟(١)
وماطلوع الشمس من مغربها * مابين قرني مارد لا ينزجر
وكيف بعد نورها تكويرها * والأنجم الزهر عليها تنكدر
وما هو الدجّال قد حذّره * كلّ النبيّين على مرّ الدهر
وكيف تجري عن جنابي جيشه * من الجبال شامخات في الكبر
فالجبل البصريّ فيه جنّة * مثمرة ذات رياض و نهر
و الإصفهانيّ عليه أبداً * نار تلظّى و دخان معتكر
هيهات لا يعلم ذا إلّا الّذي * أشهد خلق نفسه فيما غبر؟
وكان في خلق السماوات العلى * قد عاضد الحكمة أو كان حضر
فالحمد لله الّذي أشهدني * مالم أكن أعلم إلّا بالخبر

تمّت القصيدة .

واعلم يا أخي أنّ هذه القصيدة وما فيها من المسائل إنّما هو إرشاد للمتأدّبين بإصلاح الأخلاق ، وتنبيه للمرتاضين بعلم النفس على أسرار النبوّات ، وما في موضوعات الشرائع من الرموز ، ولا ينبغي لأحد من إخواننا أن يجيب أحداً إذا سئل عن هذه المسائل إلّا من قد هذّب نفسه ، فأصلح أخلاقها ، لأنّ صداء النفس ورداءة أخلاقها تمنع عن فهم معاني هذه ، فينبغي التسليم لصاحب الأمر ولحكمه الماضي
أو المستقبل إن كان من إخواننا المؤمنين
وشيعتنا المخلصين .

(١) من النسخة (د) .

﴿فصل ١٢﴾

✡(في كيفية آداب دعوة الانفس الى الله سبحانه وتعالى ، والى)✡

✡(صفو الايمان والاخوة وبيان جواهر النفوس وطبقات الناس)✡

اعلم يا أخي أيّدك الله وإيّانا بروح منه بأنّ شيعتنا وإخواننا المؤمنين المتفرّقين في البلاد وسائر من ينتسب إلينا فإنّهم في أحوالهم ومراتبهم على منازل ثلاث : فطائفة منهم خواصّ عقلاء متديّنون أخيارفضلاء ، وطائفةمنهم ذووآراء ومذاهب ، هم فيها مختلفون وأقاويل مفنّنة منهم بها مشعوفون ، وأخلاق وسجايا هم بها متغايرون ، فنريد أن نذكر كلّ طائفة بأوصافهم ، وندلّ عليهم بعلاماتهم ، حتّى إذا دخلت مدينة أوبلداً من البلدان ولقيت منهم أحداً تبيّنتهم بعلاماتهم ، وعرفتهم بسيماهم ، فتلقّيتهم بالتحيّة و السلام ، و داخلت كلّ طائفة منهم بألطف ماتقدر عليه من الرفق والمداراة ، وذاكرتهم علمنابحسب ما تقبله قلوبهم وألقيت عليهم من أسرارنا حسب ما تحتمله عقولهم ، وتتّسع له نفوسهم ، وتبلغ إليه هممهم وتتصوّرها أفهامهم ، وتكون في ذلك كمثل الطبيب الحكيم الرفيق .

و اعلم أنّ من خواصّ إخواننا الفضلاء أنّهم العلماء بأمور الديانات العارفون بأسرار النبوّات المؤدّبون بالرياضات الفلسفيّة ، فإذا لقيت يا أخي أحداً منهم وآنست منه رشداً فبشّره بما يسرّه ، وذكّره باستيناف دور الكشف والانتباه ، وانجلاء الغمّة عن العباد بانتقال القرآن من برج مثلّثات النيران إلى برج النبات والحيوان ، في الدور العاشر الموافق لبيت السلطان وظهور الأعلام .

و اعلم بأنّ من إخواننا و أهل شيعتنا طائفة أُخرى مقرّون بوجودنا ، شاكّون في بقائنا ، متحيّرون فيما يعتقدون من موالاتنا . وطائفة أُخرى موقنون ببقائنا ، لكنّهم غافلون عن أمرنا ، غير عارفين بأسرارنا ، و كلّهم منتظرون لظهور أمرنا ، مستبطئون لمجيء آياتنا ، مشتهون نصرة أمرنا ، فإذا لهيت منهم أحداً فبشّره بما يسرّه ، وقرّب عليه ما يظنّه بعيداً ممّا يؤمّله ، و عرّفه أنّ ما يرجوه غير بعيد ، وذاكر من وثقت به

من إخواننا بما ألقينا إليك من علمنا ، وأطلعه على ما أطلعناك عليه من أسرارنا ، كيما تطمئنّ به نفوسهم بما يعتقدون فينا ، و يتبيّن لهم صدق ماهم مقرّون به من أمرنا ، وأخرج إليهم من رسائلنا ، ما يرغب نفوسهم فيه و ترتاح إليه ، وليكن ذلك على النظام والترتيب كما بيّنّا لك ، فلعلّهم إذا استمعوا لقراءتها وفهموا معانيها انتبهت نفوسهم من نوم الغفلة ، ورقدة الجهالة ، وحيّيت بروح المعارف ، كما ذكر الله جلّ ذكره فقال [1] : « أفمن كان ميتاً فأحييناه و جعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » .

واعلم يا أخي أنّ في النّاس طائفة من أهل ملّتنا مقرّون بفضلنا و فضل أهل بيتنا ، لكنّهم جاهلون بعلومنا ، غافلون عن أسرارنا و حكمنا ، فمن ذلك أنّهم يجحدون وجودنا ، و ينكرون بقاءنا ، فإنّهم يزرءون بشيعتنا ، المقرّين بوجودنا ، المنتظرين ظهور أمرنا ، وهم معاندون لهم متعصّبون عليهم ، مبغضون لهم .

واعلم أنّ أحد الأسباب في ذلك هو أنّ أقواماً من شرار الناس جعلوا التشيّع ستراً لهم عمّا يجحدون من الآمرين عليهم بالمعروف و الناهين عن المنكر فيما يفعلون ، وذلك أنّهم يرتكبون كلّ محظور ، ويتركون كلّ مأمور به ، و إذا نهوا عن منكر ، فعلوه بادروا بإظهار التشيّع ، واستفزّوا العلويّة على من ينكر عليهم أوينهاهم عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يصنعون .

ومن الناس طائفة ينسبون إلينا بأجسادهم وهم برءوا منّا بنفوسهم ، و يسمّون أنفسهم العلويّة وماهم من العلويّين ، ولكنّهم من أسفل السافلين ، لايعرفون من أمرنا إلّا نسبة الأجساد ، ولا من القرآن إلّا اسمه ، ولا من الإسلام إلّا رسمه ، لا علماً يتعلّمون ، ولا فقهاً يدرسون ولا صلاة يقيمون ولا زكاة يؤدّون ، ولا البيت يحجّون ، ولا الجهاد يعرفون ، ولا حراماً يتجنّبون ، ولا عن منكر ينتهون ، و كلّ قبيح يركبون ، ولاهم يذكّرون ، ومع هذا كلّه على الناس يستطيلون ، وإليهم يتبغّضون ، ومن شيعتنا ينفرون فهم أبعد الناس عن أهل ملّتنا ، و أعدى الناس لشيعتنا ، وأجهل الخلق بعلومنا ، و أغفل

(١) سورة الانعام : ١٢٢ .

الناس عن أمرنا وأسرار حكمتنا ، وإليهم أشار بقوله ﷺ [١] «لا يأتيني الناس بأعمالهم وتجيئوني بأنسابكم ، فإنّي لا أُغني عنكم من الله شيئاً » .

ومن الناس طائفة قدجعلت التشيّع مكسباً لها مثل الناحة والقصّاص ، لايعرفون من التشيّع إلّا التبرّي و الشتم و الطعن و اللعن و البكاء من النياحة ، وحبّ المتديّنين بالتشيّع ، ممّن قديرى طلب العلم وتعلّم القرآن والفقه في الدين ، و جعلوا شعارهم لزوم المشاهد وزيارة القبور كالنساء الثواكل ، يبكون على فقدان أجسادنا وهم بالبكاء على نفوسهم أولى .

ومن الشيعة من يقول : إنّ الإمام المنتظر مختف من خوف المخالفين ، كلاّ بل هو ظاهر بين ظهرانيّهم وهم له منكرون كماقيل :

يعرفه الباحث من جنسه * و سائر الناس له منكر

و كلّهم مقرّون بأنّ الأنبياء خزّان الله ، و أنّ الخلفاء هم الأئمّة المهديّون ، وارثون علم النبوّات ، ولكنّهم لايعرفون حقيقة مايقرّون به ، ولا تصديق ما يعتقدونه فاُعيذك أيّها الأخ أن تكون منهم ، بل كن هادياً مهديّاً رشيداً طبيباً رفيقاً لإخوانك و أصدقائك وجيرانك ، ترشد الضلال وتبرىء الأكمه والأبرص وتحيي الموتى بإذن الله .

وذكروا أنّ ملكاً من ملوك الهند كان عظيم الشأن ، عزيز السلطان ، واسع المملكة حسن السيرة في رعيّته محبّاً للعدل والإنصاف [ولكن][٢] كان متديّناً بعبادة الأصنام ، معظّماً لها مقرّباً لأهلها ولم يكن يعرف شيئاً من أخبار الأنبياء ولاماجاءت به من حديث ملكوت السماء ، وأمر الوحي والتنزيل ، والسنن والتأويل ، وأمر المبدء والمعاد ، والبعث والقيامة والحشر والنشر والحساب والميزان والصراط ، والنجاة من النيران ، ودخول الجنان ، و مجاورة الرحمن ذي الجلال والإكرام .

ثمّ إنّ ذلك الملك رزق على رأس الكبر ابناً سعيد المولد ، فأمر المنجّمين بالحساب والحكم على موجبات أحكام النجوم في مولده ، فحكموا بأنّه يتربّى ويعيش ويطول عمره وينال ملكاً وسلطاناً لايشبه ملك الأرضين ، ولا سلطان الجسمانيّين ، بل ملك السّماويّين

(١) سبق تخريجه من البرهان .

(٢) من النسخة (د) .

وسلطان الروحانيّين ، فلمّا تربّى ذلك الغلام ونشأ أفرد له أبوه منزلاً ، وبنى له قصراً فأسكنه فيه ، ووكّل به حفظة ، وأشحنه بالخدم والظئر [١] و الخصيان ، و منع أن يصل إليه أحد من العامّة .

فلمّا نشأ الغلام وترعرع رزق من الفهم والذكاء مالم يرزق أحد غيره من أهل بلده ثمّ علّم آداب الملوك من القراءة والكتابة والشعر والفصاحة و النحو و اللغة و الحساب و والهندسة ، وما يليق بأولاد الملوك من العلوم والآداب ، و كان صافي النفس ، حيّ القلب ، كثير التفكّر في ملكوت السماء ، ومن الصانع ، و كيف المبدأ و المعاد ، و أحوال القرون الّذين مضوا وانقرضوا ليرى إلى ماذا ماصاروا ، وأين ذهبوا ، حتّى منعته الفكرة عن الأكل والنوم والتمتّع بلذّات النّعم وشهواتها ، فأسهر ليله ، وأطال نهاره ، ويتمنّى أن يجد أحداً يسأله عمّا في نفسه ويذاكره ما في قلبه ، فلم يجد أحداً حتّى فشا حديثه في الناس و كثر الثناء الجميل عليه وانتشر ذكره في الآفاق .

وسمع خبره حكيم من حكماء سرنديب وطمع في رشده و رجا له أن يكون هادياً رشيداً وفيلسوفاً حكيماً ، فقصد نحو بلاده ، وحمل معه كتباً من كتب الحكمة وأسرار النبوّة ملفوفاً في ثوب في جوف سفط [٢] مختوم .

ثمّ أتى تلك المدينة فطاف فيها فلم يجد أحداً من أهلها يصلح أن يسمع حكمته غير ذلك الغلام ، فطاف ببابه فرأى الوصول إليه أمراً متعباً من كثرة الحرّاس و الحفظة حول القصر ، فأقام زماناً يفكّر كيف يكون الوصول إليه حتّى عرف الداخلين والخارجين من عنده وإليه ، فوقع اختياره على أحد الخدم المختصّين به ، فرصده يوماً حتّى وجده خالياً ، وأخذ بيده إلى جانب من الطريق وقال له : اسمع ما أقول واكتم عليّ سرّي ، واعلم بأنّ عندي نصيحة لابن الملك ، وقد وقع اختياري عليك بما توسّمت فيك من الخيريّة ، قال الخادم : ما هذه النصيحة ؟ اسمعينها حتّى أعرفها ، فقال : أنا رجل من تجّار البحر ، وقد وقع إليّ جواهر نفيسة لا تصلح إلّا للملوك و أبناء الملوك ، وقد قصدت هذا الفتى لأعرضها

(١) حاضنة الولد ومرضعته .

(٢) وعاء من جلد .

عليه ، فإن كانت تصلح له واختارها فهي له مبذولة لديه ، وإن لم يكن يريدها رددت إليّ سرّاً ولا يعلم بها أحد من الناس فإني لست آمن أن يشعر بها بعض اللصوص أو الطرّارين فيحتال عليّ في أخذها فقال الخادم : أرني جواهرك أنظر إليها ، فإن كانت تصلح له حملتها إليه فقال الحكيم : لجواهري بريق وشعاع لا تستطيع النظر إليها لأنّ في عينيك ضعفاً[1] أشفق عليك منها وأمّا ابن الملك شابّ جيّد النظر ، حادّ البصر ، لا أخاف عليه منه ضرراً فقال الخادم : إنّ هذا الذي تصف لأمر عظيم ، وما أرى بكلامك بأساً ، و أنا شاكّ فيما تقول فكيف أصنع ؟ فقال الحكيم : لا يسعك أن تحرم ابن الملك هذه النصيحة إذ بذلتها . و اعلم بأنّك إن لم توصلني إليه مع سفطي هذا توسّلت بغيرك إليه ، فذهب الخادم ، و عرّف الفتى ، فلمّا سمع ابن الملك تهلّل وجهه ودخله من الفرح والسرور مالم يتمالك نفسه أن قام من مجلسه ومشى في الدار ، وعلم أنّه ظفر بحاجته ووجد طلبته ، و قال للخادم نعم ما رأيت حتّى عرّفتني هذا الحديث ، فالآن أوصله إليّ ، وليكن في سرّ و كتمان .

فلمّا وصل الحكيم إلى الفتى ورأى شخصه تفرّس فيه النجابة والفلاح ، وقام الغلام من مجلسه ، وسلّم عليه ورحّب به ، وأقعده وقعد بين يديه ، وقال للخادم : تنحّ الآن عنّا لأسأله عمّا في نفسي . ثمّ ابتدأ فسأله عن حاله ومجيئه وقصده ، وأخذ في حديث طويل .

وقد بيّنّا في فصل بعد هذا أشياء ممّا جرى بينهما من الخطاب .

فهكذا ينبغي لإخواننا الفضلاء الأخيار الحكماء أن يقتدوا بذلك الحكيم في اختيارهم بحكمهم الأحداث و الفتيان الأخيار النجباء المتأدّبين المهتدين الفهماء الأذكياء لأذكار علومنا وأسرار حكمنا ، اقتداء بسنّة الله تعالى ، وذلك أنّه لم يبعث نبيّاً إلّا وهو شابّ ، ولا أعطى الحكمة لعبد من عباده إلّا وهو حدث من الفتيان ، كما ذكرهم الله تعالى وأثنى عليهم ، فقال تعالى [2] : « إنّهم فتية آمنوا بربّهم وزدناهم هدى * و ربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربّنا ربّ السماوات و الأرض لن ندعو من دونه آلهاً لقد قلنا إذاً شططاً » وقال تعالى في قصّة خليله [3] « سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » و قال

(١) في الاصل « ضعف » سهواً .
(٢) سورة الكهف : ١٣ .
(٣) » الانبياء : ٦٠ .

موسى لفتاه [١] : « آتنا غداءنا » هكذا ينبغي لإخواننا إذا وجدوا صديقاً بهذا الوصف أن يغتنموا ذلك ، ويعرّفوا إخوانهم الباقين حديثه ويستبشروا باليقين و التأييد من الله ، كما وعدالله جلّ ثناؤه [٢] : « إن تنصروا الله ينصر كم ويثبّت أقدامكم والله وليّ المؤمنين ».

وكان ممّا جرى بين ذلك الفتى والحكيم أن قال له :

أخبرني لمَ تذمّ الحكماء أُمور الدنيا ، و يزهّدون في نعيمها ، وهي دارهم الّتي نشؤوا فيها ومسكن آبائهم الّذين ربّوهم .

فأجاب : لأنّها تصغر في أعينهم إذا شاهدوا أمر ملكوت السماء يستقلّون نعيمها في جنب ما يعرفون من نعيم الآخرة ، كما صغر حال ذلك المسكين في عين الملك ووزيره .

قال الفتى : و كيف كان ذلك ؟

قال الحكيم : ذكروا أنّه كان ملك من ملوك الهند عظيم الشأن ، عزيز السلطان واسع المملكة ، حسن التدبير و السياسة ، عادل السيرة في الرعيّة ، صادق الحجّة في الحكومة ، بصيراً بأُمور الدنيا ، راغباً فيها متمنّياً للخلود فيها ، ولم يكن يعرف أمر الآخرة ولا المبدء ولا المعاد ، ولا البعث ولا القيامة ، ولا الوحي ولا النبوّة ، وكان مع ذلك يعبد الأصنام ، ويقرّب لها القربان ، ويعظّم شأنها ، ويحسن إلى أهلها ، على عادة جارية قد اعتادها منذ الصبى من غير فكر في أمرها ، ولا رويّة في شأنها .

وكان له وزير خيّر عارف بصير قد عرف خبر ملكوت السماء وبناء الملأ الأعلى و أمر المعاد والمبدأ ، و كيفيّة الوحي ومجيء الأنبياء ، و علل سنن الديانات ، و مرامي مرموزات النواميس وأسباب أحكام الشرائع ، وما الغرض الأقصى منها وما حقيقة معانيها وخفيّات أسرارها ودقيق إشاراتها ، وماقصد واضعها النفع العاجل منها ، وما المطلب والمغزى في الآجل منها .

و كلّما رأى ذلك الوزير الملك أنّه يسجد لتلك الأصنام و يستلمها و يعظّم شأنها من غير معرفة بحقيقة أمرها ، ولا بصيرة بشأنها وما المغزى بذلك ، انعصر قلبه غمّا عليه ، لغفلته وسهوه فيما يفعله تقليداً ، ويعمله جهالة ، وكان يرثي له سرّاً ، ويرحمه شفقة

(١) سورة الكهف ٦٢ .
(٢) » محمد : ٧ .

عليه ، لطول الصحبة وحسن المعاشرة له ، وكان يهابه إن ينهاه عن ذلك أو ينبّهه عن غفلته أن لايسمع لقوله ، لشدّة سكره وغفلته ، ولا يقبله لتمكّنه من نفسه واستمراره عليها طول الزمان .

فشكا ذلك إلى صديق له ، فقال : قدطالت صحبتي مع هذا الملك و مارأيت منه إلّا خيراً وله عليّ إحسان كثير وإنعام وإفضال لا أقدر أن أؤدّي شكرها ، ولست أُنكر من أمره إلّا ما هو فيه من الغفلة عن أمرالدين والمعاد ، وقلّة الرغبة في الآخرة ، و ترك النظر في المنقلب بعدالموت ، ولا أدري إن ذكرته له كيف يقع منه .

فقال له صاحبه : أنت أخبر بصاحبك ، وأعرف بأخلاقه ، وأعلم بعاداته ، فكن طبيباً رفيقاً لا تضع الدواء إلّا على الدّاء حيث ينفع ، و اطلب الفرصة .

قال : فإن رأيت للكلام موضعاً و للخطاب موقعاً فاغتنم ذلك ، وإن لم ترفلاتضيّع الجرم . واعلم بأنّ الملوك لهم سكرات وغفلات من عدّة وجوه :

فمنها سكر السلطان والأمر و النهي ، ومحبّة الرياسة ، والعزّ والأنفة و الكبر و الاستطالة .

ومنها سكر الشباب والنشاط والجلد والتفاخر والشجاعة و الشطارة [1] ، و محبّة الغلبة والرياسةوالسمعة .

ومنها حبّ الشهوات المركوزة في الجبلّة ، والتمكّن منها ، و الميل إلى اللذّات المعتادة والرفاهية والرأفة ، والاستمرار على العادات المعتادة ، من الصبى .

ومنها الجهالات المتراكمة من أوّل الأمروالأخلاق المنشأة من الطبع ، و كلّ هذه سكرات تمنع من استماع الحكمة ، و النظر في العاقبة ، والفكر والرويّة في المعاد ، و المنقلب في الآخرة بعدالموت .

ثمّ إنّ ذلك الوزير ملك دهراً طويلاً يطلب الفرصة لخطابه إلى أن اتّفق أن قال له الملك ذات ليلة بعد أن فرغامن النظر في أمر الرعيّة ، و كتب النوبة ، و تدبيرالسياسة: هل لك أن نخرج الليلة متنكّرين فنتعرّف حال المدينة ، و نتجسّس أخبار الرعيّة ، و

(١) الشطارة : الاتصاف بالدهاء .

تنظر إلى آثار و كيفيّة زيّ البلاد ومصالح العباد ، وكان من سنّة ملوك تلك البلاد أن لا يركب الملك إلّا في كلّ سنة مرّة ، ولا يظهر للرعيّة إلّا يوماً واحداً ، كلّ ذلك تعظيماً لأمر الملك وسياسة الرعيّة ، فخرجا يطوفان حول المدينة متنكّرين .

فبينا هما كذلك إذاهما بضوء من بعيد ، فأقبلا نحوه حتّى إذا دنوا منه ، فإذاهما بمزبلة منتنة رابية عظيمة عليها جيف مرميّة ، و سمادات [1] طريّة منتنة الرائحة ، وإذا في أسفلها نقب يشبه المغارة ، وإذا في أقصى داخلها رجل قاعد مشوّه الخلقة ، على دكّة قد أصلحها من لين سماد ورماد تلك المزبلة ، وقد فرش تحته من خرق تلك المزبلة شبه بساط وعليه مدرعة قد خاطها شبه مرقّعة وفي رجليه تبّان ، وعلى رأسه شملة مثل ذلك ، و إذا بحذائه امرءة تشبهه بالخلقة و التشويه ، عليها كداوات شبه درع وخمار ، وملحفة مثل ما عليه من خرق تلك المزبلة ، وإذا بين أيديهما سراج من خزف فوق آجرّات شبه منارة ، و بجنبه جرّة مكسورة فيها دردي قد مزجه بشيء من ماء ، وإلى جنبه سلّة خوص فيها باقات كرفس و كرّاث ، وبيد كلّ واحد منهما شربة مكسورة ، يغرفان من تلك الجرّة و يشربانها ، و إذا على فخذه قصبة قد مدّ عليها خيطاً يشبه قوس النداف ، وهو ينقر عليها بقضيب في يده ، ويغنّي بأبيات غير موزونة خارجة من الإيقاع ، و إذا به يذكر في كلّ الأبيات حسن المرأة ، ويصف جمالها ، وشدّة عشقه لها ، وإفراط محبّته إيّاها ، و إذا بيدها خشبة غربال مكسورة ، قد مدّت عليها قطعة جلدة غير مدبوغة جائفة منتنة الرائحة تشبه الدفّ ، وهي ينقر إذا غنّى هو ، وترقص بين يديه ، و إذا شرب كلّ واحد منهما سارّ صاحبه و حباه بباقة من ذلك الكرفس والكرّاث ، وهي تثني عليه بالحسن والجمال كأنّه يوسف الصدّيق وتسمّيه بشاهنشاه ملك الملوك ، وهو يسمّيها كدبانو سيّدة النساء ، و يشرب ويثني عليها بالحسن والجمال ما يقصر وصف الحور العين في ذلك ، و إذا شربا سألا ربّهما أن لا يعدمهما ماهما فيه ، ولا يغيّر ما بهما من نعمة ، وأن يبقيهما على تلك الحالة ما بقي الدهر !

و لمّا أبصر الملك و الوزير ما هما فيه من اللّذّة و السرور و الفرح ، طال وقوفها

(١) السماد - بفتح السين - : ما تصلح به الارض من زبل ونحوه .

متعجّبين من حال المسكينين ، ثمّ قال عند ذلك الملك للوزير : ما أظنّ أنّي في طول حياتي وعزّ سلطاني ونعيم ملكي و أيّام شبابي ومجالس لهوي مع تمكّني من شهواتي بلغ منّي الفرح و اللّذّة و السرور كما يصف هذا المسكينان الحقيران الوضران من حالهما ، ومع هذا كلّه أظنّ أنّه لا تفوتهما هذه الحالة كلّ ليلة إذ أرادا ، لأنّهما لا يعرض لهما شيء من العوائق الّتي تعرض لنا من الأشغال المانعة لفراغ مجلس اللذّة و اللهو ، مثل خروج الخوارج في أطراف المملكة ، واضطراب النواحي ، وشعث الجند ، وطلبهم للأرزاق ، ومثل النظر في تظلّم الرعيّة و هيج العامّة ، ومثل النظر في محاسبة الكتّاب وتولية العمّال ، ومثل النظر في التعازي والتهاني ، والنظر في أمر الخاصّة و إصلاح أمر العامّة ، و مثل النظر في التوقيعات و القصص و حفظ الخزائن و تفقّد الرسل الواردين من الأطراف ، و إكرامهم و التجمّل لهم ، و مثل النظر في الكتب الواردة من أصحاب الأخبار و كتب أجوبتها ، وما شاكل هذه من الأشغال المنغّصة للعيش ، المنغّضة للذّات ، الموردة للمهموم والغموم والأحزان .

ثمّ قال الملك : أظنّ لو كان هذا المسكينان دخلا منازلنا ، و لبسا ثيابنا ، و أبصرا منازلنا ، و ذاقا من أطعمتنا ، و عاينا أحوالنا ، و شاهدا عزّ سلطاننا ، و عرفا لذّة نعيمنا مرّة واحدة مقدار ساعة ثمّ ردّا إلى منزلهما وحالهما لما تهنّآ بالعيش بعد ذلك ، ولا وجدا لهذه الحالة النكدة الّتي هما فيها لذّة ، ولصغر في أعينهما ما هما فيه من السرور والفرح .

فلمّا سمع الوزير قول الملك تذكّر ما قاله صاحبه لمّا شكا إليه : «واطلب الفرصة وضع الدواء حيث الداء ، فإنّ لكلّ مقام مقالاً» فقال الوزير للملك : أخاف أيّها الملك أن نكون فيما نحن فيه من عزّ سلطاننا ونعيم ملكنا ولذيذ شهواتنا وسرورنا بأحوالنا و فرحنا بما خوّلنا مغرورين كغرور هذين المسكينين عند أحوالنا .

فلمّا سمع الملك قول الوزير استنكره واستعظمه ، فقال له : و هل تعلم في الأرض اليوم مملكة أو سع من مملكتنا ، أو سلطاناً أعزّ من سلطاننا ، أو بلداً أكبر من بلدنا ، أو مروءة أحسن من مروءتنا ؟

قال الوزير : لا .

قال الملك : فمن هؤلاء القوم الّذين زعمت أنّه يصغر حالنا في أعينهم ، و يستحقرون أمرنا ؟

قال : قوم يقال لهم « النسّاك » .

فقال الملك : أين بلدهم ، ومن أيّ ناس هم ؟

قال : هم براع من قبائل متفرّقين في المدن ، وفي آفاق البلاد ، يجمعهم دين واحد، ومذهب واحد ، ورأي واحد .

قال : صف لي مذهبهم وحالهم .

قال : هم أُمناء الله في خلقه ، وخلفاء أنبيائه وأئمّة لعباده ، وليس في الناس منهم إلّا نفر يسير ، لأنّهم في الناس كالملح ، بسؤالهم ينزّل الله المطر من السحاب ، و البركات إلى الأرض ، و بدعائهم يرفع الله عن عباده القحط و الغلاء و الوباء ، وهم حفّاظ كتب الله و علماء تأويلها .

قال الملك : مَن أنبياء الله ؟

قال : طائفة من بني آدم اصطفاهم من عباده وقرّبهم وناجاهم و كشف لهم من مكنون أسرار غيبه و جعلهم أُمناء وحيه و سفراء بينه و بين خلقه أرسلهم من عالم الأرواح إلى ملكوت السماء إلى عالم الكون والفساد في الأرض وأنزل معهم الكتاب ليدعوا عباده إلى جواره في جنّته الّتي كان أبوهم آدم فيها بدءاً .

فقال الملك : وماذا يصفون من عالم الأرواح وملكوت السماء ؟

قال : يقولون : إنّ هناك فضاء فسيح[1] وأفلاك دوّارة ، و كواكب سيّارة ، وأنوار ساطعة ، وبهجة ونسيم وروح وروحان ، و نعيم الجنان ، ورضوان و جواري حور حسان ، عين ، وولدان و غلمان ومردان ، وطيب ونسيم ولا يخالطها هجر الصيف ، ولا زمهرير الشتاء ولا ظلمة الأجسام ، ولا فناء الأجرام ولا مزاحمة في مكان ، و ملك دائم ، وعزّ سرمد ، و أهلها أحياء لا يموتون ، وشبّاب لا يهرمون ، و أصحّاء لا يمرضون ، و أغنياء لا يفتقرون ، و جيران لا يحاسدون ، وأصدقاء لا يختلفون ونعيمهم لا يكدره بؤس ، و لذّاتهم لا يخالطها ألم،

(١) كذا ، والصواب فيه وفي ما بعده النصب .

و سرورهم لا يشوبه حزن ، و فرحهم لا يداخله هموم ولا غموم ، ولا نوائب ولا حدثان ، ولا تغيّر زمان .

فقال : وما ذا يقولون ، وهل إلى هناك وصول ؟

قال : لا تشكّنّ ، مَن طلبها كما يجب وصل إليها .

قال : و كيف وجه الطلب ، و كيف المسلك و كيف الوصول ؟

فوصف له ما قد ذكرنا طرفاً في رسائلنا الناموسيّة ، وما أخبرت به الأنبياء في كتبها وما أشارت به الفلاسفة في مرموزاتها .

فقال الملك للوزير : منذ متى عرفت هذه القصّة ، واعتقدت هذا الرأي ، وعلمت هذا المذهب ؟

قال : منذ زمان .

قال : فما منعك أن تذاكرني بهذا الأمر الجليل العظيم الخطير في طول صحبتك معي ؟

قال الوزير : إنّي لم أترك مذاكرة الملك بهذا الأمر الجليل لأنّي بخلت عليه به أو لم أره أهلاً لذلك ، ولكن انتظاراً لوقت الفرصة لوجه الخطاب ، وموضع الكلام لانّ النظر في هذا العلم و البحث عن تحقيق هذا الأمر و التصوّر له و كنه المعرفة يحتاج إلى قلب فارغ من أشغال الدنيا ، و نفس صافية من العوارض المكدّرة من الآراء الفاسدة ، و العادات الرديئة ، وهمّة عالية في طلب الأمور الشريفة ، والزهد في الشهوات الجسمانيّة المذمومة وترك اللّذّات المحسوسة و الجرمانيّة الفانية حتّى يتصوّرها بحقّها و صدقها ، لأنّه لا يكون المقرّ بهذا الأمر مقلّداً كالعوامّ الّذين لا يعلمون من القول إلّا زوراً ولا من العلم إلّا ظاهراً ، ولا من العلوم إلّا قشوراً ، ولا من الدين إلّا تعصّباً . و إنّ الملوك أكثر الناس اشتغالاً في أمور الدنيا وأطولهم أملاً وأرغبهم في الخلود في الدنيا وأكثرهم تمنّياً للبقاء فيها شدّة تمكّنهم من التمتّع بنعيمها ، و استغراقهم في شهوات لذّاتها ، ولا يصلح للمذاكرة بهذا العلم إلّا فتيان أذكياء ، لهم نفوس صافية وقلوب واعية ، بريئين من الآراء الفاسدة ، غير معتادين للعادات الرديئة ، أو مشائخ مهذّبون بالنظر في العلوم الرياضيّة ، غير متعصّبين في المذاهب المختلفة و الآراء المتناقضة ، أو نفوس ملكيّة لها همم عالية في

طلب مراتب الملائكة ، و الأُمور السماويّة ، و المعقولات الروحانيّة ، و الوجود المحض و البقاء الدائم ، و الدوام السرمد .

فقال الملك : ما يسعنا بعد اليوم إلّا أن نجعل أكثر عنايتنا في الكشف عن حقيقة ما ذكرت على صحّة و بيان ، من غير تقليد ولا تكذيب ، فإن بان أنّه حقّ طلبناه حقّ الطلب ، وتركنا ما نحن فيه من أُمور هذه الدنيا الّتي كلّها إلى فناء وزوال ، كما فنيت أعمار الّذين كانوا قبلنا ، وزوال ملكهم ونعيمهم .

ثمّ قال : أخبرني ماذا يصف الحكماء من أصناف الخلائق الّذين هم في الأرض من أجناس الحيوان من الأنعام و السباع و الوحوش و الطير و الهوامّ والحشرات والدوابّ وحيوان الماء و البحار أجمع ، و أصناف بني آدم من أجناس الأُمم من الترك و الحبش و الزنج و النوبة و العجم و العرب و الفرس و الروم و الهند و السند و الصين و الحبش و الأكراد ويأجوج و مأجوج و السيسان ، وأُمم أُخر غير معروفة عند كثير من الناس ، و كلّ هؤلاء مختلفي الألسن و الألوان و الأخلاق و الطباع والعادات و الأعمال والأفعال والصنائع و الآراء و المذاهب من أهل المدن و القرى و السوادات و السواحل والجزائر و البراري يشملها نحو من عشرة ألف مدينة ، يملكها نحو من ألف ملك ، هذا كلّه في الربع المسكون وعلى الأرض بجميع ماعليها من البحار و الجبال والبراري و الأنهار و العمران والخراب ما في فسحة الهواء إلّا كحلقة ملقاة في برّيّة صحراء . وفضل سعة فلك واحد من السبعة على الهواء كفضل البرّيّة على الحلقة .

قال : أفترى أيّها الملك أنّ الخالق جلّ ثناؤه ترك ذلك الفضاء الواسع مع جوهر سرف تلك الاجرام وطيب نسيم ذلك المكان فارغاً خالياً لم تجعل فيه أهلاً وسكّاناً وخلائق تليق به ؟ وقد ترى أنّه لم يترك البحار الأُجاجة المرّة حتّى جعل في قرارها الزاخر أجناساً من الحيوانات ، و أنواعاً من السموك والحيتان ، وهكذا حقّ هذا الهواء الرقيق لم يتركه فارغاً حتّى خلق فيه أجناساً من الطيور تسبح فيه كما يسبح السمك في الماء ، و كذلك هذه البراري اليابسة الجافّة لم يتركها خاوية ، وجعل فيها أجناساً من الوحوش والسباع والأنعام ، و كذلك في الآجام و الآكام و رؤوس الجبال وبطون الأودية و شطوط الأنهار

حتّى خلق في النبات ، و في ثمر الشجر و في جوف الحبّ حيوانات مختلفة الصور و الأشكال .

واعلم بأنّ صورة هذه الحيوانات مع اختلاف أشكالها وساير هيآتها مثالات وأشباح لتلك الصور الّتي في عالم الأفلاك غير أنّ هذه في هيولى جسمانيّة و تلك في جواهر روحانيّة ، وما نسبة هذه الخلائق الّتي في عالم الكون وأحوالها إلّا كنسبة الصور المنقوشة على وجوه الحيطان وأبواب الحمامات بالأصباغ المختلفة ، و كما أنّ تلك الصور أشباح المتحرّكة[1] و الحيوانات الحسّاسة فإنّ تلك الصور ميّتة وهذه حيّة ، و كذلك تلك الخلائق روحانيّة وهذه جسمانيّة ، تلك شفّافة وهذه مظلمة ، وتلك باقية وهذه فانية .و تلك صافية و هذه كدرة ، و تلك نورانيّة و هذه ظلمانيّة ، و تلك حافظة و هذه فاسدة .

فقال الملك : لمَ اُخرج آدم وذرّيّته من هناك ، واُهبطوا إلى الارض ؟

قال : لجناية كانت منهما .

فقال حدّثني كيف كانت القصّة ؟ قال هي سرّ خفيّ لايجوز كشفه ولكن أضرب لك مثلاً تفهمه ، ألا ترى أيّها الملك إلى عبدك فلان الّذي ربّيته صغيراً ثمّ لمّا نشأ و ربا أدّبته و علّمته كثيراً ، فلمّا كبر اصطفيته وفضّلته و شرّفته ، ثمّ ولّيته بعض مملكتك وجعلته خليفة على بعض بلادك وأمرت بطاعته أكبر عبدك و رعيّتك ، و منحته أكبر نعمتك و نهيته عن معصيتك ، فخالفك وترك وصيّتك و ارتكب نهيك ، كيف حططت مرتبته و كيف تكشف عورته ، و كيف حبسته في حبسك هو ومن ساعده على ذلك ؟ ثمّ انظر كيف رضيت عنه لمّا ندم وتاب ورجع هو ومن معه ، و كيف رددته إلى حالته الاُولى ، و كيف خلّدت من لم يعترف ولم يرجع ، فهكذا قياس آدم و إبليس و ذرّيّتهما .

فقال الملك : أكلّ ذرّيّة آدم وحوّا جنوا وعصوا .

قال : لا ولكن كنّا ذرّيّة من بعدهم ، فلمّا جاءت الانبياء عليهم السلام بالرسالة قامت الحجّة علينا أن نقول يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين .

قال الملك للوزير : ما تقول هذه الرسل إذا بلّغوا ، والانبياء إذا أخبروا في دعوتهم الناس وتذكارهم لهم لما قد نسوه ، و إعلامهم أيّامهم ماقد جهلوه ؟

(١) كذا في الاصلين .

فوصف له ما قد ذكرنا طرفاً منه في رسالة النواميس الإلهيّة ، وما يفعلونه في رسالة اعتقاد إخوان الصفاء .

فقال : كيف [عشرتهم] مع أهل دعوتهم وعشرة أهل دعوتهم بعضهم مع بعض ؟

فذكر له ما قد ذكرنا طرفاً منه في رسالة « عشرة إخوان الصفاء بعضهم مع بعض »

فقال : بماذا يمتازون أهل دعوتهم من غيرهم ؟

فوصف له ما ذكرنا طرفاً منه في رسالة «خصال المؤمنين وشرائط الإيمان » .

فقال : أخبرني عن كتب الأنبياء بأيّ لغة تكون ؟

قال : بلغة القوم الّذين نشؤوا فيها ، وبألفاظ الّذين بعث إليهم .

قال : عرّفني معاني ألفاظها .

قال : تكون منها أخبار القرون الماضية وأحاديث الأمم السابقة ، وبدء خلق السماوات والأرض وكيفيّة انطباقهما ، ووصف أصناف الخلائق فيهما وأخبارها يأتي في المستقبل من حديث الأيّام ، وتغييرات الدهور والأزمان ، وفناء عالم الأجسام وكيفيّة نشوء الآخرة والحشر والحساب والميزان والقصاص ، والجواز على الصراط والنجاة ، وما شاكلها من الأمر المنتظر في الزمان المستقبل ، ويكون فيها الأوامر والنواهي والتعليم والتأديب وبيان الحلال والحرام ، والحدود والأحكام ، والفرائض والسنن ، من الصوم والصلاة والقربات والزكاة ، وفنون التعبّدات ، بالترغيب الى نعيم الجنان ، والمدح والثناء على أهل الخير والزجر والنهي عن المساوي والشرور ، والجور في الأحكام ، والوعيد بعذاب النيران ، بضروب الأمثال والإشارات والرموز ، ويكون فيها آيات بيّنات محكمات للقلوب وأُخر متشابهات محنة للعقول .

فقال : فأخبرني بكلّ أوامرهم ونواهيهم وتحريمهم وتحليلهم وفرائضهم وسننهم هل تكون مساوية ؟

قال : لا ، بل مختلفة .

قال : ولمَ ذاك ومرسلهم واحد؟

قال : لأنّهم أطبّاء النفوس ومنجّموها ، فمحرّماتهم حمية النفوس ومحلّاتهم أدوية

وشراب ، وفنون التعبّد هي العلاجات ، ومداواة كلّ ذلك بحسب مايعرض للنفوس من الا مراض الّتي هي الآراء الفاسدة والا خلاق الرديئة ، والعادات الجائرة ، والجهالات المتراكمة ، كلّ ذلك بحسب اختلاف طبائع الأمم وأهوية البلدان ، وتغييرات الزمان ، وموجبات النجوم ودلائل القرانات .

وكان ممّا سأل الفتى ذلك الحكيم أيضاً أن قال له : أخبرني مايرى الحكماء حال النفوس بعد مفارقة هذه الأجساد على الشرائط الّتي ذكرت إلى ملكوت السماء ، هل تشتاق إلى هذا الجسد أوتتمنّى العود إليه ؟

قال الحكيم : ذكر أنّه كان ملك من الملوك وكان له ابن كريم ، فزوّجه ابنة ملك وزفّها إليه على أحسن ما يكون من الكرامات ، كما تزفّ بنات الملوك ، و أصلح للحاشية دعوة سبعة أيّام ، وكانوا مشغولين بالأكل والشرب والغناء والفرح والسرور .

فلمّا مضى من الليل قطعة ونام أكثر الناس قام من مجلسه ودخل الحجرة للخلوة وقام الفتى يمشي في الدار حتّى خرج من باب الدار وحصل في الشارع ، و مشى حتّى خرج من المدينة ، فوقع في الصحراء ولم يدر أين هو .

ثمّ إنّه رأي ضوءاً من بعيد فذهب نحوه حتّى قرب منه ، فإذا هو بباب مردود ، والضوء من داخله فدفع فإذا هو بقوم نيام مطرحين يمنة و يسرة ، كلّ واحد ملفوف في إزار ، فظنّ أنّها حجرة العروس ، وأنّ أولئك النيام جواريها وخدمها ، فجعل يناديهم ، فلم يجبه أحد منهم ، فظنّ أنّ ذلك من شدّة سكرهم ، فجعل يلتمس العروس من بينهم حتّى وقعت يده على واحدة هي أطراهنّ ثياباً وأطيبهنّ ريحاً فظنّ أنّها عروسه فاضطجع معها ، وجعل طول الليل يلثمها و يمصّ ريقها ويتلذّذ ولا يرى أن يكون لذّة أطيب ممّا هو فيه .

فلمّا أصبح وزال سكره نادى إلى الخادم فلم يجبه أحد ، وجعل يتحرّك العروس فلا تجيبه ولاتنتبه ، فلمّا طال ذلك عليه فتح عينيه فإذا هو في ناؤوس [1] عجوز قد ماتت منذ مدّة ، وعليها أكفان جدد وحنوط طريّ ، وإذا الدماء والصديد قد سال منها ، وقد تلوّثت

(١) الناؤوس : مقبرة النصارى . وقد سبق .

ثيابه و يديه و وجهه من تلك الدماء و الصديد و القاذورات ، وهو متفكّر في أمره كيف وقع هناك .

فلمّا رأى تلك القاذورات هاله وورد عليه أمر مهول ، فقام مرعوباً و طلب الباب و خرج هارباً متنكّراً مخافة أن يراه أحد على تلك الصورة ذاهباً في طلب الماء ليغسل ثيابه ، حتّى ورد إلى نهر فنزع ثيابه ، ووقع في الماء يغسل مابه من الدم والصديد و القاذورات ، و هو متفكّر كيف كان خروجه من مجلسه ، ولا يدري أين هو من البلاد وما خبر أهله من بعده .

فما زال كذلك إذ مرّ به مجتاز في الطريق ، فلمّا رآه لم يعرفه ، قال له : ماقصّتك قاعداً في الماء ؟ فاستحيا منه أن يعرّفه خبره فقال : زلقت في مزبلة وتلوّثت ثيابي ، و أنا قاعد هنها منتظر أن يوجّه أهلي [إليّ] بثياب ألبسها .

فقال له ذلك المجتاز : إنّ الناس في شغل عنك ، فقال : وما الّذي أصابهم ، قال : يقولون : ابن الملك اختطفه الجنّ البارحة ، وهم محزونون عليه مستوحشون لفقده فقال له عندي خبر ابن الملك فهل لك أن تعيرني ثيابك ودابّتك حتّى أمرّ وأبشّرهم به، والبشارة بيني وبينك بنصفين ، فدفع الرجل إليه بعض ثيابه وأركبه دابّته و أوصله إلى دار الملك ، فدخل الغلام متنكّراً من باب الحجرة فلمّا رأوه فرحوا به وسألوه عن خبره ، فقال: القصّة طويلة أحدّثكم بها وقتاً آخر، عودوا إلى ما كنتم عليه ، فعاد القوم إلى السرور والفرح أضعاف ماكانوا عليه .

ثمّ قال الحكيم للفتى : ماتقول وماترى ؟ هل ذلك الغلام يرتدّ بعد مانحّاه الله من مبيته تلك الليلة في الناؤوس مع تلك المرأة ، أو يشتاق إليها و إلى عناقها مرّة أخرى ؟ قال : لا،قال الحكيم : فكذا يرى الحكماء حال النفوس بعد مفارقتها الجسد ، و صعودها إلى ملكوت السماء ، أنّها لاتشتاق إلى هذا الجسد، ولاتريد العود إليه بل تأنف من الفكر فيه ، و تشمئزّ من ذكره ، كما اشمأزّت نفس الغلام من ذكر مبيته في الناؤوس تلك الليلة وما عليه من العار عند أبناء الملوك إن عرفوا حديثه .

واعلم أيّها الأخ أنّه كما أنّ المعاونة بقوّة الأجسام على أمور الدنيا من أبلغ

مايكون لأبناء الدنيا فيما يريدون ، وأسهلها عليهم فيما يقصدون، فهكذا نرى أنّ المعاونة بين إخواننا بالعلوم والمعارف على أمر الدين ، فطلب الآخرة من أبلغ مايقصدون و أسهلها عليهم فيما يرومون .

واعلم بأنّا لانستعين بأحد من إخواننا على أمر الدين قبل أن نبذل له المعاونة على أمر الدنيا ، فإن كان مستغنياً عن معاونتها ، فذاك الّذي نريد له ، و إن كان محتاجاً إلينا فذاك الّذي نريد منه حتّى إذا كفيناه مايهمّه من أمر دنياه ، وفرغ لنا قلبه ، و جمع لنا رأيه ، استغنى عند ذلك بقوّة نفسه ، وتمييز عقله وصفاء جوهره ، فإن كان عنده علم ليس عندنا تعلّمناه منه تعلّم صبيان الكتّاب ، واستمعنا منه استماع المنصتين لخطب الخطيب يوم الجمعة ، فإن كان حقّاً ما يقول اتّبعناه اتّباع المأموم للإمام ، وإن كان يرغب فيما لدينا من العلم علّمناه بحسب رغبته وطلبته .

واعلم أيّها الأخ البارّ الرحيم أيّدك الله وإيّانا بروح منه بأنّه لا يحسن بنا أن ندّعي معرفة حقائق الأشياء ونحن لانعرف نفوسنا لأنّ مثل من يدّعي ذلك وهو لايعرف نفسه كمثل من يطعم الناس وهو جائع ويكسو الناس وهو عريان ، و كمن يداوي غيره و هو عليل أو كمن يهدي الناس الطريق وهو لايعرف طريق بيته ، وقد علم أنّ الإنسان في مثل هذه الأشياء ينبغي له أن يبتدىء أوّلاً بنفسه ، ثمّ بغيره .

دليل آخر أنّ الإنسان إذا لم يعرف ربّه لم يعرف نفسه ، فينبغي لنا أن نسعى أوّلاً في المعارف الإلهيّة ، فإذا وفّقنا الله لمعرفته عرفنا أنفسنا بتفضّله ورأفته وهذا سرّ قوله ﷺ : (١) « من عرف نفسه فقد عرف ربّه » .

وفي هذا الحديث تفسير مختصر دون ماذكروه وهو أنّك تعرف أنّ صفات نفسك على الضدّ من صفات ربّك ، فمن عرف نفسه بالعبوديّة عرف ربّه بالربوبيّة ، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربّه بالبقاء ، ومن عرف نفسه بالجفاء والخطاء عرف ربّه بالوفاء والعطاء ومن عرف نفسه كما هي عرف ربّه كما هو .

فكأنّه عليه السلام أراد بمعرفة النفس أنّ الإنسان يعسر عليه معرفة نفسه إلّا من وفّقه

(١) رواه ابن فهام في مجموعته . وذكره الطريحي لعلي عليه السلام .

الله ، فقال على سبيل الندور و القلّة ، فصار النادر كالمعدوم فكأنّه في قوله عليه السلام : « من عرف نفسه عرف ربّه » علّق مستحيلاً على مستحيل ، لأنّه يستحيل أن تعرف نفسك و كيفيّتها و كميّتها ، فإنّك إذا كنت لاتطيق أن تصف نفسك الّتي بين جنبيك بكيفيّة و أينيّة ولا شبحيّة ولا هيكليّة ، فكيف يليق بعبوديّتك أن تصف الربوبيّة بكيف وأين وهو مقدّس من الأين والكيف ؟

وروى المفضّل عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حديث طويل قال : كان عيسى بن مريم على نبيّنا وعليه السلام يقف بين الحواريّين فيعظهم ويقول : ليس يعرفني من لايعرف نفسه ، ومن لم يعرف النفس الّتي بين جنبيه لم يعرف النفس الّتي بين جنبي غيره ، ومن عرف نفسه الّتي بين جنبيه عرفني ، ومن عرفني عرف الّذي أرسلني .

يا مفضّل ! قال الله تعالى [1] : « يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله و لتنظر نفس ما قدّمت لغد ـ إلى قوله ـ أُولئك هم الفاسقون » و الفاسق هو الّذي فسق عن معرفة الله و خالف أمره ، ولو عرف لأطاعه .

يا مفضّل ! إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يقف في أصحابه ويقول : ماهلك امرؤ عرف قدره ، فاعرفوا أقدار كم تعرفوا أقدار غير كم ، وكان يقول عليه السلام [2] : « العالم ثلاثة عالم ربّانيّ ومعلّم على سبيل النجاة وهمج رعاع أتباع كلّ ناعق لم يستضيئوا بنور الحكمة ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق » .

شعر :

قل لمن يفهم عنّي ما أقول * ضربت والله أعناق الفحول

أنت لا تعرف إيّاك ولم * تدر من أنت ولا كيف الوصول

لا ولا تدري صفاتاً ركّبت * فيك، حارت في خفاياها العقول

---

(١) سورة الحشر : ١٨ .

(٢) شرح النهج لعبده (٢ : ١٧٨) من الكلمة القصيرة ١٤٧ فيما خاطب به كميل النخعي .

أين منك الروح في جوهرها ؟ * هل تراها؟ فترى كيف تحول؟
هذه الأنفاس هل تحصرها ؟ * لا ، ولا تدري متى عنك تزول
أين منك العقل و الفهم إذا * غلب النوم ؟ فقل لي ياجهول
أنت أكل الخبز لا تعرفه * كيف يجري منك أو كيف تبول؟
فإذا كان طواياك التي * بين جنبيك كذا فيها ضلول
كيف تدري من على العرش استوى * لاتقل كيف استوى كيف النزول؟
كيف تحكي أم ترى كيف ترى؟ * فلعمري ليس ذا إلاّ فضول
فهو لا أين ولا كيف لـه * فهو ربّ الكيف والكيف يحول
هو فوق الفوق لا فوق لـه * وهو في كلّ النواحي لايزول
جلّ ذاتاً و صفاتاً و سما * فتعالى قدره عمّا أقول

واعلم أنّه من عرف نفسه عرف ما يراد منه ، فاشغل نفسك واستعملها فيما خلقت له فأوقفها في مواقف العبوديّة للقيام بحقوق الربوبيّة ، ومتى اشتغلت بمعارضة الربوبيّة فاتتك العبوديّة ، ولم تدرك الربوبيّة .

وها أنا أشرح لك صفات ذاتك لتعلم ما يراد منك في حياتك ومماتك ؟ و اعلم أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا أراد أن يبتني صورة آدم من زمن تقادم ، ابتناها على صورة مدينة ، و أتقن فيها من المباني مايدلّ على قدرة الباني ، وحرّك فيها مثالث و مثاني ، تشير أن ليس له ثاني .

ثمّ نصب في هذه المدينة قصر المملكة وبثّ حوله أشراك المهلكة ، وسمّي ذلك القصر القلب إذهو بيت الربّ ، وجعل مدار هذه المدينة عليه ، ومرجع الكلّ إليه بإشارة ، ألا وإنّ في الجسد مضغة إذاصلحت صلح بها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد ، ألا وهي القلب .

ووضع في هذا القلب سرير العزّ والسلطان ، و أجلس عليه ملكاً يقال له الإيمان وبثّ الجوارح في خدمته كالغلمان ، فقال اللسان : أنا الترجمان ، فقال العينان : و نحن الحارسان ، فقال الأذنان : و نحن الجاسوسان ، فقال القدمان : ونحن الساعيان ، فقال

اليدان : ونحن العاملان ، فقال الملكان : ونحن الشاهدان ؛ وقال صاحب الديوان : وكما تدين تدان .

ثمّ جعل له وزيراً وهو العقل ، فقال الوزير : أيّها الملك لابدّ لك من خاصّة تصطفيهم لنفسك خلاصة ، يؤثرونك على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، فأوّل ما تحتاج إلى تاج وهوالولاية . وإلى المعراج وهو العناية ، وإلى دليل وهو الهداية ، ثمّ لابدّ لك من مركوب وهو الصدق ، ومن حلّة وهو السكينة ، ومن حاجب وهو العلم ، و من بوّاب وهوالورع ، ومن سيّاف وهوالحقّ ، ومن كاتب وهوالمراقبة ، ومن سجن وهو الخوف ، و من ميدان وهو الرجاء، ومن سراج وهو الحكمة ، ومن نديم وهو الفكر ، ومن خزانة وهو اليقين ، ومن كنز وهو القناعة ، ومن صاحب بريد وهوالفراسة .

ثمّ أيّها الملك تنظر إلى رعيّتك بعين الرحمة وتفتح خزائن النعمة وتعدل بينهم في القسمة ، وتبعث لكلّ واحد منهم قسمة يقيم به رسمه ، فقال له الملك : انظر أنت في الرعيّة و أزل عنهم الشكيّة و تولّ تفرقة الجامكيّة ، فقال اليدان : إنا عليّ جميع الآلة ، وقال الأسنان : وأنا أطحن وأعزل النخالة ، فقال الريق : أنا أعجن وأتولّى للمعدة إرساله ، فقالت المعدة : وأنا أطبخ وما أريد على ذلك عمّالة ، فقال الكبد : وأنا آخذ ماصفا وأترك الحثالة ، فقالت القدرة : وأنا أتولّى تفرقتها وقسمتها بالعدالة ، و أبعث إلى كلّ عضو ما يطيق احتماله .

فلمّا فرّقت الجامكيّة نقداً لأحواله وصحّح الملك أحواله ، فقال له الوزير : ما بعد التفقّه إلّا العرض وأداء الفرض ، فناد في جيشك بالطول والعرض، لينذر البعض البعض قبل أن تبدّل الأرض غير الأرض . فنادى :

يا معشر الرعيّة ! إنّ الملك قد أقسم بالإلهيّة ، أنّ من عدل عن الطريق السويّة و كفر نعمة العطيّة و أنفقها في الخطيئة ، فلقد أفسد النيّة ، و نقض البنية ، أولئك هم شرّ البريّة .

وإنّ للملك عدوّاً قد سكن جواره ، يقال له النفس الأمّارة ، وهي تنازع الإمارة و استنصرت عليه بالدنيا الغدّارة ، وظاهرهما الهوى وبعث إليهما أنصاره ، وجاء الشيطان

و كتبت له منشور الوزارة ، وقد شنّوا في أرض الملك الغارة [١].

فيا خيل الله اركبي [٢] ومن الإغراء لاترهبي .

فهناك ركب القلب بين ميسرة خوفه ، وميمنة توكّله ، وساقة التجائه ، متحمّلاً أثقال إيّاك نعبد ، متمسّكاً أذيال إيّاك نستعين .

فلمّا فصل بجنوده إلى معبوده بصدق النيّة ومناديه ينادي في ناديه : إنّ الله مبتليكم بنهر الدنيا الدنيّة ، فمن شرب منه فليس منّي ، ومن عوّل عليه فليتنحّ عنّي.

فقال أهل الضرورة : لابدّ من إقامة الصورة ، فجاءت من وجه الراحة بإباحة إلّا من اغترف غرفة بيده ، فأمّا من عدُم الفطنة ووقعوا في شرك الفتنة ، فشربوا وتروّا حتّى أورثهم البطنة فلمّا قابلهم القوم قالوا : لاطاقة لنا اليوم ، فقال الّذين صبروا ابتغاء وجه الله: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله .

فالتقتا بجيشهما في مجمع بحريهما ، هذا عذب فرات ، و هذا ملح أُجاج ، فكان التوكّل موكّلاً بالحرص ، والزهد محاذياً للدنيا ، والتواضع مدافعاً للعجب ، والإخلاص ماحياً للرياء ، والتقوى منافياً للدعوى ، والخوف موافقاً للهوى ، و التسبيح و التقديس في محاربة إبليس .

فتقدّم حزب الله وشعارهم : اللّهمّ إنّا جعلنا بك إقدامنا ، فإنّا لاندري ماقدّامنا ، فهزموهم بإذن الله واستنصروا ، وما النصر إلّا من عندالله ، فلم يرمنهم إلّا مولّ دبره ، وقاصم عمره ، وأصبحت منازل الهوى والنفس كأن لم تغن بالأمس ، وما زالت النفس بأسرها في أسرها حتّى اعترفت بخسرها ، و اتّصفت بكسرها ، و ناداها من له المنّة : يا أيّتها النفس المطمئنّة .

شعر :

يانفس توبي اليوم من قبل أن　　*　　تفتضحي في الغد بين العباد
وخالفي يانفس حكم الهوى　　*　　وجاهدي في الله حق الجهاد

---

(١) شن الغارة عليهم - من باب مد - : وجهها عليهم من كل جهة .

(٢) أول من قالها رسول الله (ص) على ماذكره الجاحظ في البيان والتبيين (٢ : ١٥) .

و ادّرعي درع التقي و اصبري * وصابري في حرب أهل العناد
يا نفس ! إنّ الله منك اشترى * بشرط تسليم جميع القياد
فاستبشري بالبيع واستسلمي * و أصلحي يانفس منك الفساد
أفلست و السلعة معيوبة * لاتشتري والسوق سوق الكساد
و الركب قدجدّ مسيراً ، ولا * لهول يوم العرض قدّمت زاد
وكلّما ابيضّ مشيبي فلا * يزداد وجه القلب إلّا سواد
واخجلتي واحسرتي ! إن أكن * من بين صحبي قدعدمت الرفاد

واعلم بأنّ هذا الجسد لهذه النفس بمنزلة دارتسكن ، أودابّة تركب أوآلة تستعمل و ما دامت هذه النفس مع هذا الجسد مربوطة إلى الوقت المعلوم ، فلا بدّ لنا من النظر فيما يصلح معيشة الحياة الدنيا وما ينال به الفوز والنجاة في الآخرة ، و ذلك باتّباع أهل الذكر .

فعليك أيّها الأخ البارّ الرحيم أيّدك الله بأهل العلم الّذين هم أهل الذكر من أهل بيت النبوّة ، المنصوبين لنجاة الخلق ، وقد قيل : استعينوا على كلّ صنعة بأهلها .

واعلم أنّ الذكر في بعض الوجوه هو العقل الّذي يذكّر النفس ماغاب عنها من أمر عالمها الروحاني ومحلّها النورانيّ و يحثّها على الأعمال الصالحة ، و المتاجر الرابحة وأنّ النفس متى عدلت عنه و خالفته ، و تركت وصيّة ربّها وما أمرها به و أقبلت على الطبيعة ومالت إلى مستحسناتها ، وطلب الرياسة والعلوّ والغضب و التعدّي أصابها مثل ما أصاب الأعمى والمقعد اللّذين خالفا وصيّة صاحب البستان .

مثل ماذكروا فيما يروى من الأمثال انّه كان ببلاد الهند رجلان أعمى و مقعد اصطحبا في طريق فعبرا ببستان فمالا إليه ، فرآهما صاحب البستان ورأى فقرهما ومسكنتهما فرحمهما وقال : ياهؤلاء ما تقولان في أن أُدخلكما بستاني فتأويا فيه و تنالا منه بحسب الحاجة ما يكفيكما ممّا آتيكما أنا ، ولا تؤذيا بالثمار فتفسدا ؟ فقالت أحدهما : و كيف نؤذيك على بستانك و نحن على ماترى من الزمانة وسوء الحال ، أحدنا أعمى و الآخر مقعد ، وأيّ حيلة لنا في تناول شيء من الثمار وهي في رؤوس الأشجار ؟

فقال لهما : ادخلا ، فدخلا إلى ذلك البستان و أوصى بهما الناظر الموكّل بالبستان وقال لهما : كونا كما ضمنتما وقال للناظر : احفظهما و أحسن إليهما و آتهما من ثمار هذا مايكون به صلاح شأنهما فقال : سمعاً وطاعة .

ومضى صاحب البستان لسبيله فأقاما على ذلك مدّة ، والناظر يتعاهدهما بمايكفيهما وأينع الثمر و كبر و حسن فقال المقعد للأعمى : و يحك إنّ في هذه الأشجار الّتي في البستان أنواعاً من الثمرات وأجناساً من الطيّبات ، وهذا الناظور فليس يحمل إلينا من هذا لنأكل منه فما حيلتنا في تناول شيء من ذلك ، من غير أن يعلم الناظور ؟ قال الأعمى للمقعد : لقد شوّقتني إلى ماذكرت ممّا ترى ، وتعاينه من هذه الطيّبات وأصناف الثمرات فما الحيلة في ذلك ؟ فلم يزالا يجيلان الرأي في ذلك إلى أن قال المقعد للأعمى : أنت صحيح لعينين أرى ماغاب عنك فاحملني على كتفك لأطوف في البستان ، فكلّما رأيت ثمرة مليحة طيّبة قلت لك فدّمني يسرة ويمنة ، وتطاول و تقاصر فأقطعها أنا ، فآكل منها و أطعمك منها ، وما يتعذّر وصول يدي إليه أضربه بعصاك إلى أن يقع فتأخذ أنت ولكن نفعل ذلك إذا غفل الناظور ، فقال الأعمى : نعم ما رأيت ، وأنا أفعل ذلك غداً إن شاء الله .

فلمّا كان بالغد ذهب الناظور في بعض حوائجه و أغلق باب البستان ، فحينئذ قام المقعد فركب ظهر الأعمى وطاف به البستان ، وأفسدا فيه ذلك اليوم ماقدرا عليه و وصلا إليه ، ثمّ رجعا إلى بقعتهما فرقدا .

فلمّا جاء الناظور ودار في البستان لم يخف عليه ماحدث فيه من الفساد ، لأنّه قد كان عيّن على ثمار منها في أشجار معروفة أراد قطافها في ذلك ، ليهديه إلى بعض الرؤساء ، فلم يره في الشجر فأتى إليهما وسألهما هل دخل البستان أحد في غيبتي ؟ قالا : ماندري ، قال الأعمى : أنا لا أبصر ، وقال المقعد : أنا كنت قاعداً ، فصدّقهما الناظور .

فلمّا كان الغد خرج الناظور على الرسم ، فقاما وفعلا أقبح من فعلهما الأوّل ، وعاد الناظور ، و رأى الفساد قد تضاعف على ماكان بالأمس ، فخاف اللائمة من صاحب البستان أن يقول له ماهوذا ؟ تبيع ثمري وليس تحفظها ، فقال : كيف أعمل حتّى أعلم من أين هوذا أتى ، ومن هو ذا يفسد البستان ؟

فلمّا كان بالغد أوهم أنّه قد خرج كما جرت به العادة ، و كمن في بعض حيطان البستان ، وظنّ الأعمى والمقعد أنّه قد خرج كعادته ، فقاما إلى ماقد تعوّدا إليه من الفساد وارتكاب المنهيّ .

فلمّا رآهما الناظور علم أنّ الفساد من جهتهما وكان غلاماً حليماً عاقلاً فتركهما حتّى رأى جميع ما عملاه و قبيح ما صنعاه إلى أن رجعا إلى مكانهما فأقبل إليهما وقال: ويحكما ويحكما ما الّذي استحقّ بهمولاي صاحب البستان حتّى تفعلاهذا الفعل ببستانه؟ فأنكرا ذلك وباهتاه ، فقال : إنّي نظرتكما وقد قمت أيّتها المقعد ، فركبت على ظهر الأعمى ، فلمّا سمعا ذلك حقّقا أنّه قد رآهما فقالاله : قد فعلنا ذلك ، ولا تُعلم صاحب البستان ، فإنّا نتوب على يدك ولا نعاود فقبل منهما وأقبل يعظهما ، وقال : أنا آتيكما بكلّ ماتريد انه من الثمار و الفاكهة من حيث لا يضرّ ببستان مولاي ، ولا أضرّ كما ولا أرتكب مانهيتكما عنه ولا تأكلا إلّا ما حملته لكما فقالا : سمعاً وطاعةً وتركاه حتّى غاب الناظور، وعادا إلى أقبح ماكانا عليه ، فرجع الناظورفرأى أثر فسادهما ، فعاودهما النصيحة و وعظهما وخوّفهما بالله ، فلم يقبلامنه وارتكبا مانهاهما .

فاتّفق دخول صاحب البستان ذلك اليوم إليه ، فلم ير الناظور بدّاً من إعلام صاحب البستان ، فقال : قد علمت ذلك ولم يغب عنّي شيء ممّا فعلاه ، وكأنّي بهما وقد ركب المقعد ظهر الأعمى وطاف به في البستان ، فماوصل إليه من الثمرأخذه ، ومالم يصل إليه ضربه بعصاه ، قال الناظور : كذا فعلا وقد نهيتهما فما انتهيا .

فقال صاحب البستان : إنّهما قد استحقّا العذاب بما فعلاه ، وقبح ما ارتكباه ، ثمّ أمر عبيده أن يمضوا إلى البستان فيعاقبوا الأعمى والمقعد أشدّ عقوبة تكون ، ويخرجونهما من البستان إلى البرّيّة بحيث لايجدان مكاناً يعتصمان به ولا يأويان إليه حتّى تأكلهما السباع والوحوش ، فيهلكا ففعل ذلك بهما في البرّيّة كما فعل بأبينا آدم و أُمّنا حوّا لمّا ذاقا الشجرة .

وإنّما ضرب حكماء الهند هذا المثل لأنّهم شبّهوا النفس بالمقعد ، و ذلك أنّها لاتبطش إلّا بآلة جسدانيّة وبهذه الآلة تتمكّن من فعل الطاعة والمعصية ، والجسدبالأعمى

وذلك أنّه ينقاد حيث تقوده النفس ويأتمر لما أمرته ، والبستان بدار الدنيا ، و الثمار مثل طيّبات الدنيا من الشهوات ، وصاحب البستان هو الله سبحانه مالك الدنيا والآخرة ، وناظر البستان هو العقل الّذي يدلّ على المنافع والمضارّ ، ويأمرنا بالمنجيات ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، وهو ينصح النفس ويدلّها على مايكون لها فيه الصلاح والسلامة في الدين والدنيا جميعاً ، وأخذ الإنسان من حيث يحبّ ، وإذا لم تقبل منه وعدلت عنه إلى شهواتها الحيوانيّة والمحاسن الجسدانيّة الّتي يكون بها صلاح الجسم ، وحسن حاله في الدنيا ، و بذلك يكون زمانتها وخسرانها آخرتها ، وتحيط بها سيّئات ماعملت وقبائح ما اكتسبت في الدنيا ، وفي ألذّ مايكون من تناول الشهوات غافلة على جهالتها متردّدة في ضلالتها ، حتّى تأتيها ملائكة الله الغلاظ الشداد ، وزبانية جنوده وتخرجها من دار الدنيا بالكره والجبر ، فعند ذلك تقدم على سوء ماعملت ، وقبيح ما اكتسبت ، وإذابها قد خسرت الدنيا والآخره وذلك هو الخسران المبين ، وعند التقدير يأتيها الخبر ، قال الله تعالى [1] « و ينجّي الله الّذين اتّقوا بمفازتهم لايمسّهم السوء » .

فاحرص أيّها الأخ أن لاتغترّ بهذه الدنيا ، ولابمصاحبة هذا الجسد الفاني المضمحلّ البائد ، فإنّما هي أيّام يسيرة ، ولذّة حقيرة ، ومدّة قصيرة ، واعدل إلى الحقّ واقتد بالعقل فإنّه يقودك إلى ربّك ، ويدلّك على الأعمال الصالحة الّتي تكون بها الدرجة العليا و الوصول إلى الجنّة المأوى في مقام الكرام ، بحيث لاتحتاج إلى جسدك الفاني ولا تذوق الموت ، ولا يصل إليك الألم ، ولاتحلّ بك الأسقام ، ولا تبلى بمفارقة الأحباب ومباينة الأصحاب ، ولا ينالك ذلّ ولافقر ، ولاأسف فراق ، ولا كرب اشتياق ، و تكون في حضيرة القدس وروضة الأنس آمناً من المصائب والنكبات والأمور الحادثات ، و الأحوال الّتي لا تختارها نفوس العقلاء ، ولا تؤثرها أرواح الفضلاء من المصائب الزمانيّة ، وما أهل الدنيا إليه مدفوعون من الكدّ والنصب والعناء والضرّاء والبأساء وخوف الزمان ، وجور السلطان وحسد الجيران ، وما هو موجود بين أهل الديانات والمقالات من العداوات و المباغضات و الملاعنات ، وما يستحلّه بعضهم من سفك الدماء و أخذ الأموال .

---

(١) سورة الزمر : ٦١ .

وإذا وجدت أُمور الدنيا وتأمّلتها صادفتها كدار قد ملئت من أجناس الحيوانات، يعادي بعضها بعضاً، ويغلب بعضها على بعض كغلبة السباع للكلاب، وكما يفعل الملوك والسلاطين بمن دونهم إذا غلبوهم، وأخذوا أموالهم، وكما يفعل الكلاب بالسنانير الّذين هم بخلافهم في الصورة، إذا وصلوا إليهم وقدروا عليهم، جزاء لهم على ما يأكلون من الملاذّ. وما هم عليه من الدعة والرفاهة الّتي هم فيها. ومحبّة الناس لهم وإكرامهم إيّاهم، فهكذا أُمور أهل الدنيا: الأشرار أبداً أعداء الأخيار، والفقراء أعداء الأغنياء، يتمنّون لهم المصائب، وإذا قدروا على شيء من مالهم وأمتعتهم أخذوها وانتهبوها، وكذلك أهل الشرائع المختلفة يقتل بعضهم بعضاً، ويغزو بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً، وكذلك تجد أهل الشريعة الواحدة المختلفين في الآراء والاعتقادات أيضاً، يقتل بعضهم بعضاً، مثل الشيعة والناصبيّة والجبريّة والقدريّة والمرجئة وغير ذلك من شريعة الإسلام، وكذلك في الشريعة المسيحيّة، وكذلك في الملّة العبرانيّة كالعينيّة والسمعيّة والسامرة، وفي الملّة السريانيّة كالنسطوريّة واليعقوبيّة والملكيّة، وما بينهم من الخلف، وكذلك في كلّ ملّة وشريعة تجد المختلفين في اللغات مستوحشين بعضهم من بعض، ويثقل على كلّ واحد منهم مالم يألفه من لغته، وهذا لا يخفى على من تأمّله ونظر فيه.

واعلم يا أخي أنّه لا يصلح بين أهل الديانات، ولا يؤلّف بين المتعاديات، ولا يزيل من النفوس العداوات والأحقادَ الطبيعيّة إلّا المعرفةُ بالحقّ، الّذي يجمعهم على كلمة التقوى، ويدعوهم إلى الله سبحانه، كما قال عزّ وعلا (١): «إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً» وقال عزّ من قائل لرسول الله ﷺ (٢): «لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم» وقال تعالى (٣): «أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم» وقال (٤): «إخواناً على سرر متقابلين» وقال (٥): «يحبّون من هاجر إليهم» وقال لهم (٥)

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.
(٢) سورة الانفال: ٦٣.
(٣) سورة محمد: ٢٩.
(٤) سورة الحجر: ٤٧.
(٥) سورة الحشر: ٩.
(٦) سورة يوسف: ١٠٨

« هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني » فمن رأى نفسه معادياً لطائفة من الطوائف حنقاً عليها فهو ممّن لم ينزع الحقّ في قلبه ، ولا خالطت الهداية لبّه .

و اعلم أنّه إنّما وقع الاختلاف في الشريعة بعد ذهاب النبيّ ﷺ لمّا تنازعوا فيما بينهم لطلب الرياسة والمنزلة وكان منهم ما كان إلى أن جرى ماجرى من هتك حرمة النبوّة وقتل أهل الرسالة وحفّاظ الوحي ، وما فعله ابن زياد يوم كربلا وماكان من الفتنة والبلايا ، الّتي شملت أهل الشريعة المحمّديّة ، والعصبة الهاشميّة من قتل بعضهم بعضاً ، فلذلك كثرت الآراء والمذاهب فقال قوم : لم يجر ذلك إلّا بقضاء الله و قدره ، ويرى أنّ الأمر كما قالوا ، ولكن إنّما كان قصدهم بهذا القول انتباه لخلاص أنفسهم ممّا عملوه ، فإنّهم ما فعلوا ذلك إلّا بما حكم الله به عليهم ، فإذا كان ذلك كذلك فلا ذنب عليهم ولا وزر لهم .

واعلم يا أخي أنّ هذا الرأي يجسّر الإنسان على فعل المعصية ، وارتكاب الفاحشة و إنّما استخرج هذا الرأي وبثّ هذا الاعتقاد في الناس أصحاب الكبار من الذنوب لما علمو أنّ ذنوبهم إذا ظهرت وانتشرت بعد ذهابهم وانقراض ذرّيّتهم ، يكثر لعنهم وسبّهم وشتمهم ، فإذا جرى ذلك في العالم من يحفظ هذا الرأي منهم فينهى عن ذلك ويقول لمن سمع هذا منه : امسك فإنّ هذا كان بقضاء الله و قدره و حكمه عليهم و إنّ ما حكم الله لايقدر أحد على دفعه ، فيكون تسكيناً لما يشنع من ذكرهم و أفعالهم و أعمالم و قبائح سيرهم فسوّغوا الجهّال والناس و النساء خصوصاً أنّ ما يفعله إنّما هو محكوم عليهم ولا يمكنهم دفعه فجعلوا هذا اعتقاداً وأقدموا على المعاصي بحجّة ، وإن رادّهم فيه أحد قيل له : أنت كافر قدريّ تقول : إنّ قضاء الله وقدره لايمكن أن يحترز عنه ، ولم يعرفوا ما القضاء وما القدر ، ولا طلبوا علم ذلك من أهله فنشأ على ذلك الصغير ، ودان به الكبير إلى حيث انتهينا فهو مذهب أكثر العوامّ ، وبعض من عنده أنّه متميّز ، وإنّما ذكرت هذا بحسب ما أوجب دعوة في هذا القصد .

واعلم أيّها الأخ أنّك إنّ أقبلت على شهوات الدنيا و ملاذّها و اغتررت بما فيها من الطيّبات و محاسن الزينة و اشتغلت عمّا لك فيه صلاح و نجاح في دار المعاد يوشك أن

أن يصيبك ما أصاب رجلاً اشتهى سمكاً ، فإنّه قيل في أمثال الهند :

إنّ رجلاً اجتاز في طريق كان يجتاز فيها بنهر خرّار يتحدّر من جبل عليه جسر يعبر الناس عليه ، وإنّه لمّا صار على ظهر الجسر ، فبينا هو كذلك إذ نظر إلى سمكة كبيرة من أحسن أجناس السموك ، فقال في نفسه : ما أنصرف في يومي هذا إلى بيتي بأحسن من هذه السمكة فأشويها فأجتمع عليها أنا وأهلي و آكل منها أكلة طيّبة ، ولكن أخشى من شدّة جريان الماء أن يحول بيني وبين السمكة ، ثمّ قويت شهوته و دام مقام السمكة بحيث يراها ، فقوي طمعه في أخذها فنزع ثوبه و رمى بنفسه إلى الماء و غاص و راءها إلى أن قبض على السمكة بإحدى رجليه ويديه ، وفرح بظفره بها واشتغل عن السباحة مخافة أن تفلت السمكة منه وغلبه الماء بشدّة جريانه ، فأخذه عن الموضع الّذي نزل فيه وأشرف على الهلكة ، و شحّ على السمكة ولا يرى أن يخلّيها ، وينجو بنفسه ، فلم يزل ذلك حاله وهو يروم الخلاص بالسمكة إلى أن أخذه الماء إلى تنوّر عظيم ينصبّ إلى وهدة تحت الأرض فغاصت به فأتاه عامر النهر ـ وكان سكن ذلك الموضع ـ فقال له : ما أوقعك في هذا المكان الّذي لا يقع منه أحد إلّا هلك وغرق؟ فقال له : أنا الّذي تركت الطريق الواضحة والمحجّة اللائحة الّتي فيها النجاة والسلامة ، ووقعت في هذه الحركة من أجل لذّة يسيرة و شهوة حقيرة ، قال له هلاّ خلّيت ما في يدك و نجوت بنفسك ؟ قال : الطمع منّي في السلامة ، و فوت ما كان حدّثت به نفسي ، قال له : إنّك جاهل وما أرى أحداً بالغرق أولى منك ووضع يده على رأسه وغرقه .

فإذا تفكّرت أيّها الأخ في هذه الأمثال وقرأتها على إخواننا أيّدهم الله كان هذا ذكراً لك و لقومك و أعوذ بالله أن تكون ممّن تطرد عليه هذه الصفة ، ولا على أحد من إخواننا ، ولكن قد اقتدينا بقول الله سبحانه لرسوله ﷺ (١) : « و ذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين » .

واعلم أنّ من سنّة الناموس والأدب الحسن تناول الطعام الّذي هو غذاء الجسد ثلاث أصابع فهذه السنّة ، كأنّها إشارة من واضع الناموس للنفوس وتنبيه لها ، وحثّ على

(١) سورة الذاريات : ٥٥ .

أنّه واجب طلب العلوم من ثلاث طرقات ، لأنّ العلم غذاء للنفس كما أنّ الطعام غذاء للجسد ، و أحوال النفس مماثلة لأحوال الجسد لشدّة اقتران ما بينهما ، فإحدى الطرق الّتي تنال بها النفس العلوم الفكرة الّتي بها تدرك النفس المعقولات ، ومن هذا الطريق أخذت الأنبياء عليهم السلام الوحي من الملائكة ، و الطريق الآخر السمع الّذي تنال به النفس معاني اللّغات ، وما تدلّ عليه الأصوات من أخبار الغائبات و الآخر طريق البصر الّذي تشاهد به النفس الموجودات الحاضرة. فهذه الطرقات الثلاثة يجب أن تنال العلوم كما نبّهنا الله سبحانه عليها فقال [١] : «وجعل لكم السمع و الأبصار و الافئدة قليلاً ما تشكرون» وذمّ من لاينتفع بهذه العلوم فقال [٢] : « لهم قلوب لايعقلون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ » وقال عزّ وجلّ [٣] : «صمّ بكم عمي فهم لايعقلون» معاني المعقولات و المبصرات و المسموعات وليس يريد بهذا الذم أنّهم لايسمعون الأصوات ، ولا يبصرون الألوان ، ولا يفهمون أمر المعاش ، بل إنّما ذمّهم لأنّهم لا يعقلون أمر المعاد ، لأنّه قال تعالى [٤] : «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

و اعلم يا أخي أيّدك الله أنّ العلم قنية النفس كما أنّ المال قنية الجسد ، لأنّ المال يراد لصلاح أمر الجسد ، و العلم لصلاح أمر النفس ، فمن لم ينل العلم من هذه الطرقات الثلاث إلّا من طريق واحد ، فمثله كمثل المريض الّذي ليس له من ماله إلّا الثلث لأنّ المريض واقف بين رجاء الحياة وخوف الممات .

وهذا مثل لأهل التقليد الّذين لا يعرفون علم الدين إلّا بطريق السمع ، فهم موقوفون بين الشكّ و اليقين ، فالنفس مرض و اليقين صحّتها ، فهم ليس لهم من العلم إلّا الثلث لأجل مرض نفوسهم .

و اعلم يا أخي ـ أيّدك الله ـ أنّ السائلين اثنان : سائل يسأل عن حاجة من غرض

---

(١) سورة فصلت : ٩ ، سورة الملك : ٢٣ .
(٢) » الاعراف : ١٧٨ .
(٣) » البقرة : ١٧١ .
(٤) » الروم : ٧ .

الدنيا لصلاح الجسد المستحيل الفاني ، و سائل يسئل عن العلم لخلاص النفس من ظلمة الجهالة ولصلاح الدين من أمر المعاد وطلب نعيم الآخرة الباقية، وهكذا المجالس اثنان : مجلس للأكل و الشرب والتنعّم باللّذّات الجسمانيّة من نبات الأرض ولحوم الحيوان لصلاح هذا الجسد المستحيل الفاني ، ومجلس للعلم والحكمة و السماع واللذّات الروحانيّة من من نعيم الآخرة الباقية للنفوس الخالدة الّتي لا تبيد جواهرها ، ولا تفنى لذّاتها ، ولا ينقطع سرورها .

واعلم أنّ كلّ ما يؤكل من الطعام و الشراب يبيّن النقصان في مال صاحب المائدة ، وإذا أكل وشرب قدر ما يبلغ الآكل والشارب من الشبع و الريّ فإن زاد على ذلك صارت اللذّة ألماً ، وإن مكثت تلك المأكولات المشتهيات في المعدة ساعة و استمرأ و أخذت الأعضاء كلّ واحد قسطه من الغذاء تغيّر ما بقي ونتن ، ويحتاج إلى إخراجها و إلّا صارت اللذّة ألماً وسقماً . وأمّا مجلس العلم والحكمة والسماع فليس يملّ منها لأنّها لذّات روحانيّة من نعيم الآخرة ، ولاتنقص من علم العالم وإن كثر المتعلّمون والسامعون لأنّها من كنوز الآخرة .

واعلم يا أخي أنّه ليس في كثرة الأكل افتخار ، لأنّه يحتاج من الأكل و الشرب إلى قدر ما يسكن ألم الجوع والعطش ، وإن سكن ذلك سواء كان سكونها بألوان الطعام والشراب أو بكسرة من خبز الشعير، كما قال المسيح عليه السلام للحواريّين: «إنّ أكل خبز الشعير وشرب الماء القراح اليوم في الدنيا لمن يريد أن يدخل الفردوس غداً» .

واعلم أيّها الأخ البارّ الرحيم أنّ الافتخار والتنافس ينبغي أن يكون في اقتناء الفضائل الحكميّة وفنون العلوم والاستبصار بالآيات والدلالات على معرفة حقائق الأشياء والتفلسف والتألّه والتزهّد والتعبّد ، ولزوم مذهب الربّانيّين ، والتهاون بأمر الجسد ، والاهتمام بأمر النفس ، و الحرص على صلاحها من ظلمة الجهالة ، و استنقاذها من بحر الهيولى وعتقها من أسر الطبيعة ، والخروج من قعر الأجسام ، والصعود إلى عالم الأرواح والدخول في زمرة الملائكة كما قال سبحانه [1] : « إليه يصعد الكلم الطيّب و العمل

(١) سورة فاطر : ١٠ .

الصالح يرفعه » يعني روح المؤمنين .

و قال تعالى : [١] « كلّا إنّ كتاب الأبرار لفي عليّين » يعني أنفس الأبرار لفي عليّين « وما أدراك ما عليّون * كتاب مرقوم » وقال تعالى [٢] : « حتّى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » و قال تعالى [٣] : « والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »

واعلم يا أخي - أيّدك الله وإيّانا - أنّ الأنفس الجزئيّة ينفصل بعضها من بعض بإحدى هذه الخصال الأربعة : إحداها : سعاداتها الّتي استفادت في كونها مع الجسد ، والأُخرى أخلاقها الّتي اعتادت ، والثالثة : آراؤها الّتي اعتقدت ، و الرابعة أعمالها الّتي اكتسبت ، فإذا كانت النفس كثيرة العلوم والمعارف ، حسنة الأخلاق ، جميلتها صحيحة [الآراء اعتقادها ، صالحة الأعمال خيرتها ، أكسبتها هذه الخصال صوراً صحيحة][٤] جميلة حسنة بهيّة بهجة روحانيّة ، فإذا فارقت الجسد واستقلّت بذاتها ، واستغنت بجوهرها عن التعلّق بالأجسام انفصلت عن الهيولى و انجلت عنها صدأ الطبيعة و أبصرت عند ذلك ذاتها و تراءت لها صورتها ، وعاينت جمالها ، وأشرقت أنوارها ، و تهلّلت بهجتها و حسنها و رونقها ، فرأت كلّ ما عملت من خير محضراً و كلّما لحظت ذاتها و أبصرت جمالها ازدادت فرحاً وسروراً ولذّة ، فذلك هو جزاؤها ونعيمها ، وجنّتها الّتي لا تفارقها أبداً ، كما قال الله سبحانه [٥] : « يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء » و إذا كانت أعمالها سيّئة ، وسيرتها جائرة ، وآراؤها فاسدة ، وأخلاقها رديئة ، و معارفها باطلة ، أكسبتها هذه الخصال صوراً سمجة وحشة ، وهي لاتحسّ بها مادامت مربوطة بالجسد ، مشغولة بالمحسوسات ، مستروحة إلى بهجة الطبيعة و زينة الهيولى ، حتّى إذا جاءت سكرة الموت الّتي هي مفارقة النفس الجسد و فارقته على رغم أنفه ، و بطلت آلات الجسد و الحواسّ الّتي كانت تنال بها اللذّات الجسمانيّة ، وبقيت فارغة ، نظرت عند ذلك إلى ذاتها

---

(١) سورة المطففين : ١٨ . (٢) سورة الزمر : ٧٣ .
(٣) » الرعد : ٢٦ .
(٤) الزيادة من النسخة (ر) مع تصحيفات .
(٥) سورة آل عمران : ٣٠ .

فرأت ما عملت من سوء محضراً صورة قبيحة سمجة وحشة ، و اغتمّت وحزنت واستوحشت ، وآلمها ذلك ، و تودّ لو أنّ بينه وبينها أمداً بعيداً ، وتبقى على تلك الحال متألّمة معذّبة من ذاتها ، فذلك هو جزاؤها وأليم عذابها و جحيمها و عقابها ، كما قال النبيّ ﷺ : « إنّما هي أعمالكم تردّ عليكم » أعاذنا الله و إيّاكم يا إخواني من عذاب النار و جميع إخواننا حيث كانوا في البلاد .

واعلم أنّ النفس بمجرّدها لاتلحقها الآلام والأسقام والأمراض والجوع والعطش والحرّ والبرد والغموم والهموم والأحزان ونوائب الحدثان ، لأنّ هذه كلّها تعرض لها من أجل مقارنتها الجسد لأنّ الجسد جسم قابل للآفات والاستحالة ، والفساد والتغيير وأمّا النفس فإنّها جوهرة روحانيّة فليس ينالها من هذه الآفات شيء .

واعلم بأنّه ذهب علي كثير من العلماء معرفة أنفسهم ، لتركهم النظر في علم النفس والبحث عن معرفة جوهرها ، والسؤال من العلماء العارفين بها و بعلمها ، و لقلّة اهتمامهم بأمر أنفسهم ، وطلب خلاصها من بحر الهيولى و هاوية الأجسام ، والنجاة من أسر الطبيعة والخروج من ظلمة الأجساد ، لشدّة ميلهم إلى الخلود في الدنيا و استغراقهم في الشهوات الجسمانيّة ، والغرور باللذّات الجرمانيّة ، والأنس بالمحسوسات الطبيعيّة ، ولغفلتهم عمّا وصف في الكتب النبويّة من نعيم الجنان ، وما في عالم الأفلاك من الروح و الريحان .

وإنّما قلّة رغبتهم عنها لقلّة تصديقهم بما خبّرت به الأنبياء وما أشارت إليه العلماء والحكماء ممّا يقصر الوصف [عنها] من لطيف المعاني ودقيق الأسرار ، فانصرفت همم نفوسهم كلّها إلى هذا الجسد المستحيل ، وجعلوا كلّ سعيهم لصلاح معيشة الدنيا من جمع الأموال والمآكل و المشارب والملابس و المراكب و المناكح ، فصيّروا نفوسهم عبيداً لأجسامهم ، و أجسامهم مالكة لنفوسهم ، وسلّطوا الناسوت على اللاّهوت ، والظلمة على النور ، والشياطين على الملائكة ، وصاروا من حزب إبليس وأعداء الله .

فهل لك ياأخي - أيّدك الله - أن تنظر لنفسك وتسعى في صلاحها ، وتطلب نجاتها وتفكّ أسرها ، و تنقذها من الغرق في بحر الهيولى و أسر الطبيعة و ظلمة الأجساد ، وتخفّف عنها أوزارها وهي الأسباب المانعة لها من الترقّي إلى ملكوت السماء ، والدخول

في زمرة الملائكة ، والسيحان في فسحة عالم الأفلاك ، والارتفاع في درجات الجنان ، و التنسّم من ذلك الروح والريحان المذكور في القرآن ، بأن ترغب في صحبة أصدقاء لك نصحاء ، وإخوان لك فضلاء ، وادّين لك كرماء ، حريصين على إصلاح لك و نجاة لك مع أنفسهم ، قد خلعوا أنفسهم من خدمة أبناء الدنيا وجعلوا كرمهم لطلب نعيم الآخرة و دارها ، بأن تسلك مسلكهم وتقصدمقصدهم وتخلص سرّك معهم ، وتتخلّق بأخلاقهم ، وتسمع أقاويلهم لتعرف اعتقادهم ، و تنظر في علومهم ، لتفهم أسرارهم وما يخبرون به من العلوم النفسيّة والمعارف الحقيقيّة ، والمعقولات الروحانيّة ، والمحسوسات النفسانيّة ، إذا دخلت [في مذاهبنا الروحانيّة][1] وسرت بسيرتنا الملكيّة ، وعملت بسنّتنا الزكيّة ، وتفهّمت في شريعتنا العقليّة ، فلعلّك تؤيّد بروح الحياة لتنظر إلى الملأ الأعلى وتعيش بعيش السعداء مسروراً فرحاناً ملتذّاً مبقى مخلّداً مؤيّداً بنفسك الباقية الشريفة النيّرة الشفّافة ، لا يحسدك الثقيل المظلم المتغيّر المستحيل الفاسد الهالك ، وفّقك الله أيّتها الاخ وجميع إخواننا للرشاد ، وأوصلك و إيّانا دار السلام برحمته ومنّه ، إنّه على ذلك قدير وبالإجابة جدير .

واعلم أنّ لله تعالى خواصّاً من عباده المؤمنين العارفين المستبصرين ، يعاملون الله بالصدق واليقين ويحاسبون أنفسهم في ساعات الليل والنهار فيما يعملون ، كأنّهم يشاهدون الله ويرونه ، فيجدون ثواب أعمالهم ساعة فساعة ، لايتأخّر عنهم لحظة واحدة ، و يرون جزاء سيّئاتهم أيضاً بعقب أفعالهم ، لايخفى عليهم إلّا قليل ، و إليهم أشار بقوله تعالى[2] : « إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون » وبقوله تعالى[3] « إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان » وبقوله تعالى[4] : « إلّا عبادك منهم المخلصين » وآيات كثيرة في القرآن في ذكر هؤلاء ، ومدحهم وحسن الثناء عليهم .

ذكروا أنّ واحداً منهم اجتاز يوماً في بعض سياحته براهب في صومعة له على رأس تلّ فوقف بإزائه وناداه : ياراهب ! فأخرج الراهب رأسه من الصومعة وقال : من هذا ؟ قال

---

(١) من النسخة (د) . (٢) سورة الاعراف : ٢٠٠ .
(٣) سورة الحجر : ٤٢ و سورة الاسراء : ٦٥ .
(٤) » الحجر : ٤ ، وسورة الصافات : ٣ .

رجل من أبناء جنسك الآدميّين قال : ماذا تريد ؟ قال : الطريق ، قال الراهب : في خلاف الهوى ، قال له : فما خير الزاد ؟ قال : التقوى ، قال : لم تباعدت عن الناس و تحصّنت في هذه الصومعة ؟ قال : خوفاً من قلبي على فتنتهم وحذراً على عقلي من سوء عشرتهم ، وخفت الجرءة من فساد آرائهم ، وطلبت راحة نفسي من مقاساة مداراتهم و قبيح أفعالهم ، و جعلت معاملتي مع ربّي فاسترحت منهم .

قال : وأخبرني كيف وجدتم يامعشر أتباع المسيح معاملتكم مع ربّكم ، و اصدق في القول ودع عنك تزويق الكلام وزخرف الأقاويل والألفاظ ، فسكت الراهب ساعة متفكّراً فقال : أسوء معاملة تكون ، قال : و كيف ذاك ؟ قال : لأنّه أمرنا بكدّ الأبدان ، و جهد النفوس ، وصيام النهار ، وقيام الليل ، وترك الشهوات المركوزة في الجبلّة ، ومخالفة الهوى ، ومجاهدة العدوّ المسلّط ، والرضا بخشونة العيش ، والصبر عند الشدائد و البلوى ، ومع هذه كلّها جعل الأجر بالنسيئة في الآخرة بعد الموت ، مع بُعد الطريق و كثرة الشكوك و الحيرة وخوف الناس ، فهذه حالنا في معاملتنا مع ربّنا .

فخبّرني عنكم يامعشر أُمّة أحمد كيف وجدتكم معاملتكم مع ربّكم ؟ قال : خير معاملة تكون وأحسنها ، قال الراهب : صف لي كيف هي ، قال : إنّه أعطانا سلفاً كثيراً و مواهب جزيلة لاتحصى فنون أنواعها من النعم والإحسان والإفضال ، فنحن ليلنا ونهارنا نتقلّب في أنواع من نعمه وفنون من آلائه ، مابين سالف معتاد وآنف مستعاد قال الراهب : كيف خصّصتم بهذه المعاملة دون غيركم و الربّ واحد ؟ قال : أمّا النعمة والإحسان والإفضال فعموم للجميع وقد غمرتنا كلّها ، ولكن نحن خصّصنا بحسن الاعتقاد ، و صحّة الرأي ، والإقرار بالحقّ ، والإيمان والتسليم ، فوفّقنا بمعرفة الحقائق لمّا أعطينا القياد للإيمان والتسليم ، وصدق المعاملة ، مع محاسبة النفس وملازمة الطريق ، وتفقّد تصاريف الأحوال الطارقة من الغيب ، ومراعاة القلب بما يرد عليه من الخواطر والوحي والإلهام ساعة ساعة .

قال الراهب : زدني في البيان . قال : نعم ، اسمع ما أقول وافهمه واعقل ما تفهمه ، إنّ الله تعالى لمّا خلق الإنسان من طين ، ولم يك شيئاً مذكوراً ، ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثمّ جعله نطفة في قرار مكين ، ثمّ قلّبه حالاً إلى حال في أطوار متعاقبة

تسعة أشهر إلى أن أخرجه من هناك خلقاً سوياً ،وبنية صحيحة ، وصورة تامة وقامة منتصبة وحواس سالمة ، ثم زوده من هناك لبناً لذيذاً خالصاً سائغاً للشاربين حولين كاملين ، ثم ربّاه وأنشأه وأنماه بفنون لطفه و غرائب حكمه إلى أن بلغ أشده و استوى ، ثم آتاه حكماً و علماً و قلباً ذكياً وسمعاً دقيقاً وعقلاً صحيحاً وفهماً جيداً وذهناً صافياً وتمييزاً و فكراً ورويّة ومشيّة و اختياراً ، وجوارح طائعة ، ويدين صانعتين ، ورجلين ساعيتين ، ثم علّمه الفصاحة والبيان والخطّ والقلم والصنائع والحرف و الحرث و الصياغة و الزراعة و البيع والتجارة والتصرّف في المعاش ، وطلب وجوه المنافع ، وقوّة دفع المضارّ ، و اتّخاذ البنيان ، وطلب العزّ والسلطان ، والأمر والسياسة والرياسة والتدبير ، وسخّر له ما في الأرض جميعاً من الحيوان والنبات ، وجواهر المعادن ، فصار متحكّماً عليها تحكّم الأرباب ومتصرّفاً فيها تصرّف الملاّك ، متمتّعاً بها إلى حين .

ثم أراد الله أن يزيده من فضله وإحسانه وجوده وإنعامه فنّاً آخر هو أشرف وأجلّ ممّا عدّدنا وذكرنا ، وهو ما أكرم به ملائكته وخالص عباده وأهل جنّته من النعيم الّذي لا يشوبه نقص ، ولا يخالطه تنغيص ، إذ كان نعيم الدنيا كلّها مشوباً بالبؤس ، و لذّتها بالآلام ، وسرورها بالحزن ، وفرحها بالغمّ ، و راحتها بالنصب ، وعزّها بالذلّ ، و صفوها بالكدر ، وغناؤها بالفقر ، وصحّتها بالسقم ، و أهلها فيها معذّبون في صورة المنعّمين ، المتحاسدون في صورة المغبوطين ، مغرورون في صورة الواثقين ، مهانون في صورة المكرمين ، وجلون غير مطمئنّين ، خائفون غير آمنين ، متردّدون بين الأضداد ، من نور وظلمة وليل ونهار وشتاء وصيف وحرّ وبرد ورطب ويابس ونوم ويقظة وجوع وشبع وعطش وريّ وراحة وتعب وشباب وهرم وقوّة وضعف وحياة وموت وماشاكل ذلك من الأمور الّتي أهل الدنيا وأبناؤها متردّدون بينها متحيّرون فيها ، مدفوعون إليها .

فأراد ربّك أن يخلّصهم من هذه الآلام المشوبة باللذّات و ينقلهم منها إلى نعيم لابؤس فيه ، ولذّة لايشوبها ألم ، وسرور بلاحزن ، وفرح بلاغمّ ، وعزّ بلا ذلّ ، و كرامة بلاهوان ، وراحة بلا تعب ، وصفولا يخالطه كدر ، و أمن بلاخوف ، وغنى بلا فقر ، وصحّة بلا سقم ، وشباب بلا هرم ، وحياة بلاموت ، و مودّة لازمة بين أهلها ، و نور لا يشوبها

ظلام ، ويقظة بلانوم ، وذكر بلا غفلة ، وعلم بلا جهالة ، و صداقة بلا عداوة بين أهلها ولا حسد ولا غيبة ولا نميمة ، إخواناً على سرر متقابلين آمنين مطمئنّين ، أبد الآبدين و دهر الداهرين ، ولم يمكن أن يكون الإنسان هناك بهذا الجسد الحيّ ، و الجسم الثقيل المستحيل الطويل العريض العميق المظلم المركّب من أجزاء الأركان المتضادّات المؤلّفات من الأخلاط الأربعة ، المتغيّرات الأمشاج ، المرتفعات الامتزاجات ، إذكان لايليق مَن هذا سبيله بالأوصاف الصافية ، والأحوال الباقية .

فاقتضت العناية بواجب حكمة البارىء جلّ جلاله أن ينشأه نشأة أخرى كما ذكرالله تعالى في كتابه [١] : « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكّرون » يعني النشأة الأخرى ، وقال تعالى [٢] : « وننشئكم فيما لاتعلمون » قال الله تعالى [٣] : « ثمّ الله ينشىء النشأة الآخرة » فبعث أنبياءه ورسله إلى عباده يبشّرونهم بها ويدعونهم إليها ، ويرغّبونهم فيها ، ويذلّونهم على طرائقها كيما يطلبونها مستعدّين قبل الورود إيّاها ، و لكي يسهل من شهواتها الدنيا مألوفات مفارقة عليهم ، وتخفّف عليهم أيضاً [شدائد الدنيا و[٤]] مصائبها ، إذكانوا يرجون بعدها ما يغمرها ، ويمحي ما قبلها من نعيم الدنيا و بؤسها ، ويحذّرونهم أيضاً الهوان في طلبها كيلا يفوتهم ما وعدوا من نعيمها ، فإنّ من فاته فقد خسر الدنيا والآخرة جميعاً وضلّ ضلالاً مبيناً .

فهذا رأينا واعتقادنا يا راهب ، وبهذا الاعتقاد طاب عيشنا في هذه الدنيا ، و سهل علينا الزهد فيها ، وترك شهواتنا ، واشتدّت رغبتنا في الآخرة ، و زاد حرصنا في طلبها ، وخفّ علينا كدّ العبادة ، فلانحسّ بها بل نرى أنّ ذلك نعمة منه تبارك وتعالى ، ولنا كرامة و عزّ وشرف إذجعلنا أهلاً أن نذكره ، وهدى قلوبنا ، و شرح صدورنا ، و نوّر أبصارنا ، لما عرفناه به من كثرة إنعامه ، وفنون ألطافه وإحسانه .

قال الراهب : جزاك الله خيراً من واعظ ما أبلغه ، ومن ذاكر أنعاماً ما أحسنه ، ومن هادٍ رشيد ما أبصره ، وطبيب رفيق ما أحذقه ، وأخ ناصح ما أشفقه !

(١و٢) سورة الواقعة : ٦٢و٦١ .

(٣) سورة العنكبوت : ٢٠ . (٤) من النسخة (ر) .

ولنذكر في آخر هذا الفصل طرفاً في كيفيّة عداوة أولياء الله تعالى مع إبليس ، و كيفيّة محاربتهم مع الشيطان ومخالفتهم له ومجاهدتهم معه طول أعمارهم ليلاً ونهاراً وسرّاً وجهراً ، وأنّهم لايخفى عليهم مكايدته ، ولا يذهب غرورهم وأمانيّهم أصلاً .

فائدة : فيما حكاه وليّ من أولياء الله تعالى من كيفيّة معرفة مكائدة الشيطان و محاربته إيّاه ومخالفة جنود إبليس أجمعين .

قال العارف المستبصر : إنّي لمّا نشأت وتربّيت ونهمت من الآداب طرفاً ، وأخذت من العلوم نصيباً وعقلت أمر المعاش ، وعرفت أمر المنافع والمضارّ وتبيّنت ما يجب عليّ من أحكام الناموس من الأوامر والنواهي والسنن والفرائض والأحكام والحدود والوعد والوعيد والمدح والذمّ على الأعمال والأفعال أوعلى تركها .

ثمّ قمت بواجبها جهدي وطاقتي بحسب ما وفّقت له ، وفضي عليّ ، و تيسّر لي ، ثمّ تفكّرت في قول الله [١] : «إنّ الشيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّاً » . وقوله تعالى [٢] : « إنّه لكم عدوّ مبين » وآيات كثيرة في القرآن في هذا المعنى وتفكّرت في قول النبيّ ﷺ [٣] : «رجعنا من الجهاد الأكبر» يعني مجاهدة النفس ، وتصديقه قول الله تعالى [٤] «ومن جاهد فإنّما يجاهد لنفسه » ثمّ تفكّرت في قوله ﷺ : [٥] «لكلّ إنسان شيطاناً » وقوله [٦] : «إنّ شيطاني أعانني الله عليه فأسلم» وقوله : [٧] «إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد » وتصديقه قوله تعالى [٨] : « من شرّ الوسواس الخنّاس * الّذي يوسوس في صدور الناس * من الجنّة والناس » وقوله [٩] : «إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم » وآيات كثيرة في القرآن في مثل هذا المعنى و أحاديث مرويّة أيضاً في هذا المعنى كثيرة ، فلمّا نظرت عند ذلك بعقلي ، وتفكّرت بقلبي ، وتأمّلت برويّتي فلم أرأحداً

(١ و ٤) سورة فاطر : ٦ .

(٢) » يس : ٦٠ .

(٣) قاله حين رجع من غزوة ، وفيه تصحيف وسيأتي صحيحه بعيد ذلك

(٥-٧) رواها الغزالي (٣ : ٢٨ و ٢٩) .

(٨) سورة الناس : ٤-٦ .

(٩) سورة الاعراف : ٢٦ .

في ظاهر الأمر يضادّني في هذا الأمر ، ولا يخالفني ولا يعاديني من أبناء جنسي ، وذلك لأنّي وجدت الخطاب متوجّهاً عليهم كلّهم ، مثل ماهو متوجّه عليّ ووجدت حكمهم في ذلك مثل حكمي سواء لا فرق بيني وبينهم في هذا الأمر . فعلمت أنّ هذا هو أمر عموم يشمل جميع بني آدم ويعمّهم كلّهم .

ثمّ تأمّلت وبحثت و دقّقت النظر فوجدت حقيقة معنى الشياطين و كثرة الجنود إبليس أجمعين ، ومخالفتهم لبني آدم ، وعداوتهم لهم ، ووساوسهم إيّاهم هي أُمور باطنة ، و أسرار خفيّة مركوزة في الجبلّة ، مطبوعة في الخليقة ، وهي الأخلاق الرديئة و الطباع المذمومة المنتشية منذ الصبى مع الجهالات المتراكمة واعتقاد الآراء الفاسدة من غير معرفة ولا بصيرة وما يتبعها من الأعمال السيّئة ، والأفعال القبيحة المكتسبة بالعادات الجارية ، الخارجة عن الاعتدال بالزيادة والنقصان ، المنسوبة إلى النفس الشهوانيّة ، والنفس الغضبيّة .

ثمّ تأمّلت ونظرت فوجدت الخطاب في الأمر والنهي والوعد و الوعيد والمدح و الذمّ متوجّهاً كلّها إلى النفس الناطقة العاقلة المميّزة المتبصّرة ، ووجدتها هي بما توصف بها من الأخلاق الجميلة ، والمعارف الحقيقيّة ، والآراء الصحيحة ، والأعمال الزكيّة ، ملكاً من الملائكة بالإضافة إلى النفس الشهوانيّة والنفس الغضبيّة جميعاً ، ووجدت هاتين النفسين[1] أعني الشهوانيّة والغضبيّة بما يوصفان به من الجهالات المتراكمة ، و الأخلاق المذمومة ، والطباع المذكورة ، والأفعال الّتي لهما بلا فكر ولا رويّة ، كأنّها شيطانان بالإضافة إلى النفس الناطقة ، إنّما هي لها بحسب آرائها الصحيحة ، و اعتقاداتها الجميلة .

ثمّ وجدت تلك الآراء و الاعتقادات هي لها بحسب أخلاقها المحمودة المكتسبة بالاجتهاد والرويّة ، وبالعادات الجارية العادلة . أو بما كانت مركوزة في الجبلّة ، فتبيّن لي عند ذلك و عرفت بهذا الاعتبار أنّ أصل جميع الخيرات وصلاح أُمور الإنسان كلّها هي الأخلاق المحمودة المكتسبة بالعادات الجارية منذ الصبى من غير بصيرة[2] ، أو بما كانت مركوزة في الجبلّة .

فلمّا تبيّن لي وعرفت حقيقة قول الرسول ﷺ : « رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » وقول الله تعالى : « إنّ الشيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّاً » يعني

(١-٢) كذا في النسخة (ر) وفي الأصل : النفس . ضرورة .

خالفوه وحاربوه كما تحاربون أعداءكم من الكفّار والمشركين .

فتبيّن لي من قول النبيّ ﷺ أنّ العدوّ جنسان ، والعداوة نوعان ، و الجهاد قسمان : أحدهما ظاهر جليّ وهو عداوة الكفّار المخالفين في الشريعة وحربهم وجهادهم ، والآخر باطن خفيّ وهوعداوة الشياطين المخالفين في الجبلّة ، المنقادين في الطبيعة ، وتبيّن لي أنّ حربهم وعداوتهم وخلافهم هي بالحقيقة ، وعداوة الكفّار هي من أجل السبب الدنياويّ و أنّ غلبتهم و ظفرهم بعرض شقاوة فيها ، و بفوت العزّ و السلطان ، و التمتّع باللذّات الدنياويّة و نعيمها وطيب عيشها يزول يوماً فيوماً . وأمّا عداوة الشياطين و غلبتهم وظفرهم فيعرض منها شقاوة الآخرة وعذابها ، وبفوت عزّها وسلطانها ونعيمها ولذّاتها وسرورها و فرحها وروحها وريحانها ودوامها .

فبحسب تفاوت مابين الأمرين قال النبيّ : « رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » وما ذكر الله سبحانه في القرآن في عدّة سور في آيات كثيرة من التحذير من مكر الشيطان ، و الغرور بخطواتهم ، و الأمر بمخالفتهم وعداوتهم ، و الجهاد لهم ، إذ كان هذا الخطب فيه أجلّ ، و الخطر أعظم بحسب تفاوت مابين السعادة في الدنيا و الآخرة و الشقاوة فيهما ، فلمّا تبيّن لي ما ذكرت ، و عرفت حقيقة ماوصفت ، تبيّن لي أعدائي و شياطيني ، ومن يريد أن يغويني عن رشدي ، و يضلّني عن الهدى الّذي دعاني إليه ربّي وإلهي ، وما وصّاني به ربّي ونصحني به نبيّي ببيانه لي ، وعلمت أنّي إن لم أقبل وصيّة ربّي ونصيحة نبيّي ، و توانيت فتركت الجهاد في مخالفة أعدائي و عداوتهم و محاربتهم غلبوني وظفروا بي و أسروني و ملكوا عقلي ، و استعبدوني و استخدموني في أهوائهم و إراداتهم المشاكلة لأفعالهم القبيحة ، و أعمالهم السيّئة ، و صارت تلك الأشياء عادة لي وجبلّة فيّ ، وطبيعة ثابتة فتصير نفسي الناطقة الّتي هي جوهرة شريفة شيطانيّة مريدة مثلهم ، فأكون قد هلكت وبقيت في عالم الكون والفساد مأوى الشياطين معذّباً ، كما قال الله تعالى :[1] « كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » و قوله تعالى[2] :

---

(١) سورة النساء : ٥٥ .

(٢) سورة النبأ ٢٣و٢٤ .

« لابثين فيها أحقاباً * لايذوقون فيها برداً ولاشراباً » ثمّ تفكّرت وعرفت .

ثمّ تبيّن لي إذا قبلت نصيحة ربّي و نصيحة نبيّي واقتديت به ، و استعنت بربّي واجتهدت ، وفوّضت إليه أمري وخالفت هوى نفسي الشيطانيّة[1] وعاديت نفسي الغضبيّة وحاربت أعدائي المخالفين لنفسي الناطقة فإنّي أظفر بهم و أغلبهم بقوّة ربّي ، فأملكهم بإذني ، وأستعبدهم بحوله وقوّته فأكون ملكاً مسلّطاً عليهم و يصيرون عبيداً لي و خدماً وخولاً فأصر فهم تحت أمر نفسي الناطقة ونهيها وهي تكون عند ذلك ملكاً من الملائكة بإظهار أفعالها الحسنة وأعمالها الزكيّة ، وأخلاقها الجميلة ، وآرائها الصحيحة ، ومعارفها الحقيقيّة ، فتكون هاتان النفسان الباقيتان أعني الشهوانيّة والغضبيّة عبدين مقهورين لها وتحت أمرها و نهيها ، وجميع أخلاقها وطبائعها وسجاياها كالجنود و الأعوان و الخدم و العبيد لنفسي الناطقة ومسوّسين سياسة جارية كالسداد ، كمارسم في الشريعة المرضيّة أوفي الموجبات العقليّة ، فأكون عند ذلك قد فعلت ما أوصاني به ربّي بقوله تعالى : « و إنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله » الآية وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : [2] : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني » .

فلمّا تبيّن لي ماذكرت وعرفت حقيقة ما وصفت ، نظرت عند ذلك في أحوالي ، وتذكّرت في تصاريف أمر ربّي ، فوجدت بنية هيكلي مركّبة من أخلاط ممتزجة ، متضادّة القوى ، مركوزة فيها شهوات مختلفة ، فتأمّلتها فإذا هي كأنّها نيران كامنة في أحجار كبريتيّة ووجدت وقودها هي المشتهيات من ملاذّ الدنيا و نعيمها ، و وجدت اشتعال تلك النيران عند الوقود كأنّها حريق لاتطفأ ، ولهيب لايخمد ، أو كأمواج بحر متلاطمة ، أو كرياح عاصفة تدمّر كلّ شيء بأمر ربّها ، أو كعساكر أعداء حملت على الغار و النهب .

وذلك أنّي وجدت حرارة شهوات المأكولات و المشروبات في نفسي عند هيجان نار الجوع كأنّها لهب نيران لاتطفأ ، ووجدت نفسي الشهوانيّة عند الأكل و الشرب من الشره كأنّها كلاب وقعت على جيف تنهش ، ووجدت حرارة الحرص في نفسي عند

(١) في النسخة (ر) : الشهوانية . (٢) سورة الانعام : ١٥٣

(٣) سورة يوسف : ١٠٨

هيجان نار الطمع كأنّها مزاريق[1] نيران في يابس القصب ، ووجدت نفسي عند ذلك كأنّها وعاء لايمتلىء من جميع ما في الدنيا من المتاع و حرارة الغضب في نفسي الحيوانيّة عند هيجان نار الحركة كأنّها حريق يرمي بشرر كالقصر ، و رأيتها عند هيجان حرارة الكبد كأنّها جبّار قد أقبل يدّعي الربوبيّة لنفسه ، و رأيتها عند هيجان نار الافتخار و المباهاة كأنّها أفضل خليقة و أشرفهم ، و رأيتها عند هيجان نار شهوة الرياسة و تمليكهم لها كأنّ الناس كلّهم عبيد لها وخول ، ورأيتها عند هيجان نارشهوة الكرامة و طلبها لها كأنّها دين لها لازم حالّ ، ورأيت عندطلب خدمة خولها كأنّهاترى أنّهاطاعة اللّه حتم واجب فريضة ، ورأيتها عند قضاء ما عليها من حقّ غيرها متوانية في تأديته كأنّها نافلة ، أو كأنّها أحمال ثقيلة ، ورأيت حركتها عند اللهو واللعب كأنّها مجنونة والهة ، و رأيتها عند محبّة المدح والثناء عليها كأنّها أعقل الناس وأفضلهم وأحكمهم ورأيتها عندهيجان نارالجسد كأنّها عدوّ يريد خراب الدنيا وزوال النعم وحلول النقم ، و على هذا المثال وجدت ورأيت حكم سائر أخلاقها الرديئة ، وخصالها المذمومة ، وأعمالها السيّئة وأفعالها القبيحة .

فعلمت عند ذلك أنّ هذه كلّها نيران لاتخمد ، وحريق لايطفأ ، وأعداء لايصالحون وحرب لايهدأ ، وقتال لايسكن ، و داء لايبرء ، ومرض لايشفى ، وعناء طويل ، وشغل منه لايفرغ إلى الموت ، فتشمّرت عند ذلك بالعزم الصحيح ، وشددت وسطي بإزار الحزم ، و أخذت سلاح الاجتهاد ، وارتديت رداء الورع ، ولبست قميص الحياء ، و تسربلت سربال الجدّ ، ووضعت على رأسي تاج الزهد في الدنيا ، وأثبتّ قدمي على التقوى ، وأسندت ظهري إلى الله تعالى في التوكّل عليه ، و جعلت شعاري الخوف و الرجاء ، و رمت قوى نفسي بالنهى ، وفتحت عيني بالنظر إلى إشارة العلم ، وجعلت دليلي حسن الظنّ بربّي ، وسلكت منهاج السنّة ، وقصدت الصراط المستقيم إلى البارىء وناديته نداء الغريق ، و دعوته دعاء المضطرّ ، وأقررت بالعجز والتقصير ، و طرحت نفسي بين يديه بأنّ لاحول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم ، وتضرّعت إليه تضرّع الصبيّ إلى والده الرفيق و الشفيق .

فلمّا رآني ربّي على تلك الحالة سمع ندائي ، وأجاب دعائي ، و رحم ضعفي ، و أعطاني سؤلي ، و أيّدني بجنوده ، و دلّني على مكائد أعدائي ، فغزوتهم مع ملائكته ،

(١) جمع المزراق - بالكسر - ، الرمح القصير .

فأظفرني على أعدائي وغلبتهم ، وحرسني من غرورهم ، وأحرزني من خطواتهم فسلّمت من كيدهم ، وفزت بالغنيمة سالماً ، و كفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويّاً عزيزاً ، وجند الله هم الغالبون ، وحزب الشيطان هم الخاسرون ، كلّ هذا من فضل ربّي ليبلوني أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنّما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإنّ ربّي غنيٌّ كريم ، وهو حسبي.

واعلم بأنّ النفوس الناقصة تكون قصيرة الهمّة لاتحبّ إلّا زينة الحياة الدنيا ، و لاتشتاق إلّا إليها ، ولاتتمنّى إلّا الخلود فيها ، لا تعرف غيرها ، ولا تتصوّر سواها ، فأمّا النفس الشريفة المرتاضة فهي تأنف من الرغبة في الدنيا ، بل تزهد فيها ، و تريد الآخرة وترغب فيها ، وتتمنّى اللحوق بأبناء جنسها وأشكالها من الملائكة ، و تشتاق إلى الترقّي إلى ملكوت السماء ، والسيحان في سعة فضاء الأفلاك ، ولكن ذلك لايمكن إلّا بعد فراق الجسد على شرائط ممدودة ، كماذكرنا في رسالة البعث والقيامة .

وممّا يدلّ على أنّ أهل بيت نبيّنا ﷺ كانوا يرون ويعتقدون بقاء النفس ، وصلاح حالها بعد مفارقة الجسد تسليمهم أجسادهم إلى القتل بكربلا ، ولم يرضوا أن ينزلوا على حكم يزيد ابن زياد لعنهما الله ، و صبروا على الطعن والضرب و العطش حتّى فارقت نفوسهم أجسادهم وارتفعت إلى ملكوت السماء ، و لقوا آباءهم الطاهرين محمّداً و عليّاً و المهاجرين الّذين اتّبعوهم في ساعة العسرة ، الّذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، فلولم يكن متيقّنين ببقاء نفوسهم بعدمفارقة أجسادهم لما تعجّلوا إتلاف أجسادهم ، وتسليمها إلى القتل والضرب والطعن وفراق لذيذ العيش في الدنيا ، ولكنّ القوم قد علموا و تيقّنوا ما دعوا إليه من الحياة في الآخرة ، ونعيم الخلودفيها ، والفوز والنجاة من غرور الدنيا و بلاياها ، فبادر القوم إلى ما تصوّروا ، وتحقّقوا يسارعون في الخيرات ، وكانوا يدعون ربّهم رغباً و رهباً وكانوا من خشيته مشفقين .

وممّا يدلّ على بقاء النفوس وصلاح حالها بعد مفارقة أجسادها ذهاب الناس إلى الصالحين والأنبياء والأولياء والأخيار لطلب الغفران ، واستجابة الدعاء ، و التوسّل بهم إلى الله ومايرجون من شفاعتهم عند ربّهم ، وما يطلبون أيضاً من قضاء حوائجهم من أمر

الدنيا والآخرة عند قبورهم .

أفترى أنّ أهل الديانات كلّها اتّفقوا على شيء لاحقيقة له ؟ كلّا بل هذا علم غامض ، وأسرار خفيّة لايعقلها إلّا العالمون ، كماذكرهم الله ومدحهم بما عملوا ممّا خفي على غيرهم حيث يقول : [1] « و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون * مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون * و قال الّذين اُوتوا العلم و الإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنّكم كنتم لاتعلمون » .

(١) سورة الروم : ٥٥-٥٧ .

﴿خاتمة﴾

✡(نبدأ فيها أولا فى خطاب الشاكين فى أمر النفس المتحيرين)✡
✡(فى اختلاف أقاويل العلماء)✡

قد فهمنا أيّها الأخ ماذكرت ممّا جرى بينك وبين شيخ من مشائخنا من المذاكرة في أمر النفس وماهيّة جوهرها ، و كيفيّة وجودها ، و أين مكانها من الجسد ، وما علّة رباطها ، و كيف تكون مفارقتها للجسد ، والّذي أنكره من معرفة جوهرها بقوله : « علم لايمكن أن يعلم » والّذي أنكره من معرفة جوهرها و احتجاجه بقول جالينوس : « إنّي لاأدري ما جوهر النفس » وقوله : « إنّي ما أنا بأعلم من جالينوس » .

والّذي نسألك أيّها الأخ البارّ الرحيم أن تتفضّل وتلقاه وتقرأ عليه منّا السلام ، وتعرّفه من شدّة شوقنا إليه ، وطالعتنا لمعرفة أخباره - أطابها الله - ورغبتنا في مشاهدته و مجاورته وتبلّغه عنّاما ألقيناعليك من الجواب عمّاسأل وهو أن تقول له : يتفضّل سيّدنا الشيخ ويعيننا بجودة رأيه ، وقوّة نفسه ، وصفاء جوهره ، و يفرّغ لنا قلبه ساعة ، و يجمع لنا همّته ، ولايشغل فكرنا بالشبهة الّتي يوردها عليها من أقاويل الفلاسفة ، واختلاف آرائهم وروايات العلماء وأسانيدهم ، وتشبيهات الشعراء وهيمانهم ، واختلاف العوامّ وتشنيعاتهم، وينصفنا في القول ، ويناصحنا في الضمير ، ويجعل الحاكم بيننا و بينه العقل الّذي رضينا بحكمه وموجبات قضاياه .

فإنّا إذا سألناه أوسأل هو أحداً منّا فقال له : ماأنت وما حقيقتك ، ومن هذاالّذي يكلّمني ويسمع منّي ؟ و يفهمني ويستفهم منّي ؟ أفترى وترضى الجواب منّا بأن تقول: إنّ هذا الجسد الّذي يرى المحسوس المؤلّف من الدم و اللحم و العصب و العظام وما شاكله ، المبنيّ كأنّه منارة راهب إذا وقع لايمكنه أن يقوم ، وإن برك لايمكنه أن يتحرّك وإذا نام لايحسّ بأنّه موجود ، وإذا انبته لايدري أين كان ، فجائز في العقل أنّ من هذا حاله يسأل عن خفيّات الأمور من المحسوسات والمعقولات ، وماغاب عن الحواسّ بالمكان ،

وما مضى كونه مع الزمان ، ومايكون في المستقبل من الكائنات أو يتساهل أن يسمع منه قوله إذا خبّر عن تركيب الأفلاك ونظامه وأقسام البروج وأوصافها ، وحركات الكواكب ومجاريها ، وعن أركان الأمّهات و طبائعها و اختلاف جواهر المعادن و خواصّها و فنون أشكال النبات ومنافعها ، وعجائب أحوال الحيوان واختلاف أخلاقها وأصواتها .

فيا عجباً ممّن ظنّ أنّ هذه الأشياء كلّها هو هذا الجسم الطويل العريض العميق الأعمى الأصمّ الأخرس الّذي لايحسّ ذاته ، ولا يشعر بوجوده ، فكيف يجوز أن يعلم هذه الأشياء العجيبة البائنة عن ذاته ، الغائبة عن حواسّه ، وهولا يعلم ذاته ، ولا يحسّ بوجود نفسه .

هيهات بعد عن الصواب من ظنّ أنّ هذه العلوم يعلمها هذا الجسد المؤلّف من اللحم المستحيل الفاسد .

واعلم أيّها الأخ بأنّ الإنسان الباحث عن أمر النفس الطالب معرفة جوهرها لو أنّه أنصف بعقله ، ورجع إلى حكمه ، و قبل قضاياه ، و فكّر في نفسه ، وتأمّل تمييزه ، و تصفّح حالات جسده من القيام والقعود و الحركة والسكون و النوم و اليقظة و الحياة و الممات لاستبان له أنّ مع هذا البجسد جوهراً آخر هو أشرف منه ، وأنّ هذا الجسد بالنسبة إليه ما هو إلّا كدار مبنيّة فيها ساكن ، أو كدكّان فيها صانع ، أو كسفينة فيها ملّاح ، أو كدابّة عليها راكب ، أو كمدينة فيها ملك ، ونحن قد شرحنا من هذه الأمثال طرفاً في مقدّمة هذه الرسالة الّتي في تركيب الجسد .

واعلم أيّها الأخ بأنّ النفس إذا انتبهت من نوم الغفلة ،واستيقظت من رقدة الجهالة وأبصرت ذاتها و عرفت شرف جوهرها ، و أحسّت بغربتها في عالم الأجسام ، ومحنتها و غرقها في بحر الهيولى ، و أسرها بالشهوات الطبيعيّة ، و عاينت عالمها واستبان لها فضل نعيمها على اللّذات الجسمانيّة ، وتنسّمت روح عالمها وريحانها ، اشتاقت إلى هناك،ومقتت الكون مع الأجساد ، وزهدت في نعيم الدنيا ، وتمنّت الموت الّذي هو مفارقة الجسد ، والخروج من ظلمة الأجسام ، فيكون مثلها عند ذلك كمثل قوم خرجوا من الحبس والمطامير ، مع ضوء الصبح ، فشاهدوا هذا العالم بما فيه دفعة واحدة وأمّا النفوس الغير

المستبصرة فمثلها كمثل العميان ، عندهم ضوء النهار وظلمة الليل واحدة .

واعلم أنّ النفس إذا لم تستبصر ذاتها ، ولم تعرف جوهرها ومبدءها ومعادها ، ولا أحسّت بغربتها وما هي فيه في هذه الدنيا من المحنة والبلوى ، مادام يمكنها البحث والاجتهاد في التعلّم ، ولها تمييز و عقل و حواسّ صحاح ، ويمكنها الاعتبار والفحص والبيان ، فلم تجتهد حتّى تبقى عمياء إلى الممات ، فهي بعد الممات أعمى و أضلّ سبيلاً أعاذنا الله و إيّاك أيّتها الأخ ، وجميع إخواننا من هذه الصفة إنّه ودود رحيم .

واعلم يا أخي أنّ النظر في أمر النفس مجرّدة من الجسد و التصوّر لذاتها خلواً منه عزّ على المرتاضين بالرياضات الفلسفيّة ، فكيف على غيرهم . ولكن إذا نظر إلى ما يظهر من أفعالها في الجسد ، واعتبر أحوالها ، وتصرّفها مع الجسد سهل ذلك وقرب من فهم المتعلّمين والتصوّر في أفكار المتفكّرين و جودتها وبيان شرفها وجوهرها . ونريد الآن أن نبيّن من ذلك طرفاً ونضرب له أمثالاً لكيما يكون أوضح للبيان و أقرب إلى فهم المبتدئين ، وأبلغ للتصوّر في أفكار المتعلّمين .

واعلموا أيّتها الإخوان بأنّ هذا الجسد لهذه النفس كدار لساكنها بنيت ، فأُحكم بنيانها ، وقسّمت بيوتها ، وأُكملت خزائنها ، وقسّمت سطوحها ، وفتحت أبوابها ، وغلّقت ستورها ، وأُعدّ فيها كلّما يحتاج إليه صاحب المنزل في بيته من الفرش و الأواني والأثاث والمتاع ، على أتمّ ما يكون وأكمله وأتقنه ، فرجلا الجسد ـ وقوامه بهما ـ كالأساس للدار ، ورأسه في أعلى بدنه كالغرفة الّتي في أعلى الدار ، وظهره من خلفه كظهر الدار ، ووجهه قدّامه كصدر الدار ، ورقبته وطولها كرواق الدار ، وفتح حلقومه وجريان الصوت فيه كدهاليز الدار ، وصدره في وسط بدنه كصحن الدار ، والأوعية الّتي في صدره كالبيوت والخزائن في الدار ، وريته وبردها كبيت صيفيّ وجريان النفس في الحلقوم كالباذهنج[1] و قلبه مع الحرارة الغريزيّة كالبيت الشتويّ ، و معدته و نضج الغذاء فيها كالمطبخ ، و كبده و وحصول الدم فيه كبيت الشراب ، ومجاري عروقه و جريان الدم والنقص إلى سائر أطراف البدن كمسالك الدار ، وطحاله وحصول عكر الدم فيه كخزانة الآلات ، ومرارته وحدّة الصفراء فيها كبيت السلاح ، وجوفه والحجب الّتي فيه كبيت الحرم ، وأمعاءه وثفل الطعام

(١) ثقب في جدار البيت لتغيير الهواء .

فيها كبيت خلاء، ومثانته وحصول البول فيها كبيت البرء، وسبيله في أسفل البدن كمجاري الدار، وعظامه و قوام الجسد بينها كالحيطان في الدار ، و العصب الممدود على المفاصل كالأجذاع والعوارض على حيطان الدور ، ولحمه في خلل العظام والعصب كالملاط ، وأضلاعه كالأساطين في الدار ، والتجويفات الّتي في جوف العظام كالصناديق والأدراج في خزائن الدار، والمخّ فيها كالجوهر والمتاع في الصناديق ، والأدراج والثقب الّتي في رأسه كالروازن في غرف الدار ، وتنفّسه كالدخان ، و وسط دماغه كالإيوان ، وجانباه كبيتي العرس والغشاوات الّتي بينهما كالستور ، وفمه كباب الدار ، وأنفه كطاق باب الدار ، و شفتاه كمصراعي الباب ، وأسنانه كالبوّابين ، ولسانه كالحاجب ، وعقله في وسط دماغه كالملك القاعد في صدر المجلس ، وحواسّه الباطنة كالندماء ، و حواسّه الظاهرات كالجنود ، وعيناه كالديدبان ، وأُذناه كأصحاب الأخبار ، ويداه كالخدّام ، وأصابعه كالصنّاع .

وبالجملة ما من عضو في الجسد إلّا وله مثال في الدّار ، وما من فعل في الجسد إلّا وله مثال من فعل ربّ الدار في داره .

و اعلموا أيّها الإخوان ـ أيّدكم الله ـ بأنّ هذا الجسد لهذه النفس من جهة أُخرى بمنزلة الدكّان للصانع ، و أنّ جميع الأعضاء للنفس بمنزلة الأدوات للصانع في دكّانه ، وأنّ النفس بكلّ عضو من أعضاء الجسد تُظهر ضروباً من الأفعال ، وفنوناً من الاعمال ، كما أنّ الصانع بكلّ أداة يعمل ضروباً من الاعمال ، و فنوناً من الحركات كالنجّار فإنّه ينجر بالفأس ، و ينشر بالمنشار ، و يثقب بالمثقب ، و يبرد بالمبرد ، و ينقر بالمنقار ، و كذلك الحدّاد فإنّه ينفخ بالمنفاخ ، و يأخذ بالكلبتين ، ويطرق بالمطرقة ، و على هذا القياس سائر الصنّاع ، كلّ واحد منهم يعمل بأدوات مختلفة ، وحركات متباينة ، فهكذا حال النفس مع الجسد و أعضائه المختلفة ، فإنّها بكلّ عضو تفعل فعلاً مبايناً لما يظهره ويفعله من عضو آخر .

مثال ذلك أنّ النفس تبصر بالعينين ، وتسمع بالأذنين ، وتشمّ بالمنخرين ، وتذوق باللّسان ، وتتكلّم بالشفتين، وتمسّ باليدين، وتعمل الصنائع بالأصابع ، وتمشي بالرجلين و تبرك بالركبتين ، وتقعد على الإليتين ، وتنام على الجنبين ، وتستند بالظهر ، وتحمل الأثقال

على الكتفين ، و تتفكّر بوسط الدماغ في الأشياء ، وتتخيّل بمقدّم الدماغ المحسوسات و تحفظ بمؤخّر الدماغ المعلومات ، و تصوت[١] بالحلقوم ، و تستنشق الهواء بالخياشيم ، و تمضغ الطعام بالأسنان و تزدرد بالمري ، وما شاكل ذلك وبالجملة مامن عضو في الجسد إلّا و للنفس فيه ضروب من الأفعال ، وفنون من الاعمال .

و اعلموا أيّها الإخوان بأنّ هذا الجسد لهذه النفس الساكنة فيه تشبه تصرّف حالات أهل المدينة ، وذلك لأنّ لهذا الجسد أعضاء ومفاصل تشدّ المحالّ في المدينة ، وفي تلك الأعضاء و المفاصل أوعية و مجاري تشبه المنازل في المحالّ ، وفي تلك الأوعية والمجاري حجب و أغشية تشبه البيوت في المنازل و الأسواق في المحالّ والدكاكين في الأسواق .

و بيان ذلك أنّ الأعضاء و المفاصل الّتي تشبه المحالّ في المدينة ، فالرأس وماحوى و الصدر وما وعى ، و البطن وما ملا ، والرجلان و اليدان .

وأمّا الأوعية و المجاري الّتي تشبه المنازل في المحالّ فالدماغ و القلب و الرئة و الكبد و الطحال ، المرارة و المعدة و المصارين والمعى و الكليتان و العروق .

فأمّا الحجب و الأغشية الّتي تشبه البيوت في المنازل ، والدكاكين في الأسواق ، فالتجويفات الّتي في الدماغ والّتي في الرية والّتي في القلب والّتي في العظام وغير ذلك .

و اعلموا أيّها الإخوان - أيّدكم الله - بأنّ لهذه النفس الّتي هي كالساكنة في الجسد قوى طبيعيّة ، وأخلاقاً غريزيّة منبثّة في أعضاء هذا الجسد ، تشبه قبائل أهل تلك المدينة ، وشعوبها النازلين في محالّ تلك المدينة ، وإنّ لتلك القوى و لتلك الأخلاق أفعالاً وحركات منبثّة في أوعية أعضاء الجسد ، ومجاري مفاصله تشبه أفعال أهل تلك المدينة في منازلهم ، وحركاتهم في طرقاتهم ، وأعمالهم في أسواقهم .

تفصيل ذلك : أمّا القوى الطبيعيّة و الأخلاق الغريزيّة الّتي تشبه القبائل و الشعوب فهي ثلاثة أجناس :

فمنها قوى النفس النباتيّة ونوازعها و شهواتها وفضائلها ورذائلها ، ومسكنها الكبد وأفعالها تجري مع الأوراد إلى سائر أطراف الجسد .

ومنها قوى النفس الحيوانيّة وأخلاقها وحواسّها وحركاتها وفضائلها ، و مسكنها

(١) في الاصلين وتصورت .

القلب وأفعالها تجري مع العروق الضوارب إلى سائر أطراف الجسد .

ومنها قوى النفس الناطقة ، ومسكنها الدماغ ، وتمييزها وفضائلها ورذائلها ، وأفعالها تجري مع الأعصاب إلى سائر أطراف الجسد .

واعلم ياأخي بأنّ هذه النفوس ليست منفردات متبائنات بعضهنّ من بعض ولكنّها كلّها كالفروع من أصل واحد ، متّصلات بذات واحدة ، كاتّصال ثلاثة أغصان من شجرة واحدة يتفرّع من كلّ غصن عدّة قضبان ، من كلّ قضيب عدّة أوراق و ثمر ، أو كعين واحدة ينشقّ منها ثلاثة أنهار ، كلّ نهر ينقسم عدّة أعمدة ، من كلّ عمود عدّة جداول أو كقبيلة واحدة يتشعّب منها ثلاثة شعوب ، من كلّ شعب يتفرّع عدّة بطون أفخاذ وعشائر ، أو كرجل يعمل ثلاثة صنائع يسمّى بثلاثة أسماء ، فيقال : حدّادٌ نجّارٌ بنّاءٌ ، إذا كان يحسنها بثلاثتها ، أو كرجل يكتب ويقرء ويعلّم ، فيقال : كاتبٌ قارئٌ معلّم ، لأنّ هذه الأسماء تقع على الفاعل بحسب ما يظهر منه من الأفعال والحركات والصنائع والأعمال ، فهكذا أمر النفس فإنّها واحدة بالذات ، و إنّما يقع هذه الأسماء بحسب ما يظهر منها من الأفعال وذلك أنّها إذا فعلت في الجسم الغذاء والنموّ فتسمّى النفس النباتيّة ، وإذا هي فعلت في الجسم الحسّ والحركة والنقلة ، فتسمّى النفس الحيوانيّة ، و إذا فعلت الفكر والتمييز فتسمّى النفس الناطقة .

و اعلموا أيّها الإخوان أنّ لكلّ عضو من أعضاء الجسد قوّة من قوى النفس مختصّة به ، وهي تدبّر ذلك العضو وتفعل فيه أفعال الأخلاق ماتفعل قوّة أخرى من عضو آخر ، وإنّ تلك القوى تسمّى نفساً لذلك العضو المختصّ به .

مثال ذلك القوّة الباصرة ، فإنّها تسمّى نفس العين ، والقوّة السامعة نفس الأذن والقوّة الذائقة نفس اللسان ، والقوّة الشامّة نفس الأنف ، وعلى هذا القياس سائر الاعضاء والقوى الّتي تدبّرها وتفعل بها .

واعلم يا أخي بأنّ هذه النفوس الثلاثة هي كالأجناس ، وقواهنّ كالأنواع ، و أفعال تلك القوى كالأشخاص ، فأمّا القوى الّتي هي كالأنواع فهي خمسة وعشرون نوعاً فأربعة منها مفردات كالرؤساء ، و ثمانية متعاونات كالصنّاع ، وخمسة كالجلّابين وثلاثة متناولات كالخدّام ، وثلاثة آمرات كالأرباب .

وأمّا أفعالها أعني أفعال هذه القوى الّتي هي كالأشخاص فكثيرة ، لايعلم عددها إلّا الله تعالى ، ولنذكر طرفاً من ذلك ليكون دليلاً على الباقي .

و ذلك أنّ أفعال هذه القوى في الجسد بعضها يشبه أفعال النبهاء[1] والأشراف والرؤساء في المدينة ، وبعضها يشبه أفعال التجّار والباعة وجلّابي الأمتعة إلى المدينة ، وبعضها يشبه أفعال السلاطين والجند والمتغلّبين في المدينة ، وبعضها يشبه أفعال القضاة والعدول والمصلحين في المدينة ، و بعضها يشبه أفعال الصبيان والعبيد والنساء والحمقاء ، و بعضها يشبه أفعال العقلاء والأحرار والكرماء ، وبعضها يشبه أفعال الشطّار والفتيان والجهّال ، و بعضها يشبه أفعال العلماء و الفقهاء و القرّاء و أهل الدين .

تفصيل ذلك : أمّا القوى الأربعة المفردات الّتي هي كالرؤساء فهي قوى النفس النباتيّة وهي الحرارة و البرودة و الرطوبة و اليبوسة ، وعليهنّ تدور حالات الجسد من الصلاح و الفساد .

وذلك أنّ أفعال هذه القوى في أفعال الجسد إذاهنّ اعتدلن وتساوين فاستقام أمر الجسد على الصحّة والسلامة ، وهي تشبه أفعال النبهاء[2] و التجّار و الأشراف و الرؤساء الّذين هم ملّاك المدينة وأربابها ، وبهم قوام أمر المدينة وصلاحها ، و استقامة أحوالها و أفعالها ، أعني لهذه القوى عند ورود الطعام و الشراب إلى الجسد ، و تناول كلّ واحدة من هذا القوى ماشاكلها من الغذاء على ماينبغي ، تشبه أفعال أهل تلك المدينة في أخذهم و إعطائهم وبيعهم و شرائهم ، وتناصفهم في معاملاتهم فيما بينهم .

وأفعالهم [3] إذا كانت على غير ما ينبغي تشبه أفعال أهل تلك المدينة إذا تنازعوا فيما بينهم ، وتخاصموا في مطالباتهم ، وتظالموا في معاملاتهم ، وأفعال القوّة المميّزة الّتي تقسط على كلّ عضو ما يشاكله من الغذاء لتستوي القوى ، و تعتدل الأخلاط في بنية الجسد ، يشبه أفعال القضاة والعدول والمصلحين في المدينة بين الناس .

و أمّا أفعال هذه القوى إذا هنّ هجن و تعادين و أدخلن السقم والأمراض على الجسد يشبه أفعال العيّارين وأصحاب العصبيّة ، إذا ثاروا وأثاروا الفتن ، وتقاتلوا و

(١و٢) في الاصل « النباء» وفي نسخة (د) البنتاء . (٣) كذا و الصواب : وأفعالها .

أحرقوا الأسواق وخرّبوا المنازل ونهبوا الأموال ، وأفسدوا في المدينة ، وأمّا أفعال هذه القوى عندورود الدواء والأشربة وإخراج فضول الأخلاط من الجسد يشبه أفعال السلطان والجند إن قاتلوا العيّارين وتنكّبوا الفتن، وأخذوا القُطّاع أيديهم وأخرجوهم من المدينة.

وأمّا أفعال هذه القوى عند فضول خروج الأخلاط من الجسد، وذهاب الأمراض، و صلاح حال الجسد بعد السقم يشبه أفعال رؤساء تلك العصبيّة إذا تصالحوا فيما بينهم وتهادنوا وأصلحوا ما أفسد العيّارون من حالات المدينة ، وعمروا ما خربوا منها .

و أمّا القوى الثلاثة الّتي هنّ كأرباب فهنّ القوّة الشهوانيّة ، والقوّة الغضبيّة والقوّة الناطقة .

فأفعال القوّة الشهوانيّة في أعضاء الجسد إذا لم ترسهاو ترمّها[1] القوّة الغضبيّة تشبه أفعال الصبيان والنساء والعبيد والحمقاء ، إذا لم ترمّهم أزواجهم وآباؤهم ومواليهم .

وأمّاأفعال القوّة الغضبيّة إذا لم ترسهاوترمّها القوّة الناطقة تشبه أفعال الشبّان والشطّار والجهّال والسفهاء إذا لم ترسهم عقلاؤهم ، وترمّهم مشائخهم ويأمرو ينهى عليهم علماؤهم .

و أمّا أفعال القوّة الناطقة إذا لم يرسها العقل تشبه أفعال العلماء والفقهاء إذا تنازعوا في أحكام الدين واختلفوا فيها وصاروا مذاهب وآراء وبدعاً ومقالات إذا لم يرسهم ويرمّهم إمام عادل من خلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

و أمّا القوى الخمس الّتي هي كالجلاّبين فهي الحواسّ الخمس ، فمنها القوّة السامعة الداركة للأصوات ، و مجراها في الأذنين ، و منها القوّة الباصرة المدركة للألوان والأنوار الأشكال و مجراها في الحدقتين ، ومنها القوّة الذائقة المدركة للطعوم ومجراها في اللسان ، ومنها القوّة الشامّة المدركة للروائح ومجراها في المنخرين . ومنها القوّة اللامسة المدركة للخشونة واللين والصلابة والرخاوة والحرارة والبرودة والرطوبة و اليبوسة و مجراها في الأعصاب في جميع الجسد ، وأفعال هذه القوى في إدراكها صور المحسوسات من خارج الجسد ، و حملها جميع القوى المتخيّلة في مقدم الدماغ تشبه أفعال

(١) راس الشيء يريسه : ضبطه . ورمّه جمعه .

الحشّاد و الجلاّبين الّذين يحملون الأمتعة من النواحي ، ويجلبونها إلى المدينة ، و يعرضونها على التجّار .

وأمّاالقوى الثلاثة الّتيهي كالتجّار والباعة فهي القوّة المتخيّلة ، ومسكنهامقدّم الدماغ ، والقوّة المفكّرة ومسكنهاوسطالدماغ ، والقوّةالحافظة ومسكنهامؤخّر الدماغ .

وأمّا أفعال القوى المتخيّلة و تناولها رسوم المحسوسات من الحواسّ و دفعها إلى القوّة المفكّرة يشبه أفعال السماسرة والباعة الّذين يكونون في عرصات الأسواق الّذين يكون [1] في المربعات .

وأفعال القوّة المفكّرة وتناولها رسوم المحسوسات وتمييزها وتفصيل بعضها من بعض ودفعها إلى القوّة الحافظة الّتي مسكنها مؤخّر الدماغ تشبه أفعال التجّار الّذين يشترون الأمتعة ويحملونها إلى البيوت و الدكاكين و الخان اشارات .

وأفعال القوّة الحافظة وتناولها رسوم الأشياء من القوّة المفكّرة وحفظها وتمسّكها إلى وقت التذكار يشبه أفعال الخزّان والوكلاء .

و أما القوى الثمانية المتفاوتة الّتي أفعالها في أعضاء الجسد تشبه أفعال الصنّاع في أسواق المدينة ، فهي الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والمصوّرة والنامية و المولّدة ، وذلك أنّ هذه القوى تخدم بعضها بعضاً كما تخدم التلامذة الأستاذين والأجراء المستأجرين ، و بعضها يعاون بعضاً كما يعاون الصنّاع بعضهم بعضاً في الأسواق ، و كتعاون الحدّادين للنجارين والنجارين للبنائين و كتعاون الحلاّجين للندّافين والندّافين للغزّالين والغزّالين للنسّاجين ، والنسّاجين للخيّاطين ، و كتعاون الطحّانين للخبّازين وما شاكل ذلك فإنّ كلّ واحد من هؤلاء يهيّىء صناعة صاحبه وتضبطها له فهكذاأفعال هذه القوى في أعضاء الجسد و تعاون بعضهم بعضاً فيما يفعل .

وذلك أنّ القوّة الجاذبة من شأنها جذب الطعام و الشراب إلى المعدة ، و جذب الكيموس من المعدة إلى الكبد ، وجذب الدم من الكبد إلى العروق ، ومن العروق إلى سائر أطراف الجسد .

ومن شأن القوّة الماسكة إمساك مايرد على العضو من الأخلاط .

---

(١) كذا فى الاصلين .

ومن شأن القوّة الهاضمة أن تنضج ذلك الخلط وتهيّئه للقوّة الغاذية .

ومن شأن الدافعة أن تدفع من العضو مالا يصلح له من الأخلاط إلى عضو آخر .

ومن شأن الغاذية أن تحيل الغذاء إلى مشابهة المغتذي ليخلف بدل مايتحلّل .

ومن شأن النامية أن تناول تلك المادّة ، وتزيد في أقطار ذلك العضو طولاً و عرضاً و عمقاً .

ومن شأن القوّة المصوّرة أن تأخذ من كلّ عضو أفضل تلك المادّة و تصوّر مثل ذلك العضو ، وهذه القوّة مختصّة بالرحم .

وهذه القوى الثمانية لها أفعال كثيرة في أعضاء الجسد ، في كلّ عضو ضروباً من الصنائع ، خلاف مافي عضو آخر ، يشبه أفعال الصنّاع في أسواق المدينة ، ولكن نذكر من ذلك طرفاً ليكون دليلاً على الباقي .

من ذلك : أفعالها في المعدة من جذب الطعام والشراب إليها ، وإمساكها و هضمها ونضجها بالحرارة الغريزيّة ، يشبه أفعال الخبّازين و الشوّائيين و من شاكلهم في أسواق المدينة .

وأفعالها بعد نضج الكيموس في المعدة و تصفيتها و استخراج لطيفها من الطعم و اللّون و الرائحة والحلاوة والدسومة ، و تمييزها و دفعها إلى الكبد ، و دفع عكرها إلى الإمعاء ، يشبه أفعال العصّارين الّذين يستخرجون الشيرج من ثمر الأشجار ، والأدهان من حبوب النبات ، والزبدوالسمن من لبن الحيوان في أسواق المدينة .

وأفعالها في الكبد وطبخها صفو الكيموس مرّة ثانية ونضجها حتّى تصير دماً ، ثمّ تصفيتها بعد ذلك وتمييزها ، ودفع عكر الدم المحترق إلى الطحال ، واللطيف إلى المرارة والرقيق إلى المثانة ، والمعتدل الصافي إلى القلب يشبه أفعال الجلّابين و الدبّاسين ، و الّذين يعملون السكّر والجلّاب وما شاكل ذلك في أسواق المدينة .

وأفعالها في القلب في تلطيف الدم مرّة ثالثة وتصفيته وإجرائه في العروق ، يشبه أفعال الذين يعملون الماورد ، ويصعّدون الخلّ ، ويقطّرون الرطوبات اللطيفة ، وماشاكلها في أسواق المدينة .

وأفعالها في الدماغ و تلطيفها الدم الّذي يصعد إليه ليصير رطوبات لطيفة روحانيّة كالّذي يجري في أعصاب العينين والأُذنين والمنخرين و اللّسان ، و البخارات الّتي منها يكون التخيّل ، وانفعالات الحواس ، تشبه أفعال الّذين يعملون الأدهان اللطيفه كدهن البنفسج ، ودهن الورد والزيبق ، وماشاكل ذلك في أسواق المدينة .

وأفعالها في دفع ثقل الكيموس من المعدة إلى الأمعاء و المصارين و إخراجها من الجسد ، تشبه أفعال الكنّاسين والزبّالين والسمّادين في المدينة .

وأفعالها في إجرائها الدم في الأوراد إلى سائر أطراف الجسد يشبه أفعال الّذين يحفرون الأنهار والآبار والقُنيّ ويجرون فيها المياه في خلل المنازل في المدينة .

و أفعالها في تعقيد الدم حتّى يصير لحماً و شحماً ودماً وما شاكلها ، تشبه أفعال الّذين يعقدون المايعات كالناطفين والحلاويين والعجّانين وماشاكلهم في المدينة .

وأفعالها في تجفيف المادّة وتصليبها حتّى تصير عظاماً يابسة ، يشبه أفعال الّذين يطبخون الآجرّ والخزف والزجاج وما شاكل ذلك .

وأفعالها في تركيب مفاصل الركبتين والفخذين والذراعين والأصابع ، تشبه تركيب المفاتيح والصناديق وماشاكل ذلك .

وأفعالها في تركيب خرزات الظهر و الرقبة و الأضلاع تشبه أفعال الّذين يبنون المسمارياّت والسفن وماشاكل ذلك .

وأفعالها في تركيب عظام الفخذ وهنداماتها[1] تشبه أفعال الصفّارين ، الّذين يعملون القماقم والأباريق في تركيبها .

و أفعالها في خلقة الإنسان و تركيبها و تصفيتها تشبه أفعال النجّارين ، الّذين ينظمون خزز الدواليب والأرحية في تركيبهم زنداجاتها .

وأفعالها في خلقة الأعصاب وتمديدها وفتلها ولفّها على العظام و المفاصل تشبه أفعال الغزّالين والفتّالين و الحبّالين ، وماشاكلهم في المدينة .

وأفعالها في خلقة الجلود والغشاوة تشبه أفعال الحاكة والنسّاجين وماشاكلهم .

---

(١) الهندام ـ بالكسر ـ : حسن القد واعتداله .

و أفعالها في إلحام الجراحات و القروح تشبه أفعال الخيّاطين و الرفّائين و الخرّازين .

وأفعالها في نبت الشعر على الجلد يشبه أفعال الزرّاعين وماشا كلهم .

وأفعالها في خلقة الاظفار تشبه أفعال الّذين يعلمون المساحي والمجارف وماشا كلها .

وأفعالها في خلقة الكروش والأمعاء والمصارين تشبه أفعال الّذين يعملون الطنافس والمسوح والغليظ من الثياب .

و أفعالها في خلقة الحجب و الرباطات تشبه أفعال الّذين يعملون ثياب القطن والكتّان .

وأفعالها في الغشاوات الّتي تحت قحف الرأس تشبه أفعال الّذين يعملون الشباك وماشا كل ذلك .

وأفعالها في الغشاوات الّتي في العينين يشبه أفعال الّذين ينسجون الحرير والرقيق من الثياب .

وأفعالها في تبييض العظام وتحمير اللحم وتصفير الشحم وتسويد الشعر تشبه أفعال المصوّرين والصبّاغين والمزوّقين والدهّانين ومن شا كلهم .

وأفعالها في خلقة الرحم وفي تصوير الجنين وفي خلقة الفراخ و البيض تشبه أفعال المصوّرين والنقّاشين وأصحاب اللعب وماشا كل ذلك .

فإن قال قائل من الأطبّاء والطبيعيّين : إنّ هذه كلّها أفعال الطبيعة .

فليعلم بأنّ الفلاسفة قدقالت : إنّ الطبيعة فعل النفس .

فإن قال قائل من الشرعيّين: إنّ هذه الأفعال كلّها للبارىء الخالق المصوّر .

فليعلم أيضاً بأنّ النفس من فعل البارىء سبحانه .

وإنّما ذكرنا هذه الأفعال ونسبتها إلى النفس لكيما ينتبه الإنسان من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ويتفكّر في نفسه ، ويشاهد من أفعالها هذه فيعلم بأنّ الصانع حكيم لأنّ المصنوع المحكم المتقن يتبيّن أنّ الصانع حكيم كما قال تعالى [1] : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

(١) سورة الذاريات : ٥٣ .

وبالجملة هذه النفس مع هذا الجسد وانبثاث قواها في جميع أعضائه الباطنة والظاهرة وإظهار أفعالها وفنون حركاتها في مجاري مفاصله وحواسّها في مجاري ثقب رأسه في حال يقظته يشبه مدينة عامرة بالنهار مأنوسة بسكّانها قدفتحت أسواقها ، وسلكت طرقاتها ، و قصرت تجارتها ، واشتغلت صنّاعها ، وسعى متعيّشوها ، وتحرّكت حيواناتها ، وسمع منها دويّ وجلبة ، وأفعال هذا الجسد في وقت النوم وهدوء الحواسّ وسكون النفس عن الحركات يشبه حال تلك المدينة بالليل إذا غلّقت أسواقها ، وتعطّلت صنّاعها ، وخلت طرقاتها ، و نام أهلها ، وسكنت حركاتهم ، وهدأت أصواتهم .

وأيضاً حال النفس عند مفارقة الجسد له يشبه حال تلك المدينة إذا رحل عنها أهلها وخلت من سكّانها ، وبادحيوانها ، وتبقى خراباً ، وتصير مأوى السباع والبوم ، ثمّ تتساقط حيطانها ، ويخرّ سوقها وتصير تلال تراب ، لاتبين إلّا الحجارة والآجرّ ، كذلك حال الجسد عند الموت الّذي هو فراق النّفس إيّاه فإنّه يتغيّر وينفخ وينتن و يصير مأوى الديدان والنمل ، ثمّ يبلى ويصير تلّ تراب ، لايبقى إلّا عظام تلوح كما تلوح حجارة تلك المدينة وآجرّها .

تفكّر يا أخي فيما ذكرنا من نبأ هذه المدينة والدكّان وحالاتها ، واعتبر تصاريف قوى النفس فيها وعجائب أفعالها ، وفنون حركاتها لعلّك تنتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة فتفتح لنفسك عين البصيرة فترى ذاتها ، وتبصر جوهرها ، وتعاين عالمها ، ومبدأها ومعادها كما رأيت بعين جسدك هذه الدكّان والدار و المدينة ، فترى أيضاً تلك الدار و تشاهد أحوالها وتعاين حقائقها ، وتعرف فضلها ، وتبيّن لك شرفها ، فترغب فيها ، و تقصد نحوها وتطلب درجتها فتنال نعيمها ، وتفوز بسعادتها ، و تنجو من بحر الهيولى وهاوية الأجسام ، وأسر الطبيعة .

فاغتنم ياأخي قبل خراب هذه المدينة الجسمانيّة بأن تتّخذ في المدينة الروحانيّة لك منزلاً ، وبناء محكماً ، وداراً مخلّدة ، فقد علمت بأنّ هذه الدار ليست بدار مقام ، بل هي دار فناء وزوال ، و كون وفساد ، وتغيّر واستحالة ، وجوع و عطش ، و أمراض و أسقام ، وفقر وذلّ ، وتعب ونصب ، وأعداء وحسّاد ، وحرّ وبرد ، وظلمة ووحشة ، وفرقة و غربة ،

وغموم وأحزان ، ونوائب في حدثان .

فارغب يا أخي عن هذه الدار إلى دار ليس فيها خوف ولا حزن ، ولافناء ولا تغيّر ولازوال ، وأهلها شبّاب لايهرمون ، وأصحّاء لايمرضون ، وأغنياء لايفتقرون ، و جيران لايتحاسدون ، وإخوان على سرر متقابلين ، لهم فيها ما يشتهون ، و هي الدار الحيوان ، لوكانوا يعلمون أهل الدنيا ، وهي ملكوت السماوات و فسحة عالم الأفلاك الّتي فضاؤها كلّها روح وريحان ، وجنّة ورضوان ، فاجتهد ياأخي لعلك توفّق للصعود إلى هناك فتجازى بأحسن الجزاء ، وتستعين على ذلك بالأعمال الصالحة ، فإنّها ترفعك إلى هناك كما ذكر الله سبحانه بقوله[1]: «إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه» يعني بالكلم الطيّب روح المؤمن ، واحذر أن تكون ممّن قال فيه[2]: «لاتفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنّة حتّى يلج الجمل في سمّ الخياط» .

واعلم أيّها الأخ بأنّ الشيخ أبا عليّ ابن سينا صنّف رسالة في معرفة النفس فأردت أن أذكرها بلفظها ، وجعلها مرتّبة على ثلاثة فصول :

الفصل الأوّل في إثبات أنّ جوهر النفس مغاير لجوهر البدن . و الثاني في بقاء النفس بعد خراب البدن . و الثالث في مراتب النفوس في السعادة و الشقاوة بعد المفارقة عن البدن . ثمّ ألحق فيها خاتمة ذكر فيها العوالم الثلاثة الّتي هي عالم العقل و عالم النفس وعالم الجسم ، وترتيب الوجود من لدن الحقّ الأوّل تعالى إلى أقصى مراتب الموجودات ، على الترتيب النازل من عنده تعالى ، ليكون الناظر في هذه الرسالة مطّلعاً على جمل من أجناس الموجودات ، وشطر من أنواعها .

فابتدأ بهذه الرسالة الّتي هي مشتملة على أهمّ المطالب وهي معرفة الإنسان نفسه وما يؤول إليه بعد الارتقاء عن هذا العالم ، وأيضاً فإنّ معرفة النفس مرقاة إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، كما أشار إليه شارع العرب والعجم بقوله عليه الصلاة و السلام [3] :

---

(١) سورة فاطر . ١٠ .

(٢) » الاعراف : ٣٩

(٣) سبق تخريجه ص ٢١٢ .

« من عرف نفسه فقد عرف ربّه » ولو كان المراد بالنفس في هذا البدن الحديث هو هذا لكان كلّ واحد عارفاً بربّه أعني خصوص معرفته ، وليس كذلك فهذه الرسالة تهديك إلى الأسرار المخزونة في علم النفس ، الّتي غفل عنها الدهماء من الناس ، بل أكثر العلماء عنه غافلون ولهذا أوحى الله عزّ وجلّ إلى رسوله ﷺ لمّا سئل عن حقيقة الروح :[1] « قل الروح من أمر ربّي » ثمّ قال تعالى عقبه : « وما أُوتيتم من العلم إلّا قليلاً » تنبيهاً على أنّ أكثر الناس عن علم النفس وحقيقة الروح غافلون ، فهذه هي الإشارة المختصرة إلى فوائد هذه الرسالة فلنشرع فيما ذكرناه من الفصول :

الفصل الاول في إثبات أنّ جوهر النفس مغاير لجوهر البدن . فنقول : المراد بالنفس ما يشير إليه كلّ أحد بقوله « أنا » وقد اختلف أهل العلم في المشار إليه بهذا اللفظ هل هو هذا البدن المشاهد المحسوس أو غيره ، أمّا الأوّل فقد ظنّ أكثر الناس و كثير من المتكلّمين أنّ الإنسان هو هذا البدن ، و كلّ واحد إنّما يشير إليه بقوله « أنا » وهذا ظنّ فاسد ورأي باطل ، كما سنبيّنه إن شاء الله تعالى .

والقائلون بأنّه غير هذا البدن المحسوس اختلفوا أيضاً فمنهم من قال : أنّه لا جسم ولا جسمانيّ بل هو جوهر روحانيّ فاض على هذا القلب وأحياه واتّخذه آلة في اكتساب المعارف والعلوم حتّى يستكمل جوهره بها ، ويصير عارفاً بربّه ، عالماً بحقائق مخلوقاته ، فتستعدّ بذلك للرجوع إلى حضرته ويصير ملكاً من ملائكته في سعادة لا نهاية لها ، و هذا هو مذهب الحكماء الإلهيّين والعلماء الربّانيّين ، ووافقهم في ذلك جماعة من أرباب الرياضة وأصحاب المكاشفة ، فإنّهم شاهدوا جواهر أنفسهم عند انسلاخهم عن أبدانهم و اتّصالهم بالأنوار الإلهيّة .

ولنا في صحّة هذا المذهب من البحث والنظر براهين :

البرهان الأوّل : تأمّل أيّها العاقل في ذاتك الزم[2] في نفسك أو الّذي كان موجوداً جميع عمرك ، حتّى أنّك تتذكّر ما جرى من أحوالك فأنت إذاً ثابت مستمرّ لا شكّ في ذلك

---

(١) سورة الاسراء : ٨٥ .

(٢) العدم . ظ . في الاصلين .

وبدنك وأجزاء بدنك ليس ثابتاً مستمراً بل أبداً في التحلّل ، ولهذا يحتاج الإنسان إلى الغذاء ليصير بدلاً لما يتحلّل من بدنه ، فإنّ البدن حارّ رطب ، والحارّ إذا أثّر في الرطب تحلّل جوهر الرطب حتّى يفنى بكلّيّته ، كما توقد عليه النار دائماً فإنّه يتحلّل إلى أن لا يبقى منه شيء ، ولهذا لو حبس الإنسان عن الغذاء مدّة قليلة هزل وانتقص قريباً من ربع بدنه ، فتعلم أنّ في مدّة عشرين سنة لم يبق شيء من أجزاء بدنك ، وأنت تعلم بقاء ذاتك في هذه المدّة ، بل جميع عمرك فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة ، فهذا برهان عظيم يفتح لنا باب الغيب فإنّ جوهر النفس غائب عن الحواسّ والأوهام ، ومن تحقّق عنده هذا البرهان وتصوّره في نفسه تصوّراً حقيقيّاً فقد أدرك ما غاب عن غيره .

البرهان الثاني هو أنّ الإنسان إذا كان مهتمّاً في أمر من الأمور فإنّه يستبصر نفسه حتّى يقول : إنّي فعلت كذا وأفعل كذا وفي مثل هذا الحال يكون غافلاً عن جميع أجزاء البدن ومن المعلوم أنّ ما يفعل غير ما هو مغفول عنه ، فذات الإنسان مغايرة لهذا البدن .

البرهان الثالث هو أنّ الإنسان يقول : أدركت الشيء الفلانيّ ببصري فاشتهيته ، وأغضيت عنه ، وكذا يقول : أخذت بيدي ومشيت برجلي ، وتكلّمت بلساني وسمعت بأُذني وتفكّرت في كذا وتخيّلته ، فنحن نعلم بالضرورة أنّ الإنسان [يكون] شيئاً مجمعاً لجميع هذه الصفات والإدراكات لجميع هذه الأفعال ، ونحن نعلم أيضاً بالضرورة أنّه ليس شيء من أجزاء هذا البدن مجمع هذه الإدراكات والأفعال فلأنّه لا يبصر بالأُذن ، ولا يسمع بالبصر ولا يمشي باليد ولا تأخذ بالرجل ، ففيه شيء مجمع لجميع الإدراكات و الأفاعيل ، ولا شيء من أجزاء هذا البدن جامع لذلك البتّة فالإنسان الذي يشير إلى نفسه بأنا مغاير لجملة أجزاء هذا البدن فهو شيء وراء البدن .

ثمّ نقول : هذا الشيء الّذي أثبتنا أنّه هويّة الإنسانيّة مغايرة لهذه الجثّة لا يمكن أن يكون جسماً ولا جسمانيّاً قائماً بالجسم ، لأنّه لو كان كذلك لكان أيضاً قابلاً للكون والفساد بمنزلة هذا البدن فلم يكن باقياً من أوّل عمره إلى آخره ، فهو ذا جوهر فرد روحانيّ ، بل

هو نور إلهي فاض على هذا القلب المحسوس ، ليتم[1] استعداده وهو المزاج الإنساني الإنسي ، وإليه أشار في كتابه العزيز[2]: « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي » فالتسوية هو جعل البدن بالمزاج الإنسي ليستعد لأن يتعلق به النفس الناطقة ، وقوله « من روحي » أضافها إلى نفسه لكونه جوهراً روحانياً غير جسم ولا جسماني ، فهذا ما أردنا أن نذكره في هذا الفصل .

الفصل الثاني في بقاء النفس بعد خراب البدن ، اعلم أن هذا الجوهر الذي هو الإنسان في الحقيقة ، لا يفنى بعد الموت ، ولا يبلى بعد المفارقة عن هذا البدن و مدبره و المتصرف فيه و البدن المنفصل عنه مسخر له تابع ، فإذاً لم تضر مفارقته عن هذا البدن وجوده فإن الجوهر موجود باق بعد الموت ، فإذا لا يضره وجود النفس فبقاؤه كان أولى وأحرى ، و لأن النفس من مقولة الجوهر و مفارقته من البدن من مقولة المضاف ، و الإضافة أضعف الأعراض المحتاجة إليها ، لا يتم وجودها بموضوعها بل يحتاج إلى شيء آخر وهو المضاف إليه .

ومثاله أن يكون مالكاً لشيء ومتصرفاً فيه ، فإذا بطل ذلك لم يبطل المالك ببطلانه ولهذا إن الإنسان إذا نام بطل عنه الحواس والإدراكات ، و صار ملقىً كالميت ، فالبدن النائم في حاله شبيه الموتى ، كما قال ﷺ : « النوم أخ الموت » .

ثم إن الإنسان في نومه يرى أشياء و يسمعها ، بل يدرك المغيب في المنامات الصادقة بحيث لا يتيسر له ذلك في اليقظة ، فذلك برهان قاطع على أن جوهر النفس غير محتاج إلى جوهر البدن بل هو يضعف بمفارقة البدن ، فإذا مات البدن و خرب تخلص جوهر النفس عن حبس البدن ، فإذا كان كاملاً بالعلم والحكمة و العمل انحدرت الأنوار الإلهية وأنوار الملائكة والملأ الأعلى على انحدار أثره إلى جبل عظيم من المغناطيس وفاضت عليه السكينة ، وحقت له الطمأنينة ، فنودي من الملأ الأعلى : « يا أيتها النفس

---

(١) في الاصلين : ليتب .

(٢) سورة الحجر : ٢٩ ، سورة ص : ٧٢ .

المطمئنّة * ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة * فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي »

الفصل الثالث في مراتب النفوس في السعادة وا لشقاوة بعد المفارقة عن البدن .

اعلم أنّ النفس الإنسانيّة لا تخلو عن ثلاثة أقسام لأنّها إمّا أن تكون كاملة في العلم والعمل ، وإمّا أن تكون ناقصة فيهما ، و إمّا أن تكون كاملة في أحدهما ناقصة في الآخر ، وهذاالقسم الثالث على ضربين : لأنّها إمّا أن تكون كاملة في العلم ناقصة في العمل و بالعكس ، فتكون أصناف النفوس بحسب القسمة الأُولى على ثلاثة أقسام كما ورد في الذكر الإلهيّ بقوله [1] « و كنتم أزواجاً ثلاثة * فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * و أصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * و السابقون السابقون * أُولئك المقرّبون » .

فنقول : أمّا الكاملون في العلم والعمل فهم السابقون ، ولهم الدرجات العلى في جنّات النعيم ، فيلتحقون من العوالم الثلاثة بعالم العقول ، و ينتزّهون عن أن يقارنوا الأجسام ونفوس الأفلاك مع جلالة قدرها . فقوله تعالى هم السّابقون الّذين هم في الدرجة العليا .

و أمّا أصحاب اليمين فهم في الدرجة الوسطى ، فهم يرتقون عن عالم الاستحاله ، ويتّصلون بنفوس الأفلاك ، ويتطهّرون عن دنس عالم العناصر ، ويخلّدون في النعيم الّذي خلقه الله في السماوات والحور العين وألوان الأطعمة اللّذيذة ، وألحان الطيور الّتي تقصر أوصاف الواصفين عن ذكرها وشرحها ، كماقال ﷺ حكايةعن الله تعالى : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » فهذه مرتبة المتوسّطين من الناس ، ولا يبعد أن يتمادى أمرهم إلى أن يستعدّوا للفوز بالوصول إلى الدرجة العليا ، فينعّمون في اللذّات الحقيقيّة ، و اصلين إلى السابقين ، والناس بعد انقضاء دهر يأتي عليهم ، فهذه مرتبة أصحاب اليمين .

و أمّا أصحاب الشمال فهم النازلون في المرتبة السفلى ، فهم المنغمسون في ظلمات الطبيعة ، المنكوسون في قعر الأجرام العنصريّة ، المسجونون في دار البوار جهنّم

---

(١) سورة الواقعة ٧-١١ .

يصلونها فبئس القرار ، الّذين دعواهنا لك ثبوراً ، لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً و ادعوا ثبوراً كثيراً ».

فهذا شرح مراتب أحوال النفوس البشريّة بعد المفارقة عن الأجسام ، والمهاجرة إلى دار الآخرة ، و قد اتّفق على صحّته الوحى الالهيّ والرأي الحكميّ كما شرحناه والله أعلم .

خاتمة الرسالة ، في ذكر العوالم الثلاثة الّتي هي عالم العقول وعالم النفس وعالم الجسم ، وترتيب الوجود من لدن الحقّ تعالى إلى أدنى مراتب الموجودات ، على الترتيب النازل من عنده تعالى فنقول وبالله التوفيق :

إنّ أوّل ماخلق الله تعالى جوهر روحانيّ هو نور محض لافي جسم ولا في مادّة ، درّاك لذاته ولخالقه تعالى ، وهو عقل محض ، وقد اتّفق على صحّته الحكماء الإلهيّون والأنبياء عليهم السلام ـ كما قال نبيّنا صلى الله عليه وآله (١) : « أوّل ما خلق الله تعالى العقل فقال له : أقبل فأقبل ثمّ قال له : أدبر فأدبر ، قال : فبعزّتي وجلالي ماخلقت خلقاً أعزّ عليّ منك فبك أُعطي وبك آخذ ، وبك أُثيب و بك أُعاقب » فنقول : إنّ هذا العقل له ثلاث تعقّلات : الأوّل أنّه يعقل خلقه ، والثاني أنّه يعقل ذاته واجبة بالأوّل تعالى ، والثالث يعقل كونه ممكناً لذاته ، فيحصل من تعقّل خالقه عقل آخر بحصول مزاجه من مزاج آخر ، وحصل من تعقّل ذاته واجبة بالأوّل ، ثمّ نفس هو أيضاً جوهر روحانيّ كالعقل إلّا أنّه في المرتبة دونه ، وحصل من تعلّق ذاته ممكنة لذاته جوهر جسمانيّ هو الفلك ، وهو العرش العظيم بلسان أهل الشرع ، فتعلّقت تلك النفس بذلك الجسم فتلك هي النفس الكلّيّة المحرّكة للفلك الأقصى كما تحرّك روحنا جسمنا ، وتلك الحركة شوقيّة ، بها تتحرّك النفس الكلّيّة الفلكيّة شوقاً و عشقاً إلى العقل الأوّل الّذي هو المخلوق الأوّل ، فصار العقل الأوّل عقلاً للعقل الثاني ، والعقل الثاني عقلاً للفلك الأقصى مطالعاً له .

ثمّ حصل من العقل الثاني عقل و نفس وجسم ، فالجسم هو الفلك الثاني وهو فلك الثوابت فهو المسمّى بالكرسيّ بلسان أهل الشرع ، وتعلّقت النفس الثانية بهذا الفلك وهكذا

(١) روى مثلها في اصول الكافي (١ : ٣) وبها افتتاح الكتاب .

حصل من العقل الثالث عقل ونفس و فلك ، و هو فلك زحل ، والنفس نفس زحل ، ثمّ حصل من العقل الرابع عقل و نفس و فلك و هو فلك المشتري و النفس نفس المشتري ، ثمّ حصل من العقل الخامس عقل و نفس و فلك ، و هو فلك المرّيخ و النفس نفس المرّيخ و حصل من العقل السادس عقل و نفس و فلك ، هو فلك الشمس و النفس نفس الشمس ثمّ حصل من العقل السابع عقل ونفس و فلك ، وهو فلك الزهرة و النفس نفس الزهرة ثمّ حصل من العقل الثامن عقل ونفس وفلك ، هو فلك عطارد والنفس نفس عطارد . ثمّ حصل من العقل التاسع عقل و نفس وفلك ، هو فلك القمر والنفس نفس القمر . ثمّ حصل من العقل العاشر عقل هو عقل العالم العنصريّ ، وهو من السطح المقعّر لفلك القمر إلى مركز الأرض .

والعناصر : الماء والهواء والنار والأرض ، وحصلت المواليد الثلاثة : المعادن والنبات والحيوان . و أكملها الإنسان الّذي هو أكمل الموجودات السفليّة و هو بنفسه يشبه الملائكة ، و يمكن أن يبقي بقاء السرمد إذا تشبّه بالملائكة في العلم والعمل ، ويصير هو أيضاً أخسّ من البهائم إذا اتّصف بأخلاقها ، وأخلد إلى الأرض واتّبع هواه و كان أمره فرطاً ، وأمّا إذا تنزّه عن طرفي الإفراط والتفريط في الأخلاق ، وتوسّط بينهما فلاشغباً ولا خاملاً في القوّة الشهويّة ، ولا يكون مقهوراً ولا جباناً بل يكون شجاعاً وهو تحت القوّة الغضبيّة فإنّ الشجاعة توسّط بين التهوّر والجبانة ، و كذلك يكون له حسن المعيشة وحسن التدبير بينه وبين الناس إمّا بحسب منزله الخاصّ به وهو حكم المعيشة بين الزوج وزوجته وأتباعه وولده ومالك ومملوك ، أو بحسب أهل بلده في المعاملات ، أو في السياسات إن كان له رتبة السياسة ، و هذه الحكمة بين تدبير نفسه وغيره دون البلاهة والحماقة والرعونة وهذه الحكمة غير الحكمة الّتي هي العلم بالحقائق ، فإنّ تلك الحكمة كلّما كانت أشدّ إفراطاً كانت أحسن ، و هذه الحكمة لا ينبغي أن تكون بالافراط و إلّا كانت غريزة ولا بالتفريط وإلّا كانت بلاهة .

و هذه الخصال الثلاثة أعني العفّة والسخاوة والشجاعة وهي الّتي تسمّى عدالة ،

وهي مجموع هذه الثلاثة ، فمن اتّصف بها و كان أيضاً حكيماً بالحكمة النظريّة الّتي هي العلم بحقائق الأشياء فقد صار كاملاً في العلم والعمل ، وصار من جملة من قيل في حقّهم[1] « والسّابقون السّابقون * أُولئك المقرّبون * في جنّات النعيم » .

فإن قلت : و هل يمكن أن توجد الحكمة بحدّ لايمكن أن يكون أقلّ منها حتّى تستعدّ النفس لتلك السعادة فتكون من السابقين المذكورين .

قلت: يمكن ذلك التحديد بالتقريب، فنقول : ينبغي أن يكون عالماً بواجب الوجود تعالى ، وصفات جلاله ونعوت كماله ، وينزّهه عن التشبّه ، وهو أنّه لايشبهه شيء ولا يشبهشيئاً ، ولايتصوّرعنايته بالمخلوقات ، وأحاطةعلمه بالكائنات ، وشمول قدرته على جميع المقدورات ، ثمّ يعلم أنّ الوجود يبتدىء من عنده ، صائراً إلى الجواهر العقليّة ، ثمّ إلى النفوس الروحانيّة الفلكيّة ، ثمّ إلى الأجسام العالية السماويّة ثمّ إلى الأجسام العنصريّة ومركّباتها من المعادن والنبات والحيوان ، ثمّ يتصوّر جوهر النفس الإنسانيّة وأوصافها ثمّ إنّها ليست بجسم ولا جسمانيّ ، وإنّها باقية بعد فناء البدن ، إمّا منعّمة و إمّا معذّبة. فهذا القدروالعلم بجمله ومفصّله هوالقدر الّذي إذا حصل للإنسان استعدّ بالسعادة الّتي شرحناها لها ، أعني سعادة السابقين المقرّبين الكاملين ، و بقدر ما ينتقص من علمه و عمله ينقص من درجاته وقربه من الله تعالى .

وأمّاالّذين قد انحطّت درجتهم عن درجة هؤلاء الكاملين علماً وعملاً وهم المتوسّطون فيكونون إمّا كاملين في العلم دون العمل ، وإمّا بالعكس ، فإنّهم يكونون محجوبين عن العالم العلويّ هنيئة ، ثمّ تنفسخ عنهم تلك الهيئة الظلمانيّة بتلك الرديئة الّتي كانوا يعملونها في حياتهم الدّنيا ، و تطرقهم الهيئة النوريّة قليلاً قليلاً ، فيلحقون إلى عالم القدس والطهارة ، و يلحقون بهؤلاء السابقين .

و أمّا الكاملون في العمل دون العلم ، ونسبة المتوسّطين وهم المتزهّدون من أهل الشرائع ، الّذين يعملون الصالحات ، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ، و يتّبعون الأنبياء عليهم السلام فيما أمروا ونهوا عنه ، لايكون لهم زيادة حظّ من حقائق العلوم ، ولا يعرفون

(١) سورة الواقعة : ١٠-١٢ .

أسرارها ، ولاأسرار التنزيلات الإلهيّة و تأويلاتها ، وهم إذا تخلّصوا عن أبدانهم انجذبت نفوسهم إلى نفوس الأفلاك ، وعرجوا إلى السماوات ، فشاهدوا جميع ماقيل لهم في الدّنيا في غاية الشرف والرتبة ، ويلبسون فيها ثياباً من سندس وإستبرق ، وحلّوا أساور من فضّة متّكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، ولا يبعد أن يقصر فيهم الأمر إلى أن يرتقوا إلى العالم العلويّ و السفر الإلهيّ ، فينغمسون في اللّذّات الحقيقيّة الّتي لايمكن أن يشرحها بيان ، ولا يكشف عنها مقام ، ولا يوازي بها حال .

و إذ قد وصلنا إلى هذا المقام و كشفنا هذه الأسرار الّتي عميت عنها أكثر الناس، و غفلوا عن أنفسهم و إخوانهم على الحقيقة ، فلنكتف بهذا القدر من الاستبصار للطالبين المسترشدين .

تمّت الرسالة في معرفة النفس الّتي هي مفتاح معرفة الربّ و الحمد لله وحده .

واعلم بأنّ فصول هذه الرسالة الّتي صنّفها الرئيس أبوعليّ ـ رحمه الله ـ قد ذكرها مجملة صاحب إخوان الصفاء ، و ذكرتها من الكتاب المذكور في ما سبق ذكره قبل هذه الرسالة ، إلّا إنّ هذه مفصّلة أحسن تفصيل ، و أبهى تمثيل ، فلهذا كرّرت في هذه الخاتمة ، نسأل الله سبحانه حسن الخاتمة لنا و لإخواننا المؤمنين إنّه وليّ ذلك و القادر عليه .

واعلم أيّها الأخ أنّ مثل صاحب هذه الرسالة المجموعة في آداب النفس مع طالبي العلم كمثل جواد له بستان ، فيه من كلّ الثمرات والفواكه رطباً ويابساً ممّا تشتهيه الأنفس، فنادى في الناس : هلمّوا وادخلوا هذا البستان ، و كلوا ما شئتم من كل الثّمرات ، فلم يجبه أحد ، وما صدّ قوة في قوله هذا ، بل ربّما ظنّوا به ظنوناً سيّئة ، فرأى من الرأي هذا الحكيم أن يقف على باب البستان ، فكلّ من مرّ به شهّاه في بستانه ، و أطعمه منه ما يشتهيه حتّى أن علم علماً يقيناً أنّه وقف عليهم جميع ما في البستان ثمّ قال له عندذلك : ادخل البستان فكل منه ما شئت رغداً .

و هكذا ينبغي لمن حصلت عنده هذه الرسالة أن لايعرضها إلّا على طالبي العلم كيف كان ، ومحبّي الحكم ، ومن يريد أن يداوي نفسه من أمراضها فإذا وجد مسترشداً

دفع إليه ماينفعه من هذه الأدوية مايقرب من فهمه ، حتّى إذا تمكّنت الحكمة من نفسه طلب عند ذلك كلّ مسترشد راغب في علاج أمراضه ، فيكون طلبه لمداواة المرضى حينئذ قربة إلى الله عزّ اسمه ، وما عنده من جزيل الثواب ، ليبارك في العالم أو المتعلّم والمتأدّب ، ويتأدّب بقوله ﷺ [1] « قوام الدين بأربعة : عالم مستعمل علمه ، وجاهل لايستنكف أن يتعلّم ، وغنيّ لايبخل بمعروفه ، وفقير لايبيع آخرته بدنياه . فإذا منع العالم علمه ، واستنكف الجاهل أن يتعلّم ، وبخل الغنيّ بمعروفه ، وباع الفقير آخرته بدنياه فالويل لهم سبعين مرّة » .

وأُعيذك أيّتها الأخ أن تكون بهذه الأوصاف في حال الإفادة و الاستفادة والتعليم والتعلّم ، بل كن طالباً للآخرة ورضاالله تعالى والإخلاص لوجه الله تعالى ، فإنّما الدنيا دار فناء وعناء وتغيّر وتحيّر ، أعانك الله و إيّانا وجميع إخواننا إنّه على ما يشاء قدير و بالإجابة جدير .

واعلم أيّتها الأخ أنّا لمّا رأيناك مهيّأً لقبول الفوائد العلميّة ، والصنائع العمليّة ، واسع النفس الناطقة لقبول الفوائد العقليّة ، والذخائر العلميّة الربّانيّة ، زاهداً في الدنيا قليل الرغبة فيها ، متهاوناً بما لايهمّك منها من لذّاتها ومحبوباتها ، منصرفاً منزّهاً عن شهواتها ، مترفّعاً عن مزلّاتها ، قانعاً باليسير من أقواتها ، منصرفاً بعنايتك كلّها إلى إصلاح نفسك الزكيّة ، وروحك الطاهر المضيء ، تنتقل من بلد إلى بلد ، ومن بقعة إلى بقعة ، طالباً للعلم ، مشتملاً بُرد الحلم ، حسن العبادة ، كامل الزهادة بأخلاق رضيّة ، وآداب ملكيّة ، ونفس أبيّة ، وصورة جميلة ، وخلقة معتدلة ، وآلة كاملة ، وذهن صاف ، وخاطر مدرك ، وقلب خاشع ، وطرف دامع . وتأمّلناك تأمّل من حقّق فيك ظنّه ، وصدقته عنك فراسته ، لمّا استجلاك الله بنوره الّذي أودعه فيك ، تنظر به إلى مخلوقاته ، وتحسن به قراءة آياته ، كما قال النبيّ ﷺ [2] : « المؤمن ينظر بنور الله عزّ وجلّ » وقال الله سبحانه [3] « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » .

(١) الخصال (١ : ٩٢) .
(٢) النهاية لابن الأثير مادة (فرس) .
(٣) سورة الحديد : ١٢ .

و لمّا نظرنا بهذا النور الموهوب لك المجعول أوّلاً في إبراهيم عليه السلام حتّى رئي ملكوت السماوات والأرض ، وصار وراثة في ولده ينتقل في ذرّيته ، الّذين اتّبعوه كما قال [1] : « فمن تبعني فإنّه منّي ومن عصاني فإنّك غفور رحيم » .

ولمّا رأيناك بهذه الرؤية الصادقة بعد اجتهادك وحرصك على الوصول إلينا و شدّة الطلب لنا ، وخلاصك من دياجي ظلمات الجور ، وغلبة الشياطين ، و كثرة أعوان الظالمين وخمول الحقّ وأهله ، وانقطاع طرقه وسبله ، و كنت بين أهل زمانك كقادح زناد في ليلة ظلماء ذات رياح عاصفة ، وظلمات متراكمة ، وأهوية باردة ، تريد الاستضاءة بنوره في طريق فقدت أدلّتها ، واندرست معالمها ، وذهبت دلائلها ، فلم يبق فيها إلّا طرق وعرة ، و علامات داثرة ، يصعب السلوك فيها ، والقصد إليها إلّا على أصحاب اقتفاء الآثار الخفيّة ، بمعرفه قد سبقت عندهم بها ، و علامات و صفت لهم ، و خفيت على الّذين يريدون إطفاء نور الله بأفواههم ، بذهابهم بها و إزالتها ، لترتفع حجّة الله من أرضه ، وتنمحي آثار حكمته .

فلمّا أورت لك الزناد بنوره دلّك الدليل بظهوره حتّى وصلت إلى بقعة من بقاع الجنّة ، و روضة من رياض الأرض ، بل روضة من رياض الجنّة ، و هو مشهد مولانا و سيّدنا ، ثامن الأئمّة ، وسراج الأمّة عليّ بن موسى الرضا ، عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام .

فلمّا وصلت - أيّها الأخ السعيد - إلى زيارة الإمام الضامن ، و اطّلعنا عليك و امتحنّاك بحيث رأيناك كما يجب علينا أن نمتحن مثلك ، ممّن يصل إلينا و يرد علينا فرأيناك صابراً ، نعم العبد لله سبحانه ، فإذا صرت من حيث سرت من بلدك إلى ههنا ، فينبغي لك أن تبني لنفسك داراً من القناعة ، وشيّدْ بنيانها ، وارفع حيطانها ، واجعل بابها من الزهادة ، وحاجبك عليها من الفقر ، واجعل غطاءك ووطاءك ترك القينة ، إلّا ما تسدّ به الجوعة وتستر به العورة .

واعلم أنّك إذا سكنت هذه الدار أمنت من قطّاع الطريق و اللصوص و مصادرة السلطان ، وحسد الإخوان ، وقلّ جارك ، وبعد على الناس مزارك .

---

(١) سورة ابراهيم : ٣٦ .

فإذا بنيت هذه الدار على هذه الأركان فليكن مقامك فيها على خوف و وجل من التواني عن شيء من إقامة السياسة النفسانيّة ومن التغافل عن الديانات الشرعيّة. وليكن مقعدك من هذه الدّار في صدرها ، بعد إحكامك جميع أمرها ، فأمّا السياسة النفسانيّة فتكون أخلاقك رضيّة وعاداتك جميلة ، وأفعالك مستقيمة ، تؤدّي الأمانة إلى أهلها كائناً من كان من وليّ أوعدوّ ، و تعوّد نفسك عمل الخير لأنّه خير ، لاتريد بفعلك عوضاً ، ولا يحملك على فعله خوف ، فمتى عملت الخير لطلب المكافاة عليه لم يكن خيراً ، فإن لم تطلب المكافاة و إنّما أردت الذكر و الاسم كنت أيضاً منافقاً ولم يكن خيراً ، و المنافق ذو الوجهين غير مستأهل لمساكنة الروحانيّين ، وتريد للغير ماتريد لنفسك .

وقد وجد في كلام بعض الناس أنّ المؤمن لايكون مؤمناً حتّى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه . وليس هذا من جيّد الكلام ، و إنّما قال النبيّ صلى الله عليه وآله [1] : « أنّ المؤمن لا يكون مؤمناً حتّى يرضى لغيره مايرضى لنفسه » و هذا من شريف الكلام فسبيلك أن تعوّد نفسك بحفظها و تراعي حقّ من استرعاك حقّه ، و تحسن مجاورة جارك ، و تصفي مودّة صديقك ، وتخلص المحبّة لمحبّك مع قلّة الطمع .

✡(حديث محاسبة النفس بحذف السند)✡

عن حفص بن غياث [1] قال قال أبوعبد الله عليه السلام : « إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربّه شيئاً إلّا أعطاه فليأس من الناس كلّهم . ولا يكون له رجاء إلّا من عند الله جلّ ذكره ، فإذا علم الله ذلك من قلبه لم يسأله شيئاً إلّا أعطاه ، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها ، فإنّ للقيامة خمسين موقفاً كلّ موقف مقام ألف سنة ، ثمّ تلا « مقداره خمسين ألف سنة » .

ولقد صنّف الكفعميّ رحمه الله رسالة في محاسبة النفس اللّوامة مختصرة مفيدة جيّدة بأسلوب حسن مخاطباً لها « يانفس يانفس » إلى آخرها فمن أراد أن يحاسب نفسه فليقف عليها فإنّها تجاوزت الغاية .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « النفس على ستّة أقسام : الأوّل النفس الأمّارة ، الثاني

---

(١) بعبارات مختلفة في باب « انصاف الناس » .

(٢) انظر تفسير البرهان (٤ ٣٨٣٠) ذيل الاية ٤ سورة المعارج .

النفس اللوّامة ، الثالث النفس المطمئنّة ، الرابع النفس الملهمة ، الخامس النفس الراضية السادس النفس المرضيّة ، أمّا النفس الأمّارة فخاصيّتها بخل و حرص و كبر و حسد و غضب ، وأمّا النفس اللوّامة فخاصيّتها هوس ومكر وعجب و عشرة وتمنّ و قهر ، و أمّا النفس المطمئنّة فخاصيّتها كرامة وزهد وإخلاص وتضرّع ورياضة[1] وأمّا النفس المرضيّة فخاصيّتها خُلق وخوف ويقين وتلطّف وتقرّب وتفكّر وصفاء » .

روى عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله في قوله تعالى[2]: « لا يملكون الشفاعة إلّا من اتّخذ عند الرحمن عهداً » إذا كان يوم القيامة نادى منادمن قبل العرش : ألا من كان له قبلي حقّ أو له عندي عهد فليدخل الجنّة بلا حساب و عذاب ، قيل : يا رسول الله وما العهد ؟ قال : بسم الله الرحمن الرحيم « اللّهمّ فاطر السماوات و الأرض عالم الغيب و الشهادة ،الرحمن الرّحيم ، إنّي أعهد إليك في هذه الحياة الدّنيا أنّك أنت الله لا إله إلّا أنت ، وحدك لاشريك لك ، وأنّ محمّداً عبدك و رسولك ، وأنّ عليّاً وليّك و صفيّك ، اللّهمّ لاتكلنا إلى أنفسنا طرفة عين فتقرّبنا من الشرّ وتباعدنا من الخير ،فإنّا لانثق إلّا برحمتك ، و اجعل لنا ذلك عندك عهداً تردّ إلينا يوم نلقاك ، إنّك مولانا لا تخلف الميعاد» ذكره ابن بابويه في اختياره . الخ .

و رأيت في بعض نسخ حواشي المصباح أنّ هذا الدعاء يسمّى دعاء العهد وأنّ من كتبه يوم الأحد و دخل على سلطان قضيت حاجته ، وفي الاثنين من كتبه وحمله في سفره ربحت تجارته ، وفي الثلثاء من كتبه وحمله وطلب التزويج من قوم زوّجوه ، و في الأربعاء إذا كتبه المحبوس وحمله أُطلق ، وفي الخميس من كتبه عند طلوع الشمس وحمله و خاصم قهر خصمه ، وفي الجمعة من كتبه وعلق على دكّان كثر ذيونه[3] و في السبت من كتبه وعلّقه على أحد المتخاصمين اصطلحا بإذن الله .

---

(١) بالهامش «النفس الراضية سقطت من قلم الناسخ » .

(٢) سورة مريم : ٨٨ .

(٣) اى من يراجعه ويشترى عنه .

وفي الأدعية المأثورة عن أئمتنا عليهم السلام و رد كثير مثل هذا التضرع والالتجاء إلى الله سبحانه من شر النفس ، خصوصاً ماورد عن زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام كل ذلك تعليماً للأمة وترغيباً لهم في تحصيل الثواب ، و النجاة من أليم العذاب ، و تحريصاً لهم على تأديب هذه النفس اللوامة ، وتنبيهاً لهذه الرمة النوامة .

و إنما ذكرت هذا العهد لكثرة فضله على غيره من الأدعية ، و لشدة احتياجنا إليه نسأل الله سبحانه أن يجعله لنا عهداً مذكوراً و كنزاً مذخوراً إنه ولي ذلك و القادر عليه .

و اعلم أن معرفة النفس من المهمات لأنه يترتب عليها التكليف و المعاد و غير ذلك ، و لهذا قال النبي صلى الله عليه وآله (١) : « من عرف نفسه عرف ربه » ذكر في توجيه هذا الخبر وجوه :

أحدها أن من عرف أن نفسه حادثة عرف أن ربه ليس بحادث بل قديم ، لأن الصانع غير المصنوع ، ومن عرف نفسه أنها محتاجة عرف ربه أنه غني ، ومن عرف نفسه أنها ممكنة عرف أن ربه واجب الوجود . إلى غير ذلك وقد مر سابقاً .

ثانيها أن من عرف نفسه أنها ليست بجسم ولا عرض ولافي مكان ولا في جهة،عرف أن ربه كذلك ، ومن عرف أن نفسه قادرة وعالمة وحية ومريدة وكارهة و سميعةوبصيرة و متكلمة عرف أن ربه كذلك ، لأن صفات النفس إنما حصلت من الله ، فالله جل جلاله بذلك أولى .

ثالثها أن من عرف أن البدن لايتحرك إلا بإرادة النفس عرف أن جملة العالم و هو الفلك الأعظم بتوابعه لايتحرك إلا بإرادة الله تعالى .

والحاصل،ينبغي لكل عاقل أن يسلط عقله على نفسه وهواها ، ولا يغتر بما يعتاده الإنسان من الأفعال الحميدة التي لا تنفك عن آفات مهلكة ، كما روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال :

« إذا رأيتم الرجل قد حسن سمته وهديته ، و تخاضع في حركاته ، و تساكن في

(١) سبق تخريجه ص ٢١٢ .

منطقه ، وتطامن في شخصه ، وشمّر من ثوبه ، و قصّر من خطوته ، فرويداً لا يغرّنكم ، فإنّ كثيراً من يفعل ذلك لضؤولة شخصه ، وقصر همّته ، فينصب الدين فخّاً للدنيا يستجذب به حطامها .

فإن وجدتموه يزهد في مال حرام وإن كثر ، و يرغب في مال حلال و إن نزر ، فرويداً لا يغرّنكم حتّى تنظروا كيف حبّه الدّنيا وزينتها ، وزخارفها وشهواتها ، لأنّ كثيراً من يترك ذلك كلّه ، ثمّ يحمل نفسه على شوهاء قبيحة ، فيأتي منها محرّماً ، فإنّ شهوات الخلق مختلفة .

فإن وجدتموه لا يرغب في الدنيا ، ولا زينتها ولا في زخارفها ولا في شهواتها فرويداً لا يغرّنكم حتّى تنظروا كيف حبّه للرياسة الباطلة ، حتّى إذا قيل له : اتّق الله أخذته العزّة بالإثم ، فحسبه جهنّم ولبئس المهاد .

فإن و جدتموه يشنأ السمعة ولا يحبّ الرفعة ولا يحبّ الرياسة بالباطل فرويداً لا يغرّنكم حتّى تنظروا ما ذا عقد عليه عقله ، فإنّ كثيراً ممّن ترك ذلك ثمّ لا يرجع إلى عقل متين ، ولا رأي سديد ، ولا حكم رشيد فيكون ما يفسده أكثر ممّا يصلحه بفعله .

فإن وجدتموه يرجع إلى عقل متين ، و رأي سديد ، و حكم رشيد ، فرويداً لا يغرّنكم حتّى تنظروا مع هواه يكون على عقله ، أم مع عقله يكون على هواه . فإن وجدتموه مع هواه على عقله فعنه فانفروا ومن جهته فلا تقربوا ، وبه إلى ربّكم فلا ترغبوا ، وإن وجدتموه مع عقله على هواه فذلكم الرجل ، نعم الرجل ، كلّ الرجل ، فبه تمسّكوا وبسنّته فاقتدوا ، وبه إلى ربّكم فارغبوا ، فإنّه والله لن يدخلكم في ردى ، ولن يخرجكم عن الهدى ، صدق عليه السلام .

قال هرمس : إنّي تأمّلت اللذّات كلّها ، فلن أجد اللذّة إلّا من ثلاثة أشياء و هي : الأمن والعلم والغنى ، فمن طلب العلم فليذهب إلى معنى التوحيد ، فإنّ بالتوحيد يكون المعرفة والعلم والتحقيق ، وبالإشراك يكون الكفر والجهل والشكّ ، و من طلب الغنى فليذهب إلى رتبة القنوع ، فحيث لا قنوع فلا غنى ، ومن طلب الأمن فليعتقد التمنّي لمفارقة

عالم الطبيعة ، وهو الموت الطبيعيّ .

يا نفس ! مادمت في عالم الطبيعة فاحذري حالتان وهما النساء والمكر ، فالواقع في مصائد النساء كالطائر الواقع في كف صبيّ لاعقل له ، فالصبيّ يلهو به ويفرح ، والطائر في خلال ذلك يتجرّع غصص الموت ، ويلقى أنواع العذاب . والمكر يجعل النفس كسفينة المال في تيّار الماء وأمواجه ، وليس فيها ملّاح يدبّرها ، كذلك النفس إذا فارقت العقل جرت الطبيعة بها جرياناً هائماً ، لاترتيب له ولا نظام فهلكت .

قال أرسطاطاليس: السعادة ثلاثة . [إمّا] سعادة في النفس وهي المعرفة والحكمة و الشجاعة و الفقه و العفّة ، وإمّا في البدن وهي الصحّة و القوّة و الجمال ، وإمّا خارج البدن والنفس وهي المال والجاه و الحسب .

وقال الشيخ اليونانيّ : النفس جوهر كريم شريف يشبه دائرة قد دارت على مركزها غير أنّها دائرة لا بعد لها ومركزها هو العقل و كذلك العقل دائرة استدارت على مركزها وهو الخير الأوّل المحض ، غير أنّ النفس و العقل و إن كانا دائرتين ، لكن دائرة العقل لا تتحرّك أبداً ، بل هي ساكنة دائبة شبيهة بمركزها .

وأمّا دائرة النفس فإنّها تتحرّك على مركزها وهو العقل حركة الاستكمال ، وعلى أنّ العقل وإن كانت دائرته شبيهة بمركزها ، لكنّها تتحرّك حركة الاشتياق ، لأنّها تشتاق إلى مركزها و هو الخير الأوّل .

وأمّا دائرة العالم السفليّ فإنّها دائرة تدور حول النفس ، وإليها تشتاق ، و إنّما يتحرّك بهذه الحركة الذاتيّة شوقاً إلى النفس كشوق النفس إلى العقل و شوق العقل إلى الخير الأوّل المحض ، ولانّ دائرة هذا العالم جرم والجرم يشتاق إلى الشيء الخارج منه ، ويحرص على أنّ يصير إليه فيعانقه فلذلك الجرم الأقصى الشريف حركة مستديرة لأنّه يطلب النفس من جميع النواحي لينالها فيستريح إليها ويسكن عندها .

وقال تاوفرسطيس : الغنى شيء يختصّ بالنفس دون الجسم ، فيشغلها عن مصالحها ، كما أنّ لذّة المأكول والمشروب شيء يختص بالجسم دون النفس .

وقال : الحكمة غنى النفس ، و المال غنى البدن ، فطلب غنى النفس أولى ، لأنّها

إذا غنيت بقيت ، والبدن إذا غنى فنى ، وغنى النفس ممدود وغنى المال محمود .

و قال أبوعليّ عبدالله ابن سينا في مقالته الخامسة : إنّ النفس الإنسانيّة جوهر ليس بجسم ولا قائم بجسم ، و إنّ إدراكها قد يكون بآلات ، وقد يكون بذاتها . و إنّها واحدة وقواها كثيرة ، وإنّها حادثة مع حدوث البدن ، وباقية بعد فناء البدن .

أمّا البرهان على أنّ النفس ليس بجسم هو أنّا نحسّ من ذاتنا إدراكاً معقولاً عن الموادّ و عوارضها أعنى الكمّ والأين والوضع .

ثمّ قال بعد كلام طويل:خصائص المعجزات ثلاثة :

خاصيّة في قوّة النفس و جوهرها ليؤثّر في الهيولى العالم بإزالة صورة أو إيجاد صورة ، وذلك أنّ الهيولى منقادة لتأثير النفوس الشريفةالمفارقة ، مطيعةلقواها السارية في العوالم ، وقد تبلغ نفس إنسانيّة في الشرف إلى حدّ يناسب تلك النفوس فتفعل فعلها ، و تقوى على ما قويت هي فتزيل جبلاً عن مكانه ، و تذيب جوهراً صلباً ، فيستحيل ماء و يجمّد جسماً سائلاً ، فيستحيل حجراً ، و نسبة هذه النفوس إلى تلك النفوس كنسبة السراج إلىالشمس ، وكما أنّ الشمس تؤثّرفي الأشياء تسخينا بالإضاءة ، كذلكالسراج يؤثر بقدره ، وأنت تعلم أنّ للنفس تأثيرات جزويّة في البدن فإذا حدثت فيالنفوس صورة الغلبة و الغضب حمي المزاج ، و احمرّ الوجه وإذا حدثت في صورة مشتهاة فيها حدثت في أوعية المنيّ حرارة مبخرة مهيّجة للريح ، حتّى تمتلىء به عروق آلة الوقاع ، فيستعدّ له و المؤثّرههنا مجرّد الصور لاغير .

والخاصّيّة الثّانية أن تصفو النفس صفاء يكون شديد الاستعداد للاتّصال بالعقل الفعّال حتّى يفيض عليها العلوم ، فإنّا قد ذكرناحال القوّة القدسيّة الّتي تحصل لبعض النفوس حتّى يستغني في أكثر أحواله عن التفكّر و التعلّم ، فالشريف البالغ منه يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار .

والخاصيّة الثالثة للقوّة المتخيّلة بأن تقوى النفس و تتّصل في اليقظة بعلم الغيب كما سبق و تحاكي المتخيّلة ما أدرك النفس بصورة جميلة و أصوات منظومة ، فترى في اليقظة ، وتسمع فتكون الصورة المحاكية للجوهر الشريف صور عجيبة في غاية الحسن ،

وهو الملك الّذي يراه النبيّ، وتكون المعارف الّتي تتّصل بالنفس من اتّصالها بالجواهر الشريفة يتمثّل بالكلام الحسن المنظوم الواقع في الحسّ المشترك فيكون مسموعاً .

قال : والنفوس وإن اتّفقت في النوع إلّا أنّها تتمايز بخواصّ ، وتختلف أفاعليها اختلافات عجيبة ، وفي الطبيعة أشكال ولاتّصالات العلويّات بالسفليّات عجائب، وجلّ جناب الحقّ أن يكون شريعة لكلّ وارد ، وإن يرد عليه إلّا واحد بعد واحد ويعدّ ممّا يشتمل عليه هذا الفنّ ضحكة للمعقّل ، وعبرة للمحصّل ، فمن سمعه فاشمأزّت عنه فليتّهم نفسه لعلّها لاتناسبه وكلّ ميسّر لما خلق له . انتهى .

واعلم أنّ النفس البشريّة جبلت على أخلاق لا تحمد جميعها ولا تذمّ كلّها ، بل الغالب على النفس الشقاوة وإن كان بعض الأخلاق محمودة و بعضها مذمومة ولهذا قيل

وما هذه الأخلاق إلّا طبائع * فمنهنّ محمود و منهنّ مذموم

ومن أراد أن تكون أخلاقه محمودة فليرُض نفسه رياضة تأديب وتدريج فما يشعر إلّا وقد استقامت له أخلاقه بعضها طبعاً و بعضها تطبّعاً لأنّ شريف الأعمال لايدرك إلّا بأشرف الخصال ، ولذلك قال الله تعالى لنبيّه ﷺ [1] : « وإنّك لعلى خلق عظيم » لأنّ النبوّة لمّا كانت أشرف مراتب الخلق بعث لها من قد حاز فضائل أشرف الأخلاق ، ولهذا ، قال ﷺ [2] : « بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق » .

إذا تقرّر ذلك فاعلم أنّ مرتبة العلم بعد مرتبة النبوّة و الإمامة هي المرتبة القصوى، لأنّ العلماء ورثة الأنبياء بل هم كالأنبياء في زماننا ، وقد أشار نبيّنا إليه صلوات الله عليه وآله بقوله : « علماء أمّتي كأنبياء بني إسرائيل » فينبغي لكلّ إنسان خصوصاً من يتّصف بالعلم أن يأخذ في إصلاح نفسه وتهذيبها في جميع أحواله ، في أفعاله و أخلاقه وأقواله ، فإنّه متى قدر على سياسة نفسه كان على سياسة غيره أقدر ، و لذلك قيل : لاينبغي لعاقل أن يطمع في طاعة غيره وطاعة نفسه ممتنعة .

أتطمع أن يطيعك قلب سعدى * و تزعم أنّ قلبك قد عصاك !

---

(١) سورة القلم : ٤ .

(٢) سبق تخريجه في الجزء الاول ص٥ .

وقد تزيّن نفس الإنسان حسن الظنّ بها ، فيعتقد أنّه متّصف بمحاسن الأخلاق، فيعرض عن تفقّد أحوال نفسه ، ويرضى بكلّ ما صدر عنه من غير رعاية لما مرّ ، فيبقى مصدوداً ومطروداً عن قرب السعادة الأبديّة ، والفوزباللذّة السرمديّة ، فيكون ممّن زيّن له سوء عمله فرآه حسناً ، فيصير عقله لهواه مرتهناً فلا يشعر إلّا وقد أشرف به الصلف على التلف، ومتى استظهرعلى هذه الحالة من مبدء أمره فقطعها ، واجتبّ عروقها وقلعها انقلبت أخلاقه الذميمة حميدة ، وطرائقه المتباينة سعيدة .

ولايدرك هذا الاستظهار بعين اليقين إلّا إذا أحاط علماً بأسباب التزيين ، وهي خمسة ذميمة عاقبة كلّ منها مشومة :

الأوّل الكبر وهو جالب لسخط الله تعالى قال الله تبارك وتعالى[1]: « كذلك يطبع الله على كلّ قلب متكبّر جبّار » وقال النبيّ ﷺ حاكياً عن الله تعالى « الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما أدخلته النار » وفي رواية أخرى « فمن نازعني شيئاً منهما قصمته» ومعنى الكبرياء الترفّع عن الانقياد لغيره ، واحتياج الخلق إليه واستغناؤه عنهم ، ومعنى العظمة شرف الذات ، و علوّ الرتبة ، والمعنى أن هذين الوصفين مختصّان به تعالى فلا يليق لأحد من خلقه تعاطي شيئاً منهما ، كما لايشرك الإنسان فيما لابسه من الإزار و الرداء أحد ، و قال ﷺ : « لا يدخل الجنّة من في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر » .

الثاني العجب وهو من المهلكات قال تعالى[2]: « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم» الآية ، وقال عليه السلام[3]: « ثلاث مهلكات : شحّ مطاع وهوى متّبع وإعجاب المرء بنفسه» و الكبر ينشأ من رؤية النفس ، واعتقاد عظم المنزلة ، وعلوّ المكانة ، ونفاد الأمر ، وقلّة رؤية الأمثال والأكفاء ، فيكون سبب الكبر حضور أوائل هذه الأشياء في النفس ، فإن أصرّ

---

(١) سورة المؤمن : ٣٥ وانظر في الكبر ماسبق في الفصل ١٣ من الجزء الاول .

(٢) » البقرة : ٢٦ .

(٣) سبق تخريجه من الخصال (١ : ٤٢) .

عليها كان مستكبراً و لهذا قال تعالى في حقّ إبليس لعنه الله [١] : « فسجدوا إلّا إبليس أبى و استكبر» نعوذ بالله من العجب ، فانظر كيف صار كبراً وتكبّراً و استكباراً .

واعلم أنّ العجب ينشأ من اعتقاد رجحان الصفات النفسانيّة ، فلا يتوهّم أنّ لغيره كمالاً مثل كما له بل فضلاً عليه ، فيصوّب بذلك المقت إليه ، و يحتقب ما يورث الندامة يوم يعضّ الظالم على يديه .

الثالث الغرور وهي مطيّة العطب ، وحقيقته أن يرى الأحوال في مباديها منتظمة و الأمور على وفق المراد ملتئمه ، فيظنّ اطّراد هذه الأحوال ، وأنّها مستمرّة مدى الأيّام و الليالي ، فيغترّ بذلك ، فيهمل التأهّب والاستعداد فتهجم عليه حوادث الخلل والفساد وأعظم موادّ هذه العلّة مدح المنافقين ، وتقرّب المتملّقين الّذين اتّخذوا النفاق والكذب وسيلة ، وجعلوا المكر و الخداع في ذلك أحبولة و حيلة ، فمتى وجدوا لنفاقهم نفاقاً وسوقاً ولكذبهم قبولاً وتصديقاً نصبوه سلّماً إلى مرامهم ، و أقاموا المغترّ بهم عرضاً لسهامهم ، فينبغي لمن فضّله الله بالعلم أن ينتبه لمن يجعل أمره سخريّة و هزؤة ، و يحفظ منهم غاية التحفّظ ، ويعرض ماذكروه فيه على الواقع ، فإن كان حقّاً حمدالله وأثنى عليه ، وإن كان كذباً زجر من نافقه ولا يركن إليه .

[الرابع [٢] الشحّ المطاع ومن شؤمه أنّ الفلاح مقرون بالسلامة منه قال تعالى [٣] : « ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون » وهو من جملة المهلكات ، ويقال : الشحيح عدوّ نفسه ، ومتّهم لربّه ، ومنقبض عن صديقه ، ومبغّض في حياته ، ومنكّد في معيشته ، وشقيّ في دينه و آخرته . فهو مطرود عن مقامات الكرام ومعدود من سيّئات الأيّام ، ومقصود بسهام الملام بين الأنام ، لايسود في مدّة عمره أبداً ، ولا يقضي وطراً ، ولا يبلغ مقصدا .

الخامس الكذب و يكفي في ذمّه أنّ صاحبه ملعون مطرود عن باب الإيمان .

---

(١) سورة البقرة : ٣٤ .

(٢) من هنا سقط في النسخة (ر) .

(٣) سورة الحشر : ٩ .

قال الله تعالى [١] : « فنجعل لعنة الله على الكاذبين » و قال تعالى [٢] : « إنّما يفتري الكذب الّذين لايؤمنون » الآية ، فقد أسقط الوثوق به ووصل إليه المقت بسببه . وهوقبيح من كلّ أحد .

فهذه الخمسة يتعيّن على كلّ عاقل صون نفسه منها فإنّها أمّ النقائص ، وينبوع الرذائل والعالم أولى أن يقي نفسه الشريفة من تطرّق شيء من هذه إليها ، فإذا اجتنبها فعليه أن يتحلّى بما يزداد به مهابة ووقاراً ، ويكسبه عظمة وفخارا ، وذلك بأن لايسارع إلى اتّباع الشهوات ، وأن يتثبّت عند تعارض الشبهات ، وأن يجانب سرعة الحركات و خفّة الإشارات ، وأن يديم إطراق طرفه وملازمة صمته إلّا عند الحاجات ، فإنّ أنفاسه ملحوظة، وألفاظه محفوظة .

قيل لابي يزيد : متى يكون الرجل متواضعاً ؟ قال : إذا لم ير لنفسه حقّاً ممّا ولا حالاً من علمه بشرّها وازدرائها (كذا) ، ولا أنّ في الخلق شرّاً منه .

وقال الترمذيّ : التواضع على ضربين : الأوّل وهو أن يتواضع العبد لأمر الله تعالى و نهيه ، فإنّ النفس تستعلي في أمره ، و الشهوة الّتي تهوى في نهيه ، فإذا وضع نفسه لأمره و نهيه فهو متواضع . و الثاني أن يضع نفسه لعظمة الله ، فإن اشتهت نفسه شيئاً ممّا أُطلق له من كلّ شيء نوع من أنواع منعها ذلك بترك مشيّته لمشيّة الله تعالى .

واعلم أنّ التواضع يرفع الوضيع ، كما أنّ التكبّر يخفض الرفيع ، وقد ذكر كيفيّة التواضع في الاثنى عشريّة فمن أراد الاطّلاع عليه فليطالع الرسالة المذكورة .

سئل بعض فضلاء المعتزلة كيف تاب الله على آدم ولم يتب على إبليس مع اشتراكهما في المخالفة ؟ قيل : لأنّ إبليس أسند الإغواء والإضلال إلى الله تعالى ، لقوله [٣] : « ربّ بما أغويتني » وآدم أسند الغواية إلى نفسه فقال [٤] : « ربّنا ظلمنا أنفسنا » الآية .

---

(١) سورة النحل : ٦٢ .
(٢) » آل عمران : ٦١ .
(٣) » الحجر : ٣٩ .
(٤) » الاعراف : ٢٢ .

وقال بعض الفضلاء شعراً :

ما بال نفسي تطيل شكواها * إلى الورى وهي ترتجي الله ؟
يفسد إخلاصها شكايتها * ذلك الّذي رابها و أرادها
لو وثقت بالإله أنقذها * من كلّ ما شانها ونحّاها[1]
لو أنّها من مليكها اقتربت * و أخلصت ذكره لأدناها
لكنّها آثرت بريّته * عليه ، جهلاً منها ، فأقصاها
افتقرت للورى ، و لو لجأت * إليه من دونهم لأغناها
تشكو إلى خلقه كأنّهمُ * قد ملكوا نفعها وضرّاها
لوفوّضت أمرها لخالقها * وصحّحت شكرها وتكلاها
عوّضها من همومها فرجاً * ولم يدعها بطول غمّاها
تسخطه في رضا بريّته * تبّاً لها ما أجلّ بلواها !
لو أنّها للعباد مسخطة * مرضية ربّها ، لأرضاها
لديّ نفس أُريد أنعتها * ليعرفوا نعتها و أسماها
اسمع صفات لها لعلّك أن * تعلم ذا اللّب ـ سرّ معناها :
تسعى إلى اللهو وهو غايتها * ياويلها ! ما أضلّ مسعاها
تنظر في عيب غيرها سفهاً * وكم عيوب لها فتنساها
قد ظلمتني بسوء عشرتها * فلم تدع لي تقىً ولا جاها
كثيرة اللهوفي[2] مجالسها * قليلة الذكر في مصلاّها
قليلة الشكر عند نعمتها * ضعيفة الصبر عند بؤساها
بطيئة السعي في مصالحها * سريعة الجري في بلاياها
كثيرة المين في مواعدها * كذوبة في جميع دعواها[2]
بصيرة بالدنا و فتنتها * عميّة عن أُمور أُخراها

---

(١) شانه : عابه .

(٢) انتهاء ماسقط من النسخة (ر) .

نشيطة عند وقت لذّتها * كسلانة عند وقت ذكراها
نوّامة العين عن عبادة مَن * أتقن تصويرها وسوّاها
حليفة الكبر والرّياء فقد * أفسدها كبرها وطغياها
عظيمة المدح والثناء لمن * يرفع مقدارها وذكراها
تفرح في أكلها ومشربها * و حبّها للمنام أشقاها
ذاكرة للورى مساويهم * ناسية ما جنته كفّاها
قد ظلمتني بسوء عشرتها * ولم تدع لي تقىً ولا جاها
كم بين نفسي وبين نفس فتى * طهّرها بالتقى و زكّاها
علّمها رشدها و بصّرها * و بالحلال القليل غذّاها
أقامها في الدجى على قدم * فانهملت بالدموع عيناها
إن اشتهت شهوة توعّدها * بخوف معبودها فأثناها
و راضها بالصيام فانقمعت * بالرّغم عن غيّها وطغواها
ذاكرة للإله شاكرة * مخلصة سرّها و نجواها
أمرضها خوفها لخالقها * وذكر يوم المعاد أضناها
لله نفس امرىء موفّقة * آوت إلى ربّها فآواها
شرّفها ربّها و أكرمها * و من مياه اليقين أرواها
سمت إليه بحسن فكرتها * ثمّ صفا ودّها فأصفاها
تلك الّتي إن دعت لحاجتها * أجابها مسرعاً و لبّاها
ليست كنفسي تكون عاصية * آمرها جاهداً و أنهاها
إنّي لنفسي أبغي كرامتها * وأن تكون الجنان مأواها
كيف إلى ربّها تنيب وقد * ذلّت لشيطانها فأغواها
وهي لأمر الإله عاصية * ويل لما قد جنت و ويلاها!
وكلّما قلت: نفسي انزجري * و راقبي في أمورك الله
صمّت عن الحقّ وهي سامعة * كأنّني ما أريد إيّاها

لو علمت بعض ما له خلقت * أحزنها علمها و أبكاها
لو تعرف الله حقّ معرفة * لصحّحت برّها و تقواها
لكنّما جهلها يخالفها * أغفلها رشدها و ألهاها
ياويح نفسي! والويح حقّ لها * إن صدّها رأيها وخلاّها
تغرّها لذّة الحياة، و ما * تدري إلى ما يؤول عقباها
قد ضقت رزعاً بها وأحسبها * لم أك أعصي الآله لو لاها
إن قلت: همّي بطاعة، فترت * و أظهرت قسوة و إكراها
صرت مع النفس في مجادلة * تأمرني بالهوى و أنهاها

وقلت:

ويحك يا نفس دعي * ماعشت ذلّ الطمع
و ارضي بما جرى به * حكم القضاء و اقنعي
إيّاك و الميل إلى * شيطانك المبتدع
أو تركني إليه أو * تصغي له فتخدعي
و جانبيه و احذري * خطاه أن تتّبعي
و اقتصدي و اقتصري * كي ترتوي و تشبعي
فإن قنعت تسلمي * و إن طمعت تصرعي
كي ترشدي و تحمدي * و تسعدي و ترفعي
أين السلاطين الأُولى * من حمير و تبّع
شادوا الحصون فوق * كلّ شاهق مرتفع
و جمّعوا خزائناً * لغيرهم لم تجمع
و جنّدوا الجنود من * كلّ فتى مشبّع (١)

(١) بهامش الاصل: المشبع الذى يدعى فى نفسه ان له فضايل و محاسن و هو عادمها قال الشاعر:

كل من يدعى بما ليس فيه * فضحته شواهد الامتحان

ليمنعوا من الردى * فلم تكن لتمنع
أفناهم الموت فما * أبقى الشريف والدعيّ
و جرّعوا كأس الردى * فيالها من جرّع
لم يبق من ديارهم * غير رسوم خشّع
فهل تحسّي منهم * من أحد، أو تسمعي
كفا بذاك واعظاً * و زاجراً لمن يعي
حسبك يا نفس اقبلي * نصحي، ولا تضيّعي
إن أقبل الدهر احسني * و إن نبا تورّعي (١)
و إن رماك بالخطو * ب صرفه لا تجزعي
أو شبّثت أيدي الرزا * بابك لا تروّعي
فإنّما همُ سحابٌ * إن أضلّ يقشع
و إنّ للصنيف زما * ن ليس بالمتّسع
كذاك طبع الدهر لا * يغلب بالتطبّع
و إن دهاك حادث * إلى الإله فافزعي
و استسلمي و سلّمي * الأمر إليه و اخضعي
واحتسب الخطب به * و أبصري و أسمعي
و اعتصمي بحبله * يقيك هول المطلع
و الجي إلى الله و غير * بابه لا تقرعي

و قلت: (٢)

جاهد النفس ما استطعت جهاداً * واحذرنها فإنّها شرّ طاغي
كلّما رمتُ طاعة أو صلاحاً * أنظرتني إلى وجود الفراغ

---

(١) بهامش الاصل: قوله «نباتورعي» نبا الدهر بفلان اى بغيه حقه ولم يعطه مايرجو ويطلب.

(٢) هنا ينتهي النسخة (ر) فقد سقط من آخره ورقتان.

و قلت :

لا تحقرن قدراً لنفسك إنّها * علويّة ترقى لما هو شبهها
و النفس كالمرآة يصقلها التقى * قسراً ، ويظلم بالمعاصي وجهها

وقلت :

للنفس في الطاعات حظّ ولا * يدرك هذا غير أهل الكمال
و في المعاصي حظّها ظاهر * لكن خفي الدّاء صعب الزوال

و قلت :

ذلّل النفس بالرياضة و اترك * كلّ خلق تدبّ فيك شروره
و اجعل السرّ دائماً ذا صفاء * فبقدر الصفاء يشرق نوره

وقلت :

حلّي النفس بالفضائل و اعلم * أنّ من طبعها اكتساب الرذائل
لا ترى عالماً عن النفس يرضى * من يكن راضياً عن النفس جاهل

وقلت :

لازم نهج الصدق فما عنه مناص * إن كنت تريد من هوى النفس خلاص
أعمالك كلّها تحاكي صوراً * والروح لها وجود سرّ الإخلاص

وقال عليّ عليه السلام(١) :

صن النفس فاحملها على ما يزينها * تعش سالماً ، والقول فيك جميل
و لا ترينّ الناس إلّا تجمّلاً * تبا بك دهر أو جفاك خليل
وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غد * عسى نكبات الدهر عنك تحول
يعزّ الكريم النفس إن قلّ ماله * و يلقى اللئيم النفس و هو ذليل
ولا خير في ودّ امرىء متلوّن * إذ الريح مالت مال حيث تميل
جواد إذا استغنيت عن أخذ ماله * وعند احتمال الفقر عنك بخيل

(١) الديوان المنسوب اليه ص ٩٩ .

وما أكثر الإخوان حين تعدّهم! * ولكنّهم في النائبات قليل

وقال عليه السلام: (١)

أدّبت نفسي فلم أجد أدباً * بغير تقوى الإله من أدب
في كلّ حالاتها وإن قصرت * أفضل من صمتها عن الكذب
و ريبة الناس إنّ ريبتهم * حرّمها ذو الجلال في الكتب
لو كان من فضّة كلامك يا * نفس لكان السكوت من ذهب

و قال بعض الصلحاء وأجاد:

قرأت كتابه و عصيت أمره * وقد عرّضت نفسي للمضرّة
أتوب إليه ثمّ أعود جهلاً * فمن لي بالنجاة من المعرّة
وما أبغي سوى مال و جاه * و أهل الله قد قنعوا بكسرة
وقد ولي الشباب بغير نفع * وما استكملت أسباب المسرّة
فلا الدنيا بلغت بها الأماني * وآخرتي تركت لها مبرّة
ولي عمل عليّ به شهود * وما يسوي على التقديم ذرّة
فحا لي لا يسرّ بها صديق * ونفسي في هواها مستمرّة
ولو فكّرت في عقبى أموري * قطعت العمر بين أسىً وحسرة

ومما نسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام: (٢)

الغنى في النفوس والفقر فيها * إن تجزّت فقلّ ما يجريها
علّل النفس بالكفاف و إلّا * طلبت منك فوق ما يرضيها
ليس فيما مضى ولا في الذي لم * يأت من لذّة لمستجليها
إنّما أنت طول عمرك ما عمّرت * في الساعة التي أنت فيها

وله عليه السلام: (٣)

---

(١) الديوان ص ١٥ .
(٢) الديوان ١٤٦ .
(٣) الديوان : ٥٢ .

غنى النفس يكفي النفس حتّى يكفّها * و إن أعسرت حتّى يضرّ بها الفقر
فما عسرة - فاصبر لها إن لقيتها - * بدائمة حتّى يكون لها يسر

وقال عليه السلام: (١)

والنفس تجزع أن تكون فقيرة * والفقر خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف وإن أبت * فجميع ما في الأرض لا يكفيها (٢)

وقال عليه السلام في الوصيّة: (٣)

و محترس من نفسه خوف زلّة * تكون عليه حجّة هي ما هيا
فقلّص بُرديه و أفضى بقلبه * إلى البرّ والتقوى فنال الأمانيا
وجانب أسباب السفاهة والخنا * عفافاً و تنزيهاً فأصبح خاليا
وصان عن الفحشاء نفساً كريمة * أبت همّة إلّا العلى والمعاليا
تراه إذا ما طاش ذو الجهل والصبى * حليماً وقوراً صائن النفس هاديا
له حلمُ كهلٍ في صرامة حازم * وفي العين إن أبصرت أبصرت ساهيا
يروق صفاء الماء منه بوجهه * فأصبح منه الماء في الوجه صافيا
صبوراً على ريب الزمان وصرفه * كتوماً لأسرار الضمير مداريا
له همّة تعلو على كلّ همّة * كما قد علا البدر النجوم الدراريا

وقال عليه السلام: (٤)

إنّ المكارم أخلاق مطهّرة * فالدين أوّلها والعقل ثانيها
والعلم ثالثها ، والحلم رابعها * والجود خامسها، والصدق سادسها
والبرّ سابعها ، والصبر ثامنها * والشكر تاسعها ، واللين باقيها

---

(١) الديوان : ١٤٦ .
(٢) في الاصل « و غنى النفس في الكفاف » و الاصلاح من الديوان .
(٣) الديوان ص ١٤٥ .
(٤) الديوان ص ١٤٥ و المستطرف (١: ١٥) .

والنفس تعلم أنّني لا أُصدّقها * ولست أُرشد إلّا حين أعصيها

وقال عليه السلام :(١)

إنّي أقول لنفسي وهي ضيّقة * وقد أناخ عليها الدهر بالعجب :

صبراً على شدّة الأيّام إنّ لها * عقبى، وما الصبر إلّا عند ذي الحسب

سيفتح الله عن قرب بنافعة * فيها لمثلك راحات من العتب

وقال بعضهم :

ألا لايلام المرء في خبث نفسه * فأوّل شيء يغتذيه دم الطمث

وقال آخر :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد * ذا عفّة فلعلّة لا يظلم

فرغ من تأليفه و تسويده العبد الأقلّ **محمد بن محمد بن حسن** الشهير بابن القاسم الحسينيّ العيثانيّ العامليّ عامله الله بلطفه الخفيّ في العشر الأوّل من شهر ربيع الأوّل من شهور سنة ثمان وسبعين بعد الألف من الهجرة النبويّة ، على مشرّفها أفضل الصلاة والسلام ، و كان بالطالع القويّ الأسعد وبالحظّ الوافي الأجود إتمامه بالمشهد الرضويّ على ساكنه الصلاة والسلام .

و نختم بدعاء شريف نقل عن عدّة مشائخ لو أُقسم به على الجبال لدقّها ، أوعلى القدود لعدّها و هو : « اللهمّ ربّ السماوات الأرفعة ،وربّ الأرضين الممرعة ، وربّ محمّد والثلاثة المحاميد معه ، وربّ العليّين الأربعة ، وربّ الحسن و الحسين البرعة ، وربّ موسى وجعفر تبعه ، وربّ فاطمة البضعة ، درسة الأناجيل ، ومحاة الأباطيل ، وعدد النقباء من بني إسرائيل صلّى الله عليهم أجمعين ، واجعلنا ممّن ختمت له بالحسنى ، و دفعت عنه مكاره الأولى والعقبى ، إنّك بالإجابة جدير ، وعلى كلّ شيء قدير ، اللّهم نجّنا من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا ، واغفر لنا ذنوبنا ، وتوفّنا مع الأبرار ، والحمد لله وحده والصلاة على من لانبيّ بعده » .

---

(١) الديوان ص ١٢ .

وكان الفراغ من تسويد هذا الكتاب المبارك يوم الخميس تاسع ربيع
الاول سنة ثمان وثمانين بعد الالف من الهجرة النبوية عليه وآله
أفضل الثناء والتحية ، على يد أقل العباد محمد رحيم بن
عبدالله البجشتانى . غفرالله له ولوالديه ، ولجميع
المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين
والمسلمات، والحمد لله
رب العالمين

فهرس مافي هذا الجزء

١ـ١٣ الفصل الأوّل في الخوف والرجاء .

١٤ـ٢٦ الفصل الثاني في الفقر والجوع .

٢٧ـ٣٧ الفصل الثالث في الحرص والأمل .

٣٨ـ٦٢ الفصل الرابع في قمع الأنفس ومخالفتها في شهواتها .

٦٣ـ٧٦ الفصل الخامس في الغضب والحلم .

٧٧ـ٩٠ الفصل السادس في استصلاح نفس الإنسان .

٩١ـ١٢٠ الفصل السابع في الخير والشرّ .

١٢١ـ١٢٣ الفصل الثامن في أنّ أسباب الشرور بالعرض .

١٢٤ـ١٢٩ الفصل التاسع في كمّية أنواع الخيرات والشرور .

١٣٠ـ١٤٣ الفصل العاشر في كيفية معاشرة إخوان الصفاء .

١٤٤ـ١٩٥ الفصل الحادي عشر في ماهيّة الإيمان وخصال المؤمنين ومناماتهم

١٩٦ـ٢٣٨ الفصل الثاني عشر في آداب الدعوة إلى الله تعالى .

٢٣٩ـ٢٨٠ الخاتمة في النفس وماقيل فيها .

انجز حرّ ماوعد

حمداً لوليّ النعم ، الّذي وفّقنا لإتمام هذا السفر الكريم ، و نرجو من منّه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليه ، وتستضيء بنور ماأُودع فيه من صفو الأخلاق و الحكم ، المأخوذ من بيوت آل العصمة ، الّتي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، فقد آن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله الّذي تطمئنّ به القلوب ، ربّ اغفرلي و لوالديّ وللمؤمنين و المؤمنات يوم يقوم الحساب ، آمين !

السيد كاظم الموسوى الميامى

٢٢ شوال ١٣٨٠ هـ

Library of



Princeton University.

Princeton University Library
32101 073542910